تاريخ الزرارية

والبلاد العاملية ماضياً وحاضراً وتطلعات

تأليف

الأستاذ خليل شرف الدين







دار ومكتبة الهلال



الزرارية الخضراء والجبل المقاوم

لماذا اطلقنا على الزرارية صفة الخضراء؟

أولاً : باعتبار ما هو كائن فيها حديثا، من نهضة عمرانية وزراعية ملحوظة .

ثانياً : باعتبار ما ستكون، او ما يجب ان تكون عليه الزرارية، بإذن الله، من تشجير ساحات وشوارع ومداخل، وإقامة حديقة عامة موعودة . . وبساتين مجاورة، بدأت اليوم تظللها وتكللها من كل جانب . .

ثالثا : برمز الخضرة الدائم الذي يشير الى طاقات ابنائها المثمرة في كل حقل.

وحتى الاسم يحمل معنى : ازرار الورود واكمامها الخضراء.

فالزرارية – اذن – خضراء بواقعها المشهود، ومستقبلها الموعود .

– المؤلف –



الزرارية
والبلاد العاملية

- سجل قيم وعادات وازياء ومآكل واغان وفولكلور عاملي وزراري مميز.
- مرصد احداث وذكريات وخصوصيات عاشها المؤلف وأسهم فيها.
- معجم مفردات ومصطلحات وحكم وامثال وكنى وألقاب متداولة في المجتمع الريفي اللبناني عامة والعاملي خاصة.



الاهداء

الى

يسار مروه : اول شهيدة كتبت بدمها الزكي تاريخ الزرارية الحديث .

الى

نعمة هاشم كبير مخططي ومنفذي عمليات المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي.

الى

سائر شهداء الزرارية منذ الحريق (١٧٦٨) الى المجزرة (١٩٨٥)

الى

مغتربي الزرارية الضاربين في شتى انحاء الارض بحثا عن الكرامة حين نالوها او ماتوا دونها.

الى ـ مقيمي الزرارية علماء وادباء وشعراء وصحافيين وفعاليات.

الى ـ قلعة الصمود والصامدين والمقاومة والمقاومين : جبل عامل.

الى ـ الذين حولوا مسار بلدتهم : من الخنوع والجوع والضياع، من القهر والفقر والشتات، الى النصر والوفر واثبات الذات.

الى ـ كل هؤلاء الاحرار الابرار اهدي هذا الكتاب

على قلة غلاله ووفرة غلالهم.

ـ المؤلف ـ



المقدمة

نحن لا نقول هذه الفقرات المسجعة حبا بالسجع والجناس وما سوى ذلك من المحسنات اللفظية. . . او لاننا من ابناء الزرارية تأخذنا العاطفة فنحيل الوهم حقيقة. . لا : بل لان الزرارية كانت - واقعا - مركز اقطاع. . .

ولان الزرارية انقلبت - فعلا - منارة اشعاع. . .

ولان الزرارية اصبحت - حقا - بؤرة عطاء وداعية اصلاح وتطوير

وفوق كل هذا، لان الزرارية امست - صدقا - منطلق جهاد ورائدةَ مقاومة واستشهاد وتثوير. . فعلى بطاح هذا الساحل الافيح، تبرز الزرارية محطة كبرى من محطات النهوض الريفي، والانعتاق من النير العثماني، ثم الاقطاعي، ثم الفرنسي، ثم الاسرائيلي، ثم هذا النظام الطائفي البغيض والعشائري المقيت. . .

وستنطق الوقائع والتحولات، عبر فصول هذا الكتاب بصحة ما نقول. اذ ان التاريخ ، اي تاريخ، بدءا بتاريخ المدن وانتهاء بالقرى والدساكر، حين لا يسجل الوقائع والاحداث بعين التجرد والروح العلمية، ينقلب خطابا منبريا ذا تأثير مؤقت لا غناء فيه.

فما هي الزرارية؟ ولماذا نؤرخ لها ان لم تكن ذات قيمة خاصة وتاريخ خاص ودور مميز حين تصدى ابناؤها المجاهدون لأضخم نير اقطاعي عرفه الجنوب اللبناني. . . تصد وتحد صامتان اول الامر، عبروا عنهما، لا بالمواجهة، بل باتقاء شره بالهجرة والاغتراب. . . ثم بالعودة لمقارعته ومحو آثاره وانتزاع الاراضي والممتلكات التي اغتصبها من آبائهم واجدادهم. . انتزعها هذا العائد بالتملك الشرعي لا بالاغتصاب، او الهبات من الباب العالي، او عن طريق «التلزيم» ! ففي بلاد عاملة قرى وبلدات قد تكون أهم من الزرارية مساحة وسكانا ومالا وشهرة، لكن واقع الزرارية وتاريخها القديم والحديث نجدهما، نحن على الاقل، زاخرين بألوان فاقعة من ألوان الجهاد الصامت المتمهل. . . ثم المتفجر : رفضا وانعتاقا وغنى وحرية.

لهذا كله وجدنا مبررا، بل ضرورة لتسجيل فصول هذا الجهاد في فصول هذا الكتاب، تذكرة للاجيال وعبرة، ولتدخل الزرارية التاريخ ثم لا تخرج منه. . .

واذا كنا قد تجاوزنا تاريخ الزرارية الخاص الى تاريخ جبل عامل العام ولو باختصار فلكي لا يظن ان الزرارية واحة منعزلة تحيط بها صحراء قاحلة. . . بل لكي نؤكد انها واحة بين واحات ومنارة حولها منارات.

كان لا بد اذن من ذكر جغرافية هذا الجبل الاشم وتاريخه وتطوره ووضع مياهه وخصائص أبنائه، ومصيره ومصيرهم. لا سيما وان هذا الجبل الزاخر بالاحداث والقيم والكفاءات قد أهمل اهمالا في جميع العهود.

جاء على ظهر الغلاف الاخير لكتاب : صفحات من تاريخ جبل عامل وهو مجموعة محاضرات لمحاضرين ومؤرخين عامليين كالدكتور ابراهيم بيضون،

والعقيد الركن الدكتور ياسين سويد ومسعود ظاهر وسليمان تقي الدين ومحمد مخزوم، ما نصه : «الى عهد قريب كان الكلام في تاريخ لبنان غير مباح الا للنخبة المختارة من قبل « السلطان» وأهل بطانته. من هنا جاء الكلام عن هذا التاريخ مغايرا للحقيقة الموضوعية. جاء على قياس السلطان، فعكس موقعه الطبقي والفكري عوض ان يعكس الواقع الاجتماعي والحركة الفاعلة فيه. سواء في هذا الزمن المحدد من عمر لبنان او ذاك. . . وتبعا لذلك اقتصرت معرفة اللبناني بتاريخ بلده على الفتات الفاسد وكان اكثر المتضررين من هذا الاعتداء على تاريخ لبنان ابناء المناطق الملحقة وخاصة ابناء الجنوب ! ذلك لان الجنوب أو (جبل عامل على الاصح) لم يدخل في هموم الفكر اللبناني ولا في نظرية الكيان الا بوصفه مساحة ضرورية من الارض. . . وعبئا اساسيا من السكان. . . » الى ان يقول :« وتاريخ الماضي ليس سوى محاولة لوعي الذات في الحاضر، وصوغاً لمشروع المستقبل». هذه الذات التي تغتني بالايجابي كما تغتني بالسلبي فتتزود منهما للمواجهة في عملية الاصلاح والتطوير :

ومن وعى التاريخ في صدره		اضاف اعمارا الى عمـــره

قد يقال ان في هذا الاستطراد خروجا عن المنهج التاريخي الصارم، او الموضوعية، فنجيب : اننا نؤرخ للزرارية كرمز ومحطة - كما سبق القول - لا كبلدة معزولة لا جذور لها، ولا صلة لها بما ومن حولها. ولو فعلنا ذلك لاكتفينا بالقليل من الصفحات يكون كافيا للحديث عن وضعها وآثار اعلامها. . . ولم نكن بحاجة الى كل هذه الصفحات. . . والى سلخ سبع سنوات من عمر الكهولة اعدادا وتوثيقا وتفتيشا عن الكتب والمخطوطات للاحاطة بكل خصائص جبل عامل المسجل منه وغير المسجل، وهذه الدرة الساحلية من درره، (عنيت

الزرارية) بكل ما تزخر به من كفاءات ابنائها وخصائصهم وآثارهم، مُقَيِّمين شارحين كل كلمة، وكل مصطلح وكل عرف وكل معتقد وعادة ومثل ولهجة وزي. . . رغم الصعوبة التي واجهتنا في توفير مادة البحث في زمن هذه الحرب الاهلية المتمادية التي اكتوى بنارها الهوجاء لبنان وما زال [١] حتى اذا اطل ابن الزرارية على تاريخ بلدته، عبر هذا الكتاب أطل في الوقت نفسه على تاريخ المنطقة كلها، ولو بايجاز يغني عن التفصيل، او تفصيل لا يغني عنه الايجاز. . . ويكون هذا الكتاب، على تواضعه، قد أغناه عن كتب كثيرة في موضوعه. وأصبح جديرا بان يقرأه كل عاملي وكل لبناني بل كل عربي. وليس فقط كل زراري!

ولهذا كان العنوان الاول لهذا الكتاب : الزرارية : بلدة في جبل عامل وجبل عامل في بلدة.

واذا كان في هذا الكتاب من نقص، فعذرنا ما ذكرناه من عراقيل ومثبطات. . . وأملنا وطيد بأن الزرارية وقد اصبحت مليئة بالكفاءات، ان ينبري من بين مثقفيها من يسد هذا النقص في المقبل من الايام والسنين ان شاء الله.

قال أمين الريحاني في كتابه « النكبات» :

« اقرأوا التاريخ منزهين عن الاغراض مجردين عن الاهواء . واقرأوا التاريخ لتدركوا اللب فيه . فتنسوا اذ ذاك قريضه وقوافيه ، او تشعروا بأنه اذا كان في التاريخ فائدة ما ، فهي في هذه الدروس التي يلقيها علينا ، هي في الامثولة

---

(١) الف هذا الكتاب ونار الحرب الاهلية في لبنان ما زالت مضطرمة .

التي تعلمنا انه يجب ان نتعظ بأخطاء الماضي، هي في الامثولة التي تعلمنا انه من الاثم ان نورث ابنائنا ما ورثنا من مساوىء الماضي . هي في الامثولة التي تعلمنا انه لا يجوز ان نظل مخدرين الى الابد بسمومه، بل يجب ان نعرف الحقيقة منه كلها ، فنستنير بها اذا كانت خيرا وننبذها ونتقي امثالها اذا كانت شرا. »

صدق فيلسوف الفريكة. . . والا فما معنى أن نؤرخ لقرية أو بلدة او مدينة او بلد من البلدان، اذا رحنا نكيل المدح ونغدق من النعوت على اعلامها ومعالمها واحداثها ما ليس فيها أو هو كثير عليها، دون استخلاص العبر، وتعرية الشوائب وتلقي الدروس ثم تعليمها للأجيال. . . اننا اذا لم نفعل ذلك نرتكب اثما ـ كما يقول الريحاني ـ «حين نورث ابناءنا ما ورثناه من مساوىء الماضي ».

والزرارية. . . هل يمكننا اعتبارها احدى بؤر هذا الماضي او محطة من محطات تفاعل الاحداث في الجنوب اللبناني؟

هل هي حقا كذلك لنؤرخ لها ونتحدث عنها في كتاب؟ !

والا. . . تسقط الزرارية ونسقط معها. . . ولا نكون قد فعلنا شيئا سوى بعض المدح نكيله، نحن ابناءها، لمسقط رأسنا هذا وللملعب من ملاعب طفولتنا درجنا عليه ولعبنا فيه ما شاءت الطفولة وما شاء الصبا. . . مديح نكيله شعرا منثورا او نثرا شاعرا تحت ستار ما نسميه تاريخا وهو ليس من التاريخ في شيء ! !

نحن نجل انفسنا عن ان نفعل ذلك ونجل الزرارية عن ان تكون عروسا من عرائس الشعر والأغنيات ليس الا. . .

وهذا هو الشيخ علي الزين المؤرخ العاملي المعروف يقول : «التاريخ امانة وصراحة وصدق، وحين سجلت ما دار عليه هذا الكتاب (للبحث عن تاريخنا

في لبنان) من أفكار وملاحظات ونصوص لم افكر في ان ارضي فئة من الناس وأسخط فئة. . . وانما فكرت في ان ارضي الحق والواقع. . . » الخ.[1]

فهل ترانا فاعلين في هذا الكتاب غير ذلك؟ أم ترانا نرضي الحق والواقع مثلما ارضاهما شيخنا الجليل ؟

ـ المؤلف ـ

---

(١) البحث عن تاريخنا في لبنان ، للشيخ علي الزين ١ صفحة ٢١٣ سنة ١٣٩٢ - ١٩٧٣ بيروت.



تقديم

الاستاذ السيد جعفر شرف الدين

بسمه تعالى

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الغر الميامين وصحبه المنتجبين والسلام على الشهداء والصديقين من صور الاسلام الى صور جبل عامل، والحمد لله الذي انبتنا فيه، وهو المتميز بمناخه النقي وخلق ابنائه الرضي، وعقيدتهم الذاكية ولغتهم الصافية.

وبعد فانني متحدث عن مؤلَف في تاريخ بلدة تُعد من امهات بلدات جبل عامل، الا وهي، الزرارية، موضوع هذا الكتاب الذي الفه الاديب والمربي السيد خليل شرف الدين من ابناء الزرارية البررة.

والزرارية من اشهر بلداتنا في التاريخ والجغرافيا أطلعت الاعلام من مختلف فئاتها وعائلاتها بمختلف نواحي الحياة وشتى حقول الاختصاص والابداع. حتى الشهداء (وقد اعتبرهم مؤلف الكتاب اعلاما مبدعين) تجاوزوا كل حد من حدود الفداء والعطاء وكانوا رواداً. ولا غرو فهم من طبقة حسينية ثائرة انجبتهم عائلات كادحة مجاهدة ضاربة جذورها في اعماق التاريخ العاملي، مسفرة بشبابها الى

اقصى الارض - خصوصا ادغال ومدن افريقيا الغربية مجاهدين في سبيل حياة افضل هربا من الفقر والحرمان وصونا للكرامة، ثم عائدين يعمرون بلدتهم وبلدهم لبنان. فما من بستان ضاحك الا وسقوه بعرقهم دماء شبابهم، وما من قصر عامر الا ورفعوه على اكتافهم وثبتوا دعائمه بزنودهم. وما من بيت تؤمه الضيفان الا ووراءه مغترب او مقيم لمغترب. وهكذا ينصبون ليرتاح الاهل والوطن، ويشقون ليسعد الاهل والمواطنون. ذلك شأن جميع المغتربين يتركون بصماتهم على هامة كل مؤسسة تعليمية او اجتماعية اوصحية، وعلى كل بيت من بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه.

ومن هذه البيوت بيت الكلية العاملية في بيروت، وبيت الكلية الجعفرية في صور الذي اسماه مؤسسه رضي الله عنه وارضاه : « بناية المهاجر» تجسيدا لفضلهم وتخليداً لذكرهم.

وان انس فلا انسى اندفاع اخواننا من مهاجري الزرارية في رحلاتنا الثلاث الى افريقيا الغربية، موفدين انا واخي السيد صدر الدين من قبل ابينا الى ابنائه المغتربين من اجل بناء الكلية الجعفرية، وخصوصا اندفاع المرحوم عبد اللطيف فخري والسيدين الكريمين السيد حسن والسيد حسين عمي المؤلف والسيدين جواد ونجيب شقيقيه. اما عميد الهاشميين في كولخ السنغال وفي كل افريقيا الغربية السيد علي هاشم فقد كان لنا الاب والاخ والصديق.

وكنت قبل قيامي بالرحلة الثانية الى افريقيا عهدت بادارة الكلية الجعفرية بمباركة من سيدنا المؤسس، الى السيد خليل مؤلف هذا الكتاب، لما خبرت به من اتزان وحسن تصرف وثقافة عالية مديرا واستاذ ادب ولغة وترجمة.

والسيد خليل الاديب كاتب طليعي جديد العبارة لطيف الكناية والاشارة،

كما انه ناقد ومحلل للشعر العربي، قديمه وحديثه، ومحقق لاشهر كتب التراث الادبي كالجمهرة وديوان عنترة والعقد الفريد. ظهر كل ذلك في دراساته الادبية والفلسفية الخمس عشرة المطبوعة. ناهيك بكونه شاعرا حديث الاتجاه رغم انه من القيمين عندنا على تراث لغة الضاد. وهذا ما يميز شعره ونثره عما يسمى بالشعر الحديث وقصيدة النثر، باستثناء رواد الحداثة الذين يكتبون الشعر العربي الصراح، ونفر قليل جدا من المبدعين الحداثويين.

كما يظهر بكل اسلوبه وخصائصه في مؤلفه هذا قوةَ سبك واشراق ديباجة وعمق سبر ، وتأريخا منصفا لبعض المواقف السياسية التي وقفتها كوكبة من العلماء والزعماء في جبل عامل قدامى ومعاصرين على صعيد العروبة والسياسة الاستقلالية والوحدوية.

وها انا، اجدني واقفا معه في خندق واحد وعلى خط دفاع اول من اللغة واصالتها والحداثة ـ الام وإبداعاتها. ، والحقيقة ومواجهة تلك المواقف منها .

وبعد، فان « تاريخ الزرارية والبلاد العاملية »، كتاب قيم بذل المؤلف فيه جهدا مشكورا في البحث والتحقيق والتدقيق في ما يعود الى تاريخ مسقط رأسه الزرارية ومساحب اذياله ومسرح احلامه ، متفانياً في محبة بلدته الطيبة بشرا وشجرا وحجرا يؤرخ فيها ولها كل شيء من الندوات الثقافية والمسامرات الأدبية والمطارحات الشعرية والمدارس والحوزات الدينية ، الى حفلات الافراح والمجالس الحسينية وقرائها ، الى فنون الزرارية وعاداتها واغانيها وازيائها وفولكلورها الخاص الى ذكريات شهدائها الأبرار « ٤٢ شهيدا » عدا القدامى منهم ، الى المجزرة -المفخرة، الى تاريخ المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي للبنان ، وقبل ذلك احداث ١٩٥٨ في لبنان . الى تاريخ جبل عامل ككل ، معرجا على ابي ذر وتاريخ

التشيع ، والهجرة -المفصل ، والاقطاع بوجهيه ، الى الليطاني والتآمر عليه ، كما وقف طويلا عند حقيقة التسمية وجذور الاسم ، منتهيا بدراسة علمية للغة العامية العاملية وقربها من اللغة العربية الفصحى الى ما هنالك من دراسات وتحقيقات وذكريات ومقارنات ، وقاموس حكم وامثال ومفردات ومصطلحات عاملية وباللهجة العامية المحكية ،التي سماها : ثقافة القرى ، سالخا سبع سنوات من عمره ، ليأتي كتابه موفيا على الغاية مرضيا للواقع معبرا عن الحقيقة المجردة ، كما يراها بعين العقل لا بدافع الهوى، رغبة منه في ابراز مراحل نهضة الزرارية وتطورها وتخليدا لذكرها حين جعلها ، وانها لكذلك ، بؤرة لثورة جهاد وكفاح ومقاومة قديما وحديثا ، ومنطلق علاقات محورية بينها وبين جاراتها من مدن وبلدات عاملية كأنصار والنبطية وجباع وصيدا وصور. بورك للزرارية بابنها البار السيد خليل ، وبورك له بمواطنيه يقدرون جهده البالغ في بحثه التاريخي يثري به كتابه الموفق الموثق ، الشامل الكامل في تاريخ الزرارية وجبل عامل .



الزرارية الحالية بلدة لا قرية

- نقول : ان الزرارية الحالية بلدة وليست قرية ، وذلك وفقا للمعايير الديموغرافية ، وحتى اللغوية . .

جاء في المعاجم : « قرية جمعها قرى وهي المصر او الناحية . والقرية هي الارض الجامعة لمساكن كثيرة ، من القرى وهو الجمع . »



الزرارية : إحدى كبريات بلدات جبل عامل (الجنوب اللبناني)

(مجمع البيان في تفسير القرآن للطبري ج ٥-٦ ص ٢٥٦ . ولسان العرب وسواهما .) لا تجمعا سكانيا محددا ومنفردا .

فاستعمال كلمة قرية بمفهومها الجغرافي الحديث استعمال اصطلاحي لا لغوي .

وام القرى مكة المكرمة هي ام لكل تلك النواحي المحيطة بها .

ثم ان الزرارية - اليوم -ليست بالطبع ضيعة ولا مزرعة ، لأن المزرعة هي مجموعة قليلة من الزرائب والاكواخ الترابية . وكذلك الضيعة . ولو اكبر قليلا من المزرعة . .

فلم يبق للزرارية وامثالها الا اسم بلدة كتجمع سكاني اكبر من القرية واكبر بكثير من الضيعة او المزرعة . . لكنها اصغر من المدينة وان اوشكت ان تكونها. .

الفصل الأول



الزرارية : اسما ورمزا [1]

زرارية الشمس عاد الضوء مؤتلقا | وعاد سيف به الاجيال تعتصم
شقي الطريق فانت اليوم عاصفة | تمحو اليباس بروح ملؤها الشمم
فذلك الزحف من ابطال ملحمة | هو الطريق، فلا ليل ولا عدم [2]

الشاعر علي حسين مروه

حول الاسم : حقائق واساطير :

الحقائق : جاء في موسوعة : المدن والقرى اللبنانية -اعرف لبنان -[3] ؛

---

(١) هذا الاسم الآرامي أو الفينيقي أو العبري «الزرارية» له ثلاث دلالات : فالزرارية تعني في الآرامية ـ كما سنرى ـ : الشوك والورد والمحاربين . افلا تصلح هذه المعاني الثلاثة لأن تكون رموزا معبرة عن تطور حياة ابناء هذه البلدة المجاهدة ؟

(٢) ونعني بهم ابطال المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الاسرائيلي ، وابطال الجهاد في ديار الاغتراب

(٣) نقلا عن معلومات ناقصة لعفيف بطرس مرهج . طبعت موسوعته هذه سنة ١٩٧١ المجلد الخامس ص ٤٥٨ـ١٩٥٩ـ. ١٩٦٠، ولو فرضنا ان هذه المعلومات كانت صحيحة عام ١٩٧١ فقد كان عليه في الطبعة الثالثة لموسوعة ١٩٨٥ ان يكلف نفسه عناء التصحيح لسكان وعدد=

الزرارية بلدة من محافظة الجنوب اللبناني - قضاء صيدا ، ترتفع عن سطح البحر حوالي ٣٠٠متر ، وتبعد عن بيروت ٨١ كلم وعن مركز المحافظة صيدا ٢٨كلم . وعن مركز القضاء - صيدا ٢٨كلم . عدد سكانها (في اوائل السبعينات) ٨٠٠٠ آلاف نسمة [١] عدد منازلها ٤٥٠ [٢] عدد الناخبين ١٤٢٥ .

تصل اليها عن طريق صيدا - صور - مفرق أبو الاسود (الاصح مفرق

=بيوت ومرافق الزرارية وغير الزرارية لتكتسب موسوعته مصداقيتها ، وتصبح جديرة بان تحمل اسمها . ويبدو انها طبعت بدون علمه أو . . . بعد وفاته . . والله اعلم .

مدلولات الاسم : اما الشوك : فقد بدأ ابناؤها حياة الشوك فعلا : حياة ضنك ومعاناة وحرمان واستغلال خلال مئات السنين . تسلط عليهم فيها من زبانية الباب العالي (!) من لا يرحم ولا يرف له جفن حيال ما يرتكب من موبقات وهتك اعراض وسلب ارزاق .

ثم انتقلوا بالمجاهدة والمقاومة الصامتة ، والصبر والاغتراب إلى حياة : الورد الذي هو من معاني الزرارية ايضا ، والذي هو رمز الفتوة والحرية والجمال والربيع والغنى .

واخيرا هاهم - في اكثريتهم - محاربون مقاومون ، لا بالسلاح وحده بل بالعزيمة والكفاح المرير، مقيمين ومغتربين ، من اجل الثأر لكرامة الآباء والاجداد المهدورة ، حين قلبوا السحر على الساحر ، وانهوا بذلك كله عهود الاقطاع الاستغلالي البشع واللاأخلاقي واللاإنساني . .

ونحمد الله على ان عهد الاقطاع قد انتهى في الثلاثينات من هذا القرن وتحررت منه الزرارية نهائيا عام ١٩٣٣

فاذا قلت : الزرارية قلت الشوك والمعاناة وانت مصيب . . .

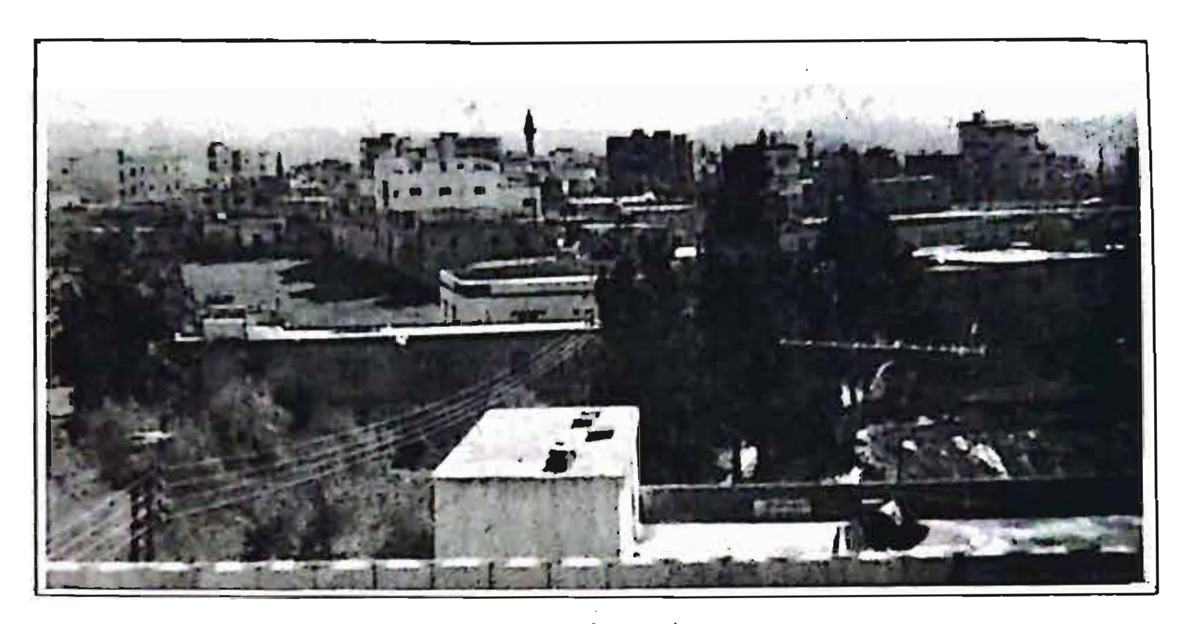
واذا قلت : الزرارية قلت الورد والفتوة والجمال وانت مصيب . .

واذا قلت الزرارية قلت المحاربون المقاومون وانت ايضا مصيب

فاي رمز من هذه الرموز لا تعنيه الزرارية

(١) الان في اواخر الثمانينات يبلغ عدد سكانها المقيمين أكثر من ضعف هذا العدد أما مغتربوها فيبلغ تعدادهم حسب احصاء (نحن في افريقيا) قرابة الالفين في افريقيا الغربية وحدها . واليوم أصبح مغتربوها يناهزون العشرة آلاف نسمة تقريبا وأكثرهم في جمهورية شاطيء العاج.

(٢) تضاعف هذا العدد على الاقل حتى يومنا هذا ثلاث مرات .



منظر عام للزرارية

جمجيم الزرارية) هذا من الجهة الغربية . أما من الشرق فمن طريق النبطية - جبشيت - بريقع . وهناك طريق غير معبدة اذا سرنا على الاقدام أو على الخيل والدواب وهي طريق (السنيبر أو الصنيبر)، المتفرعة عن طريق أبو الاسود المعبدة نسلكها عبر اشجار السنديان على أكمة تطل على واد يدعى وادي خليل تتوسطه نبعة ماء شحيحة ، حيث يمكن الوصول الى الزرارية من خلاله أيضا ، كما يمكن الوصول اليها اذا انطلقنا من بلدة انصار عبر طريق ترابية . وقد اخترع الهاربون من جحيم معتقل انصار (ايام الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢) طريقا خاصا بهم هو طريق (وادي جهنم)[١] يصلهم بسهل فسيح يدعى (الوطى) الموصول بالزرارية مباشرة .

وحول حقيقة الاسم : هناك كلمات في الآرامية، لعل الزرارية مشتقة من كلمة zeror وتعني الشوك . وفي السريانية dardere وتعني الشوك ايضا . وقد

---

(١) مشاهدات من انصار ـ١٠٣ ابراهيم عواضه ـ دار الباحث بيروت ١٩٩٠

يكون اسم الزرارية تحريفا لكلمة dorrare الآرامية أي المحاربون والمقاتلون. جاء في كتاب معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية ما نصه : « زرارية zrariy في الآرامية zirarta zirara وتعني الشوك كذلك . وفي السريانية dardera ومعناها الشوك ايضا واسمه العلمي uimus compestes والاسم على الاغلب محرف من داراري darraris ومعناه المحاربون كما تقدم، او لعله مشتق من جذر آرامي او عبري او فينيقي ذَرّى. . . وذَرّى في العربية(وهي شقيقة هذه اللغات) تعني نثر وبدد.

واذا ما تخطينا اسطورة نسبتها الى زرارة ابن اعين ووصلنا الى الجاهلية وجدنا زعيما من زعماء بني تميم اسمه زرارة عرف في الجاهلية كأحد كبار رؤساء القبائل. وقد تغنى به الشاعر الفرزدق على اعتباره احد اجداده مثل صعصعة الذي افتدى مؤودات بني تميم بثلاثين جملا لكل مؤودة. يقول الفرزدق :

ان الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه اعز واطولُ

بيتا زرارة محتب بفنائه ... ومجاشع وابو الفوارس نهشلُ

ومهما درنا حول هذا الاسم تاريخياً ولغويا تبقى الصلة واهية بين «الزرارية» كاسم لقرية، وبين هاتيك الاسماء، سواء كان زرارة بن اعين او زرارة احد اجداد الفرزدق. . . وليس لنا الا ان نعود الى الجذر الارامي او الفنيقي وكفى. . .

كيف نلفظ هذا الاسم؟

بعض المؤرخين يذكره بالألف المائلة فيقول :«الزريرية» (١) ويكاد ابناء قرى جبل عامل في الساحل الجنوبي والجبل يتميزون بهذه الامالة التي هي سمة من

---

(١) كما جاء في كتاب : جبل عامل في التاريخ للعلامة الشيخ محمد تقي الفقيه ص ٢٨٥ قوله :«وفي سنة ١٩٣٧ هجرية توفي البك ابن ابي حمد النصار في قرية الزريرية ودفن فيها » وبهذه الامالة يذكرها البحراني .

سمات اللهجة العامية (او لغة التخاطب عندهم او اللغة المحكية) فيلفظون كل ما كان بالالف الطويلة او المقصورة مائلا وكأنه ياء. . . كقولهم : استيذ بدل استاذ ومستشفي بدل مستشفى. . . بعكس أبناء الشمال اللبناني الذين يلفظون الالف مفخما وكأنه واو، فيقولون : طروبلس بدل طرابلس وهكذا لكل منطقة او اقليم (او حتى كل حي وزاروب). . . لهجته الخاصة به !

اما اسباب ذلك فنجدها معللة تعليلا علميا مبنيا على دراسة ميدانية قام بها احد المستشرقين الفرنسيين، هو الاب هنري فليش [1] مظهرا تأثير البيئة والمناخ وطبيعة الارض الخ.

جاء في مجلة العرفان (ج ٨ ص ٧٦٢) ما يلي : « الزرارية كانت قاعدة اعمال الشومر وهي داخلة في اقطاع آل الصغير.

وقد انتقلت من المرحوم علي بك الأسعد حاكم بلاد بشارة في القرن الثالث عشر الهجري الى ابنائه المرحومين محمد نجيب بك وشبيب وناصيف باشا الاسعد [2] وهي اليوم (اي قبل الحرب العالمية الاولى) بتصرف ابنائهم. . .

---

(١) انظر هذه الدراسة في كتابه (بالفرنسية) TRAITE' DE PHYLOLOGIE ARABE VI P. 546 IMP. CATHO. BEYROUTH 1961 HENRI FLEISCH.

كما كان هذا الاب يخصص لكل سنة دراسية جامعية لهجة من لهجات لبنان الاربع يشرح فيها لطلابه وكنت من بينهم اسباب تكوين اللهجة على هذا النمط أو ذاك في معهد الاداب الشرقية التابع لجامعة القديس يوسف ـ المؤلف ـ

(٢) وهؤلاء الاشقاء الثلاثة هم من احفاد الشيخ ناصيف النصار . حكم ناصيف باشا الزرارية وتوابعها من اقليم الشومر . وحكم شبيب باشا في تبنين قبل ان يتغلب عليه كامل بك الاسعد الاول . فنزح الى صيدا ثم الى القسطنطينية حيث مكث ٢٢ سنة هناك . وسيأتي الحديث عن الاشقاء الثلاثة في فصل : عائلات الزرارية .

ويجري الليطاني في الجنوب منها على مسافة ميلين. وقد فتحت فيها مدرسة في عهد الاحتلال الفرنسي. وكان احد معلميها اللغوي الشاعر احمد حجازي الملقب بابن البادية [1] ويسكنها فرع من اسرة آل الصغير (اي الاسعد)، وفرع من آل مروة وآل فخري. وفيها اليوم من العلماء الشيخ علي بن الشيخ محمد علي مروة» الخ. . . كما جاء في الجزء العاشر من المجلد الثالث عشر من العرفان صفحة ٣٥٧ : «الزرارية بزاي معجمة مفتوحة بعدها راء والف نداء مهملة مكسورة وياء مثناة مشددة بعدها هاء. . . فتلفظ (زرارية) وقد تلفظ وتكتب بحذف الالف بعد الراء الثانية. وهي قرية كبيرة (اي بلدة) يبلغ عدد سكانها ٧٨٢ نسمة [2] كلهم مسلمون شيعيون اثنا عشريون. تقوم على هضبة نهر الليطاني الشمالية، وهو يجري من اسفل تلك الهضبة وتدار على مياهه مطحنة (تدعى مطحنة المغيرية)»[3] وأخرى لم يذكرها المؤلف (تدعى الدرزية) يلاصقها بستان يعرف ببستان المغيرية، وجل اغراسه من الليمون.

---

(١) وهو من الع شعراء الرعيل الاول في جبل عامل مطلع هذا القرن . ستأتي ترجمته في فصل اعلام الزرارية .

(٢) كان ذلك منذ سبعين عاما تقريبا . اما اليوم فقد زاد هذا العدد حتى ناهز الاثني عشر الفا من المقيمين ومثلهم من المغتربين تقريبا .

(٣) ان تكرار نسبة المطحنة والبستان إلى «المغيرية» ليس عن عبث . فلماذا لم تنسب إلى «الزرارية » مثلا فيقال مطحنة الزرارية وبستان الزرارية . . . ؟

يقول المعمرون في الزرارية ان بستان المغيرية ومطحنة المغيرية على الليطاني منسوبان إلى المغيرية القرية القديمة المنقرضة وكانت تقع إلى شرقي الزرارية في منحدر لا يزال يسمى بالمغيرية الى اليوم والدليل على ان هذه القرية أو المزرعة كانت قائمة (وربما قبل الزرارية) وعامرة ، وجود=

كما تكثر فيها (اي الزرارية) اشجار الزيتون والتين والخرنوب (١) وتستخرج معاصرها من الخرنوب مقادير من الدبس الجيد.

---

* آثار كثيرة في المكان الذي كانت قائمة عليه ، اكتشف هذه الآثار الاهالي بالصدفة منذ وقت ليس ببعيد ، مثل بقايا افران وآبار وجرار فخارية وخزفيات وبعض النواويس وما شابه، وبعضها كتب عليه بأحرف (لا ندري ما هي والى اي لغة أو عهد تنتمي) لان مكتشفيها قد باعوها ، مع الاسف قبل التدقيق فيها من قبل الخبراء لمعرفة قيمتها الحقيقية . . .
لفت نظري إلى وجود هذه القرية شقيقي الاصغر شرف الدين شرف الدين فبادرت إلى التفتيش عن سند تاريخي يؤكد وجودها فعثرت في العقد المنضد على رواية خلاصتها كما يقول مؤرخ هذا الكتاب شبيب باشا الاسعد «وفي المغيرية شرقي الزرارية حصن منيع بناه اليالوشي احد تلامذة محمد بن مكي (الشهيد الاول) والذي خرج على استاذه وسلك طريق الشعوذة والكهانة فجرت بينهما معارك قتل فيها هذا المشعوذ المرتد» . . . انظر العقد المنضد ط٢ص ١٢١)
وفي كتاب : خطط جبل عامل :«المغيرية قرية في ساحل صيدا من عمل الشومر في خراج الزرارية . انظر الخطط ص ٣٦٠ .
(١) مما يؤسف له ان هذه الاصناف الثلاثة من الاشجار قد انقرضت أو كادت خاصة اشجار التين على اختلاف انواعه (عسلاني ـ حمراني ـ بقراطي ـ سوادي) كما كان الاهالي ينتقلون اليها أثناء الصيف فينصبون الخيم في احضانها أو العرزالات طيلة ثلاثة اشهر الصيف . كما يفردون امام الخيمة مساحة يسمونها المراح حيث يجففون عليه اجود انواع التين ويسمونه «الشريحة» . ينتقلون اليها بخيلهم وحميرهم وبقرهم واطفالهم ومن طريف ما يروي المرحوم والدي عن المرحومة جدتي انها افاقت في ليلة ظلماء لتجد «العجل » قد افلت من مربطه ، فراحت تفتش عليه حتى اذا وجدته امسكت باذنيه وجاءت به الى المربط وطلع القمر من وراء الافق وفي هذه اللحظة افاق ابي فوجد جدتي تحاول ربط العجل وهو يأبى . . تقدم منهما للمساعدة فاذا بالعجل ضبع وليس عجلا !! اما كيف اسلس الضبع قياده لجدتي فالله اعلم !

ويتكرر الحديث، في العرفان عن ان الزرارية «كانت من اقطاع آل الصغير، فكانت في سهم احفاد الشيخ ناصيف النصار [1] وانتقلت الى المرحوم علي بك الاسعد احد حكام بلاد بشارة من جبل عامل في أواخر القرن الثالث عشر (توفي علي بك سنة ١٢٨٣) في دمشق هو وابن عمه محمد بك الاسعد. ثم انتقلت الى اعقابه. . .»

وتدور الايام فاذا بفريق من ابنائها، ولا سيما المغتربون الاوائل يتملك قسما كبيرا من اراضيها. [2]

اسرها : كان في الزرارية عدا اسرة آل الصغير أسرة مروه وأسرة زرقط وأسرة فخري التي هي واسرة فاضل فرع من اسرة صفوان من عشائر الحمادية [3] وكان يملك قسما من اراضيها الشاسعة في اواخر القرن التاسع عشر (الثالث الهجري) علي بك الاسعد احد حكام بلاد بشارة - كما تقدم- ويوزع الباقي على ولديه شبيب باشا وناصيف باشا. غيران الاول يقول في كتابه العقد المنضد ان كل تلك الاراضي كانت له وحده [4]

---

(١) انظر ترجمتنا له نقلا عن كتاب تاريخ جباع هامش ص ٣٥٣ .

(٢) انظر فصل : الهجرة إلى المجهول (أو حرق المراحل) في هذا الكتاب .

(٣) انظر تاريخ الاسر في الزرارية تحت عنوان : عائلات الزرارية من هذا الكتاب . ففي هذا الفصل تفصيلات اخرى عن عائلات اخرى بارزة في الزرارية ـ المؤلف ـ

(٤) يقول شبيب باشا في كتابه العقد المنضد ص ١٢١ عند حديثه عن اليالوشي (المار ذكره) «وقد خرج على الشهيد الاول محمد بن مكي تلميذه اليالوشي وامتنع في حصن يقع في شرقي الزرارية املاك الحقير ـ مؤلف هذا الكتاب » اي العقد المنضد يريد ان يقول : ان الزرارية هي من «أملاكه وحده»

اسم الزرارية بين الاسطورة والواقع : او بين اللهجتين : اذا صحت نسبة اسم الزرارية الى زرارة بن أَعْيَن وهي نسبة مضعوفة لا تستند الى واقع وحقائق تاريخية ثابتة ومتواترة . تصبح مسألة الإمالة عند العامليين مسألة هامشية وليست قاعدة . . ونحن نميل - كما اسلفنا - الى الرأي القائل بتطبيق الامالة على اسم الزرارية، اصلا ولهجة فيصح لفظ زريرية هو الاصح، ولو كنا من سكان المدن . .

غير ان الشائع اليوم لفظها مع الالف المتوسطة : زرارية.

فمن هو زرارة هذا؟

بصرف النظر عن صحة علاقة اسمه بالزرارية، يهمنا ان نعرف من هو وهل قذفت به المقادير الى هذا الساحل الشامي؟

جاء في كتاب : نفائس المخطوطات [١] ما خلاصته : (من رسالة ابي غالب الزراري في آل أَعْيَن) : آل اعين [٢] اسرة مشهورة في التاريخ الاسلامي أنجبت من رجال العلم والفقه والحديث والادب مجموعة ضخمة قل ان نجد لها نظيرا في الاسر الاسلامية الكبرى.

وابو غالب الزراري هذا، يقول المحقق : هو الشيخ احمد بن محمد المنتهي نسبه الى بكر بن اعين الشيباني الكوفي، وحسبنا من طول باعه في العلم والفضل

---

(١) وهو كتاب صادر عن دار المعارف للتأليف والترجمة والنشر . مطبعة دار المعارف بغداد ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م تحقيق محمد حسن آل ياسين .

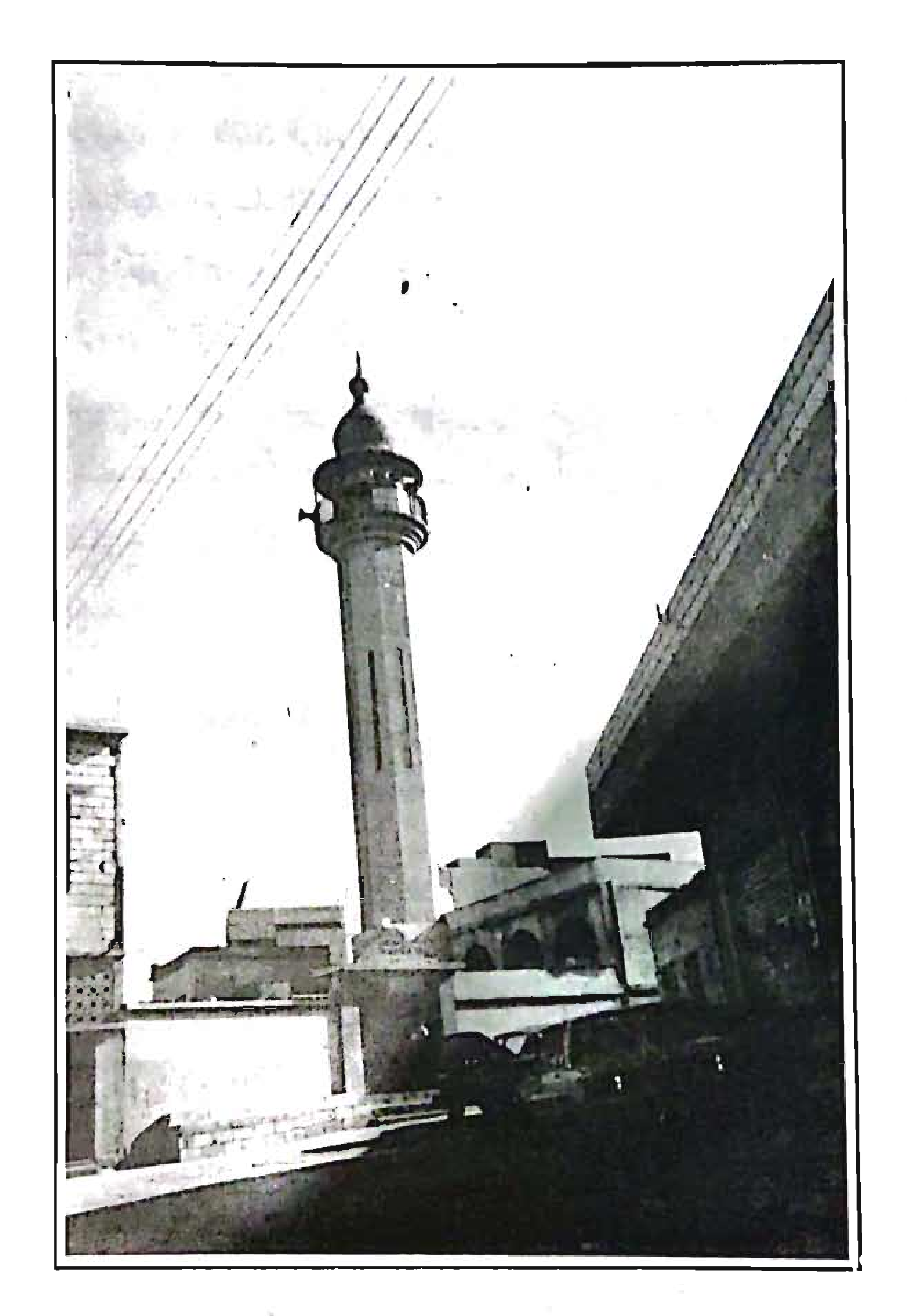
(٢) آل أعين . وأعين بوزن أبيض معناه واسع العينين . وزرارة بن أعين أخو بكير . انظر اعيان الشيعة ج ١٠ ص ٦٨ ط ١ ـ وج ٥٠ ص ١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨ .

ان نعرف ان الشيخ المفيد والطوسي والتلعكبري واترابهم من فحول العلم ونوادر الدهر كانوا من تلاميذه، وخريجي حلقة درسه. قال تلميذه الشيخ الطوسي في «رحاله»، هو احمد بن محمد نزيل بغداد ويكنى ابا غالب جليل القدر كثير الرواية. ويقول عنه العلامة السيد مهدي بحر العلوم في رجاله : «كان ابو غالب الزراري رحمه الله شيخ علماء عصره وبقية آل أعْيَن ». وذكره العلامة المجلسي في موسوعته « بحار الانوار» كما ذكره السيد محسن الامين في اعيان الشيعة مثنيا عليه. وكان لابي غالب عم يدعى حمدان معاصر للامام زين العابدين علي بن الحسين، اما جداه فهما زرارة وبكير». ويتابع المحقق قائلا :«وآل اعين اكثر اهل بيت الشيعة واكثرهم فقها وحديثا. وروي ان زرارة كان وسيما جسيما ابيض. وكان يخرج الى الجمعة وعلى رأسه برنس اسود. وبين عينيه سجادة وفي يده عصا فيقوم له الناس سماطين وينظرون اليه لحسن هيبته. وكان خصما جدلا لا يقوم احد لحجته. وكان شاعرا. ذكره الجاحظ في رسالة «النساء» ناسبا له ابياتا من الشعر. . . »

وقد فتشنا خلال هذه المخطوطة عن اماكن بني زرارة ومضاربهم والمدن التي سكنوها او التي هاجروا اليها خاصة بعد محنتهم [1] فلم نجد سوى انهم كانوا في

---

(١) وهي محنة حلت بهم وبعلماء الشيعة اثر وقوع الشبهة عندما ادعى عبدالله بن جعفر الامامة بعد وفاة ابيه الامام الصادق (ع) وكان بنوزرارة من القائلين بامامة عبد الله ثم تفرقوا عنه بعد وضوح الحق لديهم الخ . . نكبوا ايام المعتضد . ودفعا للالتباس نشير الى ان ما قال اليعقوبي في الرافضة كانت تسمى (فرقة) الزرارية نسبة إلى زرارة صاحبنا أو أحد ابنائه ، وهي كفرقة انقرضت منذ قرون (ظهرت ايام الصادق (ع) فشتان اذن بين الزرارية كبلدة في جبل عامل اللبناني وبين الزرارية كفرقة ! انظر ايضا الملل والنحل ج ١ ص ١٦٨ .



مئذنة جامع البركة الشاهقة (على أطراف ساحة الشهداء)

الكوفة اولا ثم في المدينة ثم في الفلوجة بين الكوفة والمدينة. . . ومنهم من نزح الى بلاد الروم ، بعد القرن الرابع الهجري . . .

الى هنا وتنقطع سلسلة تنقلات بني زرارة الطوعية او القسرية واقامتهم الجديدة . . . فهل كان زرارة أو احد ابنائه أو احفاده في عداد من يمموا شطر هذا الساحل الرومي (السوري - اللبناني اليوم)؟وسكن هذه الهضبة التي على شمالي الليطاني وضرب خيامه عليها . . . أو بنى اول بيت له عليها وسماها باسمه او سميت باسمه (الزرارية) ونسبت اليه ، أو الى أبيه أو جده ؟الله أعلم، وكذلك التاريخ المنسي المطمورة آثاره . . . وقد يتاح في المستقبل لبعض الباحثين المهتمين بجغرافية جبل عامل ان يعثروا على ما يرشدهم الى الحقيقة ، والى ان زرارة هذا قد جاء فعلا ، الى هذه الهضبة المباركة والقى رحاله بين«أزرار»ورودها !ام ان قصة مجيئه اليها ستبقى خبرا من الاخبار . . .

اذن - لا دليل ثابتا لدينا حتى الآن . وكل ما نستطيع ان نقوله ان (الزراري) وهي نسبة سرية كان يرمز بها الامام علي بن محمد صاحب العسكر ، الى سليمان احد احفاد زرارة تورية له بدلاً من الامام كي لا يعرف فيدرك . . . فاذا ادخلنا تاء التأنيث على (الزراري) أصبح : الزرارية . . . والمسألة هنا - مسألة توافق وجناس لا أكثر ولا أقل . .

وبعد كل هذا الطواف حول الاسم نعود فنرجح : ان الزرارية - بكل بساطة- لفظة تنسب الى ازرار الورد او الشوك - كما تعني لفظة zeror في الآرامية. فنقول زرارية للبلدة المقامة بين هذه الازرار او الاشواك : وينتهي الاشكال . . .



الزرارية قبل عهود الاقطاع الاخيرة

لم نعثر على ذكر للزرارية قبل ان تصبح مركزا من مراكز الاقطاع السياسي في القرنين الماضيين ومطلع هذا القرن . واذا كان لها من ذكر فقد طمس مع ما طمس من آثار جبل عامل وتاريخ علمائه وادبائه ، وقراه ومدنه ومكتباتها التي احرقها الطاغية الجزار حين انتقم من (المتاولة) ووزعها على افران عكا لتلتهمها النيران سحابة ستة ايام بلياليها [1] .

والمرجح ان الزرارية كانت قرية متواضعة قبل ان تصبح مركز اقطاع . . . قرية تغط في سبات عميق فرض عليها -كما على غيرها -ان تكون كذلك ايام العثمانيين والمماليك والايوبيين فعاشت كغيرها عصور انحطاط فكري وادبي واجتماعي وزراعي ، لا مثيل له . . . فلم تنجب أحدا من المشاهير سوى بعض المشايخ والسادة الذين اتخذوا التقية وسيلة للتخفي اتقاء للاذى . . . . لان كل من رفع رأسه كان يقطع لا محالة بحجة ان حامله رافضي خارج عن الدين في

---

(١) انظر : تاريخ أحمد باشا الجزار للأمير حيدر شهاب .

نظرهم، وحين تجرأ البعض وعلى رأسهم الشيخ البهائي الجبعي (محمد بن مكي) على الجهر بالحق سجن وعذب ، ثم صلب فكان الشهيد الاول ، من بين علماء مجاهدين كثيرين لاذوا بالتقية او جاهروا فابعدوا وشردوا وقتلوا . . . (١)

---

(١) انظر ترجمته حين نتحدث عن اصول العائلات في الزرارية ، لان آل مروة ـ كما هو ثابت- فرع من فروع هذا الشهيد الخالد .

للتوسع : انظر خطط جبل عامل للعلامة السيد محسن الامين ط ١ص ١٣٢ .



الزرارية في عهود الاقطاع

تقدم معنا عند تحقيق الاسم ، ان الزرارية برزت في القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل هذا القرن كأحد اشهر مراكز الاقطاع السياسي حين اصبحت بعد تبنين محط رحال ابناء وأحفاد الشيخ ناصيف النصار وهم : شبيب وناصيف باشا الاسعد واخوهما الاوسط محمد نجيب بك الاسعد. فمن هو الشيخ ناصيف النصار ؟ (١)

---

(١) كان لقب شيخ يحل محل (بك) ايام ناصيف النصار ، أو لقب امير . ولقب بك . في التركية تعني ، عسكريا ، القائمقام او الاميرالاي . وجمعها في العربية بكوات ، وبعضهم يقول : بيكات او بكوات . . . وفي اللهجة المصرية بيه وبهوات وقد ابتذل هذا اللقب عند المصريين من عامة الشعب حتى اطلقوه على كل عابر سبيل هم بحاجة إليه وكل سائح . . ولفظ بك كان يلقب به اولاد الباشاوات والوزراء والولاة وحكام الاقاليم ايام العثمانيين ، واستمرت هذه التسمية او هذا اللقب ايام الانتداب الفرنسي على لبنان وقيام النظام الطائفي الذي حصر السلطة بذرية طبقة الحكام الاقطاعيين دون سواهم - تقريبا - من طبقات الشعب . وقد انتحل هذا اللقب زعماء من عامة الشعب لم يكن آباؤهم ولا اجدادهم بكوات او =

جاء في الدلالة العاملية في تاريخ الاسرة الوائلية ما موجزه :ان اسرة آل الصغير ترقى بنسبها الى وائل بن قاسط في الجاهلية . كما جاء في العقد المنضد لمؤلفه شبيب باشا الاسعد (ص١٦)« ان محمد الهزاع (المنحدر من وائل) جاء من بادية نجد الى البلاد العاملية على عهد صلاح الدين الايوبي ». فيكون محمد الهزاع هذا قد عاش في القرن الثامن الهجري الثاني عشر الميلادي وفي هذا التاريخ خلاف . لكن الارجح هو ما أكده العلامة الامين في« خططه » من ان امارة علي الصغير في جبل عامل كانت في المائة الثامنة للهجرة . وكذلك فعل المؤرخ محمد جابر آل صفا حين اعتبر ان محمد الهزاع من رجال آل الصغير المشاهير . بينما هو - في الواقع - جدهم الاعلى . . .

ويمضي مؤلف « الدلالة العاملية في تاريخ الاسرة الوائلية » منذ عهد نصار الثالث الى عهد كامل بك الاسعد الثاني (الحالي) فيتحدث عن الشيخ ناصيف النصار وأخباره ومعاركه ضد ظاهر العمر (الزيداني) ومعه احيانا ، ومن أحمد باشا الجزار وكامل بك الاسعد الاول ، كما يذكر بالتفصيل اخبار الشيخ محمود النصار وذريته كحمد البك وعلي بك الاسعد وذريته . . . الى ان يتطرق الى حياة الشيخ عباس المحمد النصار وذريته ومنهم صادق الحمزة الذي جاهر بعصيانه ضد الدولة الفرنسية المنتدبة (الاصح المستعمرة)، في حين صوره بعض المغرضين بأنه قاطع طرق . . . وينهي المؤلف مخطوطته بشجرة الشيخ حمزة محمد النصار

=باشاوات . . انتحلوه لهم ولابنائهم حين برزوا على مسرح السياسة اللبنانية بتشجيع من المنتدب . ولايزال بعضهم ـ إلى الآن ـ يحمل لقب بك ! اما البعض الآخر فقد بدأ ـ بفعل المنطق الديمقراطي والعلم . ينأى بنفسه عن هذا اللقب ويحب ان يلقب بالسيد او الاستاذ او الدكتور . . وهكذا اصبح لقب بك من مخلفات الماضي الاقطاعي البغيض .

وذريته ويفهرس أسمائهم . وقد اطلع العلامة النسابة الشيخ ابراهيم سليمان على بعض فصول هذه المخطوطة واستقى منها معلومات اعتمد عليها في مخطوطه (الذي سيطبع قريبا) بعنوان : علماء جبل عامل . واثنى الشيخ ابراهيم عليها ثناء عاطرا فقال : « انها كتابة ممتازة لو وجد منهم (اي من الاسرة الوائلية) من يقدر له هذا ا الجهد الرائع»[1] .

وهكذا يبرز الشيخ ناصيف النصار قطبا سياسيا (اقطاعيا) بارزا. اما كونه فارسا وقائدا مغوارا حمى بلاد بشارة ودافع عن الثغور ضد الشهابيين اولا ثم ظاهر العمر الزيداني ثانيا ثم بالتحالف معه ضد الجزار ثالثا ، والانتصارات التي حققها ورفع بها رأس عشيرته وطائفته ومنطقته . . . فان كل هذا يجعله في نظرنا ونظر المؤرخين المنصفين فارسا عربيا يحمل في ارومته مزايا وشمائل وائل بن قاسط الفارس الجاهلي العربي الاصيل .

في التقييم الاخير :

ولكن الشيخ ناصيف النصار ، لم يخرج عن كونه اقطاعيا اتخذ الشعب وقودا لحروبه الداخلية ذات المآرب الشخصية . فقليلا ما كان يلتفت الى مصالح

---

(١) علماء جبل عامل ٢/ ١٣٤ مخطوط . ومؤلفه الشيخ ابراهيم سليمان هو علامة معاصر يسكن في قرية البياض القريبة من بلدة قانا . وهو اديب وشاعر ومرشد ديني معروف. يعتبر منزله مثابة لكل طالب حاجة او فتوى . تضم مكتبته حوالي سبعة آلاف مجلد إلى جانب مخطوطات نادرة . . .

هذا الشعب الحياتية . . . ولعلها صفة رجال السياسة في تلك الايام ، لا يهمهم سوى تحقيق الشهرة لانفسهم واثبات رجولتهم وفروسيتهم . انهما وجهان بارزان لحقيقة الاقطاعيين ايام الشيخ ناصيف : وجه مشرق مشبع بالبطولة والدفاع عن اقطاعياتهم لا سيما حين يتقدمون الصفوف في المعارك . . . ووجه مظلم يشوب ذلك الاشراق او يخفف من بريقه حين يريق كثيرا من دماء الناس لا لشيء يذكر، الا ليقال ان الشيخ الفلاني انتصر على الاعداء (وهؤلاء في الغالب من خصومه المحليين) وان (اولاد أم علي) اي رجال الشيعة الاشداء (قدها وقدود) ! (١)

مناطق حكم الشيخ ناصيف :

كانت مناطق حكم هذا الشيخ البارز : المقاطعات الجنوبية من جبل عامل وهي المنطقة المعروفة ببلاد بشارة (٢) وكان مركز حكمه في قلعة هونين (توفي في ٥ شوال ١١٤٥هـ . ١٧٧١م) في معركة يارون دفاعا عن بلاد بشارة ضد الجزار(٣) . بعد تحالف الشيخ ناصيف النصار مع ظاهر العمر وبعد انتصاره عليه

---

(١) للتفصيل انظر تاريخ جبل عامل ص ١٣٠ محمد جابر ال صفا طبعة جديدة (دار النهار للنشر) وكذلك تاريخ جباع للشيخ علي مروه ص ٣٤٥ والشدياق في حوادث سنة ١٧٦٨م و١١٨٢هـ .

(٢) وكان له أخ يدعى أحمد النصار لا يقل عنه حمية وشجاعة حتى انه كان يعد بمائة فارس انظر : تاريخ الجزار ص ٨٤ ـ الامير حيدر احمد شهاب .

(٣) انظر كتاب / صفحات من تاريخ جبل عامل ـ منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي سلسلة تاريخ لبنان ـ ط ١ ـ ص ٦٦٠ ـ ١٩٧٩ بيروت .

في عدة معارك اهمها معركة طربيخا (عام ١٧٥٠م). كتب قنصل فرنسا يومها في صيدا كليرمو رسالة الى حكومته يقول فيها :«الشيخ ناصيف النصار هو اليوم شيخ مشايخ المتاولة الذين يقيمون من صيدا حتى ارض عكا . . . وهو يحمي الشيخ عثمان ابن الشيخ ظاهر العمر الهارب من ابيه ، وبما ان الحرب في هذه البلاد تهدأ ثم تجدد كل ثلاثة أشهر ، فانها تنتهي بخراب أحوال الفلاحين وباعطاء المبرر لمشايخهم لتأجيل دفع الضرائب والمستلزمات المالية للوالي» . . . الخ. . .

هذه الرسالة تؤكد ما ذهبنا اليه من ان عظمة الشيخ ناصيف وامثاله من فرسان تلك الحقبة العاملية الزاهرة والمتمتعة باستقلال ذاتي وعمراني ، ما هي الا عظمة فارغة من كل مضمون اجتماعي او انساني . . لانها قائمة على حساب الشعب المسكين المستغل ، خاصة طبقة الفلاحين والمزارعين . كان باستطاعة هذا الفارس المغوار ، وقد استقل ذاتيا عن السلطنة العثمانية ، ان ينصرف عن شن المعارك التي كثيرا ما كانت لاثبات الذات ، الى الهدوء ورعاية الارض والانسان . ولكنه لم يفعل . . كان حسبه مقاتلة الجزار ودفع شروره عن بلاد بشارة . وما عدا ذلك من معارك هامشية خاضها وراح ضحيتها الكثير من رجاله . . رغم انتصاره فيها جميعا ما عدا معركة يارون التي كانت فيها نهايته . . . وبداية نهاية ابنائه من بعده في حكم بلاد بشارة . (١) واذا كان له من فضل في هذه

---

(١) سميت المنطقة الواقعة في جنوب الجمهورية اللبنانية ببلاد بشارة وأكثر سكانها من الشيعة . انظر : بولياك : الاقطاع في مصر وسورية ولبنان ص ٤٥ و ٤٦ . وبنو بشارة أو زعماء العشائر كانوا في فجر المماليك هم وبنو صبح او صبيح من ابرز الزعماء اللبنانيين في القرن الرابع عشر «ولا يزال اسمهم يطلق إلى اليوم على الجنوب اللبناني » ويستند بولياك إلى المصادر التالية :=

المعركة فلأنها كانت ضد الجزار ولدفع شروره عن بلاد بشارة ، رغم استشهاده فيها . .

آل علي الصغير : وتوالت هزائم الوائليين بعد مقتل الشيخ ناصيف . ولا سيما امام آل شكر في عدة معارك فتشتتوا ونزحوا عن ديارهم ومناطق حكمهم بلاد بشارة وذلك بعد مقتل زعيمهم الشيخ حسين بن علي الوائلي . وكان ممن نزح زوجة الشيخ حسين وكانت حاملا . يقول المؤرخون «انها خرجت متنكرة يحرسها نفر من المخلصين لزوجها ، قاصدة عشيرة اهلها من عرب السوالمة وهم فرع من قبيلة عنزة والرولة والشعلان المنتشرة في بادية الشام ، ولما وصلت الشيخة أكرمها بنو عشيرتها وحفظوها ومنهم أخوها . وبعد اشهر ولدت غلاما اسمته علي الصغير . . . يقول الرواة انها اسمته علي الصغير لان أخاه الاول كان اسمه عليا وفقد يوم مقتل أبيه وابادة عشيرته . ويقول آخرون انها اسمته باسم جده لابيه . نشأ علي الصغير بين أخواله وأبناء عشيرتهم وكل رجالها من الفرسان المهرة الاشداء ، شيمة أبناء البادية عامة . وتميز علي بركوب الخيل وضرب الجريد والصيد والقنص وبفنون القتال . ولما بلغ العشرين من عمره اصبح ممن يعتمد عليهم . كما كان علي الصغير هذا شابا وسيما بهي الطلعة ذكيا حريصا على

=النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، وحوادث الدهور للمولف نفسه . وبدائع الزهور لابن اياس ، والضوء اللامع للسخاوي ، ورسائل تاريخية لابن طولون . كما يرجح الشيخ علي الزين في كتابه : للبحث عن تاريخنا في لبنان ، بانهم كانوا من الشيعة وقد حكموا جبل عامل طيلة قرنين من الزمن «فلا يعقل ـ كما يقول ـ ان ينقاد العامليون لآل بشارة وهم على خلاف في مذهبهم . . . وآل بشارة نسبة إلى بشارة بن اسد الدين مهلهل بن سليمان بن احمد بن سلامة العاملي ، عاش على ايام صلاح الدين الايوبي . انظر تاريخ الجنوب اللبناني ص ٢٤ و ٢٥ لمحمد سعيد ياسين .

كرامته . وذات يوم تحركت الغيرة فيه من ابن خال له كان أكبر منه سنا حين طلبه للمبارزة (وهي التسابق في ركوب الخيل) على عادة فرسان العرب قديما وحديثا، على النقيض من تلك المبارزة القاتلة بالسيف أو الرصاص في أوروبا ايام القرون الوسطى . . . جرت المبارزة أمام جمهور غفير من أبناء القبائل ولا سيما عشيرة أمه (السوالمة) فبرزه علي الصغير وتفوق عليه . اغتاظ ابن الخال وغمز من قناته قائلا له :«لن ابارزك ثانية ما لم تكشف لي امام الجميع حقيقة نسبك». . . ثارت ثائرة علي واسرها في نفسه وبادر الى امه قائلا : «ان لم تكشفي عن نسبي في هذه الساعة فسأغمد هذا الخنجر في احشائي. فمن هو ابي واين هو ولأي قبيلة ينتمي؟ » فشهقت امه وأجهشت بالبكاء خوفا عليه لعلمها بحدة طبعه وحرصه الشديد على كرامته وشرفه وانه اذا قال فعل. وحارت في امرها، فان اخبرته بالحقيقة بادر توا الى الاخذ بثأره من قاتلي ابيه ولربما لقي مصرعه على يد آل شكر الطغاة الاشداء. ولكنها امام اصراره انفردت به واعلنت امامه حقيقة ما جرى لابيه ومن هو ومن هي عشيرته. وكيف كان هذا الاب حاكما مطلقا على بلاد بشارة. وكيف قضى آل شكر على ابيه وحكمه وعشيرته. وانها ما كتمت عنه كل هذه الحقائق الا لأنه كان طري العود يافعا. اما الآن، وان كنت لا تزال فتيا واخاف عليك من رجال الشكرية، غير انني اترك لك الخيار فافعل ما تشاء وحاذر ان تتسرع وارصد الاعداء رصدا حكيما ودقيقا فانت وحيدي والبقية الباقية من عشيرة أبيك [١].

---

(١) تذكرني هذه الحادثة ، ان صحت وهي صحيحة . بحادثة علياء وعصام التي جرت بين قبيلة الرولى في بادية الشام أيضا . وقد خلدها احد الشعراء بقصيدة مشهورة ومطلعها :

رولى عرب قصورهم الخيام ومسكنهم حماة والشام الخ . .

نهاية الشكرية : وهكذا كان حين راح علي الصغير يرصد تحركات قاتلي ابيه. ذهب الى اطراف البلاد واخذ يسترق الاخبار، ويسأل بكل حيطة وحذر من الذين كانوا يميلون الى عشيرة ابيه ويناصرونه. فأرشد الى عائلة يقال لها عائلة بيت عزقول في قرية ياطر (او ياتر او يعثر) من أعمال تبنين، فتوجه الى هذه القرية وسأل عن كبيرهم فأرشدوه اليه، فعندما عرفه هذا الرجل، تحقق من اصله، دخل على قلبه وقلب عائلته السرور وراح هذا الشيخ يزوده بمعلومات وارشادات تهديه الى الطريق الذي عليه ان يسلكه، ولم تمضِ مدة حتى اجتمع حول علي الصغير قرابة مائة رجل ممن كانوا (او كان آباؤهم) من خاصة ابيه. ثم رحف بهم سرا الى مكان الحاكم الشكري في قانا مقر حكمه. وكان له خمسة اولاد ذكور اراد ان يزوجهم في ليلة واحدة. . . وفي هذه الليلة بدأت الافراح والاهازيج وضرب الطبول ونصبت ميادين سباق الخيل واجتمعت اعيان البلاد وشبانها يدبكون ويهزجون والشعراء يتبارون في كيل المدائح للعرسان ولأبيهم. . والكل غارق في نشوة العرس الخمس. . في هذه الليلة كان القدر يهيء لعلي الصغير عرسا من نوع آخر وفرحة بالنصر على الشكريين واستئصال شأفتهم. اسرَّ جماعة علي الصغير في اذن امرأة من قانا تدعى وضاحة كانت خادمة لاسلافه ومخلصة لهم قائلين لها : نحن الآن متوجهون الى مزرعة مشرف [1] وسنكمن فيها حتى نهاية السهرة وعندما ينتهي التعليل [2] وتتم الافراح ويخلو العرسان بعرائسهم

---

(١) سميت هذه المزرعة بمزرعة مشرف لا لأنها تشرف على بلدة قانا بل لان أحد اولاد ناصيف النصار ويدعى مشرف كان مقر حكمه فيها . وقد عرف عن مشرف هذا طغيانه وظلمه .

(٢) التعليل : تناول حلويات العرس . وحتى اليوم تسميه العامة : المعلل.

«بتعملي لنا اشارة فتحملي مصباح نور وتتخطي به من سطح الى سطح وعلينا الباقي». فأجابتهم الى طلبهم [1]

محمود سهيل واحمد الناصيف والزرارية : في اطروحة للدكتوراه اعداد الاستاذ محمود محمد عيسى (طير فلسيه) بعنوان : الشاعر عبد المحسن الظاهر[2] في ديوانه الدر الفاخر، ورد اسم الزرارية مرارا. ففي هامش الصفحة ٢٣ اشارة الى رفيق الشاعر (موضوع الاطروحة) محمود محمد السهيل الذي كان يسكن مع التلميذ محسن الظاهر في غرفة واحدة في النبطية، فيقول عن محمود سهيل هذا بأنه مولود في الزرارية سنة ١٢٩٦هـ ١٨٧٨م.

وعن صداقات الشاعر الظاهر يقول معد الاطروحة انه « كثيرا ما كان يزور احمد الناصيف (احد ابناء ناصيف باشا الاسعد) وشقيق : فارس وسامي ومحمد وحسيب». كما يقول عنه (أي احمد الناصيف) انه بعد ان باع املاكه فيها (اي الزرارية) وسكن في صيدا ودفن فيها جنوبي القلعة سنة ١٩٦٦. كان احمد الناصيف مطبوعا على اللطافة والفكاهة لا يكاد يخلو مجلسه من الطرائف وله

---

(١) والقصة طويلة . اطلبها في مظانها وخلاصتها : ان علي الصغير بهذه الحيلة العسكرية المحكمة وبرجال قلائل استطاع ان يقضي على الشكريين ويبيدهم ويعيد ملك آبائه إلى هونين وتبنين وأخيرا انتهى الامر بأحفاده إلى الطيبة ثم إلى الزرارية . . . اطلبها في :تاريخ الجنوب اللبناني لمحمد سعيد ياسين ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) من ابناء هذا الشاعر صديقنا السيد جودت الظاهر .



الساحة العامة ـ ساحة الشهداء

ولع بالانتقاد التمثيلي (اذا صح التعبير) بمعنى أنه حين ينتقد شخصاً معروفا يقلده في صفاته وحركاته « حتى كأنك ترى هذا الشخص امام عينيك. . . »

محاولة تزعيم احبطها **احمد بك الأسعد** : في سنة ١٩٤٣ رأى شبان العائلة وعلى رأسهم رضا بك التامر اعراضا من الزعيم احمد بك الاسعد فجاؤوا الى احمد بك الناصيف (ابي بهيج) ليقلدوه أمر الزعامة وساروا به الى رئيس الجمهورية بشارة الخوري وابدوا له ان زعامة آل الصغير تتمثل في شخصه، ولا يعترفون بالزعامة لغيره. . . فوعدهم الشيخ بشارة بأنه سينوه باسمه. . وعلم ابو كامل بذلك فاسترضاهم وزارهم فردا فردا [١] وهكذا احبطت المحاولة ولم يتوج

(١) الدلالة العاملية ج ٣ ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠ وفي الاطروحة المذكورة آنفا ص ٦١ .

ابو بهيج زعيما لآل الصغير. وبقيت معقودة اللواء لاحمد بك في الطيبة، وكان يمكن للزرارية ان تعود مركزا لزعامة آل علي الصغير في ما لو نجحت المحاولة.. ولكن... انها حادثة فيها من الطرافة والهزل أكثر مما فيها من الجد.. ومن سهيل علي سهيل العباس يقول صاحب الدلالة العاملية: «انه ولد في الزرارية سنة ١٢٧٦هـ ١٨٨٩م. كان شاعرا كثير الحفظ، طاب الحديث، مولعا بالكناية والاستعارة في نظمه، تزوج السيدة زينب كريمة علي بك الاسعد، توفي سنة ١٣٣٠هـ. ودفن في وطنه الزرارية»(١).

هيبة الباب العالي!
الزرارية داراً للرئاسة

بعد هلاك الجزار في عكا تولى بعده الحكم غيره ثم تولى مكانه سليمان باشا وأرسلت الدولة العثمانية راغب أفندي ناظر الخارجية بالدوغما الهمايونية ليشترك مع الوالي في اصلاح ما افسده الجزار. فاستدعيا فارس النصار وابن عمه محمد او حمد البيك ابن الشيخ محمود النصار المعروف بأبي حمد، واظهرا لهما الإكرام والعناية والرعاية الفائقة فاطمأنا لهما وطلبا منهما اعادة البلاد الى المشايخ

---

(١) جاء في الخطط: «هي قرية من قرى اقليم الشومر وعمل صيدا». وكانت قاعدة عمل الشومر كما يقول عنها صاحب الخطط «وهي مسكن آل علي الصغير أمراء جبل عامل وهي من اقطاعهم. وانتقلت من علي بك الاسعد حاكم بلاد بشارة في القرن الثالث عشر الهجرى إلى ابنائه وابنائهم ورجعوا اليها من تبنين بعد وفاة والدهم علي بك وسكنوها وفيها جماعة=

كما كانت في عهدها الاول لانهم توارثوها سالفاً عن سالف !. . . ومدنوها واحدثوا فيها المشاريع الحيوية المتعارفة في ذلك الزمن. ومنها جفتلك راس العين (قرب صور) وقسم كبير من بساتين صيدا. فأجابهما بأن ذلك غير ممكن بعد ادخاله في واردات الخزينة منذ خمسة عشر عاما. ثم تم الاتفاق على اعطائهما مقاطعة اقليم الشومر برمته عوضا عن املاكهم المغصوبة المتفرقة في سائر البلاد، واجريا ترقين [1] لهذه المقاطعة من دفاتر الخزينة، ووزعت الضريبة الموضوعة عليها من اموال وذخائر على باقي المقاطعات، واعطيا بها المراسيم العالية، التي من جملتها انها «مرفوعة القدم ممنوعة القلم» [2]. ثم عينا لبيت الرئاسة مئتي كيس سنويا تدفع للرئيس من خزائن عكا وتدفع له ذخائر مرجعيون في كل سنة ايضا [3]. ثم ان سليمان باشا سأل عن المحل المناسب للرئيس فأجيب بعد الفحص ان قرية الزرارية هي انسب الاماكن موقعا واحسنها هواء. . فاعطيت للرئيس برمتها [4] ثم أمر البنائين فشيدوا البنايات المناسبة للعيال (عيال الرئيس) والاضياف والحكم، وبنيت على نفقه الدولة. ثم انتقل اليها فارس النصار

=من آل مروة الذين هم من نسل الشيخ عبد الصمد أخ البهائي الخ . . . » خطط جبل عامل ـ السيد محسن الامين » .

(١) الترقين هو اخراج قيود المقاطعات والعقارات .

(٢) اى ليس عليها شيء من الضرائب .

(٣) ذخائر أي مدخرات . وذخائر لبنان نفائسه .

(٤) وهب الامير ما لا يملك . لاحظ كيف ومع من كان الحكام والولاة العثمانيون يتصرفون في توزيع الاقاليم والقرى والمغانم . . اما الشعب فهو حاضر غائب . واذا عمل فانه يعمل في=

ومحمد البك المحمود وجمع من آل الصغير وآل ابي صعب وآل منكر. وقسمت قرى إقليم الشومر ومزارعه بينهم كل بحسبه، وأصاب بيت الرئاسة منها سهم وافر، وهذه الرئاسة كانت بيد الكبير من آل الصغير، يتولاها من قبل الوالي. وكان هذا الكبير سنا هو فارس الناصيف.



=ارض ليست له . . . لكنه النظام الاقطاعي المعمول به في تلك العهود حيث كان شعاره : الارض ومن عليها للسلطان !





الزرارية

كما جاء تعريفها في كتاب : اعرف لبنان - موسوعة المدن والقرى اللبنانية

عفيف بطرس مرهج ج ٥ ط ٣ ص ٤٥٨ ١٩٨٥ بيروت

تصويب :

١ ـ ستلاحظ في هذا التعريف عدم ذكر المصدر او المصادر التي أخذ عنها.

٢- عدم التحقق من المعلومات وذلك عن قصد أو غير قصد .

٣- عدم تصحيح المعلومات في الطبعتين الثانية والثالثة . من حيث عدد البيوت والسكان وعدد الخريجين المتخصصين الذين يزداد عددهم كل عام ، والمرافق والمنشآت والمشاريع التي استجدت قبل ١٩٨٥ وهو تاريخ آخر طبعة .

٤- عدم ذكر بعض عائلات الزرارية القديمة والعريقة واكتفى بذكر آل مروة وزرقط وهاشم وفخري وجمعة وحلال وجزيني ومحي الدين (٨ عائلات من اصل ٤٠ وأكثرها قديم وعريق ومشهور).

فقال : الزرارية :

تقع في محافظة الجنوب قضاء صيدا ترتفع عن سطح البحر ٣٠٠ متر .

عدد سكانها ٨٠٠٠ (؟ !) عدد منازلها ٤٥٠ (؟ !)عدد النازحين فيها ١٤٢٥ (؟)

تبعد عن بيروت ٨١كلم - عن مركز المحافظة ٢٨ كلم - عن مركز القضاء ٢٨ كلم .

نصل إليها عن طريق : صيدا - صور مفرق ابو الأسود (؟) مع ان الوصول اليها بالسيارات هو من مفرق جمجيم- الزرارية وليس ابو الأسود ! ! أبو الأسود يصلنا بانصار وليس بالزرارية (إلا إذا كان يقصد الطريق الترابية للمشاة) : (وادي خليل أو السنير)وهو ما يجهله تماما .

أصل الاسم : منقول حرفيا عن موسوعة المدن والقرى اللبنانية لأنيس فريحة، ولم يشر الى ذلك وهذا معناه سوء الأمانة . . . فعل ذلك بالنسبة لجميع القرى والمدن اللبنانية . . .

الدوائر الرسمية : تابعه لمحكمة صيدا فيها مخفر درك ومكتب بريد وموزع هاتف ومجلس بلدي أنشىء سنة ١٩٦٣ (وهو الآن محلول) ومجلس اختيارى ومختار الزرارية اليوم هو خليل شرارة أبو تحسين ، أما القائم بأعمال البلدية المحلولة فهو رضا مروه أبو الوليد. (كل هذا لم يذكره صاحب الموسوعة !)

المدارس : رسمية تكميلية مختلطة (لا يقال تكميلية بل متوسطة)

الأندية : نادى الشبيبة الزرارية .

المياه : مصدرها مشروع نبع الطاسة .

الأعياد : الأضحى -الفطر - المولد النبوي -(لم يشر الى ذكرى عاشوراء أو العاشر من محرم وإن لم تكن من الأعياد) ولكنها مناسبة دينية هامة .

لسيارلك : (التي لم يأت بها المؤلف الى الزرارية) . . . محطة وقود واقرب مرآب الى صيدا . (مع أن هناك مرائب حديثة كثيرة لم يشر إليها . أقله في الطبعة الأخيرة). . . .

للطوارىء الصحية : اقرب طبيب للبلدة في صور ٢٤ كلم (الاصح ٢٠ كلم) والنبطية ١٦ كلم مع أن هناك في الزرارية اطباء كثيرين مارسوا المهنة فيها وذلك قبل وبعد ١٩٨٥ . وهو تاريخ الطبعة الجديدة للكتاب : أعرف لبنان ! فتأمل ! !

- المؤلف -

الإنتاج الزراعي :

تبغ ٥ طن - انقرضت زراعة التبغ منذ عشر سنوات على الأقل وحلت محلها زراعة الحمضيات والخيم البلاستيكية .

-حبوب على أنواعها للاستهلاك المحلي : ٥٠ طناً

-حمضيات : ٥٠ طناً

الانتاج الصناعي : مكبس حديث لاستخراج زيت الزيتون :

معصرة دبس (الخروب) حديثة (لم يشر الى القديم منها).

من الزرارية :

المرحوم كامل مروه مؤسس دار الحياة .

الدكتور رضا مروه (لم يشر الى أنه صاحب مستشفى مروة في بيروت) ثم إنه في الطبعة الثانية والثالثة لم يستدرك هذا النقص الكبير في المعلومات عن

أعلامها وخريجيها واختصاصييها . . . وهم كثر منهم :

الطبيب : فضل مروه : لم يذكر اين يمارس مهنته وهل هناك غيره من أبناء الزرارية . .

الصيدلي : محمود سلمان مروه : لم يذكر اين يمارس مهنته وهل هناك غيره من أبناء الزرارية .

المجازون : لم يذكر سوى اثنين مع أن هناك عشرات ان لم نقل المئات من الخريجين قبل عام ١٩٨٥ وهو عام اصدار الطبعة الثالثة من هذا الكتاب . . (اعرف لبنان)

هذان المجازان هما : ماجد فخري : ماجستير علوم طبيعية (؟)مع انه يحمل الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ادنبره منذ العام ١٩٤٩ (! !)وهو الآن رئيس الدائرة الفلسفية في الجامعة الأمريكية ببيروت ومنذ زمن بعيد .

ونصير مروه : فلسفة واجتماع (مع أن في بيت أهل نصير مروه وحده أكثر من اختصاصي وحامل إجازة).

قليلا من التروي والتحري والعدل يا سيد عفيف والا فكيف نعرف لبنان حقيقة من خلال موسوعتك ؟ ! في الطبعات القادمة نرجو ان تكثر من المعلومات وتصغر من الحروف . هذا اذا كنت لاتزال على قيد الحياة !

– المؤلف –

شوارع الزرارية وحاراتها وزواريبها :

بعد الساحات والمداخل يبقى ان نذكر الطرقات الداخلية والزواريب وما طرأ عليها من تحسين وتقويم ، فنقول :بدأت هذه البلدة ، وفي أواخر النصف الأول من هذا القرن ، ولا سيما في بداية الستينات تتخلص تدريجيا وببطء من زواريبها المتعرجة وطرقاتها الضيقة . بفضل قيام البلديات واهتمام بعض رؤسائها بتحسينها وتقويمها ، رغم أنه كان اهتماما هزيلا . أما الاهتمام الأنشط فقد جسده مغتربان غيوران هما السيدان علي طعان ونجله حسين بالتعاون مع فعاليات البلدة ومؤازرة حركة امل :بدأوا جميعا بتجفيف البركة العامة ذات المياه الآسنة المليئة بالجراثيم والميكروبات . ثم مدوها بالباطون فنهضت مكانها ساحة سميت بساحة الشهداء وتنفست البلدة الصعداء .

وكان لسعادة محافظ الجنوب الأستاذ حليم فياض فضل الدعم وتأمين قرض للبلدية التي انحلت أثناء الأحداث وقام هو - مع أمين سر البلدية السابق السيد رضا مروه (أبو الوليد) ـ بتصريف شؤونها ثم أخذت الجمعية الأنمائية زمام المبادرة في إكمال المشاريع الخيرية للبلدة .

وقد زار سعادته الزرارية واطلع عن كثب على حاجاتها العمرانية والتربوية وتابع تنفيذ بعضها ؛الأمر الذي لم يألفه اهالي الزرارية من أي محافظ قبله ، أو أي مسؤول . .

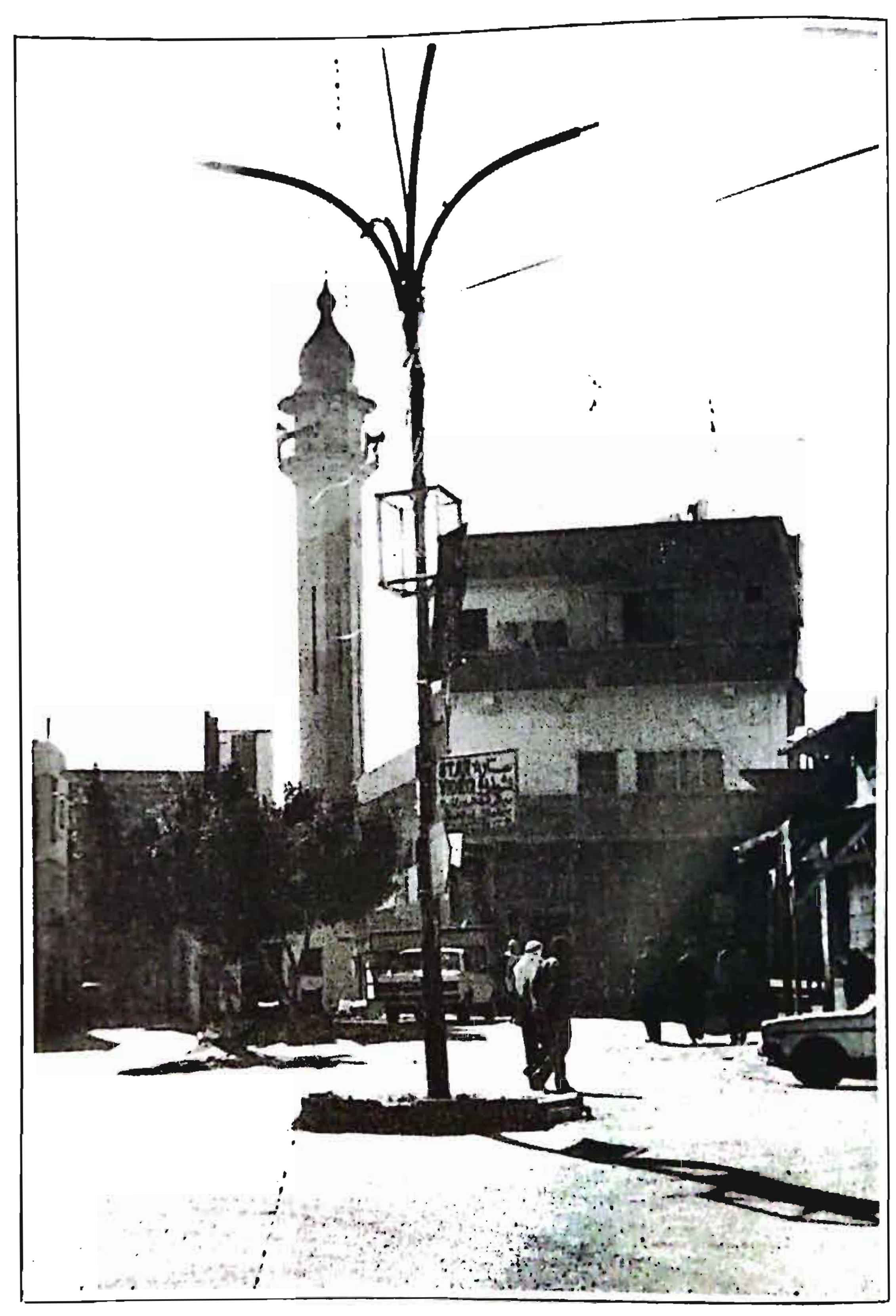
المصاطب : قضى قانون التطور الحتمي في الزرارية على ما كان يعرف بالمصاطب العامة القائمة على جانب الطرقات الداخلية والزواريب ، وذلك بسبب التوسع والتوسيع .

ونحن الحضرميين نعرف كم كان لتلك المصاطب من شعبية ومتعة في الاستراحة عليها . مصاطب هي محطات ومستراحات . طالما كنت اشاهد الشيوخ يجلسون عليها متلاصقين لأخذ غفوة أو قيلولة قصيرة ، بعدها يتجاذبون أطراف الأحاديث عند عصر كل يوم من أيام الربيع والصيف كما كانوا يحلون مشاكلهم عليها . وكان المرحوم والدنا من بين هؤلاء الذين يجلسون على المصطبة الملاصقة لمنزله . يتخذها - بعد صلاة الظهر - متربعا له مع بعض الشيوخ والأقرباء ومن بينهم عمنا المرحوم السيد حسين شرف الدين أبو رفيق ليروي لهم الأحاديث النبوية والروايات والطرائف والعظات . .

أزيلت هذه المصاطب أو « الفرايز » أواخر الستينات بحكم عاملين : عامل توسيع الطرقات والزواريب . وعامل آخر ليتمكن بعض المغتربين من إدخال سياراتهم للوصول الى داراتهم ومنازلهم الحديثة التي بنوها داخل البلدة القديمة .

الشارع العام : او الطريق التواصلي الهام :

منذ بضع سنوات اخترق الزرارية طريق عام (يكاد يكون اوتوستراداً) بدءا من مفرق البلدة على الطريق الدولية الساحلية (بيروت - صيدا - صور - الناقورة) مارا، ، صعدا، بمحاذاة مزرعة كفربدا ، شاطرا مزرعة جمجيم شطرين، وكذلك السكنية وقرية الخرايب ، متجها الى الزرارية بمحاذاة قرية ارزاي مارا بجانب هضبة (ضهر الهوا) وبص البلدة مخترقا اياها ، حيث يقسمها قسمين . ثم ينحدر شمالي ساحة البلدة مخترقا ساحة الشهداء من الجهة الشمالية، منحدرا بعد ذلك نزلا ، شاطرا كذلك المقبرة الحالية ، ثم يسير الهوينا باتجاه منطقة الحمرا شمالي قرى : صير -كفرصير - القصيبة - ويرتفع منتهيا بحبشيت جنوبي شرقي قرية حاروف ، ملقيا برأسه ومنكبيه على مداخل مدينة



جامع البركة ومئذنته الشاهقة

النبطية عند ساحة الدبانة ، مخلفا وراءه قرية زبدين تطل عليه من عليائها. تقابل هذا الطريق من الجهة الشمالية الغربية قرية الدوير مسقط رأس العالم والمخترع الشهيد رمال رمال، وكذلك قرية «الشرقية».

وفي داخل الزرارية يتقاطع هذا الطريق مع شارع داخلي لابأس باتساع يقسم البلدة الى قسمين غربي وشرقي تقوم على جانبيهما محلات تجارية حديثة. والطريق الجنوبي لهذا الشارع ينتهي جنوبي ساحة الشهداء حيث تبدأ الزواريب المتعرجة والضيقة التي تخترق «حارة السياد» ويتطلب توسيعها واستقامتها استملاكات كثيرة لا قبل للبلدة والبلدية «المنحلة» بتحمل نفقاتها، ولا الجمعية الانمائية، قادرة على رصد اموال طائلة لتنفيذ ذلك المشروع. واني لآمل - في مطلع القرن القادم - ان يتم تنفيذ هذا الطريق الداخلي الهام الذي هو الآن زاروب متعرج، لتتنفس الزرارية برئتين واسعتين جنوبية وشمالية. .

وهناك طريق فرعي قصير يبدأ قرب محلات الحاج علي خليل لينتهي بعد خمسين مترا تقريبا بساحة الحسينيتين. وعلى المقلب الشمالي للطريق العام الرئيسي طريق فرعية اخرى موازية، لكنها ضيقة ومتعرجة، تصعد قليلا لتنتهي شرقا بالبيدر القديم وبمدخل دارة السيد رفيق شرف الدين التي كانت منزلا لوالديه ثم طوره السيد رفيق وحوله الى دارة جميلة تحيط بها وبمدخلها حدائق غناء. وتتعملق بجانب هذه الدارة شجرة صنوبر قديمة فارعة ومتفرعة يجلس في ظلالها الاصدقاء والزائرون والمسافرون من شاربي الشاي المعتق والقهوة الفاخرة تجود بها ضيافة هاشمية شرف الدينية اصيلة. .

ويلف البلدة من الجهة الغربية طريق شقت قديما وعبدت حديثا تنتهي بالجبانة المطلة على «وادي العين» يربض على ضفتها الغربية منازل ودارات من

بينها دارة حديثة بناها المرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين ، ولم يسمح له القدر المحتوم بسكناها سوى سنة وبعض السنة . وها هو نجله الأكبر أبو حسن يسكنها ويزرع مدخلها الرئيسي ذا الرتاج الكبير بالأشجار المثمرة من كل نوع ، كما يزرع الأدب والدماثة ولطف المعشر في كل أنحائها وحسن الوفادة للأقرباء والأصدقاء على السواء، لا سيما الأطباء منهم . .

أما هضبة ضهر الهوا فتكاد تتحول إلى قرية قائمة بذاتها . وكذلك الناحية المطلة على وادي خليل من الجهة الشمالية والتي تقوم على أطرافها دارة جميلة للأخ المجاهد السيد محمد شريف هاشم أبي عماد ، فتكاد هي الأخرى (أي المحلة) تصبح قرية عامرة .

هكذا انقلبت الزرارية بفعل اتساع رقعة العمران فيها واتساع أراضيها إلى مجموعة قرى في قرية واحدة أو بلدة كبرى هي الزرارية . الأمر الذي سمح لنا بتسميتها بلدة وليس قرية . . بلدة لن يمر الربع الأول من القرن القادم إلا وتصبح مدينة إن شاء الله ، بفضل نجاحات مغتربيها على كل صعيد وتكاثر سكانها ، وبفضل الجمعيات الإنمائية التي ستقوم مع ما هو قائم الآن ، من أجل تطويرها وتثويرها .

أحياء الزرارية وحاراتها ، وضهورها (جمع ضهر) :

أشهر حارات الزرارية القديمة :

١- حارة السياد : على المقلب الجنوبي من البلدة . سميت بحارة السياد لأن أكثرية ساكنيها من السادة الأشراف من آل هاشم وسليمان وبدر الدين وجوهر وشرف الدين . .

٢- حارة الهدفة .

٣- حارة التعلبية .

٤- حارة الشنوق : على هضبة مرتفعة نسبيا تشرف منازلها على جميع أنحاء البلدة .

٥- حارة الخنيدق : هذه الحارة مؤلفة من بيوت حديثة متناثرة .

٦- حارة أو كرم « بو عواضة » .

٧- الدوار .

٨- خلة اللبيد - جلالي العريشة - جل موسى حامدي .

٩- حارة الحمرا : شرقي المقبرة مباشرة وفيها مدرسة الشعلة الخاصة وبعدها بقليل يقوم مطعم حديث يدعى « قصر المشتاق ».

١٠- حاره المغيرية : في منخفض المقبرة الشرقي حيث تقوم مدرسة حديثة خاصة يملكها المربي المدير الأستاذ محمد أحمد حسين حيدر (الشامي).

١١- حارة ضهر الهوا : أو المجمع السكني الحديث في ضهر الهوا .

١٢- حارة الزيبقية .

١٣-حارة البركة المؤلفة من البيوت المحيطة بالبركة سابقا او ساحة الشهداء اليوم .

١٤- حارة البيدر .

١٥-حارة المعقب .

١٦- حارة النافورة .

١٧- حارة او خلة الحمرا وجل اللطش

١٨- خلة ابو موسى.

١٩- المنظر الجميل : حيث يقع في اوله منزل المرحوم أبي نصير احمد الحاج عبد الكريم مروه .

٢٠- حارة المنشية وكرم السلطانة.

٢١-حارة او ساحة العريشة يحيط بها من الجنوب الغربي دار متعددة الغرف كانت مقرا لحكم ناصيف باشا الأسعد وسكنه. وهي اليوم أطلال اخترقتها منازل شعبية. . حديثة. . ويقع على شمالها مسجد قديم يدعى جامع ابو الحن او جامع العريشة .

ضهور الزرارية او مرتفعاتها :

- حارة الضهر في منطقة الضهر. ويسمى هذا الضهر ضهر عبد الواحد. وقد بدأ الدكتور سحبان مروة ببناء دارة ومكتبة له وللأشقاء فيها، في منطقة ضهر عبد الواحد، زرتها وهي توشك ان تكتمل، فاعجبت بهندستها العربية المميزة. ولاغرو فبصمات سحبان بارزة على قسماتها لما امتاز به هذا الشاب الاديب والشاعر والمخرج من رهافة حس وثقافة واسعة وذوق رفيع. هذه الدارة ستكون في موقع القلب من مجمع سكني يوشك ان يتكامل.

- ضهر هيدوس : ملاصق لضهر عبد الواحد من الشمال.

- ضهر البيدر.

- ضهر البياض : ينوي المغترب الشاب السيد تيسير شرف الدين (ابن عمنا) ان يبني في وسطه دارة لا أشك في أنها ستكون جميلة نظرا لما يمتاز به

السيد تيسير من ذوق رفيع وحس ريفي مرهف يلائم دائما بين الطابع المديني والطابع القروي. .

وضهر البياض هذا هضبة قريبة من مرتفعات الليطاني تشرف على سائر القرى المجاورة وتطل ـ من علٍ ـ على السهول والوديان المترامية حتى السهول الساحلية والمتوسطة.

-ضهر سعادة : هضبة يقوم عليها بستان حديث يملكه السيد نجيب شرف الدين (ابو رضا) شقيقنا الأكبر. ينحدر هذا الضهر من هضباته المتعرجة حتى يلامس او يكاد ضفة الليطاني الشرقية.

- ضهر الميدان : تعلو صهوته دارة المرحوم عمنا السيد حسين جواد شرف الدين (ابو رفيق).

- الرؤوس : في الزرارية هضبات محيطة شامخة تسمى بالرؤوس. نعد منها :

رأس السيد ، ورأس الرز. الخ. .

العيـــون :

وهي الينابيع المتفجرة بشكل طبيعي : كعين الحور ـ عين الصايغ ـ عين الوادي (في وداي العين المستصلحة في اواخر الاربعينات والتي كان الاهالي يستقون منها بالجرار قبل جر مياه نبع الطاسة الى الزرارية. وقبل حفر الآبار الارتوازية الخاصة). وهناك عين يالوش الجافة بجوار المغيرية. وعين ليلى المتفجرة من سفوح ضهر سعادة الغربية.

الوديـــان :

كون الزرارية رابضة على هضبة شمالي الليطاني فلا بد أنها محاطة بعدة وديان منها : وادي خليل شمال غرب البلدة وادي جهنم ـ وادي العين .
ـ منخفض المغيرية . وادي انصار، شمالي البلدة ويفصل بينها وبين بلدة انصار جغرافياً.

الزرارية شوارعها وساحاتها :

وهناك على مدخل الزرارية الغربي شمالي الطريق العام هضبة تدعى «بو عواضة» قام ويقوم عليها مجمع سكني وتجاري حديث يولف بحد ذاته قرية جديدة ملحقة بالزرارية ـ الأم. من بين دارات وبنايات هذا المجمع تنفرد دارة قريبنا الاستاذ السيد محمد شريف هاشم (ابو عماد) وهو شقيق الشهيد نعمة شريف هاشم. تقابل هضبة بو عواضة هذه هضبة اخرى تدعى الفاخورة متصلة بضهر الهوا، وقد بدأ العمران يدب فيها وعليها. يفصل بين الهضبتين طريق ترابي يؤدي الى وادي خليل الذي كان عامرا باشجار السنديان والسريس ، ينساب في اسفله نبع ماء يجف صيفا. عمران هضبة بو عواضة لايتجاوز عشر سنوات حتى الآن (اوائل العام ١٩٩٤) ومع ذلك فقد شقت فيها طرقات داخلية واسعة غطاها الاسفلت بهمة ابن الزرارية البار النائب الشعبي الحالي الدكتور سعيد الاسعد الذي صرف عليها من مخصصاته كنائب اكثر من ١١٠ ملايين ليرة لبنانية. وها هو

يسعى بكل اخلاص وكتمان الى ان يرفع عن بلدته وجنوبه ذلك الحرمان المتمادي عبر عهود سابقة وعهود. . .

وعلى المقلب الشمالي للزرارية تقع منطقة البيدر القديم وجل اللطش يحيط به مساحات شاسعة اكثرها مشاع غزاها فقراء البلدة ومتوسطو الحال الذين لا يستطيعون شراء عقار للبناء بعد ان ارتفع سعر المتر اكثر من اربعين دولارا هؤلاء «الغزاة» هم من العمال والمزارعين والحرفيين الصغار ومن غير المغتربين ، فما العمل ؟وقد ضاق بهم وبأولادهم بيت الاهل؟ لا بد من هذا « الغزو» المبرر. . وتم البناء وازدهر المشاع بالسكان والحدائق حول كل بيت بعد ان كان صعيدا جرزا. ألآ ان الارض لمن يحييها بمعوله كل يوم وليست للأشواك والهشيم والمراعي، كما انها ليست للاغنياء يبنون عليها قصورهم وداراتهم ثم لا يسكنونها الا لماما. .

لقد بدأت قرية جديدة ملحقة بالزرارية ـ الام، من الجهة الشمالية، تظهر رويدا رويدا ببيوتها الحديثة على تواضع، والمتواضعة على حداثة. .

وهكذا احاطت بالزرارية ـ الام هضبات كثيرة عامرة تزنرها من كل جانب مثل : هضبة « المنظر الجميل» التي سبقت كل الهضاب الاخرى بالعمران وبناء المنازل. ومثل ضهر عبد الواحد وضهر هيدوس وضهر الميدان وضهر البياض وبو عواضة والفاخورة.

فكيف لا تصبح الزرارية ـ الأم مع هضباتها وضهورها العامرة مدينة؟ ! ومدينة حديثة في مطلع القرن الحادي والعشرين؟ ! . . إني على مثل اليقين من ذلك سيما اذا سار البناء فيها على وتيرته الحالية، وهمة شبانها من المغتربين

والمقيمين الذين يحبون بلدتهم ويتعطشون الى السكنى فيها بعد ان هجروها او هجروا منها قسرا في العهود الاقطاعية السابقة.

لقد بدأت صحوة ابناء الزرارية منذ نصف قرن وخاصة منذ الربع الأخير من هذا القرن. . . اجل لقد صَحَوا علميا واجتماعيا وها هم يصحون عمرانيا.

جسر تواصلي آخر :

اخبرني الصديق وابن الصديق السيد نسيم مروه [1] بأن مصلحة المشروع الأخضر تخطط منذ اشهر لشق طريق بري تواصلي يربط ما بين بلدتي انصار والبابلية المجاورتين لشمال الزرارية واللتين يفصل بينهما وبين الزرارية وديان وكثبان وطريق ترابية ضيقة لا تسلكها سوى الدواب، ستختصر هذه الطريق مسافات طويلة. فبدلا من سلوك الطريق الحالية بين الزرارية والطريق الساحلي العام للوصول الى هذه القرى تصبح الطريق المنوي شقها ثم تعبيدها جسرا بريا يصل بين الزرارية وعشرات القرى الواقعة على شماليها.

ولا يضاهي هذه الطريق او الجسر البري الجديد سوى جسر ٦ شباط الذي تمت اقامته على نهر الليطاني قريبا من الزرارية والذي وصل بين جنوبي الجنوب وشماله. إنهما جسران تواصليان فيهما ما فيهما من فوائد اجتماعية واقتصادية ومن اختصار للوقت والجهد اللذين كان الجنوبي يبذلهما «ويقضي عمره على الطرقات الصعبة» كما تقول اغنية هدى الرحباني في اغنيتها . . .

بكل هذا العمران والتواصل تصبح الزرارية محورا هاماً بين قرى «القاطع»

---

(١) السيد نسيم هو احد انجال المرحوم محمد علي هادي مروه (ابو قاسم)

القرى التي يقطع الليطاني بينها وبين شماليه كقرى : طير فلسيه وبدياس ومعروب والعباسية ودير قانون النهر. ولم يعد هذا النهر الأليف يقطع بينها. الآن. . بل عاد شريانا ووريدا ـ كما هي حقيقته. يغذي قلب جبل عامل واطرافه بالدم والحياة. . (١)

وبعد، يبقى اكتمال المرافق لنعتبر الزرارية مدينة : ايجاد بلدية فاعلة ذات موارد مالية كافية. استحداث قائممقامية فيها. مؤسسات مصرفية وصحية ومستشفيات خاصة ورسمية ، دار للسينما والمسرح. مصانع ومعامل وشبكة مواصلات واتصالات داخلية وخارجية الخ الخ. .

- اذ ليس باتساع رقعة البلدة وتنامي العمران فيها تصبح البلدة مدينة بل بكل هذا معاً. .

المعالم الاثرية في الزرارية وجوارها :

ليس في الزرارية معالم اثرية او آثار مكتشفة، ولا يعقل الا يكون في باطنها آثار دفينة ترقى الى عهود قديمة وحتى فنيقية. لم لا ؟ وهذا اسمها يدل على اقدميتها، كما رأينا، حين وجدنا ان هذا الاسم آرامي الجذر وموجود في العبرانية والفنيقية : آنا بمعنى ازرار الورد وآنا بمعنى الشوك وآخر بمعنى المحاربين كما تقدم.

وهذه المغيرية الملاصقة للزرارية والتي هي قرية مندثرة اليوم، اكتسفت فيها عن طريق الصدفة آثار منوعة تدل على انها كانت مسكونة وفيها قلاع او

---

(١) انظر الحديث عن هذا الجسر في مكان آخر من هذا الكتاب .

حصون[1] وقد بدأ بعض اصحاب العقارات هناك يستخرجون القليل مما يصادفونه من تلك الآثار كالخزفيات والفخاريات والتماثيل الصغيرة وما اشبه. فكيف بالزرارية لا يكون تحتها آثار ذات قيمة وهي أكبر من المغيريه وأقدم وكانت مركز نشاط ومقاومة في العهد التركي بدليل ان فخر الدين احرقها هي وانصار وقرى أخرى كما يؤكد المؤرخون القدامى والمحدثون .

المغاور :

- مغارة جمعة - مغارة جل اللطش - مغارة العين الخ . . .

الآبار المهجورة :

كان في كل بيت ريفي بئر محفور تتجمع فيه مياه الامطار بواسطة المزاريب (الميازيب) تُستعمل في العادة لسقاية الدواب والطيور الداجنة، واحيانا للانسان عند الضرورة ، وإلا فماء العين الصافية.

اما اليوم فقد جفت هذه الآبار لعدم الحاجة إليها ولتغيير معالم المنازل او هدمها ليقوم مقامها بناء حديث اذ حلت محلها مياه الآبار الارتوازية والمياه الآتية بالقساطل من نبع الطاسة .

---

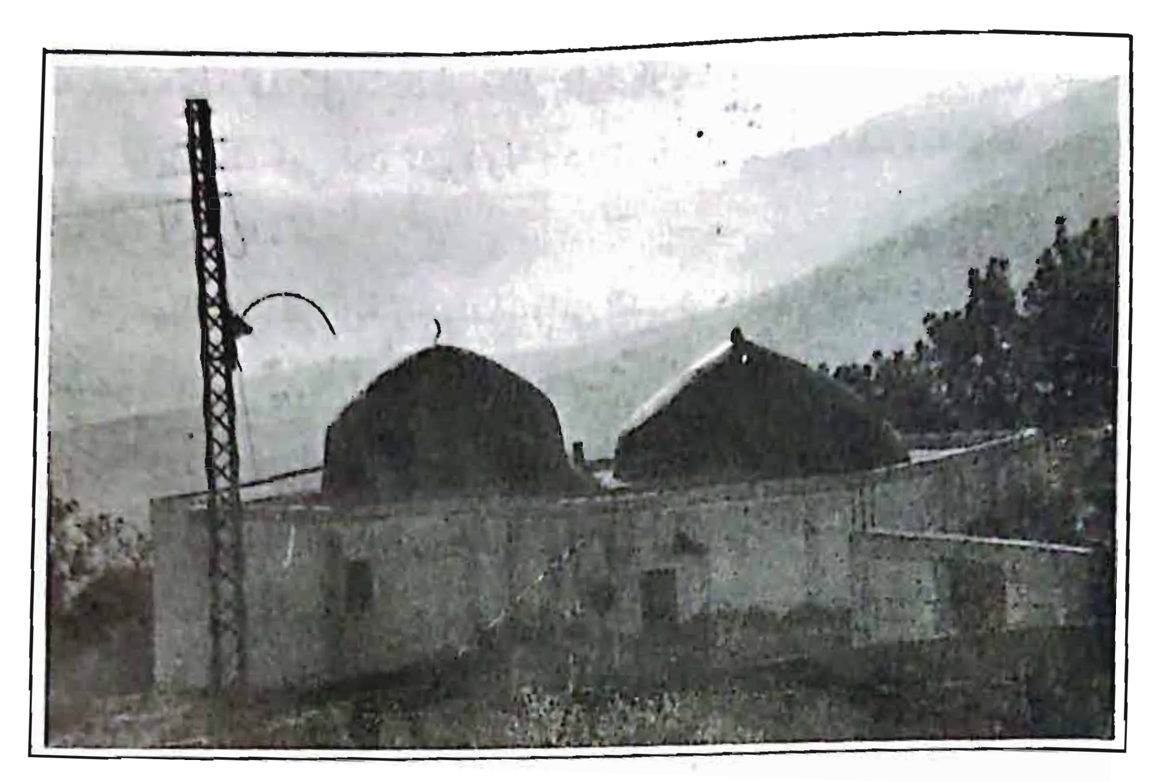
(١) ذكرنا في بعض فصول هذا الكتاب قصة اليالوشي المارق الذي كان من تلامذة الشهيد الاول وحين اعلن تمرده احتمى في حصن منيع في المغيرية . ولكن الشهيد الاول جرد حملة عليه واستأصل شأفته . وهناك محلة او حقل يدعى عين «يالوش» لعلها نسبة إلى هذا اليالوشي والله اعلم . . .

هذه الرواية مأخوذة عن بعض المراجع ومن بينها العقد المنضد لشبيب باشا الاسعد .

المقابر : في أوائل هذا القرن كان الأهالي يدفنون موتاهم في مقبرة بالقرب من مدخل جامع البركة، اي في وسط القرية ثم اندثرت بعد توسع البناء وازدياد حركة العمران منذ الاربعينات وقامت بديلا عنها مقبرة على اطراف الزرارية الشرقية في منبسط من الارض قائم على منحدري وادي العين والمغيرية بالقرب من مقام النبي طاهر الخليل ـ كما يسميه أهل الزرارية ـ وقد اعتنى بها المغتربون فسوروها واقاموا بالقرب منها مصلى مسقوفا يصلى فيه على الميت قبل دفنه. وبعد وقوع المجزرة الرهيبة التي نفذتها اسرائيل في الحادي عشر من آذار ١٩٨٥ والتي ذهب ضحيتها حوالي الاربعين شهيدا من ابناء الزرارية وغيرها كان لا بد من مقبرة جماعية يدفن فيها هؤلاء الشهداء الابرار المعلوم منهم والمجهول. وهي اليوم على المقلب الشرقي لمقبرة الزرارية العامة.

حتمية التطور والعمران : كما اندثرت المقبرة القديمة الاولى وحل محلها العمران وقامت المقبرة الحالية على أطراف الزرارية الشرقية، ومن يدري، قد تصبح هذه المقبرة في وسط زرارية المستقبل. . تحت تأثير قانون التطور وحتميته. وها نحن منذ الامس القريب نشاهد حركة البناء تلف البلدة والمقبرة. وتقوم على جوانبها بيوت كثيرة.

المقامات : يقع في الجهة الغربية من المقبرة الحالية مقام قديم يقال انه مقام الطاهر الخليل. تعلو هذا المقام قبة ضخمة تحتها غرفة النذور كانت توضع على محملها اكسية وألبسة. ومقدم النذر يدخلها ليلا ليضيء سراجا او شمعة كبيرة ثم يغادر الغرفة قافزا فوق فوهة بئر قديم جاف، وفي داخل هذا المقام يضع حفارو القبور النعش الخشبي وتوابعه . أما شبه الحديقة المحيطة بالمقام فقد اهملت اهمالا وعراها الشوك والعوسج والهشيم فقد فترت همة الناذرين او خف اعتقادهم بمثل



مقام النبي الطاهر الخليل (او خليل الرحمن ابراهيم)

هذه النذور فاهملوا الحديقة وحصروا النذور ـ بعد أن أيسروا ـ بمقام السيدة زينب في الشام، أو أصبحوا يحولون النذر الى قيمة نقدية يقدمونها لامام المسجد في القرية أو يوزعونها على الفقراء بعد أخذ فتوى من إمام البلدة لتشريع هذا العمل. . .

أسماء العقارات والاماكن :

في الزرارية ـ كما في كل قرية لبنانية أسماء عقارات وأماكن تحمل رموزا تاريخية أو القابا او أسماء مالكيها الاوائل. وقد يدل رمزها او لقبها على حادثة أو على شخص معين كعين يالوش مثلا التي لا شك في أنها منسوية الى اليالوشي ذاك المتمرد الذي خرج عن طاعة الامام الشهيد الاول خاصة وان عين يالوش هذه تقع بالقرب من المغيرية اليوم التي احتمى في حصنها هذا اليالوشي. . .

وهكذا نجد كل مكان أو عقار مملوك او مشاع في الزرارية يحمل اسما او لقبا أو تاريخا. فهي اذن كثيرة ولا يمكن تعدادها هنا بل نعدد بعضها للتسلية او التذكرة لا للفائدة طبعا :

فهناك في الزرارية وحولها : رأس السيد ـ ضهر سعادة ـ ضهر الهوا ـ الضهر ـ ضهر عبد الواحد ـ ضهر هيدوس ـ المقشبرة ـ البياض ـ المغيرية ـ الوطا ـ وادي العين ـ عين الحور ـ جل اللطش ـ الخنيدق ـ الحمرا ـ الدوار ـ خلة اللبيد ـ جلالي العريشة ـ جل موسى حامدي ـ الزيبقية ـ عين الصايغ ـ خلة التون ـ خلة عواضة ـ صيرة علي حسن فخري ـ بو عواضة. . الفاخورة الخ. . الخ. .

« فلسفة» : إنها العلاقة الابدية بين الانسان والارض يأخذ منها صفاتها وديمومتها كما يأخذ منها جسميته الترابية وتأخذ منه اسماءه والقابه ورموزه ويمضيان معا بفعل هذه العلاقة العضوية في عملية تفاعل وانفعال وانتاج وتبقى هي الاقوى حين تطويه بين طياتها، وترده اسفل سافلين. . لكنه يتحداها. . يتحدى الطي بالنشر، والموت بالانبعاث. . ومن تراه يكون طائر الفينيق ذاك. . ان لم يكن هو هذا الانسان الجبار، القادر القاهر للموت بما يبدع ويترك من آثار حية تبقى على الدهر . .

لكن . . بعد هذه العلاقة الجدلية ، ايهما المنتصر ؟ ومن منهما الاخلد؟ !

لا هي ولا هو، انه خالق الارض والانسان ، الحي الباقي بعد فناء كل شيء. . .

اما الذين تصوروا – عبر التاريخ – من طغاة وجبارين ، انهم قادرون على افساد تلك العملية، فقد تبخر تصورهم حين قامت الثورات في شتى انحاء الارض لاسترداد الحق السليب ، وستبقى هذه الثورات قائمة ولن تقعد ما دام هنا وهناك وهنالك طغاة وجلادون ومغتصبو حقوق . . .

ايها الانسان :ابق في ارضك ، دافع عنها ، لا تسلمها لمن لا يملكها . . .

انت المالك الحقيقي لها ، لا بسند التمليك وحده ، بل باحيائها ، باستثمارها والذوبان فيها عرقا ودما وعطاء . . .

ايها الانسان : انت من الارض والى الارض تعود . . . فلا تلق سلاحك الا بعد ان يغادر المستغلون لك ولارضك آخر شبر مغتصب منها . . .

ايها المزارع :ليكن شعارك في الدفاع عن ارضك :

الحق لقوة الحق

لا لحق القوة . . .

بعد ان كان شعار سالبي هذا الحق من ولاة واقطاعيين : الحق لحق القوة .

ايها الملاك الجدد من ابناء الزرارية : اعطوا الفائض من خير ارضكم للمحروم منها اقيموا عدالة الله على الارض ولا تحلوا محل الاقطاعيين القدامى بعد ان جاهدتم في ديار الغربة وفي الوطن واستطعتم ان تنتزعوا هذه الارض من تحت اقدامهم .

لا تشكلوا طبقة جديدة لاقطاعيين جدد . كونوا منسجمين مع انفسكم واصولكم - افعلوا كما بدأت قلة منكم تفعل . . . فالمال وحده لا يصنع الانسان . . ولا الكرامة ولا الزعامة . . .

لمن المشاع ؟. . . لست أدري لماذا وجد المشاع في بلد كلبنان قليل مساحة الارض كثير عدد السكان . يقولون ان المشاع وجد ليكون مرعى للماعز والبقر والغنم وهو بديل عن الكلأ في الصحراء لهذا يحميه القانون العقاري ويقسمه الى قسمين : قسم يختص بالبلديات والمختاريات في كل مدينة او قرية وقسم يبقى مسجلا باسم الدولة ويسمى الجفتلك . والكلمة كما ترى تركية فهو اذن نظام او قانون وضعته الدولة التركية ايام العثمانيين .

وبما ان الانسان كان آخر ما تفكر به هذه الدولة المستعمرة فقد اعطت حق الرعي للحيوان ولم تعطه للانسان . . للتملك والاستثمار . .

اما بقية الاراضي في الولايات العربية التابعة لها فقد منحتها لاتباعها من بكوات وباشوات وولاة وسخرت الانسان من غير اصحاب الدم الازرق للعمل في هذه الارض بأجر زهيد واحيانا بلا أجر . . .

لقد وهب السلطان ما لا يملك واعطاه لانسان يملك عن طريق التلزيم كل تلك الاراضي في كل اقليم او ولاية . . . يكفي ان يدفع هذا الاقطاعي [١] الاعشار او «الويركو» واحيانا لا يدفع . . . ولقاء هذا الدفع يمنح الباشوية وعلى الاقل البكوية [٢] اما الانسان المسحوق المحروم من ملكية اي شبر من هذه الارض فعليه - لكي يعيش - ان يعمل في هذه الارض دون ان يملكها ودون ان يبقى فيها طويلا لان من حق الاقطاعي ان يستبدله بغيره من ازلامه متى شاء . .

رب ضارة نافعة : اذا كان للحرب الاهلية الاخيرة في لبنان من حسنات - وهذا من المفارقات العجيبة - فان هذا الانسان المحروم من الارض قد اتيح له ان

---

(١) من هنا جاءت كلمة اقطاعي وهو الذي يقتطع من الدولة العثمانية أو تقتطع له اقليما بكامله والاصح هو الذي تعطيه الدولة العثمانية قطاعا كبيرا من الارض وتملكه اياه بسند بيع عقاري رسمي لقاء دريهمات ولقاء التعهد بالقتال إلى جانب الجيش التركي اذا خاض حربا ، وقلما بل نادرا جدا ما كان ينفذ ذلك . .

(٢) الواقع ان لقب «بك» في النظام الاقطاعي كان وراثيا ، اذ يكفي ان يكون والد البيك باشا حتى يصبح الابن بك اوتوماتيكيا وبلا عناء أو شراء وما انفك هذا اللقب ملتصقا بذرية اصحاب الدم الازرق جيلا بعد جيل وحتى يومنا هذا . . الا عند من استبدلوه باللقب العلمي كما فعل النائب الحالي الدكتور سعيد الاسعد . .

«يهجم» اخيرا على اراضي المشاع المهملة والصخرية والتي لم تعد تصلح حتى للرعي . . . هجم ليثأر منها ومن الدولة والبلدية والناس اجمعين ليقتطع منها لنفسه مساحة صغيرة يبني عليها بيتا يؤويه هو واطفاله او بستانا صغيرا يحول الارض البور الى جنائن غناء ، خاصة بعد ان اصبحت الاراضي المملوكة باهظة الثمن داخل الزرارية وعلى اطرافها . . .

وفي يقيني ان من احيا ارضا كمن احيا نفسا لا سيما اذا كان هذا الانسان محروما حتى من مرقد عنزة . . .

هنيئا للمحرومين بالأرض بالمشاع . شرط ان يبادروا الى تسجيلها ودفع بدل رمزي لتملكها او القبول بأي تشريع عادل لهذا التملك . . .

اللهم زد وبارك !

اما المالكون الكبار الجدد في الزرارية وفي غير الزرارية فلم يكفهم ما يملكون من عقارات بل ترى اكثرهم حين يعمدون الى استصلاح اراضيهم يضمون اليها مشاعات واقعة بين عقارين من هذه الاراضي . . .

ويقولون ان مثل هؤلاء المالكين الجدد ليسوا اقطاعيين او جشعين . . .

ربما ليسوا كلهم وهم على كل حال طبقة جديدة تملكت بالجهد والعرق في ديار الاغتراب ، طبقة اخف وطأة بكثير وارحم من طبقة الاقطاعيين القدامى بما لا يقاس . . .

القلاع والحصون والسجون !

ليس في الزرارية ولا في جوارها حصون وقلاع باقية آثارها الى اليوم . .

كل ما بقي من آثار واطلال هذه القلاع والحصون هو :

- قلعة ميس وهي قلعة بناها المماليك وهدمها الصليبيون في معاركهم

الأخيرة مع المماليك الذين تمكنوا أخيرا من القضاء قضاء مبرما على الصليبيين واستأصلوا شأفتهم من هذه البلاد بقيادة احد قادتهم الملك الأشرف خليل (١) وكان الصليبيون بعد هزائمهم المتتالية في داخل البلاد السورية قد تجمعوا على سواحلها داخل قلاعهم وحصونهم في طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا. (٢)

حصن اليالوشي :

يقع هذا الحصن في قرية المغيرية المنقرضة شرقي بلدة الزرارية . وقد اكد وجود هذا الحصن شبيب باشا الأسعد في كتابه : العقد المنضد كما اكد احتماء احد تلاميذ الشهيد الاول به ويدعى اليالوشي حين ارتد عن الاسلام وتعاليم الشهيد الاول مما اضطر هذا الاخير الى تجريد حملة انتهت بالقضاء عليه وقتله. (٣)

وهناك نبع ماء ولكنه جاف يدعى « عين يالوش نسبة الى هذا «اليالوشي» بالقرب من « المغيرية المنقرضة .

- هذا ، ولا نعلم اذا ما كان هناك في الزرارية او في جوارها ، من قلاع او

---

(١) هو ابن السلطان قلاوون (٦٨٩-٦٩٣ هـ ١٢٩٠-١٢٩٣م . وفي عهد قلاوون وولده الملك الاشرف خليل تم القضاء على الصليبيين في الشام - انظر كتاب دراسات في تاريخ المماليك البحرية والبرية في مصر وبلاد الشام ص ٥٤ و ٢٦١ للدكتور علي ابراهيم حسن - ١٩٤٤ القاهرة

تقع قلعة ميس في مرتفع شرقي « الوطا» في الزرارية . وفيها سجن لاتزال آثاره واطلاله إلى اليوم .

(٢) المصدر نفسه

(٣) انظر تفصيل ذلك في بعض ابواب هذا الكتاب عند الحديث عن شبيب باشا الأسعد . .

حصون غير ما ذكرنا، وربما دلت الحفريات في المستقبل على وجود غيرها مطمورا في بطن الارض . .

تصويب آخر : جغرافية الزرارية (١)

حدودها : تحد بلدة الزرارية من الغرب مزرعة جمجيم - العمرانية - السكنية - الخرايب - ارزاي . ومن الشمال بلدة انصار . ومن الجنوب نهر الليطاني . ومن الشرق بريقع وصير الغربية وتتبع انتخابيا قضاء الزهراني (عدد ناخبيها سنة ١٩٧٢ حوالي ٢٠٠٠ ناخب وناخبة، اما اليوم فعدد سكانها ٢٥ ألف نسمة مقيمين ومغتربين حتى الآن) .

مساحتها : ٢٥ ألف دونم وفي داخلها «الجدارات» وعلى اطرافها، وعلى ضفاف الليطاني والقاطع ووادي انصار . يزرع منها حوالي النصف والباقي القريب من البلدة معد للبناء وما تبقى فهو بور ، ولكنه صالح للزراعة ، اذا توفر الماء والمال .

زراعتها قديما وحديثا : أغلب مزروعات الزرارية حاليا الخضار ، اكثرها في خيم (بلاستيكية) والحمضيات . اما في الماضي فقد كانت مزروعاتها تقتصر

---

(١) نقلا عن جريدة السفير العدد ٥٧٤٥ ـ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٩٠ . مع بعض التصحيح والتصويب والايضاح والزيادة . وهي معلومات منقولة بدورها عن نائب رئيس الجمعية الإنمائية في الزرارية المغترب السيد احمد مصطفى زرقط (ابو علي) وامين سر البلدية (المنحلة) السيد رضا مروه (ابو الوليد) والمختار الحالي خليل شرارة (ابو تحسين) .

على بعض الخضار ، والحبوب كالقمح والشعير والعدس والحمص والفول والذرة الصفراء والكرسنة (القطانة) .

وفي الربع الثاني من هذا القرن ازدهرت زراعة التبغ فيها : (٣ آلاف طن تقريبا)اذ كان يمكن لابن الزرارية او غيرها ان يشتري بعض رخص التبغ من اصحاب الامتيازات في قرية اخرى او اقليم آخر . الى ان بلغت المساحة المزروعة تبغا (او دخان) في الزرارية اكثر من مائتي دونم . اما زراعة التنباك فلم تعرفها الزرارية .

البساتين : على الليطاني وحده أراض تروى من مياهه واشجار مثمرة مساحتها تقدر بمئات الدونمات .

ملكية اراضيها : كان ٩٠٪ من أراضي الزرارية القديمة داخلة في اقطاع آل الأسعد (ناصيف وشبيب باشا وشقيقهما نجيب بك) .

ودارت الايام وهاجر المحرومون منها الى ديار الاغتراب وما هو سوى ربع قرن من الزمان حتى عادوا ، عاد اكثرهم ، ليشتروا هذه الارض بالمال الحلال من الباشوات وابنائهم واحفادهم . وكانت اكبر الملكيات ثلاثا لثلاث عائلات هي : آل طالب وآل فخري وآل شرف الدين ٣٠٠٠ دونم لاكبر هذه الملكيات (آل طالب) والملكيتان الباقيتان أقل من هذه بما يعادل النصف تقريبا . اما الملكيات الصغيرة الباقية فهي تتراوح بين ٥ و١٠٠ دونم . ومنها ما يصل الى ٢٥٠ دونما .

اسعار الارض حاليا في الزرارية :

تتراوح اسعار الارض بين مليون و١٥ مليون للدونم الواحد . وفي العام١٩٩٢ بلغ سعر الدونم ٥٠ ألف دولار اي ما يعادل ٧٥ مليون ليرة لبنانية

على الاقل وذلك حسب اهمية العقار من حيث موقعه او خصوبته او قربه او بعده عن البلدة وطرقاتها الرئيسية (١)

اقتراح مشروع انساني :

وبما ان هناك دائما طبقتين من الناس (على الأقل) :طبقة متوسطة مؤلفة من ذوي الدخل المحدود ، وصغار التجار والعمال ، وطبقة الفقراء المحرومين التي لن يستطيع افرادها ان يشتروا في المستقبل القريب ، ارضا بمثل هذه الأسعار، فاني اقترح على الجمعية الانمائية في الزرارية او على بعض المتنورين من كبار المتمولين، العمل على تطبيق المشروع التجاري الانساني الكبير الآتي :

-استملاك عقار كبير (من عشرة الى خمسة وعشرين دونما محاذيا للزرارية، او مصادرة مشاع يوازي هذه المساحة وصالح للسكن ، ثم فرز هذا او ذاك الى قطع بمساحة ٥٠٠ او ألف متر مربع . تقوم الجمعية او بعض افرادها الذين سينقلبون الى شركة مساهمة ، بتنفيذ هذا المشروع بكامله استملاكا وبناء . ثم بيع هذه المنازل الشعبية (خمسة منازل على سبيل التجربة) مقسطة اثمانها على عشرين سنة بحيث يصبح ساكن هذه المنازل مالكا لها بعد دفع كامل اقساطها. تكون هذه المنازل نوعين : نوع بثلاث غرف منامة وتوابعها للعائلة الكبيرة ، ونوع بغرفتين وتوابعها للعائلة الصغيرة (٢) فما رأيكم ؟

---

(١) وهذا معناه تكريس لطبقة معينة من كبار المتمولين الذين يمكنهم شراء اراض وبناء فيلات بعشرات الملايين . اما الطبقة المتوسطة والفقيرة فليس لها ان تبني - بعد الآن - بيتا يؤوي افراد عائلاتها سوى المشاع البعيد ، هذا اذا سمح لهما بذلك . .

(٢) في صور انشئت وحدات سكنية على غرار ما نقترح للزرارية انشأها المغترب الياس شربين. كل وحدة مؤلفة من غرفتي نوم وتوابعها ، خصصها للمتزوجين حديثا .

انه مشروع انساني اكثر منه تجاريا ، وهو مشروع - كما ترون - واقعي وممكن التنفيذ . . وليس كثيرا على همة وغيرة هؤلاء المتمولين الكرام ان ينهضوا بمثل هذا المشروع الكبير الذي يجعل من متوسطي الحال من ابناء بلدتهم ملاكين في اقل من ربع قرن . . (١)

وسيسجل التاريخ لهم هذه المأثرة الكبرى - الى جانب مآثرهم الأخرى .

فلأول مرة في تاريخ الزرارية وجبل عامل ، وحتى على مستوى لبنان كله، تقوم جمعية من الجمعيات او بعض الغيارى من المتمولين ، وليس الدولة ، بمثل هذا المشروع الانساني ، وهذه المبادرة الريادية العظيمة .

الزراعات المستحدثة : بعد ان انتشرت زراعة الخضار في الخيم البلاستيكية، سارع متمولوا الزرارية واكثرهم من المغتربين الى انشاء الخيم البلاستيكية ، وما هي الا سنوات قليلة حتى اصبح في الزرارية لا اقل من ٢٥٠ بيت او خيمة بلاستيكية ، تتراوح مساحة كل خيمة بين ٤٠٠و ٦٠٠متر مربع .

مزارع الدواجن : في البلدة حاليا عشرون مزرعة للدواجن - على الأقل -يبلغ معدل انتاجها كل شهرين تقريبا حوالي خمسين الف طير (فروج) يستهلك محليا اي داخل لبنان - صور - صيدا - النبطية - بيروت .

المعاصر : كانت الزرارية في الماضي البعيد (قبل الاربعينات) والقريب رائدة في صناعة واستخراج افضل زيت الزيتون في اقليم الشومر - وافضل الدبس المستخرج من الخرنوب ، واسمه الشائع «دبس الخروب » فكانت هناك معصرة

---

(١) ثمن المنزل او الوحدة السكنية يجب ان يوازي ثمن العقار مملوكا وليس مشاعا وتكاليف بنائه مع ربح صاف حلال . . .

الشيخ محمود فخري ، والسيد حسين هاشم التي تميزت باجود انواع الدبس، ومعصرة ابي قاسم مروه بعدهما ، ثم معصرة علي مصطفى زرقط .

والآن هناك معصرتان احداهما من احدث المعاصر في لبنان والجنوب .

المصانع والمتاجر : في الزرارية مصنع حديث للموبيليا . اما متاجرها فقد توسعت وانقلبت من دكاكين صغيرة الى متاجر كبيرة واهراءات تخزين للبضاعة، واصبح تجار الزرارية لا يكتفون ببيع المفرق ، بل اضافوا اليه بيع الجملة كمتجر حمود مروه (ابو علي)وهو رجل عصامي لم يغترب بل اغتنى بدأبه وجهده المتواصلين ، حتى اصبح يعد من متمولي الزرارية المشهورين .

كما تعددت انواع المتاجر : فهناك محلات لبيع وتأجير الأشرطة والمسجلات ومحلات للأدوات المنزلية (محل الأخ عطا زرقط) واخرى لبيع الهدايا والادوات الصحية . وهناك محل صغير للهدايا والارتيزانا لحفيد عمنا وهو السيد علي محمد حسن جواد شرف الدين . فلم يعد التاجر الزراري (بتاع كلو!) كما في السابق : اي حلاقا وبائع علق ولحاما واسكافيا وقالع اضراس، وخردة وسمانة الخ . .

وقد نشطت حديثا في الزرارية تجارة او مهنة الصيرفة . فهناك محلان على الاقل للصيرفة احدهما للسيد محمد حسن عباس جواد . وقد اقيم مطعم حديث على مدخل الزرارية على محلة تدعى «المراح» صاحبه من آل جمعة . كان هذا المراح يستعمل قديما لتجفيف القمح المسلوق ليصبح برغلا . وهناك مزرعة للأبقار وتربية الدواجن هي الآن قيد الانشاء لصاحبها السيد فاروق طالب. وقد علمنا انها ستكون على طراز علمي مدروس .

بوابير طحن الحبوب : بدأت في اوائل هذا القرن تظهر طواحين الحبوب على الليطاني كطاحونة الدرزية وقبلها طاحونة المغيرية [1] تدار بواسطة آبار اصطناعية تمتلىء بالماء المضغوط الذي يخرج منها بقوة الدفع ومن خلال فتحة في اسفل البئر المتصل بمحرك خشبي يدور لولبيا بمجرد سقوط المياه عليه بقوة وهو بدوره يدير حجر الطحن وهكذا تتم عملية طحن القمح والشعير والذرة الصفراء.

وقد كان لوجود مطحنة المغيرية اثناء الحرب العالمية الاولى وابان المجاعة الرهيبة فضل كبير في انقاذ حياة الكثيرين . وقد استأجرها المرحومان السيد يحي شرف الدين (والدنا) والسيد حسين علي هاشم من المرحوم ناصيف باشا الاسعد. [2]

وفي اواخر الثلاثينات ظل هذان القريبان الشريكان يمارسان مهنة طحن الحبوب ولكن بواسطة محركات ديزل هذه المرة وفي الزرارية لا على الليطاني بالطبع . بدءا بشراء محرك صغير يدير حجرا صغيرا او جاروشة . وقد استبدلاه بمحرك كبير يدير ثلاثة احجار ضخمة وجاروشة . وظلا شريكين حتى وفاة احدهما وهو السيد حسين هاشم سنة ١٩٥٢.

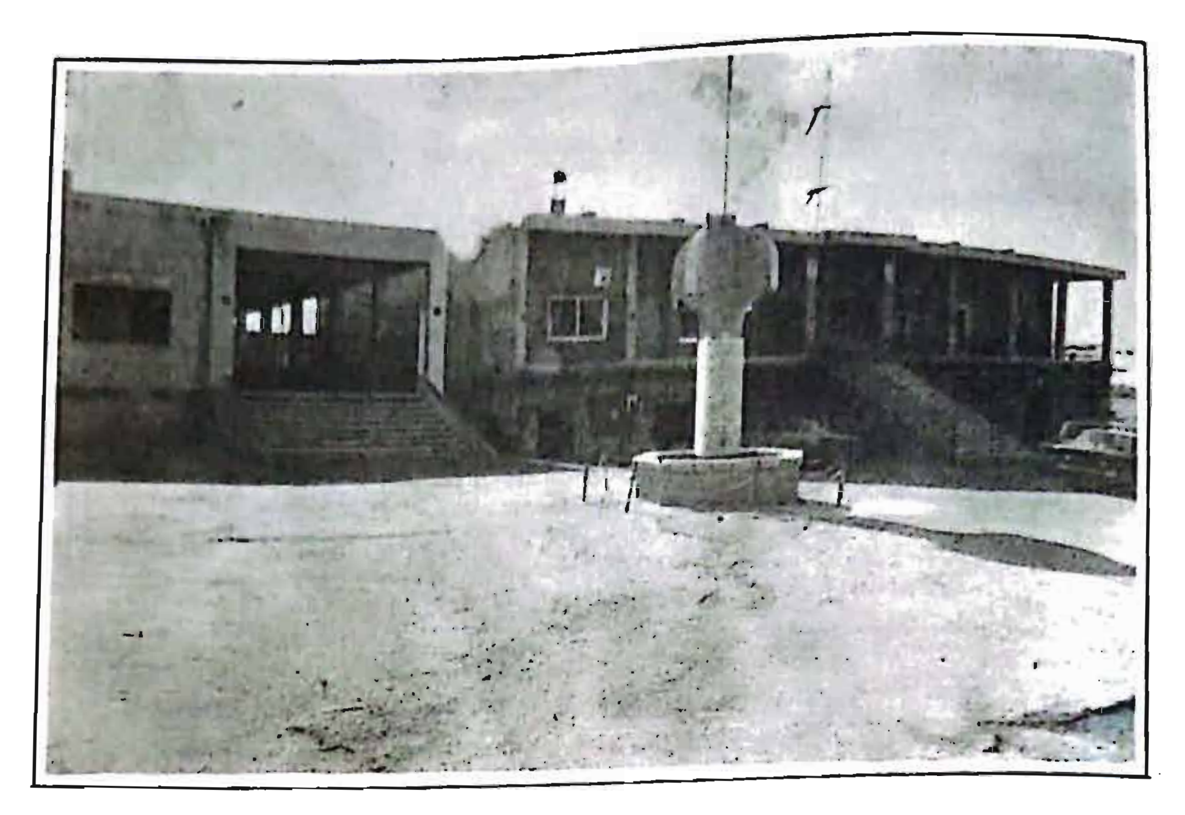
وبتطور الصناعة والزراعة والتجارة في الزرارية نشطت تجارة اخرى هي تجارة بيع السيارات المستوردة والاكسسوار والمواشي .

كل ذلك بفعل النجاح المادي الذى اصابه مغتربوها الكثر الى افريقيا الغربية وبصورة خاصة جمهورية شاطىء العاج وعاصمتها ابيدجان . وما ازدهار الحالة الاقتصادية والعمرانية في الزرارية الا بفعل ذلك النجاح في ديار الاغتراب .

---

(١) سيرد ذكر هاتين الطاحونتين عند الحديث عن قرية المغيرية التي بادت وانقرضت

(٢) انظر قصة هذه المطحنة وقصة ناصيف باشا معها في فصل لاحق من هذا الكتاب .



الحسينيتان ـ الى اليمين حسينية الرجال التي بناها المرحوم عمنا السيد حسين جواد شرف الدين قربة الى الله تعالى، وجهزها من بعده كبير ابنائه السيد رفيق شرف الدين.

الحسينيتان : بنى الاولى مغترب من الرعيل الاول هو المرحوم اسعد فخري وهي الآن للنساء . واوصى ببناء الثانية وهي الآن للرجال ، المرحوم عمنا السيد حسين جواد شرف الدين (ابو رفيق) واتم انجاله البناء والتجهيز وعلى رأسهم شقيقهم الاكبر رفيق شرف الدين رئيس جمعية انماء الزرارية التي قامت بانجاز مشاريع حيوية للزرارية . . .

اما نائب الرئيس احمد مصطفى زرقط فقد تحدثنا عن نشاطه في انجاز مثل هذه المشاريع في مكان آخر من هذا الكتاب [1] .

---

(١) والسيد احمد مصطفى إلى جانب نشاطه الاجتماعي والتربوي شاعر شعبي يتقن صناعة الزجل بالفطرة وقد سمعنا له زجلية موفقة قالها في عرس نجله الاكبر علي

وهناك عائلة كريمة مغتربة هي عائلة طعان وعلى رأسها مغترب من الرعيل الاول هو الاخ الحاج علي طعان (ابو حسين) ونجله الاكبر السيد حسين طعان (ابو غالب) الذي هو عضو فاعل في الجمعية السابقة . وكان والده قد قام بحفر بئر ارتوازي في قلب الزرارية . . وفي ساحة الشهداء بالذات (ساحة البركة سابقا) ليكون بديلا عن مياه نبع الطاسة التي توقفت منذ زمن عن الوصول الى خزانها الكبير . وتابع ابو غالب ووالده تقديم الخدمات الحياتية والاجتماعية للبلدة ، ولا يزالان ، من خلال الجمعية الانمائية ومنفردين، وحين قطعت هذه الجمعية خمس سنوات من عمرها كانت قد انجزت المشاريع التالية [١] :

-قامت بتشجير مداخل البلدة .

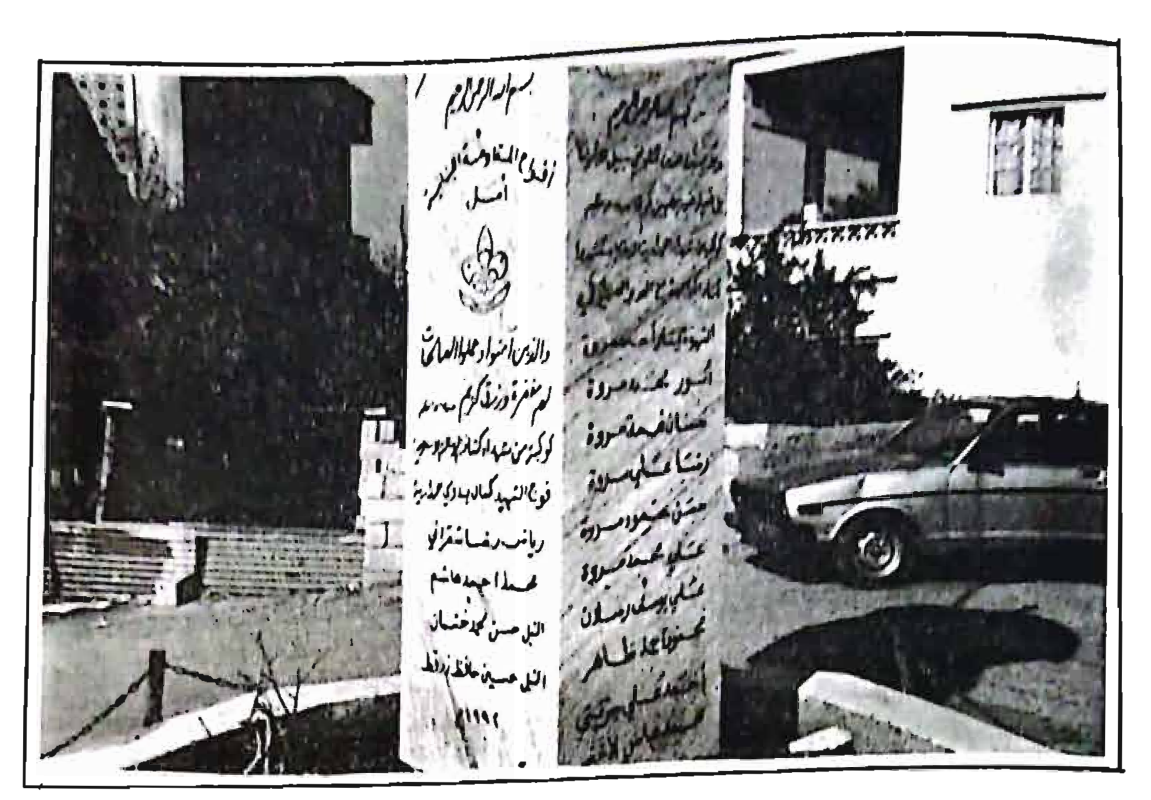
-انجزت شبكة لتوزيع مياه الشفة، أما شبكة المجارير لتصريف المياه المبتذلة فهي قيد الدرس حتى الآن . وذلك باشراف وتشجيع محافظ الجنوب الاستاذ حليم فياض .

- عبدت الطرقات الداخلية في البلدة ، وهي الآن تشرف على شق وتعبيد الطريق الشمالي الجنوبي للبلدة الذي ينتهي بالطريق المعبد المحاذي مخترقا جبانة البلدة بمساعدة مجلس الجنوب .

-أمنت حاجات البئر الارتوازي من محروقات وحراسة وصيانة .

---

(١) يأمل الغيارى من اهالي الزرارية على ان تستمر نهضتها وتقدمها العمراني وان يعود شمل الجمعية إلى الالتئام وانتخاب هيئة ادارية جديدة مؤلفة من عناصر شبابية نشطة ومتجانسة تستطيع اكمال المشاريع التي بدأتها الجمعية السابقة ، واقامة مشاريع جديدة وتلبية ما تحتاجه البلدة من خدمات وتقديمات ومشاريع



نَصب تذكاري في ساحة الحسينيتين مسجلة عليه اسماء شهداء الزرارية .

-تسهر بواسطة موظف على تشغيل وصيانة المحول الكهربائي .

- اشترت مائه طن اسفلت وعبدت بها طرقات البلدة الداخلية .

- أمنت «تراكتورا » وسائقا لجمع النفايات ، وهي تدفع راتب السائق بانتظام وتكاليف الصيانة والاصلاح .

-بلغ ما دفعته الجمعية حتى (سنة ١٩٩٠) زهاء ٢٢ مليون ليرة لبنانية انفقت على كافة المشاريع المذكورة اعلاه . الا ان هذا النشاط بدا، منذ ذلك الحين يخبو، ولا ندري ما هو السبب . .

الكهرباء المنطفئة ! رأت الزرارية الكهرباء منذ العام ١٩٦٦ ونعمت بها فترة ثم وقعت الحرب الاهلية فتقطعت اوصالها ، كما تقطعت اوصال الوطن وسائر

قرى جبل عامل . فعادت الزرارية الى السراج والفتيلة ، عند الفقراء - والى المحركات الخاصة عند الاغنياء . «واللوكس» عند متوسطي الحال . . اما التيار اليوم فانه يأتي ولكن بخجل شديد ولماما !

متى دخل الراديو الى الزرارية : سنذكر قصة دخوله المثيرة في فصل الفولكلور الخاص في هذا الكتاب .

الهاتف : يرافق الهاتف عادة الكهرباء ولا يمكن ان يسبقها الا اذا كان محصورا بغرفة للعموم . دخل الهاتف الى الزرارية عام ١٩٤٥ الى مخفر الدرك[1] فقط وفي العام ١٩٥٠ دخل الى غرفة العموم . وفي العام ١٩٧٠ اصبح ستراالا ل٢٧ مشتركا ثم تقطعت اسبابه اوائل احداث ١٩٧٥ وسرقت اعمدته وفي اوائل الثمانينات قام هاتف دولي خاص بتأمين المخابرات الخارجية وما زال .

البلدية : سبقت المختارية البلدية بزمن بعيد، إذ ان المختارية في الزرارية ترقى الى العام ١٩٢٠ . انشئت اول بلدية في الزرارية عام ١٩٦٤ وكان مدخولها محدودا يأتيها من بدل «الضبوطة» التي ينظمها موظف البلدية بحق مرتكبي مخالفات البناء والتعدي على املاك الغير كما كانت تأتيها المساعدات الرسمية بواسطة المحافظ على شكل هبات او قروض تنفقها كرواتب لموظفيها وانجاز بعض المشاريع الهزيلة . . .

حلت هذه البلدية بسبب وفاة او هجرة اعضائها ولأنها لم تستطع ان تؤمن

---

(١) انشىء هذا المخفر عام ١٩٤٥ ولا يزال حتى الان . جمدت اعماله الوظيفية اثناء الاحداث الاخيرة وقد يستأنفها قريبا . . .

شروط استمرار البلديات وقانونها في لبنان من الناحيتين المادية والعددية الفاعلة خاصة اثناء الاحداث الاخيرة . وهي الآن في عهدة محافظ الجنوب الاستاذ حليم فياض ولم يبق من عناصرها سوى اثنين امين السر والشرطي .

ويتابع المحافظ فياض اعماله كوكيل عن رئيس البلدية الاصيل في البلدة من حيث المساعدة المادية وتعبيد الطرق الرئيسية . وقد دشن مؤخرا الطريق الفرعية الشمالية الجنوبية التي نفذتها شركة قاسيون ومجلس الجنوب وطولها ١٠٠٠ متر. كما اتصل بمغتربي الزرارية القادرين ودعاهم الى التبرع لتنفيذ مشروع المجارير .

مياه الشرب في الزرارية : لم يعد لائقا ولا مسموحا لاهالي الزرارية ونحن في التسعينات ان يستمروا في نقل مياه الشفة بالجرار من العين على رؤوس الصبايا او «بالانتل» على ظهور الحمير . . . وتحركت الدولة اخيرا فنقلت الينا مياه الشفة من نبع الطاسة بواسطة قساطل موصوله بخزان كبير تتفرع منه انابيب لايصال المياه الى البيوت . ولكن هذا المشروع لم يكن كافيا خاصة وان الماء كانت تصل منه الى البلدة مقننة بمعدل ٣ ساعات يوميا . وهنا انبرى احد مغتربي الزرارية الغيورين وهوالاخ الصديق حسين علي طعان ابو غالب فحفر بئرا ارتوازية وقدمها مع معداتها كهدية للبلدية . و«بالاتفاق بين البلدية والمحافظ من جهة ومصلحة مياه نبع الطاسة من جهة اخرى تم تسليم البئر الى المصلحة شرط ان تقوم هي بتأمين المياه بشكل دائم الى البلدة . لكن المياه لم تصل الى البيوت بشكل مرض ودائم . . وحجة المصلحة دائما هي الحالة الامنية وانقطاع التيار الكهربائي شبه المتواصل » (١).

---

(١) حجة قد تكون مقبولة في زمن الحرب الاهلية . اما وقد آذنت هذه بالزوال فلم يعد هناك من حجج وتبريرات الا اذا كان «يعقوب» يضمر لنا في نفسه الغاية نفسها. . . هذه الاتفاقية ذكرها مندوبو جريدة السفير العدد ٥٧٤٥ ـ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٠ .

الا ان هذه الحجة لم تقنع رئيس ونائب رئيس واعضاء جمعية الماء الزرارية فهم يؤكدون ان البلدة تدفع للمصلحة بدل اشتراكات يبلغ ما يقارب العشرة ملايين ليرة ومع هذا لا يزال في البلدة حوالي ٩٠ بيتا لا تصله مياه نبع الطاسة ولا مياه البئر الارتوازية (١) وحيال هذا الاهمال المقصود انذرت الجمعية المصلحة بالآتي :

اما تأمين المصلحة للمياه واستمرار وصولها الى كافة البيوت فتكون بذلك قد قامت بواجبها وعوضت ما فات .

واما اعادة البئر التي تنازل عنها الاهالي لبلدية البلدة او لجمعيتها .

كيف أمن الاهالي المياه لمنازلهم : كان لا بد للموسرين منهم ان يلجأوا الى حفر آبار ارتوازية خاصة فهناك حتى اليوم لا اقل من ٦٧ بئرا ارتوازية خاصة على الاقل . اما متوسطو الحال والفقراء فليس لهم الا ان يعودوا الى نقل المياه من عين وادى العين او عين الحور كما كان آباؤهم واجدادهم يفعلون . وانا لله وانا اليه راجعون . . . (٢).

الخدمات الصحية : يؤمن المعاينات الصحية اطباء من ابناء الزرارية مقيمون فيها كما يعالجون شتى انواع الامراض غير المستعصية . وهناك مركز صحي للصليب الاحمر اللبناني ومختبر خاص للتحاليل ، وقابلة قانونية . اما الفتيات شبه الممرضات فهن كثيرات وبعضهن يساعدن الاطباء في « ضرب الابرة » والسهر على راحة المريض .

---

(١) المصدر نفسه

(٢) المصدر نفسه

المخاتير ورؤساء البلديات في الزرارية :

لائحة باسماء المخاتير :

- محمد خليل محي الدين والد خليل محي الدين الملقب بالزعيم وخال الصحافي الشهير كامل مروه ١٩٣٥(١)
- محمد هادي مروه .
- مصطفى مروه .
- احمد الحاج عباس مروه (ابو منير) (٢) .
- محمود عبد الله زرقط (ابو كامل) ١٩٤٠ .
- السيد حسين هاشم (ابو محمد) ١٩٤٤.
- علي حسين احمد مروه (ابو احمد) ١٩٦٣ .
- خليل ابراهيم شرارة (ابو تحسين) المختار الحالي (٣) .

---

(١) كما افادنا احمد الحاج امين زرقط قبيل وفاته في حديثه المسجل

(٢) المصدر نفسه

(٣) هذا المختار يستغل وظيفته بشكل جيد دون ان يتفرغ لها . فالمختارية في لبنان ، وفي قراه خاصة لا تسمن ولا تغني من جوع . مع ان الدولة تسميه ضابطا عدليا . . ومن المخاتير من يدفع من جيبه ليسهل امور مواطنيه ، ومنهم من يضطر الى قبض اجر مرتفع لقاء اتعابه لأنه رب عائلة ، خاصة عندما لا يكون له مورد رزق آخر . . ولا ندري ما هو السر في جعل المختار بدون راتب . . مع ان المختارية تعتبر اول دائرة حكومية في لبنان وغير لبنان . . وتقارير المختار تأخذ بها الحكومة وتعتبرها نهائية. وفي قرية ليس فيها درك يصبح المختار هو الدركي وهو القاضي ـ لان له صفة رسمية ولانه منتخب .

رؤساء بلدية الزرارية :

-محمد علي هادي مروه (ابو قاسم)١٩٦٩.

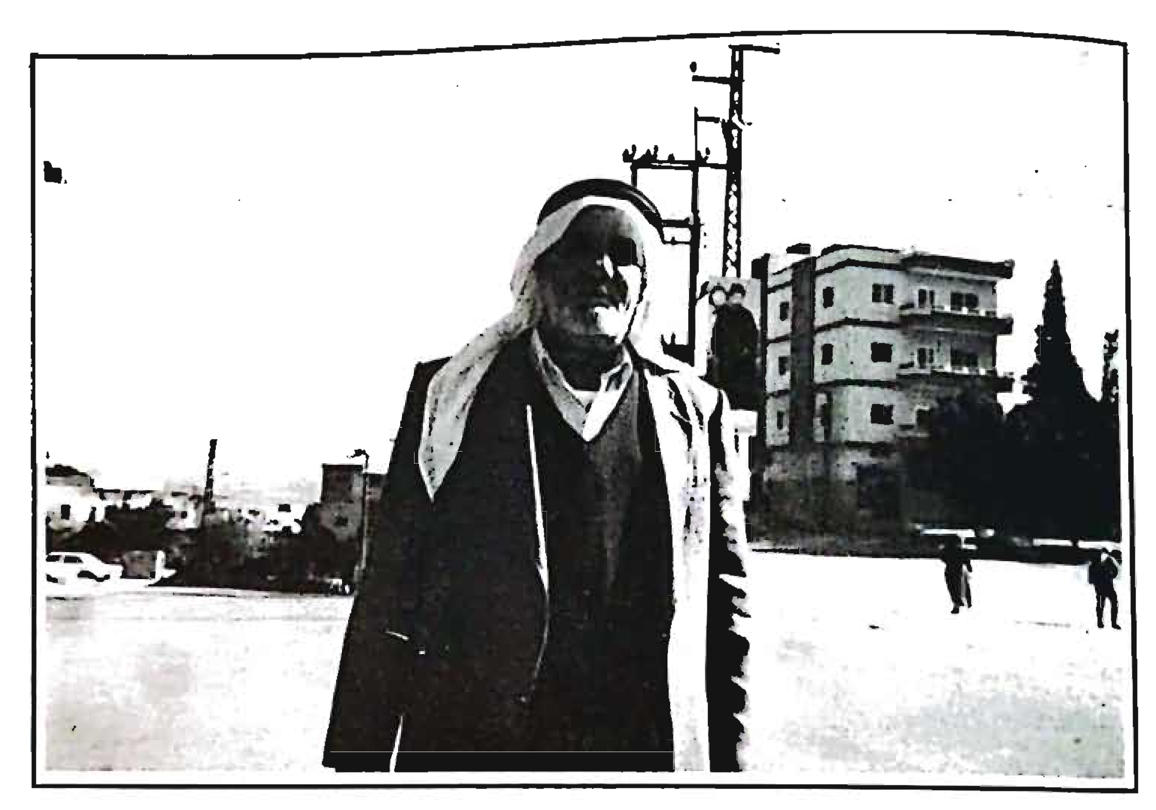
-رضا فخري (ابو سعد الله) بعد وفاة المرحوم ابي قاسم .

-رضا مروه :(ابو الوليد) امين سر البلدية أثناء عملها وبعد حلها .

اما شرطي البلدية الوحيد فهو احمد علي طالب جمعة .

نواطير الزرارية : نذكر منهم : نعمة مصطفى مروه - عبد الله ظاهر

-محمد احمد الحاج - عبد العباس محي الدين- حسين حلو .



مختار الزرارية الحالي
الحاج خليل شرارة (ابو تحسين)



علاقات محورية

بين

الزرارية – انصـــار

الزرارية – جبـــاع

الزرارية – النبطية

الزرارية – صـــور

الزرارية – صيـــدا



بلدة انصار : منظر عام



الزرارية -انصار (١)

قمتان شامختان متوسطتان ارتفاعا شامختان علوا

على قمة هضبتين متجاورتين تربض الزرارية جنوبا وانصار شمالا . يغسل الليطاني قدمي الاولى صباح مساء . . وترفع الثانية أكف الوديان من كل صوب، بانتخاء ملحوظ !

توأمان صهران ، منذ كانا ، يشربان من ماء واحد ، ويستقيان من معين تاريخ جهادي واحد ! بالمصاهرة امتزج الدموان بعد ان اريقا في المجزرتين التاريخيتين : مجزرة الزرارية في ١١ آذار ١٩٨٥ ومجزرة انصار قبل اربعمائة عام ! (٢) . . لكنهما كانتا مجزرتين مفخرتين لأبطال المقاومة في البلدتين

---

(١) انصار ، يقول أنيس فريحة في كتابه : معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية ان اسم قرية انصار «قد يكون عربيا بمعنى الجماعة الذين ينصرون . ولكننا نميل إلى الاعتقاد بان الاسم تحريف لاسم آرامي قديم بمعنى نضر ، ويقابله في العربية نضر : من النضارة والخصب » .

(٢) يقول المؤرخ العلامة الشيخ علي سبيتي في مجموعته التي نشرتها العرفان (ج ٥ ص ٢١) ما يلي :«في أوائل حكم الاتراك مباشرة وقعت عدة معارك دامية بين الشيعة في جبل عامل=

الشقيقتين حيث اذاقوا الغزاة من أتراك وولاة وصهاينة وعملاء مرارة الهزيمة على قلة العدد والعدة ورغم عنصر المفاجأة في كلتا الغزوتين . . . هاتان الغزوتان متباعدتان زمنا متشابهتان بطولة وصمودا ونتائج .

التجاور الابدي : وتبقى البلدتان متقابلتين متكاملتين روحا وعنادا ذواتي عطاء لا يتوقف وتطور في جميع الميادين وتحرر من العبوديات الماضية ،

==والطوائف المجاورة ، ومنها معركة انصار بقيادة الامير ملحم المعني سنة ١٠٤٨ هـ ١٦٨٠ م إلى ان يقول :«ومعركة انصار الثانية عام ١١١٧هـ و١٧٣٤م مع الامير ملحم الشهابي ومعركة انصار الثالثة في السنة ذاتها مع الامير ملحم الشهابي نفسه». ويعدد المؤلف عشرات المعارك التي خاضها الشيعة وانتصروا فيها . ما عدا المعركة الرابعة في بلدة انصار عام ١١٥٦هـ ٠ ١٧٤٣م . وكانت هذه المعركة مباغته قام بها الامير ملحم نفسه ابن حيدر الشهابي منتقما لهزائمه المتكررة ، من أهالي انصار الذين كانوا يؤدون صلاة الجمعة في المسجد . وكان حاكم القرية الشيخ علي سليمان منكر وفي تلك المعركة قتل من المصلين والاهالي ما يفوق الالف واربعماية قتيل . . ويروي ان الدم سال في أزقة القرية وكان من جملة من قتل في هذه المعركة ـ المجزرة ثمانية من آل منكر وسبعة من آل صعب (العشيرة الصعبية) وثلاثة عشر من الحمادية (العشيرة التي ينحدر منها آل فخرى في الزرارية . والباقي من الاهالي) . وكانت هذه المعارك والحروب تشن ضد الشيعة استفزازا من الطوائف المجاورة بتحريض من الاتراك الحاقدين على مذهب الشيعة لانتمائهم لمنهج آل بيت الرسول ولتمسكهم بحب الارض واثبات الوجود وحفظا للكرامة ولغريزتهم المميزة بالصمود في وجه التحدى . هذا التحدي المتواصل خلق منهم شعبا شجاعا يهزأ بالمنايا ويرى الموت حياة خالدة تحت شفار السيوف . . . لمزيد من التفصيل انظر : تاريخ الجنوب اللبناني لمحمد سعيد ياسين وتاريخ الازمنة للدويهي ط ١ـ ١٩٥١ بيروت .

وستستمران هكذا ، باذن ربك الى ان يرث الله الأرض ومن عليها [1] .

وتحرقان معا : كان لا يكفي هاتين البلدتين استعبادهما في العهود العثمانية الأولى وتمليكهما لبعض الاقطاعيين المحليين حجرا وشجرا وبشرا . . . حتى احرقهما فخر الدين المعني مع أخوات لهما كبنت جبيل وعيناتا . ففي تحقيق توثيقي تاريخي نشر في العرفان [2] جاء ما يلي :« وحدث في هذا السياق أن التزم فخر الدين سنجقية صفد عام ١٦٠٣ م من مراد باشا والي دمشق . وكانت مقاطعات جبل عامل من حيث جباية الضرائب تابعة إلى سنجقية صفد ، ولما قوبل الأمر بالاحتجاج والشكوى لدى الأمير يونس حرفوش (البقاع) أرسل فخر الدين فرقا من السكمانية وهم جنود مرتزقة ، فأحرق عددا كبيرا من البيوت في القرى التالية : عيناتا ، بنت جبيل ، أنصار ، الزرارية ، عام ١٦١٧م »، فالشكوى - كما ترى - واحدة والاضطهاد واحد والدم واحد والحريق واحد ،

---

(١) وانا لنأمل من ابناء بلدة انصار وعلمائها وشبانها المثقفين ان يؤرخوا لبلدتهم المجاهدة ذات التاريخ العريق الذي لا يقل عن تاريخ جارتها وشقيقتها الزرارية ان لم يفقه صبرا وكفاحا وبطولة وتحقيق ذات . . . ونحن نرى ان تاريخ جبل عامل الصحيح وغير المزور يجب ان يقرأ قراءة جيدة من خلال ابناء قراه ومدنه الذين عايشوا الاحداث او شاركوا فيها كابرا عن كابر (كما فعل الامين والسبيتي والحر العاملي وعلي مروه ومكي وكوثراني ومصطفى وسعد وغيرهم. . .) لا من خلال فيليب حتي وماسينيون ولا منس والبستاني والدويهي والشهابي والشدياق وسواهم من مستشرقين وعرب لبنانيين. . . على ما لبعض هؤلاء من فضل في التحقيق والتوثيق وكشف الحقائق. . . ولكن معلوماتهم عن هذا الجبل تبقى ناقصة ومشوهة = او مشبوهة او متحيزة !. . . او لا يعرف الفضل الا ذووه. . . والتاريخ العاملي الا بنوه. .

(٢) العرفان م ٧٤ العددان ٧و٨وص٧٠ ـ ١٩٨٦.

والمعاناة واحدة !. . . فلم يبق أمام هاتين البلدتين وأمثالهما من قرى وبلدات هذا الجنوب اللبناني المنكوب سوى طريق واحد هو الثورة مهما طال المدى . وقد ثارت وثار مرارا . . . وما زال حتى اليوم يرهص بثورات لن تتوقف ما دام الظلم قائما . . .

إنه قدر الشعوب الحية ! كلما زاد الظلم وساد ، زادت رفضا ودفعا ومقاومة . . . وقد أثبت هذا الجبل عبر تاريخه الطويل -انه من تلك الشعوب الحية . . .

وإذا كنا لا نقرأ . . . فليس الذنب ذنبه ! وإذا قرأنا بعين واحدة فليس هو المسؤول !

واليوم يتحد شبانهما وشيبهما ـ قبل معتقل أنصار - وبعد المعتقل جهادا ومقاومة وإثبات وجود بعد أن امحت آثار الروح القبلية والعشائرية التي شابت علاقاتهما ذات يوم . . . والتي غذاها العثمانيون والفرنسيون عبر عملائهما من الزعماء الاقطاعيين . . .

وبالمعاناة من الفقر والقهر والاقطاع تشابهت البلدتان حين رزحتا تحت هذا الثالوث البغيض . ثم تلاقتا من جديد تحررا وتطورا وثورة كما تلاقتا غنى وثروة في جميع ميادين الكسب الحلال . وكان لشبانهما مع العدو الأسرائيلي حكايات للثأر في بطولات تشبه الأساطير ! وحسب بلدة أنصار اليوم أن تاريخها الجهادي الحديث قد التصق به وبها معتقل الغزاة الجدد ، وحمل اسمها . . . فلا يذكر جهاد ولا مجاهدة، ولا مقاومة ولا مقاومون إلا ذكر هذا المعتقل الرهيب. . وذكرت صور مدهشة من صور بطولاتهم داخله وخارجه !

ومن ديار الاغتراب أحاديث جهاد مشترك وكفاح وصبر على الأذى

والحرمان وذل الشتات . . وكمغتربي أي بلدتين عامليتين كان شعارهم ولا يزال :
الفـقـر في الوطن غـربة . . . والغنى في الغـربة وطن . . . وعـادوا وطننا الى
الوطن. . . بعد أن كانوا غرباء في الوطن !

وإذا كانت الزرارية أكثر غربة ونزوحا من جارتها أنصار ، فذاك لشدة فقر
أبنائها في أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن ، ولأن أبناء أنصار كانوا أقل فقرا
وأكثر امتلاكا للأراضي وأبعد بعض الشيء عن مراكز الإقطاع . . . وبالتالي أقل
نزوحا واغترابا . . .

وتنقلب الآية في النصف الأول من هذا القرن ، حين أصبح مغتربو الزرارية
يملكون معظم الأراضي الزراعية في (وادي أنصار) شمالا ومعظم المساحات
وكروم التين والزيتون جنوبي الليطاني فوق ضفته الجنوبية مباشرة أو ما يسمى
(بالقاطع) حيث تنتشر قرى : الحلوسية وبدياس ودير قانون النهر وطير فلسيه
وطير دبا وطورا ومعروب وكبرى هذه القرى :العباسية. (١)

---

(١) وكذلك قل بالنسبة لجارات الزرارية على مقلبي الضفتين : الزرارية ـ صور، الزرارية
شحور، علاقات جوار، ووشائج قربى ـ اما قصة الجهاد فواحدة !



بلدة جباع : المَصيف الاول في جبل عامل
ترتفع عن سطح البحر ٩٠٠ متر



الزرارية - جباع

كما تلفظ الزرارية بلهجتين أو حركتين : زريرية وزرارية ، تلفظ جباع بلهجتين أو حركتين ، فنقول :جباع بزيادة الألف الساكنة ، وجبع بحذفها . ونصفها بقولنا :جبع الحلاوة ، كما بدأنا نَصف الزرارية بالخضراء باعتبار ما هو كائن فيها حديثا من نهضة عمرانية وزراعية واعتبار ما ستكون عليه مستقبلا . وقديما وصفوا جباع بنسبتها الى الحلاوة ، وهي تستحق في نظرنا ونظر الآخرين ، هذه النسبة بكونها منتجعا للسحر الحلال ، لما فيها من جمال وبهاء ، ولطف هواء ، ودماثة خلق في الأبناء ، ورهافة حس فيمن أنجبت من شعراء ، وعمق تفكير في أعمال أدبائها ومؤلفيها ومؤرخيها ، وزخم عطاء إيماني في من أطلعت من علماء جهابذة مجتهدين أصحاب رسالات دينية رائدة ، وحوزات علمية قائدة . وقد بلغت روعة العطاء عندهم حد الشهادة في سبيل المبدأ والعقيدة ، ومن أجل رد الطغيان العثماني البغيض الذي رزحت تحت وطأته البلاد العاملية زمانا طويلا تجاوز قرونا أربعة ، كالمجاهد الكبير العلامة الشيخ زين الدين الجبعي المعروف بالشهيد الثاني ، والشيخ عبدالله نعمة العالم العلامة ، والقاضي

الأصلاحي المعروف اللذين عاصرتهما أو سبقتهما كوكبة من العلماء والأدباء يضيق المجال هنا بتعداد أسمائهم. (١) أكثريتهم من عائلات مروة والحر ونور الدين كالشيخ حسن نجل الشهيد الثاني وحفيد العلامة محمد نور الدين الكفعمي ، والبهائي ، والحر العاملي ، وسواهم ممن يربون على المئتي عالم أنجبتهم جباع على مدى القرون الماضية (٢)

والمطلع على تاريخ عائلات جباع يجد أن آل مروة فيها من عائلة علمية عريقة ووطنية مجاهدة ، فهي تنحدر من أسرة بهاء الدين العاملي محمد بن الحسين بن عبد الصمد بن محمد بن علي الجباعي التي كانت فيما مضى من ألمع الأسر العاملية الجبعية وأغناها بالعلماء والأدباء والمجاهدين (٣) ، فجدا آل مروة الأبرزان في جباع - إذن - الشيخ حسين عبد الصمد وولده بهاء الدين العاملي هما اللذان ينتمي اليهما بالنسب والقربى الواشجة مؤلف كتاب : تاريخ جباع الشيخ علي مروة (٤)

وآل مروة في الزرارية هم أصل آل مروة في جباع . أما الفروع الأخرى المنتشرة بكثافة أقل ، في أكثر قرى وبلدات جبل عامل : كعين بعال وعيتيت ، وحداثا ، والنبطية وسواها ؛ فهي أبعد نسبا وإن كان الجذر واحدا (٥)

---

(١) انظر : تاريخ جباع : ماضيها وحاضرها ، تأليف الشيخ علي مروه ـ دار الاندلس ـ ١٩٦٧ بيروت

(٢) المصدر نفسه ص ٤و٥

(٣) المصدر نفسه ص٩و١٠

(٤) المصدر نفسه ص١٠ و ١١

(٥) ونعني بالجذر جذع شجرة العائلة ، او الجد الأعلى .

جباع الحلاوة - لماذا ؟

قلنا ، حسب تفسيرنا ، ان هذه الصفة الإضافية :«الحلاوة» تلائم الموصوف الذي هو جباع نظرا لما تتحلى به هذه البلدة من حلاوة في الثمر والشجر والموقع والينابيع إلخ. . [1] لكن الشيخ علي مروة ، وهو أخبر منا ببلدته وتاريخها ، ولماذا سميت بجباع الحلاوة يقول : «إن اسم جباع أو جبع عبراني ومعناه التل [2] ويقول بعض شيوخها القدامى بأنها توصف بجباع الحلاوة للتفريق بينها وبين بلدة أخرى تعرف بجباع وتقع في بلاد الشوف وتعرف بجباع الشوف ، وفي فلسطين بلدة أخرى تحمل نفس الاسم وتدعى جباع بنيامين ، وفي كتب التاريخ ذكرت بلفظ جبع وجباع وعرفت بالحلاوة لأنها أول بلدة صنعت فيها الحلاوة بالطحينة . وقيل ان الحلاوة كانت تصنع بالدبس لندرة وجود السكر في تلك الأيام . وكانت فيها معصرة» إلخ

وهكذا نجد تقاربا بل قربى عميقة الجذور بين جباع والزرارية من حيث الموقع المميز ، هذه جارة الليطاني وأنصار ، وتلك جارة الوادي الممرع والينابيع المتعددة ، وخاصة جبل صافي الأشم وجارة جزين ووريثتها كمنجبة لمشاهير

---

(١) خطط جبل عامل

(٢) يمتاز هذا المصيف العاملي الشهير بغزاره مياهه وكثرة ينابيعه . يقال ان فيه من الينابيع على اختلاف غزارتها ٣٦٥ ينبوعا. . . اي على عدد ايام السنة وهذا على سبيل المبالغة طبعا كانت اسرائيل (ما غيرها) عمدت ابان الاجتياح (١٩٨٢) إلى تلغيم اغزر هذه الينابيع وهو نبع «القبي» فغار في الارض !! ولا عجب فمن كان عدوا للانسان والحياة فهو عدو للماء : مصدر الحياة !! غير ان الله لم يشأ لهذا النبع الفوار - ان يغور في باطن الارض فتفجر من جديد اكثر تدفقا وعذوبة . . .

العلماء والأدباء والشعراء والشهداء ، الباذلين دماءهم في سبيل نصرة الدين الحنيف ، والعقيدة الشيعية السليمة والولاء لآل بيت الرسول الأعظم . ثم كمقر ومستقر للحوزات الدينية التي ضاهت بعلمائها ومناهج تعليمها النجف الأشرف في العراق . حتى ان الكثيرين من علماء جباع في القرون الماضية كانوا أساتذة كبارا في حوزات النجف الأشرف كالشهيدين الأول والثاني وسواهما .

جمعية البر والإحسان الإسلامية لأبناء جباع :

يؤرخ رئيس بلدية جباع الأسبق المرحوم الشيخ علي مروة لهذه الجمعية فيقول : « لقد حملت هذه الجمعية - سدد الله خطى مؤسسيها والقائمين بها والمساعدين لها - أعباء جبارة بدافع إنساني يغمرها شعور دافق بالمحبة والإخلاص فساهمت بكل ما يعود بالفائدة والخير على بلدها ، وعملت جاهدة على رفع مستوى الفرد الجبعي في كافة الحقول والمجالات ، ولم يقف نشاط هذه الجمعية عند هذا الحد بل تعداه إلى مد يد المساعدة للمعوزين والفقراء المحتاجين والمرضى بالرغم من أن ميزانيتها لا تتحمل مثل هذه الأعباء وخاصة فإن الدولة لم تقدم لهذه الجمعية الخيرية أي معونة مالية تذكر ، ومع ذلك فإنها ماضية في القيام بواجباتها الإنسانية غير حافلة بما يعترضها من عقبات ومصاعب لإيفاء التزاماتها المالية السنوية بالمشاركة مع مصلحة الإنعاش الاجتماعي البالغة حوالي عشرين ألف ليرة لبنانية . فلو أن الدولة رعتها بالمساعدة المالية أسوة بغيرها من الجمعيات التي تغدق عليها الأموال الطائلة ، مع أن بعضها ليس سوى شكلي إسمي ، لكان نشاطها أعم وأشمل» [١] إلى هنا ينتهي كلام الشيخ علي مروة عن هذه الجمعية التي خبا تألقها واضمحل نشاطها بموت معظم أعضائها وكادت في أوائل

---

(١) تاريخ جباع ص ٤٨٣ ـ ط ١ـ دار الاندلس بيروت ١٩٦٧ م ـ ١٣٨٧ هـ الشيخ علي مروه

السبعينات أن تندثر لولا أن قيض الله لها ابن جباع البار : المحامي الأستاذ محمد عيسى الذي بعث الجمعية مبعثا جديدا وأحياها بالتعاون الوثيق مع هيئتها الإدارية الجديدة . قلت تحت عنوان :

جمعية البر والإحسان أو نهضة جباع المعاصرة :

ها هي جباع تشهد اليوم نهضة تربوية واجتماعية وعمرانية ملحوظة قوامها : جمعية البر والإحسان وباعثها رئيس شاب كرس علمه وجهده وتفانيه من أجل بلدته جباع وازدهارها رجاء أن تعود عروسا من عرائس الاصطياف في الجنوب اللبناني ، بعد ذلك الليل الطويل الذي غرقت فيه من جراء الحرب الأهلية الظالمة ، والقصف الإسرائيلي المستمر حتى الآن عليها وعلى إقليم التفاح الصابر المجاهد ، وعلى سائر المدن والقرى العاملية المكافحة .

شعار الجمعية :

وما دام شعار هذه الجمعية ودثارها ومنطلقها : التعاون والتفاني والمثابرة والبذل ، شيمة كل جمعية ناجحة ، فلا ريب في أنها ستنجح . وقد نجحت هذه الجمعية في تحقيق أكثر ما تصبو إليه بلدة جباع من مشاريع .

ولو شئنا أن نعدد الخدمات التي قدمتها ، والمشاريع التي أنجزتها والتي ستنجزها لضاق بنا المجال هنا، ولخرجنا ، في هذا الكتاب ، عن إطار التاريخ الخاص إلى التاريخ العام . لذلك سنكتفي بذكر بعض هذه المشاريع المنجزة [١]

---

(١) وفق البيانات التي بين أيدينا والتي زودنا بها ابن العم الاستاذ علي سعيد المفتش الاول الممتاز في الأمن العام اللبناني والاستاذ بشير خفاجة العضو البارز في جمعية البر والاحسان لابناء جباع . اللذان حدثاني باعجاب عن نشاط هذه الجمعية رئيسا واعضاء، وعن مشاريعها الانمائية المتعددة .

لعل سائر الجمعيات في جبل عامل ولبنان عامة تقتدي بها ، متمنين أن يكون على رأس كل جمعية خيريةأو تجمع انمائي أو بلدية ناشطة رئيس كالشيخ علي مروة والأستاذ محمد عيسى اللذين كانا ، ولا يزال ثانيهما بمثابة مولد للطاقة ، وبث الحرارة والعمل الخدماتي الدؤوب .

بعض هذه المشاريع : مستوصف عامر يستفيد منه المرضى المحتاجون ، علاجا ودواء - مركز صحي اجتماعي - مقر لإدارة المشاريع والسهر على حسن أدائها - روضتان للأطفال - المنتدى الإسلامي - مشغل للخياطة -وضع تصاميم بناء اندية كبيرة ، وقد بوشر بالتنفيذ منذ عام .

إلى آخر هذه السلسلة الذهبية من المشاريع الإنمائية والتقديمات والإعانات المكتومة .

وتستمر هذه الجمعية الرائدة في تقديم خدماتها وتطوير مشاريعها في كل عام ومنذ تأسيسها (١٣٤٢هـ-١٩٢٨م.) وحتى الآن .

ألا بمثل هذا فليتنافس المتنافسون . .

بلدية جباع ماضيا وحاضرا :

اما بلدية جباع فقد فقدت كثيرا من فاعليتها ، بعد وفاة رئيسها المرحوم الشيخ علي مروه واني لأتمنى لها الانبعاث حين تتعاون مع جمعية البر والاحسان الحالية [١] من اجل خير جباع وتطورها وتكامل ازدهارها . لاسيما وان نائب

---

(١) علمت ، مؤخرا من الصديقين العزيزين الاستاذ علي سعيد والاستاذ بشير خفاجة ان التعاون والتنسيق قد تما بين بلدية جباع الحالية وبين جمعية البر والاحسان الامر الذي سينعكس خيراعميما لجباع وابنائها .

رئيس البلدية السيد عبد الكريم غملوش الذي اصبح رئيسا لها انسان طيب ، كما وصفوه لي ، وقادر على تطوير بلدية بلدته لتصبح قادرة على الاسهام مع الجمعية ، في ذلك التطوير المرتجى ، خاصة اذا استطاع ان يؤمن لها الموارد المادية، من قروض ومساعدات ، كما فعلت وتفعل جمعية البر والاحسان بهمة ومثابرة رئيسها وتعاون وتكاتف اعضائها معه .

معرفتي الشخصية بالشيخ علي مروه :

تعرفت الى المرحوم الشيخ علي مروه في اواسط الخمسينات ، يوم كنا نصطاف في جباع مع طلاب الكلية الجعفرية الداخليين . وكم ادهشني نشاطه وحيويته واندفاعه من اجل تطوير بلدته جباع : هذا المصيف الجنوبي الرائع الذي يستحق كل اهتمام من كل مسؤول . ومما زادني اعجابا بالشيخ علي ادبياته وثقافته واطلاعه الواسع على التراث العربي وتاريخ بلدته وبلاده العاملية مما وفر له مادة تاريخية دسمة ساعدته على تأليف كتابه الشهير : تاريخ جباع ، [1] وهذا امر بالغ الدلالة على ذكاء الانسان العاملي واللبناني حين يتصدى لكتابة التاريخ الخاص والعام ، وليس له حظ من التعليم الاكاديمي المتخصص . ليس له الا ثقافته وثقته بنفسه . .

هكذا - لم يكن الشيخ علي رئيس بلدية فحسب ، بل كان مؤرخا واديبا ومحدثا بارعا في إهاب رئيس ، ورئيسا في روح اديب وقلب شاعر ، تشيع في مجالسه نبرة الجد حينا وروح الدعابة والهزل احيانا . ولعل ينابيع جباع

---

(١) وللشيخ علي كتاب آخر هو : روائع الادب الفكاهي العاملي - درعون - لبنان مطابع الأمان ط ١- ثم ط ٢ - بيروت - دار الاضواء - ١٩٨٦ م .

وهواءها العليل ونسيماتها اللطيفة هي التي بثت في احاديثه الرقة والعذوبة والماوية وجعلت من مجلسه وحديثه روحا وريحاناً ، ومن منزله منتجعا للضيوف من كبار الادباء والشعراء العرب امثال احمد الصافي النجفي ومحمد علي الحوماني والسيد عبد الرؤوف الامين (فتى الجبل) والسيد صدر الدين شرف الدين واخيه السيد جعفر شرف الدين والقاضي الشيخ علي مغنية واديب التقي ونخبة من علماء الدين وسواهم . .

وباختصار : كان الشيخ علي مروه اكثر من رئيس بلدية واكبر من شيخ غير معمم . .

القربى بين الاصل والفرع :

أما القربى الواشجة بين عائلتي مروه - الزرارية ، ومروه جباع فهي قربى -كما رأينا -حميمة نسبا وعادات وتقاليد وشمائل ، كما هم في باقي البلدات العاملية : تقارب الابن بأبيه ، او تناسق الجسم الواحد وتلاصق اعضائه .

جباع في موقع القلب شمالا . والزرارية في موقع الرئة جنوبا . اما الجسم فواحد .

أبناء جباع المرموقون في حقل الطب الحديث :

نكتفي ـ هنا ـ بمثل واحد هو : **الدكتور عدنان مروه او الطبيب الانسان** :

ولد في بلدة جباع يرقى بجذوره الى جده الاعلى الشيخ حسين عبد الصمد وولده بهاء الدين العاملي.

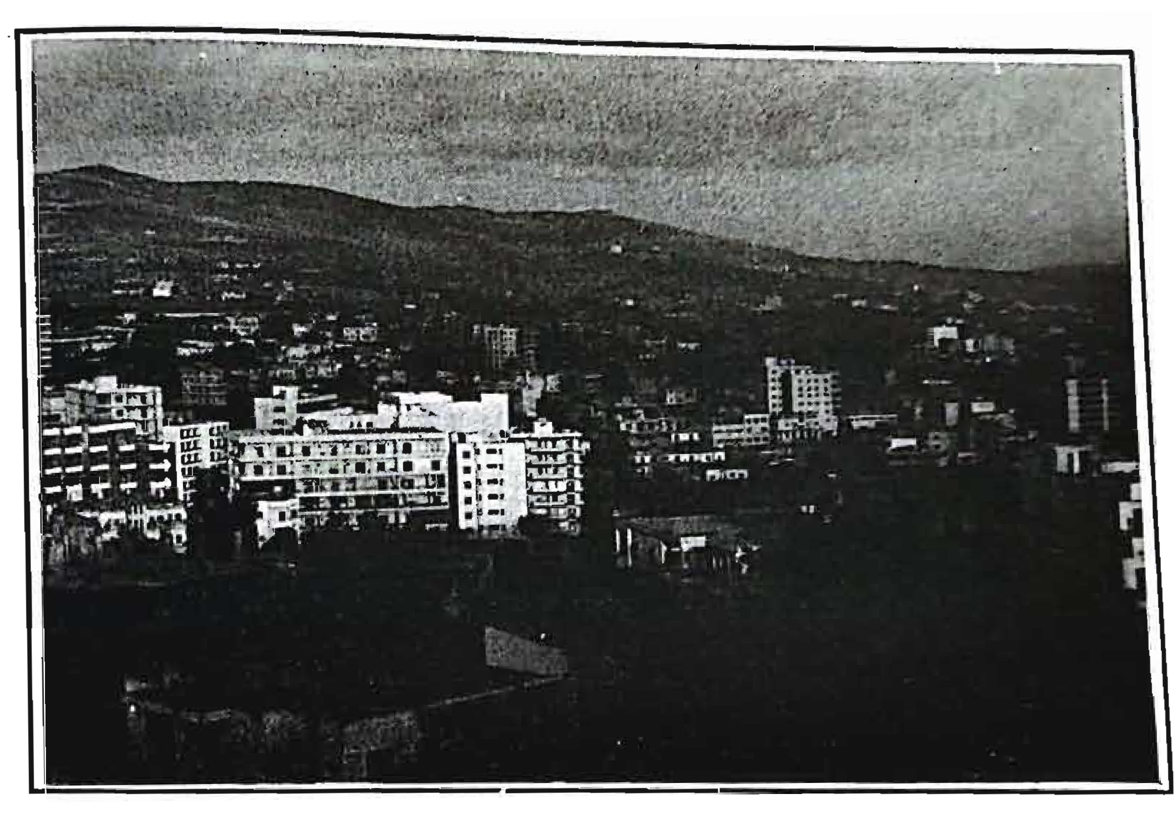
من اخواله الدكتور رضا مروه صاحب مستشفى مروه في بيروت سابقا .

تخرج من جامعات اميركا، وتخصص في الطب النسائي : جراحة وتوليدا وتمريضا وامراضا .

يشغل الأن منصب عميد كلية الطب في الجامعة الاميركية ببيروت . كما يشغل رئاسة جمعية تنظيم الاسرة في لبنان والتي من بين مديريها البارزين الاستاذ توفيق عسيران ، تغلب على مهنة الطب عنده روح الطبيب - الانسان الذي يتوخى في معالجاته وعملياته شفاء المريض على يديه ، لا ان يبتزه فيموت بين يديه . . كما يفعل الكثيرون من الاطباء - التجار عباد المال الذين يجسّون جيب المريض قبل ان يجسّوا نبضه !

دخل الوزارة مرتين ، وفي كل مرة الوزارة نفسها : وزارة العمل والشؤون الاجتماعية والصحة وهناك ظل انسانا ولم ينقلب موظفا . . لم ينس موطن اجداده : الزرارية ، ولا موطن آبائه جباع في كل ما يهم ابناءهما من شؤون وشجون ومساعدات وعقد صداقات . تعج عيادته في مستشفى الجامعة الاميركية بالعديد من النساء الحوامل والعاقرات ممن يحتجن الى جراحة او دواء ناجع او استشارة. شارك الدكتور عدنان في مؤتمرات طبية عالمية عديدة ، ملقيا من على منابرها محاضرات علمية طبية معمقة تشير الى مدى تضلعه في حقل اختصاصه . ولا عجب فالدكتور عدنان استاذ كبير في الطب النسائي (Professeur) ذو شهرة عالمية واسعة . من اشقائه : المرحوم سليم مروه .

من أقربائه : المرجوم الشيخ علي مروه رئيس بلدية جباع الأسبق . أبواهما ابنا عم لحاً .



النبطية : مدينة العلماء والادباء والمخترعين منجبة المخترع العالمي الشهير حسن كامل الصباح



الزرارية - النبطية

تقع النبطية على بعد ١٥ كلم من الزرارية شرقا تحيط بها قرى عديدة منها كفررمان وحبوش شمالا وكفرتبنيت والنبطية الفوقا وارنون شرقا وزبدين وحاروف وجبشت وتولين وتول والشرقية جنوبا - غربا .

والنبطية بلدة قديمة ، اصبحت مدينة في مطلع القرن العشرين، كما ستصبح الزرارية مدينة في اوائل القرن الواحد والعشرين إن شاء الله .

تعلو النبطية ٦٠٠ متر عن سطح البحر . وتعلو الزرارية ٣٠٠ متر . فهواء النبطية - اذن - اكثر برودة وجفافا من هواء الزرارية المعتدل . وفي الشتاء تصبح الزرارية اكثر دفئاً من النبطية ، لاعتدال مناخها . تعتبر الزرارية بلدة ساحلية في حين ان النبطية مدينة داخلية في نقطة او هضبة متوسطة بين الساحل والجبل .

مدينة النبطية اليوم مركز للمحافظة السادسة المستحدثة في لبنان . اما الزرارية فهي من كبريات بلدات جبل عامل في محافظة الجنوب ولا تطمح الى ان تصبح مركز محافظة في المستقبل المنظور. . .

وشائج القرب والقربى :

يربط ما بين الزرارية والنبطية روابط كثيرة منها :

-القرب الجغرافي والانتساب الى جبل عامل موقعا وتاريخا وتراثا ومذهبا . . وتوقا الى العلم والتطور والجهاد .

-الاستبسال في الدفاع عن حوزة الدين والوطن والعروبة ، والوقوف في وجه الغزاة من كل جنس . وبخاصة الغزاة الاسرائيليين . وها هي النبطية -الى اليوم - لا تزال تتعرض للقصف الصهيوني المتكرر .

كما تعرضت الزرارية لمثل هذا القصف والمداهمة ، يوم وقعت فيها المجزرة الرهيبة المشهورة (١١ آذار ١٩٨٥) ناهيك بالحريق الذي اصابها على يد انكشارية فخر الدين ومرتزقته واسياده من ولاة الباب العالي واقطاعيي الاقاليم عهد ذاك .

الروابط الزراعية : يوم ازدهرت زراعة التبغ في الزرارية كانت النبطية قد سبقتها باشواط في هذه الزراعة . وظلت النبطية مركزا رئيسيا لتلقي محصول «الدخان » من الزرارية وانصار وسواهما في المنطقة ،وشركة حصر التبغ والتنباك الرسمية لا تزال في النبطية تخمن مقادير التبغ ثم تشتريه ، ولكن بثمن بخس . وحين كان الاهالي يشكون ويتظاهرون كانوا يقمعون ويقتلون ، بدلا من ان ينصفوا ! (١) . لذا فان زراعة التبغ في الجنوب عامة وفي النبطية وانصار والزرارية خاصة قد هزلت ثم كادت تبور وتضمحل . . بعكس ما كانت عليه في العقود الخمسة الاولى من هذا القرن . . بالاضافة الى ان اكثر المساحات التي كانت تزرع «دخانا » والعائدة الى النبطية قد اصبحت داخل «الشريط المحتل حيث يمنع العملاء واسيادهم الصهانية اصحابها من دخولها وزراعتها . .

وهكذا تحول متمولو النبطية وكبار مغتربيها الى زراعة الحمضيات في

---

(١) والتظاهرة التي سقط فيها المزارع حسن حايك على يد جلاوزة السلطة خير دليل .

السهول الواسعة وزراعة الخضار في الخيم البلاستيكية . كما استثمروا اموالهم في تشييد المباني وبيع الشقق .

اما الفقراء ممن كانوا يعملون في زراعة «الدخان» والحبوب فقد هاجروا الى الاميركتين وعلى الاخص الى افريقيا ، ثم عادوا اغنياء بالجهد والجهاد واستثمروا اموالهم في كل ميدان الا «الدخان» !

الروابط العلمية والتربوية :

كـان من الســهل على ابناء الزرارية من الذين تلقـوا «فك الحـرف» في مدارس البلدة البدائية ، ان يتموا تحصيلهم الابتدائي والمتوسط في النبطية ، نظرا لأنها اقرب من صيدا اليهم . ولأنـها مدينة العلم والتعليم الراقي منذ كـانت . . وكنت انا والاشـقـاء وبعض الاقـرباء والاصـدقـاء اول من ذهب الى النبطيـة في الثلاثينات لمتابعة التحـصيل في المدرسة الرسـمية التي كان على رأسـها المربي المعروف المدير عبد اللطيف فياض . ولسوء البدايات في التحصيل كنا ننتمي الى الصف الاول الابتدائي وقد تجاوز الواحد منا سن العاشرة !

السوق التجاري الشهير في النبطية :

ويشـد الزرارية والقرى المجاورة للنبطيـة سوقها التجاري المشهود الذي يقام فيها كل نهار اثنين . فهو بمثابة معرض دائم للسلع والمنتوجات المحلية واللحوم والحيوانات الداجنة كالماعز والغنم والبقر والخيل والحمير . . يؤم هذا السوق المزارعون والتجار الوافدون من القرى القريبة ببضائعهم ومنتوجاتهم ، وحيواناتهم ليبيعوها هناك ، ثم يعودون بما يحتاجون اليه من سلع ومؤن وألبسة : كالأقمشة والثيـاب والشمـاسي والكوفيـات والعقـالات ، وحتى الطرابيش . (ايام كـان



تمثيل عاشوراء في الزرارية

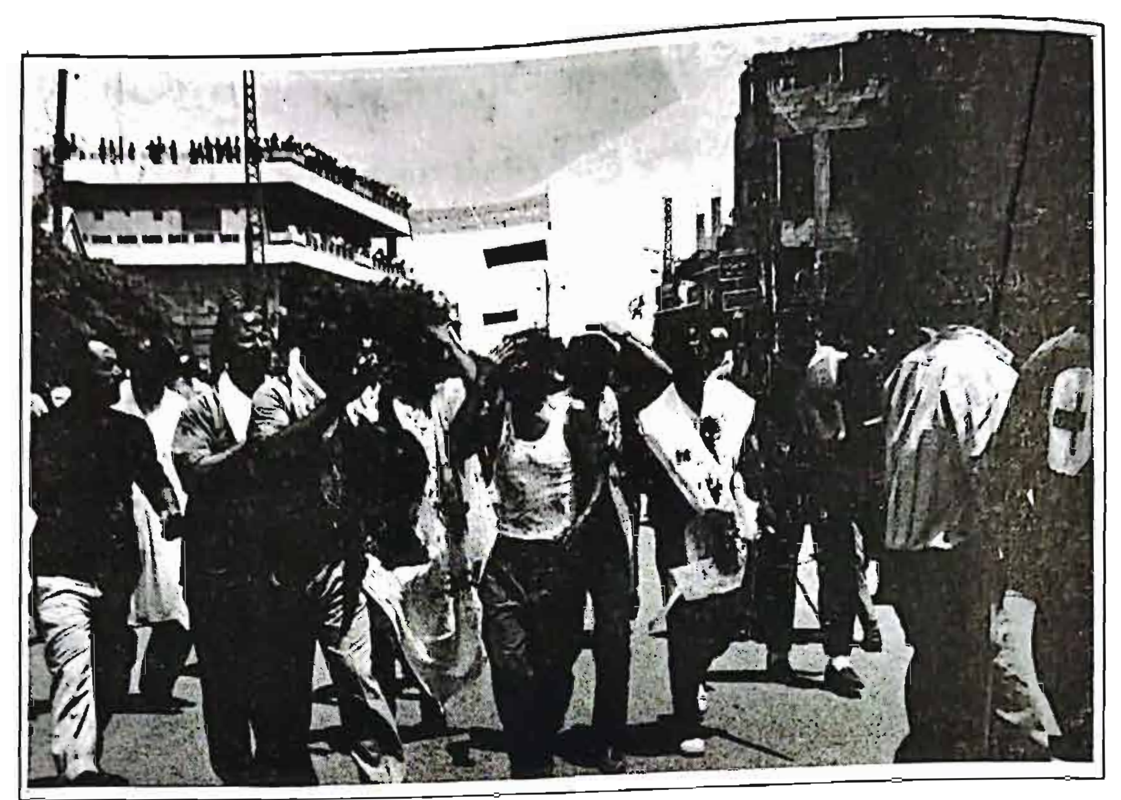
الطربوش لباس الافندية ، وغير الافندية). . يعودون في المساء وقد تناولوا غداءهم من «الصفيحة باللحم » والخبز المرقوق (المهلول) اللذين اشتهرت بهما افران النبطية . (١)

عاشوراء او مهرجان الدم الحسيني في النبطية :

يقيم شبان النبطية في كل عام مسرحية يمثلون فيها على الهواء وفي ساحة الدبانة بالذات مصرع الحسين بن علي (ع) في العاشر من محرم الحرام في صورة

---

(١) وفي قرى جبل عامل يشبهون الجالس سعيدا ومتربعا في استداره ملفتة ، بخبز النبطية المهلول . . فيخاطبونه مازحين :«حاجي قاعد ومدور مثل خبزات النبطية» . .



عاشوراء في الزرارية ـ الضرب بالسيوف على مقدمة الرأس

مهرجان مأساوي استعراضي يشهده أبناء القرى المجاورة كما يشهده الفضوليون من الأجانب صحفيين ومصورين وسواحا . . والبعض منهم يحولون معناه ويتخذونه وسيلة للدس وتشويه سمعة المسلمين الشيعة . .

ابتدع هذا المهرجان وهذا التمثيل المأساوي الدموي نزيل النبطية الإيراني المعروف بالميرزا . وهو والد الطبيب بهجت الميرزا الشهير . ولم تكن النبطية لتعرف هذا النوع من ذكرى المصرع قبل الثلاثينات من هذا القرن وقبل مجيء الميرزا .

- ليكن سوق الاثنين اثنين !

كنت أسمع في صغري أن سوق الاثنين في النبطية قد يصبح سوق الثلاثاء

إذا صادف ووقع يوم عاشوراء يوم الاثنين . . لم لا ؟ والمسألة ليست خروجا على الدين أو الطقوس المذهبية . . وليكن الربح ربحين والمهرجان مهرجانين . أما علماء المدينة فقد كانوا يغضون النظر عن هذا التقديم والتأخير ولست أدري إذا كانت هذه العادة معمولا بها أم لا [1] ! حتى اليوم

مدينة عاملية ولا كالمدن !

وتمضي النبطية في مدارج الرقي والاتساع والازدهار حتى أصبحت اليوم مدينة كبرى بعد صيدا ، ومركز محافظة مثلها ، ومقرا للنوادي الثقافية والرياضية والاجتماعية البارزة وبؤرة نشاط تربوي وفني وفكري ملحوظ .

---

(١) وعلى ذكر سوق الاثنين ومعاودة الحديث عنه تحضرني طرفة من طرائف الطبقة الشعبية في النبطية التي تنم عن حب اهالي النبطية للنكتة والدعابة اللتين هما سمة من سمات الذكاء حتى في الجانب السلبي منهما : اذكر انه كان يندس بين التجار في السوق جماعة من «البطالين» (او البلطجية) ليحتالوا على بعض بسطاء القرويين الوافدين ، ويبتزوهم باساليب مختلفة من اساليب الاحتيال . .

من ذلك مثلا : قروي مزارع جاء ليشتري بقرة فباعوه حمارة على انها بقرة . . بعد ان كانوا قد صبغوا جلدها بالوان البقر . . وغطوا وجهها بقناع يشبه وجه بقرة . . علما بأن هذه الحمارة «الجربانة» لا تساوي شيئا ، في حين ان ثمن البقرة مرتفع جدا . . ذهب المسكين الى قريته . فوجد ابناءه في انتظاره ، وما كادوا يرون البقرة المزيفة ، حتى صاحوا به ونبهوه الى حقيقة «البقرة» عاد في الاسبوع التالي إلى السوق ومعه بقرته ! ولسوء حظه وجد الذين باعوه اياها هناك . فما كاد يتفوه امامهم بكلمة واحدة حتى انهالوا عليه بالضرب المبرح صائحين في وجهه قائلين له : نحن الذين باعوك الحمارة على انها بقرة ؟ ! فصاح من الالم وقال :«دخيلكم لأ . . مش انتو . . بس اتركوني ! ! انا ممنونكن يا اهل النبطية» . . .

منجبة العلماء والمخترعين :

وفوق كل هذا تميزت النبطية بأنها منجبةعلماء في كل ميدان . وهؤلاء هم :

الشيخ عبد الحسين صادق والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ضاهر ومحمد جابر آل صفا يملأون النصف الاول من هذا القرن علما ولغة وتاريخا وشعرا بما الفوا وحققوا وابدعوا ، بحيث تجاوزت شهرتهم وعطاءاتهم حدود عاملة ، واستطاعوا ان يكونوا اعضاء فاعلين في المجامع اللغوية العربية في دمشق وبغداد والقاهرة .

التطور العمراني في النبطية : ولكنه تطور على غير نظام - مع الأسف الشديد :

ازدهرت في النبطية المعامل والمصانع وتجارة بيع الشقق في البنايات التي اقيمت حديثا . كان الفضل في كل ذلك لمتموليها ومغتربيها الذين فضلوا استثمار اموالهم في مدينتهم .

وهناك حارة بكاملها على المرتفع الغربي من المدينة سميت «بحارة افريقيا» التي بدأ المغتربون الأوائل يبنون فيها بيوتهم وداراتهم منذ الثلاثينات من هذا القرن. لذلك سميت باسم مغتربهم افريقيا . . وحين ضاقت مساحات الارض داخل النبطية اكتظت المدينة بالبنايات فلا تنظيم مدني ولا هندسة تراعي الطابع الريفي فيها واختفت الساحات والفسحات وها هي ساحة الدبانة تكاد تختفي بما اقيم حولها من دكاكين وبنايات . . انها زحمة العمران غير المنتظم تشوه وجه النبطية بدلا من ان تجمله . . ثم اين هي تلك الشجرة الوارفة الظلال المهدلة الاغصان التي كانوا يسمونها «المستحية» ؟ ! والواقفة قرب الحسينية . . كانت تستحي قليلا . . ثم ذابت خجلا او قرفا !

حسن كامل الصباح والنبطية :



حسن كامل الصبّاح

الى هذا وفوق هذا - منجبة العالم المخترع العالمي الشهير :حسن كامل الصباح الذي تجاوزت اختراعاته السبعين عدا ، والتي عليها بنى علماء الرياضيات والفيزياء نظرياتهم واختراعاتهم . فكان له فضل الريادة في الكثير من منجزات الكهرباء والطاقة الشمسية والتلفزة في العصر الحديث .

من ألقابه التي نالها عن جدارة في شركة جنرال الكتريك ، بل في امريكا كلها والعالم : فتى العلم الكهربائي ، واديسون الصغير . (١)

وحسب النبطية به وبهؤلاء امتيازا وشرفا ومجدا . .

وحسب جبل عامل انه قادر على العطاء والابداع في كل ميدان وفي كل أوان. . .

---

(١) للاستزادة انظر الكتب التالية :

ـ حسن كامل الصباح : عبقري من بلادي ليوسف مروه

ـ كامل الصباح : العبقرية المنسية ، إعداد يوسف مروه ، منشورات مروه العلمية ط ١ ـ١٩٦٧

حسن كامل الصباح : عالم من لبنان سعيد الصباح ـ دار آسيا بيروت ١٩٨٥ طبعة جديدة منقحة .



الزرارية - صور

الحديث عن صور ، هذه الصخرة البحرية الدهرية ، حديث طويل ، شهي مثير، يتطاول في شماريخ التاريخ صعودا الى قمم الاحداث والبطولات والمغامرات والاساطير ليصل الى كنعان وفينيقيا مبدعة الاشرعة وناشرة الأبجدية فيما وراء البحار حيث يغفو الانسان هناك في كهوف الغال والسكسون والجرمان انطلاقا من عواصمها الخالدة : جبيل (بيبلوس) وصيدون وتحديدا صور .

في هذه العاصمة العظمى (حاضرة فينيقيا) انطلقت اضخم تجارات العالم القديم ، حاملة الى أولئك النيام اروع مكتشفات العقل الصوري المبدع فلاسفة لكل العصور من فوفوريوس الى اقليدس الى زينون ، المنجبة بحارة مغامرين وربابنة مهرة يبنون المدن والحواضر . وآلهة وابناء آلهة . . كآجينار وقدموس وأليسار وديدون « وأوروب » التي اعطت اسمها لتلك الكهوف والادغال والبيوت والشعوب المتوحشة ليصبح اسم بلادهم :اوروبا !

اما هاني بعل الذي اكمل بناء قرطاج اضخم حاضرة بحرية بعد امها صور فقد بنت اسطوله صور لينطلق به غازيا روما ومنتصرا . .

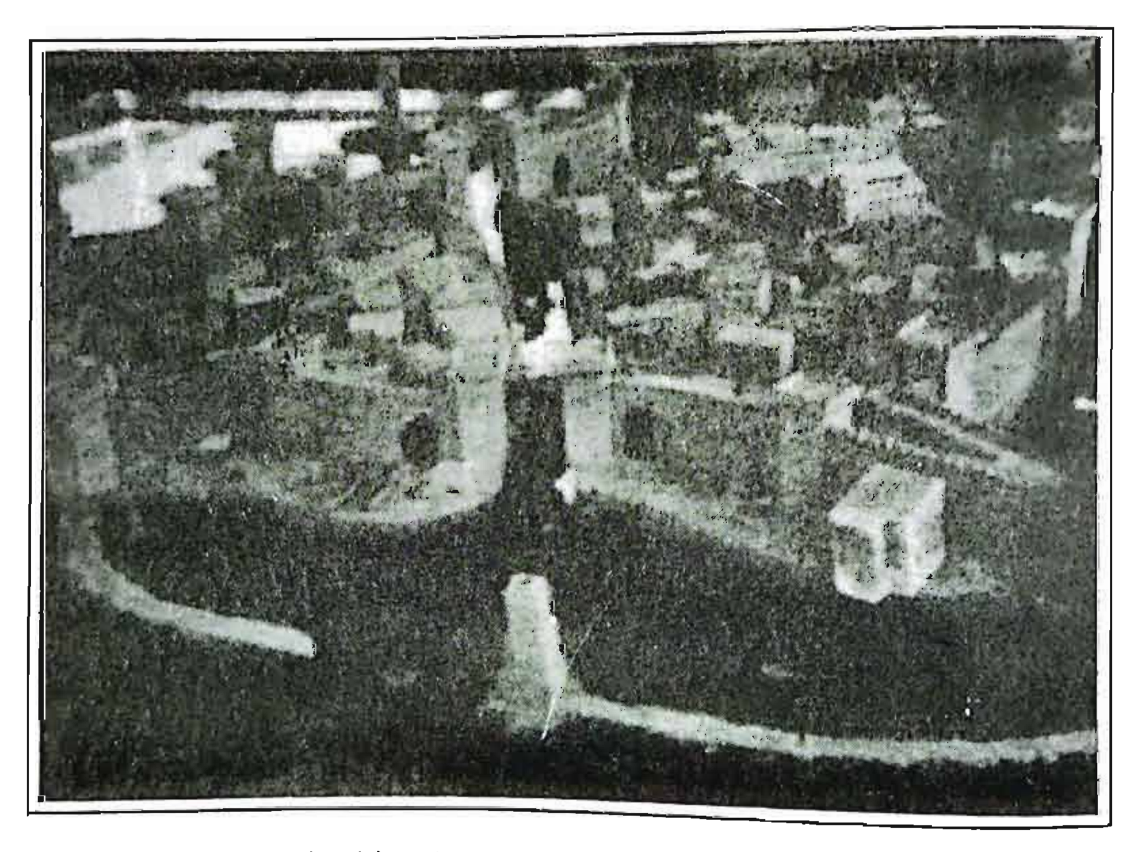


قوس النصر في مملكة اليسار العظيمة
حيث حمل قدموس الحرف من صور الى العالم

والصباغ الارجواني ، وما ادراك ما الصباغ الارجواني . اول اختراع بشري اهتدى اليه عقل بحارة صور عهد حيرام فطلي به حرير الهند الفاخر واصبح لباسا لربات القصور واميراتها .

صور تتحدى الاسكندر :

وتكر الدهور والعصور الى عهد الاسكندر المقدوني ذي قرني الشرق والغرب . فلا يجد امامه وقد صمم على فتح ممالك الشرق سوى هذه الصخرة البحرية الدهرية صور . . فيزحف اليها بأساطيله وجيوشه ليخضعها ، فتأبى عليه وتتمرد وتقاوم رغم الحصار . . ولا يتمكن الغازي من دخولها الا على اشلاء مقاوميها الابطال رجالا ونساء . . ويبقى الاسكندر حيالها قزما رغم



مجمع عام لصور البحرية التي هدمها الاسكندر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد (اعداد الرسام زين كاعين)

انتصاره ، وتبقى هي عملاقة رغم انكسارها . [1] ويتوالى الليل والنهار وتكر القرون على صور وتبقى راسخة القدم على شاطىء المتوسط . . ويمر الغزاة تلو الغزاة والفاتحون من كل سنخ وجنس من فراعنة وبطالسة وعماليق ، ومن يونان ورومان وغيرهم . . . والكل يريدون بها شرا وهي تريد لهم خيرا . . ارادوا لها الاخضاع والضم ونهب الكنوز ، وارادت لهم التحضير . . ولقنتهم دروسا في المقاومة وحفظ الكرامة والكنوز . اعطتهم ولم يعطوها . . علمتهم ولم يعلموها. . حضرتهم ولم يحضروها . .

علمتهم كيف تبنى الحواضر وتنشر الحضارة. علمتهم كيف يستخرجون - مثلها - المحار -واللؤلؤ-والارجوان - وكيف يتاجرون -مثلها-عبر شق عباب البحار واجتياز المحيطات . . اعطتهم مجد الخلود بخلودها ! [2] .

---

(١) للاديب الناقد والشاعر الحداثوي المبدع عباس بيضون قصيدة بعنوان صور فيها ما فيها من رموز وظلال كثيفة تتألق من بينها ومضات تجربة ونبض حياة عاشها الشاعر فعلا في صور بعد ان طال تجواله في زواريبها المغلقة منذ عهد المماليك ايام طفولته وصباه بين المياه الآسنة ومجارير المياه المبتذلة ، كما يقول فأحال كل هذا رؤية ورؤيا في اطار رمز واسطورة وكان موفقا . .

(٢) بين لبنان والصناعة والتجارة تاريخ قديم . . واذا كانت دولة الطائف اليوم لا تدرك اهمية الصناعة والتجارة في التاريخ اللبناني القديم عليها ان تتذكر المدن الساحلية الفينيقية وتقرأ اخبارها من كتاب : صور حاضرة فينيقيا للمؤرخ الصوري الدكتور معن عرب . وقد اختارت الصفحة الثقافية في جريدة السفير فصلا عن تجارة صور القديمة وصناعتها للعبرة . . والعبرة كلها تأتي من التاريخ . . قالت السفير :«ترك لنا تاريخ وعلم العاديات عدة امثلة على روعة صناعة الزجاج الصوري وعلى مهارة فينيقيي صور في هذا المضمار، ويرى كثيرون من النقاد وعلماء التاريخ ان احد العمودين اللذين شاهدهما هيرودوت (ابو التاريخ) في هيكل=

ثم يجيء الاسلام بعد المسيحية ليقضيا على وثنية صور ويحد من غلوائها في الشرك ، كما يحافظان على امجادها فتصبح من الثغور الاسلامية يرابط فيها- كما في الصرفند وصيدا ، الصحابي الكبير ابو ذر الغفاري ثم يتمنى الامام الاوزاعي ان يرابط فيها ويقضي بقية عمره بين اهليها .

وتخرج صور من دنيا الاسطورة وقيم الوثنية ، ومجد الغزو ومغامرات البحار وانشاء الممالك الى قيم جديدة وتعاليم جديدة فاحتضنها المسلمون الاوائل معلمين ومتعلمين . . واحتضنت هي الاسلام ومذهب التشيع تذود عنهما وترابط وتشترك في الفتوحات البحرية مع الفاتحين . .

وبهذا اضافت صور الى عظمة الكشف والاختراع والفلسفة والمغامرات والصمود البطولي في الماضي السحيق روعة السمو الروحي والرسوخ الايماني بالعقيدة الاسلامية المميزة .

ثم تفردت صور كحاضرة لهذا الساحل العاملي المشهور بالتمرد والرفض لكل غاز او مستعمر جديد كما تميزت بالاصالة العربية والروح القومية الصافية والميل الشديد الى الاندفاع نحو اي نزعة وحدوية او اتحادية نمت وتألقت في اوائل

=ملكارت عند زيارته لصور (٤٥٠ ق. م) واللذين وصفهما بانهما من الزمرد الخالص الذي يشع ليلا نهارا . .

هذا الزمرد انما كان من الزجاج الصوري الازرق الشفاف ، وأن مصابيح مضيئة كانت تشع من داخله . . ومن روائع صناعة الزجاج الصورية سمكتان من الزجاج الابيض اكتشفتا في صور في مطلع القرن الحالي موجودتان الان في متحف اللوفر في باريس ترجعان الى القرن الميلادي الاول . وتروي الخرافة ان بلقيس ملكة سبأ قد حملت الى سليمان هدية هي عبارة عن كتلة زمرد من صناعة مدينة ملقرت (ابن صور) . . الخ . .

هذا القرن وحمل مشعلها الشريف حسين وابنه الاكبر فيصل الاول وقضى في سبيلها المذاويد الابطال من هذه الامة .

وبدءا من ابي ذر حامل لواء علي وزارع بذور التشيع والرفض في ابناء هذا الساحل العاملي من بلاد الشام ، ومرورا بعلاقة ومقاومته للحكم الفاطمي واستقلاله بحاكمية صور والثغور . . وبالشيخ عباس المحمد الوائلي ابن اخ الشيخ ناصيف النصار الذي بعثت صور على يديه بعثا جديدا وبرزت نموذجا رائعا للعيش المسيحي الاسلامي المشترك . . وانتهاء بالعصر الحديث وظهور المصلح الكبير الامام السيد عبد الحسين شرف الدين الذي بدأ حياته السياسية برفض الانتداب الفرنسي ومقاومته ومحاربه الاقطاع السياسي بتوعية الشعب عن طريق انشاء المدارس والكليات والنوادي الثقافية وتجميع قادة الفكر والادب حوله. وبعد وفاته بثلاث سنوات حل محله الامام موسى الصدر حاملا التوجه نفسه والافكار نفسها ، عاملا على تطوير وتثوير جمعية البر والاحسان التي انشأها الامام شرف الدين. هنا اقف طويلا عند هذين الامامين واعمالهما ما اسعفني الوقوف ، وكيف عاشت صور في عهدهما تاركين صور التاريخ ، صور الماضي لدهاقنة المؤرخين يحدثوننا ذلك الحديث الشهي المثير الذي يحتاج الى مجلدات ضخمة لاستيعاب احداثه ، كما يحتاج اليوم الى هيرودوت جديد [(١)] .

---

(١) نهض بعبء كتابة تاريخ مدينة صور ابنها البار الدكتور معن عرب واقفا عند عهودها الفينيقية في كتابه الشهير : صور حاضرة فينيقيا ، الذي نال عليه جائزة سعيد عقل عام ١٩٦٩ لكنه توقف منذئذ عن المتابعة ونحن نأمل من الصديق العزيز معن ان يستأنف عمله ويكمل ما بدأه عن تاريخ صور وامجادها فهو الاديب والعالم المتمكن الذي لا ينقصه العلم والخبرة وقوة السبر والتحليل والبعد عن العاطفة والخيال وتوفر الوثائق والمستندات كما لا تنقصه الهمة . .

الامام شرف الدين او الجهاد المثلث الابعاد :

١- البعد الاجتماعي : التربوي والثقافي .

٢-البعد السياسي : المحلي والوطني العام .

٣-البعد القومي : العربي والاسلامي .

- مرافقتي لهذه الابعاد وتأثري بها : منذ اثنين واربعين عاما - تماما- القيت عصا الترحال في صور للتدريس في الكلية الجعفرية ثم ادارتها نزولا عند رغبة والحاح رئيسها المربي الاديب السيد جعفر شرف الدين وترحيب والده العلامة الحجة السيد عبد الحسين شرف الدين . وجدت جو الجعفرية واجواء الامام عابقة بأنفاس الروحانيات ونفثات الادب والشعر والفكر محتدمة بأوار النشاط السياسي والاجتماعي والوطني والقومي والديني زاخرة برؤى الاصلاح التربوي. وقد انقلب كل هذا على يد الامام المرشد صروح علم وهداية وجمعيات بر واحسان[1] وهذا هو صرح الجعفرية الممرد يتطور في اقل من ربع قرن من مدرسة متواضعة في بيت الامام الى بناء مستقل فوق محلات وقف الجعفرية، الى صرح شامخ يقوم على مساحة شاسعة من الرمال المتعطشة الى الارتواء من معين العلم

---

(١) جمعية البر والاحسان اسسها الامام ورعاها نجله ومنفذ رسالته السيد جعفر كما ترأس هيئتها الادارية ثم سلمها للامام الصدر الذي طورها وانشأ فيها مهنية ضخمة يتخرج منها سنويا مئات الشبان العامليين المتخصصين بشتى المهن . كما انشأ إلى جانبها مدرسة ابتدائية ومتوسطة تضم مئات التلامذة (٦٠٠ تلميذ اليوم) اكثرهم من ابناء الشهداء وها هو الاخ المجاهد ورجل المال والاعمال السيد حسين بيطار على رأس ادارتها بعد تغييب الامام يتابع الرسالة ويسهر على انماء هذه المؤسسة التربوية والاجتماعية التي لا تضاهيها في نشاطها سوى جمعية البر والاحسان لابناء جباع (انظر الحديث عن هذه الجمعية في فصل الزرارية - جباع »

الحديث بجناحين اثنين وطوابق ثلاثة ذوات غرف للتدريس واسعة وممرات فسيحة وتجهيزات جديدة يحيط بالكلية الجعفرية (الثانوية اليوم) من الشمال بناء الجعفرية القديم ونادي الامام الصادق . ويوم جئتها عام ١٩٥٢ لم يكن قد مضى سوى عام واحد على افتتاح البناء الجديد الضخم. ظلت همة مؤسسها القعساء تحرسها من كل جانب وترعاها مع انجاله وحوارييه من المغتربين والمقيمين وتمدها بكل اسباب الحياة . وعلى رأس كل هؤلاء كان ولا يزال نجل الإمام وحامل رسالته المربي الكبير والاديب والخطيب المفوه والسياسي الطليعي الفذ السيد جعفر شرف الدين الذي كرس لها ولتطويرها كل حياته وكل جهده وجهاده في حله وترحاله.

الكعبة الصغرى :

وهناك في منزل الامام محجة اخرى لا ينقطع سيل حجيجها ، يأتونها في الاضاحي والأمسيات والعشايا يستظلون بظل الامام الهادي وينهلون من علمه وادبه وحدبه ومحبته ، ويهتدون بمواقفه وآرائه واتساع فكره .

الحجيج : هذا الحجيج كان يضم الصفوة من رجال الفكر والأدب والشعر امثال انجال الامام وحوارييه كالاديب الكبير السيد جعفر ، والاديب والمفكر والسياسي الثائر السيد صدر الدين والأديب المخضرم والمؤلف الاسلامي المميز الاستاذ زكي بيضون، والدكتور الطبيب الإنساني والمحاضر المرموق شكر الله الحداد، وخطيب المنابر الحسينية الشاعر الموهوب الملتزم بفكر الامام ومستوحي الشعر من اجوائه الشيخ احمد حجازي المعروف بابن البادية وليد الزرارية ونزيل صور[1] ومفتي صور السيد محمد جواد شرف الدين والعلامة السيد عبدالله والسيد محمد رضا انجال الامام .

---

(١) انظر نبذه عن حياته واعماله في باب : أعلام الزرارية من هذا الكتاب .

كما كان يؤم هذه الكعبة المصغرة وفود من سائر مناطق لبنان والوطن العربي والديار الاسلامية يستفتونه في امور دينهم ودنياهم ، اذ كان الامام في مركز القيادة الروحية والدينية للطائفة الشيعية في شتى مواطنها بلا منازع وحتى الطوائف الاسلامية الاخرى كان رجالاتها وعلماؤها يحاورونه ويسترشدون بآرائه في كيفية انجاح عملية الاصلاح والتوفيق بين المذاهب التي كان الامام يقودها بوعي وانفتاح كبيرين في رحلات علمية الى مصر ولقاءات ومحاضرات رائدة دامغة الرأي صائبة التسديد (١) .

المنتدى الثقافي الاول في صور :

اما امسيات الامام وأصائله فكانت عابقة بنكهتين محببتين الى نفوس الرواد : نكهة الشعر والمساجلات ونكهة الشاي المعتق تدار عليهم كؤوسه بين حين وآخر او بين نشوة واخرى . .

اما الوافدون من كبار الشعراء في لبنان والبلاد العربية فقد كانوا كثرا ونجوما متألقة كالشاعر الشهير بولس سلامه ومحمد علي الحوماني واحمد الصافي النجفي الذي كان ينزل في رحاب الامام اياما وليالي ضيفا عزيزا مكرما (٢) وشاعر العرب الاكبر الجواهري (٣) .

---

(١) وهذا كتاب المراجعات للامام خير سجل لتلك المحاورات التي جرت بينه وبين شيخ الازهر في ذلك العهد الشيخ سليم البشرى المالكي . الفه الامام يوم اتى إلى مصر عام ١٣٢٩ هـ ، ودون وقائع الكتاب هناك .

(٢) كان الشاعر الشعبي أو شاعر الصعاليك احمد الصافي النجفي يحب جبل عامل واهله فأمه عاملية وابوه عراقي . عشت معه وفي غرفة واحدة في بيروت مدة شهرين ايام دراستي=

وهكذا كان طبيعيا لمن كان مثلي ذا حظ يسير من حب الادب والادباء والشعر والشعراء ان يتأثر بمثل هذه الاجواء ويتزود منها بزاد أدبي وثقافي ساعدني فيما بعد على اكتمال ملكة الادب والنقد عندي ، وتكامل العدة للإنتاج .
خمس سنوات كانت كافية (من ١٩٥٢ حتى آخر ١٩٥٧ سنة وفاة الامام شرف الدين) للتأثر والمشاركة الخجولة ، لكنها لم تكن كافية للتزود اكثر . .

الامام شرف الدين وموقفه من الشاه :

في اوائل عهد الاستقلال بدأت الاحزاب الوطنية تتشكل ثم تنمو وتنتشر في اوساط المثقفين والطبقات العاملة والمحرومة . كما زاد من وعيها كثرة الاحتكاك بالتيارات والافكار التقدمية الخارجية وتزايد درجة الاغتراب ، ونشوء الجامعات الوطنية وبروز القادة المفكرين - على قلتهم - في الخمسينات وظهور عبد الناصر بافكاره العروبية الوحدية ونشاط بعض كبار رجال الدين في الترويج لهذه الدعوة الى جانب الاحزاب الوطنية التي الهبت المنابر والنوادي الثقافية بنيران تلك الدعوة .

وكان على رأس رجال الدين الامام شرف الدين الذي شهد الهجمة الشرسة المضادة للعروبة والاسلام وهو الذي حمل بذور الوحدة والاتحاد ونماها منذ مؤتمر الحجير وقبل ظهور عبد الناصر بثلاثين عاما على الاقل .

=وكنت اعرض عليه بعض قرزماتي الشعرية لتصحيحها . اصيب اثناء الحرب الاهلية في بيروت . نقل إلى بغداد حيث توفي هناك رحمات الله عليه .

(٣) محمد مهدي الجواهري ابو فرات شاعر العرب الاكبر اليوم (٩٣ سنة) (امد الله في عمره) فهو كالمتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس شعرا كلاسيكيا ابداعيا ومواقف وطنية وقومية معروفة. هو اليوم نزيل دمشق العروبة .

الشاه يزور لبنان :

في عام ١٩٥٥ لبى الشاه دعوة كميل شمعون لاحكام الطوق حول عبد الناصر ومحاصرة نفوذه ونفوذ الاحزاب الوحدوية بحجة ملء الفراغ في الشرق الاوسط تنفيذا لخطة اميركية مفضوحة الاهداف سميت بمشروع ايزنهاور .

اراد الشاه ان يزور «السيد » والجعفرية في صور لكن الامام شرف الدين كان بالمرصاد لنوايا الشاه المبيتة . . ولم تتم الزيارة . .

شهدت بنفسي وقائع هذا الحدث الذي جسده موقف الامام في رفضه زيارة الشاه . طرق باب الامام ذات يوم من ايام عام ١٩٥٥ طارق فاذا هو سفير ايران في لبنان الذي جاء ليسلم الامام رسالة شفهية من الشاه مفادها : «ان جلالة الشاه يسلم عليكم ويقبل اياديكم ويود ان يجتمع بكم لكن البروتوكول يمنعه من المجيء الى صور كما تعلمون ، لذا فجلالته يتمنى عليكم ان تذهبوا الى قصر الضيافة في بيروت ، وتقف السيارة التي تقلكم في باحة القصر وتبقون سماحتكم في داخلها فيهبط الشاه ويقبل يديكم . . وهذا كل شيء . . » وقد نوه السفير بمساعدة مالية محترمة للجعفرية التي كانت ميزانيتها -يومها - تعاني من عجز مادي كبير. وتختتم زيارة السفير بجواب الامام القاطع ، وقد ادرك بحسه الصافي ابعاد الدعوة، بقوله له : قل لسيدك ما قاله احد العلماء والمراجع لجده « اذا رأيت العلماء على ابواب الملوك فقل بئس العلماء وبئس الملوك ، واذا رأيت الملوك على ابواب العلماء فقل نعم الملوك ونعم العلماء ». ومما زود الامام السفير به هذه النصيحة - الانذار في شكل رسالة جوابيه للشاه :قلنا له الا يدخل حلف بغداد فدخل ، وبذلك مس الشيعة في الصميم ، وكذلك فعل بتحالفه مع كميل شمعون -حشره الله معه ! ! ولا حاجة بنا لزيارته لنا . .

وبعد ان تكشفت المؤامرة بوضوح ، وكان قدس سره ، في آخر ايامه ، وظهر له ما يحاك للمنطقة من مشاريع احتواء وهيمنة اميركية ، سارع الى ارسال برقية الى الشاه يحذره فيها من الدخول في حلف بغداد . وكان الشاه قد دخل فعلا . . يقول في البرقية :«حفظ الله الايمان بحفظ ايران

دخولكم الحلف التركي - العراقي ينذر بالقارعة . .

موقعكم بين فكي التنين يلزمكم بالحياد . .

الدين النصحية . وقد نصحت . . »(١) .

ويتردد صدى هذا الموقف التاريخي في اسماع وافئدة العلماء الأحرار في ايران ، بعد ربع قرن من الزمان ، فاذا بهم يقلبون عرش الشاه ويقضون على احلامه ومشاريعه بقيادة آية الله الخميني ، وتقوم اول جمهورية اسلامية في هذا القرن . . واذا بالشاه المخلوع لا يجد من يؤويه حتى في ديار حماته ! فيموت قهرا ومرضا وذلا ! تلك هي المصائر الحتمية لجلادي الشعوب : السجن او القبر

الامام وفيصل الاول : اثر انتهاء الحرب الكونية الاولى عصفت بالبلاد رياح استعمارية عاتية . فمن معاهدة سايكس - بيكو التي تنص على تقسيم الوطن العربي ، الى نكوص الحلفاء وتراجعهم عن العهد الذي قطعوه للشريف حسين ثم نفيه الى جزيرة سيشل ، الى زحف جيوش فرنسا على الشام لطرد الملك فيصل الاول منها بعد سحقهم للمقاومة العربية في ميسلون . . كان لا بد من تحرك الاحرار العرب للوقوف في وجه تلك الهجمة الفرنسية الانكليزية الشرسة . وتحرك الامام الذي كان يرصد المؤامرة عن كثب ، فكان مؤتمر وادي الحجير

---

(١) ارسلت هذه البرقية بعد ان قمت مع بعض الزملاء بترجمتها إلى الفرنسية .

وترؤسه للوفد المشكل للتفاوض مع الملك فيصل الاول بشأن اتحاد عربي يضم لبنان وبالتحديد منطقة جبل عامل الى سوريا بزعامته وكان قد نودي به ملكا على الشام . وذهب الوفد ووقف الامام خطيبا معلناً مقررات المؤتمر امام الملك فيصل[1] ولكن فرنسا التي رصدت هذا التحرك سارعت الى تحريك جيوشها بقيادة الجنرال غورو باتجاه الشام فسحقت المقاومة العربية الباسلة في ميسلون ، ودخلت الشام وغادر الملك فيصل الى العراق . .

بين الجعفرية ومنزل الامام وبيني :

عشت في كنف هذا الامام العظيم ابهى واغنى ايام شبابي (من ١٩٥٢ الى ١٩٥٧) وهي السنة التي توفاه الله في ختام آخر شهر منها (٣٠/ ١٢/ ١٩٥٧ م ٨ جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ) وكنت وانا في الكلية الجعفرية مديرا ومدرسا ارتاد مجالسه مع المرتادين ننهل من علمه الغزير ، واخلاقه العابقة بانفاس النبوة .

كان رحمه الله يحيطني برعاية ابوية خاصة . وكنت رهن اشارته في كثير من المهام ، وقد طلبني مرارا لأكتب له مملياً علي فصولا من كتابه : النص

---

(١) يطول بنا المقام - وقد طال - في تعداد قرارات مؤتمر وادي الحجير التي اعلنها الامام في خطبته . ونسجل هنا - فقط - الموقف الذي وقفه الامام امام الملك فيصل الاول . موقف اقل ما يقال فيه انه كان موقف الند للند حين استهل خطبته مستشهدا بهذه الابيات للشريف الرضي :

مهلا امير المؤمنين فاننـــا	في دوحة العلياء لا نتفـرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت	ابدا كلانا في المعالي معرق
الا الخلافة ميزتك فأننـــي	انا عاطل منها وانت مطوق . .

والاجتهاد ، وبعضا من فصول البغية . ويوم فجعت الامة بوفاته رثيته بكلمة اثبت موجزها في الصفحة الأخيرة من الكراس الذي قام بطبعه ونشره الجماله وحواريوه بعيد وفاته ومما جاء فيها مختصرا :

وهكذا عاش الامام الكبير في صميم احداث امته ، بل عاشت امته في صميم احداثه ومواقفه اذ كان لها إماما هاديا ومصلحا بانيا ، وكانت له خير عون على مكابدة الايام ، ومكافحة الخطوب ، ومحاربة الفساد والمفسدين ، تلبي نداءه وتجيب دعاءه ، وخاصة صور ، هذه المدينة المجاهدة الصابرة المؤازرة التي آوت ونصرت ، والبلاد العاملية مقيموها ومغتربوها .

لم تفتقده امته في ساعة من الساعات ، ولا في ساحة من الساحات إلا ووجدته أمامها وإمامها : فهو في ساح المحبة والتأليف بين القلوب رسول حكيم . وفي ساح الانفتاح على الطوائف الأخرى داعية عيش مشترك ، يدفع الشبهات ويزيل العمى ويمحو الضغائن . وفي ساح التأليف والتصنيف فيصل بين الحق والباطل ، حاد النصل ، نافذ السنان . وفي ساح الجلاد والجهاد قائد وحدوي توحيدي لا يقاوم ، وبطل لايساوم . .

وفي ساح البناء والعطاء والتربية جعفري صادق ، ومرب هادف ، بعيد الرؤيا غير منغلق .

وفي ساح الفصاحة والبلاغة وشمول التفكير خطيب مفوه ، يسعى اليه المنبر ، ويندى بمخضل كلمه ، ويهتز لقوة ايقاعها وروعة ابداعها .

وفي ساح الكبرياء والاستعلاء على الصغار والصغائر مثل من ابهى مثلنا العليا ورمز مجسَّد للفضائل المحمدية الخالدة والمناقب العلوية المثلى ، والفروسية العربية الاسلامية الأنوف .

ويكفيه فخرا وسموا وخلودا ، انه رغم شهرته ، والتفاف كبار الاغنياء المؤمنين حوله ، وتدفق المبرات والاعطيات المزكاة عليه ، رغم كل هذا ، عاش فقيرا ومات فقيرا . .

ولو شاء لكان له مال قارون . .

يكفيه انه اصبح حديث كل لسان ، ورائدا عظيما من رواد نهضتنا العلمية والتربوية والتحريرية ورصيدا ضخما من ارصدة تاريخنا العربي الاسلامي الحديث، الذين يأتون على رأس كل مائة عام كالشهيدين الاول والثاني . . وكالمصلحين الكبار جمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده . ولعل إمامنا يبزهم جميعا في كثيرمن صفاته ومواقفه . .

يكفيه انه - لهذا كله - لم يمت ، ولن يعفو ذكره ، ولن تنساه الأجيال[1]

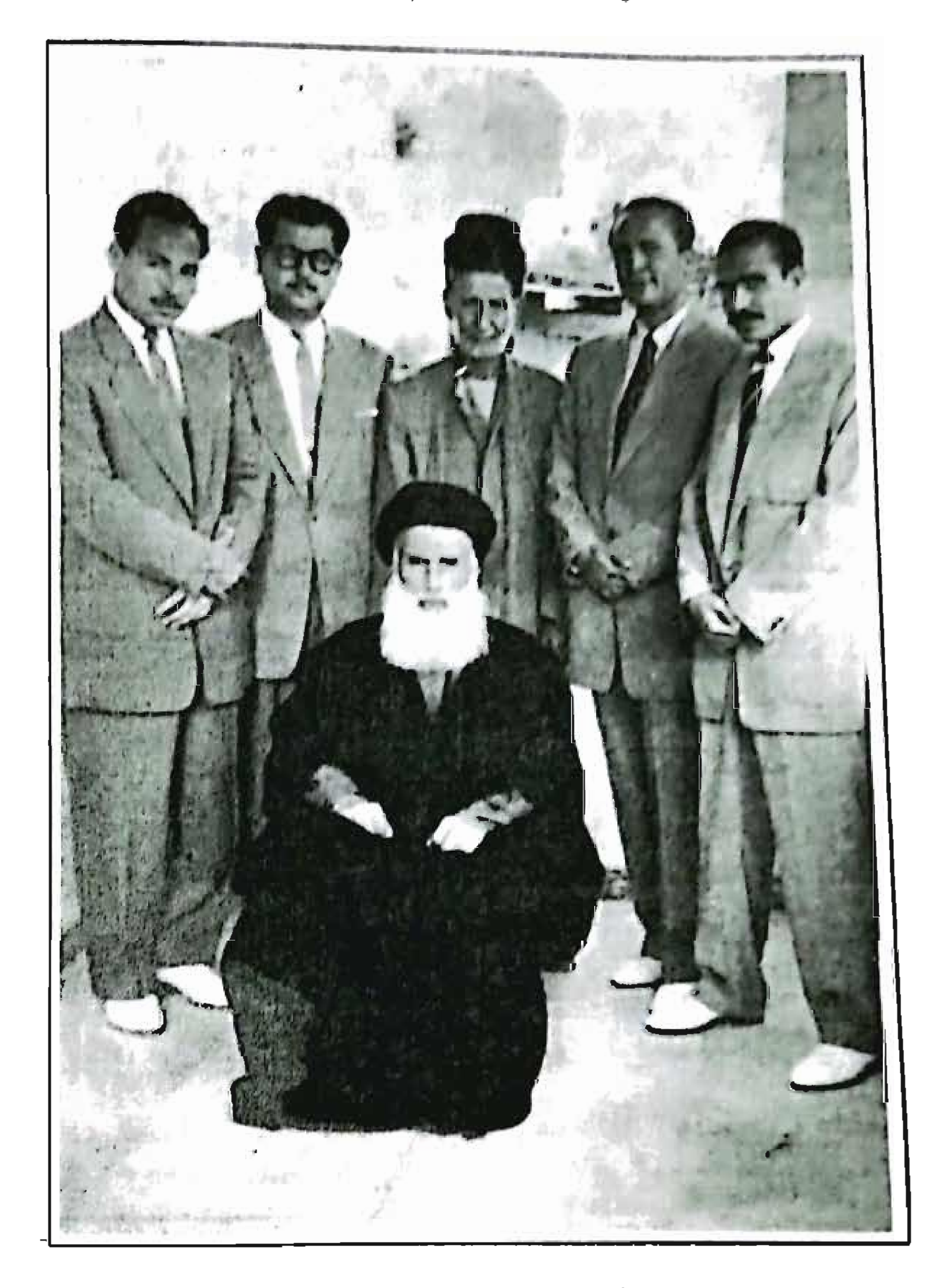
الامام موسى الصدر :

اما الإمام والمصلح الكبير موسى الصدر فتحتاج مواقفه واحداثه هو الآخر الى تاريخ برأسه لا يتسع المجال هنا لرصدها وتأريخها . وحسبنا ان نقول : انه كان امتداداً طبيعيا للإمام شرف الدين نسيبه وقريبه سار على نهجه ورعى مؤسساته وكان من اكبر دعاة العيش المشترك بين طوائف لبنان جميعها كما كان اول من نادى بحمل السلاح لمقاتلة اسرائيل وعملائها . ولتكريس هذا المبدأ أسس

---

(١) القيت هذه الكلمة كاملة في ذكرى اسبوع الامام الحاشدة حيث كنت مقدما للخطباء. اقيمت الذكرى في باحة الكلية الجعفرية وتكلم فيها كبار علماء الدين والمفكرين والادباء والشعراء في لبنان وسوريا وسائر الاقطار العربية والاسلامية . كما ارسل الشاعر الكبير بولس سلامه ، وكان يومها قعيد الفراش والمرض قصيدة القيتها عنه بالنيابة ، وكان لها وقع كبير . .

صورة تذكارية للامام شرف الدين



الامام شرف الدين يحيط به عن يمينه عضو البعثة المصرية الى الجعفرية الاستاذ حمدي غرابة وعن يساره العضو الثاني الاستاذ وجيه قايبل، ويبدو وراء سماحته المرحوم السيد جواد هاشم والمؤلف
أُخِذت هذه الصورة التذكارية في العام ١٩٥٣.

أفواج المقاومة اللبنانية (أمل) . . وحرم التعامل مع هذا العدو التاريخي [١] .
وللسيد موسى مبادرات كثيرة ومشاريع، منها على سبيل المثال لا الحصر انشاؤه المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى الذي اصبح مؤسسة ومرجعية للطائفة الاسلامية الشيعية في لبنان.

كانت لي معه صلات ادبية وثقافية وقد قدمته خطيبا على المنابر الحسينية والسياسية في كثير من المناسبات .

الامام شرف الدين والزرارية :

منذ ما قبل عهد الإمامين شرف الدين وموسى الصدر قامت صلات وطيدة بين الزرارية ومدينة صور منها التجاري ومنها الروحي والادبي . فالزرارية اقرب جغرافيا الى صور منها الى صيدا فهي لا تبعد اكثر من ٢٠ كلم عن صور بينما تبعد عن صيدا اكثر من ثلاثين كلم . وهذا الفرق كبير في المقياس القديم حيث كانت السلع منها واليها تنقل بواسطة الدواب ، مما يوفر على التاجر (المكاري) المشقة والوقت .

وتجيء السيارة ويزداد التواصل الاجتماعي والثقافي ، من تعليم وطبابة . فيجد الزراريون سهلا عليهم تعليم ابنائهم في مدارس صور اكثر من صيدا والنبطية . وكذلك تلقي العلاج على يد اطباء صور كالدكتور صبحي سالم وطعمه. ثم يبزغ نجم الدكتور شكر الله الحداد فيتدفق عليه فقراء الزرارية وغير الزرارية يعالج امراضهم ويرأف بهم ويقدم الدواء مجانا لهم بما يتوفر لديه من

---

(١) حين اطلق قوله المأثور : التعامل مع اسرائيل حرام . وقد اصبح هذا القول واجبا شرعيا آمن ويؤمن به كل مقاوم حقيقي وكل وطني شريف . وها هو رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الحالي يؤكد هذا المبدأ حين قال :« التعامل مع اسرائيل يزول بزوالها . » (انظر جريدة السفير العدد ٦٥٩٣/ ٢٩/ ٩/ ٩٩٣) .

عينات وقد اشتهر بينهم بلقب : طبيب الفقراء والمحتاجين وحتى متوسطي الحال من اقارب واصدقاء .

ولما كان الدكتور شكر الله طبيب الامام شرف الدين الخاص ، ثم الامام موسى الصدر فقد اصبح طبيب رواد مجلس هذين الإمامين نظرا لما يربطه بهم من صلات روحية وادبية كثيرة . . فهو شيعي الهوى وهم شيعيون ، وهو أديب وخطيب وقومي وهم ، في اكثرهم ، ادباء وخطباء وقوميون ! وهو علماني الفكر ، وهم في غالبيتهم علمانيون وهل اقوى من هذه الصلات صلات ؟ !

اما الامام شرف الدين فطالما طاف في القرى والدساكر العاملية يجمع التبرعات لارسالها الى طلبة العلم الديني من العامليين في النجف الاشرف . وقد شهدته بنفسي في الاربعينات يزور الزرارية مرارا لهذه الغاية . فللامام في الزرارية محبون كثيرون ومقلدون يعتزون بزعامته الدينية ، ومنهم المرحوم والدنا الذي كان يستعين به في كل امور الدين والدنيا . حتى يوم الافطار في رمضان كانوا لا يتأكدون من رؤية الهلال الا برسول من قبله ، وكثيرا ما كان هذا الرسول المرحوم والدنا . .

ثم خلف الامامَ شرف الدين الامامُ الصدر فظلت الصلات بين ابناء الزرارية كما كانت بل لقد زادت وتطورت .

صلات القربى بالمصاهرة والتعليم والتجارة :

وجد في عداد الهيئة التعليمية في الكلية الجعفرية والثانوية الرسمية اساتذة كثيرون مارسوا تعليم الادب العربي والفرنسي فيهما من ابناء الزرارية اذكر منهم : الدكتور نصير مروه الذي كان يدرس مادة الادب الفرنسي في ثانوية صور

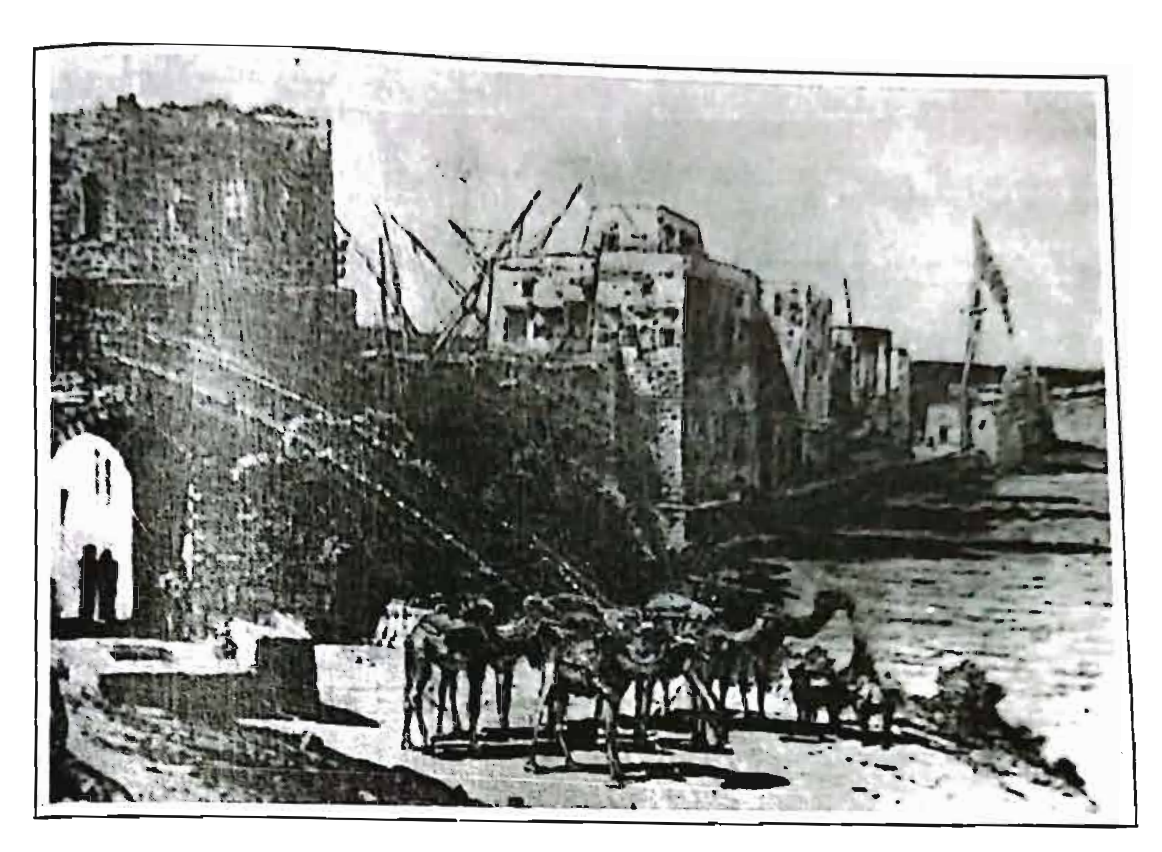
الرسمية والاستاذ رضا يحي مروه الذي درّس في الكلية الجعفرية بعد ان تخرج منها ثم تزوج من صور . إلى جانب مؤلف هذا الكتاب والمرحوم السيد محمد نجيب فخري وسواهم . اما الطلاب من ابناء الزرارية فلا يزا لون يتدفقون على معاهد صور وثانوياتها باعداد كبيرة رغم تزايد عدد المدارس في الزرارية .

ومن ابناء الزرارية من استوطن صور للتجارة كالحاج علي طعان وولديه السيدين حسين وحسن طعان وحتى اليوم لا يزال تجار الجملة والمفرق من ابناء الزرارية يؤمون صور للتبضع ، ومنهم من فتح « حسبة » له فيها كالأخ حسين متيرك وسواه .

وهكذا تعتبر صور سوق اهل الزرارية المفضل لقربها الجغرافي ولكونها مركزا روحيا لهم . .

كما اصبحت شواطىء صور منتجعا لسباحة شبان الزرارية في مياه بحرها الصافية على «الصلَيّب» ذي الرمال الذهبية خاصة بعد ان نضبت مياه الليطاني او كادت ولم تعد صالحة للسباحة . .

ومنذ زمن بعيد اعتاد اهالي الزرارية على شراء حاجياتهم من متاجر صور ولا سيما اللحوم الطازجة والاسماك الشهية التي ترعى في مياه نظيفة غير ملوثة. . وما زال هذا دأبهم حتى اليوم . لكن بعض باعة السمك المجلد يحاولون ايهامهم بانه طازج غير ان اهل الزرارية وغيرهم من سكان القرى المحيطة بصور اصبحوا من الخبرة والوعي بحيث يعرفون الغث من السمين والطازج من البائت. على ان الفقراء منهم يشترون السمك البائت على علاته لأنه أرخص وهو غير مضر على كل حال ففي هذه الايام الصعبة تصبح البلاميدا الرخيصة نسبيا من افخر انواع الاسماك عندهم . .



مدخل صور عام ١٨٢٥ (اعداد الرسام والمصور الصحافي زين كاعين)

كما تتميز صور هذه الايام ، بل منذ زمن ، باتقان صناعة « الفول المدمس» ويأتي ابو عاطف بارود على رأس صانعيه المهرة ، يقصده الذواقة من فتيان الزرارية وغير الزرارية وحتى من بيروت يأتونه زرافات ووحدانا . فتراهم يتحلقون امام مطعمه وقوفا وحول الطاولات وفي كل زاوية . . ويعد تناوله يتزودون منه بكميات وافرة لاصدقائهم وعائلاتهم . .

صور تزود العقول كما تزود البطون !

لم يكن من أثر للنشاط الثقافي والتربوي والارشاد الديني قبل مجيء الامام شرف الدين الى صور واستقراره فيها . . فهو الذي اقام في بعض حجرات منزله مدرسة ، ثم اقام لهذه المدرسة بناء خاصا والى جانب هذا البناء اقام « نادي الامام

الصادق » ليكون منبرا وحيدا للثقافة والتربية والادب والتوجيه الديني والسياسي[1] واقامة مجالس العزاء وذكرى اسبوعات المتوفين من صور وخارج صور ومن على منبر هذا النادي تخرج الكثيرون في الخطابة والإلقاء الشعري بتشجيع من الامام ثم من أنجاله بعده . .

وقد اصبح هذا النادي الواسع الأرجاء مركز اشعاع ثقافي وديني حتى اليوم ومكاناً رحباً لاقامة الحفلات والمعارض والاجتماعات ، والاسبوعات .

وحين بنى الامام «الكلية الجعفرية » الضخمة اصبح طلابها الثانويون روادا لهذا النادي ومشاركين وكان لابد لمثقفي الجوار ومنهم مثقفو الزرارية ان تهوي افئدتهم إليه وأن يقتدي به المتمولون المتنورون فيقيمون على غراره نواديهم الثقافية في قراهم وبلداتهم .

وهكذا نجد ان الزرارية كانت وما زالت مشدودة الى صور بروابط وصلات وثيقة لا لقربها الجغرافي منها فحسب ، بل لكل تلك الصلات والوشائج التي ذكرناها والتي ادناها التجارية وشراء.الشقق فيها ، واعلاها الصلات الروحية

---

(١) تأثر الكثيرون في صور بما حققه الامام شرف الدين من نشاطات اجتماعية وتربوية . فقام جماعة من الشبان وعلى رأسهم الاديب علي يونس بانشاء نادي التضامن الرياضي ثم الثقافي وكان ذلك بعد اقامة نادي الامام الصادق بعشر سنوات . وفي الكلية الجعفرية الجديدة قامت باحاتها بمثل ما يقوم به نادي الامام الصادق من انشطة تربوية وادبية ومعارض وحفلات وندوات ومحاضرات . وما كاد بريق هذا النادي يخبو حتى بث فيه الامام موس الصدر النشاط من جديد . وفي زمن الحرب الاهلية القاسية في لبنان تلون النادي بلون خاص لكنه بقي منبرا للمقاومة يمجد الخطباء فيه بطولات الشهداء السائرين على درب الامام الحسين (ع)

والادبية والمصاهرة والمرجعية الدينية . . وكلها من صنع الامام شرف الدين المرجع المقلد والمصلح الرائد .

كما ان آل شرف الدين في الزرارية يمتون بصلة القربى النَسَبية إلى آل شرف الدين في صور فهما فرعان كبيران لجذر واحد وشجرة واحدة يرقيان إلى الامام جعفر الصادق (ع) وولديه الامام موسى الكاظم (ع) وإسحق المؤتمن .

ملاحظة : ظهر لي قبيل طبع هذا الكتاب، أن لنا ـ نحن آل شرف الدين في صور والزرارية ـ عشيرة كريمة في بعلبك ونيحا وتمنين تحمل نفس الاسم وتتمتع بمكانة اجتماعية عالية. نزح منهم الى بيروت وسكنوا الضاحية والاوزاعي كالسيد حمد شرف الدين (في الاوزاعي) والسيد محمد سليمان شرف الدين (في الضاحية) . تشرفت بمعرفتهما حين قصداني بمنزلي في صور وتواعدنا على السعي معاً للتحقق من مدى صلة القرابة النَسَبية بيننا وقبل صدور هذا الكتاب لم نكن قد وفقنا الى ذلك . مع الأسف

هذان الصديقان البقاعيان الكريمان يحملان الكثير من الشيم والمزايا والمروءات العربية والاسلامية الاصلية مما يؤسس لهما ولعشيرتهما نسباً معنوياً وأدبياً جديداً يقف على قدم المساواة مع النسب الهاشمي .

وحقا ما قاله الشاعر الكبير أبو تمام :

إن يختلف نسب يفرق بيننا أدبٌ أقمناه مقام الوالدِ



الزرارية- صيدا (١)

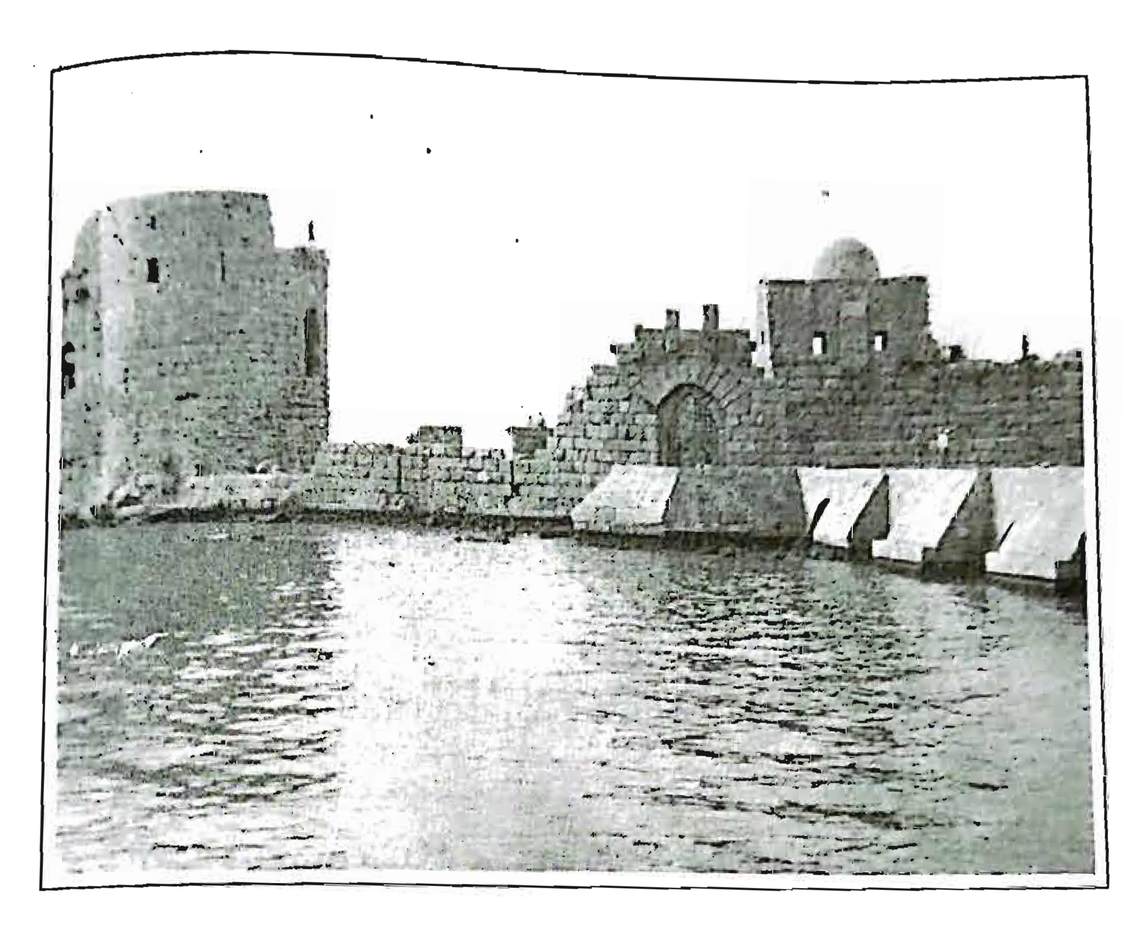
تعتبر مدينة صيدا من اقدم مدن التاريخ. يعود بناؤها الى القرن الثالث قبل الميلاد .

الاسم : سميت صيدا او صيدون بالنسبة الى صيدون بن صدْقاء بن كنعان بن حام بن نوح . . وهناك دلالات تاريخية تقول بأن اسم صيدا مشتق من كلمة صيد ، لأن ابناءها الاوائل اشتهروا بصيد السمك واللؤلؤ والمرجان من اعماق البحار. .

آثارها : صيدا مدينة اثرية، فيها من آثار الحضارات القديمة : الكنعانية والفنيقية والفارسية والعربية الاسلامية ما في شقيقتها صور. ولامجال ـ هنا ـ للتوسع في ذكر تفاصيلها مكتفين بذكر عناوين بعضها :

---

(١) صيدا أو صيدون اسم حملته هذه المدينة البحرية العريقة لاشتهار ابنائها بالصيد البحري يراجع كتاب : ذخائر لبنان لمؤلفه عزتلو ابراهيم بك الاسود . طبع في المطبعة العثمانية في بعبدا - لبنان - ١٨٩٦ م .



ميناء صيدا وقلعتها

ـ البيوت الحجرية الدائرية (الكالكولينية) ـ العصر النحاسي الحجري ـ الحضارة الكنعانية (٣٥٠٠ ق . م ـ ١٢٥٠ ق . م) خلف المدينة الصناعية الاولى اليوم.

ـ معبد اشمون عازار : إله الشفاء ـ مكانه : قرب بستان الشيخ. شمالي مدينة صيدا. وبجانبه تقع مدرسة صيدا الجديدة(او مدرسة الرئيس الحريري).

ـ ومن اشهر التوابيت : توابيت رائعة الجمال كتابوت «النائمات» (١٢٥٠ ـ ٥٥٠ق. م)

ـ نواويس وزجاجيات. منها ناووس الاسكندر وتبنيت ملك صيدا. اكتشف اكثرها خلال القرن الرابع (ق. م.) وتقع في منطقة القياعة، ومنها ما اكتشف في العام ١٨٥٠ بعد الميلاد .

صيدا المقاومة : اشتهرت صيدا ـ كصور ـ بمقاومة الغزاة من يونان وفرس ورومان فأحرقت مراراً واستبسل ابناؤها ـ رجالا ونساء ـ مسجلين اروع البطولات[1]

صيدا اليوم : صيدا بوابة جبل عامل ومركز تجاري وتربوي وتعليمي وثقافي ونضالي لأبنائه المناضلين ورواده من طالبي المعرفة، ومستودع زراعي ضخم لمزارعيه. وهي الى هذا جنة من جنات الله على ارضه، ببساتيها الفيحاء المحيطة بها من كل جانب، ولا سيما اشجار « الاكي دنيا» السائغة الثمر الجيدة الإخراج. فقد اشتهر مزارعو صيدا بحسن رعاية هذه الشجرة، حتى انهم يلفون شجرة الاكي دنيا بكاملها بشباك ضيقة الحلقات ترد عنها غائلة الدبابير والعصافير والحشرات الشرسة. .

ومما يؤسف له ان بساتين الاكي دنيا بدأت تنقرض تدريجيا لتحل محلها البنايات الشاهقة خصوصا بعد ارتفاع ثمن الأراضي داخل صيدا وفي محيطها، وفي لبنان عامة مدنا وقرى وضياعا . .

---

(١) اسهب في ذكر هذه التفاصيل مؤرخو حضارات الممالك القديمة ، وعلى رأسهم هيرودوت ابو التاريخ ، والعالم الفونسي شباس ، والمؤرخ ما سبيرو ، وسفر التكوين (الثوراة) والعالم بوشار والمحقق الفرنسي الدكتور جول روفيه والعالم الجغرافي يوسيفوس ولا لورمان وفي الاونة الاخيرة ظهر كتاب للدكتور عبد الله عطوي يحمل اسم : مدينة صيدا بين الماضي والحاضر والمستقبل وهو كتاب تاريخي قيم صدر عن المكتبة العصرية في صيدا ففيه عن صيدا واسمها وادوارها ومراحل تطورها ما لا غنى عنه لكل مؤرخ .

ـ المؤلف ـ

ريادة صيدا في التجارة :

اشتهرت صيدا منذ القدم بالتجارة على اختلاف انواعها ، فبعد أن تحول ابناؤها في العهود الوثنية السحيقة من بناء السفن والاساطيل وغزو البحار إلى التجارات المحلية فلم يهاجروا إلى افريقيا كسواهم من ابناء قرى جبل عامل ، الا القليل منهم ، بل ثابروا على تكوين ثرواتهم داخل مدينتهم وقد عانوا كثيرا في انشاء تلك الثروات ، اذ كان ينقصهم راس المال الكافي ، فبدأوا من الصفر تقريبا وراح كل منهم يقيم دكانه المتواضع قرب منزله او على جوانب زواريب صيدا القديمة كحي «الأشلة »و« الدكرمان » وتحت «السيباطات » المظلمة ثم شيئا فشيئا تكونت بواكير ثروة لابأس بها من بيع المفرق على صعيد الحبوب والفواكه والسمانة والحلويات وخاصة المعمول الفاخر الذي تميزت به صيدا وتفوقت في جودته على بيروت نفسها. وما إن اطلت الخمسينات حتى قام على ناحية صيدا القديمة من جهة الشرق طريق عام واسع او شارع عريض سمي بشارع رياض الصلح ينتهي من جهة الجنوب بشارع الشهيد معروف سعد حيث قام في وسطه تمثال نصفي له ، ومن الشمال بيروت .

وما إن اكتمل شارع رياض الصلح ختى قامت على جانبيه محال تجارية ضخمة وعمارات شاهقة ، اكثر هذه المحال لبيع الحلويات الفاخرة كما قامت المكتبات والمصارف والصيدليات .

إن هذا الشارع يعتبر بحق شريان صيدا التجاري ووريدها النابض بالدم والحياة والحركة، وما عتم ابناء صيدا ان انقلبوا من تجار زواريب ودكاكين متواضعة إلى تجار جملة وأصبحت صيدا مركزا صناعيا يربط الجنوب ببيروت وسائر المناطق.

كما قامت في صيدا مصانع لتركيب وإصلاح السيارات ومصانع لتوضيب الحمضيات قبل تصديرها وتخللت شوارعها مصارف خاصة عديدة .

وها هي اليوم تعج باصحاب الملايين والأملاك . يقدر الخبراء الاقتصاديون اغنياء صيدا بحوالي ثلاثمائة مليونير وملياردير . .

ويكفي أن نذكر من هؤلاء المليادير الشهير دولة الرئيس رفيق الحريري الذي انطلق في بداياته من الصفر إلى أن حول الصفر إلى اصفار عديدة على يمين أرقام ثروته التي جمعها في السعودية بالذكاء والجهد الخارقين وخلال فترة قصيرة من الزمن .

وتقديرا لاخلاصه ونظافة كفه وإمكانياته المتعددة دعاه لبنان إلى تسلم دفة الحكم فيه . ويقيني انه سينجح في الحكم كما نجح في التجارة وانشاء الشركات وتقديم الخدمات لمدينته وللبنان على كافة الصعد ، خاصة على صعيد الثقافة والتعليم وانشاء المعاهد الراقية والمؤسسات الثقافية وإرسال البعثات العلمية . وكما بنى امبراطورية المال والاعمال والشركات والمؤسسات فهو قادر على بناء جمهورية لبنانية راسخة الأركان ، بعد أن تسلم - حاليا - رئاسة الحكومة الثلاثينية بتفويض رسمي وشعبي ، وحماس جماهيري منقطع النظير . وهاجس الجماهير المسحوقة دائما هو الأمل بالخلاص، فكيف أذا كان المخلص هو احد ابناء طبقتهم.

صيدا والزرارية :

وبما أن الزرارية قريبة نسبيا الى صيدا، فقد كانت غلالها ومحاصيلها تباع في صيدا، ويشتري اصحابها باثمانها بضائع وملبوسات وحلويات. . .

صيدا منهل من مناهل التعليم والثقافة من زمان :

يوم لم يكن في صور مدارس ذات شأن ـ اوائل هذا القرن ـ كانت مقاصد

صيدا مقصدا علميا يكاد يكون وحيدا لابناء الطبقتين الغنية والمتوسطة في الزرارية.

وهذا حاكم اقليم الشومر ناصيف باشا الاسعد، ومقر حكمه الزرارية، يقول المؤرخون (١) انه كان من مؤسسي جمعية المقاصد الاسلامية الخيرية في صيدا وعضوا في هيئتها الادارية.

كما استوطنها شقيقه شبيب باشا الأسعد مدة طويلة بعد انتقاله من تبنين وبعد عودته من الآستانة. وفي صيدا أتم شبيب باشا تأليف كتابه : العقد المنضد ومن ابناء الزرارية الذين استوطنوا في صيدا إثنان من ابناء ناصيف باشا هما : أحمد الناصيف وحسيب الأسعد (٢) الذي مارس مهنة المحاماة فيها.

وهناك الكثيرون من رجال المال والاعمال واصحاب البساتين والعقارات والبنايات من مغتربي الزرارية الذين استثمروا اموالهم في صيدا في مختلف القطاعات، كالمغترب العائد الحاج علي طعان (أبو حسين) وشقيقه المغدور حسن طعان (أبو هاني) والملاّك الزراعي المهندس وضاح فخري وابناء عمه رضا وكامل وخليل فخري، وشقيقنا الأكبر نجيب شرف الدين (أبو رضا) وشقيقنا الاصغر شرف الدين شرف الدين (أبو علي) (٣)

(١) تراجع التواريخ الآتية : تاريخ جباع للشيخ علي مروه وخطط جبل عامل للسيد محسن الامين وتاريخ صيدا للشيخ احمد عارف الزين صاحب العرفان .

(٢) حسيب بك الاسعد هو والد النائب الحالي الدكتورسعيد الاسعد .

(٣) سكن شقيقنا ابو علي في عبرا، وهي قرية مستحدثة ملاصقة لمدينة صيدا من الجهة الشرقية على طريق جزين . كما سكن الشقيق الاكبر على مدخل صيدا الجنوبي المسمى «سينيق».

وها هم طلاب العلم من ابناء الزرارية يتوافدون على مدارس صيدا وثانوياتها الرسمية والخاصة كما على مدارس وثانويات القرى والمدن الساحلية الأخرى، ابتداء من صور. مرورا بالصرفند وانتهاء بصيدا. كما أن مؤلف هذا الكتاب كان من بين طلاب المقاصد في اوائل الاربعينات مع (الدكتورين) ماجد وراشد فخري اللذين انتسبا الى مدرسة الفنون الاميركية فيها، والاستاذ محمد أحمد زرقط الذي انتسب مثلي الى مقاصد صيدا. وقد جاء بعدنا ، في اوائل الخمسينات ، تلامذة من ابناء الزرارية تابعوا تحصيلهم العلمي في مدارس صيدا، أذكر منهم ابن عمنا السيد رفيق شرف الدين الذي اصبح فيما بعد رجل مال واعمال، وسواه.

- اذن، صيدا، كانت وما زالت، محط رحالنا ورجالنا وطلابنا من اهالي الزرارية وجوارها.

كما اصبحت، منذ بروز المناضل الوطني الكبير الشهيد معروف سعد، مركزا لتسليح وتدريب وتجميع المناضلين الشرفاء من ابناء جبل عامل وفلسطين.

اذكر ، كدليل ساطع على ريادة ابي مصطفى في العمل الوطني الجهادي قصة واقعية جرت معه ومعنا عام ١٩٤٠ ـ١٩٤١ :

كان الشهيد معروف سعد ناظرا عاما في كلية المقاصد ومدربا رياضيا ولا سيما في الملاكمة. . . وكان الى جانبه الاستاذ حسيب البزري (الملقب بالزعيم) على رأس فرقة كشفية مقاصدية.

وحين زحف الجيش البريطاني على بغداد، منطلقا من الاردن ، للقضاء على ثورة رشيد عالي الكيلاني المدعومة من المانيا الهتلريه. . . هذا الزعيم العربي الوطني كان يظن ان الالمان الذين اكتسحوا اوروبا بكاملها خلال عام قادرون على

تخليص الشرق العربي، ومنه العراق، من نير الاحتلال الانكليزي القابض على عنق العراق وفلسطين والاردن ومصر، خاصة وان « الكماشة» الالمانية الموعودة تكاد تطبق على هذا الشرق من جهتي الاتحاد السوفياتي، والمغرب العربي بعد تحقيق النصر في معركتي ستالينفراد والعَلَمين. .

في هذه الاثناء اعلن الكيلاني ثورته ضد الانكليز. لكن الانكليز، وهم الغارقون في اتون الحرب في اوروبا، يهمهم الا يحرك الشرق ساكنا، زحفوا بجيوشهم للقضاء على هذه الثورة في مهدها. وهكذا كان. . في بداية هذه الثورة التي لم تدم اكثر من شهر وبعض الشهر، اشتعل الوطن العربي من محيطه الى خليجه مؤيدا للثورة ومتحمسا لها. لكن ابا مصطفى لم يكتف، وهو المناضل العملي، لا النظري، بالتأييد والمباركة اللفظية بل سرعان ما رأيناه يجمع عددا من انصاره ومؤيديه لتدريبهم على القتال. . ولم يوفرنا نحن طلاب المقاصد الصغار (اكبرنا كان في الثامنة عشرة) بل راح يشرح لنا اهداف ثورة الكيلاني طالبا منا التطوع. . . وحين تجمع لديه منا قرابة خمسين طالبا، بدأ بتدريبنا على حمل السلاح الخفيف والخدمات في الجيش في احد بساتين صيدا بصورة سرية بعيدا عن اعين العملاء ومخابرات الجيش الفرنسي في صيدا !

وبعد اسبوعين ونيف من التدريب اتصل بالسفارة العراقية في بيروت معلنا أنه مستعد للسفر إلى العراق على رأس فصيل مقاتل لا يقل من ثلاثمائة متطوع. .

لكن السفارة ، وقد شكرته على هذه المبادرة ، اعتذرت قائله إن الجيش العراقي ، وقد انضم كله للثورة ، قادر على دحر الغزاة الانكليز . .

لم يخبرنا بذلك الابعد ان قضي على ثورة الكيلاني . .

دور معروف سعد في احداث ١٩٥٨ :

من البديهي ان يكون دور ابي مصطفى رياديا ، فقد تولى قيادة المقاومة الوطنية اللبنانية وتسليح المقاومين المنتشرين في صيدا وصور ومزرعة مشرف وشتى انحاء جبل عامل بالتعاون الوثيق مع القائد العام للمقاومة المعلم كمال جنبلاط وامينها العام ، وكان عبد الحميد السراج - ايام الوحدة السورية المصرية ، من ورائهما يمدهما بكل ما يكفل القضاء على عهد شمعون والحؤول دون تجديد ولايته منعا لتطبيق مشاريعه المشبوهة . وقد شكل أبو مصطفى جهازا تاما «للثورة» ومحكمة شعبية مؤلفة من المحامين الوطنيين لمنع التجاوزات وقمع التعديات .

ومنذ ذلك الحين وأبو مصطفى ينتقل من جهاد الى جهاد فالتفت حوله جماهير الصيادين والشغيلة والباعة المتجولين وصغار الحرفيين من «حفاة المدن» المحرومين من ابسط حقوق الانسان ، كما التف حوله المثقفون من ابناء الطبقة الكادحة . فاذا بكل هؤلاء يحملونه على اكتافهم وباصواتهم عام ١٩٦٤ الى الندوة النيابيه نائبا شعبيا ، ناطقا باسمهم وباسم صيدا والجنوب فيتحطم ببروزه طوق احتكار التمثيل الذي صنعته الطبقة الارستقراطية والاقطاعية لنفسها في صيدا بايحاء من سيد القصر في لبنان وتبدير منه . .

وكان ما كان من عودة المؤامرة الى لبنان عام ١٩٧٥ واغتيال ابي مصطفى في وضح النهار حيث كان يقود مظاهرة صيادي الاسماك لمنع قيام شركة «البروتيين» المشبوهة . . (١)

---

(١) وهي شركة كانت ستؤلف من كبار الرأسماليين المستثمرين وعلى رأسهم شمعون. من مشاريعها صيد الاسماك بالطرق الحديثة وتعليبها وتصديرها بحيث يحرم صيادو صيدا من مورد رزقهم الوحيد . .

وها هي المؤامرة تكتمل حلقاتها بمحاولة اغتيال نجله المناضل مصطفى معروف سعد . لكن المؤامرة لم تمر كما يريدون ولن تمر . واذا كان عملاء اسرائيل قد نجحوا في اطفاء نور عيني أبي معروف ، إلا أنهم لم ولن يستطيعوا اطفاء أصغريه : قلبه ولسانه . . ومن ورائهما عقل سليم صافي الرؤية والرؤيا . ثلاثية تشكل فيه جذوة متوقدة على الدوام ، ورثها عن أبيه وزادها اشتعالا التفاف ابناء صيدا حوله تقديرا لمزاياه ومواقفه الوطنية الثابتة ﴿يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ، ولوكره الكافرون﴾ صدق الله العظيم .

وها هو ابو معروف يتابع سيره وسيرته تحت قبة البرلمان الجديد ، وتحت شمس الجهاد المتواصل التي لا تغيب .

وباختصار شديد نقول : إن صيدا اليوم بمساحتها وعمرانها المتزايد يوما بعد يوم تفوق صيدا القديمة بما لا يقاس . فقد تمددت حتى لامست عبرا القديمة ، مرورا بحارة صيدا وانتهاء بسيروب والميه وميه مدخلة منطقة عين الحلوه والحسب الجديدة في جغرافيتها ثم لامست من الجهة الجنوبية بلدة الغازية ، ومن الجهة الشمالية وادي الزينه وشرحبيل حتى مداخل الرميلة . كما اقتحمت البحر من الجهة الغربية بتوسيع مينائها وارصفته حيث اقامت الاستراحة واتجهت جنوبا فأقامت المدينتين الصناعيتين ناهيك بالبساتين التي تلف صيدا من جميع جهاتها تقريبا .

وليس عن عبث سميت صيدا «بأم البرتقال» وبوابة جبل عامل وعقل الجنوب – كما هي صور رئته وقلبه . . والزرارية نجمته الساطعة بين نجوم عاملية كثيرة . .

وتستمر صيدا بفعل نشاط ابنائها وغناهم ، في الازدهار والتوسع العمراني

والاقتصادي والتربوي والثقافي، فبعد ان كانت في اوائل هذا القرن بلدة كبيرة أو مدينة قديمة ذات ابنية على الطراز العثماني والريفي العتيق اصبحت اليوم أم المدن الجنوبية الكبرى ومثلا اعلى من أمثلة النشاط الفكري والحضاري الواسع .

فمن صيدا الصغرى إلى صيدا الكبرى إلى صيدا الأكبر . . بإذن الله .

ومن حدود القياعة إلى البرغوت اصبحت هذه الحدود داخل صيدا الكبرى. . بل داخل داخلها . .

ومن غربي شارع رياض الصلح حتى البحر . . ومن حي المطران والشاكرية حتى المقاصد ورجال الأربعين والبرغوت : حدود صيدا القديمة غربا وشرقا ومطعم يحي الناتوت والقلعة شمالا إلى ما لا يحد من حدود . .

مقاصد صيدا : منهل علم وبؤرة مقاومة :

كانت هذه المؤسسة العلمية والتربوية منذ انشائها في القرن الماضي كفرع من فروع مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت ، تعج بالأساتذة والمدراء والطلاب الاحرار ذوي الميول الوطنية والروح القومية الوحدوية العارمة. .

ومن لم يكن كذلك عند دخوله اصبح عند خروجه وطنيا وثائرا . . فكأن المقاصد معهد يدخل أتونه الحديد الخام فينصهر. . ثم يخرج فولاذا أو كالفولاذ !

أذكر من مدرائها ومربيها ، أيام كنت طالبا فيها (١٩٣٩-١٩٤٤)المربي الأستاذ قبولي الذوق (من طرابلس) والدكتور علي شلق والأستاذ شفيق النقاش، إلى جانب الناظر وقائد فرقة الكشاف الأستاذ حسيب البزري والناظر العام والمدرب الأستاذ معروف سعد الذي عرف بجهاده ونضاله الوطني واشتراكه عام ١٩٤٨ بمعركة المالكية في شمالي فلسطين كما اذكر مديرا استلم دفة المقاصد اثناء الأحداث الأخيرة في لبنان وفي العام ١٩٧٧ بالتحديد هوالأستاذ حسن الشريف

الذي يحمل شهادة الدكتوراه في الذرة والكيمياء والفيزياء لكن كثرة الأحزاب والتنظيمات داخل المقاصد وصراعها العقائدي حتى داخل الصفوف . . حال بينه وبين تحقيق برامجه العلمية أو كاد . .

لكن هذه المؤسسة سائرة في تطورها العلمي والتربوي قدما إلى الأمام لأن وراءها جمعية تجدد شبابها كل أربع أو خمس سنوات فلا تكتفي بالدم القديم على فاعليته وقوته . . ومما عزز دور المقاصد الريادي على صعيد التوجيه الوطني والتقدم العلمي التفاف اهالي صيدا والجوار حولها ، ومؤازرتهم لها في كل موقف وطني تتخذه ، ومساعدتهم لها معنويا وماديا وعاطفيا ، إلى ان انقلبت المقاصد مجتمعا شعبيا وحزبيا ومقر تنظيمات مسلحة من كل نوع ، إلى جانب كونها بؤرة علم وتربية وطنية سليمة .

المقاصد مقاومة منذ كانت :

اذكر حادثة واحدة مكتفيا بها لغناها في الدلالة :

في عهد المدير والمربي الكبير الأستاذ قبولي الذوق جاء من يخبر الإدارة والنظارة والطلاب بأن جلاوزة الفيلق الفرنسي الديغولي المنتدب والذي حل محل الفيلق الفرنسي «الفيشي» ينوون مداهمة المقاصد لاعتقال المدير والناظر والمدرب آنذاك ، معروف سعد ، وبعض كبار الطلاب المحرضين ضد الانتداب والذين بدأ أبو مصطفى بتدريبهم عام ١٩٤٢ على حمل السلاح للإسهام في خوض معركة الاستقلال بعد أن دربنا نحن في العام ١٩٤١ للمشاركة في ثورة الكيلاني في العراق ضد الانكليز . .

وتسارعت الأحداث في لبنان يوم قرر رئيس وزراء لبنان رياض الصلح تعديل الدستور في المجلس النيابي اللبناني والغاء المادة أو المواد التي تجيز لفرنسا

الانتداب على سوريا ولبنان بموجب معاهدة سايكس -بيكو ثم الطلب إلى فرنسا بإنهاء انتدابها والاعتراف باستقلال لبنان . .

وبدلا من ذلك تم اعتقال رجال الاستقلال : رئيس الجمهورية بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح وبعض الوزراء وزجهم في قلعة راشيا الوادي في جنوب لبنان .

وبعد مرور أحد عشر يوما وبتدخل من القائد الانكليزي سبيرز تم الافراج عن هؤلاء في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٩٤٣ واعلن الاستقلال بأقل كلفة ممكنة . . والاصح أن نقول : اعطينا الاستقلال ولم نأخذه . . وياليتنا حافظنا عليه فيما بعد . . المهم . .

قبيل اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه وبعض الوزراء داهم الديغوليون كلية المقاصد لاعتقال مديرها وناظرها الاستاذ معروف وتعطيل دورها في التظاهرة الكبرى التي كانت ستنطلق منها تأييداً لمطلب الاستقلال وخوض معركته بالسلاح إذا لزم الأمر . .

كان كل شيء معدا في المقاصد لاستقبال الغزاة : امتلأت سراديبها وسطوحها بالحجارة وبما تيسر من الرشاشات . . وفي ليلة واحدة اقيمت على مداخلها الدشم والمتاريس حتى ان بعض النسوة قد شاهدتهن بعيني يدخلن المقاصد ليلا بحجة تفقد اولادهن الذين منعهم الجنود الفرنسيون من الخروج . شاهدتهن بل سمعتهن يهمسن في اذني أبي مصطفى بانهن يحملن في ثنايا جواربهن واماكن أخرى من اجسادهن سلاحا خفيفاً كالمسدسات الصغيرة والسكاكين والبلطات والخرطوش . .

افرغن بين يديه كل هذا وعدن من حيث أتين . . وعلم الغزاة بالأمر وبان

المقاصد انقلبت بين عشية وضحاها من مدرسة إلى معسكر ، وبأن دخولهم إليها سيكلفهم غاليا . . فانكفأوا ولم يدخلوا !

مشهد فولكلوري يدل على تعلق الشعب بالمقاصد وحبهم المفوي لها :

اذكر مشهدا خاصا لن انساه ما حييت ، وهو ينهض دليلا على تعلق الأهالي كبارا وصغارا بهذا الصرح العلمي الوطني والشعبي . . فهم يعتبرونه من انتاجهم وتأليفهم ويكاد يكون المعهد الوحيد - يومذاك -لتعليم اطفالهم واولادهم ولا سيما الفقراء منهم . . يعبرون عن كل ذلك الحب والعطف كل على طريقته.

المشهد - الدليل : كنا نحن طلاب المقاصد الخارجيين مدعوين كل يوم للمجيء باكرا إلى المقاصد نشترك مع الداخلين في السادسة والنصف صباحا بما يسمى في الفرنسية ال Etude ومدته ساعة واحدة لتحضير دروس ذلك اليوم وللمطالعة . كنا ونحن نمر في ازقة البلدة القديمة وتحت «سيباطاتها » نشاهد بعض الشيوخ والكهول والعجزة يجلسون على ارصفة المقاهي الشعبية يحتسون شاي الصباح أو «يؤركلون » وما إن نمر بازائهم حتى يهتفوا بكل البراءة والحب :«اهلا باولاد الكلاي (اي الكلية) الله معكم» الخ . . .

مشهد فولكلوري آخر :

تعج احياء صيدا القديمة بالمقاهي الشعبية التي يتجمع فيها المتعبون من عمال وباعة متجولين وتجار صغار وعجزة كبار حيث يرتاحون من عناء العمل وهمّ الحياة والعيال : هذا إلى جانب نارجيلة طهمازية (أو الاركيلة في التعبير الشعبي) وهذا إلى كأس الشاي (المصلح)ويسمونها الاستكانة أو كباية الزوفا

والبابونج . . وذاك يكتفي بالتدخين ولف سجائره من الدخان البلدي (او التتن) كما يسمونه يتحلق حوله بعض انصار معروف سعد أو انصار نزيه البزري يتحاورون ويتجادلون في ايهما أحق بالتأييد . . وكانت كفة (أبو مصطفى)هي الراجحة في كثير من الأحيان لأن شعبيته كانت هناك حيث يحتشد العمال والباعة المتجولون وصيادو الأسماك وعمال البلدية . .

الحكواتي :

وما ادراك ما الحكواتي !

تراث فولكلوري شعبي عمره ألف عام :[1]

في الليالي الشتائية وفي المقاهي الشعبية العابقة برائحة الشاي والزوفا والبابونج والمتا ودخان السجائر وانفاس الناس السكارى في الداخل ، وما هم بسكارى وعبق التنباك المدبس ينتشر في اجواء المقهى الضيق معانقا حلقات التتن تنفثها سيكارة التتن وانفاس الرجال . . كل هذا الخليط من الروائح والانفاس يقطع خيوطه صوت النادل بنادي : بكرَج قهوي يا سعدو لشيخ المينا أو واحد شاي مختر (اي مخمر) لضيف السهرة الأستاذ أشرف . . وصلحو !

أو : نارا يا ولد لأركيلة أبو دعاس الطهمازية . . عجل يا ولد واحد يانسون وصَلّحو لابو الجماجم . . وفي غمرة هذا الجو المكهرب المكتظ ـ والمطر في الخارج يتساقط بقوة ضاربا برذاذه المتجمد بردا أبوابَ المقهى العتيقة وشبابيكه

(١) انقرض منذ سنوات في صيدا وصور وقبلهما في القاهرة وبغداد وحلب .

المخلعة . . فجأة يدخل الحكواتي من غرفة جانبية داخلية فيعلو هتاف السميعة وصخب المرحبين . يوقظ بعض المتعبين وقد أخذوا اغفاءة خفيفة بعد الدفء الذي اصابهم من تأثير الشاي والجو الدافيء منهم من يقف مرحبا لشدة اعجابه بأبو محمود الحكواتي وشوقه إلى سماع اخبار عنترة الفوارس منه. . ما عدا أبو دعاس الذي لا يهتم كثيرا بالحكواتي ويبقى سادرا مع نارجيلته لا يريم!

يستهل أبو محمود - بكتاب « السيرة » أو بدونه فقد حفظه غيبا . .

ويبدأ ضاربا بعصاه اطراف الطاولات الخشبية المصفوفة في وسط المقهى وحولها بعض النيام : ويعد صمت من الجميع - رهيب - يرفع عقيرته صارخا السلام عليكم ياسادة ياكرام . صلوا على خير الأنام ثم يفتح « السيرة » على صفحة كان قبل ليلة قد توقف عندها وهي خبر معارك بن شداد عنترة الفوارس قبل وقوعه في الأسر في بلاد فارس نثبت هنا اوصاف احدى المعارك التي جاءت مثيرة ولكن باسلوبها العامي الذي نطق به رواة السيرة واضافوه على مدى ألف عام . وكان القصد الهاء العامة عما حدث في العهد الفاطمي (القرن الرابع الهجري في مصر ايام المعز لدين الله)

نموذج من هذا الاسلوب الهزيل : «وكانت تتطاير الجماجم وتتدحرج وتتخضب الدروع بالدماء وتشتد نار الحرب وتتأجج . وتضطرب الابطال وتنزعج (!)وتدور ملائكه الموت على الارواح ، ويطوق عنترة الأعناق بالدماء ويقيم الحرب على قدم وساق ويظهر العجائب والأهوال وينثر الفرسان والأبطال ، ولا يفقد من قومه سوى سبعة رجال !!

وكثيرا ما تدخل الحكواتي الذكي ليضيف من عنده مقاطع مثيرة أكثر قائلا :

« ويبرز عنترة من بين الغبار شاهراً سيفه البتار بعد أن دحرج الرؤوس وأزهق النفوس وامتلأت الفيافي والقفار بالجماجم « الكتار » وانتشى عنتر بفوزه الساحق وانشد يقول لتسمعه عبلة :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك   إن كنت جاهلة بما لم تعلمـــي

يخبرك من شهد الوقيعة انني   أغشى الوغى وأعف عند المغنم

مشهد لا أنساه :

ففي مقهى شعبي قريب من كلية المقاصد : مقهى رجال الأربعين ، ولعله المقهى المقابل للكلية ومسجدها الذي يحمل نفس الصفات الفولكلورية التي ذكرناها آنفا .

كنت وبعض الرفاق ندخله بدافع الفضول ونبقى واقفين نستمع إلى أبو محمود الحكواتي « يرندح » بصوته الجهوري والمستمعون صاغون دون حراك إلا حين يصل أبومحمود إلى مقطع مثير يختص بعنتر وتكاثر الأبطال حوله يناجزهم ويصارعهم ويصرعهم الواحد تلو الآخر . . فقد خافوا على عنتر بطلهم المفضل : هل سيخرج من هذه المعركة منتصرا أم لا . . ويا ويلهم إن جرح أو خر صريعا يا ويلهم من أبو الجماجم وأنصاره الذين يتحزبون للملك الظاهر بيبرس أو الاشرف خليل . . وترى الحكواتي يراعي خاطرهم فينتقل إلى رواية سيرة هذين البطلين اللذين أخرج أحدهما الصليبين من صيدا وصور وطرابلس وقضى عليهم تاركا (أي الحكواتي) عنترة في موقف حرج ليأتي أنصاره في الليلة التالية متلهفين على رواية الطريقة التي خرج منها عنترة من الأسر أو المعركة الرهيبة .

وأبو محمود كان من الذكاء ومعرفته بنفسية المستمعين بحيث يرضي

الجميع فيزيد في السيرة هنا وينقص هناك ويخترع لهم الأحداث اختراعا ويرتجلها ارتجالا وبالشعر النصف عامي احيانا !

وفجأة يتوقف هذا الفولكلور المسرحي الشعبي بتوقف قلب أبي محمود عن الخفقان ولسانه عن الجولان في دنيا السيرة وعالم الأسطورة رحمه الله .

وقد تساوى مع أبي محمود في صيدا أبو راشد السحمراني في صور وقبلهما حكواتيو القاهرة وبغداد وحلب وفلسطين وبقيت جماهير الشعب العربي وأكثرها من رواد المقاهي الشعبية بلا حكواتيين يستنهضون همتها ويصورون لها ابطالها وثوارها ومن الأسف ان حكواتيي المقاهي الاذكياء الراحلين قد استبدلوا اليوم بحكواتيين من نوع آخر . حكواتيي السياسة من احزاب وحكام وتجار خطب ونظريات. وهكذا فقدنا بطل الاسطورة وبطل الواقع معا في دنيا الهزيمة العربية الكاملة . . . ولولا أمل أو بعض أمل يطل من عيون اطفالنا ووجوه ثوارنا ومقاومينا لقلنا على العروبة والاسلام السلام.



عائلات الزرارية

لائحة باسمائها حسب الحروف الأبجدية

-حرف الألف :

آل الاسعد

آل الاخضر

آل ارسلان

آل ابراهيم

آل ايراني

-حرف الباء :

آل بوداوود

آل بلال

آل بدر الدين

-حرف الجيم :

آل جمعه

آل جزيني ـ فرع من آل بدر الدين

-حرف الحاء :

آل حجازي ـ فرع من آل مروه

آل حلو – فرع من آل مروه

آل حماده

آل حلال

آل حيدر (او الحيدري)

-حرف الخاء :

آل خليل

آل خشمان (الاسم تركي)

آل خطيب – فرع من آل زرقط

-حرف الدال :

آل دكروب

– حرف الزاي :

آل زرقط

آل زين العابدين

-حرف السين :

آل الساحلي

آل سبليني

آل سبيتي

آل سليمان – فرع من آل هاشم

- حرف الشين :

آل شرف الدين

آل شرارة -متحدرون من آل مروه

آل شقراني - فرع من آل ضاهر

-حرف الصاد :

آل صالح - (الطلياني)

- حرف الضاد :

آل ضاهر - فرع من آل مروه

آل ضيا

- حرف الطاء :

آل طه - فرع من آل مروه

آل طالب

آل طراف

آل طعان

- حرف العين :

آل عجمي - من اصل ايراني

آل عميص (او عميس)

آل عبد النبي

آل عبد الخالق

-حرف القاف :

آل قاسم (جمعة)

-حرف الكاف :

آل كجك [١]

آل كركي

- حرف الميم :

آل محي الدين

آل مروه

آل مطر (فرع من آل مروه)

آل مرعي (فرع من آل مروه)

آل متيرك

-حرف الفاء

آل فخري

- حرف النون

آل نور الدين

-حرف الهاء

آل هاشم .

-حرف الواو

آل وهبي

-حرف الياء

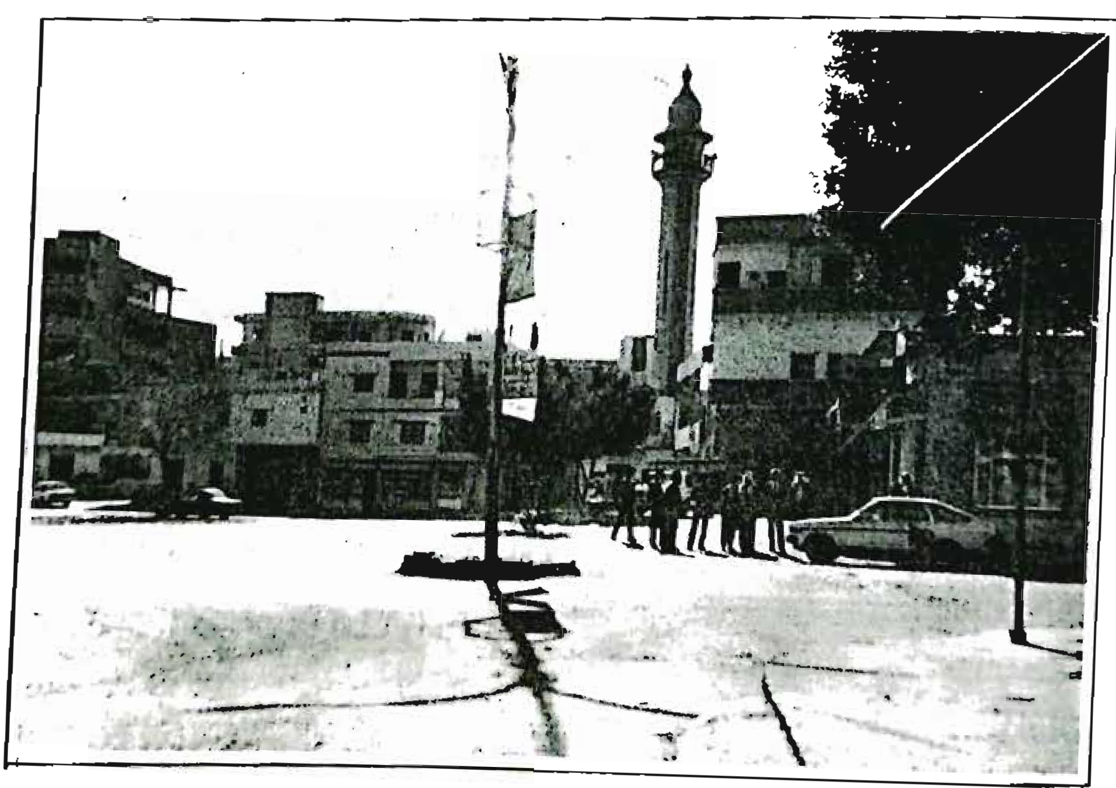
آل يحي

---

(١) كجك : الاصح في التركية كوجوك ، ومعناه قصير القامة .



ساحة شهداء الزرارية وتبدو صورة الامام موسى الصدر في اعلاها



الساحة العامة ـ ساحة الشهداء ـ ويبدو المؤلف مع المختار وبعض الاهالي

اما العائلات الوافدة أو المهجرة اليها قبل الاجتياح الاسرائيلي وبعده فهي :

عائلة شراره : من بلدة بنت جبيل التحقت بذويها في الزرارية من آل شرارة بعد الاجتياح

عائلة دبشة : فلسطينية لاجئة

عائلة عون : فلسطينية لاجئة

وهناك في الزرارية عائلة فلسطنية من مهجري ١٩٤٨ هي عائلة الحيدري كبيرها أبو سعيد الصديق الطبيب سعدون سعدو الحيدري (من طير شيحا ـ الجليل الاعلى بفلسطين) كان ابو سعيد وما زال ـ يسد النقص الحاصل قديما من انعدام الاطباء المقيمين في الزرارية وهو اليوم يسهم مع الاطباء الجدد المقيمين في البلدة، في تخفيف الام الفقراء ، والمسارعة الى مداواتهم قبل انتقال بعضهم الى مستشفيات صيدا او صور او بيروت.

استدراك واعتذار :

اذا كنا قد اكثرنا من الحديث عن بعض عائلات الزرارية، فذلك لتوفر المعلومات عنها والمراجع. . لا لأي اعتبار آخر. وإذا اختصرنا الحديث عن البعض الاخر فلقلة المعلومات او لانعدامها، مما جعلنا نكتفي ـ احيانا ـ بذكر اسم العائلة وحده (كما ترى في هذه اللائحة. ويشهد الله ان كل عائلة في الزرارية قديمة او طارئة او مهجرة، كبيرة او صغيرة هي في نظرنا سواء من حيث الاعتبار والتقدير والاحترام، فلنا بين ابنائها اصدقاء واحباء ورفاق دراسة، ولدات طفولة وكهولة. . وهم جميعا اهلنا واعزاؤنا.

ـ المؤلف ـ



بعض عائلات الزرارية تفصيلا
وفقا لتسلسل حروف الهجاء

آل الأسعد :

يجمع المؤرخون كمحمد جابر آل صفا وابن فتحون وابن شداد والامير حيدر الشهابي وقبل هؤلاء جميعا القلقشندي، على ان نظام الاقطاع طبق في جبل عامل منذ عهد بعيد يرقى الى القرن السابع للهجرة، والثالث عشر للميلاد[1].

اما حكام هذا النظام الاوائل فأخبارهم قليلة جدا ولا تتجاوز اخبار الامير حسام الدين بشارة بن اسد الدين العاملي. ومن هذا الامير انتقلت امارة البلاد الى آل وائل [2] دون منازع يذكر كآل سودون (سويدان؟) وآل شكر.

قال صاحب العقد المنضد (شبيب باشا الاسعد) ما ملخصه : جاء من بادية

(١) محمد جابر آل صفا ـ تاريخ جبل عامل ص ٣٦ ط ٢

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦

نجد جدنا محمد بن هزاع الوائلي القحطاني من رؤساء قبائل عنزة بجيش من اعراب قبائله الى بلاد جبل عامل بالديار الشامية، فدخل هذه البلاد والامير عليها يومئذ بشارة بن مقبل القحطاني(وهي تعرف من عهده حتى اليوم ببلاد بشارة) فساق عليه حربا قام بينهما على ساق. . . وما انتهى الا بالغلبة على بشارة، فاستولى جدنا على البلاد وحكمها وتزوج ببنت بشارة. . وأجرى عليه معاشا يقوم بأوده الى أن توفاه الله (فهو جدنا لجهة الام) وبقي جدنا محمد بن هزاع اميرا بها مدة حياته. وبعد وفاته تلقاها ابناؤه وابناء ابنائه، يقوم بها الولد بعد أبيه وأبنه من بعده وقد كانوا اتخذوا مقرا لحكومة البلاد قلعة تبنين التي هي قديمة الاساس. ومما روي انه اقام حصنها احد اولاد عاملة ابن سبأ، ثم تدمر على توالي الازمان فأعادوا تشييد ذلك الحصن الكبير، واحدثوا بتلك القلعة الابراج المتينة والحصون المكينة وما برحوا الى أن أفضت حكومة البلاد الى احمد بن مشرف الوائلي(وهو غير مشرف الثاني) ثم توفاه الله، ولم يكن اذا ذاك في ذلك البيت رجل يقوم مقامة فترك زوجته حاملا، وكان تزوجها من بني عمومته وهم بنو سالم المعروفون بالسوالمة، فخذ من افخاذ عنزة [١] فجاء اخوانها وقومها وحملوها اليهم وكانت منازلهم يومئذ بأطراف الشام بما يلي نجد، فولدت غلاما حيث كان لها أخ اسمه علي وكان غائبا اذ ذاك بديار اليمن. . ولم تره منذ جيء بها [٢] وقد طال غيابه ولها شغف به فسمت ابنها علياً وعرف عنه بالصغير للفرق

---

(١) وعنزة هو الجد الاكبر للعائلة الوائلية الاسعدية

(٢) وردت هذه الرواية في سياق قصصي سابق (انظر كتاب تاريخ الجنوب اللبناني ص ٥٣ وما بعده

بين اسمه واسم خاله فكان يقال له علي الصغير. فشب الغلام وامتاز بالنجابة عن اقرانه وما إن صار في الخامسة عشرة من عمره حتى صار له مقام بفك المشكلات بين القبائل وما إن بلغ اشده حتى وقف على حقيقة أمر أبيه» الى أن يقول :«فحركته الاريحية والشهامة». . . والخلاصة ان عليا الصغير هذا استطاع بحيلة عسكرية أن يسترجع ملك أبيه وحكمه على بلاد جبل عامل :«وقطع بمعونة يد الله دار الفساد» الخ. . . (١)

جاء في العرفان (ج٢٣ ص ٣٥٧) : كانت هذه القرية (أي الزرارية) من اقطاع آل الصغير (بعد زوال حكمهم في بلاد بشارة وقلعة تبنين) فكانت في سهم احفاد الشيخ ناصيف النصار. ثم انتقلت الى المرحوم علي بك الاسعد أحد حكام بلاد بشارة من جبل عامل في أواخر القرن الثالث عشر الهجري والمتوفي سنة ١٢٨٢ هجرية (٢) في دمشق هو وابن عمه محمد بك الاسعد بسبب وباء الهواء الأصفر (أو الكوليرا) الذي ضرب البلاد الشامية آنذاك. ثم انتقلت الى اعقابه (أي أولاده) كالشيخ فارس الناصيف الذي أكرمه الوالي التركي سليمان باشا بخمسة آلاف قرش وفروه من السمور، وكرسه شيخ مشايخ آل الصغير. كما أمر باتخاذ قرية الزرارية مقرا لبيت الرئاسة العاملي، على أن تبنى فيها دار على نفقة الدولة التركية مع تعيين مئتي كيس للدار الرئاسية كل سنة تستوفى من خزينة عكا وذخائر مرجعيون» (٣). أما شبيب باشا الاسعد فيؤرخ لنفسه فيقول : وكانت وفاة

---

(١) انظر بقية القصة في مكان سابق من هذا الكتاب . وانظر العقد المنضد ط ٢ ص ٢٦

(٢) وهو والد شبيب واخيه ناصيف باشا الاسعد

(٣) ذخائر : مدخرات : انظر كتاب : المقاومة العاملية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ص ١١٠ د. محمد نور الدين عن تاريخ السبيتي ٥/ ٢٤

والدي سنة ١٢٨٢ هجرية ولي اذ ذاك من العمر اثنتا عشر سنة اي انه ولد ١٢٧٠هـ ويقول : ان الذي عمر (مدينة) صور بعد خرابها هو جده لأمه عباس المحمد النصار او والد جده لجهة الام سهيل العباس. وقد حكمها هذا الجد مع ما يليها من ساحل قانا من الشعلوط البحرية، فجاءها وانشأ بها الابنية الجسيمة وهي المحل المعروف بالسرايا الذي كان بالموضع المدعو بالخراب الخ[1]. »

وحين يتحدث شبيب باشا الاسعد في ديوانه عن الزرارية يقول : هذه القرية التي ثلثاها بتملك هذا الحقير (اي هو)، والثالث ملك اخويه، ثم جاء المرحومان المومى اليهما من ذلك الجانب الى هذه المقاطعة وجمعا سائر العشائر الثلاثة آل علي الصغير وآل أبي صعب وآل منكر وصار اجراء تفريق قرى ومزارع المقاطعة عليهم، كل بحسبه. وأصاب بيت الرئاسة قسم من تلك القرى ودامت هذه المقاطعة بتملك العشائر الثلاثة وانحصر تصرفهم بها على وجه التملك وما زالت بأيديهم وتصرفهم حتى يومنا هذا. . . [2] وكان تملكها وفقا للنظام الاقطاعي أيام الاتراك بأن يصدر الباب العالي فرمانا يمنح بموجبه فلانا من رؤساء العشائر حق السيطرة على مقاطعة ما من مقاطعات لبنان وسوريا وفلسطين «ويلتزم» هذا الرئيس مقابل ذلك بتسديد (الويركو) أو العشر والتعهد بالولاء للسلطة العثمانية والمحاربة الى جانبها عند الضرورة. . . وكثيرا ما كان هؤلاء الولاة أو رؤساء العشائر يتهربون من دفع الضرائب. أما الفلاحون وزارعو الارض فكانوا في كثير من الاحيان الضحية بين الباب العالي والباب الواطي (او الاقل علوا). ويتابع صاحب العقد قوله :« وخلف جدي ابو السعود والدي علي

(١) العقد المنضد ط ٢ ص ٢٨

(٢) ثم انحصر التصرف بها بآل الاسعد اى به وبأخيه الاصغر ناصيف باشا الاسعد .

بك (رحمه الله) واذا بهذا الخلف فاق على السلف بالمآثر والبطولات. . .

«ويستشهد بقول لصاحب» «الجوهر المجرد» الشيخ علي السبيتي بأن اباه هذا كان شاعرا وقد شرح له السبيتي قصيدته العينية التي يفخر بها ويذكر مجد آبائه وأجداده وآثارهم ومآثرهم وقد عارض بها، وزنا وقافية، قصيدة الفرزدق التميمي التي افتخر فيها على جرير ومنها البيت الشهير :

اولئك ابائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

فليس غريبا ـ إذن ـ أن يأتي شبيب باشا شاعرا واديبا مرموقا في زمانه لان عامل الوراثة يفعل فعله في الخلف احيانا كثيرة. الى جانب العوامل الاخرى من ثقافة وظروف مؤاتية وتجارب .

ونحن هنا لا نقيّم ما جاء في العقد المنضد من شعر ونثر وتاريخ واساجيع. . . فليس المجال هنا مجال تقييم ودراسة نقدية. انما نحن نسجل تاريخ هذه العائلة الاصيلة منذ قدومها الى الزرارية التي اتخذوها مقرا لحكم اقليم الشومر وبعض القرى المجاورة بعد نزوحهم عن تبنين وقلعتها حيث ولد شبيب باشا وعاش فيها مدة ثم انتقل الى اسطنبول ثم الى صيدا ثم الى الزرارية وكان له بيت فيها [1] يصطاف في الزرارية ويشتو في صيدا. والملفت في الامر أن صاحب العقد المنضد لا يأتي على ذكر حكم أخيه ناصيف باشا الاسعد لا من قريب ولا من بعيد. . . ونلاحظ ايضا ان لقب «بك» لهذه العائلة لم يكن على أيام أحد اجدادها ناصيف النصار بل كانت «المشيخة» هي اللقب الرسمي الغالب، فلقب البيك الذي حل محل« الشيخ» كان لحمد البيك بن محمود النصار ثم لابنائه واحفاده من بعده. . . فحكم البلاد بعده علي بك الاسعد بن اسعد البيك بن

---

(١) عن مقدمة العقد المنضد في طبعته الجديدة للنسابة العلامة الشيخ ابراهيم سليمان ص ٨ .

محمد البيك (أخي حمد البيك)[1]. كما نلاحظ أن نسبة «الاسعد» الى هذه العائلة الوائلية ترقى فقط الى أسعد البيك هنا، ويكون حمد البيك عما لجد شبيب باشا الاسعد.

أما عائلة الاسعد التي حكمت بلاد بشارة ومركزها (الى الآن) بلدة الطيبة الحدودية، بعد تبنين، فهي وآل الاسعد في الزرارية عائلة واحدة أو هما فرعان لجد واحد ونسب واحد.

فكامل بك الاسعد الكبير هو النجل الأكبر لزعيم العائلة الوائلية خليل بك الاسعد بن الشيخ اسعد الخليل بن خليل الناصيف بن ناصيف النصار. فالجد الاكبر واحد - كما ترى - هو الشيخ ناصيف النصار ورث زعامة العشيرة بل العشائر بعد وفاة ابيه خليل بك الاسعد. [2] الخ.

أما سبب تخلي شبيب باشا عن الحكم لاخيه الاصغر ناصيف باشا فيعزوه محمد جابر آل صفا الى الامور الاتيه :

أولا - بالرغم من كون شبيب باشا اديبا وشاعرا، وميالا الى تكريم العلماء والادباء وذكيا مهيب الطلعة. الا انه كان «قاسيا عنيفا، بعيدا عن اللين مما جعل الناس ينفضون من حوله فاصابه الفشل وسافر الى الاستانة حنقاً مما حصل له، فأقام فيها ٢٢ سنة. الخ[3].

معركة خاسرة لان شبيب باشا حارب فيها على جبهتين، جبهة أخيه

---

(١) المصدر نفسه ص ٥ .

(٢) تاريخ جبل عامل ص ٦٤ ط ٢ محمد جابر آل صفا

(٣) المصدر نفسه ص ٦٥

المتحالف مع أبن عمه كامل بك الاول وجبهة كامل بك نفسه. معركة استعمل فيها شبيب باشا اسلحته الخاصة المتمثلة بالشعر الهجائي وحشد بعض الشعراء الهجائين الى جانبه. واستعملت الجبهة المقابلة نفس الاسلحة. وحتى نفس الشعراء ومن أسرة واحدة : فكان الشيخ محمد حسين شمس الدين من شعراء شبيب باشا. والشيخ علي مهدي شمس الدين من شعراء كامل بك. وترجح كفة شبيب باشا لأنه هو نفسه شاعر. أما كامل بك فكان الشيخ علي مهدي يضطر الى أن ينظم القصيدة الهجائية ويجعلها على لسان كامل بك . . . لكن كفة كامل بك ترجح اخيرا على الساحة السياسية فيتوارى شبيب باشا ليظهر في الاستانة ويقيم فيها حاقدا ناقما على بني عمومته وعلى أخيه والناس أجمعين.

فلا عجب ـ والحالة هذه أن نراه يتخلى ـ هناك ـ عن مذهبه الشيعي ويستبدله بالشافعي. قرفا واحباطا أو تقية وزلفى الى السلطان العثماني السني. . لا تنكرا لآل بيت الرسول (ص) فله فيهم مدائح في رثاء مخلص حزين.

أما اخوه الاصغر ناصيف باشا فقد كان « شديد الغيرة على أبناء طائفته وهو أول من نهض بخيله ورجاله في حادثة الخيام سنة ١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٦م». (١)

فنخوته وتودده حببا اليه الشعب، الامر الذي كان يفتقر اليه اخوه الاكبر. .

ثانيا ـ عند عودة شبيب باشا من اسطنبول، بعد نشر الدستور التركي الثاني سنة ١٩٠٩م رشح نفسه لعضوية مجلس الامة (المبعوثان) عن لواء بيروت (جبل لبنان) «زاحمه كامل بك الاسعد الكبير مزاحمة شديدة وفاز عليه (٢). مما اثر في

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٦ انظر تفصيل حادثة الخيام في الكتاب نفسه ص ٢٥٨

(٢) المصدر نفسه ص ٦٥

حوافز طموحه فأقام في بيته في صيدا، لا يبرحها الى أن وافته المنية سنة١٣٣٦هـ١٩١٧

ثالثا : اشتراك هذا الاخ الاصغر في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في صيدا على مرأى ومسمع من الاخ الاكبر، مما اعتبره تحديا له وطعنا في كبريائه. ومهما يكن من أمر« فالملك عقيم. . . » ونظام الاقطاع في ذلك العهد ـ كان يتطلب وجود امثال ناصيف باشا ممن يحسنون خطب ود الباب العالي، وممن يجيدون اساليب القتال لا امثال شبيب الذين لا يحسنون هذه الاساليب والذين يحتضنون كبرياءهم بشموخ وتوحد. ومتى كان الشعراء والادباء يصلحون للحكم في مثل هاتيك العهود؟ !

على كل حال ونقولها للتاريخ : حسب شبيب باشا أنه ترك لنا اثرا ادبيا قيما في زمانه بل مرجعا هاما من مراجع تاريخ هذا الجبل، واذا كان العقد المنضد هزيل التأليف ضعيف الاسلوب من الناحية الفنية لوعورة الفاظه وكثرة اساجيعه وتراكم العلل النحوية والصرفية فيه. ، الا انه، في هذا، يمثل المرحلة الاخيرة من مراحل عهود الانحطاط الادبي واللغوي والشعري، حيث كانت الصناعات اللفظية المعقدة رائجة في تلك الايام (أواخر القرن الماضي واوئل هذا القرن) وحيث كان الشعر او على الاصح« النظم» عبارة عن معارضات وتشطيرات وتخميسات في قصائد لها أول وليس لها آخر، تقال في المناسبات الاجتماعية أو، في مواسم ذكرى عاشوراء، أو اخوانيات بدلا من الرسائل النثرية. . . او تأريخ الوفيات او التماس الاعطيات بمدائح مفضوحة الاغراض، اما الغزليات فهي تقليد اعمى للغزليين القدامى : جاءت في أكثرها، حذو النعل بالنعل !

على أننا لا ننكر فضيلة لمثل هذا النظم ولعلها الوحيدة وهي : قوة السبك وجزالة الالفاظ وصحة العروض ووضوح القصد . . . وعدا ذلك لا شيء !!

وقد أضاف شبيب باشا فضيلة اخرى وهي صدق الشعور والبعد عن التبذل والتزلف في قصائده واحتضان الذات مع كبرياء جريح جسده في الموقف والروح والرأي. . أمام نظام اقطاعي ظالم ينكر فيه الاخ اخاه ولا يصل فيه الا الفاسدون. . . الذين يرتضون التزلف والتسكع سبيلاً للوصول !. رغم ان شبيب باشا لم يكن خارج هذا النظام. . . وكثيرا ما سعى من خلاله الى الوصول، ولكن يبدو أن الادوات اللازمة لمثل ذلك لم تتوفر كلها له كما توفرت لغيره من رجال عائلته وسواهم [١]. . وفي معركته الخاسرة مع كامل بك الاسعد استعمل اداة الشعر للهجاء وكشف مساوىء الخصم (تماما كما كانت تفعل القبائل الجاهلية وبلاطات الخلفاء والامراء بعد الاسلام، بواسطة شاعره الخاص الشيخ محمد حسين شمس الدين فانبرى له الشيخ علي مهدي شمس الدين الذي تفوق على شاعر كامل بك المفضل. . في كثير من اصحابه[٢] .

---

(١) من هذه الادوات توفر المال والمساومة على اقتطاع الاراضي من الباب العالي وشراء الولاية مثلا بثمانين الف إلىماية الف ريال (والريال يساوي نصف ليرة فرنساوية ذهبا) ووظيفة الدفتر دار (مدير المالية) تباع بأربعين أو خمسين الف ريال . والقاضي اقل من ذلك . وجميعهم كما يقول محمد جابر (ص ٧٩) يستعيضون عن مصاريفهم من الاهالي . . فقد جمع عبدي باشا والي حلب خلال خمسة عشر شهرا نحو اربعة ملايين ليرة ذهبية من الضرائب التي فرضها .

(٢) ورغم اعتماد شبيب باشا على غيره من الشعراء في باب الهجاء والنقائض فقد كان يجيد النظم في سائر الاغراض الشعرية كالغزل والفخر والوصف وكالتخميس والتشطير وسوى ذلك.

ورغم كل هذا الحرمان من التملك العريض أو التلزيم وصولا الى الحكم فقد بقي شبيب باشا مخلصا «للدولة السنية» ومعبوديته للسلطنة العثمانية « كما يقول في معرض حديثه عن نسبه [: أما بعد فيقول العبد الكثير الزلل القليل العمل. . . شبيب بن علي بك الاسعد الحمد المحمود النصار الاحمد النصار الوائلي القحطاني نسبا الشافعي مذهبا[1] البشاري مولدا نزيل دار السعادة العلية (أي اسطنبول) ، ومقر السلطنة الكبرى العثمانية، تراب نعال الفضلاء! ورقيق رقيق الشمائل من الادباء الى آخر هذه الترصيعات أو الارابسك اللغوي

---

(١) الشافعية مذهب الامام الشافعي وهو : ابو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن نافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ولد سنة ١٥٠ هـ . في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة . ومكان ولادته مختلف فيه . منهم من قال في غزة او عسقلان او الخ . وكانت وفاته سنة ٢٠٤ بمصر ودفن في مقبرة بني زهرة اخذ العلم والفقه عن كبار تلامذة الامام الصادق كابراهيم بن محمد بن ابي يحي ، وابراهيم بن سعد الانصارى وعبد الوهاب بن عبد المجيد . (انظر كتاب : الامام الصادق والمذاهب الاربعة . المجلد ٣-٤ ص ١٩٢-١٩٣ لمؤلفه اسد حيدر . دار الكتاب العربي - بيروت . مذهبه اقرب المذاهب الاربعة الى المذهب الجعفري . وللشافعي مدائح في آل البيت (ع) فقد كان شاعرا ايضا . ومن مدائحه لهم هذان البيتان الشهيران :

يا آل بيت رسول الله حبكمو	فرض من الله في القرآن انزله
يكفيكمو من عظيم الذكر انكمو	من لم يصل عليكم لا صلاة له

وهو القائل ايضا :

ان كان رفضا حب آل محمد	فليشهد الثقلان اني رافضي

والشافعية تقول بالتقية (انظر العرفان ج ٧٢ ص ٦٥) تماما كما قال بها علماء الشيعة خاصة=

الغريب. . . ورغم اعتماد شبيب باشا على غيره من شعراء الهجاء ورغم كونه مُقِلاً فقد كان يحلو لبعض المعجبين بشعره(او على الاصح نظمه وترصيعاته) ان ينعتوه بأنه « شاعر الباشاوات وباشا الشعراء !

والخلاصة : ان شبيب باشا كانت تنقصه الادوات اللازمة للتفوق على خصومه كما كانت تنقصه ادوات الوصول الى الحكم كما تقدم معنا .

=ايام العثمانيين ويبدو ان شبيب باشا لا يفرق بين شيعيته وشافعيته نظرا لتقاربهما ولان الشافعي محب لآل البيت حبا شديدا . لذا المرجح انه انتحل هذا المذهب تقية وتقربا من الباب العالي السني . . . وصولا إلى ما يريد . ولا ننس انه قضى في اسطنبول ٢٢ عاما من عمر الشباب ـ المؤلف ـ

أبناء شبيب باشا الأسعد :

رزق الباشا بثلاثة أبناء هم : علي نصرت ونزيه ونبيه . . . . . توفي الأكبر علي نصرت والأصغر نبيه ولا يزال نزيه بك حيا يرزق أمد الله في عمره وها هو اليوم يعود إلى الزرارية موطن آبائه وأجداده ويبني دارة له بقرب منازلهم او على الارجح اطلالهم في ساحة العريشة بعد أن ترك العاقبية وبيروت [1]

علي نصرت الأسعد : كبير أنجال شبيب باشا . تقلد وزارة الزراعة في لبنان عام ١٩٣٧ أيام الانتداب الفرنسي . كان مظهره الارستقراطي يشير إلى أنه ابن باشا حقا . . قيافة مميزة وقميص بياقة منشاة وعصا معكوفة (محجن) ومشية واثقة وئيدة الخطى مدروسة . . إذا سار في شوارع بيروت لا يلتفت يمنة ولا يسرة . . وإذا حدث أن كلمه أحد الأصدقاء من خلفه يجيبه مرحبا دون أن يلتفت إلى الوراء حتى يحاذيه ! وإذا طرق بابه زائر – وكان هو في الصالون – ادلف إلى غرفة داخلية ، حتى إذا أذن الخدم للزائر بالدخول وجلس في الصالون دخل عليه البيك فيقف الزائر بدل أن يحدث العكس ! ظنا منه أن ابن الباشا يجب أن يتصرف هكذا مع الناس [2] وبما أن بيروت كانت مقر سكنه خاصة أيام الوزارة فقد كانت هذه السكنى مكلفة وتتطلب فوق الراتب رواتب . . فمن أين ؟ وحصته الموروثة من أراضي الزرارية لا تدر عليه ما يكفيه . لا بد إذن من بيع هذه الحصة . وكان المرحوم والدنا هو الذي اشتراها لشقيقيه المغتربين المرحومين حسن

---

(١) كان نزيه بك موظفا برتبة عالية في مجلس النواب اللبناني اوائل الخمسينات . وهو من اصدقائي القدامى القليلين الذين اعتز بصداقتهم نظرا لما يتحلى به من دماثة في الاخلاق وتواضع ووفاء .

(٢) هذه الصفات وغيرها حدثنا عنها المرحوم والدنا الذي عاشره طويلا

وحسين جواد شرف الدين ولولديه جواد ونجيب وجميعهم مغتربون في افريقيا . واقتضى ذلك من الوالد جهدا كبيرا وتكرار زيارات عمل للبيك في بيروت الأمر الذي استغرق أكثر من خمس سنوات . .

لم يرزق علي نصرت بك الأسعد من الأولاد سوى وليد وحيد هو سعود[1]

ناصيف باشا الأسعد : ولد سنة ١٢٧٥ هـ ١٨٥٨ م . وهو النجل الثالث لعلي بك الأسعد يشابه أخاه نجيب بك [2] أخلاقا وسيرة . درس في المدرسة البطريركية في بيروت وكان شديد الغيرة على أبناء طائفته [3] كما تقدم، محبا للعلماء شيمة آبائه وأجداده .

---

(١) أصهر له زميلنا الاديب الاستاذ عون الامين . عاش سعود بك في اواخر ايامه في منزل صهره بصور وقد توفي منذ عام ونيف عن عمر ناهز الثمانين .

ملاحظة :اما زواج باشوات وباكوات الزرارية فقد كان يتم جريا على عادة العائلات الاقطاعية وتقاليدها القائلة بان لا يأخذ من بين فتيات ونساء العائلات المثيله اي من طبقتهم كطبقة المشايخ والمقدمين . ولا يجوز ـ حفظا لنقاء الدم الازرق ان ينحدر احدهم فيتزوج من الطبقات الدنيا .

وقد سار على هذه القاعده الكثيرون من ابنائهم واحفادهم حتى اليوم . وانكرها الكثيرون .

(٢) ونجيب بك هذا هو الاخ الاوسط لشقيقيه شبيب باشا وناصيف باشا . وقد ارخ له محمد جابر آل صفا فقال : ولد نجيب بك ١٢٦٦ هـ ـ ١٨٤٩ م . وتوفي سنة ١٣٠٢ هـ ـ ١٨٨٤ م وكان من اطيب ابناء العشائر اخلاقا واطيبهم سيرة والطفهم معشرا . اديبا عارفا باخبار العرب ينظم الشعر . تولى عدة وظائف في لواء نابلس وآخرها قائمقامية صهيون (لواء اللاذقية) وتوفي في سن الفتوة دون الخامسة والثلاثين .

(٣) تاريخ جبل عامل ط ٢ ص ٦٥ محمد جابر آل صفا

لم يطرق باب الوظائف غير أنه انتخب لعضوية مجلس إدارة مقاصد صيدا غير مرة وكان مثال النزاهة والإخلاص [1] . توفي في الزرارية سنة ١٣٣٧ هـ ١٩١٨م .

هذا ما قاله عنه المؤرخ محمد جابر آل صفا . ويروي عنه آخرون أنه وزع أملاكه في حياته على أولاده وخاصة ولده حسيب (أبو محمود) أعطاه أرض محيليب والبرغلية قرب صور على الساحل . أما أملاكه في الزرارية فكانت من نصيب باقي أولاده وهم : محمد وفارس وسامي وعاطف ورضا . . . تزوج ناصيف من أرملة الحاج سليم يونس من صور وهي والدة حسيب وشقيقته زهية الأسعد (تسكن اليوم في العاقبية) تزوجت من المرحوم نبيه الأسعد شقيق الحاج نزيه الأصغر ورزقت منه عدنان وبسام [2] .

فيكون لناصيف باشا من زوجته الأولى : سامي وفارس ومحمد ، ومن الثانية حسيب وعاطف ورضا .

- ميوله وتصرفاته : لا يقف المؤرخون طويلا عند حياة ناصيف باشا وخصائصه وميوله كحاكم وكزعيم عشيرة فيختصرون قائلين : انه كان ذا ميول شعبية متواضعا إلى حد ما . . . وصاحب نخوة (حادثة الخيام وقد تقدم ذكرها) لكن هذه النخوة لم تكن بمستوى حمية جده الثالث الشيخ ناصيف النصار الذي حارب الجزار وانتصر عليه في عدة مواقع وكان ذا مواقف وطنية مشهودة دافع فيها عن بلاده جبل عامل وكان بطلا قوميا إلى حد كبير . . رغم بعض صفاته

---

(١) تاريخ جبل عامل ط ٢ ص ٦٥ محمد جابر آل صفا

(٢) معلومات زودنا بها الصديق القبطان المتقاعد الاستاذ علي يونس ، من صور .

وسقطاته التي لم يكن بريئا منها أي حاكم اقطاعي في تلك العهود . هنا يبدو ناصيف باشا ضئيلا أمام جده الأكبر . غير أنه على مستوى إقليم الشومر كان حاكما بارزا وعلى مستوى الزرارية مقر حكمه وسكنه كان يتصف بصفات شعبية أبعد ما تكون عن صفات الارستقراطية الحاكمة أو الأسرة المالكة . . .

كان منزله في الزرارية يغص بالوفود والزوار والأدباء والشعراء ولكن بنسبة أقل من أخيه شبيب باشا في صيدا (وحفل استقبال شبيب باشا منذ عودته من اسطنبول في سهل عدلون شاهد على ذلك . . .).

كان ناصيف باشا يتقرب من عامة الشعب ولا سيما السادة الأشراف منهم بنسبة أكثر من أخيه الأكبر . . . وهذه الصفات كان المرحوم والدي يرددها على مسامعنا باستمرار راويا كيف أن جدي السيد جواد شرف الدين كان بمنزلة النديم الدائم لهذا الباشا يستمع إليه وإلى قصائده الغزلية وطرائفه ومداعباته له وللحاشية ساخرا منه ومنها أحيانا ولكن بطريقة غير مباشرة . ومما يرويه الوالد عن ناصيف باشا في هذا السياق ، أنه ركب في يوم ماطر قاصدا الطيبة وكانت العادة أو البروتوكول الخاص يقضي بأن لا يفتح المرافقون شماسيهم حين يفتح الباشا شمسيته اتقاء للمطر . . . فما كان من جدي إلا أن فتح شمسيته تحديا . . . التفت الباشا إليه فرآه على هذه الحال . . . فما كان منه إلا أن ابتسم (وبلعها) !

كما كانت تقام في « ساحة العريشة » حفلات الغناء الشعبي والدبكة ومسابقات الركض . وهي الساحة الملاصقة لدار الباشا وكانت رحبة تتسع لمثل هذه الحفلات الشعبية .

مرة طلب الباشا من جدي أن يتسابق في الركض مع الحاج أحمد فخري جار الباشا وكان جدي يعلم سلفا أنه سيخسر السباق . لأن الحاج أفتى منه

وأسرع لكنه أسر في نفسه أمرا أو حيلة وعندما بدأ السباق قرأ جدي في منتصف الحلبة آية السجدة وكان جدي يعلم أن هذا الفتى المؤمن حين يسمعها سيسجد حتما فيتقدم جدي مكملا السباق وحده وهكذا كان !!

وذهبت سريعا تلك الأيام الهادئة الهانئة ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام إلى أن اندلعت الحرب الكونية الأولى وجاء الجراد وحلت المجاعة . . . وجاع حتى الباشا صاحب الأطيان والأملاك الشاسعة . وكان جدي قد استأجر من الباشا نفسه طاحونة المغيرية على الليطاني هو وأبناء عمه وخؤولته من آل هاشم بأربعماية ليرة ذهبية (١) وكان الباشا يضطر إلى المجيء بنفسه إلى الطاحونة منتظرا الحصول على سهمه من بعض الطحين . . . ماذا تريد ! إنها الحرب وإنه الجراد . . . والباشوية في هذه الأحوال لا تسمن ولا تغني من جوع . . ولا ترد غائلة الجراد . خاصة وقد مات المساعدون والأصدقاء والمسعفون على الطرقات . . . وكان جدي يسرع في إغاثة الباشا بما يستطيع ويرجوه ألا يتحشم المجيء إلى الطاحونة . . . والملفت هنا ، أن الباشا لم يكن لديه مدخرات من ذهب أو فضة ! او انه صرفها كلها . .

وقد توفي الباشا والحرب توشك أن تضع أوزارها (١٩١٨) أي بعد وفاة أخيه شبيب باشا بعام واحد . عفا الله عنه وعن أخويه فقد كان لكل منهم خصائصه ومزاياه والشعب إن كفر ببعضها إلا أنه لا ينسى المشرق الجميل منها . .

---

(١) على ما جاء في مذكرات المرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين في مخطوطة هي الان بحوزة نجله الاكبر الدكتور محمد . وقد استطاع جدي وشركاؤه ان يدفعوا للباشا هذا المبلغ المحترم لان البعض منهم كالسيد حسين هاشم وعمنا السيد محمد جواد شرف الدين كانا قد عادا من افريقيا قبيل الحرب . وبذلك أمنا غائلة المجاعة . كما جاء في هذه المذكرات .

كالنخوة والإباء والنجدة والكرم والأدب وحب الأدباء والعلماء وهذه كلها من المروءات العربية الأصيلة ومن سجايا العامليين منذ كانوا . . . وقبل أن نطوي صفحة ناصيف باشا الأسعد نود أن نسجل الملاحظة التالية . . .

كانت المدارس المدنية شبه معدومة في اوائل القرن الماضي . اما الحوزات الدينية فكانت متوافرة وعديدة في شقراء والمجدل وابل السقي وصور وجباع وغيرها وقبل ذلك في جزين وكان طالب المزيد من التفقه والاجتهاد في الدين يستقيه من منابعه في النجف الاشرف . الاانه ما ان شارف القرن الماضي على الانتهاء - وهي الفترة التي عاش فيها ناصيف باشا - حتى بدأت المدارس المدنية تظهر وان بتواضع في تلك القرى وفي الزرارية ايضا . . السؤال هنا : لماذا لم يتلق هؤلاء الباشوات التعليم على اختلاف انواعه ؟ والجواب : انهم كانوا مشغولين بالسعي الى السلطة واكتساب الباشوية بأي ثمن . . . ما عدا القلة القليلة منهم التي استطاعت ان تتعلم وتستزيد من العلم في اسطنبول وفي معاهد سوريا والعراق ومصر . ثم لماذا لم يعلموا ابناءهم ويصرفوهم عن سراب السلطة الخادع وهم القادرون ؟ . . في حين كان الشعب المحكوم المضطهد غير قادر حتى على تأمين لقمة العيش. لا اعرف من ابناء ناصيف باشا من تعلم سوى نجله المرحوم حسيب الذى كان محاميا . اما الآخرون فقد شغلوا بالمجد الارضي الزائل عن المجد العلمي الدائم ايا كان نوعه . . . [1].

---

(١) اعرف منهم المرحوم محمد بك الاسعد (ابو شعلان) الذي اضطر إلى ان يدخل سلك الدرك في صور لتأمين معيشته . وقد كان رحمه الله صديقا لابي وصديقا شخصيا لي . كان في منتهى التواضع والروح الشعبية والحسينية العالية محبا لال البيت وفي كل عاشوراء يقيم=

وها هم هؤلاء ابناء الباشوات جميعا يسارعون الى تعليم ابنائهم ، في الجامعات بعد ان تكشفت لهم الحقيقة . . وبعد ان خسروا الامجاد الزائلة وباعوا الاملاك والعقارات ولم يبق في حوزتهم سوى العلم فبرز من بين هؤلاء الابناء والاحفاد مثقفون ومتخصصون في جميع ميادين العلم والاختصاص . . . ومنهم من تقلد وما زال ، اعلى المناصب ففي الجامعة العربية (الامين العام المساعد أسعد الأسعد) والدكتور سعيد الأسعد السفير السابق والنائب الحالي وسواهما . وقد تلاشت تماما من اذهان هؤلاء الاحفاد فكرة الوصول عن طريق الوراثة او التوريث إلى الوظائف والمراكز العالية بل بالعلم والاخلاق وحدها . وان كان النظام القائم في لبنان لا يزال يراعي احوال هؤلاء ويحترم مواقعهم . . . ففي هذا الزمن زمن الوعي والانفتاح على القيم الانسانية وان الانسان هو المحور وهو رأس المال . . لم تعد سياسة : فرق تسد ، أو سياسة : دع الشعب في سباته وجهله لتسهل قيادته والتلاعب بمصيره ، أو مبدأ الحق الإلهي لاصحاب الدم الأزرق :

كل هذه السياسات وتلك المبادىء بارت وباخت واضمحلت في اوروبا : بعد الثورات العالمية الثلاث . .

وكذلك في المشرق العربي بعد انتشار العلم وتكريس مبدأ حقوق الانسان، ومفاعيل مبادىء الأصلاحيين العرب امثال عبد الله النديم والثائرين الكبيرين السيدين : جمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكي واندادهم .

أما في لبنان فلم يتخبط في مستنقع التقاتل والتناحر إلا لأن تلك السياسات

=في منزله في الزرارية مجالس عزاء كنت احضر بعضها فاشاهده يذرف الدمع السخين على مصرع الحسين (ع) وآل بيته ، لا رياء ولا تملقا ، كما يفعل بعض المتباكين . .

الغاشمة والمبادىء العشائرية الزائفة لا تزال عاملة فيه وفاعلة وان كانت مفاعيلها قد خفت بعض الشيء هذه الايام. يقول الكواكبي في كتابه : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد :« يحرص اولئك الطغاة على الجهل لعلمهم ان الجهل هو المعين الاول لحكمهم المطلق ، وسلطانهم الغاشم ، وان العلم هو الذي يعلم ان الحرية افضل من الحياة نفسها واكرم ، وأن الشرف اعز من المنصب والمال ، وأنه هو الذي يهدي إلى الحقوق وطريقها ، وأنه هو الذي يعلم كيف تصان تلك الحقوق ، وينبه إلى الظلم وكيف يدفع ، ويشير إلى كرامة البشرية وقيمتها . روي إن حاكما مستبدا شرقيا فيما سلف من أوان - كان له مرب سويسري ، فقال له المربي يوما - بعد ان «تأمر الفتى أو تملك » : ليتك تعنى بتربية الشعب وتعليمه . فأجاب الامير : كلا ! «إني إن علمته صعب علي حكمه » [1] !

الشيخ عباس المحمد الوائلي (الاسعد) عمه الشيخ ناصيف النصار : [2]

عندما قسمت الدولة العثمانية بلاد جبل عامل وفلسطين وسوريا إلى

---

(١) انظر كتاب : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد للكواكبي ـ منشورات جمعية قناة السويس للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٦

(٢) جاءت ترجمة الشيخ عباس في الدلالة العاملية (وهي مخطوطة من تأليف العلامة الشيخ ابراهيم سليمان) وفي تاريخ جبل عامل للمؤرخ محمد جابر آل صفا ، على الشكل التالي : «الشيخ عباس المحمد الوائلي الاسعدي كان مقر حكمه في صور ، وهو مجدد بنائها . (محمد جابر) وفي الدلالة : الشيخ عباس بن محمد بن حسين بن نصار بن احمد بن نصار بن مشرف بن احمد بن نصار بن حسين بن علي الصغير بن حسين بن احمد بن حمد بن محمد بن هزاع بن حويشان بن محمد. . بن احمد بن ناصيف بن شعلان بن جندل بن سالم بن عبد الله بن=

اقطاعيات مستقلة ، كانت اقطاعية صور وساحل معركة من نصيب الشيخ عباس بن محمد الذي تولى هذه الاقطاعية فوجد صور وقد كادت تخرب نتيجة المعارك المتبادلة بين حكامها السابقين وخصومهم من الايوبيين والمماليك والصليبيين وسواهم ، فجعلها مركزا لحكمه . ثم بدأ باعمارها وترميم مبانيها الاثرية . وكانت الطائفة الكاثوليكية اكثر الطوائف المسيحية عددا فيها ، فبنى لها كنيسة مار توما التي لا تزال إلى اليوم ، يزاول فيها الروم الكاثوليك طقوسهم الدينية ويعقدون فيها اجتماعاتهم . كما بنى مسجدا يعرف اليوم بالمسجد القديم ، للطائفة الاسلامية السنية . وبنى كذلك فندقا سياحيا، كان للأمس القريب موجودا في حارة الخراب على مدخل بوابة صور وهو تابع لحي المصاروة ، ولم يبق منه إلى اليوم سوى بعض الغرف المهجورة وشبه المهدمة (١) .

=يشكر بن تيم بن عيلان بن عنزة بن حنيفة بن قيس بن سعيد بن فحل بن تميم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط . . . بن اسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان» !!

(١) هذه التفاصيل عن اعمال الشيخ عباس في صور استقيناها من الصديق الاديب والخطيب الاستاذ علي يونس من صور . يعد الاستاذ علي من رواد الفعاليات الاجتماعية والرياضية في صور فهو مؤسس نادي التضامن الرياضي فيها منذ حوالى نصف قرن . كما شغل منصب رئيس ميناء صور وصيدا وبيروت فلقب بالقبطان الذي لا يزال يعرف به حتى اليوم - والاستاذ علي يعتبر خير مرجع لتاريخ عائلات صور الكبرى وزعماء جبل عامل الماضين والحاضرين ، لا تنقصه المعلومات والاخبار عنهم وعن انسابهم بقدر ما ينقصه جمع وطبع هذه المعلومات في كتاب ولعله فاعل ذلك ان شاء الله . اطال الله في عمره وقد علمت مؤخرا انه باشر بجمع وطبع هذا الكتاب يعاونه في ذلك احد الاصدقاء .



قبر حيرام احد ملوك صور الفينيقيين (قرب قرية حناويه)

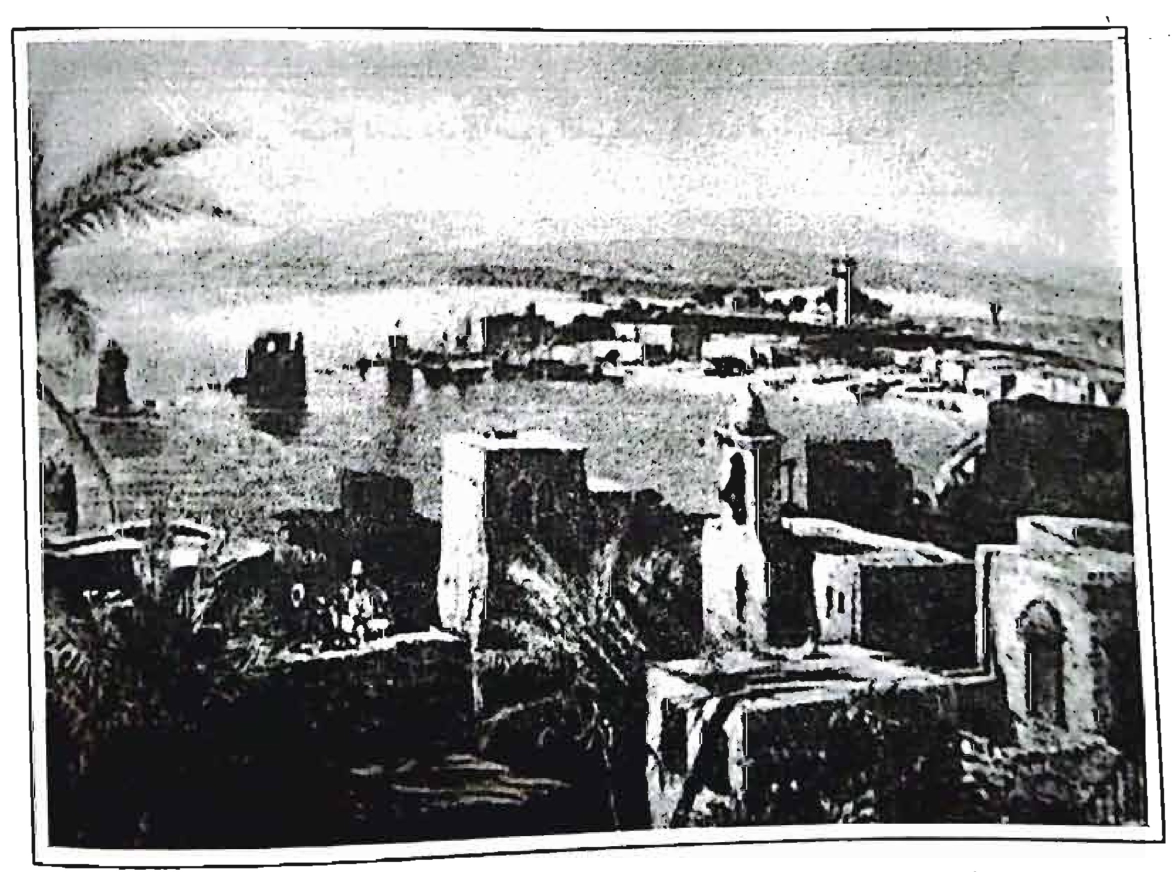
المعشوق . . وسامةً وعملاً انسانيا :

كان الشيخ عباس يلقب بالمعشوق لوسامته وعلى الأخص لكونه محبوبا من أهالي صور ومنطقتها . فجمال الطلعة لا يعد عنصرا كافيا لدى الرجال ، ولا سيما الزعماء منهم والحاكمون . . . دفن الشيخ عباس على مقربة من مدينة صور فسميت المحلة بالمعشوق نسبة اليه وهي لا تزال تعرف بهذا اللقب الى الآن.

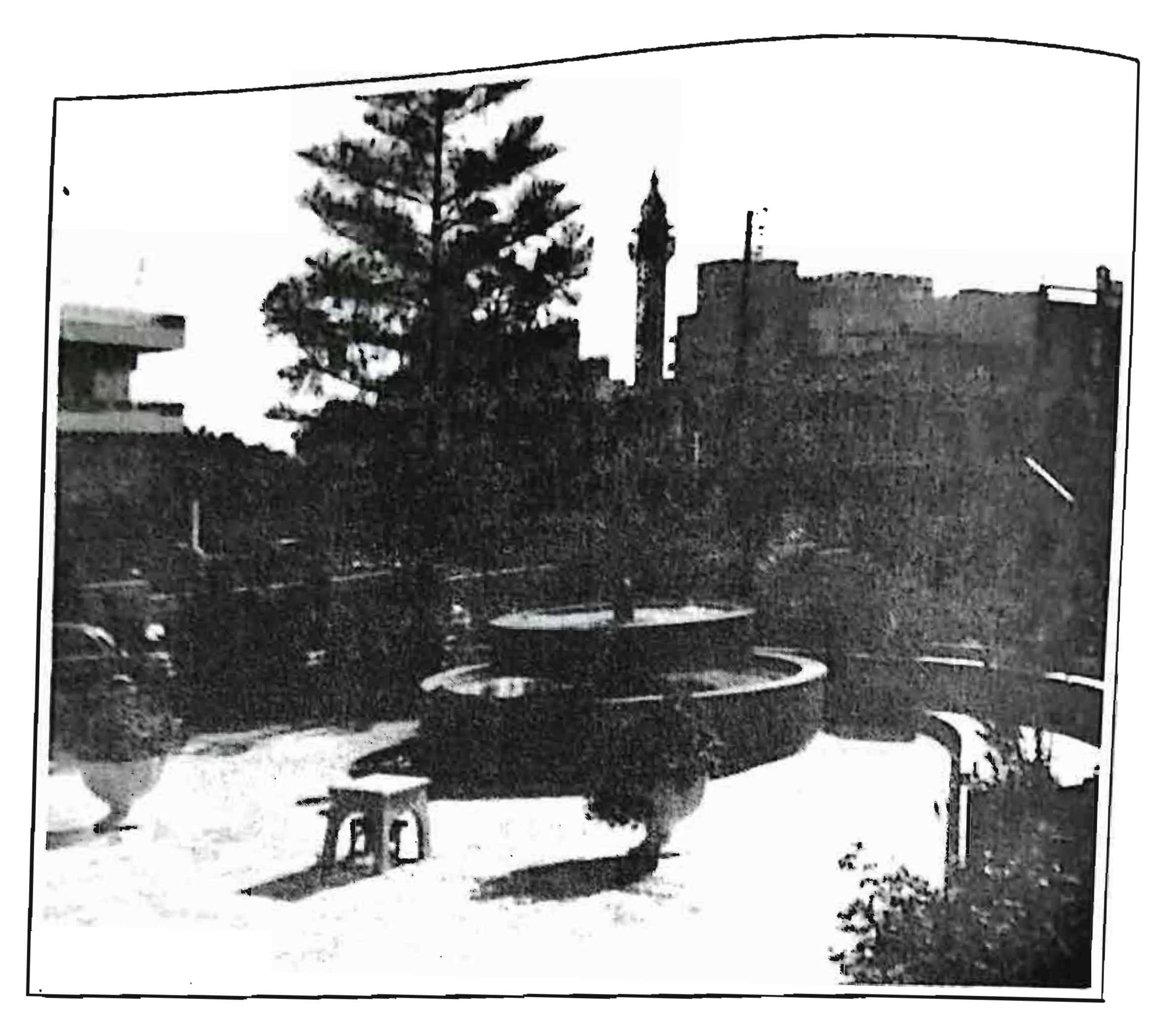
كيف تم القضاء على أحد جدود آل الاسعد في الزرارية :

كان علي بك الاسعد - كما علمنا - حاكما على بلاد جبل عامل والتي كانت مستقلة عن دولة الاتراك وكانت حدودها لا تتعدى آنذاك مدينة صيدا. ورغم هذا الاستقلال كان يدفع للباب العالي ضريبة مقطوعة باعتبار أن الآستا نة

هي مركز الخلافة الاسلامية وكل البلاد العربية واقعة تحت سيطرتها. ولذلك عملت على تفريق زعماء جبل عامل وبث التناحر بينهم. فتفرق آل الاسعد واستقل كل زعيم منهم بمقاطعة من مقاطعات البلاد العاملية (جزين - صيدا - اقليم الخروب - اقليم الشومر حتى الشقيف - بلاد بشارة ومركزها تبنين) لكنهم ظلوا يأتمرون بامرة علي بك الاسعد لما كان عليه من حكمة وعلم وأدب ودراية. غير أن كل ذلك لم يكن لينقذه من براثن الدولة العثمانية وعملائها الذين لم يرق لهم أن تبقى هذه المنطقة خارجة عن دائرة نفوذها الاداري والسياسي فاوقعت بعلي بك الاسعد واغتالته واستولت من جديد على المنطقة وتم ذلك بمكيدة محكمة.



منظر عام لصور عام ١٧٥٠ ايام الشيخ عباس المحمد الوائلي (الاسعد)
(اعداد وتصوير الرسام زين كاعين)



الزرارية : ساحة الشهداء ـ (البركة سابقاً)

كيف تم ذلك :

بمناسبة أحد الاعياد دعا والي صيدا علي بك الاسعد وابن عمه وقائد جيشه محمد بك الاسعد الى وليمة في سراي صيدا. وتنبه محمد بك للمؤامرة لقوة حدسه ومعرفته باساليب العثمانيين في التآمر الى جانب قوة شكيمته واقدامه وكان على رأس جيش من خمسمائة خيال. نصح ابن عمه بعدم الذهاب وحده وحذره من مغبة الامر، وقال له : ان كانت نياتهم حسنة فلا تعدم القول بالاعتذار عني وإن كان العكس استطيع تخليصك من ايديهم. لكن علي بك لم يرض بهذا

الحل، واصر على الذهاب برفقته اذ لم يكن يعتقد بجرأة الاتراك على القيام بمثل هذا العمل الغادر. حضر المدعوون «الولبمة» في صيدا. وعندما انتهى الاحتفال أمر الوالي باقفال الباب الوحيد في تلك السرايا وألقى القبض على علي بك وابن عمه ثم اركبوهما على حصانين من خيول الدولة وساروا بهما باتجاه الشام. وكان محمد بك ذا قوة بدنية خارقة، فكلما جاؤوه بحصان يضغط عليه فيلقيه أرضا. وقال للجلاوزة : لا يحملني الا حصاني اذ كان ينوي الفرار على ظهر حصانه هذا والاعداد لمهاجمة الاعداء، ولكنهم كانوا محتاطين للامر فلم يستطع الافلات منهم. وعندما وصلوا بهما الى الشام سجنوهما وبعد مدة دسوا لهما السم وأشاعوا بعد وفاتهما انهما توفيا بالحمى الصفراء، ودفنوهما في مقام السيدة زينب (ع) وبعد ذلك احتل الاتراك المنطقة كلها ما عدا اليمن التي بقيت خارج نطاق حكمهم وحاربوها بقصد احتلالها لكنها استعصت عليهم مدة عشرين سنة لم يستطيعوا التقدم عن الشاطىء قيد أنملة. (١)

شبيب باشا وقصته مع جدنا :

حدثني أبي، قال :«عند عودة شبيب باشا الاسعد من اسطنبول بعد غياب دام ٢٢ عاما، احتفل بقدومه أهله ومريدوه فنصبوا لاستقباله سرادقا وخياما في سهل عدلون حيث توافد الكثيرون من علماء وأدباء وشعراء ووجهاء وقامت بالفعل سوق عكاظ حقيقية. . . لكننا لا نشك في انها كانت سوقا للمتشا عرين الذين يجيدون (مسح الجوخ وحرق البخور على أقدام الباشوات).

---

(١) عن مذكرات مخطوطة للمرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين موجودة في حوزة ابنه الاكبر الدكتور محمد في الزرارية .

«كان بين الوافدين والدنا السيد جواد شرف الدين الذي كان ذا حظوة كبيرة لدى كل من الاخوين المتخاصمين ناصيف باشا وشبيب باشا وكان هذا الوالد نديما جيدا يحفظ الشعر والامثال والنكات والطرائف فيضفي على مجالس البكوات جوا من المرح والاسترخاء، مخففا بذلك من التزمت الذي يصطنعه الباشوات والبكوات عادة لاشاعة الرهبة على الحاضرين. . .

بادر شبيب باشا الوالد اي جدنا وكان المجلس غاصا بكبار القوم والشعراء طالبا منه أن يذكر له قصيدة «فلان» من الزرارية علما منه بأن الوالد (جدنا) يحفظها جيدا لطرافتها ان لم نقل لسخافتها. . .

لكن الوالد رفض معتذرا لأن هذه القصيدة ليس فيها من الشعر شيء ولا حتي من النظم وهي أشبه ما تكون بما يسمى «جعيدبة» . . . قالها صاحبها ظنا منه بأنه «شاعر» ثم إنها قرزمة لا تليق بمجلس كهذا. . .

الا أن الباشا أصر مكررا طلبه قائلا : من أجل هذا أطلبها. . . فبدأ الوالد مختصرا منها ما أمكن. وكان مطلعها بالعامية :

سير يا مكتـــوب سيـــــر	عالزرارية العلي المعتمـــــد
بوادي حجير صاير لك ربط	في الآثار والطلـــلُ !!
يا عيـن يا عيـن الحبوبـــــة	قديش، قديش حقـــك
حقك ميـــة وخمسيـــــن	تنفزر عالود الليلـــة !!!

وانفزرت خواصر المستمعين وطار طربوش الباشا!!!

وحتى الآن لاندري ـ نحن الاحفاد ـ ماذا كان « الشاعر» العملاق يقصد. . . ولا غاية الباشا من اصراره. .

فروعهم : من فروع آل علي الصغير (الاسعد) شخصية شعبية برزت على مسرح الاحداث في اوائل العشرينات من هذا القرن، وبعد دخول فرنسا منتدبة

والاصح محتلة لهذا الجبل، ثم لكامل لبنان وسوريا، وبعد معركة ميسلون الخالدة وخروج الملك فيصل الاول من دمشق، برز في جبل عامل مقاومون وثائرون بالسلاح ضد هذا الاحتلال ، اشهرهم - إن لم نقل اوحدهم - :

الثائر صادق الحمزة الفاعور (الاسعد) :

- هو صادق الحمزة الفاعور من قرية دبعال قضاء صور. نشأ نشأة متواضعة مع أبوين فقيرين فقدهما باكرا وحين شب تفتحت عيناه على الظلم الطبقي الاجتماعي وزاد من نقمته دخول فرنسا البلاد العاملية لتخضعها وتشرد أعيانها وعلماءها. (ومنهم الامام شرف الدين) واحد انسبائة (أي الفاعور) (كامل بك الاسعد الكبير.) ولتقضي على حلم الاجيال في الوحدة العربية بدءا بسوريا (الحالية) والعراق وفلسطين وبعض لبنان. . فما العمل وهو الشاب الغيور الأمي؟ لا بد من امتشاق السلاح وسيلة وحيدة لأمثاله. فكان أن ألف فرقة من عشرين رجلا، ثم نمت حتى بلغت١٥٠ رجلا في وائل العشرينات. بدأت تحركاته ضد الفرنسيين بشكل سليم. كان يطوف في قرى جبل عامل رافعا على مآذنها العلم السوري (كما ذكر الشيخ احمد رضا) لكن بعض رجاله انصرف الى السلب والنهب والتسبب باحراق بعض القرى المسيحيه كقرية عين إبل وابل السقي، مما اهاب بالامام شرف الدين الى شجب مثل هذه الاعمال قائلا لقائدهم : إنكم تتسببون بالقضاء على استقلال هذا الجبل وتبررون لفرنسا المحتلة اقدامها على احتلال بلادكم بدعوى حماية الاقلية المسيحية وهكذا كان، حين زحفت على جبل عامل فأخضعته وتابعت زحفها باتجاه دمشق لتخرج فيصل الاول منها، لكنه كان قد سبقها وخرج منها ليلتحق بأخيه الامير عبد الله في الأردن ثم الى العراق خاصة بعد أن علم بمقتل يوسف العظمه وتفرق رجاله في ميسلون.



وجه مشرق من وجوه

آل الاسعد في الزرارية

النائب الدكتور سعيد الأسعد :

ولد في الزرارية عام ١٩٢٨. والده المرحوم حسيب بك الأسعد أحد أنجال ناصيف باشا الأسعد حاكم اقليم الشومر أيام العثمانيين، كان حسيب بك الوحيد من بين هؤلاء الانجال الذي تعلم وواصل تحصيله العلمي حتى نال شهادة الحقوق من جامعة دمشق.

أما والدة الدكتور سعيد فهي المرحومة خديجة حسن ضاهر من الزرارية .
ترعرع سعيد ـ إذن ـ في كنف والدين محبين للعلم، معروفين بالتقى والورع. فشب في هذا الجو العائلي المميز البعيد عن الارستقراطية العشائرية بالرغم من كونه ابن بك وحفيد باشا. . . عرف، منذ نعومة اظفاره، بالتواضع والروح الشعبية المحبة التواقة الى العيش بين اهالي بلدته الزرارية، وكم كان يود لو عاش العمر كله مع هؤلاء الطيبين في السراء والضراء. لكن طلب العلم حتى التخصص ثم التخرج طبيبا ثم الدخول في السلك الدبلوماسي سفيرا، كل ذلك حال دون تحقيق أمنيته الغالية تلك.

حتى إذا بلغ سن التقاعد سارع للعودة الى مرتع صباه وموطن آبائه واجداده

الزرارية، وسكن فيها ولو بصورة منقطعة، محققا بذلك تلك الامنية التي راودته منذ صباه.

تأثير الامومة : من المؤكد ان والدته كانت اشد تأثيرا على نفسيته وأحاسيسه من أبيه . . فقد كانت رحمها الله تحيطه بحدب أومي منقطع النظير. وكونها من عامة الشعب فقد بثت فيه روح التواضع وعلمته الا ينظر الى رفاقه ولداته من فوق. . [١] لهذا، رأيناه، وأنا من الذين رأوه، أقرب الى الشعب، كل الشعب، منه الى بيئة أبيه الارستوقراطية رغم أن المغفور له والده لم يكن متأثرا كثيرا بتلك البيئة. . .

تأثير الاجداد : أخذ الدكتور سعيد، بفعل عامل الوراثة، من اجداده الاعلين : حمد البيك، والشيخ ناصيف النصار، ثم الشيخ عباس المحمد الوائلي (الاسعد) وكامل بك الاول، أخذ فروسيتهم ونخوتهم ووطنيتهم الصافية وتقدمهم الصفوف لرد الغزاة عن جبل عامل، كما فعل الشيخ ناصيف في معاركه مع الجزار.

كما أخذ عنهم تقربهم من الشعب وعلماء الدين. . فلا الباشوية اغرتهم فتقوقعوا تحتها، ولا الباكوية ولا المشيخة، ولو ارادوا ذلك لاستطاعوا وهم الحاكمون. . .

انتماؤه : انتمى الدكتور سعيد، باصالته العربية، الى شمائل هؤلاء الجدود

---

(١) يروي مجايلو والدة الدكتور سعيد بانها كانت مضطهدة من قبل عشيره جده لان هذه العشيرة كانت ناقمة على ابيه لانه تزوج من عامة الشعب . لذلك كانت والدته تنتقل به من بيت الى بيت دفعا لأذى قد يلحق بأبنها وبها من قبلهم . .

الاوائل، لا الى اشخاصهم ومراكزهم وطبقيتهم. . فلم يجر في عروقه «الدم الأزرق» الا بمقدار ما تضخه الاصول في الفروع. . . وجرت فيها بدلا منه دماء حمراء فائرة ثائرة ذات نسغ شعبي وحيوية ديموقراطية متألقة. . لذلك آثر لقب الدكتور العلمي المكتسب على لقب «البيك» الموروث. . هذا اللقب لم يعد يسمن في هذه الايام، ولا يغني من جوع. . فبالرغم من أن «الباكوية» تحيط به من كل جانب، فقد خرج من الشرنقة سليما معافى. .

كفاءاته : يجسد الدكتور سعيد، دون أن نبالغ ، كفاءات علميه، وشمائل انسانية قل نظيرها في أبناء طبقته، فمن سجايا عربية اصيلة، الى تطلعات وطنية طموحة، الى محبة للشعب، كل الشعب، لا اصطناع فيها ولا تكاذب ، الى غنى في التجارب الدبلوماسية والسياسية، والتحسس بعمق بمشاعر الشعب لاسيما الطبقة المسحوقة منه. . فهو بهذا ـ اذن ـ نسيج وحده حقا. . .

وها هو يبرز، بكل ذلك، لا كزعيم اقطاعي عشائري، وحاشاه، بل كرمز من رموز التغيير والتحرير في هذا البلد لبنان، وهذه المنطقة الغالية المقاومة فيه : جبل عامل.

يبرز ولسان حاله يقول :

لسنا وان احسابنا كرمت ... يوما على الاحساب نتكل

نبني كما كانت اوائلنـــا ... تبني ونفعل فوق ما فعلوا

وها هي بلدته ومسقط رأسه الزرارية تسارع الى الاعتراف له بكل هذا، فبادلته حبا بحب وتقديرا بتقدير، كما اعترف له العامليون الشرفاء من المتنورين والمثقفين فمنحوه شرف تمثيلهم في البرلمان اللبناني الجديد يوم اعطوه في السادس من أيلول ١٩٩٢ اصواتهم بكثافة ملحوظة. .

ويقيني انهم سيجدون فيه وفي امثاله الصوت الجريء المطالب بحقوق الطبقات الشعبية التي طالما اهملها محتكرو تمثيلها في الماضي القريب والبعيد..

عرفت الدكتور سعيد شخصيا، ولو لماما، وسمعت عن ذكائه الخارق واخلاقه المميزة ومحبته للزرارية واهلها وللبنان والعرب الشيء الكثير. وسواء كان سفيرا، أو اداريا كبيرا، ثم متقاعدا ثم نائبا فإن حبه للخدمة العامة والخاصة والاهتمام بشؤون الشعب وشجونه ركائز ثابتة متألقة في مزاياه، مضيئة في كيانه.

لكل هذا فإن لبنان عامة وجبل عامل خاصة ينتظران منه السعي الدؤوب لتنفيذ مهمات كبيرة وكثيرة على صعيد الإنماء والإحياء ودعم المقاومة الوطنية الشريفة ليسهم مع الأوفياء في تخفيف آلام الاهمال والحرمان عن هذا الجبل العاملي الاشم الذي ما بخل ابناؤه يوما بالعطاء والبذل حتى الشهادة على دروب التضحية ودفع الظلم والتعسف وسحق الاحتلال الاسرائيلي الغاشم.

وبعد، إن الزرارية لتفخر ـ أيما فخر ـ بابنها البار النائب الشعبي الدكتور سعيد (ابي رياض)، وقد عبرت بالصوت الجهير عن هذا الفخر والحب والاعتزاز يوم السادس من ايلول ١٩٩٢ يوم المبايعة.

خدماته سفيرا :

في مقابلة معه ذكر لي سعادته أنه حين كان سفيرا للبنان في المغرب استطاع أن يؤمن ١٦٣ منحة جامعية خصصها للمتفوقين من أبناء فقراء الجنوب ليتابعوا تحصيلهم الجامعي في جامعات المغرب وقد تلقى من الامام السيد موسى الصدر لائحة بأسماء ١٤ متفوقا فحصل لهم كذلك على منح تخصص. كل هذا لم يكن ليحصل عليه، يتابع سعادته، لولا رعاية وعناية وترحيب جلالة الملك الحسن الثاني عاهل المملكة المغربية.

خدماته نائبا : لم يمض على انتخابه نائبا في المجلس النيابي اللبناني سوى بضعة أشهر حتى رأيناه يسعى بصمت الى تأمين مشاريع خدماتية لمنطقته عامة ولبلدته الزرارية خاصة. فقد بدأت الزرارية تحس بأن اسلوبا جديدا بدأ يمارس على صعيد الخدمات والعلاقات العامة والخاصة. فلا يمضي عليه شهر أو أقل حتى تراه بلدته بينها يستمع الى أبنائها ويسجل شكاواهم ومطالبهم محققا ما يستطيعه منها دون أن يعطيهم وعوداً لا يستطيع الوفاء بها. وما يستطيعه ينفذه قبل أن يعلموا بذلك الا بعد التنفيذ. هذا الاسلوب جديد عليهم - كما قال له الأخ المجاهد أبو عماد محمد شريف هاشم - فقد كان « الشَّعر يطلع على لسانهم» من كثرة المطالبة والتردد على الزعماء من نواب المنطقة السابقين. . نعم يجدون عندهم تجاوباً ووعودا ولكن بالكلام الفارغ، يسمعون جعجعة ولا يرون طحينا. . كان هذا دأب الاهالي في الزرارية وغير الزرارية الى أن جاء الدكتور سعيد وأمثاله من النواب المخلصين الذين يرون في النيابة عن الشعب تكليفا لا تشريفا وفي الشعب مرقاة لخدمته لا مطية لخدمتهم وخدمة مآربهم ومراتبهم. . هذا غيض من فيض الدكتور سعيد وخدماته ومشاريعه المستقبلية التي نرجو من الله ان يتمكن من انجازها .

الدكتور سعيد متزوج من السيدة بهيجة الصلح كريمة الزعيم اللبناني العربي الشهير رياض بك الصلح : وله منها أربعة أولاد ولدان وبنتان هم : المهندس رياض وحسن ونائلة وديالا. وله عديلان اميران : أخُ الملك الحسن الثاني الامير عبدالله زوج السيدة لمياء الصلح، والامير طلال بن عبد العزيز زوج السيدة منى الصلح.

الألقاب والمراتب والعادات عند الحكام الاقطاعيين أيام العثمانيين :

ـ كانت الاسر الحاكمة في لبنان عامة وجبل عامل خاصة تنقسم الى عشائر وطبقات تختلف عاداتها ومعاملاتها باختلاف مراتبها.

فالطبقة الاولى : مؤلفة من الامراء، وكان الحكم بأيديهم بتفويض وتلزيم من الباب العالي. ويأتون بعد الولاة مباشرة «بفرمان» من هذا الباب . . .

ـ الطبقة الثانية : المقدمون.

ـ الطبقة الثالثة : المشايخ. وقد استبدل لقب شيخ بلقب بك في العهود الاقطاعية المتأخرة. .

ـ الطبقة الرابعة : كالأعيان الذين يحاولون أن يتقربوا من تلك الطبقات وصولا الى الحصول على بعض الامتيازات، وهي طبقات كبار التجار والسماسرة والازلام ، لكن القابهم ـ إذا حصلوا عليها ـ لا تتعدى لقب الافندي أو الخواجه

عادات الطبقات الاقطاعية العليا :

كان رجال هذه الطبقات يدعون أنهم من اسر عريقة في أنسابها ينتهون بها الى القبائل العربية التي حكمت قبل الاسلام والى قريش التي انجبت الرسول الاعظم (ص). لهذا حرصت هذه الطبقة على التمسك الشديد بأنسابها المزعومة، وبأنسبائها واصهارها، فشاع فيهم عرف أصبح بمثابة قانون وهوألا يتزوجوا الا من بنات أسر تماثلهم نسبا وشرفا وصحة ارومة. .

وهكذا حصروا الزواج واحتكروه احتكار السلع. . [1] وامتنعوا عن تزويج

---

(١) من كتاب : العادات والتقاليد في العهود الاقطاعية للمؤرخ الشيخ علي الزين ط ١ ص٦١ الناشر دار الكتاب اللبناني ـ دار الكتاب المصري ١٩٧٧

من ليس من طبقتهم أو يماثلها. . [1] أو ممن يليهم من طبقة المقدمين والمشايخ. .

«كانوا يعدون من اسباب السقوط (والهوان) أن يشذ ابن اسرة من أسر الأمراء أو المقدمين او المشايخ فيصهر الى غير طبقته. .» [2] لهذا جاء دم ذراريهم ازرق (ماصلا. .) وجاءت دماء ابناء واحفاد الذين تزوجوا من عامة الشعب احمر قانيا. . . وهذه صفة ثانية لدم الطبقات الشعبية الكادحة.

آل شرف الدين:

ـ هم من قبيلة بني زهرة، يرقى نسبهم الى اسحق المؤتمن ابن الامام جعفر الصادق (ع) وقد أكد لي العلامة النسابة السيد عبد الله نجل الامام السيد عبد الحسين شرف الدين أن بني زهرة هؤلاء كانوا في حلب من علمائها المجتهدين وفقهائها البارزين ومن بيوتات العلم والوطنية فيها. نبغ منهم على صعيد الوطنية والجهاد في سبيل وحدة العرب والاسلام الثائر المعروف السيد عبد الرحمن الكواكبي[3] والسيد عبد الحميد الزهراوي نائب حمص في مجلس (المبعوثان) التركي.

---

(١) ولهذا جاءت ذراريهم في اغلبيتها معاقة او غير سليمة الجسم والعقل. كما يؤكد ذلك علماء واطباء التشريح والطب النفسي.

(٢) الخطط ج ١ ص ٣٠١

(٣) هذا الثائر الاصلاحي الكبير كان في مستوى واحد مع الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن. من مؤلفاته الاصلاحية كتاب «ام القرى»

وعند الحديث عن النكبات التي حلت بالشيعة في العهد التركي يجمع المؤرخون على أن أكبر نكبة حلت بهم كانت أيام السلطان سليم الاول : «هذا العاتي الجبار الذي أثار حربا شعواء على عباس الصفوي سلطان إيران فذبح اربعة واربعين الفا من الشيعة لا لشيء الا لانهم من الشيعة الامامية. . . وامتدت شروره الى مدينة حلب، وكان معظم اهلها من الشيعة فقتل منهم عددا كبيرا فهاجر بعضهم ومنهم افراد من بني زهره، الى جبل عامل، وتفرع منهم آل بدر الدين وآل شرف الدين فهما إذن فرعا شجرة واحدة» وفي نسب قريب ومفصل وجده ابن عمنا الدكتور محمد بين اوراق المرحوم والده عمنا السيد حسن جواد شرف الدين، جاء ما يلي :

«يمتد أصل العائلة على ما اعرفه الى جدنا الاعلى شرف الدين واخيه شجاع الدين اللذين كانا يسكنان الشام (دمشق). انفرعت بهما العائلة الى فرعين : فرع شرف الدين وفرع شجاع الدين. وكنت قبل سفري الى افريقيا أسمع من والدتي رحمها الله ان لنا أقارب من العصب في الشام. وكانوا يتبادلون الزيارات حتى ان والدتي حضرت عرس أحدهم ويدعى السيد حسن شجاع

= الذي يدعو فيه إلى امبراطورية اسلامية عاصمتها مكة المكرمة ، والثورية كتاب : طبائع الاستبداد وقد نشرته في كتيب مؤسسة قناة السويس بمصر وغيرهم من المؤلفات. قضى عليه الاتراك بأن دسوا له السم في فنجان قهوة أو كأس حليب (عن النسابة القاضي السيد عبد الله شرف الدين).

(١) له كتاب : خديجة ام المؤمنين . كان في عداد من شنقهم جمال السفاح في سوريا سنة ١٩١٦ م . المصدر نفسه .

الدين، وبعد عودتي من افريقيا (دكار ـ السنغال (٣٥ ـ ٣٦) زرت العتبات المقدسة في العراق [١] وعند العودة عرجت على دمشق فزرت مقام السيدة زينب(ع) ثم ذهبت الى السوق لشراء بعض الحاجيات ودخلت محل التاجر محمد علي صندوق في سوق الحميدية ورأيت عنده شيخا معمرا فجلست بجانبه وسألته عن عائلة شجاع الدين في حي الامين فرد بالايجاب. فسألته عن حسن شجاع الدين فقال لي انه يعرفه لكنه توفي منذ مدة بحادث سيارة، وان له اربعة ابناء منهم عباس شجاع الدين ويملك مطعما يدعى مطعم الجندول يقع قريبا من وزارة الزراعة. فاتصلت به هاتفيا وتم بيننا اللقاء في مطعمه. تجاذبنا أطراف الحديث ودعاني الى بيته ليعرفني بزوجته وهي من آل مرتضى وابنه فاروق. . الخ. . »

أما سبب وجود هذا البيت من آل شرف الدين في الزرارية وهو بيت جدنا السيد محمد حسن شرف الدين وكان ذلك ما بين عامي ١٨٠٠ م و١٨٦٠م. فيعود في الاصل الى تفرق الشيعة وهجرتهم المتكررة اذ كان لهم دولتان : الاولى في شرق العراق وديار بكر وهي دولة البويهيين والثانية دولة الحمدانيين في حلب. وبفعل الغزوات والحروب وخاصة غزوة التتار والمغول تفرق الشيعة. منهم من بقي في أطراف حلب ونواحيها ومنهم من سكن الشام (دمشق) في حي كان

---

(١) معلوم لدى القاصي والداني ان الذهاب الى العتبات المقدسة في العراق وايران يسمى عند الشيعة الامامية زيارة وليس حجا كما يقول احد الآباء اليسوعيين الفرنسيين لا مانس انظر كتابه : الاسلام L' ISLAM فمن اين جاء بهذه المعلومات ولماذا ؟ الغاية معروفة لا تحتاج الى توضيح . المؤلف .

يدعى حي الخراب وبعد سكنهم فيه سمي حي(الارفاض). . [1] وبفعل هذه المضايقات رحل الكثيرون منهم الى دار الامان اعني الى جبل عامل حيث تجمع الشيعة من اقاصي البلاد. . . ومن جملتهم جدي لأبي السيد محمد حسن شرف الدين وكذلك جدي لوالدتي الذي جاء من البقاع الغربي من قرية (عين التينة) وسكن في الزرارية وكان له فيها أقارب سبقوه اليها. فتكون من هذا الشتات عائلة بني هاشم في الزرارية ونواحيها. تزوج جدي من كريمة أحد وجهاء آل ياسين في العباسية الذي كان له ابنتان متزوجتان في الزرارية احداهما من طراف الكجك والثانية من أخيه فياض الكجك وكان أن جاءت لزيارتهما شقيقتهما الثالثة فوقع نظر جدي عليها فتقدم لطلب يدها وتزوج منها. لكن هذا الزواج لم يدم طويلا لان جدي دخل في حاشية علي بك الاسعد الذي اعجب بشجاعته واقدامه وحسن حديثه. وكان لعلي بك هذا دارة في الزرارية (أو قل مقر حكم) يمضي فيها فصل الشتاء ويمضي فصل الصيف في قلعة تبنين. فذهب جدي معه ذلك الصيف الى تبنين تاركا زوجته حاملا. ولسوء الحظ وافاه الاجل في تبنين قبل أن يرى ولده الوحيد النور وهو والدنا السيد جواد شرف الدين، تزوج والدي باحدى بنات خؤولته وهي والدتي رحمة هاشم (رحمهما الله)، فانجبت منه كبيرنا محمد واشقاءه يحي(وانا) وصغيرنا حسين وشقيقتينا آمنة

---

(١) او الرافضة وهي فرقة الشيعة الامامية . كان الجهلة من عامة المسلمين يعتبرون صفة الرفض سبة . اما الشافعي فيعتبره فخرا ، معلنا : ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان اني رافضي .

ولطيفة. ولما شب محمد اغراه بالسفر الى افريقيا ابناء خالي وخالتي فترك الدراسة(١) وهاجر معهم الى دكار (السنغال) وكان رحمه الله معيلنا الوحيد ونحن صغار بعد وفاة والدي في سن مبكرة (٤٥ سنة فقط) وقد عرف اخي بالذوق الادبي واشتهر بالبيان والبديع والعروض وقرض الشعر وحسن الخط.

وحين عاد عام ١٩١١ مع أبناء الخالة استأجروا مطحنة ناصيف باشا الاسعد على الليطاني والمعروفة بمطحنة المغيرية (ذكرناها سابقا)بقيمة ٤٠٠ ليرة ذهبا. فاصلحوها حتى اصبحت تلبي حاجات البلدة وجوارها. ولكن هذا «النعيم» لم يدم طويلا إذ دخلت تركيا الحرب سنة ١٩١٥ ضد الحلفاء واجبر أخي على الذهاب للخدمة العسكرية (السوقيات أو سفر برلك) ورفضوا أخذ البدل منه (٢) فحارب مع الجيش التركي في أرمينيا والدردنيل وعاد مع رفاقه الى اسطنبول وفي هذه الأثناء انتشر وباء الكوليرا فمات به». . الخ. . ويتابع عمنا قائلاً

كان لأخي الفضل الأكبر في إنقاذنا من المجاعة بواسطة هذه المطحنة الميمونة. وقد ذكرنا أن صاحبها ناصيف باشا نفسه اضطر تحت وطأة الحاجة والمجاعة الى الذهاب بنفسه الى مطحنته ليحصل على بعض الدقيق. . . »

---

(١) كان ابي قد ادخله مع اخي يحي الى مدرسة السيد حسن يوسف الحبوشي في النبطية . ولما توفي السيد حسن انتقل بهما الى انصار ثم الى بيروت ليتابعا تحصيلهما في مدرسة الشيخ احمد عباس الازهرى والتي لم تكن تضاهيها سوى المدرسة الانجيلية يومذاك الجامعة الاميركية اليوم .

(٢) كانت قيمة البدل المفروض من قبل السلطات العسكرية التركية ٥٠ ليرة عثمانية ذهبا وكان هذا البدل لا يقبل من الذين تتراوح اعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين ـ المؤلف ـ

آل هاشم :

جاء اسم هشم وهاشم :

اولا : نسبة الى هَشْم وهي قرية من قرى المكارمة بمنطقة نجران في اليمن. ومنهم الجبابرة. كما في سفر التكوين[١].

ثانيا : لقب بهاشم الجد الاعلى للنبي محمد (ص) وهو عمرو العلا بن عبد مناف لكثرة جوده وسخائه وأنه كان« يهشم» الثريد لقومه [٢] ويكرم الضيف. قال الشاعر في مدحه :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

وهشم لغة : كسر الخبز اليابس. وحطم اطراف الاغصان. وهشم : أكرم وعظم[٣] فآل هاشم هم آل النبي وكل من ارتقى بالنسب اليهم في العصور المتأخرة.

وعليه يكون آل هاشم من السادة الاشراف[٤] لحاً وكابرا عن كابر.

---

(١) انظر كتاب : التوراة جاءت من جزيرة العرب ط ٢ ص ٢٣٤ لكمال الصليبي ترجمة عفيف الرزاز .

(٢) محيط المحيط ج ٢ ص ٢١٧٩ وجد النبي عبد المطلب او شيبة الحمد هو ابن هاشم عمرو العلا بن عبد مناف وانظر ـ اعيان الشيعة ج ٢ ص ٣

(٣) محيط المحيط . ج ٢ ص ٢١٧٩ .

(٤) وهناك فرع من آل هاشم سكنوا جرود كسروان وتمسحوا وبالتحديد في العاقورة ومما =

وأبناء خؤولتنا من آل هاشم في الزرارية هم من هذا الفرع الشريف.

من أين جاؤوا : بعد انهيار مأرب نزحت قبيلتهم الى داخل الحجاز ثم الى اطراف الشام وفي الازمنة المتأخرة سكن فرع من فروعهم مشغرة وعين التينة في البقاع الغربي اللبناني. ثم تنقل بعضهم في السواحل اللبنانية وفي كسروان والجبل وتوزعوا بين الساحل والجبل. في الساحل في الزرارية وفي كسروان في العاقورة.

يقول المرحوم عمنا عن بني خؤولته هؤلاء ما يلي :

«وكذلك جدي ابو والدتي(رحمه الله) جاء من البقاع الغربي من قرية تدعى عين التينة وسكن في الزرارية وكان له إقارب سبقوه اليها فتكون من هذا الشتات عائلة بني هاشم في الزرارية ونواحيها». . الى أن يقول في مكان آخر عن بعض كبارهم :«وعاد أخي أي محمد من افريقيا هو وخاله السيد سليمان هاشم وأبناء خاله السيد حسين علي هاشم وأخيه السيد محمد علي هاشم ومعهم ثروة لا بأس بها. . . الخ. . . » وعائلة هاشم ـ اليوم ـ في الزرارية تعتبر من العائلات المجاهدة والعصامية في آن، فقد قدمت العديد من الشهداء والقادة العسكريين(في حركة أمل) كنعمة هاشم واخيه احمد، وفي مجال العلم والتخصص برز الدكتور علي هاشم الذي استطاع والده (وهوالجمّال) أن يعلمه ليتخرج طبيبا لامعا. . .

=يثبت انهم كانوا مسلمين، العادات الاسلامية ونصف الحجاب والنقوش الاسلامية في بيوتهم التي لا تزال تلازمهم وتميزهم . ومنهم الوزير السابق جوزيف الهاشم الأديب والكاتب ـ المؤلف ـ

آل ارسلان :

كلمة ارسلان غير عربية، وهي فارسية تعني الاسد.

سمي بها جد طائفة من الامراء التنوخيين الدروز في جبل لبنان. كما سمي غيره من الأمراء المتحدرين من أصول عربية باسماء اعجمية مثل قرقماز وسواه. وفي هذا ـ كما ترى ـ اخلال في معرفة النسب وضعف في التقاليد.

سرى هذا الاسم(ارسلان) الى هذه القبيلة العربية التنوخية أيام كانت في جوار الفرس اذ انها قدمت مما بين النهرين وسكنت جبلا في ظاهر المعرة يقال له الجبل الاعلى، أشهر امرائهم أيام الخليفة الثاني الامير عون بن المنذر المغرور ابن ماء السماء ابن الملك النعمان ابي قابوس. كان فارسا مغوارا قتل في معركة أجنادين من جرح اصابه. وكذلك كان أبنه مسعود[1] كما كان شاعرا ولبيبا عاقلا.

من ذريتهم من جاء بعد الفتح الى بيروت. وقرأ بعضهم على الامام الاوزاعي. ثم استقر فرع منهم في الشويفات كالامير مسعود ابن الامير ارسلان[2] ونزح آخرون الى اللجون من أعمال فلسطين. ثم الى مصر وعاد بعضهم وسكن عين التينة في البقاع الغربي. من اعلامهم الكبار الامير شكيب ارسلان في العصر

---

(١) ذخائر العرب ط ١٨٩٦ ص ١٦٦ لمؤلفه عزتلو ابراهيم بك الاسود بعبدا ـ لبنان المطبعة العثمانية .

(٢) توفي مسعود سنة ٤٥ هـ ـ المصدر نفسه .

الحديث. (١٨٦٩ - ١٩٥١) لقب بأمير البيان إذ كان لغويا متمكنا وناقدا ومحقق تراث الى جانب كونه من دعاة الوحدة العربية والوحدة الاسلامية ومجاهدا كبيرا، اثنى عليه واعتز بصداقته شوقي وبشارة الخوري، الاخطل الصغير ورثاه خليل مطران وعلي محمود طه ومحمود سامي البارودي وغيرهم. وكذلك الامير أمين ارسلان الوطني واللغوي المعروف. (١)

وفي سياق حديثه عن امراء لبنان يقول كمال الصليبي (في كتابه : بيت بمنازل كثيرة صفحة ١٥٤) : «اقام العرب التنوخيون اسس الامارة الدرزية في جبال الشوف، ويوضح الشدياق أن هؤلاء العرب التنوخيين ينحدرون من سلالة ملوك الحيرة المعروفين بالمناذرة. . . ووصل هؤلاء العرب التنوخيون اولا الى منطقة الغرب في اراضي بيروت الداخلية كمستوطنين مسلحين عسكريين من العرب يعملون لحساب خلفاء بغداد العباسيين الاوائل، وكان احدهم يسمى : ارسلان، وقد أصبح ارسلان هذا مؤسسا للأسرة الارسلانية التي استمرت في

---

(١) كان الامير شكيب عاملي الهوى معجبا بخصائص اهل جبل عامل وشمائلهم وشاعريتهم يقول امير البيان :

لم اجد اصدق من قريض ابناء عاملة صورة للشعر العربي الصميم ، ولا أخلص منه مشرقا في نسب اللغة التي امتازت بها سعد وثقيف وسفلى هوازن وعليا تميم . ولقد اراني اشرب ولا ارتوي حتى اذا وقعت في يدي بعض قصائد من نظم العامليين شبعت كبدي ريا وامتلأ دماغي بيانًا عبقريا . نعم هو الشعر الذي ينبغي ان يبقى في العرب مرفوعا شعاره ، مضيئا مناره ، زاهرا نواره ، مهتزة اوتاره ، حتى لا تتنكر اللغة على اهلها ، ولا يختلط هجينها بعتيقها ، ونكسهابفحلها . . . الخ (العرفان ١٤/ ٤٥ والحركة الفكرية والادبيه في جبل عامل للدكتور محمد كاظم مكي . ط ٢ دار الاندلس - بيروت - .

السيطرة على الغرب(غرب بيروت) والمناطق المجاورة حتى العام ١١١٠ م. عندما استولى الفرنجة (الصلبيون) على مدينة(بيروت) واعملوا السيف في رقاب أهلها، واستقر من بقي على قيد الحياة من آل ارسلان في بلدة الشويفات. . . وفي العام ١٨٤٣ عاد الارسلانيون الى الظهور على المسرح السياسي عندما عين بعضهم على قائمقامية الدروز. . . بعد انقطاع دام سبعة قرون. . . ويعتبر الشدياق هذه العودة انبعاثا لولايتهم الاولى الخ. . .».

فروعهم في القرن الحالي : من هؤلاء الارسلانيين فرع تشيع وسكن بلدة الطيبة ودير سريان في الجنوب اللبناني، ثم نزح منهم افخاذ باتجاه الساحل العاملي الاوسط، وسكنوا عدة قرى ومنها قرية الزرارية. عائلة واحدة استوطنت الزرارية في أواخر القرن الماضي ومنها صهرنا المرحوم محمد رسلان (مخففة من ارسلان) الذي كان متذوقاً للادب العربي وتاريخ العرب، مكتفياً باقتناء كتب التراث حتى في مغتربه كان يتعاطى تجارة الكتب الى جانب تجارة الكولا وغيرها.

كان لوالده ثلاثة اخوة هم علي وحسن واحمد.

يقول رضا النجل الأكبر لصهرنا :«جاء والد جدي من بلدة الطيبة واستوطن بلدة الزرارية وتزوج فيها ورزق من الاولاد جدي واخوته الثلاثة الذكور. أما جدي فقد رزق بوالدي محمد وعباس ويوسف وحسن وامه تدعى خديجة ارسلان واخو جدي علي لم يرزق سوى ثلاث بنات، وقد تزوجت إحداهن من حسين خشمان، والثانية من محمد خطيب والثالثة من احمد خطيب (والخطيب فرع من آل زرقط) : أما والدي الذي تزوج من السيدة آمنة جواد شرف الدين فقد

رزق منها ثلاثة اولاد هم : رضا، ورياض وعلي وثلاث شقيقات هن : مريم وعلية ونجلاء». (١)

الاعلام من آل شرف الدين في الزرارية :

السيد حسن جواد شرف الدين :

ولد في الزرارية عام ١٨٩٨ من أبوين كريمين تعهداه مع اشقائه محمد ويحيى وحسين وشقيقتيه آمنة ولطيفة بتربية اسلامية مثلى.

كان أخوه الأكبر محمد يؤثره بعطف وحنان خاصين لا سيما بعد وفاة الوالد في سن مبكرة (٤٥ عاما) كان حسن لايزال طفلا حين سبقه شقيقاه محمد ويحيى الى مدرسة السيد حسن يوسف الحبوشي في النبطية.

«بعد عام من دخولهما هذه المدرسة برز الاخ الاكبر محمد(ابو عباس) في العروض والبيان وفي نظم الشعر وجمال الخط(بالقلم الغزار ثم بالريشة). وامتاز يحيى برواية الشعر ونظمه على اقلال وحفظ القرآن الكريم والحديث المنقول عن الائمة الاثني عشر.

---

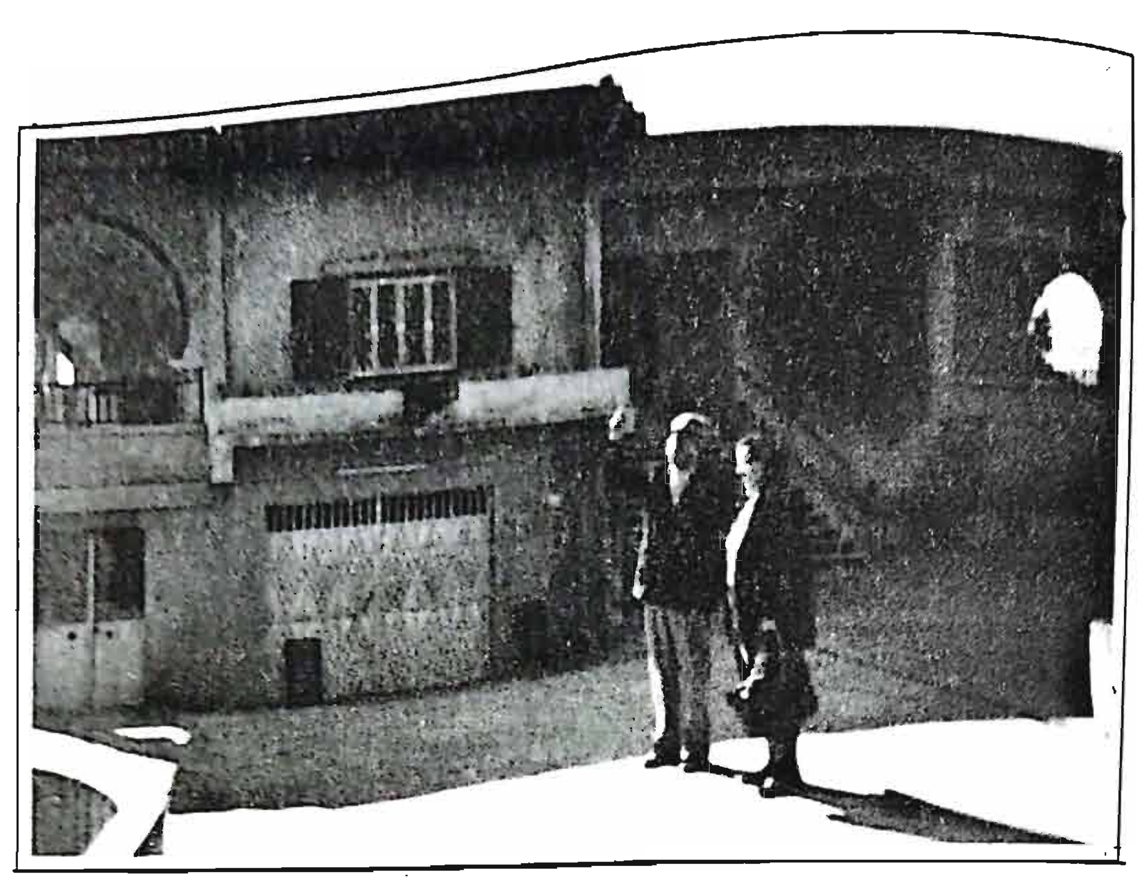
(١) السيد رضا رسلان (ابن عمتنا) مغترب عائد . متذوق للادب . معتز بتاريخ اسرته من طرفيها وبتاريخ امته العربية . اما شقيقه الثاني رياض (ابو نادر) فقد اغترب الى الكويت منذ اكثر من ثلاثين عاما مارس في المستشفى الاميري هناك مهنة التمريض وبرز فيها ، مكافحا من اجل تأمين العيش الكريم له ولاسرته . وكذلك فعل الشقيق الاصغر علي المغترب في ابيدجان.



دارة المرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين في الزرارية

و«بعد أن توفي مؤسس المدرسة المذكورة انتقل بهما والدي(يتابع عمنا) الى مدرسة انصار فدرسا على يد السيد حسين ابراهيم. وبعد وفاة هذا الأخير انتقل أبي بهما الى بيروت وادخلهما مدرسة الشيخ أحمد عباس (الازهري).

بعد التحصيل العلمي عاد اخواي الى الزرارية حيث بدأ ابناء خالي وخالتي يحبذون لأخي الاكبر محمد فكرة السفر الي افريقيا فسافر معهم الى هناك، واثناء وجوده في داكار (السنغال) توفي والدنا عن عمر لا يتجاوز الخامسة والاربعين، كما توفي ابن أخي عباس وهو طفل، إذ كان أخي قد تزوج قبل سفره من فاطمة وهبي وهي شقيقة زوجة أخي الثاني يحيى آمنة وهبي من بلدة انصار المجاورة للزرارية.



في رحاب دارة المرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين
يسكنها الآن كبير أنجاله محمد

عاد أخي محمد من سفره بعد ثلاث سنوات (عام ١٩١١) مع ابناء خاله وخالته. ومما عجل في عودته وفاة والدنا ووفاة ولده الوحيد عباس، ليكون على مقربة منا نحن الصغار يكلأنا بعطفه ورعايته، واثناء ذلك(أي قبيل الحرب العالمية الاولى) نشطت الجمعيات الوطنية في لبنان وسوريا وباريس وراح مؤسسوها يطالبون بالانفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية فانخرط فيها الكثيرون وحبذها آخرون طُلبوا الى عاليه التحقيق. فاعتقل من اعتقل ثم شنق. وكان أخي من بين الذين ثبتت لجمان السفاح براءتهم. فاطلق سراحهم، وعاد أخي مع ابناء خاله وخالته الى الزرارية واستأجروا مطحنة المغيرية من مالكها ناصيف باشا الاسعد لاربع سنوات على طريقة الاستثمار بقيمة اربعماية ليرة ذهبية. ومكث أخي معنا (يتابع عمنا) ولكن ذلك لم يدم طويلا، اذ دخلت تركيا الحرب سنة ١٩١٥ ضد

الحلفاء وبدأ التجنيد الاجباري ورفض البدل من أخي محمد[1] لان قانون التجنيد الاجباري التركي كان يمنع أخذ البدل من الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و٢٥ سنة. وكان لا بد مما ليس منه بد وسيق أخي مع رفاقه الى الجيش التركي في ارمينيا والدردنيل فحاربوا معه حربا لا ناقة لهم فيها ولا جمل ثم عاد مع بعض الرفاق اللبنانيين الى اسطنبول.

ثالثة الاثافي : واثناء ذلك انتشر في تلك الاصقاع وباء الهواء الاصفر (الكوليرا) فمات بذلك الوباء رحمه الله، تاركا ايانا وراءه لا معيل لنا سوى ما يأتينا من رديات تلك المطحنة ولولاها لهكلنا جوعا. وهكذا انقذنا هذا الأخ في حياته وبعد وفاته كما انقذت المطحنة الكثيرين من ابناء الزرارية. حتى مالكها ناصيف باشا الاسعد كان يضطر بعد استفحال القحط بسبب الجراد والمجاعة الى النزول بنفسه الى المطحنة ليأخذ من رديّاتها ما يقيم به اوده. . .[2]

هم السابقون دائما : ويتابع عمنا في مخطوطته قائلا : اجتمعنا مرة ببعض شبان الزرارية وكانوا يقولون لي ان جيلنا لم يصنع لهم شيئا (يقصدون : في مجال الجهاد والوحدة والعمل الوطني). وقد اجبتهم واجيبهم : بأننا نحن الذين قمنا بثورة جبل عامل من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢١. لم يكن قاده هذه الثورة متحدين بادىء الامر ولا منضبطين. . . فارسل الملك فيصل الاول مبعوثين الى جبل عامل، احدهما ضابط في الجيش العربي وهو أحمد مريود، والثاني قائد

---

(١) كان مقدار البدل خمسين ليرة عثمانية ذهبية كما تقدم .

(٢) نقلا عن مخطوطة عمنا التي املاها على حفيده حسن والموجودة في حوزة نجله الاكبر الدكتور محمد في الزرارية .

من قواد الثورة السورية هو علي حقي، وقالا للبيك (كامل بك الاسعد) ان الملك فيصل يأمر باحتلال صور ومرجعيون لاعاقة الفرنسيين عن مهاجمة الشام. فبادر كامل بك الى الدعوة لعقد مؤتمر وادي الحجير للتشاور وكان الثوار الذين ينادون بالحرب لا يعون مغبة الامر. . . وكان المرحوم الامام السيد عبد الحسين شرف الدين يلوم الثوار ويقول لهم : ستتسببون باحتلال بلادكم من قبل الفرنسيين. وقرر المؤتمرون أخيرا ارسال وفد الى الشام واستصدار أمر من الملك فيصل بالحرب، وقبل أن ينفض المؤتمر كان جواسيس الفرنسيين يبلغون عن كل شاردة وواردة. ذهب محمد الاحمد بزي فأحرق عين أبل. وكان ذلك السبب الاوحد والذريعة لدخول الجيش الفرنسي الى منطقة جبل عامل فساقوا امامهم الزعماء الذين كانوا في المؤتمر ما عدا الامام شرف الدين الذي احرق بيته ونهبت مكتبته وكان قد هرب الى مصر بأعجوبة وكذلك كامل بك احرقت داره ونهبت ولجأ الي اربد شرقي الاردن كما هدمت بيوت زعماء كثيرين من جبل عامل وشرد اهلها وفرضت الحكومة الفرنسية خمسمائة الف ليرة ذهبية على أهل جبل عامل فجمع ثلاثة اضعاف ذلك المبلغ كما فرضت على كل بلدة مقدارا من السلاح حتى لم يبق قطعة واحدة في ايدي السكان. وانتهت هذه المأساة باحتلال جبل عامل.

وتابع الفرنسيون طريقهم نحو الشام لاحتلاها، وكان يوسف بك العظمة على رأس جيش من المتطوعين وقابل الفرنسيين في ميسلون، ولكن قلة العدة والعتاد أدت الى خسارة المعركة. لكنه ظل يقاوم حتى قتل فيها برصاصة من الخلف وبذلك دخل الفرنسيون الشام (دمشق) التي انسحب منها الملك فيصل والتجأ الى أخيه الامير عبد الله في الاردن وابتدأت الثورة ضد الفرنسيين في سوريا وفي جبل عامل وفي جبال العلويين بقيادة الدكتور عبد الرحمن شهبندر،

وفي حلب وجهاتها بقيادة ابراهيم هنانو. وكان الشيخ صالح العلي في جبال العلويين. كما أن العراق ثارت ضد الانكليز من عام ١٩١٩ حتى العام ١٩٢٥ وكبدهم خسائركبيرة، مما اضطرهم الى الاذعان وتنصيب الملك فيصل ملكا على العراق.

فأخذ يساير القبائل ويفاوضهم حتى ائتمروا بأمره، وبقي يناضل في المؤتمرات الدولية حتى عام ١٩٣٠ الى أن نالت العراق استقلالها.

ثم جاء دور ثورة فلسطين في الثلاثينات. وكنا نحن الذين يقولون عنا (في هذه الايام) اننا لم نصنع شيئا، نغذي هذه الثورة بجميع المجالات والميادين سواء كنا في المهجر أو في الوطن. وكثيرا ما كان ذلك يكلفنا السجن أو النفي، أو القتل، ومع ذلك بقينا نغامر ونغامر حتى وقعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ فهرب الشبان الى اوروبا وخاصة الى المانيا. منهم من بقي حيا ومنهم من مات. واني لم ازل أذكر اسماءهم، لأننا كنا نرسل لهم معونات من افريقيا (داكار ـ سنغال) اذكر منهم كامل مروه واكرم زعيتر وكمال الطويل وعزت دروزة وعارف عبد الرازق قائد الثورة والذي مات في صوفيا في بلغاريا وعادل زعيتر وغيرهم الكثير الكثير من الشباب الحر المناضل. كنا على اتصال دائم بهم حتى احتلت روسيا بلغاريا فهرب الشباب الى تركيا التي دخلوها خلسة فقبض عليهم وسجنوا مدة من الزمن اتوا بعدها الى لبنان. . . كذلك نحن الذين قمنا بمعركة الاستقلال حيث ضحينا بالكثير الكثير وذلك عام ١٩٤٣ واستطعنا بتفانينا وصبرنا أن ننال ذلك الاستقلال الذي تنعمون به اليوم والذي لم تعرفوا قيمته وتفرقتم في الاحزاب تلهو بكم وتنال من استقلالكم ووحدتكم وانتم عن ذلك ساهون.

ادعو لكم الله من كل قلبي واحساسي ووطنيتي الهداية والتجمع بعد هذا

الشتات والتحزب، وأتمنى أن تصنعوا ما صنعناه وتسيروا على الدرب الذي سلكناه لترفعوا راية هذه البلاد خفاقة بعد كل هذا الذل والعار الذي لحق بنا...»... (١)

بعد هذا الاستطراد يعود عمنا ليتحدث عن بداياته وكيف واين تعلم فيقول : تعلمت القرآن عند الشيخ علي عباس مروة وانتقلت ايضا لعند الشيخ محمود باقر مروه وتعلمت القراءة والكتابة عنده... وكانت الناس كلها في البلدة تنتقل الى البرية (يعني كروم التين) لتمضي فصل الصيف. وكانت كروم التين في ذلك الوقت كثيرة. وكان رفيقنا الذي هو أكبر منا سنا الاستاذ أحمد حجازي كان عند أمه كذلك في التين... فقالت له والدتي (رحمها الله) : علم «هال الاولاد» لانك متعلم أكثر منهم... وبدأ يعلمنا القراءة والكتابة والحساب تحت التينة، فانتقلنا بعد الصيف الى البلدة وبقي مثابرا علي تعليمنا وانضم الينا اولاد كثيرون وكان يعلمنا في بيت أمه وجدته وكانت الاخيرة معلمة فاضلة وصارت تعلمنا ايضا مع حفيدها المذكور... وفتح مدرسة في البلدة، وبقينا في عهدته الى عام ١٩١٤ أي الى أن وقعت الحرب العالمية الاولي(٢).

فيكون عمنا ـ إذن ـ أقل حظا من أخويه الاكبرين محمد ويحيى في تحصيل العلم في مدارس تلك الحقبة نظرا لوفاة والده واخيه الاكبر من جهة

---

(١) انها قولة حق ينطق بها هذا العم المجاهد وصرخةوطنية مخلصة يطلقها في وجه الجيل الحاضر . وان كان قد عمم ثم حصر اسباب هزائمنا بالاحزاب دون استثناء .

ـ المؤلف ـ

(٢) من مذكراته المخطوطة الموجودة في حوزة نجله الاكبر الدكتور محمد في الزرارية

ووقوع الحرب من جهة ثانية. فاضطرته ظروفه القاسية الى الاكتفاء بمدرستي البلدة البدائيتين : مدرسة الشيخ علي عباس مروه ومدرسة الشيخ محمود باقر مروه ثم تتلمذ اخيرا على يدي ابن البادية الشيخ احمد حجازي تحت التينة في الصيف وفي منزل والدة هذا الاخير وجدته في الشتاء .

لكن موهبة نظم الشعر التي ورثها عن آبائه واجداده جعلته يتقن هذه الصناعة في قصائد ينقصها الصقل ولا ينقصها الابداع في كثير مما نظم ولا العاطفة الصادقة وهذه نماذج منها، وفيها غيض من فيض تلك العاطفة الوطنية الجياشة وذلكم الغزل البريء الصادر عن تجربة شبابه ايام الصبا خاصة وهو الشاب الوسيم الفهيم الرقيق الاحساس. . . أما رثاؤه ومناجاته وابتهالاته فقد سكبت في قصائد تعتمد في معانيها وصورها على الفطرة الصافية والبديهة المتحفزة والذاكرة القادرة. . . قصائد تختزن من القديم أكثر بكثير مما تحاكي به الحديث والصور الشعرية المعاصرة كما جاءت في قالبها العامودي مفتقرة الي سلامة الوزن لكنها غير مفتقرة الى الصدق وعمق المعاناة. يحدثنا عن بدايات نظمه واوائل قصائده فيقول[1] : « لقد نظمت هذه المجموعة من الشعر في سن متأخرة من الشيخوخة أي ما يناهز الخامسة والسبعين من العمر ولذلك اسميتها : الشيخة. . . إن أكثر ما دعاني لنظم هذه المجموعة تقاعدي في البيت وحيدا في صيدا والتي ليس فيها صديق روحي اتسلى معه وخاصة بعد أن اجريت لي عمليتان جراحيتان في عيني ادتا الي ضعف بصري. فقعدت اتسلى بهذه الاشعار اذ ذهبت بعض القصائد بفعل النسيان. . . لذا كنت اغتنم الفرص واملي ما احفظه على حفيدي حسن وعامر ، وأخيرا توفقت بولدنا العزيز صلاح منصور الذي بيضها على هذا الدفتر (المخطوطة ذاتها) فله مني جزيل الشكر. . . »

---

(١) المصدر نفسه

من وجدانياته هذه القصيدة بعنوان : أعيش بروحي :

أعيش بروحي لا بشربي واطعامي ... واخلو بها كيما ابدد اوهامي
اعيش غريبا بين أهلي وجيرتي ... فلا الناس ناسي لا ولا القوم اقوامي
ولولا غشاء قد أضر بناظري ... واقعدني قسرا لالعق آلامي
لكنت على الهجران أول تارك ... الى مهمه قفر اجرجر احلامي
اعيش بها ما عشت غير مذمم ... ويصحبني قلبي الجريء واقلامي
وانهض من نومي نشيطا معافيا ... كأني قد اخطأت في عد اعوامي
بها الذئب يعوي وهو ناء عن الاذى ... فلا خال يؤذيه ولا ابن اعمام
فناديته : أقدم أخي ولا تخف ... تجد حظوة عندي وتؤنس ايامي
فلبى ندائي مسرعا غير خائف ... فقاسمته زادي وفاز بأنعامي
واعطيته عهد المحبة والوفا ... فبادلني حبا بحب واكرام

الى آخر هذه الحوارية مع ذئب الصحراء التي تذكرنا بذئب البحتري وخاصة ذئب الفرزدق الذي تقاسم واياه الزاد. . . أما قصيدة :« موت الذئب» لأفرد ده فيني الشاعر الفرنسي الرومنسي الرواقي فلا اظن أن عمي قد تأثر أو سمع بها. ومن وطنياته :

يا ذائع النبأ الخطير ... ومن تكلم بالاثير
خبر فديت بكل ما ملكت يدي ... وما ملكت سطوري
هل أرض يعرب اقفرت ... من كل مقدام جسور
أم أن تلك السابحات ... السابقات الى النسور
عقرت ومات جنينها ... واستبدلوها بالحمير !!

لولا شفاعة بعضهم للعنتهم طرا على مـــر الدهـــور

ودفنت آمالي وحطمـــت الكؤوس علـــى الصخـــور

حاشـــا الذيـــن اذا رأوا برق الســـلاح المستنيـــر

لبوا النـــداء وسابقـــوا اسد الفلاة علـــى الزئيـــر

ومشوا علـــى لهب القناة فتلك معجـــزة الدهـــور

عبروا فكـــان عبورهـــم سفرا يـــدرس للعبـــور

قفـــزوا علـــى «بارليف» كالبـــركـــان يزخـــر بالهدير الـخ. . .

ومن غزلياته هذه الرائعة بعنوان : غربتي بين قومي .

أنت بالقلب خيـــال وبعينـــي صـــور

حبك الصافي مقيـــم لـــم يكـــدره كـــدر

إن يكن جسمي حكاهـــا من عشيـــات الكبـــر

فأنا أحيـــا بروحـــي لا بتصفيـــف الغـــرر

مذ غمر الـــرأس مشيبـــي وذوى الوجـــه الأغـــر

نفرت منـــي الغوانـــي وتجاهلـــن الخبـــر

كن يزحمـــن دروبـــي ويتتبعـــن الأثـــر

يتغنيـــن بشعـــري فـــي مقـــام أو سفـــر

كن كالنحلة في تجوالهـــا تهجر العود وتمتـص الثمـر

غير أن النحـــل يعطينـــا رحيقا وشفـــاء للبصـــر

إلى أن ينهيها بهذه الحقيقة في إطار اللوعة المرة :

غربتي ما بين قومي مـــرة وإذا عايشتهم كانـت أمـــر !

وهذه غزلية أخرى أروع بعنوان : لا تسلني :

ذكريات المها ولعس المباسم ... في الثنايا كأقحوان المواسم

وقدود كأنهن رمـــــاح ... ونهود كأنهن البراعـــــم

وهوى مورق ووجد مقيـم ... ما شدا طائر وغنت حمائم

كلما ازددت عن شبابي بعدا ... زاد وجدي لزينب والفواطم

ذكريات أجترها للتأســـي ... ورؤى حلوة كأحلام حالـم

كلما مر ناظري بخيول ... صافنات على رؤوس القوائم

ذكرتني عهد الشباب وطوقا ... زين الجيد بالحلى والتمائم

وحصان روضته لطراد ... ولنيل المنى وقنص الغنائم

كان يجري كما يشاء هوانا ... عارفا كوخ حبنا بالعلائم

ثم يرنو بناظريه اليــهـا ... مدركا ان ذا الهوى ليس نائم

فأتتنا تجري بمائل خصر ... خشية الحي والرقيب المداوم

ثم حيت بلهفة وحياء ... فاختلسنا العناق والليل ساهم

قبلت غرة الرفيق وقالت ... صانك الله من جواد مسالم

وامتطت ردفه التليع وقالت ... حسبنا الله من عدو مداهم

وعدا يخرق الظلام كسهم ... ورديفي يضمني بالمعاصم

قائلا لي : أما علينا رقيب ... قلت كلا سوى السنا والغمائم

واختفت في غدائر وقرون ... صانها ربها لفتنة هائم

وهوينا على الكثيب سكارى ... من حميا الهوى وشوق ملازم

ورشفنا من الرضاب سلافا ... كأسه عابق، وريان عارم

وسكرنا من غير خمر وراح ... وابتعدنا عن الخنا والمحارم

وغـــفــونا على وســائد حب | عـبـقـري الرؤى رحـيم وظالم
يا لهـــا ليلة بروحي شـــذاها | عــالق مــا حــييت فــواح دائم
وأفـــقنا على بغـــام الايالى | والحصــان الرفيق نعسـان هائم
ونفـــضنا الذيول تنضح طهـــرا | وعـقـــدنا على اللقـــاء الخـواتم
قلت يا منيـتي « أأرجـو لقـاء. . » | قالت : الله والقضا خير حاكم
غـيـر أن القـضـاء، فرق شـمـلا | فــأقــمنا على الفـــراق المآتـم
ودعـــتني بعـــبـــرة ونشـــيـج | بلل النحر بالدموع السـواجم
نســـــرع الخطـو للاياب وارنو | من بعــيــد لهــا وطرفي واجم
يا عـــــذولي خلِّ الملام ودعني | في خيالي اجوب تلك المعالم
لا تسلني عن الصبــا كـيف ولى | بل فسلني عن الهوى فهو دائم

الا تذكرنا هذه القصيدة ـ القصة بقصيدة عمر ابن ابي ربيعة المخزومي : أمن آل نعم أنت غاد فمبكر. . . بلى : فالحوار اللذيذ واللقاء العطر المشبوب بنار الجوى والحب الطهور يكاد يلف هذه الحوارية الممتعة التي لا اشك في أن عمنا قد عاش احداثها في صباه. . . . فرواها شعرا ينضح بالصدق ويعكس كل ما يختزنه هذا العم في كيانه من قيم اخلاقية عربية واسلامية ومن صور فروسية قروية سداها الصحراء العربية ولحمتها اجواء الزرارية ومثيلاتها حيث كان الحب حبا لا عبثا ولا استهتارا. . .

حبا يمارس خارج حدود الجسد وداخل حدود الروح. . .

واخيـرا تأمل معي هذا البيت الاخيـر مـا اروع تلك الالتـفـاتة الذهنيـة والوجدانيـة فيه. . . إنه بيت القصيد واحلى ما تختتم به امثال هذه الغـزلية الرائعة. . . أما اوجه الشبه بينها وبين قصيدة عمر فكثيرة لا مجال لذكرها هنا. . .

نحن نستعرض ونقارن بايجاز شديد. أما التحليل المسهب فنرجئه الى دراسة قائمة بذاتها أو كتاب برأسه. . .

ومن مراثيه هذه القصيدة التي قالها في رثاء شقيقه الأكبر السيد محمد(ابي العباس)

خليلي قد أعيا المصاب بيانيـــا   وران على قلبي فاصبحت هاذيا

والجمني الخطب الجليل واسهمت   نوائبه حتى استحالت دواهيـــا

اذا انهمرت عيني لفقد حبيبهـــا   بدمع هما من عيني سواقيـــا

لمن تدخر العينان فيض شؤونهـــا   وقد عصفت ايدي البلى بجناحيا

أخي يا أبا العباس هلا دللتنـــي   بأي بقاع الارض امسيت ثاويـــا

لئن كنت في شرق البلاد وغربها   فذكرك موصول بحبل حياتيـــا. . .

الخ. . .

ومن نجاواه في وحدته :

الهي جنبني الخطيئة والضـــرر   وثبت على التقوى فؤادي والفكر

ولا تلقني بين المزالق والهـــوى   فان لم تسددني هويت الى سقـر

وعدت بغفران الذنوب جميعها   ووعدك دين لا يخالطـه كـدر

اذا صرت ربي وحيدا بحفرتـــي   فكن مؤنسي يا رب في ظلمه الحفر

أموت على حب الحبيب محمـد   وفي نوره امشي اذا ضعف البصر. . .

الهي فاجعله شفيعي ومنقـــذي   اذا نشرت صحفي المليئة بالعبـر

هذا وله مقطوعات وقصائد كثيرة في التغني بلبنان ثم الحزن العميق لما اصاب هذا الوطن الجميل من ويلات واقتتال بنيه في حروب داخلية لا تكاد تنتهي. . . وبما أن هذا الكتاب ليس مخصصا للاعلام وحدهم فانني اهيب بنجليه

العزيزين محمد وعلي أن يبادرا الى طبع آثار ابيهما الشعرية ومذكراته في كتاب خاص ـ فهي آثار وذكريات جديرة بالنشر حقا.

السيد محمد جواد شرف الدين : النجل الاكبر لجدنا جواد، ولد في الزرارية عام ١٨٩٠ وسرعان ما أخذ مكان أبيه بعد وفاته المبكرة(عاش ٤٥ عاما) فرعى الاسرة الصغيرة باطفالها الخمسة وغمرها بفيض حنانه وحسن رعايته مجاهدا منذ أن شب عن الطوق في سبيل ذلك. وما إن اطل القرن العشرون حتى وجد نفسه مدفوعا الى الهجرة مع بني خؤولته الى افريقيا (دكار ـ السنغال) فترك الاسرة في عهدة والديه وسافر عام ١٩٠٩ وهو لا يكاد يبلغ العشرين من عمره ومكث هناك قرابة الثلاث سنوات وعاد قبيل الحرب الاولى بقليل بعد أن وفر له وللعائلة الصغيرة اسباب العيش الكريم ومتابعة التحصيل العلمي لاشقائه الثلاثة الصغار يحيى وحسن وحسين في مدارس الزرارية. وتابع العمل الدؤوب من أجل ذلك وكان يحيط هؤلاء الاشقاء بكل الرعاية والحنان حتى شبوا عن الطوق.

لكن الحرب انتزعته منهم بعد أن رفض الاتراك قبول البدل من أمثاله من الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين كما تقدم القول فسيق مع مئات غيره إلى الأناضول ولم يعد . . .

كان رحمه الله متعلما حافظا للقرآن جميل الخط شاعرا . . .

من آثاره هذه الرسالة التي أرسلها يوم كان مغتربا في أفريقيا ، عثرنا عليها بين أوراق والدنا ثم أصبحت في حوزة شقيقنا الثاني نجيب (أبي رضا) . وهي موجهة إلى والده السيد جواد . مؤرخة في ٢ جمادى الأول ١٣٢٨ هجرية . وهي رسالة مليئة بالحب والاحترام والشوق إلى العودة ورؤية الأهل وطلب الدعاء والرضا من والده الذي اخترمته المنون قبل عودته .

وكان بودي إثبات ما جاء فيها هنا ولكن معالم خطها وجملها قد طمست كلها لقدمها [1] فهي رسالة ذات مستوى أدبي وأخلاقي رفيع .

أما آثاره الشعرية وهي كثيرة فقد فقدت كلها . . .

السيد محمد يحيى شرف الدين : ولد في الزرارية وتلقى دروسه في مدرسة النبطية الرسمية . وما إن شب عن الطوق حتى ظهرت عليه علامات الشعر ، وللشعر علامات تظهر في سمات الوجه ونوع التصرف والحديث والميل وأسلوب الكتابة . كل هذه العلامات ظهرت على هذا الشقيق فبدأ بكتابة الشعر في سن مبكرة وقبل أن يمتلك الأداة الفنية اللازمة . وسرعان ما بدأ ينشر قصائده في دواوين شعرية تحمل روحا ثورية وطنية تؤرخ للأحداث الدامية التي عصفت بلبنان في الخمسينات . وبعض هذه القصائد غزلي صادق اللهجة حار العاطفة جاء إثر معاناة مع بعض المعشوقات اللواتي دخلن في حياته ولكنهن لم يفهمنه جيدا فجاء غزله بهن غزلا حزينا يائسا من جهة ومن جهة جاء محتضنا لكبرياء جريح وشمم عربي صريح . . من نشاطاته في حقل التربية : أسس مدرسة خاصة عام ١٩٥١ في برج حمود - بيروت وأسماها مدرسة الاشراف الوطنية وكانت ابتدائية سهر على تنميتها وتطويرها ولكن أحداث ١٩٥٨ اضطرته إلى نقلها إلى الزرارية تحت اسم آخر هو : مدرسة الحرية وظل يمارس إدارتها والتعليم فيها إلى أن هاجر إلى أفريقيا عام ١٩٦١ ثم عاد بعد سنوات ليعاود إحياء مدرسته من جديد وليتزوج توفاه الله عام ١٩٧٧ إثر حادث تسمم وكانت وفاته بعد وفاة والده بأربعة أشهر .

---

(١) مضى على هذه الرسالة حتى الان اكثر من ٧٥ عاما

في الحقل الاجتماعي : كان عضوا في جمعية انماء الزرارية الأولى التي مارست نشاطا اجتماعيا ورياضيا لا بأس به . لكن دسائس بعض عملاء السلطة راحت تكيل لأعضائها التهم جزافاً أقلها أنهم يساريون .

فانفرط عقدها خاصة بعد أن التهمت الهجرة إلى أفريقيا أكثرية هؤلاء الأعضاء .

آثاره الشعرية : صدر لهذا الشقيق ثلاثة دواوين - كما تقدم - وهي : الإلهام في الحب ـ ثورة الشعب - في سبيل الحرية .

أهدى الديوان الأول :

إلى كل من يريد الحرية والانعتاق من العبودية

إلى كل ثائر ضد الاستعمار والسيطرة الأجنبية

إلى . . .

إلى كل معذب ومعذبة وعاشق وعاشقة

وجاء في أول هذا الديوان تحت صورة رمزية ثورية هذه الأبيات :

هي ثورة حمراء سوف نثيرهـــا	عبرا إلى التاريخ والأزمـان
انا بني قحطان لا نخشى الردى	أبدا ولا نرضى بأي هـوان
سنريهم أفعالنا يـــوم الوغـــى	سنبيدهم بمهند وسنـــان

رسالة شعرية إلى : بطل العروبة ومنقذ الأمة جمال عبد الناصر : وعناوين لقصائد كثيرة وطنية وحماسية متنوعة من مثل : تمرد على الحكم الجائر ، والقلوب القاسية ، وذلك الوحش البشري وحطمي القيد ، وأيها البطل الشهيد ، والطائر الغريد ، وكيف يحب أن تكون المدرسة إلخ إلخ . . .

كما وجه رسالة شعرية إلى رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الإمام موسى الصدر يقول فيها :

يا قائد الجيل الجديـد تحيـة
من مخلص لك في الوجود يقدر

وكان يوقع تحت لقب : « شاعر الطبيعة » الذي اختاره لنفسه ولقصائده .

كان يأتيني إلى صور زائرا ومسمعا إياي بعض قصائده الجديدة طالبا - بخجل - أن أنقحها وأصحح أوزانها . فقد كان - رحمه الله - برما بأوزان الخليل وعروضه وهو بهذا يذكرني بأبي العتاهية الذي كان يقول : أنا أكبر من العروض ! والواقع أن الشاعر الحقيقي أكبر من العروض وقيوده . . . فهل كان في أعماق وجدان أخي هذا الهاجس .

حسبه أنه كان شاعر الفطرة السليمة والطبيعة الموحية والقلب المختلج بينهما لا ينقطع عن الاستيحاء والبث . . .

السيد يحيى جواد شرف الدين (والدنا) :

ولد في الزرارية عام ١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٧٧ وهو ثاني أشقائه الثلاثة وشقيقتيه الاثنتين آمنة ولطيفة. تلقى تعليمه في مدرسة السيد يوسف الحبوش في النبطية، وكان بصحبته شقيقه الاكبر السيد محمد أبي عباس. وما كان لهذين الاخوين أن يتلقيا التعليم لولا الاهتمام الكبير الذي خصهما به والدهما السيد جواد من أجل ادخالهما المدارس ذات المستوى الرفيع آنذاك، في التعليم الديني والمدني، وإلا لبقيا في الزرارية دون تحصيل يذكر لأنها كانت خالية من المدارس في مطلع هذا القرن ، حتى في شكلها البدائي، ولذلك ظل ابناء جيلهما أميين

في أكثريتهم الساحقة. وسنرى تأثير ذلك العلم على والدنا السيد يحيى الذي سيق مع أخيه السيد محمد : هذا الى الاناضول وذاك الى عريش مصر. وفي العريش نجا من الحرب وحمل السلاح لأنه متعلم، اذ اختير ليكون «بلوك امينا» وتعني في التركية «أمين مخزن» لتوزيع الخبز على الجنود والضباط. . أما رفاقه من الشبان فكانوا يساقون الى جبهات الحرب لأنهم اميون. . وقبل دخول تركيا الحرب العالمية الاولى، وبعد وفاة مؤسس المدرسة التي كانا يتعلمان فيها انطلق مع شقيقه السيد محمد الى مدرسة انصار حيث درسا على يد السيد حسين ابراهيم، وبعد وفاته انتقلا الى بيروت ليدخلا مدرسة الشيخ أحمد عباس الازهري وكانت هذه المدرسة بمثابة جامعة تقريبا في مفهوم ذلك العهد. . واثناء التحصيل العلمي امتاز الأخ الأكبر بنظم الشعر واتقان العروض واجادة الخط العربي الذي كان يكتب بالقلم (الغزار) وبالريشة (نمرو٤ أو ٦) كما اتقن علم البيان والبديع. وبرز السيد يحيى (والدنا) برواية الشعر ونظمه والاحاديث النبوية وتميز بحافظة نشطه فحفظ القرآن الكريم. كنت استمع اليه في ليالي رمضان وعاشوراء يتلو السور القرآنية الطوال غيبا ودعاء رمضان ودعاء كميل، وكثيرا من أدعية وابتهالات الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) المجموعة في الصحيفة السجادية. كما تميز برواية اشهر الطرائف المأثورة عن العرب والمسلمين. فقد كان رحمه الله يحب النكتة المهذبة غير المبتذلة، وما زلت الى الآن احفظ الكثير منها وارويه، واحيانا اؤلفه على نمطه. . . وفي النظم العروضي اتقن نظم التواريخ الشعريه على «حساب الجُمَّل او الجُمَل» وحساب الجمل طريقة تقوم على أن لكل حرف من حروف الابجدية العربية رقما خاصا به فمثلا : ابجد اعطيت الرقم ٤ موزعا على

:أ = ١ب = ٢ج = ٣د = ٤ فيكون مجموع طرفيها ٤. وهوَّز اعطيت الرقم ٣ موزعا على : هـ=٥ و= ٦ز= ٧ . وحطي اعطيت الرقم ٣ موزعا على ح = ٨ ط = ٩ و ي = ١٠ فيكون مجموع طرفيها ٣ ويصبح مجموع ارقام : ابجد ، هوز، حطي ١٠ بالآحاد، ثم تنتقل الى العشرات. فمثلا : كلمن : ك=٢٠ ل=٣٠ م=٤٠ ن=٥٠ فيكون مجموع طرفيها ٥٠. وسعفص : س = ٦٠ ع= ٧٠ ف = ٨٠ ص = ٩٠ فيكون مجموع طرفيها ٩٠. قرشت ق= ١٠٠ ر=٢٠٠ ش= ٣٠٠= ت ٤٠٠ . وثخذ ث= ٥٠٠ خ =٦٠٠ ذ= ٧٠٠ ثم ينتهي الترقيم بالمئات مع : ضظغ . ض = ٨٠٠ ظ = ٩٠٠ غ = ١٠٠٠.

ـ ويبدأ التاريخ المراد تسجيله شعرا في آخر بيت من المقطوعة أو القصيدة الشعرية، وهي عادة لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة ابيات، وذلك بعد كلمة : تاريخ ومشتقاتها كأرخ وارخت، ومؤرخا الخ. . . ثم تحسب وتجمع ارقام كل كلمة واردة بعد كلمة : تاريخ ومشتقاتها ويكون مجموعها هو تاريخ المناسبة، افراحا او اتراحاً. ويحفظ هذا التاريخ او يحفر على شواهد القبر الرخامية، ومنهم من يؤرخ لبناء قصر و منزل عادي. كما فعل والدنا حين بنى رتاجا ضخما لمدخل منزله الحالي في الزرارية وتوجه بهذين البيتين وهما :

بنيت بنائي مستعيناً بخالقي　　ليبقى لمن بعدي منيعا اذامــــتّ

واثبت للذكرى عليه مؤرخا　　بحولك باري العالمين لقد شدت

وحفرهما الفنان العمار المرحوم ابرهيم بلال (أبو بشير) على الرتاج.

ـ وهكذا يكون مجموع ارقام الكلمات الواردة بعد كلمة : مؤرخا : ١٣٤٩ هجرية وهي السنة التي بنى فيها رتاجه ومنزله في الزرارية.

لماذا حساب الجمل او الجُمَل؟

قال ابن دريد«حساب الجُمَّل والجُمَل : «هو الحروف المقطعة على (أبجد) ولا احسبه عربيا». .

وقال بعضهم :«هو حساب الجُمَل»

وقال ابن سيده :« ولست منه على ثقة» (١)

ونحن نقول : انه فن شعري عبثي، أو لزوم ما لا يلزم ، لا بد أنه نشأ في عصور الانحطاط تلهى العرب فيها بكل شيء، من مثل هذه الامور التافهة، وصرفوا انظارهم أو صرفوا عن الاهتمام بالامور الجدية النافعة للانسان والمجتمع، ثم جرى هذا الفن العبثي مجرى العادة فقلده شعراؤنا أو على الاصح نظامونا في مطلع هذا القرن، واعني بهم شعراء المناسبات العائلية والاجتماعية فاستحسنه، في تخليد هذه المناسبات، الكثيرون، ومنهم والدنا رحمه الله. لكنه (أي والدنا) في نجاواه وايمانياته يبدع حين يمسح شعره بزيت الزهد أو الصوفية المعتدلة وذوب الوجدان المصفى، كما يبدو في هذا المطلع من ابتهالات تقوية عذبة، ومن شدة ايمانه بما يقول حفظ هذا المطلع ضمن اطار زجاجي وخطه بالخط الفارسي وعلقه في «صالون» الشقة العليا في منزله ليبقى عظة خالدة لأبنائه واحفاده من بعده : يستوحون منه روح الايمان الصحيح والانتخاء العقائدي الديني المتسامي في توكله، على كل طاغ جبار من طغاة الارض، المحتقر لكل منصب دنيوي زائل قال :

عصمة الله حرزنا والرضا منه كنزنا

لا يغرنك عجزنا نحن بالله عزنا

لا بجاه ومنصب

---

(١) انظر لسان العرب مادة جمل .

غير ذي العرش من لنا يكشف الضر والعنا
فاحذر ان تسحلنـــا كل من رام ذلنـــا ـ خصمه الله والنبي الخ . .

كما برع رحمه الله في فنون عربية متعددة :

نشاطه الديني والاجتماعي : عرضت المختارية على المرحوم والدنا عدة مرات لكنه رفضها كي لا يقال إنه يعتاش مما يقبضه من الاهالي وفضل عليها الخدمة العامة المجانية. ففي المناسبات الدينية كان مع ثلة قليلة من أقربائه واصدقائه يتولون تأمين أمام للبلدة وقارىء تعزية في الليالي العشر من محرم الحرام وتأمين مسكنه ومعاشه. . حتى انه كان أحيانا يدفع كل ذلك من جيبه الخاص. وما من سائل أو زائر فقير إلا وكان يصحبه معه الى المنزل اذا وجده في المسجد أو في أزقة الزرارية أو على بيادرها.

وحين احتدم الخلاف أواخر الحرب العالمية الثانية بين عائلتين كريمتين كبيرتين في الزرارية وتطور الى نزاع مسلح. . كنت تراه يسارع الى ساحة المعركة ليناشد المقاتلين أن يكفوا عن اطلاق الرصاص وقذف القنابل. حدث ـ مرة ـ أن رأى أحد الشبان يركض باتجاه ساحة المعركة وقد تأبط شيئا ما، لعله كان قنبلة، فاحتضنه واوقفه عن الانطلاق باتجاه الخصم. . . ولولا لطف الله لانفجرت القنبلة واودت بهما معا. .

أما الناحية الايمانية فحدث ولا حرج ـ لقد كان عميق الايمان بالله وبقضائه وقدره وأنه سميع الدعاء لمن دعاه واخلص في دعائه حتى كاد يتصوف في آخر أيامه ويصبح من اولئك الزهاد الكبار الذين عاشوا في عهد الرسول الاعظم والذين سموا برجال «الصفة» فكان يقطع الليل تسبيحا وقرآنا واذا سجد اطال من سجوده وحين التسليم في آخر الصلاة كنت ترى عينيه مغرورقتين بالدموع

خشوعا ورهبة وتوسلا. . أما استخارة الله فكانت السبحة الحسينية وسيلته في كل أمر صغير أو خطير حتى عرف بها وبات الناس في الزرارية يؤمنون بأن الاستخارة عند السيد يحيى لا تخطىء في حالتي السلب أو الايجاب، أو الرفض والقبول. . .

في حقل الخدمات كانت للمرحوم والدنا طموحات في ميدان المشاريع الانمائية في بلدته حتى انه فكر يوما بأن يشتري محركا ضخما ينصبه فوق الليطاني على جبل محاذ للزرارية ليضخ بواسطته المياه الى خزان كبير توزع منه المياه على منازل الاهالي وفي نفس الوقت يولد منه الطاقة الكهربائية للانارة. . . وفعلا ذهب الى شركة نكد في بيروت ليدرس معهم هذا المشروع وتكاليفه وكادت الصفقة تتم والمشروع يبدأ لولا اندلاع الحرب العالمية الثانية فتوقف كل شيء. وقضي على طموحه في مهده فاكتفى ـ اثناء الحرب ـ بموتور لطحن الحبوب ـ كما كان بعد الحرب العالمية الاولى : حين اشترك مع بعض اقربائه في استثمار مطحنة المغيرية على الليطاني وكانوا أيام الشحائح يحولون مياه الليطاني الى نواعير المطحنة باقامة سد بطرق هندسية بدائية تدل على خبرة وذكاء نادرين في جيلهم. . .

في حب العلم والعلماء : وكما اهتم والده بتعليمه مع اخوته متنقلا بهم من مدرسة الى مدرسة ـ كما رأينا ـ هكذا كان هو مهتما بتعليمنا متنقلا بنا (بمن رغب منا) من مدرسة الى مدرسة مقتطعا من الضعف المادي قوة ايمانية هائلة وما ان شببنا عن الطوق حتى بادر الى ادخالنا مدرسة البلدة اولا، ثم الى مدرسة النبطية الرسمية ثانيا وحين سافر اخواي الاكبران جواد ونجيب الى افريقيا تنقل بي من النبطية الى مقاصد صيدا والى مقاصد بيروت ثم الى البطريركية ثم الى

الحكمة ثم الى باريس ثم الى اليسوعية. . . رحمه الله قدر حسناته وخدماته لنا جميعا ولشقيقيه المغتربين السيد حسن والسيد حسين. اللذين اعتمداه وكيلا لهما ثم لولديه جواد ونجيب في تأمين شراء اراضي بكوات الزرارية لهم وحين عادوا من مغتربهم وجدوا انفسهم وقد تملكوا حصة لا بأس بها من الاراضي الزراعية ومنها الصالحة للبناء داخل البلدة أو (الجدارات) كما يسمونها. . . والباقي تم تشجيره واصبح بساتين مثمرة. . .

آثار ه الشعرية : للوالد آثار شعرية لا بأس بها غير التواريخ الشعرية وكلها في مدح الرسول وآله والحض على العلم والفضيلة والإباء لكن اكثرها ضاع أو أحترق.

وطنيته : ورد في فصل سابق بعنوان : عروبة جبل عامل أمثله كثيرة عن رواد هذا الجبل في الجهاد والدعوة الى الوحدة العربية كما سنورد مثلا صارخا على عروبة هذا الوالد وتنكره للطائفية والمذهبية أيام عبد الناصر [١]. وقد ربانا كلنا على مثل هذا الحب والتمسك باهداب الدين والوطن الصغير لبنان والوطن الكبير : ديار العرب. . .

أما حبه للعلماء فقد أصبح من أهم مميزاته وخصائصه الدينية والنفسية. ويوم ينزل عالم من العلماء ضيفا عليه أو زائر فكأن ملاكا قد هبط عليه من السماء أو كأن الله قد كافأه على ايمانه بأن أرسل اليه مثل هذا الضيف. . .

كان يسعى بين يديه مغتبطا طافح الوجه من البشر والسعادة. فكيف اذا نزل ضيفا عليه امام كالامام شرف الدين أو السيد محمد إبراهيم أو السيد علي

(١) انظر الفصل جبل عامل عربي قومي وداعية وحدة عربية من هذا الكتاب

مهدي ابراهيم وأمثالهم من الاعلام الافذاذ الاطهار؟!

كيف كان يكتب : وقد امتاز هذا الوالد بطريقة في الكتابة فريدة من نوعها وهي : أنه يستطيع أن يكتب، والورقة على كفه، عشرات الصفحات المستقيمة السطور دون أن تكون الورقة مسطرة أو مستندة على (سماكة) سوى كفه فقط. يكتب باليمين وعلى باطن اليسرى الورقة، دون عوج في الخط والسطر أو التواء.

وعلى ذكر الكتابة بالحبر السائل ثم بالقلم الجاف وهو - مع الأسف - اسوأ الاقلام من حيث انه لا يرسم سطورا جيدة الخط.

فالخط العربي الجيد لا يكون الا بالحبر السائل، بالقلم العريض أو الريشة نمرو٤، وفي أواخر القرن الماضي ومطلع القرن كان قلم الغزار هو السائد في التحبير - بدل الريشة، أذكر أننا حين انتقلنا في الثلاثينات من الكتاب الى المدرسة كان على كل طاولة محبرة أو محبرتان اسطوانية الاستدارة تقبع في فتحة للطاولة امام كل تلميذ. . . فالريشة والقلم الغزار يساعدان على جمالية الخط العربي الذي يعد من أجمل الخطوط العالمية لا سيما إذا اتقن الخطاط العربي فنون تشكيلاته المختلفة من ديواني وديواني فارسي وثلث وكوفي ورقعي ونسخي، وسوى ذلك مما أبدعه الخطاطون العرب عبر العصور، خاصة في هذه الايام حيث ابدع الموهوبون منهم اشكالا رائعة غير معروفة من قبل، أمثال مكارم ووجيه نحلة ومحمد البابا وبعيون وفتوني وسواهم.

فهل ترانا - بعد كل ذلك التشويه الذي قام به القلم(الناشف) نقوم بتعليم اطفالنا واولادنا اصول خطنا العربي الجميل، أم أن عصر التكنولوجيا لا يسمح الا بالانزلاق سريعا على الورقة في «خربشة» شوهاء لا جمال فيها ولا فن ولا ذوق. . .

كيف كان الاجداد يكتبون :

يجلسون القرفصاء أو الاربعاء يحتسون الشاي أو القهوة، وبين كل حسوة وحسوة يمتشقون القلم الغزار (وهو من قصب الغزار) من تحت الشملة (حزام الخصر عند الرجال) يغطونه في محبرة كبيرة ثم يكتبون على جلد مرقق أو على ورق (الكدش) الاسمر أو ورق ابيض غير مسطر، كما كان يفعل كبار أدبائنا وشعرائنا ولغويينا كالشيخ ناصيف وابنه الشيخ إبراهيم اليازجي والغلاييني وأمثالهم من اساطين الفكر واللغة والادب. . .

- بين يدي الآن رسالة مخطوطة بقلم المرحوم عمنا الأكبر السيد محمد جواد شرف الدين ابي عباس، كتبها بالريشة العريضة وارسلها الى والده من دكار السنغال منذ حوالي قرن. وبالرغم من أن الرسالة قديمة وممزقة الصفحات ومشوهة الا أن خطا جميلا يطل من سطورها ويدل على ذوق هذا العم وفنه الرفيع في التحبير والتعبير.

ولا يمكن لنا اليوم أن نرى خطاطين موهوبين كثيرين الا اذا بدأنا بتعليمهم منذ الصغر اصول هذا الخط العربي الجميل بتخصيص حصة واحدة في الاسبوع يأخذ فيها استاذ الخط والرسم، بيد التلميذ ويعلمه كيف يمسك بالريشة (لا بالقلم الجاف) وكيف يكتب كتابة صحيحة لا عوج فيها ولا انزلاق. . .

اما المشهورون بالخط العربي والابداع فيه من ابناء جبل عامل فهم قلة اتقنت بالموهبة والمراس هذا الفن البديع. يأتي على رأسهم الخطاط والفنان الموهوب وجيه نحلة وبغدادي وفتوني وسواهم .

آل فخــري :

يرقى نسب هذه العائلة الكريمة في الزرارية الى الجد الاول صفوان من عشائر الحمادية مرورا بالجد الأقرب حسن فاضل فخري الذي تنتسب اسرته الى هذا الجد نفسه (١)

الا أن السيدة نجاة فخر الدين فخري لا ترد نسب أسرتها الى صفوان هذا - كما جاء في العرفان - بل الى حسن فاضل فخري الذي هو من عشائر الحمادية والذي ولد وترعرع في بعلبك موطن آل حماده حتى اليوم.

العرفان ردت حسن فاضل فخري الى صفوان أما السيدة نجاة فقد اكتفت بهذا الاخير كجد أول لعائلتها ولم تربطه بصفوان. . ولعل نقص المعلومات لديها هو السبب(٢)

اعلام آل فخري في الزرارية :

الشيخ محمود(علي حسن فاضل) فخري :

ولد في الزرارية عام ١٨٧٧ تزوج من سعدية سليمان فخري ابنة عمه وانجب منها أسعد، عبد الرضا، حسين، زينب وخديجة.

تلقى علومه في مدرسة دينية في النبطية على يد مؤسسها العلامة السيد حسن يوسف (٣) الحبوشي .

---

(١) العرفان ج ٣٢ ص ٣٥٧ وما بعدها ١٩٣٢

(٢) شجرة حسن فاضل فخري ص ١٥ اعداد نجاة فخر الدين فخري ١٩٩٠ بيروت

(٣) المصدر نفسه ص ٤٩

جاء في كتاب تاريخ جبل عامل، عند حديث مؤلفه عن مدرسة النبطية التحتا ما يلي :« انشئت هذه المدرسة، عام ١٣١٠ هجرية بناها الحاج حيدر جابر للسيد حسن بن السيد يوسف الحبوشي . وكان من تلامذة هذه المدرسة كثيرون ممن اتموا دروسهم الدينية الاولى فيها فذهبوا الى النجف الأشرف في العراق لمتابعة دروسهم الدينية العليا ونيل الاجازة في الاجتهاد. ومنهم من لم يذهب الى العراق ليتم تحصيله الديني كالشيخ احمد عبد اللطيف مروة والشيخ محمود فخري والسيد يحيى جواد شرف الدين » الخ وهولاء الثلاثة هم من الزرارية، أحدهم والدنا السيد يحيى.

فعليه يكون الشيخ محمود فخري ممن تخرجوا من هذه المدرسة دون أن يتمكنوا من الذهاب الى النجف لاتمام تحصيلهم الديني العالي. ونعتقد أن السبب الوحيد الذي حال دون ذهابه الى النجف هو ضيق ذات اليد ليس إلا، كما حدث تماما للمرحوم والدنا، فهما كغيرهما من طلبة العلم الديني، قد تزوجا باكرا، فكثرت الاولاد وكثرت هموم الاعالة وتأمين مورد رزق كاف أو شبه كاف في تلك الظروف القاسية التي مرت بها البلاد كالحرب والمجاعة والقحط. اعتمر الشيخ محمود عمامة حول الطربوش باعتباره فقيهاً عالما. وبرز كواعظ جليل لابناء بلدته وكزعيم روحي لأسرته.

«عاش من أرض تركها له والده ومن تجارة صغيرة لم يدنس تقواه فيها أي طمع» أو حرام (١) تميز الشيخ محمود بلين الجانب والعطف وحسن الوفادة والرعاية : رعى اولاد اخيه ورعى والدته وخالته، ومن استطاع رعايته من أفراد

(١) المصدر نفسه ص ٤٩

أسرته واهالي بلدته المحتاجين للرعاية [1] ظلت قيافته كرجل دين مهم لا تفارقه طوال حياته المليئة بالتقوى وخشية الله وحب الخير والاصلاح. لم يهاجر - كوالدنا - بل هاجر ابناؤهما.

صلتي به :

كان المرحوم والدنا صديقا شخصيا له، فهما زميلا دراسة تلقيا الدروس الدينية الابتدائية معا وفي مدرسة واحدة كما سبق القول. وكثيرا ما كان المرحوم الوالد يأخذني معه لزيارته والاسترشاد بآرائه ومواعظه.

وعندما وقعت الاحداث المؤلمة بين عائلات البلدة في اعقاب الحرب العالمية الثانية كان الجميع يتطلعون اليه والى والدنا وسائر المصلحين كأبي منير مروة والشيخ محمد علي مروة للتوسط بين المتقاتلين ورأب الصدع خصوصا بعد أن استشرى النزاع وتطور الى حمل السلاح !

وهكذا كان ونجح المصلحون الاربعة. . .

نذكر - هنا - هذا الخلاف الدامي لنشير الى تلك النزاعات العشائرية التي كان يؤجج نيرانها في سائر قرى جبل عامل زعماء اقطاعيون يهمهم أن يبقى الشعب مقسما ورهينة لديهم ومطية لأهوائهم.

أما اليوم فقد تخلصت الزرارية وشقيقاتها من هذا الوباء وتعافت منه الى حد كبير، وذلك بفعل الوعي والتقدم العلمي ونمو الحس الاجتماعي والوطني لدى الافراد والعائلات ولا سيما لدى الطبقة المتنورة من متعلمي ومغتربي البلدة وانقلاب هذه الطبقة المسحوقة على واقعها وعلى مستغليها القدامى والمحدثين. وقد تنامى الوعي لدى هذه الطبقة لدرجة الاحساس بأنها أصبحت مؤهلة لاستلام

---

(١) المصدر نفسه ٤٩

القيادة السياسية والاجتماعية والفكرية في البلدة مسلحة بكل مستلزمات القيادة من مثل انشاء الجمعيات والنوادي وحسن التنسيق بين افرادها وتوفير المال اللازم لعملية الاصلاح والتطوير في البلدة.

احساس الشيخ محمود العميق باسلامه وعروبته :

تميز رجال آل فخري من الرعيل الاول بالحس الوطني السليم وبأن أمتهم العربية ذات امجاد وحضارة، يجب أن يدعوا الى احيائهما في مواعظهم تارة وفي اشعارهم تارة اخرى.

وكان الشيخ محمود أحد ثلاثة من آل فخري الذين وهبوا ملكة نظم الشعر العروضي كأبي راشد وأبي وضاح. لكن مشاغله كانت تحول دون متابعة النظم الا في المناسبات تماما كابن عمه ابي راشد. أما ابو وضاح فكان أكثرهما نظما للشعر وذلك بفعل اغترابه ولواعج الحنين عنده.

عثرنا للشيخ محمود على بعض مقطوعات شعرية نظمها متأثرا بمأساة فلسطين (١)

قال مخاطبا هذا البلد العربي الذي نكب بالاستعمار البريطاني ووعد بلفور :

تفديك يا معقد الآمـــال قتلانـــا	والعرب شيبا تفديك وشبانـــا
يا محشر الخلق في يوم النشور ويا	معراج خاتم رسل الله مولانا
لبيك يا معقل الآساد مـن مضـــر	ويا عرين ليوث الغاب قحطانا
قري العيون فهذي العرب من يمن	ومن دمشق ومن مصر ولبنانـا الخ

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٠

ويلتفت الى جبل عامل فيجده ضحية الظلم والحرمان وقد كان يوما منطلقا للبطولات والمروءات. قال متأسيا :

عج بالجنوب وسله عن احواله	واسبل دموع العين في اطلاله
وابك دماء اهليه مما انتابهـــم	حتى غدا يرثي العدو لحالـــه
يشكو وما من سامع لشكاتـــه	أين المقيل عِثاره بفعـــالـــه
افهل قضى حرمانه مـن حقــه	شرع العدالة أو خنوع رجالــه

لا والله يا شيخنا الجليل ليس كل رجاله ولا شرع العدالة . . . بل هم حكامه الجهله المستبدون الذين فرضهم عليه الباب العالي ثم تلاه الفرنسيون المتدبون. . فعاثوا في البلاد فسادا وتنكيلا واهمالا .

وللشيخ نفحات شعرية ايمانية يرسلها على القرطاس من وحي خطبة الغدير أو خطبة الوداع للرسول الاعظم.

كما أن له مقطوعات في عتاب الدهر وبعض الاخوان. وبالاجمال فإن الشيخ محمود شاعر مقل ولا نستطيع أن ندخله في عداد شعراء جبل عامل المشهورين الذين اشتهروا بالجودة لا بكثرة القصائد . .

- توفي الشيخ محمود عن عمر ناهز التسعين مليء بالبر والتقوى والارشاد وعمل الخير.

ملاحظة :

يبدو أن ابناء الرعيل الاول من آل فخري (في الزرارية) قد انصرفوا عن محاكاة اجدادهم وآبائهم في قرض الشعر، وتحوّلوا الى آفاق ابداعات اخرى - بعد أن نالوا الاجازات الجامعية العليا - كالتعليم الجامعي والتأليف، والطب والهندسة والحقوق. هذا من جهة، ومن جهة أخرى انصرف الذين لم يتح لهم

تعليم عالٍ الى الاغتراب، ثم العودة بثروات محترمة انفقوها في انشاء البنايات والبساتين على أراضٍ شاسعة ورثوها او اشتروها.

محمد تامر فخري (أبو وضاح) : ومن اعلام آل فخري المغترب المعروف محمد تامر فخري المولود في الزرارية عام ١٨٩٧ والمتوفى عام ١٩٧٤ في مزرعته كفربدا على مفرق الزرارية و الهضبة الشمالية

لم ينل من الدروس الابتدائية وعلى الطريقة البدائية الا قليلا كغيره من ابناء جيله لكنه كان مؤهلا بعد فك الحرف الى أن يصبح شاعرا وكاتبا وداعية اتحاد عربي فيما بعد، في مقالات سياسية جريئة .

وما ان شب حتى وقعت الحرب العالمية الاولى فأسرع في الهجرة الى السنغال أولا هربا من التجنيد الاجباري الذي فرضته تركيا على كل من بلغ العشرين من عمره من أبناء رعايا امبراطوريتها المتداعية ثم انتقل الى سيراليون، وهناك مارس التجارة وكان له نشاط اجتماعي ملحوظ حيث ترأس أول جمعية للجالية اللبنانية السورية.

الهجرة والمعاناة تفتق الكفاءات : بدأت ميول أبي وضاح الى نظم الشعر والكتابة تتوضح شيئا فشيئا، على استحياء في الشعر وجرأة في كتابة المقالات السياسية الوطنية والقومية.

كتب في مجلتي الهلال والمقتطف المصريتين داعيا فيهما لمساندة القضية العربية التي برزت في بداية فترة الانتداب بعد تقاسم البلاد العربية بين الانكليز والفرنسيين. المنتصرين في الحرب وفق ما نصت عليه معاهدة سايكس بيكو المشؤومة التي تجاهل موقعوها ما كانوا عاهدوا عليه الشريف حسين من جعله بعد الحرب ملكا على الحجاز وسائر البلاد العربية. . فتعرض أبو وضاح للملاحقة

الفرنسيين في السنغال مما اضطره لنقل تجارته الى سيراليون حيث الاضطهاد اخف. . وما لبث أن تراس الجمعية السورية التي طالبت باتحاد عربي بين لبنان وسوريا والعراق بزعامة الملك فيصل الاول (١)

أبو وضاح الشاعر : يبدو أن الهجرة ومعاناة الاغتراب عن الوطن الممزق والجائع قد حركت في أبي وضاح كوامن القريحة الشعرية فيه فنظم القصائد الطوال والقصار، على السليقة دون صقل، هذه القصائد التي وإن لم تنل حظا كبيرا من قوة السبك وصحة الوزن العروضي فانها تضج بصدق العاطفة وذلك الحنين الجارف الى الوطن وملاعب الصبا والطفولة في ربوعه. (٢)

تفتحت قريحة ابي وضاح إذن ـ بعد الاغتراب وبفعل الحنين الجارف الى الوطن من جهة وبتأثير المعاناة وشظف العيش ومطاردة الفرنسيين له. وأبو وضاح من القلائل الذين حملوا همين : هم الكفاح في سبيل الكرامة وهم التعبير الادبي

---

(١) وهذا ما دعا اليه المجتمعون في مؤتمر وادي الحجير من زعماء جبل عامل الزمنيين والروحيين والثوار كالامام شرف الدين وكامل بك الاسعد الاول وصادق الحمزة الفاعور (الاسعد) وسواهم من الاعيان والمجاهدين والعلماء .

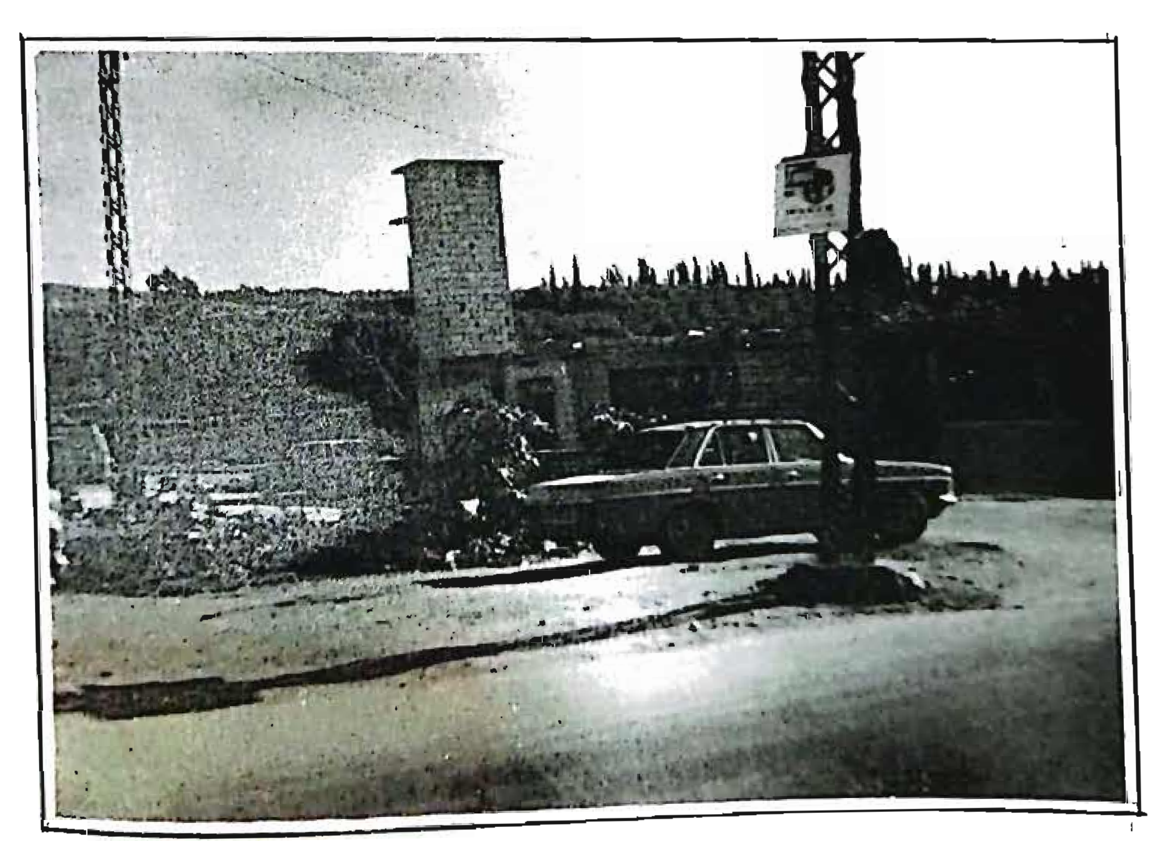
(٢) هذا الحنين الجارف او النوستالجيا ضج به كل حرف وكل صورة في قصائد جميع شعراء الاغتراب اللبنانيين الضاربين في اربع رياح الارض . وكلما كانت ديار الاغتراب بعيدة وراء المحيطات جاءت الانفاس حارة وعمق المعاناة ابعد غورا ولهفة والحنين اشد لذعا وحرارة شيمة شعراء العصبة الاندليسية في البرازيل والارجنتين والرابطة القلمية في نيويورك (للتوسع انظر : الشعر العربي في المهجر لمحمد عبد الغني حسن ـ مكتبة الخانجي ١٩٥٥ القاهرة . او : الشعر العربي في المهجر ـ اميركا الشمالية . للدكتور احسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم دار بيروت ـ دار صادر سنة ١٩٥٧ ـ بيروت او فصل : الهجرة الى المجهول او حرق المراحل ، من فصول هذا الكتاب .

الشعري. وقد عبر عن ذلك الهم باداة فنية غير متكاملة فاذا بقصائده مشوهة الاسلوَب، قلقة الاداء مضطربة الوزن والقافية، لكنها مغلفة بسخرية مرة من نفسه ومن نفوس الآخرين، مجبولة بدمع العين ودم القلب وصدق الشعور

=== فحين تضعف اسباب العودة وتسد سبل الرجوع الى الوطن يقوى الحنين اليه بالطبع ثم يخف تدريجيا في الابناء والاحفاد الى ان ينعدم فيخسر الوطن خيرة ابنائه . اما الاغتراب الى افريقيا الغربية فهو اقل اثارة لقرائح الشعراء ، نظرا لقرب هذه القارة نسبيا من البلاد العربية وسبل العودة متوفرة اكثر وجموع المغتربين العرب اغزر . . . فقل المدعون هنا ، وكثروا هناك ، وانصرف المغتربون في افريقيا الى تحقيق طموحاتهم في مجالات التجارة والصناعة وحققوا ثروات طائلة ليعودوا الى اوطانهم سالمين غانمين . على النقيض ممن هاجر منهم الى الاميركتين الذين حققوا امجادا اخرى على صعيد الادب والشعر والفكر والاقتصاد والسياسة وتقلدوا المناصب الرفيعة فيهما ، الى درجة رئاسة الجمهورية ورئاسة ادارة المصارف الكبرى ، والجمعيات وما اشبه ذلك . اخفقوا تجاريا في اكثريتهم الساحقة ونجحوا ادبيا وعلميا وسياسيا . المهم ان المغترب اللبناني او السوري لم يقعد خاملا في ديار الاغتراب ، قريبة ام بعيدة ، بل فجر طاقاته واستغل نشاطاته على كل صعيد ، ليخرج بالتالي من دائرة الفقر والتشرد والحرمان إلى دائرة الوفر واثبات الذات . واذا كان الوطن قد خسر أولئك الافراد من مغتربي الاميركتين وذراريهم فلم يعودوا اليه فقد عوض بهؤلاء الافراد من مغتربي افريقيا الذين عادوا اليه مع ذراريهم واموالهم . وهناك سبب هام آخر من اسباب قلة الادباء وندرة الشعراء من مغتربي جبل عامل الى افريقيا هو ان هؤلاء انتقلوا اليها من جهل الى جهل بمعنى انهم نزحوا وهم اميون او انصاف اميين الى قارة ابناؤها بدائيون اميون شبه عراة . في حين ان النازحين الى الاميركتين واكثرهم من جبل لبنان ، قد نزحوا اليهما وهم متعلمون او انصاف متعلمين . . الى بلاد متحضرة متعلمة زاهرة بالجامعات ، والمعاهد وعلى قسط كبير من الحرية فتم لهم ، هناك ما ارادوا وابدعوا . ـ المؤلف ـ

وهاتيك العاطفة الوطنية والقومية الصافية التي تميز بها شعراء جبل عامل اللبناني مقيمين ومغتربين، قدامى ومحدثين، قال ساخرا :

جـئـتك عـفـوا يا دكـر — تاجـرا منذ الصـغـر
ولبـست الكسكَ فـيك — قـاطعـا بحـر الخطر
هـالـني الموقـف منـك — ممعنا فـيك النظر
تلهب الشـمس فـضـاك — في شـحـوب وكـدر
سـكـن الـكـوخ بـنـوك — فـبـهم يلهـو القـدر
كم وكم قـاسـيت فـيك — فكأني في سـقـر
غـيـر أني ذبت شـوقـا — رغم بـلـواك الأمـر
وبنيت الصـرح فـيك — شـامـخـا حتى القـمـر
فـتـسامى شـامـخا فـيك — رمـز تاريخ الـهـجـر



أو : رمز تاريخ أغر . . . تاريخ اغتراب العاملي الى افريقيا السوداء التي عمروها وتقلبوا في جوها القائظ وحرارتها المهلكة، حتى إن الكثيرين منهم راحوا ضحية هذه الحرارة الشديدة حين أصابتهم «ضربة الشمس» فتبولوا دما. . .

كان ذلك يوم هاجر أمثال أبي وضاح في أوائل هذا القرن فكافحوا وكابدوا ! وتغلبوا على الفقر والقهر في الوطن، وعاد منهم من عاد، ومات منهم من مات لكنهم اقاموا للابناء والاحفاد اساس الانطلاق في دروب هذه القارة الوعرة الموحشة.

وما قول أبي وضاح :

وبنيت الصرح فيك	شامخا حتى القمر

سوى رمز لانتصار المغترب العاملي على كل ما لاقاه وعاناه هناك. وهذه قصيدة أخرى أكثر انطلاقا واوسع افقا تحت عنوان :

الانسان أخ الانسان أحب أم كره.

الشرق العربي برسله وأنبيائه صلة

الوصل بين الخالق والمخلوق.

ظهر المسيح بنوره وبدينه. . . . . (هذا الشطر غير مقروء في المخطوطة

وأتى النبي الهاشمي مؤيدا	موسى وعيسى محييا ومسلما
تلك الوصايا العشر من إملائهم	والواجبات الخمس ديناً محكما
لم لا؟ وهذا الشرق مصدر وحيهم	رسل الإله الى الأنام معمما
فلتفخر الاعراب فيما بشروا	وحيا وحيدا للأنام من السما
غسان أوعدنان في هذي الذرى	أخوان كونت الفضائل منهما

ولم يكتف أبو وضاح بالدعوة الى التراحم والتآخي بين الاديان في لبنان بل دعا وبالحاح وايمان مطلق الى الوحدة العالمية... والى لغة عالمية واحدة هي (الاسبيرانتو) (١) مؤمنا بأن تعدد اللغات في العالم من أهم اسباب الفرقة وانعدام التفاهم بين الشعوب والامم... وقد شرح ذلك في كتيب مطبوع بعنوان الوحدة العالمية المنتظرة أو: «تبديد الاوهام في سبيل التوحيد العام»(٢)

العودة الناجحة: في بداية الثلاثينات عاد أبو وضاح الى لبنان واشترى مزرعة في كفر بدا (٣)وبنى في وسطها منزلا سكن فيه. وتابع نضاله هنا من أجل رفع الحرمان عن الجنوب اللبناني ومؤازرة القضايا الوطنية والقومية وذلك برفع مذكرات الى الرؤساء العرب ومنهم الرئيس بشارة الخوري عام ١٩٤٦ يطلب فيها مناصرة قضايا التحرر وأخرى يحث فيها الشعوب العربية على مناصرة ثورة الجزائر وعدن، كما ناصر القضية الفلسطينية العادلة، وقد ساعد قسما كبيرا من المهجرين الفلسطنين عام النكبة الأولى ١٩٤٨.

من آثاره، الى جانب قصائده الكثيرة التي لم تنشر لأبي وضاح ديوان (لم

---

(١) الاسبيرنتو : لغة انشأها ووضع قواعدها العالم الألسني الالماني لودفيك زامنهون ، وقد اقرتها عصبة الامم في جنيف واوصت باستعمالها لغة عالمية وذلك عام ١٩٣٢ .

(٢) وهو كتيب لا تاريخ بصدوره ، فمن اراد الوقوف على آراء ومقترحات ابي وضاح من اجل تحقيق الوحدة العالمية فليطلبه من ابنه المهندس وضاح . المؤلف .

(٣) تقع كفر بدا على هضبة عند مفرق الزرارية بين جوار النخل ومفرق ابو الاسود وليس في هذه المزرعة سوى بيت في وسطها بناه ابو وضاح ثم طوره من بعده نجله وضاح وأدخل عليه تحسينات كثيرة الى أن اصبح شبه فيللا عصرية تحيط بها البساتين من كل جانب .

ينشر كذلك) بعنوان السر الكمين في فلسفة التكوين أما رأيه في الوحدة العالمية المنتظرة فقد نشر في كتيب هزيل الطباعة والتبويب.

توفي أبو وضاح عام ١٩٧٢ عن ثلاثة اولاد : وضاح وهو وحيده وابنتين وهما : ازدهار وانسجام من زوجته الثانية وهي من آل الاسعد. أما الاولى فلم ينجب منها أولاذا وهي من صور ، يجيد ثلاث لغات يتكلمها دون ان يكتبها :

التركية : يتكلمها دون أن يكتب فيها.

الفرنسية : يتكلمها ويخطب فيها.

الانكليزية : يتكلمها ويخطب فيها .

نماذج اخرى من شعره الغزلي : قال مازجا أنفاس الحبيب بانفاس الطبيعة : وخلجات قلبين عاشقين يضطربان على مساحب أرض لا يقدر اهلها معنى الحياة وانبل الغايات كما يقول :

قلبان ينسحقان بين عوامل	هوجاء لم تسمع صدى الأنات
قلبان ينسحقان والاهواء في	غاياتها تأتي على الآهات
ولدا بأرض لا يقدر اهلها	معنى الحياة وأنبل الغايات
مرا بأنحاء الصبابة مثلما	مر النسيم بطيب الزهرات . .
وتناشدا شعر الحياة وحلمها	يوم اللقاء بأبدع الآيات
وتساقيا فإذا الجداول خمرة	معصورة من كرمة المهجات
فتعانقا والطير ينقل منهما	سر الحياة وأطهر القبلات

وضاح خضري : نجل أبي وضاح الوحيد بين شقيقتين .

ولد عام ١٩٥١ تنقل في طفولته ويفاعته بين عدة مدارس خاصة، منها الكلية الجعفرية في صور وكان تلميذا لي فيها نال شهادة البكالوريوس في هندسة الطيران من مصر وهو يحضر الآن لنيل شهادة الماجستير في الإدارة الزراعية.

شاب طليعي ذو نزعة وطنية وقومية صافية . رزين ومحاور جيد . . . يحسن الاستماع كما يحسن الرد بصوت خافت يكمن وراءه فكر نير .

يكره الدجل السياسي والاجتماعي والخطابة المنبرية التي تتملق الجماهير علنا ثم تخدعها سرا . كما يدعو في خطبه ومجالسه إلى التخلي عن العادات الموروثة السيئة . عملي وصريح ، لا يدعي ما ليس فيه ، حتى إذا كان الحوار بين الأصدقاء حول الزراعة أو العمل السياسي والمفاهيم الوطنية والقومية انبرى لرد الخطأ وحسم الموقف بلطف وشجاعة .

برز اسمه في الجنوب إثر الاجتياح الإسرائيلي الأول والثاني للبنان ، إذ لعب دورا قياديا في مقاومة الاحتلال . قدم الكثير من التبرعات والمساعدات للقضية الفلسطينية والفلسطينين الساكنين بجواره . كان عضوا في المكتب السياسي لحركة أمل . ناضل من أجل رفع مستوى الزراعة في الجنوب .

أسس نقابة تجمع مزارعي الجنوب، وهو يعمل من خلالها بنشاط ملحوظ من أجل تطوير الزراعة في الجنوب ورفع مستوى المزارعين ودعم النقابة وناضل من أجل التخفيف من الكارثة التى حلت بالحمضيات من جراء عدم تصدير الإنتاج اللبناني إلى الخارج فهبطت الأسعار وارتفع سعر الأدوية بارتفاع سعر الدولار .

فخر الدين فخري (أبو راشد)

نبذة عن حياته :

ولد فخر الدين تامر فخري في الزرارية عام ١٨٧٧ وأقام فيها وفي صيدا وأنجب أسرة من ١٥ ولدا ثماني بنات وسبعة أبناء .

تلقى الدروس الابتدائية في كُتّاب الزرارية . ثم انتقل إلى مدرسة في النبطية (لعلها مدرسة السيد حسن يوسف الحبوشي إذ لم يكن في النبطية مدرسة غيرها على ما نعلم) لكنه ما لبث أن عاد إلى الزرارية ليكون إلى جانب والده تامر حسن فاضل فخري العائد مريضا من جزيرة كريت . لكن رغم انقطاعه عن المدرسة ظل أبو راشد متابعا للمطالعة وتسقط أخبار الأدباء والعلماء بعد أن شب عن الطوق . وتقول ابنته نجاة انه كان يروي لأولاده كيف حفظ الأجرومية (١) في ثلاثة أيام فقط (٢) وهكذا تعلم أبو راشد « وتثقف على نفسه » كما تقول إبنته. وقد مال إلى نظم الشعر منذ نعومة أظافره ، نمى ذلك فيه كثرة ما روى من قديم الشعر العربي وجديده لكن اضطلاعه بقضايا الحياة العامة السياسية منها والاجتماعية صرفه أو كاد عن التفرغ لنظم الشعر .

كان أبو راشد محبا للحياة ولجمال الحياة ولذلك تزوج مرتين وأنجب كثيرا (١٥ ولدا) وتغزل كثيرا (٣)

ثروته : لم يجمع أبو راشد ثروة وكان يعيش من نتاج عقارات ورثها عن

---

(١) الاجرومية : باب النحو من الفية ابن مالك الذي نظم فيها النحو العربي شعرا.

(٢) شجرة فاضل حسن فخري ص ٨ ط ١ - بيروت ١٩٩٠

(٣) لم نعثر في الكتاب الذي اعدته السيدة نجاة عن شجرة العائلة على شيء من غزليات ابيها.

أبيه وأضاف اليها ما استطاع من الأراضي الزراعية في الزرارية . مع أن الوجاهة وعمادة العائلة وكثرة الأولاد تتطلب الإنفاق والسعة في موارد الرزق فقد كان أبو راشد قادرا على تأمين كل ذلك بشجاعة وسعة حيلة وذكاء مميز .

صلاتي به وبأبنائه : كنت يافعا حين تعرفت إلى هذه الشخصية الفذة عن طريق والدي الذي كان يتردد إليه مصطحبا إياي في كثير من الأحيان لا سيما وأن ولديه راشد وماجد هما من جيلي وتكاد سني وسنهما أن تكونا واحدة وكنا - نحن الثلاثة - نذهب إلى صيدا لتلقي العلم : هما إلى مدرسة الأميركان وأنا إلى المقاصد . وكان الجامع بيننا أثناء العطل المدرسية الأديب والشاعر المرحوم السيد علي ابراهيم الذي كان يحلو له أن يقيم بيننا المساجلات اللغوية والشعرية بإشرافه، ثم يطلق أحكامه علينا التي كانت منصفة للطرفين : راشد وماجد من جهة وأنا من جهة أخرى . لكن ماجد كان يبذنا جميعا في شروحه اللاهوتية حين كان يشرح كثيرا ونفهم قليلا . لكن السيد علي كان يتدخل عند « الحشرة » ويعيدنا إلى المسائل الأدبية واللغوية المبسطة . .

خصائصه : اجتمعت لأبي راشد خصائص ميزته عن العديد من أبناء جيله وعائلته منها : القدرة على حل المشاكل باتجاه الخير والنفع العام والثقافة المكتسبة بالمطالعة واستضافة الأدباء والشعراء والعلماء ترفده ذاكرة قادرة وذكاء لماح . كما تميز أبو راشد - في مجال السياسات المحلية - بالثبات على المبدأ والموالاة الخالصة من شوائب المادة والنفع الخاص . . وكل هذه شمائل كانت تطبع رجالات جيله بطابع فريد أدناه الإخلاص وأعلاه التفاني في خدمة الغير .

أما الإيمان بالعروبة والشهامة العربية والاتحاد العربي للقضاء على كل مستعمر ودخيل ، فكانت من صميم شمائل أبي راشد : ظهر ذلك في ما نظم

من مقطوعات شعرية قومية الاتجاه ووطنية المنطلق تضج فيها أنفاس وحدوية عارمة . وها نحن نثبت بعضها هنا(١) :

بربك قل لي أي شــأن لأمــة لها حـاكم منها غبي وجاهل
ترى حقـه حقا عليها وحقها عليه ومنه مسـتباح وباطل
ارض العروبة قد أثرت شجوني فـهـواك إيماني وحـبك ديني
إن لم أذب في عود مجدك مهجتي لا كنت يا غاب الاسود عريني
او لم أجـرد في يميني صـارمي للذود عنك، إذن، تشل يميني
واقـارع الاعـداء لا مـتـهـيـبا نيـرانهـا مـتـدرعـا بمنوني
بحـجـافل عـربيـة لم يثنهـا اسطول جورج أو جيوش لينين
واعيـد في أرجـاك مجـدا دونه مـجـد الرشيـد وعزة المأمون
احـيي به ديني وأوطاني مـعـا عـهـدا، والا لست فخر الدين

تراها أحاسيس فردية أم هي هاجس أمة بكاملها أي انتماء وانتخاء عربيين يضجان في هذه الابيات ـ النفثات. . .

ويختصر أبو راشد نسبه السوري ـ العربي بهذا البيت :

أنا سوري واصلـي عربـي ولقحطان تسامـى نسبـي

ومن خصوصياته الحميمة رثاؤه لابيه الذي اغتاله المرض وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين. رثاء فيه فخر وانتخاء أكثر مما فيه تفجع وبكاء :

أبا الفخر فاخرت الرجال وفقتهم جهاداً وإيمانا لفضلك والفكـر
وناصرت أخوانا ضعافا تناولـت نواصيهم أيدي الضلالة بالغـدر

---

(١) اخذنا هذه المقطوعات مما اختارته السيدة نجاة لأبيها في كتابها الذي اعدته عن اسرة آل فخري في الزرارية . (انظر الكتاب ص ٨٤ وما بعدها) .

سيبقى بعين الله ما كنت صانعـا   وتمضي وتبقى منك عابقة الذكـر
وتخلد في أخراك فيما صنعتـــه   بدنياك ذخرا، يا أبا الفخر للحشر

توفي أبو راشد عن عمر مديد تجاوز التسعين وذلك عام ١٩٦٨ ودفن في الزرارية.

ماجد فخري :

أحد أنجال فخر الدين فخري (ابو راشد) الخمسة عشرة ، وبكر والده من زوجته الثانية خاشية أحمد الحاج يحيى . (١)

ولد في الزرارية عـام ١٩٢٣ تلقى علومـه الاوليـة في مـدرسـة الفنون الاميركية في صيدا، ثم في الجامعة الاميركية ببيروت وتخرج من جامعة ادنبره «اسكوتلاندا» حيث حصل على دكتوراه في الفلسفة.

عمل بعد التخرج لمدة ثلاث سنوات في معهد الدراسات الشرقية بلندن. عاد الى لبنان عـام ١٩٥٤ فتبوأ مركز محاضر في قسم الفلسفة في الجامعة الاميركية في بيروت وتدرج الى رتبة استاذ، ثـم أصبح رئيسا لقسم الفلسفة فيها. (٢)

مؤلفاته :

أتجه الدكتور ماجد ـ اثناء تدريسه الفلسفة ـ الى التأليف (٣)

---

(١) طبقا لما جاء في شجرة اسرة حسن فاضل فخري اعداد نجاة فخر الدين ص ٩٢ ط ١ ـ ١٩٩٠ بيروت

(٢) نفس المصدر ص ٩٢

(٣) قال لنا يوما مجيبا عن سؤال : لماذا لم تؤلف في الفلسفة : اخشى ان يكون سعر الكتاب في لبنان ارخص من سعر البطيخ . .

فصدرت له على التوالي : الكتب القيمة التالية :

- ارسطو طاليس المعلم الاول - بيروت ١٩٥٨
- ابن رشد : فيلسوف قرطبة بيروت ١٩٦٠
- رسائل ابن باجة الالهية بيروت ١٩٦٨
- سلسلة الوجود الكبرى (ترجمة) بيروت ١٩٦٥
- في الحكم المدني (ترجمة) بيروت ١٩٥٩
- دراسات في الفكر العربي ، بيروت ١٩٧٠
- أبعاد التجربة الفلسفية ، بيروت ١٩٨٠

الى جانب مؤلفات له باللغة الانكليزية .

وقد أصبحت كتبه هذه لدقتها وشموليتها من المؤلفات التي يعود اليها الباحثون في قضايا الفلسفة والفكر العربي والاسلامي.

تزوج الدكتور ماجد من اليس شبر من مدينة القدس الشريف وانجبا ثلاثة اولاد هم : سمير وباسم وريما - وهو مقيم الآن في بيروت.

نماذج من آثاره :

أمام مفكر من هذا العيار لا يكفي أن نقدم - في هذا الكتاب نموذجا أو نموذجين أو أكثر مما الف وكتب، لذلك نهيب بالدارسين والمهتمين بشؤون الفكر والفسلفة الذين لم يتسن لهم الاطلاع على كل ما كتب الدكتور ماجد وألف

ليقفوا على حقيقة منحاه الفكري واسلوبه العلمي في التحقيق والمقارنة أن يقرأوه في مؤلفاته كلها لا في ما نختاره هنا فحسب .

« فكرة الدولة الدينية في المناقشات الحديثة» :

«يمكن اعتبار فتح هولاكو لبغداد سنة ١٢٥٨ بمثابة الانهيار الفعلي للخلافة التي ضمنت طيلة قرون عدة بقاء الامبراطورية الاسلامية وتماسك اجزائها، حتى في الطور الاخير من تاريخها حيث لم تعد الخلافة سوى منصب شكلي خلو من كل سلطة فعلية. فقد كانت هذه المؤسسة الاسلامية حتى في عصور الانحطاط السياسي والعسكري الرمز لوحدة الامبراطورية والراية التي تلتف حولها الشعوب الاسلامية، وما ذلك الا لأنها كانت في جوهرها مفهوما دستوريا دينيا.

يبدو انهيار الخلافة العباسية من الخارج كمثل من امثلة انتصار قوة عسكرية متفوقة على مملكة انهكتها قرون من التطاحن الداخلي. اما من الداخل فهو يبين بوضوح مدى ما أصاب هذه المملكة من الوهن. بحيث لم يعد الخليفة فيه سوى حاكم اسمي، لاهيبة له ولا خطر وبحيث بات العوبة في يد المغامرين العسكريين المنبعثين من صلب حرسه التركي والفارسي. والواقع أن الانحلال التدريجي للخلافة كان قد بدأ قبل الفتح المغولي بزمن بعيد. حتى ان سلطة الخليفة « لم تكن لتمتد» حتى في القرن العاشر، كما يقول السير توماس ارنولد « الى ما وراء حدود مدينة بغداد» ونحن لو استثنينا عددا من الخلفاء كمعاوية وعمر وهارون الذين تفردوا بقدرتهم وحنكتهم الشخصيتين فليس من الواضح أن سلطة عامة الخلفاء كانت تبرر القول ان الخليفة هو الحاكم الفعلي للعالم الاسلامي بجملته».

الى أن يقول : «من اليسير أن يناقش المرء ما إذا كان الافتتان بفكرة الخلافة الذي استحوذ على الخاطر الاسلامي ناشئاً عن هذه الصفة الدينية الدستورية لهذا

المنصب الرفيع وما إذا كان اجلال الجماهير لمقام الخلافة ناجما عن الصفة الالهية أو شبه الالهية التي كانت تستند اليها تقليديا أن الفكرة الشيعية للخلافة أو الامامة كمنصب واجب منصوص عليه نصا الهيا، معصوم صاحبه عن الخطأ في احكامه وعن الاثم في افعاله هو مثل واضح رغم غلوه على هذه النزعة الطبيعية لاسناد صفة روحية اولية الى الخلافة، ولكن الفكرة السنية أيضا، كما تتجلى في تصانيف الفقهاء والمتكلمين تشدد تشديدا واضحا على الناحية الروحية في الخلافة وعلى دور الخليفة كامام أو رئيس ديني واجب للأمة الاسلامية، والواقع أن هذا الارتباط بين فكر امة اسلامية واحدة وفكرة رئيس أو إمام سياسي ديني واجب لهذه الامة هو مظهر هام من مظاهر الفكر الاسلامي واساس للدعوة الى الوحدة الاسلامية التي نادى بها المصلح الكبير جمال الدين الافغاني(١٨٣٩ - ١٨٩٧) في أواخر القرن الماضي وقد شهد القرن التاسع عشر الى جانب انبثاق فكرة الوحدة الاسلامية انبثاقا جديدا لفكرة الخلافة وهي ظاهرة تبدو أوضح ما تبدو في فترة التعاون القصيرة بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين في العقد السابع من القرن التاسع عشر. ومع أن بزوغ القومية التركية والقومية العربية المتنافستين اوائل القرن العشرين اصطدم بفكرة الاتحاد الاسلامي. الا أنه ليس من الثابت أن القومية قد نجحت نهائيا في القضاء على الفكرة الاسلامية أو اجتثاثها، بل على العكس فثمة ادلة جمة تدل على أن بعض الدول الاسلامية في الشرقين الادنى والاوسط كالمملكة السعودية وباكستان قد اخذت تتجه في الآونة الاخيرة نحو الفكرة الاسلامية للدولة» الخ. . .

وفي هذا الكتاب نفسه موضوع اخير بعنوان : **اكتشاف الانسان العربي.** يقول الدكتور ماجد : قد يبدو الحديث عن اكتشاف الانسان مستهجنا في حقبة

بات العالم فيها على عتبة اكتشاف الكواكب وغزوها. . . ولكن ليس في ذلك ما يدعو الى الاستهجان قط.

فاكتشاف الانسان لم يكن حدثا عارضا من احداث التاريخ القديم أو نعمة ربانية هبطت على جميع شعوب الارض دون استثناء. . . فمن هذه الشعوب من لم يكتشف الانسان الا منذ قرون معدودة ومنهم من لم يكتشفه بعد ومنها من قد لا يكتشفه ابدا. . .

فماذا نعني باكتشاف الانسان هذا. ؟

نعني بذلك اولا : الوقوف على حقيقة الانسان، بما هو إنسان، أي على حقيقته الجوهرية التي تختلف اختلافا قاطعا عن حقيقته العرضية واحواله الطارئة والوضع الذي وضعه له المجتمع اتفاقا وعرضا، وفي الإدراك العرضي للانسان، وهو الادراك الذي ما زال سائدا في عدد من المجتمعات اليوم، يبدو الانسان كذات مسخرة أو ككائن مضاف لا يكتسب وجوده معنى إلا بالإضافه الى عشيرة أو سلالة او طبقة أو مذهب ديني أو سياسي ما، أو بالاضافة الى قدر من المال أو المتاع الذي اتيح له اقتناؤه، والذي يقاس قدره وقدر سائر الناس به. وبذلك يفقد الانسان قيمته الجوهرية ، وعوضا عن أن يكون غاية بحد ذاته يصبح وسيلة أو أداة أو سلعة وحسب. . . وعوضا عن أن ينظر اليه ككائن قائم بحد ذاته ينظر اليه كجزء من أمة أو طائفة أو طبقة، أو كمالك لمتاع ما، أو وسيلة لغاية ما. . والخاصة الجوهرية للكائن الحق هي الهوية لا الملكية ولا الخ. (١)

---

(١) للتوسع انظر كتاب : دراسات في الفكر العربي ط١ ص : ٢٤٩ ومابعدها . ماجد فخرى. بيروت ـ دار النهار للنشر . ١٩٧٠ .

أما في كتابه «أبعاد التجربة الفلسفية» فهناك موضوع استرعى انتباهي وهو : البعد الجمالي أو بين الشعر والفلسفة :

وهذه بعض مقاطعه : « لغة الفن وهو الميدان الآخر الذي تبلغ فيه الكلمة مرحلة ما من التجريد أي الترقي من صعيد الجزئيات الى صعيد الكليات دون أن نبلغ مع ذلك المرحلة التي تبلغها الفلسفة. وينفرد الشعر، من بين الفنون الجميلة وهي النحت والرسم والموسيقى والرقص والتمثيل، بالتصاقه باللغة أداته الوحيدة. فيجب أن نبحث عن آصرة القربى بينه وبين الفلسفة، ولا يتيسر لنا ذلك ما لم تبرز وجوه التباين بين الشعر والفنون الاخرى وتحديد ما هيته وارتباطه بالذهن وسواه من الطاقات النفسية. غرض الفنون جميعا التعبير عن احساسنا بالدهشة أو الفرح (أو اللوعة المقابلة له) أمام مشهد من مشاهد الجمال(أو القبح) المتجلي في أثر الطبيعة أو الصناعة حاصل بالفعل أو المتخيل، الحصول بالفعل من مقومات الموجودات الطبيعية عامة وبعض المصنوعات الفنية خاصة. فالمشاهد الطبيعية الرائعة والرسوم والمنحوتات شواهد على ذلك. الا أن من مظاهر الجمال قسما هاما لا يحصل بالفعل قط. ولا يتخذ شكلا من أشكال الوجود الطبيعي أو الصناعي المعروفة، ولا مادة له الا بالكلمة وجانب الروعة فيه لا يخرج مع ذلك من أطار الحس الداخلي أو الباطني سواء عنينا بذلك الذاكرة أو التخيل أو التمثل باشكاله. لذلك يبقى جانب الاساغة الفنية فيه ذاتيا أو باطنيا متصلا ـ كما سنرى آخر الامر بالخيال من الشواهد على ذلك ينكشف للمرء في عالم الاحلام سواء في المنام أو اليقظة. . . ».

هذا المقال الرائع طويل ونكتفي منه بمقطع أخير حين يقرر الدكتور

ماجد :«أن الشعر الحق عوض على الوجود الحق[١] فاذا صح أن أقسام الوجود ثلاثة هي الطبيعة والانسان والله، وجب أن تكون مواضع الشعر الكبرى ثلاثة. وما يدور منها على الطبيعة (وفيه يدخل جانب كبير من الشعر الرومانتيكي) وما يدور على الانسان وافراحه ومآسيه، وما يدور على الله وصلته بكلا الطبيعة والانسان (وفيه يدخل جانب كبير من الشعر الصوفي والفلسفي خاصة) وبين من هذا التقسيم أن أبلغ الفن وأروعه ما كان يدور على قضايا الانسان والله. . . وأجمله ما كان يدور على الطبيعة من حيث هي طبيعة لا من حيث صلتها بالانسان والله. فالطبيعة لا تصبح موضوعا فنيا أو شعريا اصيلا الا بمقدار ما ينفث الانسان فيها شيئا من روحه ويسبغ عليها معنى انسانيا جديدا.

هل نعثر في تاريخ الشعر العالمي على شاعر عظيم واحد لم يقف مشدوها أمام هذه الدراما الانسانية ففتن بها وحار لبه فيها، فبكى أو ضحك أو اكتفى بما هو اعمق من البكاء أو الضحك بالخشوع الصامت. هوميروس، سوفوكليس، دانتي، شكسبير، موليير، غوته، ملتون اليوت [٢] ما هو سر عظمة هؤلاء الشعراء. إنهم أدركوا هذه الدراما وابصروا الانسان على حقيقته كمخلوق «ليس

---

(١) يختتم الدكتور ماجد فخرى كتابه بهذا البحث القيم . ونحن لا نستطيع اثباته هنا كله وعلى المهتم بمثل هذه الدراسات الفكرية والانسانية العميقة ان يعود اليها . المؤلف

(٢) انظر : ابعاد التجربة الفلسفية ص ١٣٧

ملاحظة : بعد ان رفض الدكتور ماجد كون شعر الوصف والرصف شعرا . . نسأل : ما رأي الدكتور ماجد ـ خارج هذا الشعر ـ بوقفات المعري امام القدر والانسان والمجهول والمتنبي والحلاج وابن عربي وابن الفارض وحتى ابن الرومي؟ لعل الدكتور كان يعني امثال هؤلاء الشعراء العرب الكبار ـ المؤلف ـ

بالملاك ولا بالحيوان» واقف على تخوم عالمين : عالم يصبو اليه ولا يستطيع اللحاق به وعالم يتبرم به ولكنه ملزم مع ذلك أن يحيا فيه ، هذا هو معنى القدر ومعنى القصة الكيانية التي يشعر بها الانسان بين يدي المصير المحتوم والتي يفصح عنها كل شاعر أو فنان عظيم في آثاره. وكل شعر لم يعبر عن صولة هذا القدر وعن القصة الكيانية التي يقاسيها الانسان و عن الفرح الذي ينبثق عن رؤيا الشاعر إذ ينفذ الى عالم الغيب الكائن وراء المرئيات وعن دهشته وتعجبه وافتتانه اذ ينظر اليه . . . فليس شعرا. . . » ويختم الدكتور بحثه هذا بقوله :« ان الشعر كالفلسفة. ان هو في جوهره الا البحث السقراطي عن معرفة الذات. »

آل مروة :

يرجع نسب آل مروة الى الجد الاعلى مالك الاشتر بن مالك بن الحارث النجفي الملقب بأمير الجيش(في المدينة المنورة). ولد عام ٦١٨ ـ ٦٥٩م) عاصر النبي محمد (ص) والامام علي(ع) ومعاوية وشهريار ملك الفرس. خاض معارك اليرموك والقادسية والجمل وصفين، واثبتت التحقيقات والمراجع التاريخية أن آل مروة المقيمين حاليا في عدد من قرى ومدن لبنان وخاصة في جبل عامل وسورية(اللاذقية) وفلسطين (الجليل الاعلى) والاردن (المربد) والعراق (النجف) وايران (قم وطهران) بالاضافة الى عائلات متحدرة منهم كعائلة الصباح وعائلة شرارة والزين والفقيه وضاهر ورضا وحلاوي وجابر(١).

---

(١) كل هذه العائلات تنتمي الى قبيلة واحدة هي همدان والى مؤسس واحد هو مالك الاشتر. اما كلمة مروه فمخففة من المروءة التي نعت بها مالك .

ومالك هذا كان واليا على مصر وتوابعها من قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وهو من قبيلة همدان التي قال فيها الامام علي بيته الشهير :

ولو كنت رضوانا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

ولدينا معلومات مستقاة من بطون الكتب التاريخية تؤكد أن لفظة (مروه) عرفت منذ ما يزيد على ٣٧٢ سنة، أي من عهد الشيخ علي بن يحيى البهائي الهمداني الذي ولد في صيدا عام (؟هـ.) ١٦٦٧م. وعاصر الامير فخر الدين المعني وحارب معه وانتصر على الاتراك عام ١٦١٨م واجلاهم عن قلعة الشقيف وقتل قائدهم الذي لم يترك عالما من العلماء الا وقتله أو نكل به. ولهذا لقب الشيخ علي البهائي الهمداني هذا «بصاحب المروءة» وكان اينما ذهب ينادونه بهذا اللقب ويقال انه تولى أمارة جبل عامل (١). . .

أنجبت هذه العائلة العلماء والكتاب والادباء والصحافيين والاطباء والمهندسين والمحامين واساتذة الجامعات ممن كانت لهم اليد الطولى في الابداع واحياء التراث من جهة والجهاد الوطني حتى الاستشهاد من جهة ثانية.

---

(٢) انظر وصية الامام لاهل مصر حين ولى عليهم الاشتر . نهج البلاغة تحقيق وتبويب وشرح الدكتور صبحي الصالح . دار الكتاب اللبناني ١٩٦٧ بيروت . ومما جاء في وصف الامام علي للاشتر قوله (ع) :«اما بعد فقد بعثت اليكم عبدا من عباد الله . لا ينام ايام الخوف ولا ينكل عن الاعداء ساعات الروع ، اشد على الفجار من حريق النار وهو مالك بن الحارث اخو مذحج فاسمعوا له واطيعوا امره فيما طابق الحق فهو سيف من سيوف الله لا كليل الضبة ولا نابي الضربة فان امركم ان تنفروا فانفروا . . الخ (النهج ص ٤١١) لقب مالك بالاشتر لاصابة جفن احدى عينيه يوم معركة اليرموك . شق جفنه سهم وظل الجفن مشقوقا طوال حياة مالك فعرف به (انظر مجلة امل ص ١١ العدد الصادر في ٩ آب ١٩٩١ .

من العلماء : الشيخ محمد حسين مروة الملقب بالحافظ اذ يروى عنه طرائف كثيرة وروايات عجيبة منها : أنه كان في يوم من الايام في ديوان ناصيف باشا الاسعد في الزرارية واذ بشاعر مخضرم يدخل على الباشا ليلقي بين يديه قصيدة يمدحه فيها يربو عدد ابياتها على المائة. اعجب الباشا والمشايخ بها ما عدا الشيخ الذي وقف بعد تلاوتها قائلا : هذه القصيدة ليست لك أيها الشاعر المزيف بدليل أنني احفظها كلها وبالفعل تلاها عن ظهر قلب من أولها الى آخرها. بهت الحاضرون وهموا بالشاعر. . . لكن الشيخ الحافظ استدرك واعترف للشاعر بها وأنه هو قائلها (أي الشاعر) مخافة الا يخسر الجائزة. . .

ومن أعاجيب حفظه أنه قدم على الباشا ضابطان اجنبيان ليشتريا من إصطبل الباشا بعض الخيول الاصيلة. ولم يكن هناك من مترجمين (عن التركية أوالفرنسية) ذهب الشيخ معهم الى الاصطبل كدليل لا كمترجم. وهناك تشاور الضابطان فيما بينهما واتفقا على أن يشتريا حصانين بأي ثمن يريده الباشا.

حفظ الشيخ كل كلامهما حرفيا دون أن يفهم منه شيئا ونقله الى الباشا الذي فهمه فطلب الباشا منهما ثمنا مضاعفا. واكرم الشيخ. . .

ومهما ظهر على مثل هذه الروايات من الصنعة والمبالغة فقد عرف الشيخ بقوة حافظته ولا سيما في مجال حفظ الشعر والمطولات الشعرية. . .

دفن الشيخ الحافظ في قرية (أرزاي) المجاورة للزرارية رحمه الله.

الاعلام من آل مروه : الشيخ سلمان مروه : له عدة مؤلفات منها كتاب : أحسن الاثر، عاش وتوفي في صيدا.

الشيخ محمد نجيب مروه : شاعر فكاهي لم يترك زعيما أو ملكا أو

وجيها متزعما الا وهجاه بشعر مقذع في غلاف من السخرية الضاحكة لا الجارحة.

من أبرز مؤلفاته : رحلة الشتاء والصيف. ولد وعاش وتوفي في عيتا الشعب في اقصى الجنوب اللبناني.

الشيخ علي مروه : والده عباس مروه الشيخ والفقيه الفاضل. تقلد منصب رئيس بلدية جباع وانتخب لها عدة مرات. الف كتابه الشهير : تاريخ جباع وكتباً أخرى في التاريخ والادب الفكاهي : ككتا ب : روائع الادب الفكاهي العاملي وغيره.

ولد الشيخ علي مروه في جباع ومات فيها (١).

الاستاذ الشيخ حسين مروه : وهو أديب وناقد ومفكر معروف وصحافي مرموق. كان ذا اتجاه تقدمي انساني. تخرج من النجف الاشرف وقبل انتهاء دراسته الدينية العليا طرده نوري السعيد لمهاجمته، في الصحف العراقية ـ للاستعمار وعملائه والمعاهدات المشبوهة التي كان نوري السعيد بصدد تنفيذها ليكبل بها العراق ويلحقه نهائيا بركب الامبريالية.

---

(١) ـ عرفت الشيخ علي مروه في جباع عندما كنا في اوائل الخمسينات نصطاف مع طلاب الجعفرية الداخليين في هذا المصيف العاملي الرائع عرفت فيه الخلق الراقي والوفاء والكرم وحب الادب والادباء والشعراء الذين كان منزله ندوة لهم وملاذا كالصافي النجفي ومحمد علي الحوماني وزهرة الحر ونزار الحر ومحمد كامل شعيب العاملي وسواهم .

انظر تفصيل ذلك في فصل : الزرارية ـ جباع من هذا الكتاب

ـ المؤلف ـ

عاد الى بيروت ليحرر في مجلة الطريق وجريدة الحياة التي كان له فيها ركن حر يكتب فيه بكل حرية ودون التزام باتجاه الجريدة، عنوانه : مع القافلة.

أهله واقاربه اكثرهم في الزرارية ولكنه ولد في حاريص (؟) والاصح في عيناتا . له كتب نقدية أدبية كثيرة عالج فيها على ضوء منهج الاشتراكية العلمية أو الواقعية الحديثة آثار ودواوين الشعراء القدامى والمحدثين. نقدا رصينا علميا وهادفا. وكتاب : تراثنا كيف نقرأه. أما كتابه الموسوم : النزعات المادية في الفلسفة الاسلامية فقد صدر منه في حياته مجلدان الاول والثاني. أما الثالث فقد امتدت له يد الغدر والظلام قبل أن يتمه، اغتالوه وهو على فراش المرض والشيخوخة في ١٧ شباط ١٩٨٥ دفن في دمشق قرب ضريح السيدة زينب(ع) .

كريم مروه : سياسي لامع ونائب الامين العام للحزب الشيوعي اللبناني. له مؤلفات عديدة في النقد والتنظير السياسي الهادف ومعالجة قضايا الفكر المعاصر والحرية والالتزام. ولد في حاريص وعاش في بيروت وهو اليوم طليعة الصحافيين اللبنانيين الملتزمين بنهج الاشتراكية العلمية. صدر له مؤخرا كتاب (حوارات مع أربعين مفكرا لبنانيا وعربيا) يكتب في مجلة الطريق بشكل دائم. وكذلك في مجلة النداء.

يوسف مروة : مهندس وباحث كبير في الرياضيات والذرة. ولد في النبطية وله عدة مؤلفات عن المخترع اللبناني العاملي الشهير حسن كامل الصباح.

حاول أن ينشيء مصنعا للذرة باسم حسن كامل الصباح. لم يفلح في ذلك لانعدام التشجيع الرسمي له وتكاليف المصنع الباهظة. هاجر الى كندا طلبا للعيش. كتبت عنه جريدة الانوار تحت عنوان : عالم ومخترع لبناني يعمل مجلخا في كندا. . . لم ينجح في حقل التجارة فعاد الى موطنه ومسقط رأسه

النبطية وهو الآن رغم تقدم السن به لم ييأس ويحتشد في رأسه الكثير من المشاريع العلمية.

كما انجبت هذه العائلة الكثيرين من العلماء في جميع الحقول ولا سيما الطب كالدكتور رضا مروه الذي كان له مستشفى في بيروت والدكتور عدنان مروه الاختصاصي الشهير في طب النساء في الجامعة الاميركية في بيروت وهو ـ الى هذا ـ رئيس جمعية تنظيم الاسرة وعدة جمعيات خيرية انسانية. تقلد منصب وزير الصحة والشؤون الاجتماعية في العهد السابق(١). وهناك الدكتور محمد علي مروه الاختصاصي في جراحة القلب والدكتور أحمد مروه الطبيب النسائي في مستشفى جبل عامل في صور.

ولو أردنا أن نترجم لكل نابغة وناجح من هذه العائلة الواسعة الانتشار في لبنان ولا سيما في جبل عامل لضاق بنا المجال هنا. ناهيك بالمغتربين منهم في افريقيا وغيرها ممن نجحوا وحققوا طموحاتهم في جمع ثروات طائلة ثم عادوا الى مواطنهم ليسهموا في انماء وتطوير مساقط رؤوسهم ولا سيما مغتربو الزرارية من آل مروه .

كامل مروه : سأترجم له دون الرجوع الى أي مصدر مكتوب أو مسجل. فهو أولا من مواليد بلدتي الزرارية وخاله الملقب بالزعيم خليل محي الدين منزله ملاصق لمنزل اهلي فيها. وحين انشأ جريدة الحياة عام ١٩٤٦ كنت من بين الذين استشارهم في موضوع الاسم الى أن استقر رأيه على اسم « الحياة» التي لا تزال

---

(١) انظر نبذة عنه في فصل : الزرارية ـ جباع من هذا الكتاب

تصدر حتى اليوم في ثلاث طبعات : طبعة لندن وطبعة القاهرة وطبعة بيروت يقوم على اصدارها مع ثلة من الصحافين والادباء نجله الاكبر جميل [1] الذي يبدو أنه ورث كل خصائص ابيه في الألمعية والذكاء والنشاط. كان المرحوم كامل قد بدأ نشاطه الصحفي مراسلا ـ اثناء الحرب العالمية الثانية ـ للوكالة الصحفية الالمانية (د. ن. ب .) وبعد الحرب خصص له الصحافي اللبناني الشهير جبران تويني (والد غسان) مكتبا في مقر جريدة النهار الكائن آخر شارع سوق الطويلة في بيروت، وكنت اتردد عليه بين الحين والآخر. فأجده وقد شمر عن ساعد الجد منهمكا بتحضير المواد لجريدة الحياة وتنقيح وتصحيح مقالات وريبورتاجات النهار. . .

كانت تربطه بالمرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين روابط كثيرة منها الشخصي ومنها العام. وعندما كان في زيارة للسنغال اراد المرحوم كامل أن يجعل من الحياة مؤسسة لا مجرد جريدة عادية تعنى بالطباعة والنشر لكافة أنواع الآثار الصحفية والادبية والتاريخية والشعرية الخ. فأسس شركة مساهمة لهذا الغرض، وكان عمنا ممثلا لها لديه ونائبا عن المشتركين من الجالية اللبنانية في داكار . فاجأني مرة بقوله : جاءتني رسالة من عمك يقترح علي فيها أن أهيء لك السفر الى بغداد، حيث تلتحق هناك بالمدرسة الحربية وبعدها تدخل كلية الاركان. . فما رأيك؟. نزل علي هذا الخبر نزول الصاعقة لا لأنني أكره هذا السلك بل لأنني لست مؤهلا له لا جسديا ولا نفسيا. . كانت كل ميولي منذ

---

(١) علمت من بعض المصادر الصحفية في بيروت ان الاستاذ جميل قد باع امتياز الحياة التي تصدر في لندن ـ المؤلف ـ

يفاعتي ـ أدبية تربوية. فصارحت الاستاذ كامل بالحقيقة فارسل الى عمي رسالة يخبره بما قلت. فارسل اليّ عمي رسالة توبيخية.. خلاصتها : اذا كنت أنت وامثالك من الشباب الطالع ترفضون الخدمة العسكرية والانخراط في أي جيش عربي فمن ينقذ فلسطين ويحررها من بني صهيون.. ؟ وعندما جاء هذا العم الى لبنان وجدني قد «عملت» استاذا في الكلية العاملية وتزوجت : فقال مازحا : (هيك أحسن يا شاطر؟ !!) (١)

الصحافي الجريح : كان المرحوم كامل في عداد الصحافيين العرب المراسلين الذين رافقوا جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي عندما قرر العرب الزحف على فلسطين لانقاذها من الصهاينة ثم انقلبت المهزلة الى مأساة حين رضي العرب والأصح الرؤساء العرب بالهدنة الاولى ثم الثانية وكانت الجيوش العربية على قاب قوسين أو أدنى من النصر...

وفي معركة المالكية جرح الصحافي كامل مروه الذي كان يغطي أخبار الزحف لجريدتي النهار والحياة... وأذكر أن بعض أهله في الزرارية كأبي منير مروه واصدقاءه من مثل المرحوم والدي وآخرين قد هيأوا وفدا لزيارته في مستشفى الجيش السوري في دمشق حيث نقل اليه للمعالجة. كما اذكر انني كنت في عداد الوفد نظرا لصداقتي الشخصية له...

ويظهر ـ بعد ذلك ـ عبد الناصر وتتغير السياسات والاحوال ويغتال كامل

---

(١) ومن يدري لو اني نفذت رغبة عمي ـ لكنت اليوم قائد انقلاب عسكري على من لا يريد ان يحرر فلسطين ويوحد العرب او كنت في عداد الشهداء . . والله اعلم

ـ المؤلف ـ

مروه على يد الطالعين من جحور النسيان ودعاة الناصرية المزيفين. وذلك عام ١٩٦٥ أو ١٩٦٦ لا أذكر.

كان كامل مروه يفهم القومية العربية والوحدة العربية كما كان يفهمها ويعمل لها : هنا نو وفارس الخوري والقوتلي وهاشم الاتاسي وفيصل الاول والعظمة وامثالهم ممن لا ينظرون ويتفلسفون ويرتزقون بل يعملون. . .

آثاره : لكامل مروه كتاب تاريخي احصائي هو : نحن في افريقيا يؤرخ فيه لهجرة اللبنانيين الجنوبيين وغير الجنوبيين ويتحدث فيه طويلا عن اسباب هذه الهجرة الى الاميركتين ثم الى افريقيا حيث ذاب هناك في اميركا من ذاب منهم ولم ينجح مادياً وهنا في افريقيا . . حيث نجح الكثيرون منهم من الرعيل الاول واسس لابنائه واحفاده من بعده. ولكامل مروه مذكرات لم يتمها جمع فيها كل ما كان يكتبه في جريدته الحياة كأفتتاحيته الشهيرة تحت عنوان دائم : قل كلمتك وامش. . .

حقا. . لقد قال كامل مروه كلمته، بصدق وصراحة ـ ومشى. . . وعلى التاريخ ان يقول كلمته فيه بصدق وصراحة. . . ويمشي. . رحم الله كاملا وغفر لظالميه والمتسرعين في الحكم عليه. لقد كان صحافيا كبيرا عالمي الشهرة، بعيد الأثر في فن الصحافة العربية والدولية.

واذا ما عد النوابغ في الصحافة العربية عد كامل مروه من اوائلهم، وتستطيع الزراريه ان تباهي به بصرف النظر عما يرجف المرجفون. . .

أحمد علي مروه هو ابن المرحوم الحاج علي مروه من مخاتير الزرارية السابقين. تعلم أحمد في مدارس الزرارية الابتدائية كمدرسة الشيخ محمد بلال ثم انتقل الى مدرسة النبطية الرسمية وهناك التقيت به، في العام التالي لذهابه اذ

كان اكبر مني سنا، وكثيرا ما كان يهتم بامور معيشتي بعد أن تركني شقيقي نجيب الذي هاجر الى افريقيا، كما يهتم بشرح بعض الدروس التي كنت ضعيفا فيها كالحساب والاملاء الفرنسي. فلولا اهتمامه هذا مضافا الى اهتمام الاستاذ انطون صايغ بتقويتي في هاتين المادتين لما نجحت في السرتفيكا عام ١٩٣٨ (١)

ولما عجز الاهل عن تأمين تكاليف تعليمه واستمراره في التعليم هاجر مع من هاجر الى افريقيا، الى داكار عاصمة جمهورية السنغال اليوم. وهناك جرب حظه في التجارة فخانته، واخيرا فتح فرنا لبيع الخبز والمعجنات على اختلاف انواعها فنجح واصبحنا نراه يعود بين الفينة والفينة الى وطنه وبلدته ليشتري بعض العقارات والعمارات في صيدا وبيروت لتأمين مستقبل ابنائه.

اهتماماته الادبية : كان المرحوم منذ عرفته تلميذا مهتما بالشأن الادبي متتبعا لآثار الكتاب والادباء والشعراء. . . ثم محاكيا لهم ناظما بعض القصائد الاخوانية والمساجلات النقدية والشعرية مع الشاعر ابراهيم فران والمرحوم عمنا السيد حسن وسامي القرملي صاحب مكتبة في داكار وسواهم وكانوا معجبين بشعره وبآرائه النقدية التي يدعو فيها الى التجديد في الشعر العربي لا أن نبقى كالشعراء الجاهليين واقفين على الاطلال ومقلدين لكبارهم كالاعشى والحطيئة وحسان أو كأبي تمام والمتنبي والأخفش !! ألخ. .

---

(١) كانت هذه الشهادة الابتدائية ذات شأن واعتبار فالناجح فيها تقام له الحفلات والمآدب من قبل الاهل وكأنه نال الدكتوراه ! حتى الدكتوراه في هذه الايام اصبحت في أكثر المعاهد والجامعات عندنا وفي اوروبا تباع بيعا ولا تقام لصاحبها الحفلات للتسلية انظر عمر فاخوري في مقالة له بعنوان : ابن الجيران يأخذ الشهادة . . .

وحين عاد الى لبنان عودته الاخيرة أواخر عام ١٩٧٧ كان يود أن «يرتاح» في بلدته ويلقي عصا الترحال المضني والطويل لكن الاحداث الاليمة التي وقعت في لبنان وانتجت هذه الحرب الاهلية البشعة والتي بدأت بالقاء اوزراها أواخر العام ١٩٨٩، هذه الاحداث ارغمته على العودة من جديد الى ديار غربته. ويشاء الله أن يستقر هناك الى الابد.

قبيل هذه العودة القسرية جائني - في صور - زائرا ومودعاً واهداني كتابه : «من وحي الغربة»، طالبا مني كتابة مقال في موضوعاته التي يغلب عليها طابع الادب التأثري والخاطرة والأخوانيات والمشاهدات في لبنان واوروبا وافريقيا - مشاهدات ناقد ومحلل ومقارن. . . لكنني تقاعست يومها وزادت الاحداث من تقاعسي. . وحين وقفت في الزرارية رائيا له اعتذرت اليه ورحت اعدد مناقبه ومناقبيته ومواهبه الادبية التي تجلت في كتابه هذا حيث بدا ناقداً اجتماعيا ووطنياً قوميا يريد لوطنه وأمته ان يتخلصا من شوائب الطائفية والاقليمية وصولا الى وحدة عربية سليمة. . . تبدأ من القاعدة الشعبية ووعي الجماهير، لا من رأس الهرم حيث الحكام والمصالح وتضارب الاهواء. . .

لقد كان رحمه الله اديبا في ثوب تاجر، وقد سعى جاهداً للنجاح في الحقلين، اخفق في التجارة بداية رحلته ثم نجح فجمع بين المجدين. . . مجد الادب ومجد المال. . المال الحلال المجبول بدم القلب وعرق الجبين. . .

من مقالاته : وهذه نماذج من مقالاته النقدية التي كثرت في كتابه : تحت عنوان : فلسفة الهجرة، يقول :« أن أرادة الله قضت بأن ينظم البشر بواسطة الشرائع السماوية. لذلك كانت الشرائع تجمعها الغاية وتفرقها الوسيلة». . . الى أن يقول : « كذلك قضت مشيئة الله بأن تتفرق مخلوقاته ويسود فيهم الانشقاق. . .

ويحارب بعضهم بعضا، ويستعبد بعضهم البعض. . . وذلك لينتفض صاحب الاحساس الرقيق ويفر من وجه الظلم. . ليفارق ويذل ويتألم ثم يهاجر ليعمل ويعطي ويجود. . .

أن حكمة الله تقضي بأن يعمر أرضه بواسطة مخلوقاته فيأتون الى حيث يريد ويقيمون حيث يريد . . . » وينهي بقوله :« الله والوطن والام هذه الاقانيم الثلاثة هي الآب والابن والروح القدس. . . هي نور السموات والارض هي الله في كنيسته وجامعه، هي الله بعدله ورحمته، هي النور الذي ترجع اليه وأنت حائر. . . إذن :أنت في حمى ربك أينما كنت وحيثما توجهت. . .

سافر تجد عوضا عمن تفارقه   وانصب فإن لذيذ العيش في النَصَب

فلقمة العيش في بلادك هي لغيرك. . . ومالك الا الماء الآسن، ونفايات العبيد. . . سافر. . . » الخ. . .

وفي مقالة أخرى يهاجم الاقطاعية في الدين. يقول :« تطوعت لابحث عن الايمان، عن المؤمن فوجدت المؤمن بلا إيمان !. . . وجدت الدين من أجل الانسان ومن أجل الانسانية ومن اجل امنها في الحياة وسلامتها، ولم تكن الانسانية من أجل الدين وسلامته. . لقد زحف العرب على الشرق باسم الدين وانتقاما للدين من الدين. . . والدين بريء من إفكهم. لم تكن حروباً صليبية بل حروباً اقتصادية وسياسية. . . ليس من أثر فيها للدين. الخ.

وحين يكتب عن القرية اللبنانية يكتب بلوعة وألم ويأس. يصور واقعها كما هو ـ لا كما يجب أن يكون، وهنا نختلف معه. يقول رحمه الله :« القرية اللبنانية واعني بها القرية العاملية هذه القرية التي أكل الدهر عليها وشرب. . . كانت ولا تزال كما وضعها خالقها. . . ولست أدري إذا كان هناك من سر في

ابقائها على وضعها. . . قد يكون ذلك لتبقى مزارا. . . أو لتظهر الفرق بين القديم والجديد. . . أو بين العمار والخراب ، هذه القرية لم تزل كما ارادها ذووها. . لقد ارادوا أن تبقى خرابا، فإذا هي خراب أرادوها جائعة فقيرة، أرادوها ثائرة على بعضها. . . فإذا هي كما يريدون وأكثر. . . اعدوا لها القبر على يدي بعض ابنائها، فلم يتحرك الضميرالوطني . . . لقد بارت ارضها ونزح ابناؤها عنها، يبست الكرمة وامتدت السنة الجوع، هاجر من هاجر من ابنائها، ومن بقي لاقى ضروب الذل والجور والهوان. لو كان لهذه القرية وصاية لترفق بها الاوصياء، لو كانت مستعمرة لرثى لوضعها المستعمر، لكن هي لبنانية أبا عن جد وهي أخلص من أخلص للبنان. . لذلك لا يتدخل بشؤونها غير اللبنانيين. . . ولكن لماذا امعن المسؤولون في أهمالها. هذا هو السر المبهم [1] إنها ليست من الجبلة التي جبلوا منها، وهي نفسها لا تشعر بواقعها. . . الى أن يقول : ووجيه القرية ونائبها يحرصان كل الحرص على توازن قوة المتخاصمين من أبنائها. والقرية تحكمها الطبقية. فكل وجيه فيها له أذنابه يعملون معه على النيل من فقرائها واستعبادهم وتسخيرهم لمصلحة الوجيه والنائب . . . الخ.

وكما بدا لنا كاتبنا وطنيا ناقما على الحاكم يبث في تضاعيف مقالاته روحا

---

(١) ليس هناك من سر يا سيدى : فالحاكم كان ولا يزال ينظر الى الجنوب خاصة والى اى منطقة ليس فيها اكثرية من طائفته (ومن الموارنه بالذات) على انها ملحق هامشي من ملحقات سلطانه وسلطته . . . وهو يخشى ان رعاها وطورها ان تثور عليه يوما . او او تشق عصا الطاعة العمياء . حتى مياه ليطانه سرقها وحرمه منها وذلك بانشاء سدود ومعامل توليد طاقة تتجه شمالا لا جنوبا . كما تقول انت ايضا : « وقبل ان يصل مشروع الليطاني الى الجنوب حولوه عنه وما ذلك الاحبا بأن يبقى الفقر مسيطرا عليه »

قومية صافية واصيلة. يقول تحت عنوان فلسطين :« لقد اسدى لنا تجار العبودية خدمة جليلة لم نكن لنحلم بها ولكنهم أرادوها لنا إرادة.. فاذا هي العبث في تقرير المصير... تجار العبودية هؤلاء قرروا الا نكون وأن لا يكون لنا بعث ولا عزة... أرادوا فرض العبودية علينا وهلاكنا الى الابد، فاذا بارادة الله اقوى من إرادتهم ورحمته اقوى من اساطيلهم هددونا بالموت قسرا، إن لم نرض طوعا من أجل حياتهم. وللموت لون واحد. فاقبلنا على الموت نعب منه من أجل مصير نقرره... ارادوها لنا معركة واحدة قامت على الغدر والخيانة من أجل نهاية تقوم على الذل والهوان فإذا هي بداية معارك من أجل حياة (عربية) دائمة...

أن دلائل الفجر بدأت ترتسم ، وعلامات الخلاص بدأت تظهر... نحن من الفجر قاب قوسين أو أدنى... لقد علمنا المسيح الفداء وعلمنا الحسين الفداء... كلنا من أجل فلسطين فدائيون...

مرحى للخامس من حزيران... ان الانكسار انتصار... » سوف لا يكون استقرار الا إذا لذتم بالفرار، وسوف لا يكون سلام في ارض السلام الا اذا عاد الحق الى نصابه... فلسطين لنا وكانت لاجدادنا قبلنا، وستبقى لاولادنا بعدنا... وينهي مقالته النارية هذه بقوله : «إننا في المعركة... أننا على موعد، وموعدنا غدا ... وأن غدا لناظره قريب..

مختاراته :

وفي كتابه : من وحي الغربة مختارات نثرية وشعرية تدل على سلامة ذوقه الادبي وصفاء روحه وصوابية توجهه الاخلاقي والانساني فقد اختار من الكتاب المقدس ارقى الحكم تحت عنوان : من فرائد الانجيل مثل :

- أحب قريبك كنفسك

- ليس بالخبز وحده يحيا الانسان

- كل بيت ينقسم على نفسه يخرب

- بيتي بيت الله يدعى، وانتم(أي اليهود) جعلتموه مغارة لصوص

- من منكم بلاخطيئة فليرجمها بحجر

- ماذا يربح الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه

ومن القرآن الكريم جوا مع الكلم في أبلغ الآيات وقد سماها دررا ولآلىء من بحر البلاغة المتلاطم. مثل :

- ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (سورة المائدة)

- اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم (المائدة)

- قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى. (البقرة)

- ولا يحيق المكرالسيء الا بأهله. وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض.

- وأن ليس للانسان الا ما سعى

- يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، أن بعض الظن أثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، ايحب احدكم أن يأكل لحم أخيه حيا فكرهتموه.

ومن مختاراته الشعرية قصائد لرئيس جمهورية السنغال السابق ليبولد سيدار

سنغور (١) ترجمة الدكتور نمر الصباح استاذ الادب العربي في جامعة داكار (٢) كما كان استاذ اللغة العربية في السوربون. له مولفات عديدة : اللغتين العربية والفرنسية. وقبل وفاته بسنوات قليلة قام بترجمة ديوان «الظلال» لسينغور. والملفت أنه ترجم أكثر قصائد الديوان شعرا عربيا عموديا راقيا. . . وبعضها شعرا عربيا حرا. . . مع صعوبة ذلك كما نعلم ان لم نقل استحالته(٣).

قال سنغور وترجم الدكتور :

قومي ضعي كفيك فوق جبيني	كفاك بلسم عاشق مفتـــون
ويداك أن لمس الحريرحريرهـــا	جن الحرير بها بغير جنـــون
حواء قومي فالنخيـــل حفيفـــه	همس تهيج لعاشقيه شجوني
همس يرف على النسيم حداؤه	شدوا لعاشقة شدت لحزيـــن

الى آخر هذه القصائد العمودية والحرة الرائعة المترجمة والتي يضيق المجال

---

(١) كان هذا الرئيس شاعرا واديبا الى جانب كونه منظرا قوميا . فقد دعا الى القومية الافريقية ووحدة الزنوج . اشتق لهذه القومية الزنجية لفظة : زنوجة NEGRITUDE بالفرنسية التي لم تكن معروفة في المعاجم الفرنسية . وسنغور فقيه لغوي في الفرنسية (فيلولوج) وقد اتيح لي ان اقابله في دار الكتاب اللبناني في بيروت حيث كان في زيارة لبنان بدعوة رسمية من رئيس الجمهورية يومذاك شارل حلو . وقد اقام له صاحب دار الكتاب اللبناني حفلة خاصة دعينا اليها . وكان الاستاذ عبد اللطيف شراره قارنا لنماذجه الشعرية المترجمة واما الاستاذ سعيد عقل فقد رحب به بالفرنسية . المؤلف.

(٢) من رفاق الطفولة في مدرسة النبطية الرسمية .

(٣) لاعجب ان يبدع الدكتور نمر في كل مجالات اختصاصه فهو من عائلة الصباح في النبطية التي انجبت المخترع الشهير حسن كامل الصباح ـ المؤلف ـ

هنا عن ذكرها. وحسب أديبنا المرحوم أحمد أنه استمتع بما أختار ونقله لنا الى كتابه : من وحي الغربة، فلنعد اليه. . .

أعيان الزرارية :

أحمد الحاج عبد الكريم مروه (ابو نصير) :

والد الشهيدة الجنوبية الاولى يسار مروه. عين من أعيان آل مروه البارزين. عرف بترفعه عن السياسات المحلية الضيقة، ورفضه للاقطاع السياسي الجديد والزعامات التقليدية.

ميله الادبي : تميز أبو نصير بحس أدبي رفيع وحب للتراث الادبي والتاريخي العربي فاقتنى مكتبة متواضعة من حيث عدد مجلداتها ولكنها غنية بنوعية هذه المجلدات كما كان ذا إتجاه قومي عربي صريح. يهوى قصائد الشعراء القوميين والوطنيين الذين تغنوا بالوحدة وبالامجاد العربية السالفة وانتصارات العرب القدامى وفتوحاتهم، كشوقي وبدوي الجبل والجواهري وأبي ريشة والاخطل الصغير.

وكان يحب أن يكون نجله الاكبر نصير حافظا لاشهر قصائدهم خاصة روائع البدوي والجواهري. وها هو نجله الاكبر الصديق الدكتور نصير ينطلق من هذا الجو الادبي الى عالم المعرفة والاختصاص مزودا بحصيلة ضخمة من هذا التراث العربي الخالد. فهو الى جانب تفرغه للصحافة العالمية والعربية في باريس يتميز بأسلوب أدبي رصين ومنهجية علمية صارمة، وثقافة واسعة. واتقان للغة الفرنسية إتقانا تاما(١).

---

(١) التقيت نصيرا في ثانوية صور الرسمية سنة ١٩٧١ حيث كان يدرس اللغة والادب الفرنسيين فيها . ـ المؤلف ـ

أصدقاء أبي نصير : كان أبو نصير قليل عدد الاصدقاء من أبناء بلدته. وكان والدي من هذه القلة. وكانت بينهما مساجلات وممازحات طريفة. فقد خص كلاهما رحمهما الله ـ بحاسة النقد الساخر في حديث هو مزيج من الطرافة واللطف، والدعابة المدعمة بالشواهد الشعرية من فصيحة وزجلية.

وكثيرا ما كنت اصغي اليهما يتساجلان ويتبادلان النكات حتى ولو على نفسيهما. . .

قال ـ مرة، أبو نصير مداعبا والدي في زجلية لا اذكر سوى مطلعها :

هتلي آلّمْ ودواي هتلين على أولاد السيد جواد ليش هيك هتلين. . .

فرد الوالد على الفور :

هتلي آلّمْ ودواي لمضين على اولاد الحاج عبد الكريم ليش هيك لمضين. . .

الى آخر هذه المداعبات الحميمة المرحة التي تعكس جو الاخوة السائد بين متأدبي الزرارية وادبائها في ذلك العهد أمثال أبي نصير وابن البادية ووالدنا وعمنا السيد حسن جواد شرف الدين ومشاركة ضيفه وصديقة المفضل من النبطية السيد عبد الجليل شكر الذي كان شاعرا موهوبا. وفخر الدين فخري (أبي راشد) الذي قيل لي أن رسائله الى أخوانه كانت قصائد عامرة وليست نثرا كما كان بارعا ـ كعمنا ـ في التشطير والتخميس والمعارضة أو النقائض.

اخلاقه : كان أبو نصير ذا شمم وهمة عالية مترفعا عن السياسات المحلية الرخيصة كما سبق القول، ذا نزعة ديموقراطية علمانية. لذلك صرف كل جهده وماله على تعليم أبنائه الاثني عشر وتأمين مورد لمعيشتهم وحفظ كرامتهم من علمهم واختصاصهم ومما تركه لهم من عقارات وبساتين، ونائيا بنفسه وبهم عن مزالق الترهات العشائرية والحزازات العائلية. . .

ابناؤه : أنجب أبو نصير إثني عشر ولدا (بنين وبنات) وقد توقفنا عند اثنين بارزين منهم من الناحيتين الادبية والعلمية والصحفية هما النجل الاكبر (الاول) نصير والخامس سحبان كما توقفنا طويلا عند حياة شقيقتهما يسار في فصل الشهداء ـ الاعلام .[1] اما الباقون وكلهم ناجون في تخصصهم واعمالهم فلم نوفق في جمع المعلومات عنهم وعن نشاطاتهم، فليعذرونا .

الدكتورة هيام منير مروه :

من مواليد الزرارية. أنهت دراستها الابتدائية والثانوية في مدرسة جان دارك في مدينة داكار(السنغال) افريقيا الغربية.

تابعت دراستها الجامعية في جامعة القديس يوسف (اليسوعية) في بيروت ونالت إجازة في الحقوق ومن ثم دكتوراه دولة في القانون العام.

مارست مهنة المحاماة لمدة ثماني سنوات من ١٩٧٠ الى ١٩٧٨ في بيروت.

مارست مهنة التعليم الجامعي في الجامعة اللبنانية في بيروت منذ١٩٨٤ حتى الآن.

كما درَّست في اليسوعية الجامعة التي تخرجت منها.

وفي سنة ١٩٨٩ عينت مديرة للجامعة اللبنانية في صيدا بفروعها الثلاثة : كلية الحقوق والعلوم السياسية وكلية الآداب ومعهد العلوم الاجتماعية.

في سنة ١٩٩٠ وبعد توزيع الفروع عينت مديرة لفرع كلية الحقوق والعلوم

---

(١) اما الاشقاء الباقون فقد ذكرناهم بالاسم وذكرنا اختصاصاتهم ودرجاتهم العلمية ، عندما تحدثنا عن الاطباء في الزرارية

ـ المؤلف ـ

السياسة ولا تزال. بالاضافة الى المهام الادارية كانت الدكتورة هيام تحاضر في كلية الحقوق والعلوم السياسية في الفرع الاول ببيروت والفرع الخامس بصيدا.

مؤلفاتها : وهي عبارة عن تلك المحاضرات التي كانت تلقيها على طلاب الجامعة في بيروت وصيدا. وهي :

أ- المدخل الى العلوم القانونية باللغة الفرنسية

ب- الحريات العامة باللغة الفرنسية

جـ - علم الادارة العامة باللغة العربية

الدكتورة هيام متزوجة من المهندس فؤاد اسماعيل

ترويكا رأب الصدع أو المصالحات المحلية على طريقة تبويس اللحى. .

مثلث الاصلاح في الزرارية : (أو حكام الصلح) شهدت الزرارية رجال دين اصلاحيين حاولوا ـ في الاربعينات ـ أن يقربوا ما بين العائلات المتنازعة التي حصدت مازرعه الاقطاع في قلوب أبائهم واجدادهم من ضغائن واحقاد وتفجرت في الابناء تنافرا ثم نزاعا مسلحا عمل الزعماء المحليون على اذكائه وتأجيجه، ولولا الوعي الذي اصاب الاحفاد اليوم بفعل العلم ونمو الفكر العلماني والروح الوطنية والمقاومة لظل هؤلاء الاحفاد يقتتلون ويتطيفون كما كان الأجداد والاباء.

في خضم تلك النزاعات برز ـ في العقدين الثالث والرابع ـ مصلحون ورجال دين فقهاء يخافون الله ويريدون لهذه العائلات المتقاتلة في الزرارية أن تضع حدا لهذا القتال الجاهلي، وأن تعود الى أصالتها ـ ومكانها الاصيل ـ

من أبرز هؤلاء المصلحين : الشيخ محمود فخري والشيخ محمد علي مروه ووالدنا : مثلث حاول جاهدا أن يرأب الصدع وأن لم يوفق احيانا. .

كان الشيخ محمود فخري عميد عائلته ومرشدها. وكذلك كان الشيخ

محمد علي مروه عميد آل مروة ومرشدهم الديني بعد الشيخ عبد اللطيف مروه.

وكان المرحوم والدنا المرشد الديني لآل شرف الدين وآل هاشم كما كان محدثهم وراويتهم . كان هذا الثالوث الديني يعمل منفردا في مجال الاصلاح، لكنه كان يعمل بروح واحدة ورغبة واحدة في تخفيف تلك ؛ النزاعات وإن لم يوفق في القضاء عليها نهائيا. .

وبما اننا تحدثنا عن الشيخ محمود فخري ووالدنا فها نحن هنا نكمل الحديث عن ثالثهم وهو الشيخ محمد علي مروه :

كان منزل الشيخ محمد علي مروه ملاصقا لمنزلنا في الزرارية. وهذا الشيخ الذي لم يرزق أولادا كان يعتبرنا كأبناء له حين نزوره. وكانت أكثر زياراتنا له في ليالي الشتاء (بعض الرفاق وعلى رأسهم الصديق علي مروه أبو رائف وأنا). كان مجلسه - والحق يقال - عامرا عابقا بأنفاس الشاي المعتق، وبرائحة ذلك الجو الديني المفعم بعبير الألفة والذي يزيده الشيخ بهاء على بهاء. . .

أما مجلسه النهاري قرب دكانه الملاصق لمنزله فقد كان هو الآخر مميزا : يجلس الشيخ تحت العريشة في الصيف وتنكشف أمامه الطريق ، فلا يدع امرءا الا ويدعوه الى الجلوس معه، ولا امرأة الا ويحملها سلاما لزوجها أو كلاماً يحملها اياه لاحد ابنائها كي يأتيه، فقد سمع عنه أنه لا يصلي أو أنه يسبب المشاكل لأهله. كان الشيخ مصلحا وهو قاعد، ومصلحا وهو يمشي بين الناس. . . لطيف المعشر. . . إلا من بعض الهنات الهينات . والعصمة لله وحده. .

كما امتاز - رحمه الله - ببصر حديد، يرى عن بعد أدق الاشياء والاشخاص. . . وهو الذي عنيناه عند الحديث عن المؤذن الذي كان يقطع أذانه

لينادي من على المئذنة بعض الرعيان أن يردوا قطعانهم عن الزرع. . [١] يناديهم بأسمائهم وهم على مسافة بعيدة منه. . . يقابل هذا المثلث الديني مثلث سياسي محلي آخر مؤلف من : فخر الدين فخري (أبو راشد) وأحمد الحاج عباس مروة (أبو منير) ومحمد علي هادي مروه (أبو قاسم)[٢]

أما أحمد الحاج عبد الكريم مروه (أبو نصير) فقد كان نسيج وحده حقا. .

وأهالي الزرارية ـ في العقدين الرابع والخامس ـ واقعون بين هذين المثلثين في شبه حيرة : يحترمون المثلث الديني ولا يعملون بنصائحه ويهابون المثلث السياسي وينفذون أوامره وتزداد تلك الحيره عند البعض حين يرى «وجهاء الصف الواحد » مختلفين هم ايضا فيما بينهم !ومن أسف، أننا لا نزال نرى ونحن في مطلع القرن الواحد والعشرين ، روح العشائر ية والعائلية والتحزب لبقايا شراذم الاقطاع طاغية على تفكير بعض الشبان في الزرارية مع انهم بلغوا من العلم او الوعي درجة مرموقة. . .

لقد آن لهذا الشعب ـ في الزرارية ومنيلاتها ـ أن يفرز قادته الاحرار من بين صفوفه وأن لا يظل سلعة تباع وتشترى في سوق المزايدات و. . الانتخابات والتكتلات الخارجية المشبوهة وغير المشبوهة. . .

آل شرارة [٣] : من أين جاؤوا ؟

يقول المختار الحالي الحاج خليل شرارة أبو تحسين : « ان جدنا جواد شرارة

(١) انظر ذلك في باب : الفولكلور الزراري الخاص .

(٢) تحدثنا عن هذا المثلث السياسي في باب الاعلام من هذا الكتاب .

(٣) آل شرارة : فرع اساسي من آل مروه

جاء الى الزرارية من بنت جبيل تلبية لطلب من (العشائر) ليعلم أبناء الزرارية.
وكان ذلك منذ حوالي المئة وعشرين عاما، فهو (أي جواد) والد جد أبي تحسين لا جده الاقرب[1] أما الحاج رفعت شرارة (نزيل الزرارية اليوم) فهو والد الصحافي والاديب الشاعر الاستاذ بلال شرارة المشرف على الصفحات الثقافية في مجلة العواصف (حركة أمل)[2] وهو اليوم المستشار الصحافي لدولة رئيس مجلس النواب الاستاذ نبيه بري ومساهم بارز في تحرير جريدة السفير. يعتبر الاستاذ بلال من شعراء الحداثة المبدعين ومن شعراء المقاومة البارزين. والحاج رفعت والده هو اليوم مسؤول عن المبرات الخيرية في الجنوب بتكليف من المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى.

أما الحاج خليل شرارة أبو تحسين فهو وجه مميز من وجوه فعاليات الزرارية، قضى في المختارية قرابة الثلاثين عاما. وسواء كان مختارا أو لم يكن فهو لا يوفر جهدا في المشاركة بجميع نشاطات تلك الفعاليات. كما يعتبر أبو تحسين مرجعاً تاريخيا لكل ما يخص بلدته في عهودها المختلفة، يمد الصحافين اللبنانيين بكل ما يحتاجونه من ارقام واحصائيات في تحقيقاتهم وريبورتاجاتهم عن هذه البلدة المجاهدة والمقاومة. يناهز أبو تحسين السبعين من العمر ولكنه لا يزال في همة الشباب وقمة العطاء .

---

(١) انظر نبذة عن ابي تحسين في باب : وجوه بارزة في الزرارية

(٢) وهما مجلتان اسبوعيتان متوقفتان حاليا .

قيام الجمعيات والنوادي الثقافية
(أو تدوير الزوايا)

كانت الزرارية كغيرها من القرى الجنوبية تعيش حالة اجتماعية تعيسة من حيث التآلف والتعاضد بين الافراد والعائلات نتيجة التدخلات الخارجية من قبل الزعماء والسياسيين المحليين فهذه الفئة مع فلان لأن خصمها المحلي مع فليتان، لا لأن هذا الزعيم أفضل من ذاك من حيث الاخلاق والنزاهة والتفاني في خدمة الشعب بل نكاية بمن أيده ومشى معه من الخصوم.

فنشأت في كل قرية حالة تنافر حادة ليست من صميم صفات هذا الشعب الطيب أو شيمه المعروفة عبر تاريخه الطويل. حالة طارئة مصطنعة كانت سببا من اسباب شقائه وتأخره. تنافر الاضداد هذا هو ما أسميه بالزوايا الحادة. ولأجل انفراج هذه الزوايا كان لا بد لجيل الشباب من مثقفين ومغتربين عائدين أن ينبروا في الزرارية، لتوسيع ذلك الانفراج، ومحو معالم الفرقة والتباغض القديمين فيها بانشاء جمعيات ونواد ثقافية ورياضية وفنية بعيدا عن الروابط العائلية والتكتلات العشائرية العصبية، وعن العمل الفردي المحدود النتائج. وهذا ما أسميه « بتدوير الزوايا» التي لم تعد حادة ومتضادة. .

إنها نزعة حضارية ذات وجه إنساني تتكرس بالعمل الجماعي من أجل النفع العام. وقام البديل. . . وحبذا لو استمر فاعلا. . . على صعيد الخدمات العامة في البلدة، وصهر الشبان في بوتقة واحدة، من أجل هذا قامت في السنوات الاخيرة جمعية تحت إسم نادي الشبيبة الثقافي الرياضي في الثامن من آب ١٩٦٩ بموجب علم وخبر رقم ٤١٠/أد. وكانت الهيئة التأسيسية مؤلفة من السادة : محمد يحيى شرف الدين - علي محمد زرقط - علي خليل خليل - وكانت الغاية من تأسيس هذا النادي ثقافية رياضية، ورفع مستوى الثقافة والرياضة في البلدة وايجاد مكتبة عامة فيها. خلال مسيرة النادي القصيرة والتي امتدت حتى سنة ١٩٧٥ تعرض هذا النادي لهزات كان لها الاثر البالغ على نشاطه، مما أدى به الى التوقف عن العمل.

أهم هذه الهزات : الاصطدام بتوجهات الزعامات المحلية التي اعتبرت أن النادي جاء لسحب البساط من تحت أقدامها، بالاضافة الى عدم خبرة العناصر التي تولت إدارة النادي في التعاطي مع الصراعات، وتجربتها القصيرة في مجالات التغيير والتطوير. . .

وقد صبغ النادي منذ ولادته بالصبغة الماركسية واليسارية لترافق هذه الولادة ونمو الزخم الوطني والقومي الذي افرزته هزيمة ١٩٦٧ وعلانية العمل الفدائي الفلسطيني مما أدى الى انشقاق مجموعة من عناصر النادي عنه ، باعتبارها مجموعة محافظة. وبدأت تؤسس فرعا للحركة الاجتماعية التي يرئسها المطران غريغوار حداد.

- التعصب الحزبي الاعمى انتج صراعا بين افراد الهيئة الادارية للنادي مما حال دون وصول العناصرذات الكفاءة الى عضوية الهيئة.

- والاهم من ذلك كله كثافة هجرة افراد النادي الى المدن أو الى خارج البلاد. مما افقده العناصر التي تكون قد تمرست بالعمل الاداري والفني واكتسبت خبرة على هذين الصعيدين.

- بداية الاحداث اللبنانية سنة ١٩٧٥ والتي طغت على ما عداها. وبالتالي انصراف الشبان الى حمل السلاح والانخراط في العمل العسكري والتخلي عن كل النشاطات الاخرى (ثقافية - رياضية - اجتماعية) الامر الذي اعاد الزوايا الاجتماعية الى حدتها ولم يكتمل تدويرها. . .

وبالرغم من كل هذه العوائق والهزات استطاع النادي انجاز بعض اهدافه. أهمها :

- زرع بذرة النشاط الرياضي في البلدة بتجميع ثلة من الشبان أخذت تتدرب وتمارس لعبة كرة القدم على ملعب بدائي تمهيدا لتحسينه وتأهيله. جرى ذلك رغما عن التعثر الناتج عن الوضع العام في البلاد.

- كما قام النادي بتنفيذ بعض المشاريع المحلية كجمع النفايات حسب الاصول وشق مجرور ورش مبيدات - واجراء دورة تعليم خياطة للبنات - ودورة محو الامية - والمساهمة في ايجاد مركز صحي اجتماعي تابع لمصلحة الانعاش الاجتماعي وجمعية نساء جبل عامل.

- وزاول النادي نشاطه الثقافي بتقديم مسرحيتين اجتماعيتين وقام بطباعة أول ديوان شعر للشاعر الحديث الدكتور سحبان مروه (دفتر الوجع)

- انشاء نواة مكتبة عامة، معظم كتبها كان تقدمة من أعضاء النادي. . . والبعض الآخر اشتري من ميزانية النادي الهزيلة (الاشتراك الشهري للعضو كان ليرة لبنانية واحدة) ! وتدور الايام ويزول الاحتلال الاسرائيلي عن قسم كبير من

الجنوب اللبناني بفضل سواعد ابطال المقاومة الوطنية وبطولات نساء جبل عامل واطفاله وشيوخه وزجاجاتهم الحارقة وقوارير الزيت المغلي يقذفنها في وجه العدو الغازي. . . وينهض ابناء الزرارية من تحت ركام المجزرة (١١ آذار سنة ١٩٨٥) ليعاودوا نشاطهم الاجتماعي والتربوي، لا سيما وقد شعروا بأن الدولة غائبة تماما أو هي لا وجود لها فلا بد ، إذن ، من مبادرة ذاتية لاعادة احياء النوادي والجمعيات وتطوير مدرسة الزرارية الرسمية وجعلها ثانوية وذلك باستنهاض الفعاليات المادية المتمثلة بالمغتربين الكرام العائدين الى بلدتهم وكلهم رغبة في انعاشها واعمارها. فكانت أول خطوة ـ على صعيد مطلب الثانوية ـ أن تقدم نفر من شبانها المثقفين واساتذة المدرسة الرسمية وعلى رأسهم الاستاذ محمد محي الدين من وزير التربية الوطنية بالطلب التالي :

معالي وزير التربية والفنون الجميلة/ بواسطة رئيس دائرة التربية في الجنوب

الموضوع : طلب ثانوية رسمية في بلدة الزرارية ـ قضاء صيدا :

ومما جاء في الطلب : « أن بلدة الزرارية التي تعاود النهوض من بين الركام والدمار الذي خلفه الاجتياح الاسرائيلي، تمسح الغبار الذي حاول ذره في العيون، تداوي الجراح التي تركها في جسدها واجساد مثيلاتها من مدن وقرى وبلدات لبنان بأكمله (وخاصة الجنوب) تعاود النهوض بعزيمة واصرار لمواجهة التحدي الحضاري والثقافي لعدو يتقطع غيرة وحسدا لدور لبنان، يتطلع شذرا لسرقة هذا الدور. . . يعمل جاهدا لتنظيم وفاة لدور لبنان القيادي والريادي في مضمار الحضارة الانسانية. . .

من هذا المنطلق المتحدي تتطلع الزرارية لاعداد وبناء جيل سلاحه العلم والثقافة والمعرفة نتقدم منكم بفتح ثانوية رسمية فيها يحدوها أمل باجابة طلبها لما

تعرفه عنكم من عمل دؤوب في سبيل بناء حصون وقلاع العلم والمعرفة لتتحطم عليها احلام الطامعين لاستلاب دور الوطن الصغير الذي ملأ الدنيا حضارة وعلما وعمرانا. . .

أن بلدة الزرارية ويبلغ تعداد سكانها اليوم ما يزيد عن الخمسة وعشرين الف نسمة وعدد طلابها في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة يبلغ الفا وخمسمائة تلميذ. وقد قام أبناء البلدة منذ العام ١٩٦٠ بتشييد بناء مدرسي على نفقتهم الخاصة حتى أصبح يضم اربعين غرفة. وتنازلوا عن البناء وقطعة الارض المقام عليها ومساحتها ١٢ الف متر مربعا، لصالح وزارة التربية الوطنية منذ البدء بانشائه أي منذ العام ١٩٦٠ ومدرسة الزرارية تخرج حملة الشهادة المتوسطة (البريفيه) منذ العام ١٩٦٣ وبمعدل اربعين تلميذا سنويا. ومن استطاع منهم تغطية المصاريف والتكاليف التحق بثانويات صيدا وصور والنبطية (وأكثرها خاص) ومن لم يستطع وجد باب الهجرة مفتوحا امامه. والزرارية تعد مركزا وسطا بين قرى ارزي ـ الخرايب ـ بريقع ـ القصيبة ـ كفر صير ـ سير الغربية ومدارس هذه القرى تعطي حتى الشهادة المتوسطة فقط.

بناء على المعطيات المذكورة ونظرا للأزمة التي يعانيها فرع ثانوية صيدا المدخل الجنوبي في بلدة عدلون لجهة البناء، وبما أن البناء متوفر في الزرارية مع إمكانية زيادة غرفه الاربعين، نتقدم من معاليكم بطلب فتح ثانوية رسمية في الزرارية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

الزرارية في ١/ ٩/ ١٩٨٥ (اعداد الاستاذ محمد محي الدين)

وبعد لأي شارف حد اليأس. . . وبعد ملاحقات عديدة تم اعطاء الرخصة

بفتح ثانوية رسمية في الزرارية منذ بداية العام الدراسي ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ علما بأن الاهالي كانوا ـ كما ذكرنا ـ أكثر سخاء وبذلا حين قدموا العقار والبناء وسجلوهما باسم وزارة التربية. . .

انها سياسة تجهيل الجنوب كانت ولا تزال تتحكم بعقلية بعض المسؤولين اللبنانين. . . هذه العقلية التي لم تؤد الا الى الكوارث والتمايز بين الطبقات والطوائف في لبنان الامر الذي انتهى بالبلاد الى قيام فئات المحرومين في كل المناطق وهم الاكثرية الساحقة من الشعب وبقاء السلطة والمغانم في يد حراس النظام . . . ثم تجد من يقول : لماذا هذه الحرب الاهلية في لبنان. كأنه يسأل : لماذا لا يبقى النيام نياما ! والضعفاء ضعفاء ! نحن نرفض أن نبقى عبيدا لنظام جائر ضعفاء متخاذلين أمام حقنا في العيش الكريم. نرفض أن يطبق علينا مبدأ القوة في فلسفةنيتشه القائل : الضعفاء يجب أن يموتوا ويجب أن نساعدهم على الموت. وإذا ابقيناهم على قيد الحياة فلكي يكونوا للاقوياء خدما !!

الزرارية تتحدى الحرمان : هذه البلدة تختزن في أعماق تاريخها تجربة مرة مع الاقطاع باعتبارها مركزا من مراكزه الهامة. مما أدى بأبنائها الى الهجرة بكثافة مطلع هذا القرن وحتى الآن بحثا عن الذات والكرامة. أن ٧٠ ٪ من أبنائها مغتربون في افريقيا الغربية شعارهم كان ولا يزال حكمة بالغة قالها سيد البلغاء الامام علي : الفقر في الوطن غربة والغنى في الغربة وطن.

ثم عادوا، بل عاد أكثرهم غنيا بماله وغنيا بآماله في اسعاد ذويه وبلدته. فبنى فيها الدور والدارات والقصور وراح ينمي موارد البلدة الزراعية فاستصلح الاراضي الشاسعة وانبتها كل نبات حسن (بساتين ـ كروم زيتون ـ بيوت أو خيم بلاستيكية تقدر بمائتي دونم. أما البساتين القديمة والمستحدثة فتقدر بما لا يقل عن

ثلاثة آلاف دونم. والامية التي كانت متفشية في أوائل هذا القرن اصبحت شبه معدومة في أواخره. وسيجد القارىء الكريم في الفصل الخاص بالاعلام والمتخصصين الذين انجبتهم الزرارية ما يكفي للدلالة على أن نهضة علمية وادبية جبارة قامت في هذه البلدة بعد أن انتشلها الله من وهدة الفقر والحرمان على يد ابنائها البررة من مغتربين ومقيمين قادرين تشابكت ايديهم وتعاقدت خناصرهم على النهوض ببلدتهم في شتى المجالات.

وكان من إنجازاتهم في السنوات الاخيرة البئر الارتوازي مع كامل تجهيزاته والذي قدم لمصلحة مياه نبع الطاسة، من قبل الحاج علي طعان ونجله حسين اللذين قاما بحفره وتشغيله.

- الساحة العامة قدمت لوزارة الاشغال كذلك.

- الشارع الرئيسي المعبد والموسع ساهم أبناء الزرارية في إنجازه واشرفوا على تعبيده ليأتي كما يشاؤون اتساعا وسماكه تزفيت، لا كما يشاء الملتزمون بدءا من مفرق الزرارية الساحلي ومرورا في وسطها وانتهاء بضاحيتها الشرقية قرب الجبانة.

وعي مبكر : منذ أمد بعيد ومنذ ما قبل السبعينات وعت الزرارية ـ وهي ابنة الليطاني وربيبته ـ الاطماع الاسرائيلية في مياه نهرها الحبيب والذي تقع على ضفتيه بساتين أكثرها ملك لابنائها إن لم نقل كلها. فاقسمت في عقلها الباطن لتقاومن الاطماع الاسرائيلية في مياهه وكأنها قالت بلسان يسار مروه ورفاقها :أن اغتصاب مياه الليطاني لن يتم إلا عندما تنضب الدماء في عروقنا، عروق كل المحرومين والفقراء والمقاومين المجاهدين. . . (١)

---

(١) انظر الفصل الخاص بالليطاني

مقاومة رائدة : لا نبالغ اذا قلنا أن اسرائيل كانت تخشى المقاومة الوطنية الجنوبية بشكل عام وابناء الزرارية بشكل خاص بدليل أنها زجت في معتقلاتها في انصار ـ١ ـ والخيام عددا كبيرا من ابنائها الشبان لعله الأكبر والاكثر (٦٥ معتقلا من الزرارية وحدها) والمقاومون داخل معتقل انصار كان اكثرهم من أبناء هذه القرية المجاهدة. لا عجب فقد سنت لهم يسار مروه ونعمة هاشم النهج والطريقة في المقاومة وأن لاخيار للمؤمنين المجاهدين سوى خيار البندقية، والنهج نفسه رسم معالمه أنور مروه ومحمود ظاهر واحمد جزيني وحسن مروه ومحمد مروه وابو نزيه مروه وحسان مروه وعلي رسلان وقبل هذه الكوكبة من الشهداء وبعدها محمد الاخضر والقائد المخطط نعمة هاشم [١].

وفي هذه الايام تتابع الزرارية مسيرة الاصلاح والتطوير والانماء يد لابنائها المجاهدين على الزناد ويد على القلم والفكر والتخطيط والعمل الجماعي.

وكانت قد تأسست جمعية تحت اسم الجمعية الانمائية لبلدة الزرارية، وذلك في الثلاثين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٨٧ بموجب علم وخبر رقم ١٣٩/أ. د.

وتألفت الهيئة التأسيسية من السادة :

رفيق السيد حسين جواد شرف الدين (أبو حسين)

حسين علي طعان (أبو غالب)

نزيه شبيب باشا الاسعد (أبو شبيب)

---

(١) هذه الوقائع والحقائق مقتبسة من مقالة زودنا بها الاستاذ محمد محي الدين من اساتذة ثانوية الزرارية الرسمية (انظر نبذة عنه في فصل الاعلام الشبان)

أحمد مصطفى زرقط (ابو علي)

محمد شريف هاشم (أبوعماد)

رياض سعيد الاسعد

نديم أسعد فخري

رضا محمد يحيى مروه

وكانت الغاية العمل على انماء وتنشيط العمران والبناء وانشاء مستوصف ومدارس نموذجية غير مجانية وملاعب وحديقة عامة ومكتبة عامة ودار لليتيم ومأوى للعجزة وسوق وساحة عامة. وتطوير المرافق العامة الخ. . .

إلا أن الجمعية توقفت عن العمل لاسباب لا داعي لذكرها هنا. والعمل القيم الذي قامت به الجمعية دعوة أهالي البلدة لاجتماع عام في النادي الحسيني في الخامس من كانون الاول سنة ١٩٨٧ لاذاعة بيان بتلك الاسباب.

ثم قامت على انقاضها جمعية أخرى تحمل الاسم نفسه وهو : الجمعية الانمائية لبلدة الزرارية والغاية نفسها بالطبع ، زائد : تأمين متطلبات واحتياجات البلدة وملاحقتها لدى الجهات والهيئات الرسمية المعنية وغير الرسمية.

وقد جرت انتخابات الهيئة الادارية ففاز السادة :

رفيق شرف الدين ـ أحمد مصطفى زرقط ـ محمد شريف هاشم ـ صالح محمد مروه ـ نديم اسعد فخري ـ وجيه علي مروه ـ رياض سعيد الاسعد ـ نزيه الاسعد ـ محمود علي طراف كجك ـ طلال رضا زرقط ـ رضا عبد الله مروه ـ حسين علي طعان.

ثم وزعت الهيئة الادارية المنتخبة المهام على الشكل التالي :

- رفيق شرف الدين : رئيسا

- أحمد مصطفى زرقط : نائبا للرئيس
- محمد شريف هاشم : أمينا للسر
- صالح محمد مروه : مديرا مسؤولا
-نديم أسعد فخري : أمينا للصندوق
- وجيه علي مروه : نائبا لأمين الصندوق
- رياض سعيد الأسعد : مسؤولا للجنة التخطيط والدراسات
- نزيه شبيب باشا الاسعد : عضوا
- محمود علي طراف : عضوا
- طلال رضا زرقط : عضوا
- رضا عبد الله مروه : عضوا
حسين علي طعان : عضوا

وتم تشكيل هيئة المكتب على النحو التالي :

- محمد حسين محي الدين : مسؤول العلاقات العامة
- محمد أحمد زرقط : مديرا للمكتب
- علي أحمد ضاهر : محاسبا

أما المشاريع المنوي انجازها تباعا بعون الله فهي :

أولا : تأمين مياه الشفه للاهالي وكذلك تأمين الكهرباء (شراء محول كبير ـ تأهيل الخطوط ـ نصب أعمدة ـ منع السرقات الخ).

وقد تم تعيين موظفين على حساب الجمعية لعدم امكانية التوظيف في القطاع العام، (قانون صادر عن مجلس النواب ١٩٧٦)

ثانيا : تأمين النظافة : تم شراء تراكتور وتأمين سائق له على حساب الجمعية أيضا ولنفس السبب اعلاه.

ثالثا : إنشاء نواة مكتبة عامة

رابعا : تأليف فرق فنية (مسرح - موسيقى - رياضة)

خامسا : إنشاء شبكة مجارير عامة في البلدة

سادسا : اعادة تأهيل وتعبيد الطرقات الداخلية

سابعا : إنشاء حديقة عامة

ثامنا : تأمين بناء خاص للثانوية الرسمية

تاسعا : تكبير المستوصف الحالي بحيث يضم بعض الاسرة.

نادي الشبيبة الرياضي :

وها هو نادي الشبيبة الرياضي العربي يتوقف عن أي نشاط اثناء الحرب الاهلية اللبنانية ليعاود نشاطه على يد ثلة من الشبان المتخصصين نذكر منهم :

- الدكتور فخري فخري[1] رئيسا - صفوان مروه : نائبا للرئيس - الاستاذ محمد محي الدين : امين سر

الدكتور بشير مروه : مسؤولا اعلاميا - حسن متيرك : امينا للصندوق

- الدكتور علي هاشم
- الدكتور سامي طعان - مسؤول علاقات خارجية
- المهندس يوسف زرقط - مسؤولا رياضيا

---

(١) ولد في ابيدجان - شاطىء العاج ١٩٥٩ . انهى دراسته الثانوية في مدرسة الاخوة المريميين F. Maristes ثم انتسب الى جامعة ابيدجان ومن ثم في فرنسا حيث تخرج مجازا في طب الاسنان يمارس مهنته في الزرارية منذ عام ١٩٨٦ . انتخب رئيسا لنادي الشبيبة سنة ١٩٩١ كما انه عضو في لجنة منطقة الجنوب للاتحاد اللبناني لكرة الطائرة . شاب طليعي متعدد الكفاءات والنشاطات . - المؤلف -

تلقى هذا النادي هبة قيمة عبارة عن ارض واسعة تكفي لاقامة بعض مشاريعه، قدمتها جمعية بيت المرأة الجنوبي - فرع الزرارية التي ترأسها السيدة سعاد طعان والدة الدكتور فخري .

- من هذه المشاريع بناء مقر للنادي وغرف ومكاتب
- انشاء ملاعب لمختلف الالعاب الرياضية
- مكتبة عامة
- صالة العاب

(أما الطابق الثاني فيخصص لاقامة حفلات الافراح لأنقاذ متوسطي الحال(وحتى الاغنياء) من جشع النوادي في المدن ومقاصفها ومنتجعاتها .

- يغذى صندوق النادي من تبرعات مغتربي الزرارية والاهالي.

الجمعيات النسائية في الزرارية :

رافقت أزدهار الزرارية الزراعي والعمراني نهضة اجتماعيه تربوية اصلاحية ملحوظة. فقد تكونت في الثمانينات جمعية نسائية فتية هي فرع لتكتل نسائي معروف باسم جمعية بيت المرأة الجنوبي ترأسه في بيروت السيدة سعاد سلوم، وفي مدينة صور الدكتورة رفاه شحادة قصير وفي النبطية وسواها فروع لهذه الجمعية .

تميزت هذه الجمعية بعناصرها الشابة الجامعية وبأعمالها الانسانية الصامتة الدؤوبة واعتمادها في التمويل على ريع الحفلات التي تقيمها في كل مناسبة اجتماعية أو تربوية، ومن يانصيبها الخيري وبعض الهبات المتواضعة تأتيها من

الصليب الاحمر اللبناني والدولي والجمعيات العالمية الانسانية نائية بنفسها عن الهبات الرسمية، وعن أسلوب فرض التبرعات فرضا. . الا من الاصدقاء المقيمين والمغتربين الذين لا يهمهم البهرج الاحتفالي حبا بالتظاهر أو الظهور. . .

يتألف فرع الجمعية في الزرارية من السيدات والآنسات التالية أسماؤهن واللواتي تتشكل منهن الهيئة الادارية

- السيدة الحاجة سعاد طعان فخري : رئيسة
- السيدة أنصاف مروه : امينة صندوق
- السيدة سعاد زرقط هاشم : نائبة الرئيسة.
- السيدة نبيلة شرارة : مستشارة اولى
- السيدة أزدهار فخري : علاقات عامة
- السيدة سعاد فخري طالب : محاسبة
- الآنسة إكرام زرقط : أمينة سر
- السيدة الهام متيرك : عضو
- السيدة هنية اخضر طالب : عضو
- السيدة سعاد زرقط : عضو
- السيدة انسجام فخري : عضو

تميز هذا الفرع للجمعية في الزرارية بنشاطات اجتماعية وتربوية لم تعرفها الزرارية من قبل على صعيد التقديمات الصحية وانشاء الروضات والمدارس الابتدائية النموذجية واسناد التدريس فيها لحادقات متخصصات واقامة دورات تعليمية لهن لتقويتهن في اللغة الفرنسية والرياضيات والعلوم للصفوف الابتدائية

- اقامة دورات لصفوف الحضانة : في الروضتين الاولى والثانية والصف التمهيدي، مدة الدورة شهر كامل.

- اقامة مخيم كشفي نهاري ، اقامة دورة اسعافات اولية مجانية باشراف الصليب الاحمر اللبناني - اقامة دورات تدريبية للمعلمات في اصول الدريس الحديث - اقامة دورات في الدكتيلو (فرنسي - عربي - انكليزي) تمنح للناجحات شهادات مصدقة من وزارة التربية اللبنانية.

اقامة حفلات شاي ولقاءات وندوات فكرية ومحاضرات واستضافة شعراء لبنانيين وجنوبيين.

- اقامة يانصيب وحفلات تبرع لإنشاء المزيد من غرف التدريس والملاعب وقبل كل هذا اقامت الجمعية مركزا خاصا بها.

وقد انفقت الجمعية على بناء هذا المركز حوالي(٠٠٠, ٨٠) ثمانين الف دولار اميركي جمعته من تبرعات الخيرين والمحسنين من ابناء الزرارية المقيمين والمغتربين، ومن رجال البر والاحسان في بيروت وصيدا وصور والعباسية وحاريص والنبطية والجية ودير قانون رأس العين . ومن القرى المحيطة ك : ارزاي والخرايب وسواها. وبهذا الخير اصبحت مالية الجمعية تعتمد ليس فقط على ما يأتيها من الخارج بل على واردات نشاطاتها المتعددة لتغطية نفقاتها، مما جعلها تقوم بتقديمات كثيرة منها :

- مساعدات مرضية واجتماعية ومالية ومواد غذائية.

مساعدات تربوية على شكل منح للمتفوقين في دروسهم الابتدائية من ابناء ذوي الدخل المحدود والمعوزين، تمكنهم من متابعة دروسهم المتوسطة والثانوية اذا ارادوا الالتحاق بالثانويات الخاصة.

كما أن الجمعية تتلقى بعض العون والتوجيه من المؤسسات التالية :

- الانعاش الاجتماعي - جمعية الشبان المسيحية - منظمة الامم المتحدة للطفولة - اتحاد غوث الاولاد - مجلس الجنوب - اليونسيف.

حرف ومهارات : بدت الزرارية في فترة ما بين الحربين العالميتين اشبه ما تكون « بمزرعة » كبيرة او قرية صغيرة مساحة وسكانا وعمرانا فسكانها كانوا في العشرينيات لا يتجاوز عددهم الألفي نسمة على ابعد تقدير . ومساحتها ربع مساحتها اليوم وبيوتها متناثرة هنا، ومتلاصقة هناك، ذات سطوح ترابية حجرية الجدران «وبالكلين» احيانا، في زواريب ضيقة، وبركة في وسط القرية آسنة المياه المتجمعة ايام الشتاء من هذه الزواريب وتلك السطوح. . .

أما الاحتطاب من وادي خليل او عقبة النهر او السنيير او وادي جهنم فكان نادرا جدا. وكان للفقراء، ومعظم السكان فقراء، يستعيضون عن حطب السنديان والبطم بروث الدواب يجبلونه قطعا رخوة مستطيلة ويلصقونه على اسوار بيوتهم واسطبلاتهم حتى اذا جف استعملوه وقودا. وكان اكثر هذه الاسطبلات ملاصقاً للبيوت، او على مداخلها. . أو في داخلها حيث يبيت الانسان والحيوان معا ، خاصة ايام المطر الشديد. ولعل هذا هو السبب الذي جعل منهما كلا لا يتجزأ. . . واقام ألفة بينهما قائمة على التلاصق المتين والمستمر والعشرة المختلطة والمصالح المشتركة. . .

حتى اذا اطل النصف الثاني من هذا القرن وازدادت الهجرة الى افريقيا وبدأت اموال المغتربين تتدفق بنسب متفاوته بين كل عقد وعقد انعكس ذلك على ابناء الزرارية المقيمين، فاقاموا البيوت الحديثة وانشأوا البساتين واشتروا العقارات والبنايات في صيدا وبيروت وانتقلت المطاحن من على الليطاني الى داخل القرية،

واستبدلت طاقتها المائية المحركة، بطاقة المحركات على المازوت، فكان فيها «موتور» الطحن الحديث باحجاره الثلاثة العملاقة الى جانب جاروشة البرغل مما سد حاجة القرى المجاورة كلها، فاغناهم عن الذهاب على الدواب الى مطاحن الليطاني او القرى البعيدة .

كما تطورت في الزرارية معاصر الزيت والخروب، وكانت ثلاثا : معصرة السيد حسين هاشم ومعصرة الشيخ محمود فخري ثم معصرة محمد علي هادي مروه (ابو قاسم) وكلها ينتج اجود زيت الزيتون ، اما الدبس الجيد الاشقر فكان من انتاج المعصرة الاولى حيث طبقت شهرتها وجودة انتاجها آفاق القرى المجاورة، بل اقليم الشومر باكمله. ومن اسف ان هذه المعاصر قد تقلصت ثم انقرضت بوفاة مؤسسيها الأوائل. وليس في الزرارية اليوم سوى معصرة واحدة حديثة. وكذلك انقرضت صناعة التين المدبس (تين الشريحة).

الافران :

وحين ربطت الزرارية بالمدن عن طريق جمجيم ـ الخرائب ـ ارزاي ـ الزرارية ـ بريقع ـ جبشيت ـ النبطية ـ انطفأت جذوة افرانها او « التنانير» وافرانها العامة [١] حيث كان يصنع الخبز الجيد والمشاطيح واللزيقات والمناقيش و«البعقات»[٢] . . . وراحت ربطات الخبز المصنوع في افران صيدا وصور والنبطية تأتي بسهولة وسرعة الى البلدة وحتى مآدب الحفلات راح الاغنياء «يوصون

---

(١) او على الاصح : فرنها العام الوحيد. وكان يملكه السيد مصطفى الاخضر(توفي منذ عام).

(٢) ويقال للبعقة طلمية في لهجات اخرى غير عاملية . وهي عبارة عن رغيف صغير سميك الحجم مدور يشبه المشطاح سمكا لا استطالة .

عليها» من مطاعم المدن فيأتي «المعلم» (١) ومعه في السيارة ـ (البيك آب) الخواريف المطبوخة والارز الجاهز للأكل وكل اصناف المأكولات الأخرى.. حتى المرطبات والصحون البلاستيكية والكرتونية... كلها تأتي معه، فتمد مائدة طويلة عريضة، فيتهافت عليها المدعوون وقوفا للشباب وجلوسا للعلماء والشيوخ.

وقد انشىء منذ سنوات قليلة مطعم حديث على مقربة من الزرارية بحيث يذهب اليه مرتادوه من الزرارية مشيا على الاقدام أو بالسيارات ويدعى مطعم «قصر المشتاق»وقد زرته فوجدته حسن التنظيم والنظافة ومعتدل الاسعار...

وهناك في داخل الزرارية مطعم شعبي للمشاوي والفلافل بالسندويشات، ومحل لبيع الفراريج المشوية.

كما تطورت وازدهرت صناعات وحرف كثيرة في الزرارية : كمرائب تصليح السيارات والبرادات، وتركيب اجهزة مكيفات الهواء، والادوات الصحية وغير ذلك.

فحق لنا أن نقول ان الزرارية اصبحت اكبر من قرية بكل تأكيد وهي تكاد تصبح مدينة، بكل مقومات المدن. وعلى الاقل : مدن الاصطياف : من طريق عام معبد وشبكة مياه وكهرباء وهاتف خاص وغرفة هاتف للعموم وهاتف دولي.

وسيطل القرن الواحد والعشرون قريبا والزرارية تزاحم مدن القضاء وتقف معها على قدم المساواة سكانا وعمرانا واقتصادا وثروة إن شاء الله.

أما المحلات التجارية فقد تطورت ايضا من بيع المفرق الى بيع الجملة وفيها كل انواع السلع من « البابوج الى الطربوش» كما يقال في الامثال.

---

(١) وهو كبير الطهاة وله قيافة خاصة : لباس ابيض مستطيل و «مريول » ابيض كذلك . وغطاء ابيض طويل للرأس على شكل « كالباك »

كما اختص بعضهم ببيع وتأجير الأشرطة والمسجلات، والسلع الحديثة كالهدايا الثمينة والتحف (بيبلو) والتلفزيونات الخ...

أين سوق الزرارية؟

ولعل الاحداث المؤلمة الاخيرة هي التي قضت على سوق الزرارية، الذي كان يقام نهار الخميس من كل اسبوع، ينشط بذلك حركة التبادل التجاري بينها وبين الجوار، غير أن توقف هذا السوق لم يؤثر بشكل عام على الحركة التجارية والنمو الاقتصادي في الزرارية نظرا لسهولة الاتصال مع الخارج والحركة الناشطة للمغتربين العائدين على جميع مستويات التجارة والصناعة والزراعة وبالآلات والتقنيات الحديثة.

حب التمثيل : يقوم بعض الشبان المثقفين وطلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية في الزرارية بتمثيل بعض المسرحيات من حين الى آخر، لكن الاحداث في لبنان وانشغال هؤلاء الشبان بهموم اخرى كالمقاومة ومتابعة التحصيل العلمي في الجامعات حال دون ذلك ، فلم تزدهر حركة التمثيل، سيما وان قاعة خاصة بذلك لم تقم بعد. مع أن هناك ميلا طبيعيا للتمثيل عند هؤلاء. غير أن بعض المدارس الخاصة الناشطة في الزرارية لم تتخل عن مثل هذا الفن فهي تقيم في نهاية كل عام دراسي حفلات تخريج غنائية وراقصة وتمثيلية[1] اذكر انني شاهدت في اواخر الاربعينات شباناً يلبسون ثيابا تنكرية للتمثيل ويمثلون على هواهم وعلى الهواء في الشوارع. فيطارد البطل خصومه في الأزقة

---

(١) ننوه من بين هذه المدارس الخاصة بمدرسة الاستاذ احمد حيدر ـ الشعله ـ حيث لا يقل اهتمامه بالتمثيل واقامة الحفلات عن اهتمامه بالتربية والتعليم .

شاهرا عصاه، ومطلقا لسانه في شتائم وتهديدات تطاردهم معه!! وقد جهل هؤلاء «الممثلون» الابرياء السذج ابسط قواعد التمثيل..

الغناء في الزرارية : لا اعرف شابا او فتاة في الزرارية الا وهما يجيدان فن الغناء الى درجة مقبولة، وحتى المتوسطات في العمر يجدن اطلاق الزغاريد والميجانا والعتابا والمواويل من حناجرهن العامرة ومن تأليفهن احيانا..

بدأ الغناء «رندحة» اول الامر على طريق العين عندما تذهب الفتيات وعلى رؤوسهن جرار الفخار للإستقاء من عين الحور او عين البلدة، وفي مواسم جرش البرغل او في الاعراس، او في ساحة البركة حين «تعمر» الدبكة المختلطة (فرخة وديك) ، وهناك يبدأ صداح المجوز والمنجيرة فتتجاوب معهما الصبايا بشتى انواع الغناء البلدي المعروفة، والتي فيها من الاثارة ما يجعل الشبان المعاميد ينهبون الارض بأرجلهم عند «ربطة الدبكة»، وينطلق محمد مرعي، وهو شاب كان راعيا، برخيم صوته لا تزال «كرة» صوته المديدة تربطني به وباجواء الطرب في الزرارية حتى الآن . . . ولا أغالي اذا قلت ان كرة صوته تقارب في طبقتها الصوتية كرة المغنية المشهورة صباح، امتداداً وصفاء. . . ولو كان ابن الرومي حياً وعاش في الزرارية في الثلاثينيات من هذا القرن واستمع الى محمد مرعي لتغنى بكرته وامتدادها ولما تغنى بصوت «وحيد» الذي يقول فيه :

مد في شأو صوتها نَفَس كاف كأنفاس عاشقيها مديدٌ!. . .

اما « الآويها» وهي مطلع «الزلغوطة» فحدث عن زخمها وامتدادها ولا حرج ! وكثيرا ما كان مضمون الزلغوطة يبتكر ويرتجل وفقا لكمية الحماسة والاثارة. . ويتطور الزرارية على كل صعيد، تطور الغناء البدائي الفردي الى غناء جماعي «اوبرالي» تنطلق من حناجر تشكيل شبابي مختلط من الهواة في اطار فرقة انشئت حديثا للغناء والرقص الشعبي اطلق عليها اسم منشئها كريم مروه.

الربابة[1] : اتقن الضرب على الربابة - في اوائل الاربعينات صديقنا المرحوم محمد بك الاسعد (ابو شعلان) من ابناء ناصيف باشا الاسعد. . . ولم تكن الباكوية لتمنعه من اسماعنا ايقاعاته عليها.

فقد كان رحمه الله «همشرياً» بكل معنى الكلمة متواضعاً محباً لجميع فئات اهالي الزرارية. . .

ارتيزانا : او المهارات اليدوية القروية المحلية التي تمتاز بها بعض القرى اللبنانية. وقد اشتهرت بحسن الصنع واتقانه فقصدها السائحون لشرائها. كجزين في صناعة الخناجر والمدى والاواني الخشبية المطعمة بالاصداف، وكذلك قريتا خيزران وعدلون المشهورتان بصنع جميع اصناف الفخاريات والسلال. وبلدة انصار المجاورة للزرارية التي اشتهرت بصنع السكاكين والمحاريث، وبيت شباب في جبل لبنان المشهورة بصنع اجراس الكنائس الضخمة والأيقونات.

أما الزرارية فقد كادت الارتيزانا او الصناعات المحلية والمهارات اليدوية أن تموت بعد جارتنا(بيدا) التى اشتهرت في أوائل هذا القرن بزخرفة اليوكات ونمنمة اطرافها بزخارف ومجسدات من الطين والكلس والحوار مصبوغا بألوان مختلفة. وكذلك كانت تفعل بواجهات « الكواير». . .

ظل هذا الفن الارتيزاني بدائياً على يدها ومات بموتها. ومما حرم الزرارية من الصناعات اليدوية كثرة المهاجرة الى الخارج ومن بقي من عا ئلاتها ظل سادرا

---

(١) الربابة : آلة طرب قروية - بدوية . سهلة الصنع من جلد مشدود وهي ذات اوتار قليلة ويمكن ان يضرب عليها بوتر واحد . . وهناك آلات طرب بدائية استعمل العامليون بعضها في أفراحهم كالدريكة والطنبور . اما البزق والكرنايطا فلم يعرفوهما

في فقره المدقع نتيجة ظلم الاقطاع ثم ذاك الحرمان المستمر ايام الانتداب الفرنسي لهذا الجبل العاملي الصامد حتى اذا تنفس الناس فيه بعض الشيء ظهرت المهارات الفنية في الزرارية وغير الزرارية على كل صعيد.

وكان لارتيزانا الزرارية نهضة وحياة جديدتان بعثتا على يد انسات وسيدات متعلمات كثيرات ، نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر السيدة الهام محمد متيرك [١] التي ابدعت في فن الارتيزانا ايما ابداع. جمعتني بها مقابلة عابرة فأرتني انتاجها في هذا الفن وقالت لي انها انتقلت من هواية الارتيزانا الى احترافها بعد أن تخصصت اكاديميا فيها ومن انتاجها بغزارة الى عرضها في معارض في صيدا والنبطية وبيروت، وهي الآن تمارس تعليم الارتيزانا في بعض المدارس التي تهتم بتعليم هذا الفن. والسيدة ام مالك عضو في جمعية بيت المرأة الجنوبي - فرع الزرارية.

وتبقى الموسيقى :

روح الطبيعة وريحانها. . .

يقول منصور الرحباني :

« أن تربى بين اناس يعرفون الفولكلور، فلا بد أن تلفحك رياح موسيقية من كل جانب. . عاصي وانا امضينا مرحلة الطفولة في منتزه ابي : «فوار انطلياس »[٢] الخ .

(١) وهي السيدة ام مالك زوجة نسيبنا السيد كمال هاشم من الزرارية .

(٢) وقد جسد زياد الرحباني هذه «الرياح الموسيقية » خير تجسيد ، وسكبها في كل ما ابدع من اغان والحان ومسرحيات .

أي أنه تربى مع اخيه في ذلك الحضن البليل من احضان الطبيعة، التي كل ما فيها نغم ظاهر، وآخر مستور، يتجلى في كل شيء، ويتمظهر في : احاديث الناس واسمارهم وحكاياتهم، في الاغنية الشعبية، في الآه البلدية، والموال الريفي المديد، كما يتردد في زقزقة الشحارير والوروار وحفيف الاشجار، وهدير الانهار وسقسقة السواقي وآويها العرائس. . .

حتى وحشة البراري، وصمت الوديان، وغربة السهوب، وسجو الليل، وهدأة الأماسي، وخلجات قلوب العذارى. . ورندحة الامهات واغاني الرعيان.

كل هذا ينبض بالنغم الخفيت وينهمر باللحن الجهير. . .

كل هذا يعبر عن نفسه : بالزي والرقصة، والاكلة والشربة، والاغنية، والشعر والاسطورة : والانشودة، والبراءة، والطفولة والرجولة، والكرم، والحب. . . والايماءة، والهمسة. . . كل هذا نغم وموسيقى !

كل هذا فولكلور ! !

وبعد : أن امة تنتج «الفن» وتبدع الشعر وتهوى الموسيقى وتعشق الرقص ، أمة حية. .

حتى اذا اضافت الى حب الفن فن الحب. . بلغت من العلياء كل مكان. .

البناؤون : اشتهرت الزرارية بفن العمارة او البناء، كما اشتهرت جارتها بلدة انصار بصناعة السكاكين التي اتقنتها عائلة حداد. جاء الى الزرارية معلم عمار من الطراز الأول يدعى مغيزل متخصص ببناء المساجد والمآذن فبنى فيها جامع (ابو الحن او جامع العريشة) وبعد ذيوع صيته في قرى جبل عامل[1]

---

(١) انظر باب : المسجد يبنيه مسيحي ، من هذا الكتاب

كما اشتهر ببناء المساجد والحسينيات احد ابناء الزرارية من جيل مغيزل هو المرحوم يحيى مروه فهو والاول يشكلان رأس الرعيل الاول من العمارين في مطلع هذا القرن وحتى الخمسينيات منه وكان المعلم يحيى من بين القلائل الذين رسا عليهم التزام بناء سد الليطاني أو على الاصح سد في مشروع الليطاني الذي بوشر بتنفيذه أوائل الاربعينات. .

البناؤون المعاصرون : وندخل في الرعيل الثاني من البنائين فاذا بكثيرين من ابناء الزرارية يبرزون في هذا المضمار كعلي الشيخ ابرهيم مروه (أبو ابراهيم) والسيد علي احمد هاشم (أبو رضا) اللذين برعا في فن البناء وفي تطبيق الخريطة الهندسية التي يضعها مهندسون اكاديميون، وقد يلجآن احيانا الى التغيير والتبديل في هندستها (كما أكد لي ذلك احدهما) الذي اقنع المهندس بوجهة نظره، معترفاً له هذا الاخير بصوابيتها. انهما مهندسان بالفطرة والذكاء والممارسة. وهذا في نظري خير من مهندس اكاديمي مبتدىء لا يشرف ولا يمارس [1].

وهناك اليوم، في الزرارية شبان يحترفون مهنة البناء كاحمد عباس زرقط ونعمة حلو وعباس محي الدين ، لكن الكثيرين منهم تنقصهم الموهبة من جهة، ويطغى عليهم الميل الشديد الى الربح المادي السريع من جهة اخرى.

---

(١) وهذا ما جرى مع المرحوم والدنا والمهندس المعروف هشام عسيران الذي اشتهر في عالم الهندسة المعمارية وبناء الجسور . وعلى ذكر هذا المهندس البارع نسجل ـ هنا ـ انه لكفاءته وشهرته قد كلفه مجلس الجنوب بوضع تصميم وخرائط جسر ٦ شباط على الليطاني قرب الزرارية فوضعها واشرف على تنفيذها.

البناء العربي الريفي القديم :

- عرفت الزرارية في أوائل هذا القرن بنائين مهرة من أبنائها - وابناء القرى المجاورة - برعوا في بناء البيوت الحجرية ذات القناطر بالحجر المنحوت (ويسمونه المقصوب) والجدران السميكة (الكلين) بحيث يبلغ عمق الشباك فيها مترا أو ذراعا على الاقل. وكانت سقوفها من خشب وجسور هي عبارة عن «لاطات» من خشب الزان يعلوها غطاء من قصب ثم تراب كثيف يحدلونه قبيل فصل الشتاء بالمحدلة المعروفة . وكان افخر انواع البابونج ينبت عليها. . . وهذا ما جعل هذه البيوت الشرقية الطراز باردة في الصيف ودافئة في الشتاء. مما جعلنا في هذا الكتاب نأسف لبدء زوالها تدريجيا لتقوم مقامها منازل حديثه بالباطون المسلح، الحارة في الصيف والباردة في الشتاء. . .

نصيحة مخلصة الى العمارين الشبان :

١- أن يؤسسوا شهرتهم على الجدية والاخلاص في العمل اولا. فهذان هما رأسمال كل مهنة ناجحة وكل مهني شريف. . .

٢- أما الاسراع في الاثراء على حساب الآخرين فهو منزلق خطير الى الهاوية. . .

الجزارون (أو اللحامون) : كما في كل قرية لا تعتمد على المدينة في تأمين اللحوم نشأت في الزرارية طبقة من الجزارين المهرة الاقوياء الذين شهدت البعض منهم أيام الطفولة «يعرقبون» الجمل ويطرحونه الى الارض بطريقة مثيرة :

يبدأ الجزار علي قاسم جمعة مثلاً ومحمد يحيى مروه يعاونهما رجال اشداء بعرقبة الجمل بعد اناخته ثم يشدون رأسه بحبل الى الوراء بحيث يبرز عنقه اتلع محدبا ثم يشهر احدهما سيفا او ما يشبه السيف أو البلطة الحادة ويغرزها

مراراً في هذا العنق فيتدفق الدم غزيرا حتى النهاية ثم يبداون بسلخه وتعليقه واخراج امعائه وتقطيع لحمه وبيعه. هذا يوم كانت عادة أكل لحوم الجمال سائدة في قرانا ولعلها بادت اليوم بحكم تطور الذوق عند الناس. وهناك بعض القرى لا يزال ساكنوها يستسيغون أكل لحوم الجمال الى اليوم. أما ذبح الثيران فيبدأ كذلك بعرقبة الثور ثم ذبحه من الوريد الى الوريد. شاهدت مرة ثورا هائجا يحوم حول دم أخ له كان قد ذبح البارحة وهو يرسل خوارا حادا مزعجا وكأنه ادرك أن مصيره سيكون بعد قليل مصير هذا الاخ المسكين. لكن الخوار لا ينفع في مثل حالته وقدرة الجزار على حسم المسألة لا تقاوم ولا ينفع معها الخوار ولا الحوار. . .

أما السيد محمد ابراهيم عميس فيأتي في عداد مخضرمي جزاري الزرارية كالسيدين الآنفي الذكر علي قاسم جمعة ومحمد مروه وهو اليوم (أي السيد محمد عميس (أو عميص) متقاعد بعد ان امضى في هذه المهنة الدموية قرابة نصف قرن (١)

كان السيد عميس جارا لنا في الزرارية وما زال.

حدثنا المرحوم والده أن المرحومة والدتنا ارضعت محمداً اثناء ارضاعها لشقيقنا الاكبر نجيب فأصبح السيد محمد حلالا شرعا على والدتنا يقبل يديها وشعر رأسها كما اصبح اخا لنجيب بالرضاعة. اما المسالخ فلا وجود لها في الزرارية ولا في سائر القرى لانتفاء الحاجة اليها. . .

---

(١) انظر بعض نوادر الجزارين وقصة «التعظيمة» في فصل الفولكلور من هذا الكتاب.

مواسم الحليشة[1] والحصاد :

لاحظت أيام طفـولتي ظاهـرتين من ظـواهر المجـتـمع الريفي في الزرارية واظنهما موجودتين في سائر القرى العاملية وفي الريف اللبناني عامة.

هما : ظاهرة العونة أيام الحصاد واشتراكية الحصادين (أتينا على ذكر العونة في فصل الفولكلور.)

أما اشتراكية الحصاد فقد روي لي كما لاحظت ذلك بنفسي أن الحصاد لا يحصد بمنجله [1] كل سنابل القمح أو الشعير بل يترك بعضها وأن كان قليلا وراءه لبعض النسوة المعوزات اللواتي يلتقطنها، فقد تركها لهن قصدا لينتفعن بها.

اليس هذا دليلا على كرم الحصاد وانسانيته واشتراكيته الفطرية.

منظر رائع ! وإن أنس فـلا أنس ذلك الحـصـاد المرهق الذي ينشلح على صخرة جانب الحقل أو عند جذع شجرة دهرية ليرتاح ويمسح عرقه المتصبب وما هي الا لحظات حتى تأتي له زوجته أو ابنته الكبرى بابريق ماء بارد يصبه في جوفه دفعة واحدة على طريقة « الزرنقة» وما ادراك ما الزرنقة ! باع طويل مرتفع في الهواء واصابع عملاقة تمسك باذن الابريق وقد يكون طبازيا، وفم الحصاد فاغر

---

(١) ويسمون حصاد الفول والحمص والعدس : حليشة اما الحصاد فهو للقمح والشعير فقط. .

(٢) ويقال لآلة الحصاد الدامرج وهو الاصح .

على اتساع فرجة الشفتين : الماء كله في جوفه عبر فمه ولا نقطة ماء واحدة على الارض !!

وبعد نصف ساعة ترى هذا الحصاد يعود سريعا الى الحصاد بكل النشاط وكل الرغبة. . . منظر رائع انساني قضت عليه حضارة ماكينات الحصاد والتذرية والغربلة. ولم يعد هناك من سنابل يتركها الحصاد وراءه عمدا للنساء الفقيرات. . .

الم نقل أن حضارة الريف هذه في طريق الزوال وقد زالت أو كادت؟. .

وأن التكنولوجيا حين تسود تضعف انسانية الانسان؟. . .

وحين يعود هذا الحصاد الى بيته عند المساء تسارع زوجته الى تقديم كاسة «البليلة» فيكرعها بكاملها ليبرد جوفه وتكون هذه الزوجة المخلصة قد اعدت «طشنا» كيرا مملوءاً الى نصفه بالماء الساخن مع بعض الملح ليضع فيه هذا المجاهد رجليه غاسلا اياهما من بقايا تراب الحقل، وتراه اثناء ذلك يبرم لفافات (التتن) حاشيا اياها بالتبغ الفاخر. فالتدخين على هذا النحو يحقق لهذا الفلاح العاملي احدى لذائذه الخمس. . . ولا اظنه يستمتع بسواها. . .

ايها القارىء العزيز : الا يوحي منظر هذا الحصاد العاملي (الملك غير المتوج) بالشعر ؟. . بلى وايم الحق. وهاك هو :

دردشة خارج الهم الجنوبي. . .

متعة العاملي المزارع :

للعــاملي لذاذات يهـيم بهـا : التـبغ والشـاي والـزوجـات والادب

والهزل. بعد هموم اليوم، شيمته مع الاحـبـة ترويحـا لمن تعـبـوا

ونفـخة من لفاف التبغ منعشـة لا در در الذي للتـبغ يجـتـنب

في ارض قـانا أو البـيـاض منبتـه وفي الحواكير. . سل عنه الالى شربوا

وبعـد كـبـة لحم أو مـجـدرة دواهمـا الشـاي صرفـا فـعله عـجب

روح الحـيـاة به لا عـاش تاركـه ما العمـر الا بكأس الشـاي يصطحب

خـدمـة مـزدوجـة :

أم البنين رعـاها الله من سكن تنسى معي الهـم و «التدنيك» اذ تهب

يا حسنهـا في فناء البيت نافخة عند المواقـد ركنـا ملؤه الحطب

تشوي على الجمر «كرشا» بعد قسمته حـتى يورد منهـا خـدها الرطب

وترضع الطفل باليسرى فأحسده وباليـمين تراعـيني وتنجـذب

أرنو اليها. . . فتنأى عن مشاغلها في امري الأمر. . لا شكوى ولا عتب

بين الحلبتين :

حتى اذا ما قضينا كـل متعتنـا قامت تسلل ولهى وهي تنسحب

فقد رأت بقرات الخيـر قادمـة يا روعة الضرع حين الضرع يحتلب

كأس الحليب له في كفها عبـق كأنما العطر في ريـاه منسكـب

لم يبق الا لـذاذات مبعثـرة تأتي بها للتسالي والهوى لعـب

يا بارك الله ما تزجيه من نعـم : التين والدبس والدحروب والعنب

و«بالبليلة» اطفي ما احترقت بـه بعد الحصاد، فلا «شوب» ولا لهب

تقييم لبنان

ما قيمة العيش في لبنان لا أمـــل ولاهناء بدون « الخمـــس» لا ارب
يا جاهلا أمر لبنان، وعيشتـــه : الهم والغم والتدجيل، والكـــذب
فكيف اصرف همي. . لا عدمتكمو الابذي «الخمس» والعقبى لمن رغبوا
بل كيف احيا. . وهذا بعض واقعنا القتل والسحل والتخويف والريـب
والجوع والفقر والدولار في سعـــر تجاوز الالف. . . ماذا بعد يا عـرب

الحق أقول

كان الامام ظريفاً في مجالســـه وفي البلاغة عملاقا، ولا عجـب
أما النبي فأنس القلب مجلســـه حديثة آلق في الـــروح ينسكـــب
ما قال يوما بأن الهزل منقصـــة ولا حرام. فأيت الاثم يرتكـــب
ولا نهى عن لذاذات مبـــــرأة تسمو بها الروح والاخلاق والرتب

حقائق تاريخية

فالتبغ مقبرة للهم مـن قـــــدم وفي الاغاني سر الزهو، والطـرب
وحكمة من أديب فيض تجـــربة أو شاعر صاحباه : الحب والحبب
وطرفة من خليل، صاح سامعهـا الله أكبر. . . عاش الذوق والادب

عَبرة وعِبرة !!

هذا، والا، فعش قهرا ومت شظفا بين الالى اقتتلوا، أو بين من نهبوا
وشوهوا وجه لبنـان وروعتـــه بالحرب والضرب، ما ارتدوا وما تعبوا

المؤلف

ماذا بعد الحصاد؟

الرجيدة :[1] بعد الحصاد يكون الحقل مليئاً باغمار القمح المحصود. يأتي الجمال بجماله لينقل عليها هذه الاغمار الى البيدر ويسمون هذه العملية «الرجيدة» وعلى البيدر ، تتم دراستها ثم تذريتها ونقلها الى أهراءات البيوت والاصح الى الكواير وما فاض من الكواير يبقى في اكياس الخيش لنقلها الى المدينة وبيعها.

أما اليوم فلا رجيدة ولا من يرجدون . لقد حلت ماكينة الدراسة محل الجمل وتخفف المزارع من كثير من الأعباء وتكاليف الحياة القروية الشاقة. . . ألم أقل ان لغتنا المحكية قريبة من الفصحى وهذه كلمة رجيدة دليل على ذلك جذرها في مادة رَجَدَ بمعنى نقل السنبل الى البيدر .

حراثة وحراثون :

كان كبار ملاكي الارض في الزرارية في النصف الاول من هذا القرن، يعتمدون لزراعة حقولهم على المزارعين الصغار الذين يستأجرون هذه الحقول (بالحصة) على اساس ٦٠ ٪ لهم و٤٠ ٪ للمالك على أن يقدم المالك البذار، أو يسهم فيه . . . والباقي على هذا المزارع الصغير المستغل الذي لا يملك الا أن يرضخ لشروط المالك التي كانت في كثير من الأحيان تعسفية ظالمة. ولكنها تبقى مقبوله لديه أكثر بكثير من تلك الحياة التي كان المزارع يحياها في ظل النظام الاقطاعي القديم، حيث كان يعمل في الارض، لا «كضامن» أو مستأجر، بل

---

(١) الرجيدة كلمه فصيحة من فعل رجد : انظر المنجد مادة رجد .

كعبد أو اجير ليس له على الارض «مرقد عنترة» ! وكل ما كان الاقطاعي يعطيه له : فتات من مقومات الحياة، أشبه ما يكون بعلف الحيوان. .

طريقة الحراثة :

كان هذا المزارع «الضامن» يجند كل افراد عائلته لزراعة الارض ثم تعشيبها ثم حصادها ثم نقل الأغمار الى البيدر ثم دراستها ثم تذريتها ثم لا يبقى له منها شيء يذكر.

وقبل كل هذا العمل المتواصل يستأجر « حراثا» لحراثة الارض وقلبها مرتين على الأقل . وغالبا ما يكون هذا الحراث صاحب فدان [1] بقرتين على الأقل وسكة ونير يعلق على رقبتي الثورين أو البقرتين او الحمارتين أو بقرة وحمارة. . وكي لاننس نذكر «المساس» [2] الذي ينهز أو ينهر به الحراث اقفية المتقاعسين من الحمير أو البقر!

وتكون النتيجة بعد المحاسبة المجحفة «شوية» امداد من القمح والشعير والقطانة قد تسد الرمق لكنها لا تملأ الجيب. .

أما اليوم فقد خف كثير من العبء عن كاهل المالك والمزارع والحراث على السواء، وذلك بحلول الآلة سواء في الحراثة أو الحصاد أو التذرية وسوى ذلك. لكن اعداد المزارعين قد قلت ونزح الكثيرون الى المدينة أو هاجروا سعيا وراء حياة أفضل ومردود أكثر. .

---

(١) الفدان بالاصطلاح القروي : بقرتان يشد النير على رقبتيهما لحراثة الارض

(٢) المساس قضيب متين يغرز في رأسه مسمار صغير ينهر به الحراث اقفية الفدان للاسراع عندما يتباطأ اما اذا كان هذا المساس رقيقا ومن قضبان الرمان سموه «سموطا » وجعلوا منه مثلا لمن ينبغ من بين افراد عائلة متواضعة فقالوا :«بيطلع من جب الزعتر مساس . . »

الفصل الرابع

الهجرة الى المجهول (أو حرق المراحل) (١)

في مطلع هذا القرن وقبله بقليل بدأت رحلة العامليين الى. . المجهول من مصادر العيش الكريم والرزق الحلال ونسائم الحرية. . . يحدوهم أمل يكاد يكون سراباً في الخلاص من كابوس الفقر والضياع الذي رزح تحت وطأته اباؤهم وأجدادهم بفعل الاقطاع والحرمان، واهمال كافة العهود الاستبدادية في لبنان. هاجروا من غربة في الوطن الى غربة عن الوطن، وظل لسان حالهم يقول، رغم ظلم ذوي القربي :

شطران قلبي : شطر للمقيم على الوفاء وشطر للذي نزحا. . .

وظل لبنان ـ الحلم كامنا في اعماقهم لا يريم ـ لبنان الحرية والمساواة والعدالة. . .

---

(١) ونعني بحرق المراحل أوسحقها : ان التطور والازدهار اللذين اصابا الزرارية وغيرها من القرى العاملية ما كان ليتم بهذه السرعة لولا هجرة ابنائها . . فكأنهم اختصروا المسافة الزمنية التي كان يقتضيها هذا التطور والازدهار فيما لوتما بشكل طبيعي :اى انهم احرقوا المراحل واختصروا الزمن بالهجرة الموفقة والمرهقة في آن . . ـ المؤلف ـ

هذا اللبنان ـ الحلم لا يزال حتى الآن حلما ـ ولكن اغتراب بنيه، قديما وحديثا ومقاومتهم الوطنية، سيقرب المسافة ما بين الحلم والواقع، شاء جلادوه أم أبوا. . . الا اذا استطاع هؤلاء الجلادون أن يفرغوا لبنان من بنيه في هجرة قسرية والعياذ بالله!!

الحوافز التاريخية والنفسية :

العاملي خاصة واللبناني عامة، معروف منذ كان بحب التنقل والاغتراب وارتياد المجهول في ما وراء المحيطات والبحار. ارتادها أولا لنشر الحرف والكشف والتجارة وتبادل السلع [١].

فالهجرة وليدة ميل فطري لدى اللبناني (والسوري طبعا) نحو خوض ذلك المجهول في سبيل الحصول على الاحسن والافضل. فمنذ انطلق من على شواطيء صور وصيدا وجبيل أول شراع فينيقي وأول مجذاف يمخر به هذا اللبناني / السوري/ العربي/ لينشيء أول مدينة تاريخية على المقلب الثاني من الارض العربية المغربية (قرطاج أو قرطاجنة) منذ ذلك الزمن السحيق والحوافز الاقتصادية والسياسية والاجتماعية مضافة الى الحوافز الذاتية تدفع بهذا اللبناني الى المغامرة والهجرة ولو مؤقتا في وطن بديل كاد أن يصبح هو الوطن الاصيل في الاميركيتين حيث بعد المسافة وامكانية الاستقرار وضعف القوة الشرائية لعملات تلك البلاد. على نقيض افريقيا ـ كما سنرى ـ وخير من جسد هذا الواقع المرير قول أحد

---

(١) من محاضرة للدكتور عاصم جابر نشرتها مجلة العواصف ص ٥٦ عدد ١٩ ـ ١٩٨٩ ـ بيروت ـ .

شعراء الاغتراب اللبنانيين [1] الذين هاجروا الى البرازيل ومكثوا طويلا هناك وتفاعلوا مع الشعب والبيئة نفسيا وفكريا حتى صعب عليه أن يصدق حين اراد العودة الى وطنه الأول لبنان انه عائد أم مهاجر. . . قال :

يا برازيل لو دعتني بــــلادي   يوم لا عذر لي بالا اسافـــر

لست أدري وقد تركت فؤادي   فيك. هل عائد أنا أم مهاجر!

وهكذا ذابت اجيال هذا الشاعر وانصهر اولاده واحفاده في الوطن البديل وزال حنينهم الى وطن الآباء والاجداد، وزالت اللغة. . . وفقد لبنان خيرة الادمغة والافئدة. . .

---

(١) نقول اللبناني الفينيقي ولا نخشى اتهامنا بالفينيقية (وهي ليست تهمة على كل حال) . . فالفينيقيون ـ كما اجمع المؤرخون المنصفون ـ : فبيلة عربية انحدرت من الجنوب العربي الى شاطيء لبنان وسوريا وفلسطين . وكلمة «فينيقيه » تعني النخلة . وكان يرمز بها الى القبيلة القادمة من بلاد النخيل . ولم يكن يوجد نخيل في تلك الايام الغابرة الا في بلاد ما بين النهرين ـ اي العراق ـ وفي بلاد الجنوب العربي ـ أى اليمن وعدن وحضر موت وما يحيط بها. ومن اختراعات الفينيقيين العظيمة التي بنى عليها العقل البشرى اساس التكوين الحضارى كانت الابجدية ، التي تعتبر المعجزة الاولى للانسان . . . وكل تقدم في مجالات العلم والاختراع والرقي يرتكز على اللغة الاولى : الحرف ! وقد اكتشفت اول ابجدية في مدينة اوغاريت باللاذقية المعروفة اثرياً باسم (راس شمرا ـ العرفان ج ٥١ جزء ٩ و ١٠ حاشية ص ٣ عبد اللطيف اليونس ـ المغتربون). اما المؤرخ يوسف الحوراني في كتابه : لبنان في قيم تاريخه فيقول :«ان الفنيقيين جاؤوا من الخليج (الفارسي) وهو في الحقيقة والواقع خليج عربي ثم اختلط بهم العرب في لبنان بعد سد مأرب » . . . كأنه يريد ان يقول ان العرب جنس سامي والفينيقيين هندواوروبين ! (راجع كتاب لبنان في قيم تاريخه ط ١ ص ٥٦ ـ دار المشرق ـ بيروت .

الهجرة الى افريقيا : يقول كامل مروه في كتابه «نحن في أفريقيا»[1] :

«كان تيار الهجرة يجرف مهاجرينا، في البدء، الى العالم الجديد . أي الى اميركا الشمالية، ثم الى اميركا الجنوبية، وكانت مرسيليا المرحلة الاولى في الطريق اليهما. وفيها، على الارجح سمع مهاجرون لاول مرة ببلاد مغمورة تدعى أفريقيا الغربية، فغير انفار معدودون منهم مجرى الطريق، واتجهوا اليها بدلامن متابعة السفر الى الديار الاميركية! أما رغبة في المغامرة أو لعجزهم عن دفع أجره السفر الى العالم الجديد، أو لأن حالتهم الجسدية لم تكن تطابق الشروط القاسية المفروضة من أميركا على المهاجرين الجدد. «ومع هذا فقد استطاع بعض مهاجري الزرارية قبيل الحرب العالمية الاولى أ ن يتابعو السفر إالى اميركا (البرازيل - الارجنتين) مثل المرحومين : أحمد الحاج عباس مروه (ابو منير) وعبد الله فخري.

ويتابع كامل مروه حديثة عن مغتربينا الذين اختصروا المسافة وتوجهوا الى افريقيا، قائلا، « وليس بالا ستطاعة تعيين التاريخ الذي بدأت فيه الهجرة نحو افريقيا الغربية، ولكن يمكن تحديده بصورة تقريبية حول سنة ١٨٨٠ وقد ظل عدد المهاجرين الى افريقيا ضئيلا جدا في ذلك العهد، ولم يتلبس صفة هجرة متواصلة الا في آخر القرن التاسع عشر. وقد بذلت جهودا كبيرة لمعرفة اسم المهاجر

---

(١) وهو كتاب الفه ابن الزرارية الصحافي المرموق المرحوم الاستاذ كامل مروه بعد عودته من رحلة الى افريقيا بصحبة السيد رشيد بيضون سنة ١٩٣٨ . وهو كتاب من ٣٢٤ صفحة متوسطة مزدانة بالرسوم مع خارطة كبيرة ملونة نشر دار المكشوف - بيروت ١٩٣٩.

اللبناني الاول الى افريقيا الغربية فلم أفلح [١] لا نعدام السجلات والوثائق كما أنه ليس بالإستطاعة تحديد المستعمرة الاولى التي استقبلته والمرجح أن تكون السنغال أول مستعمرة دخلها مهاجرونا في المنطقة الفرنسية وسيراليون في المنطقة البريطانية . واذا قابلنا بين حالة الاثنين في ذلك العهد صح لنا اعتبار السنغال أول ما وطأته اقدامهم لانها عتبة افريقيا الغربية جغرافيا» ويتابع كامل مروه قوله :« وقد قام المؤلف الفرنسي « دوبورد» ببحث دقيق عن تاريخ الهجرة الى السنغال خرج منه أنه في اوائل سنة ١٨٩٢ وصل الى شواطيء «سانيغامينا» اربعة أو خمسة مهاجرين لبنانيين وتوزعوا بين سان لويس (السنغال) وكوناكري (الغينية الفرنسية) وكانوا يرتدون الملابس الشرقية (الشروال وتوابعه) ويحملون معهم بضائع زجاجية حقيرة (يقصد رخيصة) ابتاعوها من مرسيليا فيعرضونها على الزنوج في الساحات العامة بأسعار بخسة. وكانت الحركة التجارية قوية يومئذ في هاتين البلدتين بسبب تردد الزنوج عليهما عن طريق الانهر، فصادفت بضاعة المهاجرين الجدد اقبالا حسنا، واستطاع احدهم [٢] الحصول على مساعدة من أحدى الشركات التجارية الفرنسية في كوناكزي، فساعد بدوره رفاقه وتحسنت حالتهم جميعا.

---

(١) كان يمكن للاستاذ كامل مروه رحمه الله ان يستعيض ، عن ذلك ، بمقابلات ميدانية في الزرارية وغيرها كبيت شباب او صور وسواهما ليسمع شيوخ العائلات والمؤرخين في جبل عامل ولبنان عامة ، يحدثونه عن اول مغترب لبناني الى افريقيا الغربية ، فذ اكرتهم لا تخونهم في هذا المجال ، سيما وان لهم في افريقيا مغتربين قدامى وجددا . المؤلف ـ

(٢) لعله الحاج علي بحسون من صور كما رجح لي ، احد قدامى مهاجري المدينة .
ـ المؤلف ـ

وبعد قليل وصلت الاخبار الى مرسيليا تنبيء بنجاح هؤلاء المغامرين وفيها كثير من المبالغة. وقد حدثني احد مهاجرينا القدماء ان الاشاعة التي انتشرت يومئذ جعلت الناس يتوهمون أن الذهب ينهمر كالمطر على المهاجرين الاول، وكان لهذه الاشاعات تأثيرها السريع فعدل كثيرون منهم عن متابعة السفر الى اميركا، واتجهوا صوب افريقيا الغربية على المراكب الشراعية أو بواخر الشحن. . »

تطور حركة الهجرة :« وقد بلغ عدد مهاجرينا في افريقيا الغربية سنة ١٩٠٠ اربعمائة مهاجر تقريبا. منهم ٢٧٦ مهاجرا في المناطق الفرنسية. ثم أخذ عددهم يتزايد حتى بلغ الاربعة آلاف اثناء الحرب العظمى. ومنذ سنة ١٩٢٤ اشتدت الهجرة واستمرت في تزايد مطرد، حتى اصبح عدد مهاجرينا الآن (أي سنة ١٩٣٩ وحتى تاريخ وضع الكتاب) احد عشر الفا رجالا ونساء واطفالا (١) موزعين على المستعمرات الفرنسية التالية : دكار (السنغال) الغينية ـ الداهومي ـ النيجر ـ موريتانيا ـ ابيدجان (شاطيء العاج) والمستعمرات الانكليزية بنسبة أقل تقارب النصف. وأقل من الربع في المناطق الباقية كالغينية البرتغالية وليبيرية والتوغو». الى أن يقول :« ومهاجرو بلدة بيت شباب هم الاكثر عددا في كل افريقيا الغربية اذ يقارب الالف» أما الباقون فغالبيتهم من أبناء الجنوب اللبناني

---

(١) اما الآن في (التسعينات) فقد اصبح عددهم اضعافا مضاعفة وفي افريقيا وحدها خاصة بعد نجاح الرعيل الاول من المغتربين اللبنانيين واكثرهم من ابناء جبل عامل الذين استقدموا ابناءهم اليهم ثم عادوا الى الوطن بعد كفاح مرير وربح وفير . وتابع الابناء سيرة الآباء بمعاناة اقل لانهم وجدوا اسباب العمل مهيأة واسباب الحياة ميسرة بعكس الآباء الذين بدأوا من الصفر ـ المؤلف ـ

(جبل عامل) ومن المدن والقرى التالية : صور وعددهم ٨٠٠، جويا ٣٥٠، كفرحونة ٢٠٠، الزرارية ٢٠٠ الخ. (١)

وعند حديثه عن ازدياد الهجرة قبيل الحرب العالمية الثانية خاصة من القرى اللبنانية يقول : « لاأغالي اذا قلت أن ٨٠ ٪ من مهاجرينا في افريقيا الغربية نزحوا اليها من القرى لا من المدن، أي أنهم كانوا مزارعين وعمالاً في الزراعة. والزراعة تظل العنصر الاساسي في بلادنا مهما كانت مهملة، فخسارتها بضعة آلاف من رجالها هي خسارة بالغة، تؤثر تأثيرا مباشرا عليها وعلى مستقبلها. وجميع المهاجرين يكونون في شرخ الشباب عندما يغادرون وطنهم، وبذلك يخسر الوطن بذهابهم خسارة فورية ناشئة عن تناقص عنصر الشباب فيه، وهو العنصر الاكثر حيوية وفعالية في تطور البلاد. وفي المهجر ينصرف الشباب الى العمل ولا يفكر بالزواج الا بعد تحقيق امانيهم، أي بعد سنوات طويلة من هجرته بحيث يكون قد اشرف على المرحلة الاخيرة من شبابه، أو بدأ مرحلة الكهولة. وفي هذه الحالة ينقص النسل نقصا كبيرا، وقد شعرت بلادنا بهذا النقص. فهناك قرى تكاد تكون

---

(١) كان تمركز هؤلاء في السنغال اولا اما بعد الحرب العالمية الثانية فقد ساءت الحالة التجارية والاقتصادية في دكار فيمم اكثرهم شطر شاطيء العاج وتمركزوا في العاصمة ابيدجان نظرا لنمو هذه الجمهورية اقتصاديا وتجاريا ، المتميزه بوفرة محاصيلها من الكولا والبن والكاكاو ، وازدهار الحركة التجارية والمالية والعمرانية فيها . كل ذلك عائد الى حكمة رئيس جمهوريتها الحالي (افوى بوانييه) ونشاط الجالية اللبنانية في قطاعي التجارة والصناعة ولا سيما ابناء الزرارية الذين نجحوا نجاحا باهرا في القطاع الاول وقد بدأوا في القطاع الثاني نشاطا ملحوظا كتأسيسهم للشركات واقامة المصانع والمعامل المختلفة ـ المؤلف

خالية من السكان بالنسبة الى عدد سكانها الاصلي : كالزرارية وجويا ومزيارة وبيت شباب وصور. »[1]

هذا صحيح ولكن الاصح هو أن خلو قرى لبنان عامة وجبل عامل خاصة من سكانها (من عنصر الشباب بالذات) لم يكن ناتجا عن هجرة اهاليها في أوائل هذا القرن (كما جاء في : نحن في افريقيا) بل نتج عن الحرب والمجاعة والجراد «وسفر ذلك» وظلم الاقطاع السياسي والزراعي وعنصرية الباب العالي. . . ثم الانتداب الفرنسي المتحيز ذي النزعة الصليبية، ناهيك عن عسف النظام القائم يومذاك واهماله المتعمد لهذا الجبل. . .

ويعزو صاحب كتاب : من وحي الغربة وهو الزميل المرحوم الاستاذ احمد مروه المغترب الشاعر والاديب ابن الزرارية البار. يعزو خلو بلده من مهاجريه الى اسباب اجتماعية واقعية سادت ايام الاستقلال. . حيث يقول :« والمهاجر هو كالنحلة التي تسعى وتعود بالجنى الى قفيرها، أو كالطائر الذي يذهب، ثم يعود الى وكره حاملا بمنقاره ما يدخره لا فراخه. ولكن الذي حل بلبنان من اخطار هو أن مهاجره اذا غادره لا يستطيع العودة اليه. . . واذا رجع يكون عرضة للنصابين والفوضويين وقطاع الطرق، تارة من اقاربه وتارة من الاباعد . . . الخ. [2]

أما اليوم فقد انعكست الآية وعاد المغتربون ويعودون أفواجا، خاصة الى قرى جبل عامل ومدنه بالرغم من الحرب الداخلية المتمادية. وذلك عائد، في نظري، الى اسباب مستجدة منها :

١ـ أن جبل عامل كان ينعم بهدؤ نسبي وأمن لا بأس به بالرغم من وقوعه

---

(١) نحن في افريقيا ط ٢ ص ٧٩ .

(٢) من وحي الغربة ط ١ ص ٢٢٥ احمد مروه بيروت ١٩٧٤ .

على حدود اشرس عدو وهو اسرائيل، الذي استطاع بواسطة عملائه أن ينتزع منه ما سماه : الحزام الامني ! وكأنه بذلك يثأر من الجنوبيين الذين ارغموه رجالا ونساء واطفالا وشيوخا على الانكفاء مصابا تحت ضربات المقاومة بأول هزيمة حقيقية . وحتى في « الحزام» لا يزال يتلقى الضربات الموجعة من المقاومة الوطنية في الجنوب فلا سعد ولا لحد ولا أي عميل له حزام يردون عنه هذه الضربات.

٢ـ انحسار موجة الازدهار والتردي الاقتصادي والمالي في افريقيا الغربية.

فبعد أن انحسرت عن السنغال بعد الحرب الثانية غادر دكار أكثر مغتربينا هناك باتجاه شاطيء العاج وتمركزوا في عاصمته ابيدجان حيث ساهموا في ازدهار البلد وانعاش اقتصاده وتجارته وصناعته ايضا. لكن هذا لم يدم بفعل المنافسة التي تقوم بها ضدهم الجالية اليهودية والإشاعات المغرضة والكاذبة التي تبثها هذه الجالية حول تصرف بعض مغتربينا هناك. ولولا حكمة رئيس جمهورية شاطيء العاج وواقعيته لما بقي في بلاده أي مغترب عربي لبناني علما بأن ٩٠٪ من مغتربي لبنان هم من جبل عامل و ٤٠ ٪ منهم من أبناء الزرارية.

٣ـ الرغبة الملحة في العودة لدى جميع المغتربين اللبنانيين رغم ظروف الحرب الاهلية التي لا تشجع على العودة، بل على العكس تشجع على الهجرة من هذا الوطن المعذب. (١)

هذه الرغبة هي التي حدت بالمهاجر الجنوبي الى العودة الى مدينته أو قريته

---

(١) كما نشاهد في بعض مناطق لبنان التي تسمى بالمناطق الشرقية نزوحا قسريا وهجرة اجبارية هربا من الاقتتال الدامي الدائر هناك ، فقد بلغ عدد النازحين اكثر من ربع مليون نسمة ـ المؤلف ـ

بعد طول اغتراب وبعد أن اسس لابنائه هناك. عاد هذه المرة لا ليشتري عقارات وعمارات في بيروت أو جبل لبنان كما كان يفعل في الخمسينات والستينات بل ليوظف امواله في مدينته أو قريته الجنوبية بشراء وانشاء البساتين وبناء العمارات والمحلات والمصانع (على قلتها) وشراء العقارات وأنه يثأر [١] لما كان عليه في الماضي من فقر وحرمان أو يعوضه فاذا بالمدن والقرى العاملية تزدهر ايما ازدهار، كل ذلك بفعل هذه العودة المباركة. [٢]

ومما زاد في وتيرة هذا الازدهار على كافة الاصعدة مساهمات مؤسسات الحريري ابن الجنوب البار والمشاركة الفعالة من المغتربين في النهضة التربوية والعمرانية والاقتصادية في هذا الجنوب الذي حرم في الماضي من أبسط حقوقه فعاد (الحريريان المغترب العاملي والحريري) يعوضان عليه بعض ما فقده أو سلبه.

وكان للزرارية نصيب كبير من عودة مغتربيها اليها حيث راحوا يبنون فيها بيوتا حديثة ودارات (ڤيلات) وينشئون البساتين والخيم البلاستيكية للخضار ويسهمون في إنماء بلدتهم بانشاء الجمعيات الانمائية التربوية والعمرانية، فازدهرت الزرارية على ايديهم وايدي المتمولين من المقيمين الذين لم يهاجروا بل تاجروا في صيدا وبيروت وسكن اكثرهم فيهما.

---

(١) هذه حقيقة وواقع نفسي وعملي لمسناهما وشاهدنا هما متجسدين في مغتربي الزرارية من الرعيل الثاني أمثال المغترب رفيق شرف الدين وأحمد مصطفى زرقط ـ انظر جريدة الحياة عدد ١٠٠٨٨ الجمعة ١٤ ايلول ـ لندن ـ تحت عنوان: «الجنوبيون العائدون اثرياء من افريقيا والخليج بالفيلات والقصور يثأرون من فقرهم ويورثون الابناء. لا سيما الذي كان قبل هجرته سائق تاكسي كأحمد مصطفى مثلاً.»

(٢) تحدثنا بالتفصيل في فصول سابقة عن هذه الجمعيات الانمائية.

كما قام مجلس الجنوب وشركة قاسيون بتعبيد الطرقات في الجنوب فتمت لنا شبكة كبرى من الطرقات المعبدة تعبيدا جيدا وخاصة طريق الزرارية - النبطية. (١)

حديث مسجل لاحد مغتربي الزرارية القدامى :

أجرى زميلنا الاستاذ محمد محي الدين (أبو فادي) مقابلة مع مغترب قديم من أوائل الذين هاجروا مطلع هذا القرن وهو المرحوم الحاج أحمد الحاج أمين زرقط وسجل المقابلة على شريط (٢) وها نحن نثبت - هنا - الاسئلة والاجوبة التي جاءت في هذا الشريط دون تغيير فيها او تبديل :

نص الحديث المسجل :

س - في أية سنة سافرت؟

ج - سنة ١٩٢٩ ودخلت سنة ١٩٣٠ ونحن في البحر.

س - هل كان لديكم وجهة سفر معينة أو بلد بالذات.

ج - لا. ولكن هجرة بسبب قلة المعاش... سواء كان داكار أو البرازيل الى أن دخلنا الى داكار. حططنا هناك. ومنها الى ابيدجان .

س - أسباب السفر هل كانت الضائقة المعيشية - كما قلت - أم أن هناك أسباباً أخرى كمضايقات العشائر مثلا. (٣)

---

(١) هذه الطريق لم يكتف شبان الزرارية بالتفرج على تعبيدها بل اشرفوا على طريقة تعبيدها اشرافا مباشرا فجاءت ، كما يريدون اتساعا واتقانا . لا كما يريد الملتزم. .

(٢) تمت المقابلة قبل وفاة الحاج ببضعة شهور

(٣) ويقصد السائل بالعشائر ناصيف باشا الاسعد واولاده وازلامه .

ج ـ للحقيقة ـ المضايقات كانت أكثر من الكل. فالحالة المعيشية كنا راضين بها كيفما كانت، وزمن العشائر كان الناطور حاكم البلدة وسلطان زمانه.

س ـ من كان معك في السفر.

ج ـ كانوا كثيرين : السيد حسن جواد (شرف الدين) والسيد حسين جواد (شرف الدين) أسعد فخري، العبد فخري ـ محمود فخري ، أحمد طراف كجك، علي مرعي جمعة عبد الله تامر (الى نيويورك) خليل محي الدين سافر قبلي ومرة ثانية سافر معي وشقيقه أحمد، رضا فخري، مصطفى أخضر، محمد حسن محي الدين وغيرهم ممن لم أعد أتذكرهم.

س ـ هل تذكر أول من سافر من الزرارية. ؟

ج ـ محمد جميل مروه. كنت صغيرا، وهو والد كامل مروه. تقريبا سنة ١٩٠٤ الى المكسيك، وتبعه شقيقه أحمد حيث توفي في المكسيك، وسلمان الشيخ محمود وقد توفي هناك، أبن الحاج حسين أحمد، علي كجك وعباس كجك، داود أمين سلمان، وكلهم ماتوا هناك. . . محمد طالب زرقط السيد حسن علي كانوا في طريقهم الى المكسيك، وعند استراحتهم في داكار نزلوا فيها. . .

س ـ متاعب الطريق؟

ج ـ لا نحتاج الى باسبور، وكل ما نحتاجه أجرة الباخرة (الشحن) التي كانت تأتي الى أبو الاسود حيث ينقلونك بالمركب الصغير (اللنش والحسكة) وكان يتم الاتفاق مع السماسرة الذين يعرفون مواعيد الباخرة التي تأتي ليلا، وعلى المسافر جمع الزوادة والانطلاق الى المكان المحدد وفي الوقت المحدد.

س - كلفة السفر؟

ج - كانت «شي بسيط» ٤٠٠ قرشا الى ٥٠٠ قرشا! الليرة الفرنساوية تساوي ٩٠ قرشا والعثملية ١٠٠ قرش.

س - كان النزول اذن، في داكار مباشرة ، وما هي المشاكل. ؟

ج - حططنا في مرسيليا، لا مشاكل، سوى أن البواخر كانت بدائية نسبة الى هذه الايام. وكل ما كنا نلاقيه الدوخة والدوار والتقيؤ. . .

س - مع من سافرت؟

ج - رضا فخري، مصطفى أخضر، خليل محيى الدين (الزعيم) محمد حسن محي الدين، حسن فخري، فخر الدين فخري (أبو راشد) فخرية فخر الدين واختها جميلة زوجة علي سعيد العبد بن الشيخ محمود فخري.

س - عند نزولكم في داكار هل كان أحد في انتظاركم. ؟

ج - نعم، أولاد البلد الذين كانوا قبلنا. بعد معرفتهم ان على الباخرة مسافرين من الزرارية.

س - كيف كان ينظر اليكم السكان الاصليون في داكار. ؟

ج - كانوا بحالة فقر مدقع واستغراب ودهشة. وعندما وصلنا، كان واحد إذا رمى الفرنك يلحق به العبد ولو استقر في قاع البحر. فقلت يا ويلي! إذا كنت ترمي الفرنك فيبقى ساعة يبحث عنه ليلتقطه. فماذا سنفعل في هذه البلاد الفقيرة. ؟

س - الفرنسيون (الحاكمون هناك) كيف كانت معاملتهم. ؟

ج - معاملة الفرنسيين، إذا سجدنا على الجمر لا نكافيهم خاصة أولاد

العرب والجنوب قد ضموا ممن احتلوا البلاد . . واستلموا . . وسافرنا ، واستقبلنا البلاد. بينما هم الذين دفعوا ثمن فتح البلاد ![1]

س ـ كيف بدأتم العمل؟

ج ـ بالتجارة. كان إبن أختي عبد اللطيف فخري اعطاني الفي فرنك وقال : دبر حالك. طلعت على البر وصرت أشتري كولا الذي كان مطلوب من السنغاليين والموجود في شاطيء العاج حيث كانت تجارة غالبية أبناء العرب.

س ـ هل كان لأمثال السيد عبد اللطيف فخري محلات كبيرة. ؟

ج ـ عندما ذهبت لعنده كانت حالته جيدة وكذلك علي مرعي وأحمد طراف ومحمود فخري، وعلي هادي ناصر.

س ـ صعوبات المنامة. ؟

ج ـ أحيانا لم نجد منامة ولا أكل وقد ذقنا المرار الى أن فرجها الله.

س ـ كم بقيت في السنغال؟

ج ـ مررت مرور الطريق الى شاطيء العاج ١٥ يوما وقد عاملني حسن مرعي معاملة جيدة.

س ـ بعد ترك بلاد الفقر الى بلاد الفقر. ؟

ج ـ كان الفقر موجود في أهل البلاد. أما الاغراب فكانوا تجارا.

س ـ هل كان لك أملاك قبل السفر. ؟

ج ـ كان عندنا شوية رزق من أبي لا يحكى فيها. كان عمري عشر سنوات عند وفاة والدي واخوتي أكبر مني. ولما بلغت ١٧ سنة أخذوني الى العسكرية.

---

(١) ننقل هذا الكلام بحذافيره ولم نفهم تماما ما يقصده المرحوم . .

س ـ بعد السفر ما هي العبرة والدرس. ؟

ج ـ كنت أوصيت أولادي بأن والدتي توفيت وأنا صغير وقد تدبرت أمري وعليكم تدبر أموركم.

س ـ كم كانت فترة غيابك. ؟

ج ـ ٣ سنوات وخمسة أشهر و٤ أيام. . . وقد زرت اولادي بعدها مرتين. وبعد عودتي تزوجت من بنت الشيخ مصطفى ورزقت منها أولادي. لو لم نسافر لما شبعنا الخبز. وقد أدى الفرنسيون أكبر خدمة لنا كجنوبيين. . . ناصيف باشا واخوه شبيب وأسعد بك كذلك هم البلد. . . وشأنها شأن البلاد كلها حيث الوجود أقطاع. . . ولأن العشائر ١٠ أو ١٢ نفس، وباقي الاهالي كانوا يعملون (في الأرض) ويأخذ العشائر ٤٠٠ ٪ من المحصول، ونتيجة الأمر : اشترى الفقراء الذين اغتنوا [(١)] اشتروا الأرض ولم يبق للعشائر مكان حصيرة [(٢)]. الى أن جاء نزيه الأسعد فبنى بيتا ليحيي ذكر قبيلته. . .

س ـ الذكر الحسن. أم ماذا؟

ج ـ اترك هذا للتاريخ ليحكم. [(٣)].

س ـ ماذا تذكر عن حرب الـ ١٤.

ج ـ أتذكر ما يدمي القلب. قبل حدوثها جاء الجراد وأكل الاخضر

---

(١) يقصد انهم اصبحوا اغنياء بعد الاغتراب .

(٢) تعبير يحمل في طياته حقدا نبيلا ونشوة انتصار . . .

(٣) جواب ذكي حقا

واليابس[1] فلحت قطعة أرض فأكلها الجراد وكنا نتمنى الحصول على جوزية ذرة بدل الذي أكله الجراد الى ان وصل بي الأمر الى أن ذهبت. . وأنا ذهبت الى العسكرية [2] وتركت أمر العائلة الى أخي وأخوالي. . .

س ـ حكايتك مع العسكر. ؟

ج ـ أخذوني حوالي ١٧ سنة (أي كان عمره) كنت أحصد بقاطع بدياس شعيرا. والناطور عبد المنعم عجمي يناديني : جاء العسكر يطلبك. فتركت الداميرج [3] وقالت لي أمي : نذهب لوداع أخيك في الحلوسية وترجع. وقد كان ذلك. تأخرت قليلا وعند عودتي وجدت العسكر في البيت وقبل دخولي الى البيت اخذوني ولم أدخله وإنما كانت أمي قد جهزت لي الزوادة. وأخذوني الى أنصار. ومنها الى صيدا حيث وجدنا غيرنا. والسفر كان سيرا على الاقدام حيث نمنا ليلتين في «الاشلة» في صيدا [4] ثم طلبوا منا مصاري لشراء حبال لتكتيفنا بها لئلا نهرب. . . وقد جمعنا المبلغ ومنها الى بيروت ومن بيروت الى بعلبك في سكة الحديد الى بقين حوالي شهرين بعدها الى الشام سيرا على الاقدام حيث مررنا على المزة وكان لا زال بعض المعلقين على حبال المشانق (للعبرة كما قالوا)

---

(١) الاصح ـ على ما يؤكد المؤرخون والذين عاشوا تلك الفترة ـ ان الجراد غزا لبنان سنة ١٥ وتسبب بالمجاعة سنة ١٦ .

(٢) هذا المقطع غير واضح في الشريط وقوله ذهبت الى العسكر او ما يقال له «السوقيات» بقوة سلاح الانكشارية .

(٣) الداميرج آلة حادة للحصاد معكوفة قليلا تشبه السيف

(٤) الاشلة : معسكر للجنود . لا تزال الى اليوم في صيدا كسجن ومركز لفصيلة من الدرك اللبناني .

علقوا في ١٦ أيار. سلمونا كل واحد جملين من الشام الى بئر السبع سيرا وممنوع ركوب الجمل. حيث كنت مع ضابط الماني مع الحاج أحمد عباس زرقط من الزرارية حيث جاء التركماني الذي قال: أنتم أمكم راضية عليكم بدون تهمة الكذب، والسرقة. والخيانة لأ نها ليست موجودة عندنا... ومن لا قدرة له على تحمل هذا فليرجع... ولكن من أين سنرجع حيث كنا وصلنا الى العريش (عريش مصر) حيث كان الطيران الالماني. خدمنا هناك حوالي السنة حيث عدنا الى بئر السبع ثم الرملة ثم سمنح حيث جاء يهودي الذي ناداني قائلا أن الجيش الالماني ترك حيفا والانكليزي أصبح في طولكرم. وقد أحرق الالمان كل ما كان قد أسر! ولا أعرف عن السخرة شيئا لأنني لا أعرف عنها شيئا ولن أعشها...

س ـ والحرب الثانية. ؟

ج ـ كنت أتيا من أفريقيا (للمرة الثانية) ولم تتضايق الناس كحرب ١٩١٤ حيث كان الناس يموتون على الدروب. أحمد مصطفى الحاج منيرك الذي كان يملك كرم تين في(إرزاي) طلبت منه أ ن يرهنه أو يبيعه، ولكنه رفض فمات جوعا حد المراح...

س ـ هل مات أحد غيره من الجوع. ؟

ج ـ كثيرون ولكنني لا أذكر الاسماء : عشرة، خمسة عشرة كبار صغار.

س ـ أيام الفرنسيين كيف كانت المعيشة. ؟

ج ـ تحسنت الحالة كثيرا فقد ولى زمن الاقطاع وأصبح كل «بمراجله» ولم يعد من يسخر ويحكم عليك...

س ـ أيام السيد عبد الحسين شرف الدين ومؤتمر وادي الحجير. ؟

ج ـ كان قدست روحه بعد أن احتل الفرنسيون وبعد أدهم الصعبي

وصادق الحمزة الفاعور (الاسعد) وشكلوا عصابة، وقطعوا الطرق حيث ان ادهم قطع الطريق على إبن شداد لأنه مسيحي. . . وقد عرض عليه دينه فرفضها وعرض ٣٠٠٠ ليرة ذهبا. . . . وطلب سيجارة ومن ثم أطلق عليه النار. . . الى أن اتفق وجهاء البلاد مع كامل بك الكبير على التعاون وكان الاجتماع في وادي الحجير حيث اعطوا فتوى بقتل كل مسيحي [١] ولكن هذا كان كلاما من الناس. . . (غير موثوق) الذين قالوا أن أهالي دردغيا قد اشعلوا جملة بلاد (أي قرى) كان أحد أبناء دردغيا مختبئا فيها. . . وفي الزرارية طلب أدهم ١٠٠٠ ليرة ذهبية. من أين هذا المبلغ، تم جمع مبلغ زهيد. . .

س ـ هل كان في الزرارية من يناصر صادقا وادهم. ؟

ج ـ نعم. محمد علي الشيخ أحمد، مصطفى أخضر، عبد الله ضاهر.

س ـ والمخاتير على وعيك. ؟

ج ـ أول مختار على وعيي كان محمد خليل محيى الدين والد خليل محي الدين . ولا أعرف من كان قبله ومن بعده محمد هادي ومصطفى مروه ـ أحمد الحاج عباس مروه (أبو منير) محمود عبد الله زرقط، علي حسين أحمد مروه،

---

(١) هذا ليس صحيحا ولا يعقل ان يفتي علماؤنا بمثل هذا الامر لا سيما وانهم كلهم من العلماء المجتهدين الذين ما اجتمعوا الا للدعوة الى التآخي بين المسلمين والمسيحيين وكان همهم وطنيا وقوميا في الدرجة الاولى حيث ذهبوا الى دمشق الشام ليبايعوا الملك فيصل الاول كملك على سوريا ولبنان او بالتحديد جبل عامل طالبين منه القبول بنوع من الوحدة العربية بزعامته . اما الامام شرف الدين فقد كان له موقف معروف من صادق الحمزة وادهم الصعبي حين وجدهما ينحرفان احيانا بالثورة عن مسارها الوطني السليم .

أما عن الأمن فقد كانت البلدة واحدة قبل العشائر الذين اعطتهم الدولة العثمانية الزرارية بكاملها لهم. ففرضوا الضرائب على غلة القمح وغلة الشعير وعلى كل فدان لأنهم لم يكونوا يملكون شيئا فانتفض في وجههم تامر فخري والد فخر الدين فخري ووقف معهم ضد الحاج حسن مروة جواد زرقط الا انهم استطاعوا ان يدعوا الخلاص منهما بعد ان خرجوا على جواد زرقط اعضاءه وأقاريه آل زرقط من كل الضرائب شرط أن يكون معهم وأن يكون عينهم على الاخرين المفروضة وينقل التهمة للجهة التي يريدون. وكذلك فعلوا مع فضلو أمين هادي مروه (جد أبو قاسم) وهكذا بدأ العمل الجاسوسي بين الاهالي.

وبعد أن كثرت الضرائب ولم يعد بالامكان تحملها حصل اجتماع في البساطية تحت خروبة وتقرر ارسال وفد الى الشام بمركز الولاية مكون من السيد حسن (رجل دين) وجواد زرقط للمراجعة، السيد نبيل السموري النبطية، جواد زرقط عاد من العرقوب بعد أن ثبطوا همته وبعد ذلك كان الربح للعشائر. . . فدب الخلاف وضعف كل الفرقاء. . .

بدأت المواجهة بزعامة تامر فخري ومن ثم أبنه فخر الدين ولولا فخر الدين فخري لما امتلك أحد شبر أرض في هذه البلدة. . . آل فخري جاؤوا من انصار. . .

س ـ هل كان لهم املاك قبل الهجرة. ؟

(مستدركا) جاؤوا من البقاع الى انصار ومن ثم الى الزرارية [١] اشتروا

(١) انظر فصل العائلات في هذا الكتاب .

مطحنة على النهر (الليطاني) من أحد الدروز (لذلك سميت بمطحنة الدرزية) وكان الاساس مروه وزرقط، وكان آل البيطار. . .

س ـ ما هو سبب سفر آل فخري. ؟

ج ـ السبب الرئيسي الهرب من العشائر حيث كان عبد الله تامر (فخري) يشترك مع دروز في شراء السلاح للثورة الدرزية ولقد انكشف أمره فاضطر الى الهرب.

س ـ المدارس. هل كانت على أيامك. ؟

ج ـ المدارس الحديثة والرسمية بعد الفرنساوية. قبلها كانت ختمة القرآن عند الشيخ (١)

س ـ من هم هؤلاء الشيوخ. ؟

ج ـ الشيخ مصطفى، محمود باقر مروه، الشيخ علي مروه، الشيخ محمد بلال.

س ـ صحيح أن آل مروه أصلهم مشايخ. ؟

ج ـ الشيخ عباس مروه تعلم عنده الشيخ سلمان مروه ومحمد بلال وفخر الدين فخري، حيث كان اذا جاء مكتوب من أحدهم في العسكر أو المهجر ينتظر أحدا ليقرأه له أو يكتبون له رسالة (جوابية). اهالي بريقع يأتون الى الشيخ حسين شرارة ليعلمهم صلاتهم. . .

س ـ عادات البلدة.

ج ـ الزواج : كانت الطلبة على نفس النمط الموجود. والمهر كان ٥٠٠ قرش ونزول. ومن لديه ملك مثلا خروبة أو ربع القنطرة في البيت !

---

(١) انظر فصل المدارس في الزرارية في هذا الكتاب .

النقلة : على الفرس وتسير الشباب والصبايا وراءها. وتعمر الدبكة ثلاث ليال وهات يا رقص ويا زلاغيط. . .

الولادة : نفس النظرة من الصبي والبنت. وحين يجيء المرأة الحامل المخاض تتعلق بحبال مثبتة في السقف وتأتي الداية فلا تفعل شيئا سوى انتظار خروج المولود وإذا تعسرت الولادة تقف أحدى الجارات وراء المرأة وتبدأ بالخبيط على ظهرها قائلة : أدركيها يا زهرة فتدركها فاطمة الزهراء (ع) ويأتي المولود بالدعاء وبالخبيط لا بمهارة الداية. . . لكن الاجرة تذهب لجيبها وحدها!

المنادي : يصعد المنادي الى المئذنة أو أي مرتفع ويصيح : يا سامعين الصوت صلوا عا النبي أولكم محمد وتاليكم علي. . . المعاز أبو مرعي ضاع له الخ. . الخ. . ختمة القرآن : كان الاولاد عند شيخ الكتاب يجتمعون حول الصبي الذي ختم القرآن ويأتي الشيخ فيضع على رأسه القرآن أو جزءا منه ثم يقول :

يا مرسالي بلغ سلامي

الـى محمد خير الانام

وكان يقام للخاتم حفلة وكانت هدية الشيخ «محلايات» ومصاري أو دجاجة «بياضة»

الاعياد : تقام الحفلات الشعبية كالرقص والمراجيح والدبكة وتجتمع القرى المجاورة للمعايدة وكان الباشا في صيدا وكان أمين خشمان عند الباشا وبعد وصول الباشا الى صيدا ينصب الركابات على ظهر الحصان ويجره حتى يجف عرقه. . . لكن أمين خشمان يسارع الى ركوب الحصان في غفلة منه أول البلد ثم يعيد الركابات كما كانت. الاعتداء على الاعراض من قبل بعض ابناء العشاير. كان

ذلك يحـدث مـرارا وكل من كـانت له أبنة لا يؤمن تزويجـهـا دون فض بكارتها. . . (١)

ومن مظالم العشاير هذه الحادثة : " أراد والدي بعد أن وفر قرشين أن يبني فوق البيت الارضي بحيث يصبح البيت على مستوى الطريق . . . واعد العدة وجاء بالشغيلي ومعلم العمار ويدأ البناء يرتفع عن السرداب الارضي. . . ومر الباشا وسأل عما يجري فقال له والدي : يا بك عم منفطس من الشوب في الصيف ونريد أن نرتفع قليلا حتى مستوى الارض. فقال البك أن هذا ممنوع. فسأله : ليش ممنوع. فأجابه : أن بناءك هنا يؤثر على بيتنا هذا (وأشار الى بيت علي هادي ناصر المقابل !! "

فتأمل !!

تأملنا كثيرا ودام تأملنا نصف قرن من الزمان !![٢].

---

(١) كل هذه الاحداث والاخبار هي على ذمة المرحوم وعلى مسؤوليته سواء كانت صحيحة او كاذبة او مبالغا فيها . وللتأكد يرجى سؤال معاصريه من الاحياء . . .

ـ المؤلف ـ

(٢) زودنا بوقائع هذا الحديث المسجل الاخ الاستاذ محمد محي الدين (ابو فادي) بعد ان افرغه كتابة وكان مسجلا على شريط كاسيت بصوت المرحوم الحاج احمد الحاج امين زرقط ننقله هنا كما هو ودون تغيير او تعليق فرأينا في مثل هذه الامور والوقائع وارد في فصلي الهجرة : الهجرة والفولكلور . فالرجاء العودة اليهما .

ـ المؤلف ـ

عود على بدء :

نعود فنكمل ما بدأنا به من ذكر أسباب الهجرة من لبنان عامة وجبل عامل خاصة متجاوزين حدود بدايات هذا القرن الى بدايات القرن الذي سبقه (التاسع عشر) فنقول : قبل بزوغ شمس القرن التاسع عشر بدأت الانتفاضات الفلاحية تتتالى منذ ١٨٨٠ ضد الضرائب في الاساس والتي يفرضها الاقطاعي ليتقاسمها مع الوالي والباب العالي مباشرة أو السلطان أو الامير. ثم انتفاضة ١٧٨٩ ضد الجزار وتصاعد الجزية الى عاميات حمانا ١٨٠٥ وعامية انطلياس ١٨٢٠ ولحفد في بلاد جبيل ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ (وكلها متأثرة بما هب على لبنان من رياح الثورة الفرنسية. . .) وكان من نتائج فشل هذه الانتفاضات عسكريا أن سدت السبل في وجه اللبنانيين (الجبل والشمال) وصعبت الحياة المعاشية أمام الفلاحين. وهم الذين ثاروا على عدوين لدودين : الاقطاع والارض الكؤود، التي حولوا صخرها الى جنائن . . . ولكن الاقطاعي المنتصر سرق خيراتها وحرمها من مفجريها. . . فكان لا بد من الهجرة لهؤلاء الابطال (المنهزمين) وكان ذلك في بداية الربع الاول من القرن الماضي. ولكن الى أين؟ الى مصر أولا ثم الاميركيتين. . .

أما العامليون فقد اكتووا بنفس النار الاقطاعية وحرموا من حق ملكية الارض واذا تملكوا النزر القليل المجدب منها فإن خيراتها تعود كلها الى الامير أو الوالي أو السلطان أو سمه ما شئت. . . وليس عن عبث كانت تلك الحقيقة الرائجة يومذاك وهي « الارض ومن عليها للسلطان ! »[1] وتحركوا اخيرا (أي في

(١) خلاصة ما جاء في كتاب المؤرخ الفرنسي جوبلان JAUPLAIN صفحة ٥١٤

أواخر القرن الماضي لا في أوائله. . .) بعد أن طفح الكيل وبلغ السيل الزبى ولم يعد أمام الفلاح العاملي سوى مواجهة موتين (إذا صح التعبير) موت في الداخل فقرا وعوزا واضطهادا وهو موت محتم. وموت في الخارج مع الكرامة وهو ليس محتما. . . فقد ينتصر عليه. . . إذ لا موت حقيقيا مع الكرامة والحرية. . . (١)

كان لا بد من استدراكنا هذه الحقيقة التاريخية بالنسبة للهجرة العاملية وهجرة أهل الشمال والجبل. الفارق بينهما نصف قرن ونيف وهو الفارق بين فلاح كطانيوس شاهين تأثر بالثورة الفرنسية فأحس بعمق مأساة الفلاحين فأثارهم وثار بهم. . . وبين فلاح عاملي لم تصله تلك الافكار والمبادىء الثورية لأنه مستبعد عنها بالامية المطبقة والعسف من «الاسياد» وبنزعة التسليم والايمان بأن «في السماء رزقكم وما توعدون» يبثها في عقله الساذج رجال دين مزيفون أو سطحيون. لا يفسرون له هذه الآية ومثيلاتها كما يجب أن تفسر. . . وهم بتواطئهم مع الحكام أرادوا لهذا الفلاح المسكين أن يستكين والا يفهم شيئا. . . وحسبه أخيرا، حسب هذا الفلاح العاملي أنه أحس ولو متأخرا وفهم الا حياة له ولابنائه الا بترك مغارة اللصوص هذه التي كانوا يسمونها وطنا. . . وهاجر مدفوعا بمثل هذا الاحساس، في وعيه اولا وعيه. . لا فرق. . هاجر. . ومات هناك ومن كتبت له الحياة من هؤلاء المغامرين عاد ليجد أن موجة الطغيان بدأت تنحسر شيئا فشيئا والاقطاع الزراعي والاقتصادي يتلاشى وأن حل محله اقطاع من نوع جديد، أو هو اقطاع بحلة جديدة عنيت الاقطاع السياسي المنحصر ببضع عائلات في لبنان أو بضع عشائر حماها وحمى امتيازاتها دستور وضعه المنتدب أو

---

(١) مجلة الطريق ، العدد ٤ بيروت ١٩٧٢ .

أوحى به [1] ها هو عاد بأمواله وأفكاره بعد أن أسس لابنائه هناك (كما سبق القول) وانخرط يناضل مع أحرار بلده عل موجة الظلم تنحسر نهائيا ويظهر فجر وطن حقيقي. ونضاله هذا كان مزدوجا : بدأ في مغتربه ثم في بلده.. مع الارض التي حرم منها طويلا وحرم منها آباؤه وأجداده.. فتملكها وبث فيها الخير والحياة والجمال. وهو لا يكاد يصدق أنه أصبح فعلا صاحبها... فنشأت بينهما علاقة حب وتفان... بل عشق صوفي وصبابة حلولية.

تاجر الفلاح العاملي هناك بالسلع فنجح.. وتاجر - هنا - بها ففشل... فانقلب مزارعا من جديد فأحيا الارض.. ونجح.. وها هو يستثمر هذا النجاح بتحقيق شخصية وطنية سيدة أمام القضايا العامة وشخصية «زعاماتيه» محلية (اذا جاز القول) لكنها شخصية شعبية محببة غير فوقية وغير اقطاعية يسري في عروقها دم الجدود الاول والطبقة الفلاحية المتواضعة التي ينتمي اليها. واذا حاول بعض هذه الطبقة أن ينتحل شخصية اقطاعي فأنه فاشل حتما ومفضوح... ذلك أن عهد الاقطاع قد ولى الى غير رجعة وأصبح الزمن غير الزمن وعهد التنوير بلغ حد التثوير... فبالهجرة وبالعلم الحديث تم للطبقة المسحوقة النصر أو كاد ولم يعد للاقطاع أو لبقاياه الا أن يتأقلم مع الجو الجديد. وقد وجدت في بلدتي هذه (الزرارية) التي أؤرخ لها انسانا صديقا وهو ابن باشا يأبى أن ينادى بلقب البيك [2] ويفضل عليه لقب «الحاج» وقد حج فعلا الى بيت الله الحرام في مكة.

---

(1) خلاصة محاضرة القاها العميد الركن الدكتور ياسين سويد في صور بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٩٩٠ في نادي التضامن.

(2) انه الصديق الحاج نزيه الاسعد نجل شبيب باشا الاسعد. ومع ان باشوية والده لم تعطه=

صفة الانسان العاملي : قومي عربي وحدوي منذ كان . . ومن زمان . .

وقصارى القول ان العاملي مغتربا كان أم مقيما ميال بطبعه الى أن ينتمي وطنيا وقوميا ويرفض الانتماء الطائفي والمذهبي. وقد عبر عن ذلك الانتماء زعماؤه الروحيون والسياسيون في مؤتمر وادي الحجير وانتفاضاته التحررية ضد الانتداب والاستعمار في شتى اشكاله. وأخيرا في مقاومته للاحتلال الاسرائيلي. ولو كان متقوقعا ضمن الطائفية أو المذهبية لما ثار أو قام أو تحمس لدعوات عبد الناصر الى الوحدة ولما أيدت طليعته مبادىء حزب البعث مثلا واتجاهات القوميين العرب والاحزاب العلمانية الاخرى. . . فقد نراه ينخرط في تنظيمات عسكرية وميليشياوية غير شيعية لا فرق عنده من يكون قائده أو زعيم حزبه ما دام هذا الحزب وذاك الزعيم يعمل لما يهواه ويميل اليه عنيت الوحدة والتحرر والمقاومة. . .

وإذا كان زمن الردة في أيامنا هذه في لبنان قد جعل من الاحزاب المحلية والتنظيمات المليشياوية ذوات لون طائفي ومذهبي فاقع حيث افرزت الحرب الاهلية في هذا البلد المنكوب الوانا من التكتلات المناطقية التي راحت تتقاتل فيما بينها. بين منطقة ومنطقة بين طائفة وطائفة وحتى بين المذهب الواحد بوحي تآمري خارجي ووعود براقة كاذبة. . . إذا كان ذلك كذلك فإن العاملي يبقى في نهاية المطاف : ذلك الانسان الوطني المبرأ من التطييف والتمذهب. لكونه في واقع

==صفة اقطاعي بل كان رحمة الله باشا ادب وعلم وله ديوان شعر وتاريخ هو : العقد المنضد الذي جدد طبعه اخيرا نجله الحاج نزيه ، مع ذلك فان نجله الحاج نزيه غلبت عليه صفات ابيه الادبية ومناقبية حزبه . . . وها هو قد عاد الى الزرارية بعد ان بنى دارة جميلة فيها بالقرب من منازل ابائه واجداده ، ها هو ينخرط في العمل الاجتماعي في الزرارية من خلال جمعياتها الانمائية كأي شاب تقدمي رغم تخطيه الثمانين ورغم حنينه الى لقب «بك» احيانا . . المؤلف

ماضيه وحاضره انسانا مسحوقا ومضطهدا حتى من زعماء طائفته ومذهبه. . . فكيف ينضوي من جديد تحت لواء الزعامات الطائفية والمذاهبية الراهنة وهو الذي اكتوى بنارها قديما وحديثا؟ لذا يعمد المتزعمون الطائفيون الى نفي صفتهم هذه والادعاء ـ صدقا أو كذبا ـ بأنهم تحرريون وطنيون وحدويون وحتى اشتراكيون. . . كل ذلك ليداعبوا غرور هذا العاملي والضرب على وتراحساسه العميق بتلك الشعارات والقيم الجديدة لا سيما لدى الطبقة المثقفة المستنيرة من العامليين. . . وقد أصبح العامليون في أكثريتهم مثقفين ومتنورين والحمد لله.

أن ما نراه في زمن الردة هذا ـ إذن ـ ما هو الا ردة فعل آنية تحت تأثير الفعل الطائفي الآخر. . . عنيت خاصة ما جرى ويجري في المناطق الاخرى غير العاملية ولا سيما المناطق الشرقية. حيث تم الفرز الطائفي بقوة السلاح والتعصب والعنصرية. والواقع أن هذا الفرز لم ينتج لهم «مناطق محررة» كما أدعوا، ولا مناطق مصفات حرة كما زعموا. . . بل أنتج لهم تقاتلا شرسا فيما بينهم. وتهجيرا وبؤسا وبعدا مريباً عن انتمائهم الحقيقي الى العروبة. (١)

والآن. . . التهجير القسري الى. . المجهول (لا سمح الله!)

المتتبع بعقلانية وواقعية للتطورات الحادة والتغييرات الجذرية التي طرأت على دول اوروبا الشرقية يلاحظ أنه سيكون لها انعكاسات سلبية على بلدان الشرق الاوسط وخاصة لبنان. بعكس استطلاعات بعض المنظرين العرب

---

(١) نسجل هذا الواقع المؤلم مستثنين - بالطبع - شرائح كبيرة من متنورى الشرقية وغير الشرقية من المسيحيين اللبنانيين الذين اخلصوا لعروبتهم ولغتهم العربية التي أغناها اجدادهم وطوروها في القرن الماضي ولا يزالون هم على النهج سائرين . . المؤلف .

واللبنانيين بأنها ستكون انعكاسات ايجابية. . . ونحن نستند الى معطيات كثيرة، نرجو أن نكون مخطئين في فهمها. وهي باختصار :

أولا : تحقيق الوعد التوراتي بانشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين أولا بتكريسه عام ١٩١٦ في وعد بلفور تحت تأثير ضغوط ضرورات الحرب العالمية الاولى. . .

ثانيا : تحقيق الوعد بإنشاء دولة اسرائيل تحت تأثير الحركة الصهيونية بعيد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٨ ففي أقل من ثلث قرن حدث ذلك. والعرب في أكثرهم نيام. . . أو متناومون. وعد بلفور وقيام الدولة تحققا إذن في النصف الاول من هذا القرن. . . فلم لا تستغل اسرائيل هذه المتحولات الجذرية التي حصلت وتحصل في النصف الثاني منه في أوروبا الشرقية وغيرها. . . لم لا تستغل اسرائيل كل هذا لتحقيق الحلم الاكبر : اسرائيل الكبرى؟ !

ثالثا : إن الحرب القادمة (الشرق أوسطية) ستكون حرب مياه في الدرجة الاولى. . .

رابعا : من دوافع وقوعها أو حتمية حدوثها الهجرة اليهودية الكثيفة القادمة الى اسرائيل من شتى انحاء الارض ومن روسيا وأروبا الشرقية على الاخص، فأين ستستوطن كل هذه الملايين من اليهود الجدد؟ إن لم يكن في الضفة والقطاع والاردن (وربما في جبل لبنان مكان المسيحيين)؟ ! قد لا يحصل هذا في المدى المنظور بفعل مقاومة هذا المشروع من قبل احرار العرب وبعض دولهم ذات النهج القومي الواضح كسوريا ولكنه سيحدث في المدى غير المنظور (أي في الربع الاول من القرن القادم على الاكثر؟ !) إن لم تعد له العدة الكافية على صعيد الدول

العربية كافة وعلى صعيد لبنان خاصة، والا فستحدث ـ حتما ـ هجرة قسرية من هذه الاماكن والبقاع الثلاثة ! الضفة والقطاع، الاردن، جنوب لبنان.

نقول حتما سيحدث ذلك لا بدافع التشاؤم المطلق، أو عدم الثقة بالنفس. بل بفعل عوامل حتمية وديموغرافية منها التفجر السكاني داخل الارض المحتلة فلسطين ثم بفعل تنازع البقاء أو التوسع اليهودي طلبا للعيش الرغيد والبحبوحة الجغرافية وكثرة المياه. . . (١) في هذه الاقاليم العربية الخصبة (لا ننسى أنها اجزاء هامة مما يسمى بالهلال الخصيب) ولا ننسى الى هذا، أن جنوب لبنان أصبح نصف سكانه على الاقل مهجراً الى الداخل ثم الى الخارج(بيروت ـ الضاحية ـ افريقيا ـ اوروبا الخ. . .) (بفعل الحرب الاهلية الناشبة فيه منذ أكثر من ١٥ عاما) وبفعل الغزوين الاسرائيليين (١٩٧٨ ـ ١٩٨٢) وعدم الاستقرار في مناطق الجنوب بشكل عام، الامر الذي يدفع برؤوس الاموال لأغنيائه الى استثمارها في الخارج. . ولولا الحنين الجارف الى الاقامة في ربوع الوطن بعد طول اغتراب لما وجدنا الكثيرين من مغتربينا يعودون فرادى وجماعات الى مساقط رؤوسهم في مدن وقرى جبل عامل الصامد الاشم. . .

ففي نظر اسرائيل ومخططاتها البعيدة المدى من السهل تهجير البقية الباقية من أهل جبل عامل والاستيلاء على مصادر المياه فيه وما أكثرها ! وأراضيه وما أخصبها فإذا لم تنته الحرب الاهلية، واسرائيل يهمها الا تنتهي وهي تعمل جاهدة

---

(١) خلاصة محاضرة القاها الدكتور محمد علي مقلد في صور - وان جاء فيها ما يخالف رأيي هذا . كان عنوان المحاضرة : المتغيرات الدولية وتأثيراتها على الفكر العربي المعاصر وقد القيت في اطار برنامج النشاط الثقافي للبنان الجنوبي - فرع صور في منزل المؤلف .

على الا تنتهي ـ ولم يجهز الجيش اللبناني الوطني تجهيزا كافيا وتوجيهه الى الجنوب، وإذا لم يتوجه المقاتلون الشرفاء الى الحدود وذلك بانخراطهم في الجيش الوطني وإذا لم تحشد الطاقات اللبنانية والعربية كلها لدرء هذا الخطر الداهم والذي بدأت ملامحه تظهر على شاشة الاحداث. . . إذا لم يتم ذلك ويشكل علمي مدروس وفي وقت قريب فإن التهجير او الهجرة القسرية من الجنوب آتيه طال الزمن أو قصر. ولكن ربك بالمرصاد وسواعد المقاتلين الشرفاء واصابعهم على الزناد. . . رديفا للجيش اللبناني الوطني المرتجى . . . (١)

الجمهورية الثانية : وهناك أمل عريض للأجيال اللبنانية الطالعة ، في أن يتخلصوا من الطائفية السياسية ودولة الامتيازات القائمة على حرمان مناطق لحساب مناطق. ولن تحمل الجمهورية الثانية معناها الحقيقي ولقبها الجديد الجاد الا اذا طورت اتفاقية الطائف تطويرا علمانيا مدروسا قائما على العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص وتماثل المناطق. .

---

(١) اعددنا هذه الدراسة قبل دخول الجيش اللبناني الى الجنوب في ١٧ شباط ١٩٩١ واثر انتهاء الحرب الاهلية في لبنان التي دامت قرابة الست عشرة سنة والتي يحلو لبعض المنظرين ان يسميها الحرب اللبنانية المركبة . . وهي تسمية فيها الكثير من الصحة
ـ المؤلف ـ

الفصل الخامس

الشهداء الاعلام ـ الادباء الاعلام

إذا كنا، في هذا الكتاب، قد وصفنا المقاومين والمقاومات ـ الشهداء، في مقدمة الأعلام من أدباء وشعراء وصحافيين ومفكرين فلأننا نؤمن بالحقيقة الثابتة التي تقول ان :

الاديب/ الشاعر/ المفكر، يبدع

والمقاوم/ المناضل/ الشهيد، يبدع!

إذ لا فرق، في الاثر الابداعي، بين ما يكتب بحبر القلم وما يكتب بدم القلب.

هذا يحيي ويبني أمة، وذلك يحيي وينقذ أمة!

لكن القارئين وراء الحرف والجسد والقلب قليلون...

نحن نؤمن بفاعلية الحرف، كما نؤمن بفاعلية الدم سواء بسواء، لأننا من أمة ابدعت الحرف، وتباهت بالكلمة



كوكبة من شهداء الزرارية

كما ابدعت، في تاريخها الجهادي الطويل، الشهادة والشهداء، واتقنت صناعة. الموت... (١)

فكيف نؤرخ لهؤلاء وندع هؤلاء!

اليسوا في العطاء والتأثير سواء!



الشهداء الأعلام: ريادة الزرارية:

حين قلنا ان الزرارية رائدة في هذا المجال: مجال البذل والعطاء بلا حدود، لم نكن نقول شعرا بل حقيقة وواقعا:

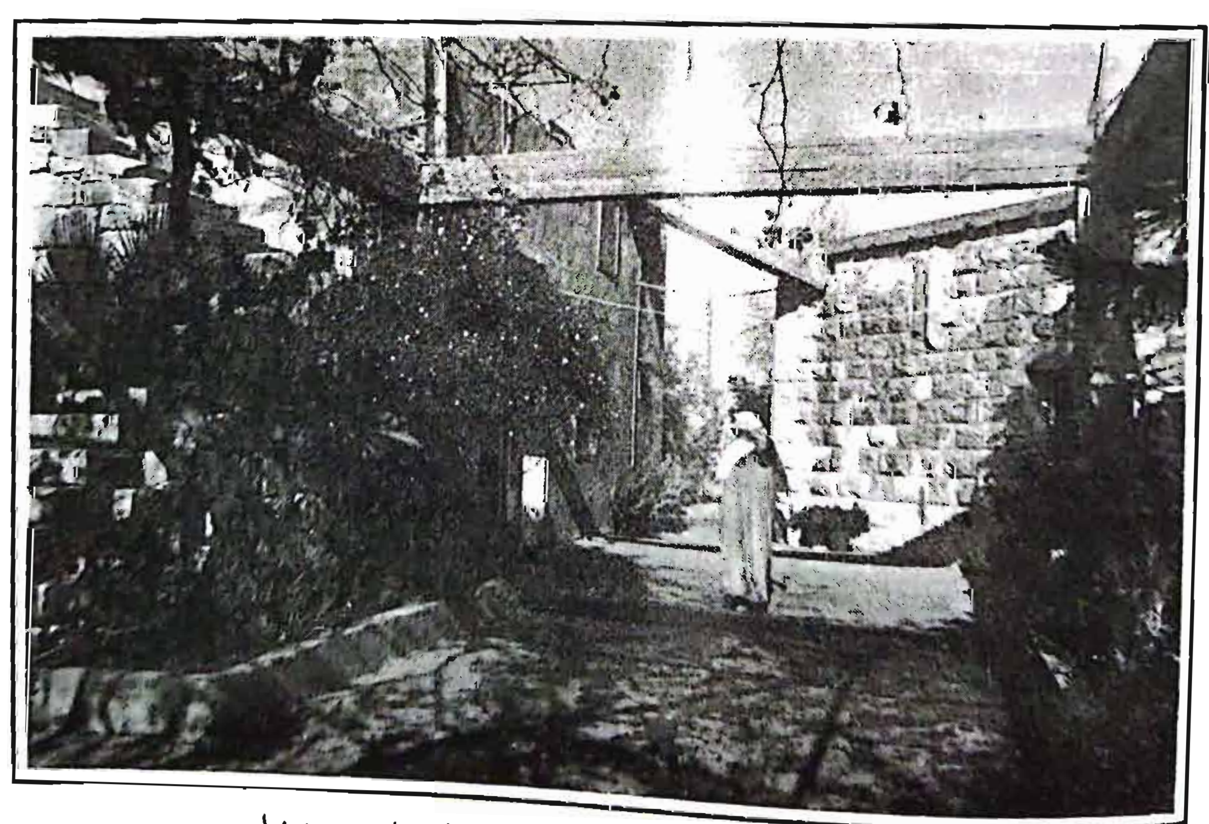
---

(١)« على العرب ان يتقنوا صناعة الموت، كما اتقنها آباؤهم واجدادهم »... هذا القول لياسين باشا الهاشمي احد وزراء دفاع الجيش العراقي السابقين وما رجال المقاومة في لبنان، وفتيان الانتفاضة في فلسطين المحتلة الا طليعة خبراء تلك الصناعة!

فعلى صعيد التخطيط للعمليات ضد العدو الاسرائيلي ونصب الكمائن يبرز رائدان خالدان هما نعمة هاشم ويسار مروه بلا منازع فمن هما هذان الرائدان.

١- يسار مروه!

جاء في كتاب : المقاومة الوطنية اللبنانية - العمليات الاستشهادية - وثائق وصور نبذة عن حياة يسار مروه (فتاة الجنوب) ما يلي :إنها الفتاة الاولى استشهدت باكرا بعد أن نفذت عمليات عسكرية عدة ناجحة وجريئة ضد قوات الاحتلال الاسرائيلية. بعض أهالي الزرارية يعرف يسار(أحمد الحاج عبد الكريم مروه أبو نصير) والدور الذي قامت به في المراحل الاولى للمقاومة الوطنية. فهي الى جانب قيامها بمهمات قتالية أو استطلاعية، يشهد لها رفاقها كيف أوصلت



منزل أهل الشهيدة يسار مروه - وتبدو والدتها عند مدخله

السلاح الى احدى المجموعات لتنفيذ مهمة في منطقة صور، وكيف حمت مجموعة أخرى، وكم مرة استطلعت مواقع اسرائيلية في المنطقة ـ اعتقلتها قوات الاحتلال أكثر من مرة وظلت تعيش تحت رقابة مخابرات العدو وعملائه. ومع هذا ظلت أمينة وفية للأرض تتوق ليوم التحرير وتعمل من أجله.

بساطتها سر عظمتها! كانت يسار انسانة بسيطة... يروي عنها الاهل والاقارب الكثير فهي التي كانت تفلح الارض وتسويها وتقوم باعمال الرجال في ظل غياب اشقائها الذين يعمل أكثرهم في الخارج (في حقول الصحافة والطب والفن). وما تزال اشجار قليلة قائمة عند مدخل منزل أبويها في الزرارية «هذي من وراء ديات يسار» هذا ما قالته والدة يسار(السيدة أم نصير) وهي تشير الى شجيرات قائمة... صورها في كل زاوية وركن من بيت ذويها الريفي الوادع على كبرياء! وعندما ارتكب الاسرائيليون مجزرة الزرارية (١١ آذار ١٩٨٥) عادوا ودخلوا منزل المرحوم والدها (أحمد مروه) حيث حفروا في كل مكان في حديقة المنزل بحجة أن معلومات وردتهم بأن يسارا كانت تخبىء الاسلحة فيها، رغم أنهم كانوا قد انسحبوا من المنطقة (قبل اسبوع من المجزرة).

يسار : اعصار لا يهدأ! لم تكن يسار لتهدأ لحظة واحدة، بالرغم من كل التهديدات الاسرئيلية وتهديدات عناصر الجيش الجنوبي العميل (سعدحداد). وللتخلص منها، بعدما فشل العملاء وعناصر مخابرات العدو في الامساك بها أو دفعها الى الاعتراف عن رفاق لها تحت ضغط التعذيب المتعدد الاساليب الذي مورس معها قامت قوات الاحتلال باغتيالها على طريق القليلة ـ صور بتاريخ ٢/ ٥/ ١٩٨٤ ـ كذا يفعل العملاء الجبناء! تقول المعلومات أن الشهيدة يسار كانت صبيحة ذلك النهار في صور تشتري بعض الحاجيات للمنزل (وبعض الاسمدة

الكيميائية) عندما اقترب منها شاب وهمس في اذنها شيئا عُلم أنه أشار عليها بضرورة الذهاب فورا بعدما وردت معلومات أن عناصر مخابرات العدو(بقيادة أبو النور. . .) ستقدم على خطفها.

بينما تقول معلومات أخرى إن أ حدهم تقدم منها مشيرا الى أن أحد رفاقها قد أصيب مما جعلها تهرول مسرعة. وكانت قوات العدو قد كمنت لها على الطريق التي كان من المفترض أن تجتازها. وفعلا ما إن وصلت يسار وكانت تقود سيارة صغيرة من نوع فولسفاكن حتى انهمر عليها الرصاص من كل الاتجاهات. وظلت جثة يسار في السيارة لساعات عدة قبل أن يسمح بنقلها. في وقت كان فيه ضابط اسرائيلي وعناصره يقتحمون منزل ذويها مهددين بضرورة دفنها فورا دون أي ردات فعل. . . وقبل أن يخرج الضابط الاسرائيلي من المنزل التفت نحو والدة يسار الباكية وقال :أنت تبكين عليها. . . لقد ابكتنا كثيرا بعد أن قتلت العديد منا(١). . .

---

(١) كانت الاولى بين الشهيدات وستبقى الاولى في ذواكرنا وذواكر الاجيال ٢٠/ ٥/ ١٩٨٤ ويا سلوة الايام موعدك الحشر !
اما الذين استشهدوا بعدها من الانتحاريين فكانوا على التوالي : بلال فحص امل - الزهراني ١٦/ ٦/ ١٩٨٤ حسن قصير امل ٥/ ٢/ ١٩٨٥ البرج الشمالي ـ وجدى الصايغ السوري القومي جزين ـ كفرحونة ١٢/ ٣/ ١٩٨٥ حميدة مصطفى الطاهر (منظمة البعث)ـ حيدر حيدر قيس (منظمة البعث) سناء محيدلي ـ (القومي السوري) باتر ـ جزين ٩/ ٤/ ١٩٨٥ ـ مالك وهبي ـ جسر القاسمية ٢٠/ ٤/ ١٩٨٥ أحمد قصير حزب الله وفاء نور الدين الشيوعي ـ النبطية ٩/ ٥/ ١٩٨٥ ـ هشام عباس ـ كفرتبنيت ١٥/ ٧/ ١٩٨٥ (البعث) ابتسام حرب القومي السوري ـ راس البياضة ـ صور ٩/ ٧/ ١٩٨٥ ـ خالد ازرق ـ الزامرية ٩/ ٧/ ١٩٨٥ (قومي=

بيان لجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية :

«إن الشهيدة الاولى يسار أحمد مروه قامت بعمليات بطولية عدة ضد قوات الاحتلال قبل استشهادها في ٢ أيار ١٩٨٤ وإن رفاقها ينحنون في هذه المناسبة أمام عظمة الجهاد والشهادة وفاء لدمائها الطاهرة ، معاهدين كل الشهداء بالاستمرار في طريق النضال حتى تحرير كامل تراب الجنوب والاراضي اللبنانية التي يدنسها الاسرائيليون وعملاؤهم وإننا نحذر هؤلاء داعينهم لأن يرتدعوا عن عارهم وخزيهم».

بيانات للصحافة الاسرائيلية وقادة العدو :

بعد استشهاد يسار بحوالي العام أي في عام ١٩٨٥ حيث توالت ضربات

=سوري) علي غازي طالب ـالقومي السوري ـارنون ٣١/ ٧/ ١٩٨٥ ـ جمال ساطي ـ حاصبيا ٦/ ٨/ ١٩٨٥ (الشيوعي) عبد الله عبد القادر ـ بيت ياحون ١٥/ ٧/ ١٩٨٥ ـ مناع قطايا ـ ريمات ـ جزين ٢٨/ ٨/ ١٩٨٥ عصام عبد الساتر ـ كفرحونا ـ جزين ٣/ ٩/ ١٩٨٥ ـ مريم خير الدين ـ زحلة حاصبيا ١٢/ ٩/ ١٩٨٥ (القومي السوري) علي طلبة حسن (مصرى) من الاسكندرية ـ رأس البياضة صور ـ١٨/ ٩/ ٨٥ ـ محمد سعد وخليل جرادى ٤/ ٣/ ١٩٨٥ (امل) لولا عبود ـ الشيوعي ـ القرعون ـ البقاع الغربي ٢١/ ٤/ ١٩٨٥ فدوى غانم ارنون ١٩٩٠ القومي السوري وأخيرا لا آخرا ابراهيم ضاهر ١٩٩١ .

ملاحظة : ان القرى والاماكن التي ذكرت بجانب التواريخ هي مواقع استشهاد هؤلاء الابطال وليست مساقط رؤوسهم . كما نلاحظ ان اكثر هذه العمليات الاستشهادية قد جرت في العام ١٩٨٥ وهو العام المفصل الذى اضطرت فيه القوات الاسرائيلية الغازية الى التراجع والانسحاب من قسم كبير من ارض الجنوب تحت وطأة المقاومة وهذه العمليات الانتحارية الجريئة التي قال عنها القادة العسكريون الاسرائيليون انها لم تكن في حسبانهم . مما حدا بأحدهم الى القول : نستطيع ان نذيق الموت لكل هارب منه . اما الذي يأتينا طالبا الموت لنا وله فلا يمكننا ان نرده عنه . . .

المقاومة وكثرت العمليات الاستشهادية الانتحارية ضجت صحافة العدو وراح المحللون الاسرائيليون من صحافيين وقادة سياسين وعسكريين يدرسون هذه الظاهرة الفريدة التي جسدها ابطال المقاومة الوطنية اللبنانية وخاصة أبناء الجنوب العاملي وصمود اهاليه حين تصدى الاطفال بالحجارة والنساء بالزيت المغلي والزجاجات الحارقة يقذفونها بلا وجل في وجه هذا العدو المتغطرس الذي خاض ضد العرب والجيوش العربية خمس حروب وانتصر فيها. . . ها هو يواجه لأول مرة شعبا اعزل الا من الايمان، ومقاومة شبه عزّلاء الا من روح التضحية وحب الفداء ومقاومة الغزاة. . . فكان أن اجمعوا على الآتي :

يقول أبا ايبان :

- إن صانعي القرار في اسرائيل منذ صيف ١٩٨٢ وحتى الآن يمكن أن يوصفوا بأنهم كانوا وما زالوا وكأنهم يعيشون في أبراج عاجية وينطبق عليهم وصف المؤرخة بربارة توشمان : شلة الحمقى !!

- إن القرارات نفسها موثقة جيداً الآن من خلال تقارير المراسلين العسكريين والمعلقين السياسيين ومفادها : أن الحكومة الاسرائيلية في العام ١٩٨٢ توصلت الى فرضيات أدت الى اتخاذ قرارها بغزو لبنان - هذه الفرضيات هي : من الممكن وعن طريق اجراء عسكري وحاسم ودبلوماسية ثانوية إحداث تغيير جذري في ميزان القوى في سياسة الشرق الاوسط. وإن مثل هذا الاجراء سيعيد الاستقرار الى لبنان في ظل حكم وهيمنة حزب الكتائب (اللبنانية) بعد توقيع معاهدة سلام معه (١٧ أيار) وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية كقوة عسكرية وسياسية في المنطقة، واجبار القوات السورية على الانسحاب من لبنان. . . وهكذا تتخلص اسرائيل من الاعمال التخريبية والارهابية. . . وتمنع تساقط قذائف الكاتيوشا مرة

أخرى على قرى اسرائيل الشمالية، فضلا عن قيام القوات الاسرائيلية بدور بارز في جنوب لبنان دون الحاجة الى تواجد [1] مستمر ودائم لها هناك... وقد تحدث شارون عن انفراج تاريخي. أما بيغن فقد قال : إن السلام سيعم المنطقة في غضون الاربعين سنة القادمة!!

المجانين وحدهم يصدقون... (هذا القول) كما يقول آبا أيبان في مقال له نشرته صحيفة جيروزاليم بوست في ١/ ٤/ ١٩٨٥.

ويمضي ايبان في مقاله هذا الى القول :

إن أي شخص يوجه مثل تلك التساؤلات (التي تنتقد سلوك حكومة بيغن في غزوها للبنان)الى سلوك وتصرف حكومة بيغن ـ شارون ـ شامير سيحصل على اجابات سلبية بالتأكيد. وهناك اسئلة اخرى كثيرة، وحرب لبنان مصدر وافر للاجابات. لكن دروس الغزو والقرارات الحكومية التي أدت الى المأساة والكارثة التي نعيشها جميعا حاليا هي الحقيبة او الحقيقة التي يمكننا أن نأخذها معنا عندما ننسحب من لبنان... مع أن صانعي القرار السابقين يفضلون تركها وراء ظهورهم هناك... إننا لن نربح الجولة بالفعل... ولئلا تتكرر مثل تلك الكارثة في المستقبل أيضا..» الخ. ويقول الكاتب زئيف شيف في صحيفة هاآرتس (٣٠/ ٣/ ١٩٨٥ ما ملخصه : كل من يؤيد بقاء الجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان عليه أن يعرف أن النضال على هذه السيادة (سيادة الجيش الاسرائيلي في

---

(١) ولا يقال تواجد بمعنى الوجود في مكان ما ، فالتواجد من الوجد لا من الوجود انها صفة حديثة العهد وهي خطأ شائع ـ المؤلف ـ

جنوب لبنان عليه أن يعرف أن النضال على هذه السيادة (سيادة لبنان على كافة أراضيها سيستمر). . . أضف الى ذلك أن العمليات المسلحة للشيعة سوف تستمر ضد الجنود الاسرائيليين في الجنوب اللبناني. . . الى أن يقول : ونعتقد ايضا أن واشنطن لن تشعر بالرضا إزاء استمرار الوجود الاسرائيلي في الحزام الامني. فستدعي أن اسرائيل وعدت بالانسحاب الى الحدود الدولية وأنه يجب عليها تنفيذ هذا الوعد. . .

وجاء في الاويزرفر بتاريخ ٢٩/ ٣/ ١٩٨٥ تحت عنوان : اسرائيل تتراجع الى الزاوية السوداء ! ما خلاصته : إن احدى النتائج التي لم تكن في الحسبان للغزو الاسرائيلي المشؤوم للبنان هي التشويه الذي لحق بسمعة وصورة القوات الاسرائيلية. . . فالانسحاب من لبنان ستكون له آثار بعيدة المدى على الجيش، حسب اعتراف موشيه ليفي رئيس الاركان الاسرائيلي قبل أيام. . إن تردي معنويات الاسرائليين يرافقه بالضرورة ارتفاع في معنويات العرب (وكان على هذه الصحيفة أن تقول : ارتفاع في معنويات المقاومة اللبنانية الوطنية وسكان الجنوب اللبناني) فلأول مرة منذ عام ١٩٤٨ يشعر (العرب) ! انهم فعلا مقاتلون ممتازون كعدوهم إن لم يكونوا مقاتلين أفضل منه بكثير . . . فالحروب العربية الاسرائيلية السابقة وخاصة حرب ١٩٦٧ انتهت قبل أن يتوفر للعرب الوقت الكافي ليدركوا ما يحدث. . . وقد تكون لدى العرب يومذاك قناعة بأن اسرائيل لا تغلب وأن جيشها لا يقهر. . . ولكن هذه القناعة تغيرت وانقلبت رأسا على عقب نتيجة الضربات التي وجهتها المقاومة الوطنية اللبنانية للجيش الاسرائيلي : الى أن تنهي الصحيفة تعليقها بالقول : «فبدلا من وجود سبعة آلاف فدائي فلسطيني في

الجنوب اللبناني، يقول آبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية الاسبق إن اسرائيل أصبحت تواجه الآن (١٩٨٥) سبعماية الف مسلم شيعي (ومعهم آلاف الوطنيين اللبنانيين) يكنون لها عداء سوف يستمر اجيالا عديدة قادمة».

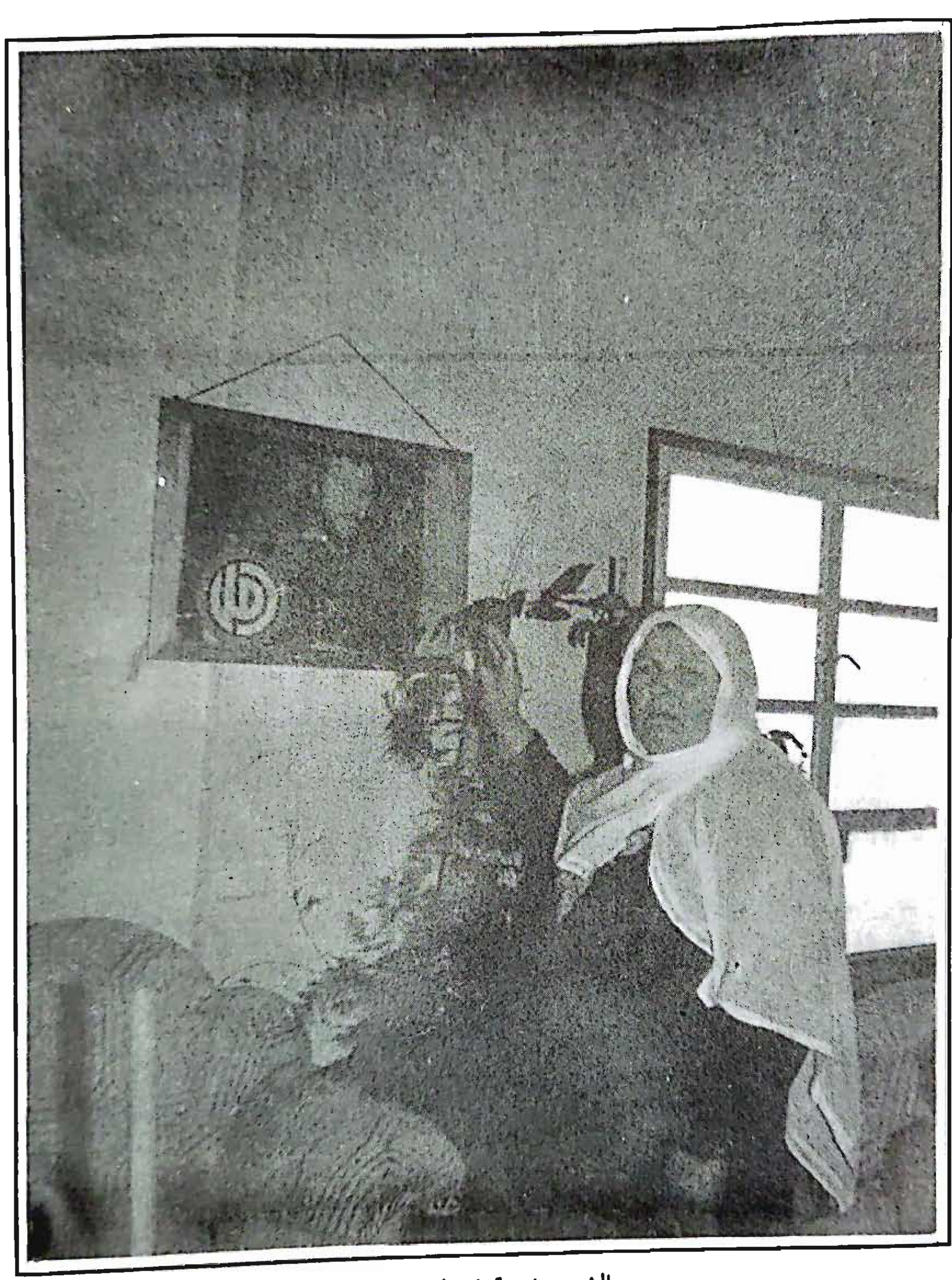
كل هذا تم بفعل ضربات امثال يسار مروه من رفاق مجاهدين ورفيقات مجاهدات ثم نجد من المكابرين، المشبوهين من لا يزال يدعي بأن المقاومة الوطنية اللبنانية لن تقوى على إزاحة اسرائيل من الشريط وغير الشريط. . .

صحيح أن الاقتتال الداخلي قد أوهن عزيمة هذه المقاومة وصرفها عن أن توجه كل بنادقها صوب العدو المحتل. . . لكن البندقية الشريفة لا تزال بأيدي الشرفاء هناك داخل الشريط تقوم بواجبها وتتصدى للعدو الاسرائيلي ، وما العمليات الجريئة الاخيرة (آب وأيلول ١٩٩٠) التي قامت وتقوم بها المقاومة الوطنية والاسلامية النظيفة المؤمنة سوى الدليل الساطع على أن روح يسار ورفاقها ودماءهم الزكية لا تزال تسري في عروقهم[١]. تلك الدماء الزكية التي لا تزال تهرق كل يوم في شعاب جبل عامل ووهاده وقراه، مسجلة بحروف من نار ونور أول صفحة في تاريخ هذا الجبل الاشم الذي استغل حكامه القدامى جهاد بنيه جاعلين من تاريخه النضالي تاريخا لامجادهم الشخصية.

٢ـ القائد والمخطط الشهيد : نعمة شريف هاشم :

كان لا يزال في الثانية عشرة من عمره حين انخرط في المقاومة السرية

(١) لمزيد من التفصيل والتحليل انظر كتاب : المقاومة الوطنية اللبنانية ٨٢ ـ ٨٥ العمليات الاستشهادية ـ المركز العربي للمعلومات ط ١ شارك في الاعداد رفيق نصر الله ـ بيروت ١٩٨٥.



الشهيد نعمة شريف هاشم

وتبدو والدته تشير الى صورته باعتزاز

وعندما اعلن الامام موسى الصدر الجهاد ضد اسرائيل والف افواج المقاومة اللبنانية (أمل) كان نعمة هاشم أول المنخرطين في صفوفها لكن بصورة سرية لتبقى مخططاته بعيدة عن الاضواء. لا سيما بعد أن انيطت به مهمة قيادة فصيل من فصائل أمل فراح يضع الخطط وينفذها في شكل مباغتات ونصب كمائن للدوريات الاسرائيلية التي غزت لبنان مرتين الاولى في سنة ١٩٧٨ والثانية وهي الادهى والامر سنة١٩٨٢ وعند اختفاء الامام وتسلم الامانة منه المجاهد الشاب الاستاذ نبيه بري لفتت أعمال نعمة هاشم هذا القائد فاستدعاه مرارا وبارك له جهوده وجهاده وزوده بالتعليمات وهمس في أذنه آيات الكرسي فانطلق نعمة لا يلوي على شيء شعاره الكتمان والحرص الشديد على أن يبقى في نظر الاصدقاء والاقرباء ذاك الانسان الوديع باللباس المدني العمالي لكنه كان من وراء ذلك اللباس يحمل قلبا جسورا وعقلا مخططا يمتاز بحدة الذكاء والوفاء للامام المغيب وحقدا مريرا على اسرائيل العنصرية الغازية التوسعية، وعلى عملائها في الداخل يبطش حين يبطش قادرا ويعود الى عمله اليومي في بيروت وكأنه ماتسلل الى الجنوب ولم يغادر فيبيت عند بعض الاصدقاء في العاصمة. . . كان نعمة يفعل كل ذلك مرتين في الشهر على الأقل أيام الغزو الأسرائيلي الثاني ثم يعود الى قواعده سالما بعد أن يوقع في دوريات العدو أصابات كثيرة الى أن كانت المجزرة بعد انسحاب اسرائيل بأيام قلائل (١١ آذاز ١٩٨٥) وكان ما كان من لؤم العملاء وحقد اسرائيل المتوقد في قلب قائد المفرزة الاسرائيليه التي حاصرت الزرارية فجر ذلك اليوم المشؤوم. إذ كان هذا القائد الموتور هو ابن الضابط الذي قتله نعمة قبل أشهر في كمين نصبه له ولدوريته قرب مدخل الزرارية الغربي على مقربة من مفترق وادي خليل المعروف وعلى هضبة الفاخورة .





دماء القتلى الصهاينة اثر الانفجار الكبير الذي خطط له

الشهيد نعمة شريف هاشم ـ قرب مدخل الزرارية

الاعمال التي قام بها نعمة والخطط التي رسمها ونفذها بنفسه كثيرة لا تحصى .

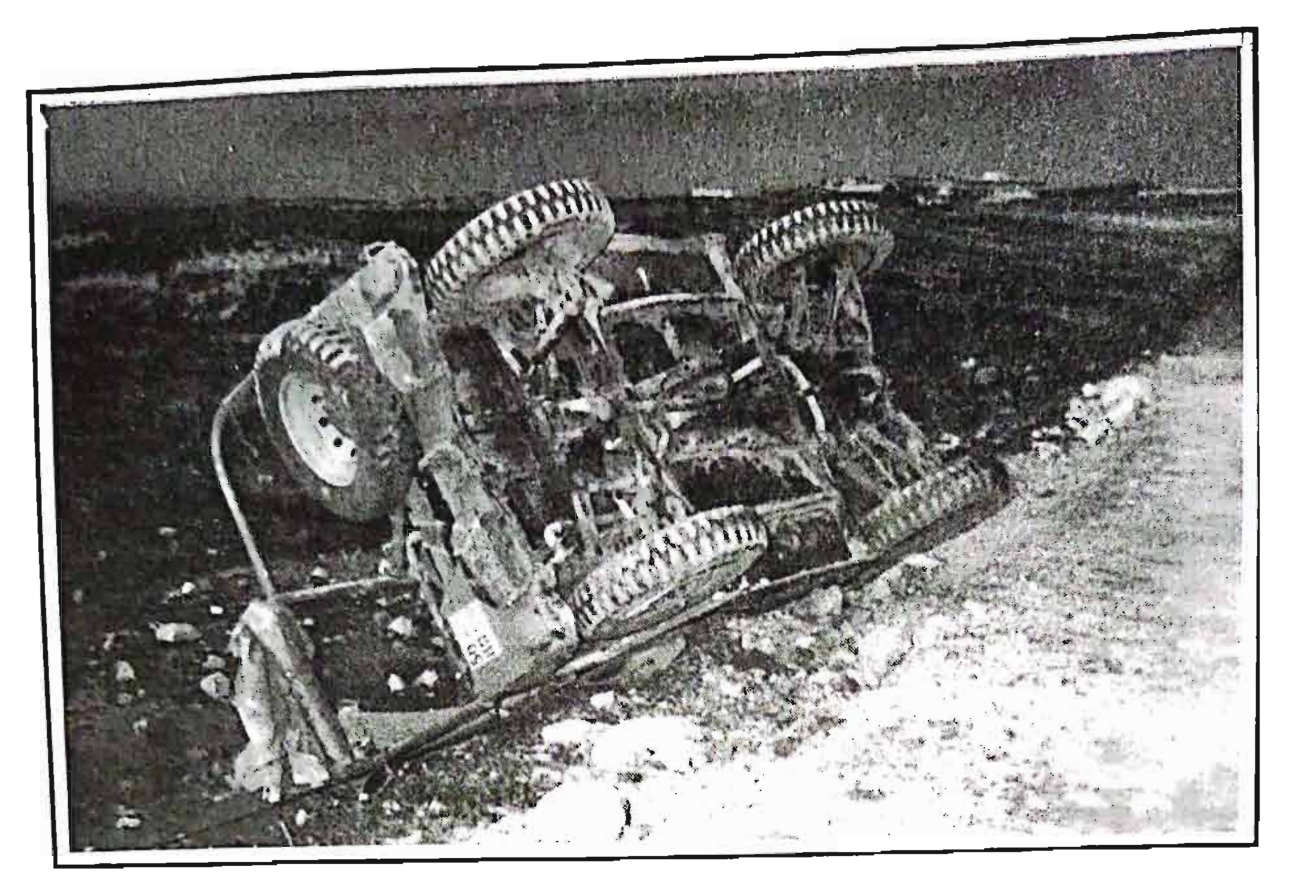
الشهيد الاول عام ١٩٦٩ (من الزرارية)

محمد عباس أخضر :

استشهد محمد عباس عام ١٩٦٩ يوم لم تكن المقاومة اللبنانية الوطنية موجودة. كان منخرطا في صفوف تنظيم فلسطيني.

حدثني الصديق الدكتور محمود عيسى عن محمد أنه كان وأياه في صف واحد في المدرسة وقد تميز بذكاء خارق وحمية عاملية متوقدة. ينطلق في عمله الجهادي من قناعة تامة بأن القضية الفلسطينية قضية عادلة، قضية شعب شرد قسرا من وطنه فلسطين وزرع مكانه شعب آخر مؤلف من مجموعة متنافضة من شذاذ الآفاق وهذا دليل إضافي على أن العامليين أبعد ما يكونون عن الطائفية والمذهبية فهم ينخرطون في أي تنظيم عربي مسلح أو حزب عربي قومي هدفه التحرير والوحدة والتقدم، ولا ينظرون الى هوية هذا التنظيم وذلك الحزب ولا الى طائفة رئيسه. . .

أما ما نشهده اليوم من تقوقع داخل الطائفة الشيعية في جبل عامل فما هو سوى ردة فعل لا أكثر ولا أقل تجاه تقوقع الطوائف الاخرى ولا سيما الطائفة «العظمى» كما يسميها طلال سلمان ويعني بها الطائفة المارونية التي احتكرت السلطة واحتقرت الطوائف الاخرى وحرمتها من أبسط حقوق المواطن خاصة الطائفة الشيعية الاكثر عددا والأشد حرمانا. . . على كل صعيد : حتى مياه الليطاني الذي وهبه الله للبقاع الغربي وبلاد جبل عامل الشيعية ليسقي سكانهما ويروي أراضيهما ويولد لهما الطاقة اللازمة. . . حتى الليطاني هذا استكثرته علينا



آليات صهيونية محطمة ـ قرب الزرارية

هذه الطائفة العظمى . . . وذهبت بمعظم مياهه شمالا ! ! ثم جاءت اسرائيل وسرقت ٥٥٪ من باقي مياه هذا النهر اليتيم[١] وتركت لاصحابه الشرعيين ٤٥٪ من بقية الباقي !

كما حدثني رفيق دراسة محمد عباس أخضر الدكتور محمود عيسى قائلا : كان متفوقا في دروسه خاصة في مادتي الرياضيات والعلوم . . لكنه لاحظ أنه بدأ يهمل دروسه ليهتم بالعمل الحزبي والجهادي فنصحه قائلا له : أنا لا امنعك من

---

(١) انظر دراستنا حول الليطاني في هذا الكتاب وتصويبات المهندس السيد جعفر محمد جواد شرف الدين وزير الموارد المائية والكهربائية الاسبق .

حريتك في مزاولة العمل الحزبي والجهادي. . . لكن أليس من الافضل أن تخدم قضيتك ووطنك بعد إتمام دراستك؟ حرام أن تحرمهما من مواهبك وعملك اذا انقطعت منذ الآن عن تنميتهما. . لكن محمد كان في عجلة من أمره فراح يقوم بعمليات فدائية داخل الوطن المحتل الى أن استشهد. .



لائحة باسماء ادباء وشعراء وخطباء الزرارية ومفكريها وفنانيها قدامى ومحدثين ـ مقيمين ومغتربين

ـ الشيخ عبد اللطيف شرارة.

ـ الشيخ محمد نجيب مروه ـ الشيخ محمد حسين مروه الملقب «بالحافظ»

ـ الشيخ أحمد حجازي ـ ابن البادية ـ شاعر وخطيب وباحث.

ـ السيد محمد جواد شرف الدين ـ أديب وشاعر ابتلعته الحرب الكونية الاولى. . .

ـ السيد حسن جواد شرف الدين ـ شاعر ومؤرخ.

ـ السيد خليل يحيى شرف الدين ـ مؤلف هذا الكتاب : شاعر وأديب ومربٍ ومحقق تراث ومترجم.

ـ إبراهيم بلال ـ شاعر وطني مرموق . مغترب.

ـ محمد تامر فخري ـ شاعر مغترب ومن دعاة الوحدة الانسانية واعتماد اللغة العالمية : الاسبيرانتو لغةً لكل الشعوب والأمم .

ـ الاستاذ كامل مروه : صحافي عالمي الشهرة ـ مؤسس جريدة الحياة التي تصدر اليوم في لندن والقاهرة واخيرا في بيروت ـ تطورت هذه الجريدة لتصبح مؤسسة صحافية كبرى.

ـ الاستاذ جميل كامل مروه : المشرف على جريدة الحياة ومديرها العام. (سابقاً)

ـ الاستاذ أحمد مروه : مؤلف كتاب : من وحي الغربة، شاعر مغترب.

ـ الاستاذ كريم مروه : نائب الامين العام للحزب الشيوعي اللبناني ـ مؤلف عقائدي ومحاور واسع الشهرة.

ـ الدكتور ماجد فخري : مفكر مرموق، ومنظر فلسفي بارز ـ رئيس الدائرة الفلسفية في الجامعة الاميركية ببيروت له عدة مؤلفات فلسفية ودراسات فكرية باللغتين العربية والانكليزية.

ـ الدكتور راشد فخري : من اساتذة التاريخ في الجامعة الاميركية ببيروت.

ـ الدكتور نصير مروه : أديب وصحافي متخصص مدير مكتب الوطن العربي بباريس.

الدكتور سحبان مروه : محاضر في جامعات هلسنكي ـ فنلندا ـ من شعراء الحداثة وروائييها. له دواوين شعرية مطبوعة. مترجم ملحمة الشعب الفنلندي كاليفالا.

ـ السيد محمد جميل مروه : شاعر وخطيب ومقدم خطباء ـ مقيم.

ـ السيد محمد يحيى شرف الدين : شاعر لقب نفسه بشاعر الطبيعة ـ له ديوانان مطبوعان منشىء مدرسة الاشراف الوطنية الخاصة.

ـ الدكتور وسيم علي حجازي : استاذ محاضر في كلية الاعلام بالجامعة اللبنانية ببيروت ـ أديب وخطيب حفيد الشاعر ابن البادية .

ـ الاستاذ علي زرقط : خطيب ومقدم خطباء. استاذ في ثانوية الزرارية الرسمية.

الاستاذ محمد محيي الدين : خطيب وكاتب وواضع قوانين الجمعيات الاجتماعية والرياضية في الزرارية ساعد في توثيق هذا الكتاب. وهو استاذ في ثانوية الزرارية الرسمية.

ـ الاستاذ محمد شريف هاشم : من أبرز الفعاليات الاجتماعية والسياسية ـ المسؤول التظيمي في حركة أمل. في الزرارية ومنطقتها سابقاً. ساعد في اعداد هذا الكتاب خطيب المقاومة . أمين سر الجمعية الإنمائية في الزرارية .

ـ الاستاذ محمد حسين حيدر (الشامي) صاحب ومدير مدرسة الشعلة. مؤلف كتب مدرسيه في الرياضيات والعلوم (فرنسي ـ انكليزي) خطيب ومقدم خطباء في الزرارية.

ـ الاستاذ علي حسين مروه : تاجر وشاعر ـ سبط ابن البادية. (الشيخ أحمد حجازي)

ـ الاستاذ السيد علي محمد هاشم : من شعراء الاغتراب البارزين ـ مناضل وطني وقومي. (١) منذ كان.

ـ الاستاذ ناظم ايراني : رسام ونحات مرموق ـ أقام عدة معارض ـ أكثر تماثيل جمال عبد الناصر في لبنان من تصميمه ونحته . مقيم في بيروت . (٢)

ـ السيد كريم مروه : فنان ومنشيء فرقة للدبكة تحمل اسمه، ومصمم أزياء نسائية مشهور.

ـ الاستاذ صقر زرقط. شاعر حديث لا يزال في أول طريق الابداع والشهرة. .

---

(١) انظر نبذة عن بعضهم في فصول هذا الكتاب

(٢) عرفت هذا الفنان المرموق في اواخر الاربيعنات حيث كان يقيم هو ووالده واشقاؤه في الزرارية . ثم تقطعت بنا الاسباب بعد ان نزحت عائلته الى بيروت ، ونزحت انا الى بيروت لاتمام دراستي الجامعية وانخرطت في سلك التعليم الخاص في الكلية العاملية وبعدها في الكلية الجعفرية في صور ، وظلت الصلات الاخوية وثيقة بيني وبين الاستاذ ناظم حتى عهد قريب . ـ المؤلف ـ

ـ الاستاذ علي رضا مروه : شاعر ثوري كان بين سجناء معتقل انصار كما كان شاعرهم ومنشد آمالهم. له مجموعة شعرية لم يتسنّ له طبعها في ديوان وكلها يدور حول المقاومة الوطنية وابطالها وشهدائها . كان رفاقه ينادونه بعلي بيك تحببا. . .

ـ نجاة فخر الدين فخري (١٩٢٨) صحافية متخصصة ـ مراسلة مجلة الوطن العربي التي تصدر في باريس ـ اديبة ومعدّة برامج تلفزيونية ـ نقابية .

ـ دنيا فياض طعان : اديبة وشاعرة ـ وضحا فخري : اديبة وشاعرة .

الرعيل الاول والجيل الثاني/ فكرا وأدبا وشعرا

انجبت الزرارية اعلاما كثيرين في أواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن، منهم من خانه الظرف وتعمد الاغفال من قبل العثمانيين فلم يذكر ولم يشتهر ولم تنتشر آثاره. . . كالشيخ عبد اللطيف شرارة العاملي ـ ولو لم يتح لهذا العالم والاديب من يطبع له بعض آثاره لما عرفنا عنه شيئا. فقد قام أخيرا نجله الحاج محمد شرارة بطبع أثر ديني له كان المؤلف قد سماه : الانسانية الحقة والوجدان الصحيح. صدر هذا الكتاب الذي يضم ١٩٠ صفحة سنة ١٤٠٩ هـ. ١٩٨٨م. في بيروت دون ذكر الدار التي صدر عنها. والجدير بالذكر أن المؤلف اراد من طبع كتابه هذا أن يكون رسالة مجانية لكل مؤمن. لذلك جاء على الغلاف الاخير جملة : يهدى ولا يباع. . .

متعلمون بلا مدارس!

الشيخ محمد نجيب مروه العاملي (شاعر فكاهي وناقد اجتماعي)

سنة ١٨٧١ ولد محمد نجيب مروه في الزرارية من ابوين كريمين. نشأ وترعرع في قرية سلعا بعد انتقال الابوين اليها [١]. وفي مجتمع خيم عليه الفقر والجهل والظلم والحرمان كان من الطبيعي أن يحرم ابناؤه (في جبل عامل) من العلم والتعليم والتعلم. ما عدا القلة القليلة التي اتجهت نحو التحصيل الديني في مدارسه ثم في النجف الاشرف. نقول قلة قليلة لانها كانت من ابناء الاثرياء أو رجال الدين ولم يكن الشيخ محمد نجيب من هذه القلة المحظوظة. كان من ابناء الطبقة المسحوقة المقهورة التي استعملها الاتراك العثمانيون وقودا لحروب لا ناقة لهؤلاء التعساء فيها ولا جمل.

ويبدو أن المواهب العاملية لم تكن بحاجة الى مدارس نظامية لتتعلم. فإن أمامها مدارس من نوع آخر هي مدارس الحياة حيث استطاع أمثال هذا الشيخ أن يشق الطريق بعصامية مثالية نحو ما يصبو اليه من «فك الحرف» ثم الاستماع الى الادباء والشعراء وما يلقونه في المناسبات من قصائد وخطب. وكان استماعه ذكيا ترفده في الاختزان حافظة متأهبة زودته، فيما بعد، بما يريد من طرائف الشعر وجوامع الكلم، لا سيما القصائد النقدية الساخرة من هذا الزمان واهله، ومن الحكام وجورهم.

وحتى العلم الديني تمكن شيخنا من تحصيل كمية وافرة منه. فقد كان من

---

(١) لم تستطع المراجع التي بين يدينا ان تفيدنا عن اسم هذين الوالدين ولا عن اسباب ارتحالهما عن الزرارية ـ المؤلف ـ

الذكاء والرغبة في التزود من كل علم وفن متاح بحيث اصبح في فترة وجيزة من سن الشباب عالما دينيا فاضلا واديبا وشاعرا متخطيا عوائق الحاجة والفقر المقيم.

قال يصف معاناته في الوصول ونباهة الذكر :

لقد عشقت العلا والمجد من صغري ورحت صبا حليف الوجد والسهر

فلم أنل منهما قصدي ولا وطري وعذبتني الليالي أي تعذيـــب

لكن دهري عن التعليم اقعدنـــي ومنهل العسر والاملاق أوردني

كم قد دنوت من العليا فأبعدنـي عن نيلها بعد تقديم وتقريــب

لقد ترعرعت في سلعا ولا كتب عندي ولا فضة كلا ولا ذهب

ولا فتى ذى علوم زانــــه أدب من أهلها يتولى أمر تأديبـــي

شوقي والشيخ نجيب ! فوارق ومفارقات !

ومع هذا فشاعرنا يحس في اعماقه بأن امير الشعراء ليس اشعر منه ولو اتيح له ما اتيح لشوقي من حياة قصور وترف وثروة ورعاية خديوية لتفوق على شاعر الامير وامير الشعراء !![1] هكذا بكل انتخاء وادعاء وثقة بالنفس. يقول شيخنا :

لعمري لو جلست مكان شوقي لفاض الشعر من تحتي وفوقي !!

ولكن النوائب فوق طوقـــي تكلفني فتسلبني الشعـــورا

---

(١) قبل ان يبايع شوقي بامارة الشعر في المشرق العربي (ومغربه) كان شاعر الامير (اى الخديوى اسماعيل ثم الملك فؤاد) وكان يعتز بهذا اللقب حيث يقول :

شاعر الاميـر ومــا بالقليل ذا اللقب !

من قصيدة مدحبة توّجها شوقي بابيات غزل تقليدي مطلعها :

حف كأسَها الحَـبُ فهي فضة ذهـب . . . الخ .

ترعرع في المدارس وهو يرعى تلامذة ذكوا اصلا وفرعا
ويحصد من حقول العلم زرعا ويقطف من حدائقه الزهورا. . .

لماذا الحسد يا شاعري ! الست شاعرا مبدعا في مجالك. ومن قال لك أن شوقي ما أبدع إلا حين أمرع ؟ ! فحياة القصور التي يحياها الشاعر ليست شرطا ضروريا للابداع. وهو فوق وأنت تحت. لكن فوقيته كثيرا ما أساءت اليه أما «تحتيتك» إن صح التعبير فكثيرا ما تكون الحافز والملهم لذوي النفوس الكبيرة امثالك، فيبدعون ويدخلون الى قلوب الجماهير من الباب الواسع، لا من الباب العالي ! ثم ما رأيك بإبداعات احمد الصافي النجفي من اين كان يستوحي موضوعاتها ؟ !

أما تناهى الى سمعك حديث جرير والفرزدق، وبماذا تفوق جرير على صديقيه اللدودين الفرزدق والاخطل. ! دع شوقي فوق عرشه الذهبي فقلما يغبط الجالس عليه شاعرا كان أم حاكما.

السخرية المرة : همة قعساء تريد لصاحبها أن يبلغ القمة وواقع يشد به الى الوراء. . . الى تحت دائما فينتفض الشاعر ملتاعا ويقول :

وقد ضيعت في سوح الضياع شبابي بين حراث وراعي
فقصر عن بلوغ المجد باعي ورحت بأرضها ارعى الحميرا ! !

* * *

واسكنني بعاملة زمانا فلم احرز لعائلتي مكانا
ولا فرسا ركبت ولا اتانا ولا بغلا ملكت ولا بعيرا. .

الشيخ نجيب والعروبة : في كل ما استعرضناه من مواقف للامراء والزعماء العاملين وفي كل ما سنستعرضه من مواقف للزعماء الروحيين والادباء والشعراء

في هذا الجبل العربي الاشم لم نجد ولن نجد الا النزعة القومية والعروبة الصافية تنضح من اردانهم وتنم عن اصالتهم العربية طاغية على كل ما عداها من نزعات طائفية ابتلى بها الاخرون في لبنان وترفعوا هم عنها [١] فقد كانوا حماة لكل مضطهد من سائر الطوائف في لبنان درزيا كان أم مسيحيا[٢].

وهذا هو شيخنا وشاعرنا يعبر عن هذه النزعة الوطنية والقومية احسن تعبير. يقول من قصيدة له يستنهض فيها همة ابناء وطنه لرفع اذى الاتراك :

هلموا بني الاعراب[٣] يا للعزائم	الى الحرب طرا من جهول وعالم
وشدوا لساحات الكفاح حرابكم	وهبوا جميعا كالاسود الضراغم
فحتى متى هذا القعود وقد سقت	بنو الترك من أوداجكم كل صارم
فكم غالت الاتراك منكم أماجدا	أولي عزمات كالليوث الضياغم

---

(١) من وحي المحاضرة التي القاها المفكر منح الصلح في النبطية بعنوان : جبل عامل والعروبة. وانظر كتاب يوسف حوراني : لبنان في قيم تاريخه . ومواقف كامل بك الاسعد الكبير ودعوته لمؤتمر وادى الحجير وما تمخض عنه هذا المؤتمر من مقررات وحدوية صدرت عن مؤتمرين روحيين وزمنيين لا شك في عروبتهم ونزوعهم الى تحقيق اى نوع من انواع الوحدة او الاتحاد . . فقد كان جبل عامل منطلقا لمثل هذه الدعوات حين انخرط شيبهم وشبانهم من شعراء وسياسيين وحتى بعض الاقطاعيين بالجمعيات العلنية والسرية التي تطالب بالوحدة او الاستقلال الذاتي على الاقل (ايام حكم ناصيف النصار مثلا وكامل بك الاسعد الكبير) وكم قدموا من شهداء في سبيل هذه النزعة العروبية الخالصة والميل الشديد الى الاستقلال وتبنيهم كل قضية قومية مما يضيق المجال به هنا . . .

(٢) اما حادثة الخيام التي ثأر فيها ناصيف باشا الاسعد من الدروز لبني طائفته فهي ردة فعل محلية تغلبت فيها العاطفة على الوطنية والاصالة القومية .

(٣) الاعراب ـ هنا : العرب وليس البدو .

- الشيخ نجيب وبدوي الجبل - في صيدا : كان لشاعرنا مساجلات مع كثير من شعراء عصره والكبار منهم بالذات كبدوي الجبل وأحمد الصافي النجفي والشيخ أحمد عارف الزين صاحب العرفان. دعاه - الشيخ احمد عارف الزين الى صيدا يوم زارها بدوي الجبل ضيفا على العرفان وصاحبها. وكان معهما قاضي صيد ا الشيخ اسد الله صفا. وبعد أن وعدهم بتلبيته الدعوة تخلف ولم يحضر. . . فأرسلوا له هذه الابيات :

قل للنجيب محمد بن الباقــر	إنا نعيذك من صفات الغادر
أخلفت وعدك بالاياب معجلا	فكذبت وهي سجية للشاعر
بادر الى صيدا يا ابن مــروءة	عجلا كأن خطاك لمح الناظر
قد حل فيها شاعر الشام الذي	جاءت قوافيه بسحر الساحر
هو ذلك البدوي من الفاظــه	عند الخطابة نزهة للخــاطر

فأرسل اليهم الجواب التالي قائلا :

الصدق عوني في المقال وناصري	والكذب ما عقدت عليه مآزري
ما إن مطلت بما وعدت ولا انطوت	أبدا على غير الوفاء خواطــري
يا صاحب العرفان يا من شخصه	في الناس شخص مكارم ومآثـر
يا ابن الصفا واخا المودة والصفــا	وأبا المعارف والفـــؤاد الطاهــر

وبعد أن يبين سبب تأخره عنهم يختم بالشوق والتحية والسلام :

وابث شوقي في الختام اليكم بعد التحية والسلام العاطر. . .

إنه شعر الاخوانيات الذي راج كثيرا في ايامه وكان فيه مجليا.

أما السخرية فقد كان اميرا من امرائها : يسخر من نفسه ومن قدره ومن

الحكام والمتسكعين على ابوابهم. . . سخرية لطيفة رحيمة اقرب الى المداعبة والفكاهة منها الى القدح والتجريح.

ويطول بنا القول اذا بدأنا بتعداد طرائفه ونكاته في هذا المجال. وليعذرنا القارىء الكريم اذا احلناه على كتاب الشيخ أو ديوانه : الروض الزاهي ففيه حكاية الشيخ مع اصحابه واخوانه ولا سيما الثقلاء منهم والاغنياء ـ البخلاء الذين كانوا لا يقدرونه حق قدرة ولا يراعون حالته وخصاصته، ولا يهمهم اذا ما هجاهم الشاعر ونال من اصالتهم وكرامتهم اذ لا كرامة لديهم ولا اصالة. . . ويبدو أن هذه العائلة الكريمة والواسعة الانتشار في جبل عامل [١] عنيت آل مروه قد تميزت بروح الدعابة والفكاهة. وهي روح عاملية بشكل عام، حيث نجد القروي العاملي يطلق النكتة في كل مناسبة ولو كانت غير مناسبة. . .

عايشت العديد من وجهاء آل مروه في الزرارية وكانت مجالسهم عابقة الاجواء بهذه الروح المرحة والناقدة، والتي تنم عن ذكاء فطري واصالة عربية ـ اسلامية لعلها تجسيد للحديث النبوي الشريف القائل :

روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلت عميت. . .

كما عرف الامام علي بميله الى المرح والهزل عندما يخلو الى أ هل بيته

---

(١) آل مروه منتشرون بكثافة في الزرارية حيث يشكلون ثلثي سكانها على الاقل ، وفي مصيف جباع حيث يقاربون نصف السكان والباقي من آل الحر ومتفرعاتهم . وفي عين بعال وعيتيت وحداثا التي انجبت المفكر الشهير الشهيد حسين مروه وفي النبطية عائلة نزحت في الاربعينات اليها من الزرارية وفي صيدا فروع من هذه العائلة واصول استوطنوها منذ الثلاثينات جاؤوها من جباع والزرارية وغيرهما . للمزيد انظر فصل :عائلات الزرارية من هذا الكتاب.

ـ المؤلف ـ

واقربائه وحوارييه. وهي نقيض التزمت أو الاطلالة على الناس من فوق. . . وكأن هذا المتزمت من طينة غير طينة البشر الذين يخاطبهم أو يعيش معهم. حتى اذا نعت الإمام جاحدو فضله بأنه صاحب «خنزوانة» كان ذلك بمعنى الكبر والشمم لا الاستعلاء أو العجرفة.

اعيان ازرارية : من وجهاء الزرارية هؤلاء الحاج أحمد عباس مروه أبو منير الذي كان رحمه الله اميرا من امراء النكتة الذكية والدعابة المحببة التي تجرح ولا تميت وتشيع في مجلسه جوا من المرح و«الخوشبوشية» الشعبية.

كنت أيام العطلة حين أعود الى الاهل من مدرسة النبطية ثم من مدرسة صيدا وثانويات بيروت اسارع الى بيت ابي منير، فنجلس تحت العريشة على مدخل البيت حيث بعض الاصدقاء من آل مروه وعلى رأسهم النجل الثاني لابي منير وهو الصديق القديم والدائم السيد علي مروه أبو رائف الذي اعتز بصداقته نظرا لاخلاصه ووفائه وبقائه على المودة وذكريات الطفولة الى الآن. . .

وهناك تدور احاديث ولا اشهى ونكات ولا أطرف !

نكتة كاريكاتورية : من طرائف ابي منير ونكاته : كان يوما حاضرا مجلس تعزية. وكان قارىء المصرع شيخا بسيطا يتعيش من هذه المهنة. . . تحت ابطه دائما دفتر أو كتيب اوراقه صفراء مهلهلة من كثرة الاستعمال. يقرأ فيه مصرع الحسين بن علي منذ عشرات السنين لا ينقص حرفا ولا يزيد حرفا ويبدو أن بعض كلماته قد طمست حروفها من انسكاب دموع الشيخ عليها حين يبكي متأثرا باحداث ذلك المصرع الرهيب. فيعمد الى وضع كلمات من عنده مكان المطموسة. . . المهم ليس هنا ، بالنسبة لابي منير فقد كان مضطرا بحكم الواجب الديني أن يحضر مجلس هذا الشيخ الذي كان قصير القامة جدا وعجوزا

كهلا. . . كان الشيخ يبدأ بهذا السلام الامنية : السلام عليك يا ابن رسول الله وعلى المستشهدين بين يديك يا ليتنا كنا معكم. . . هنا لم يتمالك - مرة - ابو منير نفسه حتى انفجر ساخرا وهو يغادر المجلس قائلا له : «كنت. . . الكلبة. . . قم. . . حاجي مثل قنينة الكازوز» ! ! وكان الشيخ فعلا مثل قنينة الكازوز شكلا وفورانا ! !

رحم الله ابا منير كم كان طريفا في نكاته الفولكلوريه وغير الفولكلورية. . . ورحم الله الشيخ القارئ وعلى ذكر ابي منير لا بد ان نذكر حفيدته الدكتورة هيام مروه، عميدة كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية - صيدا - وان نضعها بين اعلام الفكر الذين انجبتهم الزرارية[1].

مثل ابو منير دورا اجتماعيا وسياسيا بارزا في الزرارية يعرفه كل من جايله من الاصدقاء والخصوم .

الاعلام من آل حجازي

ابن البادية (الشيخ احمد حجازي) :

يقول عمنا في مذكراته المخطوطة ما ملخصه :«وبعد ذلك بسنين عديدة رجعنا (من المهجر) لعند الاستاذ أحمد حجازي الذي كان شاعرا أديبا، وكان ينشر قصائده باسم مستعار هو : (ابن البادية) وكنا بعد عودتنا الى مدرسته نذهب واياه كل صباح يوم جمعة الى نهر الليطاني الذي هو في خراج الزرارية وكان بالمنطقة بساتين وارفة واشجار الحور والصفصاف تتلاعب مع الريح. وبعد أن

(١) انظر فصل الاعلام من هذا الكتاب .

نمضي سحابة نهارنا في اللعب والسباحة نجلس مع استاذنا على بساط أخضر من النعص ونأتي بطعامنا ونتغدى نحن واستاذنا وبعد انتهاء الغداء يشرع يحدثنا احاديث قيمة ويقول لنا : عساكم قد استوعبتم كل ما تعلمتموه. وقال لنا : يا اخوتي اريد منكم صباح الغد أن تأتوني بوصف لهذه الرحلة لأرى مقدار تحصيلكم. اتيته في اليوم التالي بما أوحت به قريحتي من وصف مسهب مفصل عما شاهدنا في تلك الرحلة وان مثل هذه الاماكن تثير شهية الواصف للإبداع في الوصف وكان استاذنا قد استأجر غرفة للمدرسة في بيت لأرملة شابة. . . وبعد ذلك تزوج منها وانجبت له بنين وبنات وكان كل امسية يأتي الى عنده حمد بك الاسعد ليستأنس بحديثه وادبه وكان حمد بك يتذوق الادب، فقال له الاستاذ : لقد اصبح لدي تلاميذ يحسنون القراءة والكتابة ونظم الشعر. فناداني الاستاذ وقال لي : اقرأ للبيك ما كتبت بالامس. فوقفت وقرأت له الرسالة والابيات الخ. .

كان المرحوم أحمد حجازي يتباهى بنا أمام البيك وأمام الناس كما كان اسلوبه في ممارسة مهنة التعليم فريدا من نوعه في تلك الايام يمتاز بالواقعية لاسيما في تعليم مادة الانشاء والصرف والنحو والعروض. ولم يكن يهمه اين يعلم في غرفة أو تحت تينة أو على ضفاف نهر، بل كيف يعلم وكيف يشحذ القرائح وينمي الملكات.

بدأ بتعليمنا في بيت أمه وجدته (يتابع عمنا قائلا) : وكانت الاخيرة معلمة فاضلة أخذت تساعد حفيدها (الاستاذ حجازي). وبقينا في عهدته الى أن سافرنا الى أفريقيا. وكما كان تعليمه فريدا من نوعه اسلوبا وطريقة، كذلك كان تعلمه أو «فكة للحرف» ففي حين كان لداته يلهون في الازقة بلعب «الدوش» كان أحمد حجازي اليتيم الفقير لا يشاركهم اللعب بل كثيرا ما شوهد يلملم من على

الطرقات أوراقا بالية أو بقايا كتب مهلهلة ليتأمل فيها ويهجي حروفها، وما صعب عليه من كلماتها يذهب به الى جدته أو الى الشيخ محمود باقر ليفك له حروفها ويفسر معانيها. . . وهكذا راح في صبر دؤوب يترقى من تهجي الكلمات الى قراءتها بشكل صحيح الى تقليدها ومحاكاتها في شكل موضوع انشائي بسيط يضعه بنفسه. . . وما هي الا سنوات قليلة حتى اصبح استاذاً لاساتذته ومعلما لرفاقه الذين هم من عمره أو أكبر منه سنا. اصبح قادرا على تعليمهم كل مواد اللغة العربية : من املاء وانشاء وصرف ونحو وبيان وبديع وشعر وعروض وتاريخ وجغرافيا وحساب وخط. حتى الخط العربي كان بارزا فيه ومميزا. كما ظهرت عليه سيمياء الادب ونظم الشعر اذ تميز بموهبة صافية ترفده بشعر كلاسيكي الاسلوب على طريقة القدامى لكنه شعر صحيح فصيح صادق اللهجة عميق المعاناة رائق الصورة كثيف الظلال. . . وقد برز ذلك في قصائده الوصفية وغزلياته. . . ثم في وطنياته يتغنى فيها بمجد العروبة وبطولات المسلمين في الفتوحات ونشر الحضارة والفكر العربي في مشارق الارض ومغاربها. وحين برز عبد الناصر رأى فيه بطلا قوميا يجسد هذه البطولات ويسعى لبعث تلك الحضارة في كيان وحدة عربية شاملة تطيح بالمستعمرين والمتآمرين. فراح يتغنى بصفات عبد الناصر ومنجزاته في قصائد عامرة كان يلقيها على منابر صور الوطنية وغيرها من المدن والقرى فيلهب مشاعرنا ومشاعر الاجيال التي عاصرته مثلنا في الاربعينات والخمسينات حتى أواخر الستينات حيث داهمه مرضان كان يدفع بهما بعيدا عن روح الشباب التي ظل يتمتع بها رغم الكهولة : عنيت مرض الشيخوخة وتقدم السن ومرض «الفتق» الذي أخضعه لعمليات جراحية متعددة. . . الى أن قضى رحمات الله عليه بعد أن ملأ الدنيا العاملية شعرا

وتعليما وتعاليم وقصائد حسينية ثم ناصرية قومية شغلت ولا تزال اجيالا واجيالا وستبقى تشغل ناس عصره من ناشئة ومؤرخين وباحثين.

اصدقاؤه ومريدوه : دخل الشيخ أحمد حجازي قلوب الكثيرين ممن تتلمذوا على يديه في الزرارية أولا ثم في ديرسريان (قرب الطيبة) وكفر حتى في اقليم التفاح، ثم في صيدا ثم في مدينة صور حيث القى عصا الترحال فيها واستقر به النوى. وكان منزل الامام عبد الحسين شرف الدين ندوة دينية وادبية دائمة تضم اقطاب الفكر والادب في صور ومنطقتها وكان ابن البادية في طليعة رواده من أمثال انجال الامام شرف الدين مفتي صور السيد محمد جواد شرف الدين والسيد صدر الدين شرف الدين صاحب مجلة النهج ومؤسس مدرسة النجاح والاديب المعروف. والسيد جعفر شرف الدين رئيس الجعفرية وصاحب مجلة المعهد والنائب السابق والاستاذ محمد زكي بيضون والطبيب الاديب شكر الله الحداد، وبعد التحاق الامام شرف الدين بالرفيق الاعلى انتقلت الندوة الى الكلية الجعفرية ثم الى منزل الامام الصدر. . . وفي جميع هذه المراحل كان ابن البادية قطبا ومعلما ورفيقا وبلبلا غريدا يصدح بأحلى القصائد من منظوماته الحسينية والاخوانية والسياسية والغزلية والوصفية والرثائية والوطنية والقومية الوحدوية .

ثم لما انفرط عقد الاصدقاء واحدا بعد واحد، كان الوحيد الذي اصطفاه من بين الكثيرين أبا عباس الاستاذ زكي بيضون حيث كان ابن البادية لا يرى الا معه في غدواته وروحاته وتنقلاته وزياراته في شكل توحد يكاد يكون عضويا وعلى طريقة عيش تكاد تشبه طريقة اخوان الصفاء وخلان الوفاء في العيش والفكر والتماثل والانسجام في كل شيء. . . حتى كدنا حين نرى احدهما

وحيدا نشك في أنه يمشي وحده. وحين رأيته مرة هكذا تعجبت وسألته اين ابو عباس. فقال : ها أنا ذاهب اليه فهو مريض. . . ورافقته يومها نعود ابا عباس. وبعد يومين زالت الوعكة وعاد الاثنان واحدا!!(١)

الوظائف التي تقلدها : كانت أول وظيفة فرضها على نفسه تعليم رفاقه في الزرارية فقد كان منذ صغره يهوى هذه المهنة الانسانية الشريفة لا للارتزاق - كما هي اليوم في وجدان الكثيرين من الاساتذة والمعلمين - بل حبا بمحو الامية عن بني جنسه وبلدته وبلده من الفقراء. فكما محا هو اميته عن نفسه أحب أن يمحوها عنهم. . . خاصة اولئك الذين لا يجدهم قادرين على تلقي العلم في مدارس المدن. . .

ثم تقدم الى امتحانات وزارة التربية في اوائل ايام الانتداب ففاز بتفوق وعين استاذا ومديرا لمدرسة ابتدائية رسمية في دير سريان وتنقل بعدها الى مدارس كفر حتى وصيدا وجباع ثم انتقل من سلك التعليم الى سلك القضاء فعين كاتبا في محكمة صيدا. ثم في محكمة البداية في صور كما عين نجله الوحيد المرحوم علي مباشرا في المحكمة نفسها. . .

---

(١) الاستاذ محمد زكي بيضون هو والد الاستاذ عباس بيضون الاديب والناقد والشاعر الطليعي المعروف والذي كان منذ يفاعته من المع طلابي في اواخر الستينات . وهو اليوم يعتبر من رواد الحداثة في الشعر العربي - فهما ونظما - ومن المثقفين العرب الحقيقيين الشموليين كما يعتبر من ابرز جيل السبعينات وحتى اليوم في حقل البحث الادبي والنقد التقييمي الحديث. صدرت له عدة دواوين شعرية مميزة يعمل - اليوم . مشرفا على الصفحات الثقافية في عدة صحف عربية. ومن شابه ابه فما ظلم . . فابوه كان من الادباء المميزين في جبل عامل - المؤلف -

جاء في كتاب : معجم قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر ما يلي : «وقد فتحت فيها (أي الزرارية) مدرسة في عهد الاحتلال، أحد معلميها الشاعر أحمد حجازي الخ» فيكون قد مارس التعليم - لاول مرة - في بلدته الزرارية (أوائل عهد الإنتداب الفرنسي) ثم في القرى العاملية التي ذكرناها.

ابن البادية الساخر :

على الاصح ابن البادية الضاحك : يتميز ابن البادية بأخلاقية رفيعة فهو في تعامله وسلوكياته مترفع عن الدنايا وسفاسف الامور. وهو حتى في سخريته لا يسف ولا يجرح ولا يميت ، بل يخدش فقط بغية التوجيه والتصويب. لذلك فهو ينحو بسخريته منحى الفكاهة والدعابة وتصوير الشواذ تصويرا كاريكاتوريا يثير الضحك أكثر مما يثير الشفقة، قال يداعب اسكافيا من ابناء بلدته :

مالي ارى الدمع في عينيك رقراقا وقد احاطت بجيد منك زناقة !

والزناقة هي ازار واق يضعه الاسكافي على صدره ويربط طرفيه حول عنقه ليقي به صدره من ضربات شفرة السكين الحادة. . . وكان هذا الاسكافي الهرم دامع العينين من أرهاق العمل والزناقة تكاد تلازمه.

المنظر اذن يثير شهية الشاعر الساخر وتنطلق ريشته لترسم في بيت واحد صورة الاسكافي وهي صورة كما ترى دعابية ضاحكة وليست ناقدة أو جارحة ويذهب البيت مثلا في البلدة وتحل الزناقة محل الاسم الحقيقي للاسكافي فلا يعرف الا بها طوال حياته، كما تميز ابن البادية الانسان بالتمرد على واقعه المرير فسعى منذ كان الى اثبات شخصيته في شبه عليائية محببة تكره الخضوع والقعود اسيرة الفقر المادي، ورغم كل ذلك الجو الكئيب الذي عاش فيه ظل ابن البادية

ضاحكا وكأنه يهزأ بهذا الواقع ساخرا من اولئك الذين يعيشون اسرى في سجنه الكبير، ولقمة سائغة بين فكيه. .

لماذا اختار احمد حجازي الاديب لقب ابن البادية؟

لهذا اللقب او الكنية الادبية اسباب نفسية هي في نظري التعبير الحقيقي عما تكنه اعماقه من حنين الى جذوره العربية واعتزاز بأرومة اجداده من العرب والمسلمين الذين انطلقوا من شبه الجزيرة العربية، من البادية، حاملين للعالم ركنين ضخمين من اركان حضارتهم : عنيت اللغة العربية والاسلام. تلك اللغة الغنية بتراثها الادبي وخاصة الشعري ومضامينها العلمية التي تسربت اليها من علوم الهند والصين وفارس واليونان فهضمتها وتألقت بها. . . وذلك الدين الحنيف الذي نشر مبادئه وقيمه الانسانية ـ عبر الفتوحات ـ وراح يعلم بها الجاهلين من سكان اوروبا انطلاقا من جامعات الاندلس وقرطاج وجامع الزيتونة والقيروان وقبرص وصقليا، وعاصمة الامبراطورية العربية بغداد. . . كل هذا وذاك حمل الشاعر والاديب والمعلم أحمد حجازي على أن يختار كنية ابن البادية ليرمز بها الى المهد الاول الذي انطلقت منه تلك اللغة وهذا الدين وهاتيك الحضارة. .
حتى إن مسرحياته التي وضعها اختار لها «اللون المحلي» البدوي ووضع على لسان شخصياتها اللهجة البدوية، جاء على لسان أحد ابطال قصصه هذه الاغنية باللهجة البدوية الصريحة :

آه يا دقاق البنا   دقو ناعم كالحنا
دقو ناعم يا قليبي   ومن ريقك يالله سقنا (١). . .

(١) ناهيك بالجو البدوي الحميم ورموزه من مثل عادة دق البن (بالهاون) والمهباج حتى ينعم كالحناء . ودع عنك الرمز الغزلي الاليف حيث تتساوى رقة الشفاه البدوية اللعساء برقة القهوة العربية والقبلة المانحة من الرحيقين . . .

وهي قاف كما ترى مفخمة بدوية الجرس والمخرج وليست قافا عادية وهكذا عاش ابن البادية، في كيانه واحاسيسه، بين القرية والصحراء وانعكست اجواؤهما على موضوعاته الشعرية. فقصائده ـ كما رأيت وكما سوف نرى ـ بدوية/ عربية/ اسلامية/ حسينية/ واخيرا ناصرية ـ صافية كصفاء سماء الصحراء المشمسة. . . قوية السبك كقوة السبك عند اوس وزهير وبدوي الجبل والجواهري واذا ما استعاد اجواء الزرارية ووداعة اهليها وملاعب صباه فيها ران على قصائده وشاح مبلل بندى فجرها القروي المقطر وهينمات نسائم الليطاني المختلطة بعبير الدفلى وزهر الليمون . . . وضمخ غزلياته برائحة مناديل صبايا قريته وتنانيرهن العالق بها فوح عطر «العطر»[1] أو فوح زهر القندول وهن عائدات من حقول الزرارية الفيحاء وبساتينها الغناء يرتلن اناشيد الحب العذري الموشحة بلوعة الشوق وألم الفراق وصور هاتيك القبل غير المتاحة واللقاء الصعب المنال ويسترجعن بها ذكريات شظف العيش في المزارع :. . .

يا غزيل راجع راجع   هالغربي ما اصعبا

الله يخون المـــزارع   نستنـــا الحبايابـــا

يا غزيل طالع طالع   صدر البنيـة دالــع

ورمانوا ما اطيابا

يا غزيل الـــو الـــو   برحل ولا بضاللو. . . الخ. . .

---

(١) العطر هو نوع من فصيلة الورد الاخضر غامض الخضرة شهي الرائحة نفاذها، يوضع على شرفات البيوت في مساكب او سطول فخارية فارغة او سوى ذلك.

بين القرية والصحراء : عاش ابن البادية الشاعر وقلما شممنا في قصائده رائحة المدينة مع أنه عاش في صور قرابة نصف قرن اعطته المدينة السمت الحديث والقيافة العصرية وحدهما. . . وظل قرويا/ بدويا/ روحا واخلاقا ولهجة وشعرا ونمط حياة. . . ولم يكن يشبهه في ذلك الا صديقه ـ لحاً ـ الاستاذ زكي بيضون ابو عباس، رحمهما الله.

قلت في رثائه كما جاء في آخر الكلمة :

أما صور الوفية التي كانت لك خير مستقر بعد طول طوافك، فهاهم وجوهها يحجون اليك، في ذكرى اسبوعك، ويسلمون عليك، ويودعون فيك الطهارة والحب والوفاء يا خير مثال للطهارة والحب والوفاء ثالوث لا يتجسد حق التجسيد إلا في الانبياء والاولياء والخالدين من كبار شعراء الانسانية ومجاهديها. . .

وها هي الزرارية التي طالما احببت وطالما سكنت تفتح لك قلبها من جديد بعد أن فتحت لها قلبك فبادلتك حبا بحب واعجابا بإعجاب. ولقد ابيت الا أن تتوسد ترابها الذي كان في يوم من الايام ملعب صباك وطفولتك ومهوى رؤاك ومستوحى شعرك وتحقيق استاذيتك في بواكيرها الاولى، يوم كنت تجمع طلابك الصغار من ازقة الزرارية لتعلمهم وتهديهم الخ. . . . (١)

---

(١) تزوج ابن البادية اربع مرات . انجب من الاولى السيدة ميري جزيني ابنتين هما : المربية المعروفة المعلمة الكادحة الناجحة عين الحياة . وسعاد زوجة نسينا السيد حسين علي مروه (توفيت حديثا) ولدا وحيدا هو المرحوم علي والد الدكتور وسيم حجاري الاستاذ المحاضر في الجامعة اللبنانية .

وفي المرة الثانية تزوج من السيدة شفيقة فريد الاخوي ولم ينجب منها . وفي المرة الثالثة =

آثاره :

ترك ابن البادية اثارا متعددة في حقول التربية والتعليم ودواوين شعرية (لم تطبع مع الأسف) ومسرحيات موضوعة مستوحاة من جو البادية جوه المحبب الذي يحوم حوله في رؤاه ويستوحي منه صوره وقصصه و من البادية ابطالها وحوادثها وعاداتها، وما يجري فيها من قنص وطرد وسباق بين فرسان على صهوات الجياد الاصيلة. . . . وغزل وحكايات واسمار ولقاء بين العشاق والمعشوقات ودق البن في الجرن وسكبه مرا ولا احلى في الفلاجين الرقيقة رقة شفاه البدويات الرعابيب. . . كما نعتهن المتنبي.

آثار ابن االبادية النثرية : نماذج من نثره وطريقة تفكيره : عندما يواجه ابن البادية شخصية عالمية، كشخصية الامام علي (ع) يقف في النظرة اليه موقفاً فكريا وعاطفيا يضعه على قدم المساواة بين كبار المحللين العرب والمسلمين كطه حسين والعقاد وعبد المقصود وجورج جرداق وسواهم.

يقول في مقدمة كتيب (لم يطبع) عن الامام علي :

« عظمة التاريخ مستمدة من تاريخ العظمة، أو الحياة الحقة مفصولة عن حقيقة، وحقيقة الحياة ليست بمظاهر العظمة او ابهة السلطان، بل هي ضمير للحياة. . . وهل هناك ما هو اعظم ممن يؤرخ العظمة بمعناها الحقيقي الذي يخضع له الواقع وتنشده الانسانية. . . قد يكون هناك تاريخ يؤرخ بهرجة تثير

=تزوج من الحاجة تفاحة . . ولم ينجب منها ـ وفي المرة الرابعة تزوج من السيدة امون قدسي وانجب منها ابنة وحيدة هي السيدة فاطمة حجازي حرم الصديق الأستاذ رضا فران (ابى حسن) وابن البادية هو حمو ابي حسن وخاله لانه شقيق والدته لطيفة حجازي.

بعض العيون وتذهل بعض العقول، وانما سرعان ما تنقشع لهن البهرجة التي ليست هي من حقيقة الحياة بشيء فتزاح الغشاوة عن العيون ويذهب الذهول الذي استولى على العقول ويظهر العدل بحقيقته متحديا ذلك التمويه الذي اعشوشب على جدران الحقيقة باثا عليه لفحات الصدق واذا به هشيم تذروه الرياح. . . لم نرد أن ندلل في هذا الكتيب على عدل علي أو فصاحة علي او زهد علي، أو ، الى آخر ما هنالك من نواحي نفسيته لان عليا (ع) اعظم من أن يدل على عظمته بزهده أو بفصاحته أو بعدله، بل هو اعظم من أن يصور في أية ناحية من نواحي عظمته التي تجلت بعمله وظهرت في حياته :

واذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

ولكن الذي اردنا من هذا الكتيب هو أن نعرض صورة الحاكم لا الشخص العظيم، ونحن في زمن احتل فيه جشع الحكام مطاوي نفوسهم، فلعل من يتغنون بديموقراطيتهم أو باشتراكيتهم أو بدكتاتوريتهم، من رجالات العالم يسيرون على ضوء نفسية الحاكم الحقيقي. فان السير على ضوء الحقيقة يجنب الانسان كثيرا من التعثر في متاهات دنياه. . . الخ. .

هذا وقد فهرس كتيبه « بأشياء خالدة» وعظيمة لان مستعملها (وهو الامام علي) هو الذي جعلها، بممارساته، خالدة وعظيمة كالشمعة، والحديده والعقد والحلوى ووقوف الامام أمام القاضي وهو الخليفة، مع خصمه اليهودي ، على قدم المساواة والمأدبة الخ وقد نعتها الكاتب كلها بالخالدة. ثم راح يؤنسنها ويجسدها فاذا بها حية تسعى وتنطق، واذا بالشمعة (العَلَوية) تصبح انسانة مزهوة بنفسها قائلة :«من مثلي. . . من؟ !.

هل من شيء مثلي؟ !.

كل شيئ اذا كان منيرا واطفىء فانه يظلم الا أنا ! !

وكل شيء اذا طوي اختفى ظله الا أنا!!

وكل شيء اذا كتم طمس ذكره... الا أنا!!

اطفئت فأضأت، وكُتمت فأذعت، وطويت فانتشرت، وها أنا ذي خالدة ما خلد الوجود!!»

ويمضي ابن البادية الباحث المفكر محللا عظمة الامام عن طريق الحوار وبث الحياة بين الاشياء والمعاني والمواقف حتى كادت مقالاته تنقلب الى مسرح تدب على خشبته معان تشخصت واشياء تأنسنت...

أما بطل مسرحياته فهو دائما وابدا: الامام علي. واشهد أن ما من قلم جرى بين اصابع مفكر أو باحث او شاعر حول عظمة عظيم بمثل ما جرى به قلم هذا الاديب/ الشاعر/ المؤمن/ المفكر/ وما دار صوفي واستدار حول قطبه او ربه كما دارت روح ابن البادية حول «بطله» المتجسد في شخص علي وبطولات علي وانسانية علي حتى ليكاد يحل فيه.. لكن بعيدا عن التأليه [١] وكذلك هو حين يتحدث عن الحسين بن علي (ع) وثورته وجهاده بالنفس في سبيل الله وتضحياته

---

(١) من وحي ما جاء في مخطوطاته التي زودتني بها كريمته السيدة فاطمة حجازي. واني لآمل من احفاده واصهاره ومقدري فكر ابن البادية وادبه ان ينكبوا على هذه المخطوطات القيمة التي خلفها اديبنا الكبير ويبوبوها وينقحوها ثم يطبعونها لتطالعها الاجيال الصاعدة فان فيها ـ حقا ـ خير زاد وخير ما جرى به مداد. ونحن هنا في هذا الكتاب لا نستطيع ان نلم بكل محتوياتها وهذا محال ـ بل حسبنا ان نقدم النزر القليل مما حوته اوراقها من فكر وشعر وادب. ان مقدري ادب ابن البادية وشاعريته كثيرون والقادرين على طبع اثاره موجودون لا سيما وان له احفادا واسباطا مميزين امثال الاستاذ حسن فران مدير التكميلية الثانية الرسمية في صور، والشاعران المبدعان الاستاذ حسين فران والدكتور هلال.

الكبرى بالنفس والولد والحواريين. فتراه ملتهب المشاعر موار الكلم : كل حرف في حسينياته ينبض بالحب والتفاني في التعبير عن مشاعر التقديس والتعظيم لما أقدم عليه الامام الحسين من فدائية تاريخية نادرة بين نوادر التاريخ. . .

قال تحت عنوان : النهضة الحسينية :

«يسألونك عن الحسين. قل الحسين ضمير العدالة الذي استجاب لاستغاثة الانسانية الصارخة في وجوه المساكين والماثلة في نظرات المتوسلين، المسحوقين تحت اقدام الطغاة الظالمين اولئك الذين لم يفهموا من الحياة الا جشع الحياة والذين هم الطغاة ابناء الطغاة. . .

وقل : إن ثورة الحسين امتداد للثورة الكبرى التي نهض بها جده (ص) تلك الثورة التي قلبت الذهنية العالمية من الجمود الى الحياة وبدلت العقلية الانسانية فجعلتها بعد التقليد مبدعة لكل جديد خلاقة لكل مسار فريد في مفهوم القيم والتقاليد والاخلاق. اذ إن التيارات الكبرى هي الطاقة التي تمد الحياة بما يرفع مستواها ويقربها من الانسانية الصادقة. ان الثورات العظمى في التاريخ هدامة وبناءة في آن : هدامة لما يعوق سير الحياة نحو الافضل وبناءة لما يسمو بها الى وضع اتم واكمل. ذلك لانه يعقبها تيارات جارفة لا تبقي ولا تذر، تحول مجرى التاريخ. . . »الخ. . . (١)

أما خطراته الوجدانية والحكمية فيسكبها في مقطوعات قصصية مليئة بالصور المكثفة والمشاهد الوجدانية والاسلوب الوصفي الرومنسي حيث يبدو كل ذلك مزيجا رائعا من خطرات الحب ولواعج القلوب الهائمة الهائجة المتماثلة مع

---

(١) مقطع مستل من مخطوطة بعنوان النهضة الحسينية تصلح ان تكون كتيبا مطبوعا ـ المؤلف ـ

هينمات الطبيعة آنا وقصف رعودها أحيانا وكأن روحا هائمة يبثها ابن البادية فإذا بالانسان والطبيعة كل واحد موار بالحياة والحركة والعشق. . . قال يصور مشهدا رومانسيا من مشاهد الطبيعة ابان غضب عناصرها يقابل كل هذا الهياج هدوء ودفء ارستقراطيان (إن صح التعبير) : داخل غرفة مترفة :

تحت عنوان : غرفة الشتاء :

«أربدت السماء، وتجهم الافق فحكى وجه مكدود امضه الالم! أو سحنة بائس لم يجد قلبا يخفق خفقة حنان عليه. . . طغت في غضونه المرارة، وغمرته الكآبة فكأنه قد مس بجنون العواصف والاعاصير وتألق البروق وعصف الرعود، وكأن الطبيعة شعرت بعتو الانسان فاخذت تلوح له بعوامل الانتقام. . .

عندئذ أمرت هند باغلاق ديباج النوافذ كي لا يبقى من سبيل لتسرب الهواء الى داخل الغرفة. ثم أمرت بتعليق الطنافس الجدارية. . . فباتت الغرفة مملؤة راحة حتى كأنها ضمير لم يثقله شيء! بعد ذا صرفت وصائفها لاعمالهن وجلست امام موقد مضطرم تتلهى بمنظر البرق من وراء زجاج النوافذ وهو يكاد يلهب الافق بتتابعه فتمنت لو أن هذه الوحدة التي استمرأتها لم يكن يزعجها قصف الرعود. . .

جلست أمام ذلك الموقد وكان لهبه كرموز تتراءى أمامها زرقة اللهب تمثل لها صفاء تلك السماء الصافية. . .

في ذلك الحقل الجميل الذي زارته في عامها الف مرة. . . وتلوى اللهب وقد هيمنت بعض نسمات الموقد بمثل طيات ذلك المعطف فوق ذلك الصخر الذي جلست فوقه تتساقى مع ذياك الحبيب رحيق احاديث ولا اشهى تتخللها قهقهات ملؤها الغبطة. . . واحمرار الموقد اعاد لها ذكرى ذلك الوجه تغمره

حمرة الشباب ويترقرق به ماء الصبا الاغيد. . ويعكس حمرة شفتيها كهلالين صبغتهما حمرة الشفق. . .

ويمضي ابن البادية الناثر في شعره والشاعر في نثره يمضي في وصفه الوجداني لتلك العاشقة الولهى هند وذكرياتها لذلك الحبيب الذي « يلذ لها الآن أن تعود اليه ولو بالخيال. وكم ودت لو اتيح لها أن تقضي بعض لباناته. . . »

ثم ينتقل الى وصف الجو الارستقراطي الذي تعيش فيه هند، ووالداها المتمسكان بتقاليد موروثة بالية واللذان يجازفان بكل شيئ ولا يجازفان بعادة بسيطة من عادات ارستقراطيتهما وكانت هند لا تقل عنهما تمسكا بها. . الخ. . .

ابن البادية خطيبا : على امتداد النصف الاول من هذا القرن ويزيد لم يكن يقام منبر حسيني أو اجتماعي ثم ناصري الا ويتعملق عليه ابن البادية مجلجلا بصوته ونبرته الايمانية التي خفت حدتها في اخريات ايامه ولم يخف نبض الايمان فيها.

وهناك عشرات بل مئات الخطب التي القاها من على تلك المنابر العاملية في صور ومنطقتها وفي الزرارية مسقط رأسه ومستقر جسده. ولو اردنا تعدادها ولو بالعناوين لضاق المجال بها هنا. كما أن لابن البادية حكما منثورة واخرى في تضاعيف قصائده فيها من الجدة والابتكار ما فيها. . . حتى المتشابهة منها المقتبس من الامام علي والائمة والشريف الرضي والمتنبي. . . حتى هذه يسكبها في قالبه هو واسلوبه الخاص فتبدو وكأنها من ابداعه. . . وفوق هذا لابن البادية ابحاث في جغرافية الجزيرة العربية ونشوء الكون وبدء التأريخ وتكون القارات والشعوب وبعض الكتب المدرسية المطبوعة في قواعد اللغة العربية والتي اعتمدت في المدارس الرسمية اللبنانية أيام كان ابن البادية مدرسا فيها : مما يشهد له بطول باعه

في كل مجالات البحث والتنقيب وفقه اللغة، ناهيك بشاعريته الفياضة التي سنأخذ منها بعض نفحاتها.

كما عثرت بين اوراقه النثرية على دراسة يحلل فيها عاطفة الحب تحليلا علميا فيزيولوجيا ويقارن بينها وبين عناصر الطبيعة التي تتحد وتتآلف بفعل الانجذاب أو الجاذبية، وتآلف العناصر في عملية اندماج أو انصهار كامل وهو ما يسميه افلاطون «في المائدة» «بالعشق» أو اتحاد العناصر الذي يتجلى أكثر ما يتجلى في الانسان وميله الطبيعي نحو الآخر. . . نحو الجنس الآخر (أي المرأة).

يقول ابن البادية :« يعسر كثيرا تعليل الحب تعليلا قريبا من الحقيقة بحيث يصور صورة تامة. أجل يعسر حتى على اعظم الفلاسفة الذين عنوا كثيرا بدرس النفس البشرية خصوصا من ناحية العاطفة بها. ولعل من عاناه كثيرا واستهدف مرارا للحظاته الفتاكة مسوقا بالبسمات الفاتنة. . . لعله أكثر الناس لصوقا بأسراره واقدرهم على تعليله. . . لعله انفذ الى تلك الاسرار وادرى بسر ثورة النفس، وابعد مدى في حل رموزه والغازه. . . إن محور النظام الطبيعي هو الجاذبية وهي ميزان الاعتدال الكوني، ولا يبعد ان يكون «الحب» نوعا من الجاذبية وجد في النفوس لحفظ النوع الانساني. . . أوليس هو عامل قوي لا يقاوم. . . ولو جاء العقل بكل فلسفة لديه. . . الخ. . .

ويمضي ابن البادية في دراسته هذه واصفا مشاعر المحبين المتجانسين وحركاتهم وتوتراتهم. . ولعله وهو الشاعر المحب اصلا قد مر بتجربة الحب وفهم اسراره فتحدث عنها حديث خبير مجرب لا يضاهيه في ذلك سوى صاحب مصارع العشاق وابن حزم الاندلسي في كتابه الشهير «طوق الحمامة».

أهل الثراء : ولابن البادية آراء في العمل والعمال وكيف تتكون الثروات.

يقول في دراسة موجزة : الثروة ملك مشاع بين عموم البشر. لكن اسس الاجتماع قضت مع الاستمرار بأحقية هذا دون ذاك. لان بقاء الثروة مشاعا بين المجموع يوجب الكسل. . . ثم وضعت نظرية «لا يبقى الا الانسب» أو « البقاء للاصلح» مستمدة من الانتخاب الطبيعي فوقفت ايضا حاجزا دون انفاذ نظرية : الثروة ملك المجموع. . . قد يكون هناك رجال عبقريون يصلون بجدهم وحذقهم الى احتكار قسم من الثروة. . . ولكن الفضل يرجع لاستثمار الثروة الطبيعية بواسطة الايدي العاملة. . . ولولا هذه لم يكن من ثروة. . . لكننا نجد هذه الايدي تستثمر جهودها. ومنعاً لذلك وضعت المبادىء الاشتراكية متطرفة أو معتدلة. . . فكأن نظر منقذ البشرية الاعظم النبي العربي (ص) قد اخترق حجب المستقبل ورأى أن النظم الاشتراكية مكتسبة. . . فاحتاط للامر بفرض قسم معلوم في مال ذوي الثراء. »الخ. . .

قصائده : نماذج منها :

القصائد الحسينية :

يقول : نظمت هذه القصيدة في ذكرى مولد الحسين(ع) سنة ١٣٨٠ هـ. ١٩٦٠م.

بأفق الهدى أفق النبي محمد	تألق نور دونه نور فرقد
فرحت ترى في مهبط الوحي فرحة	كفرحة عطشى بعد يأس بمورد
وقد ظللته بهجة وهناءة	كما ظللت شمس الضحى روض فدفد
وفي بيت سيف الله حيدرة الذي	به شد في درب العلا ازر احمد
الى أهل بيت أذهب الرجس عنهم	وقد طهروا من لدن رب محمد
تعالت تسابيح بحمد وكبّرت	ملائكة الرحمن شكراً لمولد

الى مهبط الوحي الذي فيه اشرقت شموس ومن آياته الناس تهتدي

فأوسعه شما وضما وعانقت لدى ضمه عيناه عيني موحد

بلى هو مني في هداه وانني لعمري منه رغم شأن مفند

حسين واعظم بالحسين فانه من العز في اسمى مقام ومقعد

يظل بانف شامخ عند سدرة هي المنتهى في دار مجد وسؤدد

فلا حجب الاضغان وهي كثيفة تعلقها احقاد شانين حسد

بحاجبة من شعلة الحق ومضة قد اخترقت أمسا. . وتمتد في غد

فأمسى كجسم ليس فيه اختلاجة بترب وماذا في حياة الموسد

وانت حياة خصبة بمآثر وانت غد في عمر مجد مؤبد

وانت نشيد من معانيه وثبة غدت لحن آباد ورجع مغرد

على شفتيك الحق ابلج كاسفا قوي قوى الايمان في نفس احمد

وبين جناحيك الاباء مجسد فأعظم واكرم بالاباء المجسد

تزول السماوات العلى ونداؤكم يردد : لا اعطي المقالة عن يد

الخ. . . الخ. . .

ومن قصيدة كربلائية قالها في عاشوراء. وكل يوم عند ابن البادية كان عاشوراء

حي مثوى الابا ولذ بظلاله فجلال التيجان دون جلاله

فهو في يوم كربلا يشيع ولكن فوق متن الافلاك منزل آله

ذاك مثوى لديه قد خشع الدهر ولحن الاحقاب رجع نضاله

ويسمع الآباء منه دوي هو صوت الايمان من ابطاله

يوم ثارت تذود عن مبدأ الحق وقد اشفى على شفا اضمحلاله

فوق طود ينصب فوق صفوف كانحدار الينبوع من شلاله

وثبة الحق وثبة مـــا حكتهـــا ... وثبة الليث ذائداً عـــن شبالـــه

بدماء الاحرار في كـل عهـــد ... يثبت الحق خالـــد استبسالـــه

يا دماء الاحرار كم شدت عرشا ... في متون الاجيال روح ظلالـــه

انت نور، بل انت شعلة حق ... ما طواك الزمان فـــي أجيالـــه

قطرة منك، يا دماء، تـــروي ... صادئ الحق في فيافي انخذالـه

لهف نفسي على سناء وجـــوه ... كالضياء اللألأ فـــي آصالـــه

لهف قلبي على جمال شباب ... كالنبات الريان فـــي ادغالـــه

كيف يخشى الحمام طالب حق ... كيف يخشاه ! وهو سر كماله !!

وتحت عنوان : قوة الحق قال :

قوة الحق دونها كـــل قـــوة ... كم ابادت من الضلال عتـــوه

كم تحامى وقوعها صولجـــان ... يرهب الدهر منه يومـا دنـــوه

هي رمز يمثـــل اللـــه فيـــه ... هي رمز الاباء، رمز الفتـــوة

قد تجلت بحزم سيلـــك طـــه ... يوم قد خاف من ضلال طمـوه

أي نفس كنفسه ذات قـــدس ... قد تغذت لبان عز النبـــــوه

أي نفس كنفسه لـــم يذبهـــا ... وهي تحمي الايمان عطف الابوه

أي عزم كعزمه لـــم يرعـــه ... مصرع الصيد ماثلا في الاخوه

أي قلـــب كقلبـــه وهـــو دام ... لم يضعضع ولم يصانع حنـــوه

لم يضعضع قواه مصرع صحب ... لا ولا هاله صـــراع البنـــوة

* * *

مناجاة : يتطهر القلب المعنّى حين يعبر البرزخ من دنيا الناس المليئة بالمظالم والشرور الى سدرة المنتهى حيث عالم الالوهة المليء بالانوار القدسية مشاعل

تحملها ملائكة العرش وتدور بها حول الكرسي الاقدس تسبح بحمد ربها بكرة واصيلا. . . فكيف اذا كان هذا القلب قلب شاعر كقلب ابن البادية الذي ما إن خفق اول خفقة مستقبلا الحياة حتى داهمته الخطوب من كل جانب ولم يتخط بعد عتبة العاشرة من عمره واستمر يكافحها وينافحها عاريا من كل سلاح الاسلاح الايمان والثقة بالله وبالنفس وبرموز العظمة يوم اطل على عالم الناس ومصارع العظماء من اعلام امته كالنبي الاعظم والامام علي والحسن والحسين فاكتوى برهبة مصائرهم واذهلته مصارعهم وظل طوال حياته مشدودا بين وترين :

وتر الحال الذي هو فيه من فقر وتشرد في متاهات الوظيفة وطلب العيش الكريم ووتر صراع الاضداد التي يزخر بها تاريخ بني قومه من عرب ومسلمين، وتر يضغط على شاعريته ونفسيته فيفجرهما بالآلام والآهات والكآبة والحزن الممض. . . وحين كانت تلوح في افق امته بارقة أمل يروح يهتف لها من اعماقه ويتغنى بها من غائص بحار شاعريته كبارقة الامل العربي المطل من عيني عبد الناصر. . . ثم يذوى الامل ويخبو الرجاء، ويذوي معه ابن البادية. . ولم يبق له قبيل الرحيل سوى الملاذ الاول والاخير : الله. يناجيه ويشكو اليه ويستغفره طالباً الرحمة والعفو والغفران في هذه الابتهالات الخاشعة :

الهي لا تخيب لـي رجـاء	فما لي موئـل الا علاكـا
تمتع في رضا الرحمن قلبي	ففي نيل الرضا منه مناكـا
لوقفة ساعـة والليـل داج	لديك حياة من يرجو نداكا
وارسال الدموع بلا نشيـج	وسيلة لائذ يرجو عطاكـا
الهي من سواك لنـا مـلاذ	بيوم لا يفيد بـه سواكـا
بيوم فيه يشرب من حميـم	وتلتهم السعير فتى قلاكـا

* * *

المصير الرائع المريع

ويأتي نداء من وراء الغيب : أن اقدم الينا يا ابن البادية البكر والصحراء العربية العذراء التي اطلعت محمدا وعليا والحسن والحسين والحواريين من خلفاء محمد المنتجبين اقدم الى فردوس ربك فقد طهرك الألم وصفاك الايمان في محاريب الدين وبلورتك الشاعرية المؤمنة.. حسبك رضا من الله انك قلت في محمد وآل محمد عشرات المدائح المخلصة، حسبك أن لك في الحسين وحده اكثر من خمسين قصيدة، وفي علي مثلها وفي الزهراء وقفات خشوع وتقديس....

إن مثلك يا أبا علي من يشفع للخطاة مثلنا عند ربه ولا يتشفع!! زادك يشفع لك وآل النبي في انتظارك...

صهرتك الآلام فتطهرت

فقدت وحيدك وتصبرت

برحت بجسمك الجراحات فتعاليت على الجراحات

وغادرت ناديك نادي الامام شرف الدين فتوجعت

لم تستطع نشر آثارك في حياتك فحمدلت وحوقلت

ونأيت بها وبنفسك عن ذل المسألة وغبن دور النشر ـ المهزلة أو قل المقصلة! باستثناء القليل القليل منها ... وبقيت عزيزا كريما ابيا...

أما الدولة اللبنانية فلم تكرمك في حياتك ولا في مماتك مع انك خدمتها في المدارس الرسمية والمحاكم المدنية سبعين عاما ونيف! وحسبها خزياً وعارا أنها لم تكرمك.. وحسبك رفعة وخلودا أن الاجيال هي التي ستكرمك حين تقرأ

آثارك وتسيير سيرتك. طبت نفسا وسموت ايمانا وفكرا وشاعرية... وانك لمن الخالدين مع الشهداء والصديقين. وحسن اولئك رفيقا.

عروبته : قلنا في فصل سابق إن العاملي الصميم عربي صميم... وسقنا الادلة العملية والاحداث الواقعية على ذلك مرفقة بالاسماء والمواقف فكيف بالشعراء العامليين امثال ابن البادية الذين تميزوا بالروح الوطنية والقومية الاصيلة والنظرة الصافية الواضحة للتاريخ والجغرافيا... الى جانب صفاء عقيدتهم الدينية الثابتة... فكم استصرخ ابن البادية امته العربية في وقفاته المنبرية وصرخاته الشعرية مقارنا بين ماضيها وحاضرها. كان ذلك منه قبل عصر عبد الناصر... وحين اطل هذا الزعيم العربي المخلص في عروبته الجرىء في نبرته بايعه ابن البادية وآمن بنضاله في سبيل وحدة العرب من الخليج الى المحيط... ايمان شاعر عاملي لا يرى في جمال الا الجمال بصرف النظر عن كل شيء آخر... (١)

وهذه احدى صرخاته الاستنهاضية يطلقها ملء حنجرته وكأنها صادرة من اعماق البادية تتشظى من على اسلات لسان شاعر فارس من فرسان العرب المغاوير ذات صليل كصليل السيوف اليعربية أيام الفتوح :

(١) اما قصائده الناصرية - وما اكثرها - فيبدو ان يدا غير امينة قد امتدت اليها بعد ان استعارتها ثم لم تعدها . وهذه مخطوطاته كلها من شعر ونثر التي زودتنا بها كريمته السيدة فاطمة حجازي (ام حسن) تخلو تماما منها . . وحين أعدت المخطوطات شكوت الى زوجها الصديق العزيز (ابي حسن) هذا الامر فقال لي : ان خالنا ابن البادية قد نظم في عبد الناصر ودعوته ديوانا برأسه . ولكن فقد . . ولم يزد . .

الموت تحت ظلال القضب والاسـل هو الحياة فلا ترهب مـن الاجـل

وعيشة المرء في ذل وفي ضعـة موت، وان عاش ضافي البرد والحلل

اسد الاعاريب جوا كالعواصف في وجه الالى عرفوا بالمكر والدجـل

وحكموا البيض في اوداج صيدهمو فما سوى البيض يرجى، بعد، من عمل

وليس اولى بتحقيق العدالة مـن عزم يمزق ما حاكوه مـن خطـل

وليس يروي ضمير العدل من طمع سوى النجيع، ولا يشفيه من علـل

اين الصوارم تهوي كلما برقـت يهمي النجيع كفيض العارض الهطل

فاطلقوا ضمرا ملت مرابطهـا كيما تدوس ذرى الفجـار مـن دول

من كل ادهم تحكي الصبح غرتـه وكل اشقر يحكي الشمس في الاصل

وضامر راح يعلو فوقه بطـل كأنه ضيغم يعلـو ذرى جبـل

الى أن يقول :

نحن المساعير لم نهزم بمعركـة ولم نكن غير اسياد. . . ولـم نـزل

تلكم صوالجة الاملاك شاهـدة أنا المذاويد يوم الحـادث الجلـل!

فدون عزمتنا اضعاف طاقتكـم ودون وثبتنا الاعصار، إن تسـل!

ونحن نصرخ مع ابن البادية بلغة العصر :

وفجروا حُمما ملت مدافعهـا كي ما تدك ذرى صهيون في الجبل

قولوا لساسة عـرب في تمهلهـم ان الصواريخ لا تمشي علـى مهـل

غزلياته :

مثلما لم نعثر على ناصرياته ولا على مسرحياته كذلك لم نعثر على غزلياته. مع أن شاعرنا كان كتلة حية نابضة بالمحبة والحب. وقد مر بتجارب عشق وغرام كثيرة في مطلع شبابه اذ كان مقبولا عند حرائر الفتيات (وقد تزوج بأربع منهن) فيما بعد. فلا يعقل الا يكون له فيهن وفي غيرهن قصائد غزل فضلا عن أن ابن البادية كان وسيم الطلعة ذا غرة تنوس على جبينه كما كان حلو الحديث يحسن التحدث الى الفتيات العربيات الرعابيب. لعل هذه القصائد الغزلية قد ضاعت مع قصائده الناصرية أو ضيعت. واني لآمل أن أعثر عليها أو على بعضها فأثبتها في الطبعات القادمة لهذا الكتاب باذن الله.

هؤلاء هم روادنا في تحصيل العلم وكسب المعرفة عن طريق الجهاد والمجاهدة وبلا مدارس!

واذا كنا ـ نحن آباء اليوم وابناء الامس ـ قد طلبنا العلم ولو في. . . الصين، فإن آباءنا كانوا يطلبونه فلا يجدونه أو يمنعونه. . .

أيها الاحبة : ابناء اليوم واجيال الغد : ها هو ـ العلم ـ يأتيكم في عقر داركم لتنهلوا منه قاعدين او طائرين على جناح السرعة الى شتى انحاء الشرق والغرب. فحرام الا تنهلوا منه حتى الثمالة. . .

ملحوظة : ولكن اي علم؟ هل هو العلم المدني الحديث فقط الذي ندعو الى ان تنهلوا منه حتى الثمالة ؟ ام هو العلم الديني ايضاً . . لقد كانت الزرارية كغيرها من قرى وبلدات جبل عامل تعج بالعلماء على اختلاف درجاتهم تضخهم الحوزات الدينيه في جزين وجباع وشقراء وسواها، كما تضخهم

حوزات النجف الاشرف في العراق وقم في ايران، يأتون إلينا هداة ومرشدين واساتذة مجتهدين في الفقه والاصول والحديث والتفسير . .

انا لا اقول ان طلاب العلم من ابنائنا يجب ان يتحولوا عن باريس ولندن وروسيا واميركا وييمموا شطر النجف . . بل علينا ألا نهمل الواجب الديني في حياتنا او تخصصنا . . علينا ان نقيم توازننا في الكفتين كي لا نخسرهما معا ، حين نجد المتخرجين من معاهد اوروبا واميركا وروسيا يعودون وقد سمم افكارهم الغرب الاستعماري والشرق الايديولوجي بما يقتل فيهم مثلهم وقيمهم الروحية والوطنيه والقوميه .

وامامي مثل حي وخالد للانسان العربي العاملي المسلم هو مثل المخترع العاملي وفتى العلم الكهربائي حسن كامل الصباح الذي ذهب الى اميركا مشبعاً بالروح الوطنيه والتعاليم الدينيه الاصيلة . فكان محترفه - في شركه جنرال الكتريك الى جانب مصلاه . .

ان الزرارية قادرة كغيرها من البلدات العامليه ان تنجب في كل عصر العلماء الدينيين الى جانب العلماء المدنيين. لم لا؟ ! وهي قد فعلت ذلك في الامس القريب يوم انجبت الكثيرين منهم؟ . . (١)

---

(١) اتينا على ذكر الافذاذ منهم في فصول هذا الكتاب .



وجوه بارزة في الزرارية

شيبا وشبانا، مغتربين ومقيمين

- عبد اللطيف فخري : عرفت المرحوم عبد اللطيف فخري ابا صخر عن كثب بعد عودته النهائية من مغتربه في ابيدجان، وعاشرته في صيدا حيث كان يقيم في الطابق الأخير (الروف) من بنايته بناية الشهرزاد. كنت ازوره كل يوم تقريبا، يوم كنت مهجرا من صور بعيد الاجتياح الاسرائيلي الاول للبنان سنة ١٩٧٨ بمعية عمنا المرحوم السيد حسن جواد شرف الدين فنقضى معه سويعات ممتعة، فمن لعبة الطاولة (الزهر) التي كان يجيدها، الى مطارحات ادبية وتاريخية وسياسية. فقد أكسبته هجرته واسفاره ومطالعاته ثقافة عامة ملحوظة.

- أبو صخر تاجرا : وأبو صخر في ميدان التجارة على أنواعها، تاجر موهوب ذو حس مرهف، يدرك بحدسه الصافي تقلبات أسعار الاسهم العالمية، ونذير أو بشير هبوطها وارتفاعها . كان وهو في دارته في صيدا، يعقد على الهاتف الصفقات، وهو على دراية تامة بأنها صفقات رابحة. . .

كان رحمه الله حاضر النكتة، حاد النقد، صافي البديهة، متواضعا. حتى لهجته العاملية القروية لم يتخل عنها. وحين يخطب، وقلما يفعل ذلك، كان يلهج بها.

يحتفظ في مكتبته المتواضعة (قرب البيانو) بكل ما يتعلق بلبنان عامة وجبل عامل خاصة بكثير من المراجع، وقد اهداني بعضها. عرف وهو في افريقيا باهتماماته بالادب والادباء والشعراء بدليل أن أكثر اصدقائه كانوا من هؤلاء. كما كان مواظبا على الاشتراك بمجلة العرفان حتى آخر أيامه، ومن كبار المتبرعين لها. بل لقد كان من جباة التبرعات لها، ومن السباقين المتبرعين للكلية العاملية في بيروت والكلية الجعفرية في صور.

وفي الزرارية، مسقط رأسه، قدم ارضا لبناء الثانوية الرسمية عليها، مشتركا في ذلك مع المرحوم ابراهيم طالب، أما خدماته في داكار وابيدجان فلا تعد ولا تحصى، خاصة للوافدين الجدد من أبناء بلدته. أما هباته لبني امه في الزرارية. والمحتاجين من الاقرباء. فقد كانت سرية لا يعلم بها الا الله وبنو أمه. . . كما تبرع قبيل وفاته بقطعة ارض له على طريق بلدة انصار لكل فلسطيني فقير، لا بيت له (٥٠٠ م. م لكل عائلة) شرط أن يبني عليها بيتا، لا أن يتاجر بها. . منحته الدولة اللبنانية وسام الاستحقاق لتبرعه بقطعة أرض في صيدا هبة منه لبلدية صيدا لاقامة مشروع ذي نفع عام. فأبو صخر لم يكن يتأخر عن تقديم خدماته ومبراته لكل أنسان وكل جمعية ولكل مشروع خيري. إذ كان هاجسه، وهو الذي نشأ فقيرا أن يساعد كل فقير، وأن يبرهن للأغنياء بالوراثة. أن المال

ليس للاكتناز، ولا للتفاخر، ولا للتظاهر ولا للإسراف والتبذير، بل لما ينفع الناس ويمكث في الارض. . . .

رحمه الله قدر حسناته. (١)

الحاج علي طعان (أبو حسين)

من أعيان الزرارية الكبار المعروفين. مارس التجارة في مدينة صور مدة طويلة، ثم اغترب ونجح، وعاد ليسهم في ازدهار بلدته الزرارية. وكان سباقا في ذلك حين قام بحفر بئر ارتوازية في ساحة الشهداء لتكون بديلا عن مشروع نبع الطاسة الذي كان يغذي البلدة بمياه الشفة، والمتوقفة انابيبه عن الضخ منذ زمن، كما استثمر امواله في صيدا بتشييد البنايات.

وها هو نجله الأكبر حسين يتابع تقديم الخدمات لبلدته وللقرى المجاورة بالمساهمة في انشاء المساجد والحسينيات والمستوصفات.

أبو حسين لا يزال ـ وهو في الثمانين من عمره في همة الشباب، متوثبا دائما لمزيد من العطاء على مستوى الخدمات العامة والخاصة.

ـ **السيد نجيب يحي شرف الدين (أبو رضا) شقيقنا الاكبر** : مغترب معروف من الرعيل الاغترابي الثاني في داكار (السنغال) ثم في ابيدجان (شاطىء العاج) عاد الى لبنان ١٩٦٠ مستوطنا مدينة صيدا مستثمرا امواله في شراء وانشاء

---

(١) انجب ابو صخر بنات وبنينا . ابرزهم السيدة فاطمة عقيلة السيد فؤاد درويش . تحمل السيدة فاطمة اجازة في الصيدلة من الجامعة الاميركية في بيروت . وقد مارست مهنتها قبل الزواج . كما ان لابي صخرة اخوة لابيه اشهرهم رجل الاعمال سامي فخري

البساتين بمسقط رأسه الزرارية . له كأي عاملي مع الارض حكاية حب وولاء وفناء فيها يكاد يكون حلوليا. . . وإحياء لها يوشك أن يكون اعجازياً. . . من مواليد الزرارية عام ١٩١٨.

رياض وعلي نجيب شرف الدين : يأتيان بعد شقيقهما الاكبر رضا. شابان مثقفان، رياض يحمل الاجازة في الادب الفرنسي. وعلي يحمل اجازتين في الحقوق وادارة الاعمال : يقوم اليوم مقام والده في ادارة اعماله ورعاية شؤون بساتينه. (١)

ـ السيد شرف الدين يحيى شرف الدين (أبو علي) شقيقنا الاصغر : كل صفات ابيه فيه : إيمان بالله وثقة بالانسان العربي ذي النهج الوحدوي الاشتراكي لا الطائفي أو المذهبي أو الطبقي. مثقف ثقافة اسلامية لابأس بها، يرتل القرآن عقب كل صلاة، ويحفظ معظم سوره وآياته. مغترب عائد، مكافح في سبيل تأمين الكرامة والعيش الرغيد لابنائه التسعة. ورغم اقامته في صيدا (منطقة عبرا)فإن زياراته لمسقط رأسه الزرارية لا تنقطع، فله فيها أهل واصدقاء كثيرون، وذكريات. (٢)

---

(١) أبو رضا متزوج من السيدة فاطمة محمود فخري وله منها خمسة اولادهم : رضا ورياض وعلي ودينا المتزوجة من ابن عمها المغترب السيد تيسير شرف الدين ، وسناء المتزوجة من المهندس غسان احمد الصلح

(٢) ابو علي متزوج من السيدة زينب السيد علي سليمان هاشم وله منها تسعة اولاد : ثلاث بنات وستة بنين هم علي والمرحوم جمال ورباب وامال وسلوى الاولى تحمل الليسانس في علم الاجتماع من فرنسا تعلم اللغة الفرنسية هي وشقيقتها سلوى في ثانوية الرئيس الحريري في صيدا. كما تشرف على طريقة تدريس هذه اللغة فيها . اما بقية البنين فهم : صلاح وعماد وسامي ويحي .

ـ السيد نعمة الله يحيى شرف الدين (أبو منصور) شقيقنا الاصغر : شاب وطني مجاهد، مقيما ومغتربا، ابلى بلاء حسنا في ثورة ١٩٥٨ في لبنان ظنا منه انها ثورة حقا. . فإذا هي لعبة الكبار لا أكثر. أبو منصور لا يزال الى الآن يجاهد في افريقيا من أجل تأمين العيش اللائق به وبابنائه الثمانية. ابرز صفاته الثقة بالنفس، والصدق في العمل والتعامل ، وحب التقحم والمغامرة، والاستمرارية في الكفاح رغم المصاعب والعراقيل. وهو قبل كل شيء محب لأهله ووطنه وبلدته واصدقائه فيها حبا عميقا صافيا.[1] يؤثرني وأؤثره بمحبة خاصة ولعل ذلك عائد الى كوننا عشنا معا وشاركنا في احداث ١٩٥٨ في لبنان .

الحاج نزيه الاسعد (أبو شبيب)

نجل شبيب باشا الاسعد عضو في الجمعية الانمائية، طائر عاد الى سربه الزرارية، بعد أن غرد طويلا خارجه. . بنى دارة جميلة وسكن فيها قرب اطلال ديار اهله (آل الاسعد) ممن حكموا اقليم الشومر وتبنين والطيبة وصور عشرات السنين أيام العثمانيين. محب لمسقط رأسه الزرارية ولاهلها من جميع العائلات. تغلب عليه الروح الشعبية بالرغم من أنه بك وابن باشا. . ولعل تمرسه بالعمل الحزبي العلماني ـ قديما ـ قد اكسبه هذه الروح.

ـ الحاج خليل ابراهيم شرارة (ابوتحسين) مختار البلدة منذ سنين طويلة ومنظم احتفالاتها في الافراح والاتراح ويقوم بمهام كثيرة الى جانب شؤون وشجون المختارية، حتى يبدو وكأنه أكثر من مختار. يسارع دائما للخدمة العامة في تنفيذ مشاريع اصلاحية في البلدة. المختارية في نظره خدمة لا وسيلة ارتزاق فحسب. . . وحين كان يغيب قارىء التعزية الاصيل ينهض أبو تحسين خير

---

(١) ابو منصور متزوج من السيدة ملك ناز السلمان وله منها ثمانية اولاد .

بديل. . . يعتبر أبو تحسين خبيرا زراعيا واقتصاديا ومعلوماتيا : يدلي بمعلومات واثقة عن بلدته لا يعرفها حتى الشيوخ.

قيافته : لا يزال أبو تحسين محافظا على قيافة الجيل القديم وهي اعتمار الكوفية والعقال بالرغم من أنه يرتدي البزة (الطقم الفرنجي المعروف. .) ولعل ذلك عائد الى أنه لم يغترب.

ـ رضا محمد علي هادي مروة (أبو وليد) : شاب عقائدي ملتزم، علماني الاتجاه والتفكير. من المزارعين المرموقين في الزرارية، وهو اليوم يقوم مقام امين سر االبلدية المنحلة فيها، والتي يتولى رئاستها بالوكالة محافظ الجنوب الاستاذ حليم فياض، راعيا شؤون البلدية في الزرارية، يساعده أبو الوليد الذي يسعى الى تأمين قرض كاف لاتمام أو تنفيذ مشاريع ملحة في البلدة بالتعاون مع الجمعية الانمائية فيها . أبو وليد لا تنقصه الكفاءة ولا النشاط والاخلاص في خدمة بلدته. لم يغترب.

ـ علي مروة (أبو رائف) وجيه ابن وجيه وصديق وفي دائم لي وللعائلة، عم الدكتورة هيام مروه عميدة كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية ـ صيدا [١] لم يغترب ولكن له انجال مغتربون ناجحون،

ـ الدكتور راشد فخري (أبو بكر) استاذ محاضر في الجامعة الاميركية ببيروت شقيق الدكتور ماجد رئيس الدائرة الفلسفية في الجامعة نفسها[٢] وأخ المرحوم علي فايز فخري من أبيه.

---

(١) انظر نبذة عنها في فصل الاعلام من هذا الكتاب

(٢) انظر نبذة مطولة عنه في فصل الاعلام من هذا الكتاب

ـ حسين مروة (أبو علي) من التجار المرموقين في الزرارية صديق لنا ونسيب. اغتنى بجهده وكفاحه الدؤوبين. مقيم لم يغترب متزوج من السيدة سعاد كريمة الاديب والشاعر المعروف ابن البادية، الشيخ أحمد حجازي[1]

يبدو أن نجلهما الأكبر الشاعر الاستاذ علي قد اكتسب الشاعرية من جده لأمه عن طريق الوراثة، ثم بالمراس والثقافة. يتعاطى الاستاذ علي حاليا التجارة دون أن يهمل التزود بكل جديد في مجال الادب والشعر.

ـ السيد محمد حسن جواد شرف الدين (ابو حسن) : هو النجل الأكبر للمرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين المغترب القديم والشاعر والمؤرخ النسابة المعروف.

درس محمد الطب في جامعة مدريد، ثم تابع تخصصه في جامعة هافانا بكوبا اضطر بعد وفاة والده سنة ١٩٨٣ للعودة الى الزرارية ليكون الى جانب والدته(السيدة مقبولة عرب) التي توفيت بعد زوجها بثلاث سنوات. وبقي الدكتور محمد في الزرارية يرعى شؤون الاسرة ويساهم في انعاش بلدته ما امكنته المساهمة، وليكون مستشارا طبياً لجميع مستشيريه. . . وليربط ـ كما قال ـ الفروع بالاصول وشجرة العائلة بجذورها. ودارته التي بناها المرحوم والده ولم يمكث فيها سوى سنة واحدة، تعج كل يوم بالزائرين والضيوف من اطباء ومهندسين وعلماء واصدقاء واقارب يسعى بينهم محمد بالترحاب والرعاية والتكريم، تماما كماكان والده يفعل. . .

---

(١) توفيت السيدة سعاد في العام ١٩٩١ رحمها الله وهي والدة الاستاذ علي وهو شاب وطني وشاعر ، والدكتور بشير

قامة فارعة: أخذ من والده شكله وعقله وحبه للاهل ولابناء البلدة، واخذ من والدته طول القامة وطيبة القلب ونقاء السريرة. . .

وبعد، فإن ابن عمنا محمد شاب مثقف، لطيف المعشر، لين العريكة، حلو الحديث، نافذ الرأي محب، يمكن لبلدته أن تفيد منه الكثير.

أطباء الزرارية:

الدكتور الطبيب علي محمود هاشم: لاول مرة تشهد الزرارية اطباء من ابنائها يسكنون فيها، إذ نادرا ما شهدت قرى وبلدات جبل عامل مثل هذه الظاهرة في الماضي القريب. فقد كان أي طبيب أو أي مهندس أو أي صيدلي أو حتى أي مجاز في الادب أو التاريخ و الفلسفة، ما إن يحصل على دبلومه الجامعي حتى يلتحق باحد المعاهد في العاصمة ليمارس مهنته هناك، خاصة الاطباء الذين يسارعون الى الاثراء، ويستنكفون عن السكن ـ مجرد السكن ـ في القرية التي انجبتهم. وأنا لا استثني نفسي منهم. . .

قد يكون ذلك مشروعا ومبررا في الماضي نظرا لقلة عدد السكان في القرية وشح مواردها وانقطاعها عن المدينة وانعدام المعاهد والموسسات فيها. . أما اليوم فقد انقلبت الآية في الزرارية، ففيها اطباء مميزون محبون لبلدتهم وخدمتها. . . نذكر منهم: الاطباء الشبان علي محمد هاشم وحسن حمود مروه وأسامة يوسف هاشم والدكتور حسان علي مروه وغسان علي مروه وبشير حسن مروه وبشير أحمد مروه الذين مارسوا مهنة الطب في بلدتهم وسكنوا فيها/ وفخري محمود فخري وغيرهم كثير. وهكذا نال هؤلاء الاطباء رضى الله والبلدة والمرضى المحتاجين. على أن هذا ما كان ليكون الا بعد أن تطورت الزرارية وازدهرت هي وامثالها من قرى وبلدات هذا الجبل العاملي الاشم. فأصبح بامكان الطبيب أو أي

اختصاصي أن يسكن حتى في القرى النائية والصغيرة ثم يأتي باكرا الى عيادته أو مكتبه في المدينة. هذا إذا لم ينقلهما معه الى القرية، فيكون قد تنشق الهواء العليل في قريته وجاء في الصباح الباكر الى مقر عمله أكثر قوة وحيوية وحبا للعمل والعطاء. وقد اكتفى هؤلاء الاطباء الذين ذكرناهم ـ بما يأتيهم لقاء معاينتهم لمرضى الزرارية والجوار من أجر، وهذه تضحية كبرى على الصعيد الشخصي لكنها تضحية فيها الكثير من عظيم الاجر والثواب للقائمين بها.

لقد كان المريض في الماضي القريب والبعيد يموت على الطريق قبل الوصول الى المستشفى أو بالاحرى « مسلخ» المدينة. أو قبل أن يؤتى له بالدكتور بهجت الميرزا مثلا من النبطية، أو صبحي سالم من صور وامثالهما ممن كانوا يزورون القرى لمعاينة مرضاهم :

أما اليوم فها هو الطبيب المختص بالقرب من مريضه وابن بلدته يتلقاه بالعلاج اللازم والمجاني احيانا، حتى إذا احتاج الى جراحة نقله الطبيب المقيم بسيارته الى أقرب مستشفى. ثم أن «المستأجرة ليست كالثكلى». . .

. . . . السيدان محمود هاشم وحمود مروه : والدا الطبيبين علي هاشم وحسن مروه : الاول كان جمالا مكافحا، والثاني تاجرا كادحا في الزرارية. لم يغتربا.

المرحوم السيد علي هاشم أبو يوسف : كان مغتربا مرموقا في داكار ـ كولخ (السنغال) تبوأ مكانة عالية روحية واجتماعية ومالية لدى الجالية اللبنانية في كولخ. وأصبح في نظر الزنوج المسلمين رائدا ومرشدا أحلوه محل القداسة نظرا لأنه من سلالة آل النبي (ص) حتى لقبوه «بالشريفو» أي السيد. ونظرا لما كان يقدمه السيد علي لهم من تسليفات ومساعدات فقد التفوا حوله وقدموا له،

بدورهم، كل التأييد والدعم المعنوي والمادي للمرحوم السيد علي ولدان هما : المرحوم السيد يوسف النجل الأكبر للسيد علي ، ووالد الدكتور اسامة والثاني هو السيد يحيى ابو علي وهما شقيقا السيدة زهرة هاشم والدة رجل الاعمال والمال السيد رفيق شرف الدين، وشقيقة أخرى هي السيدة فاطمة حرم السيد خليل هاشم.

أما الاطباء الشبان من ابناء الزرارية من غير المقيمين فيها فهم كثيرون ومنتشرون في المدن اللبنانية وفي المهاجر.

نذكر منهم الدكتور غازي نجل التاجر المغدور المرحوم حسن طعان (أبي هاني)

والاطباء : محمود علي بدر الدين، حسان أحمد مروه، اسامة أحمد مروه وبشير أحمد مروه (طبيب بيطري) وصلاح محمود مروه، وعلي محمود مروه، وخالد محمود فخري، وعبد الكريم مروه وغيرهم[1]. والزرارية تنتظر تخرج المزيد من مثل هؤلاء كل عام وفي سائر الاختصاصات.

---

(١) يذكرني الدكتور اسامة وزملاؤه الاطباء المقيمين في الزرارية «بالاطباء الحفاة» في الصين ايام محرر الصين ماوتسي تونغ . فقد وجد ماو ان المتخرجين في الطب يتدكسون في العاصمة والمدن الصينية الكبرى . اما الارياف البعيدة في هذه البلاد المترامية الاطراف فتفتك بسكانها الاوبئة من كل نوع ، ولا من ممرض أو طبيب . . ومن الطبيعي ان يموت المصابون باعداد كبيرة قبل الوصول الى اقرب مدينة . فكر «ماو» مليا، فاهتدى الى طريقة عمل نختصرها كما يلي : تقوم الجامعات الصينية بتعليم متطوعين من تلامذة الثانويات اصول المعالجة الطبية الاولية ، وتنحصر معلوماتهم الطبية بالامراض الاكثر شيوعا في الارياف . وبعد ستة اشهر من التعليم والتدريب يعطون اجازة بمعالجة هذه الامراض دون غيرها ، ثم يرسلونهم الى تلك الارياف ليعالجوا المصابين بها على حساب الدولة ويعطى هؤلاء «الاطباء» اجرا مناسبا . . وهكذا انقذ «ماو» ملايين المرضى بمثل هؤلاء «الاطباء الحفاة» كما سماهم . .

وفي داكار السنغال هناك اطباء ومحامون عديدون ورجال اعمال. من المحامين البارين : عدنان فخري. ومن التجار عباس فخري وغيرهم.

أما في صيدا فالمقيمون فيها من أبناء الزرارية هم :

التاجر المعروف خليل فخري (أبو بشير) ونجيب فخري والصديقان رضا وكامل فخري وهما من رجال الاعمال المرموقين وكبار المزارعين. يملكان في صيدا صالة سينما تدعى الشهرزاد لعرض الافلام واقامة الحفلات.

وضاح فخري النجل الاكبر والوحيد للمغترب المعروف محمد تامر فخري [(١)]

وهناك في بيروت وصيدا وصور وفي المغتربات وفي كل مكان العديد من ابناء الزرارية البارزين على كل صعيد يفوق طاقتنا حصرهم، نعد منهم ولا نعددهم :

المهندس المعروف السيد صقر فخري ـ بيروت .

المهندس الشاب عدنان محمد أحمد زرقط ـ صور ـ الحوش.

المهندس نديم اسعد فخري [(٢)] ـ بيروت.

ـ السيد علي شرف الدين شرف الدين شاب مميز بأخلاقه العالية ومحبته وغيرته ونشاطه الاجتماعي بين افراد الجالية اللبنانية في جمهورية شاطىء العاج. كما أنه ـ على الصعيد السياسي ـ من العناصر الوطنية الفاعلة والمثقفة. يتقن اللغة الفرنسية وبعض العربية [(٣)] .

ـ السادة انجال السيد احمد مصطفى زرقط وامثالهم من الناجحين في الاعمال الحرة والتجارة. وعلى رأسهم نجله الأكبر علي.

---

(١) انظر نبذة عنه في فصل الفعاليات الثقافية من هذا الكتاب .

(٢) انظر نبذه عنه في فصل الفعاليات الثقافية من هذا الكتاب .

(٣) انظر نبذة منه في فصل الفعاليات الثقافية المغتربة في هذا الكتاب.

ـ الدكتور زاهي علي خليل ـ اختصاصي كيمياء وفيزياء يزاول التجارة المصنعة ـ ابيدجان.

ـ السيد عباس اخضر والسيد سامي فخري أخ المرحوم عبد اللطيف فخري لابيه.

ـ السيد علي عباس بلال. وانجال المغترب الاديب ابراهيم بلال (أبو بشير) وسواهم من الاعيان الشبان الذين تفتخر بهم الزرارية التي انجبتهم وتعقد عليهم الآمال في دعم نهضتها، قبل وبعد عودتهم المظفرة من ديار الاغتراب.

ـ رضا محمد يحيى مروه :

كان تلميذا لنا ـ منتصف الخمسينات ـ في الكلية الجعفرية ـ صور ـ ثم زميلاً مارس التعليم فيها لفترة قصيرة. أحب المنبر العروبي ـ القومي ـ الوحدوي أيام ازدهار الدعوة، وكثيرا ما اعتلاه خطيبا جهوري الصوت راسخ الايمان. . كما انخرط في صفوف احزاب تقدمية علمانية. وعندما وقعت احداث ١٩٥٨ كان من المشاركين في تظاهرة صور الصاخبة التي ادت الى اندلاعها، هاتفا مع الهاتفين بسقوط « التجديد » لشمعون وسقوط الاعيبه الانتخابية وديكتاتوريته وبعد سنتين أو ثلاث بدا واضحا أن طموح الاستاذ رضا يتعدى دائرة التعليم الى الدائرة الاوسع ـ في نظره ـ دائرة التجارة وجمع المال وتأمين المستقبل الافضل له ولاولاده. . فسافر الى داكار (السنغال) حيث اخواله. ثم الى ابيدجان (شاطئ العاج) حيث استطاع في سنوات قليلة وبالمثابرة الدؤوب، ان يصبح من رجال

المال والاعمال هناك. . لم يلق السيد رضا عصا الترحال بعد، ولكنه يزور بلده وبلدته من حين لآخر للاستجمام ولشراء العقارات والبنايات والمزارع، موسعا بستان الاهل الواقع في خراج نهر الليطاني بمحاذاة بداية مشروع ري القاسمية (منطقة القدام). حبه لبلده وبلدته : كأي مغترب غيور يخالج، الاستاذ رضا حنين جارف الى بلده وبلدته واهلها، رغبة في العمل على تطويرها عمرانيا وثقافيا واجتماعيا، وتقديم الخدمات للمحتاجين من ابنائها. .

فلا عجب اذا رأيناه عضوا فاعلا في الجمعية الانمائية لتحقيق ما تأمله منه ومن امثاله هذه البلدة المجاهدة ينقصه شيء واحد هو التفرغ لخدمة بلدته واهله، بعد طول سفر ومجاهدة واثراء. .

ابن صور ايضا : والاستاذ رضا يعتبر بحق ابن مدينة صور تعلما وتعليما ومصاهرة . فهو من جهة خريج الكلية الجعفرية واستاذ فيها. كما ذكرنا - ومن جهة اخرى متزوج من صور من عائلة كريمة هي عائلة ابو صالح. (١)

---

(١) هؤلاء الاعيان من الشبان هم الوجوه البارزة من المجاهدين على كل صعيد ، الباذلين عرق الجبين في سبيل الكرامة والقيم العربية والاسلامية الخالدة وهؤلاء قد يكونون في سن الشباب فهم ليسوا شيوخاً كبارا او ادباء او شعراء يشار اليهم بالبنان وذوي آثار فكرية وادبية اما القصد من ابراز الشبان منهم ونعتهم بالاعيان فليكونوا قدوة ومثالا لمن سبقهم عمرا ولم يسبقهم جهادا وعطاء شرط ان يكونوا مجاهدين حقا وتنطبق عليهم الاية الكريمة «وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله (سورة التوبة - الاية ٤١) او الاية :«الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله (سورة التوبة الاية ٢٠)

نماذج من مغتربي الزرارية الحاليين
ابناء الرعيل الاول والجيل الثاني :

اذا كان الرعيلان الاول والثاني من مغتربي الزرارية قد غامرا وهاجرا ثم جاهدا واسسا في افريقيا الغربية للابناء والاحفاد قاعدة انطلاقهم وكانا قدوة لهم على كل صعيد غير انهما لم يتمكنا من العودة سريعا الى الوطن الا بعد ذبول زهرة الشباب وافول نجم التألق والعطاء. في حين ان ابناءهما وعلى الاخص احفادهما استطاعوا، بفضلهما أن يعودوا أكثر شبابا واوفر ثروة، وبالتالي اشد شوقا للوطن وحبا للارض يثمرونها بالنماء والخضرة والعطاء بعد أن كانت - في الزرارية وغير الزرارية - ارضا بورا أو ما يشبه البور. وقد زادت الهجرة من قحلها وتصحرها. وها هو الرعيل الثالث يعود الى احضانها يستغفرها ويستثمرها فاذا بها تكاد تصبح على يديه جنة الله في ارضه. ولم يكتف هذا الرعيل الثالث من الشبان العائدين باحياء الارض بل استثمروا اموالهم بإنشاء المعامل والمصانع والشركات ثم باركوها بتكوين الجمعيات الخيرية الانمائية فقدموا لوطنهم ولبلداتهم خير ما يقدمه انسان عائد من خدمات ومبرات كإنشاء المستوصفات والمستشفيات والمساجد والحسينيات والمدارس والآبار الارتوازية واحياء المرافق وما اشبه... كل ذلك مجانا وعلى حسابهم الخاص من خلال هذه الجمعيات التي انشأوها لتأتي مساعداتهم جماعية الطابع تعاونية ديموقراطية حبا منهم بالا ينفرد شخص واحد بالعطاء والمساعدة ومخافة أن تبرز - من خلاله - زعامة جديدة لا يحبها قد تفسد عليه عمله وتشوه براءته...

وها نحن نقدم للقراء ثلاثة نماذج حية للمغترب الزراري الناجح، لا على

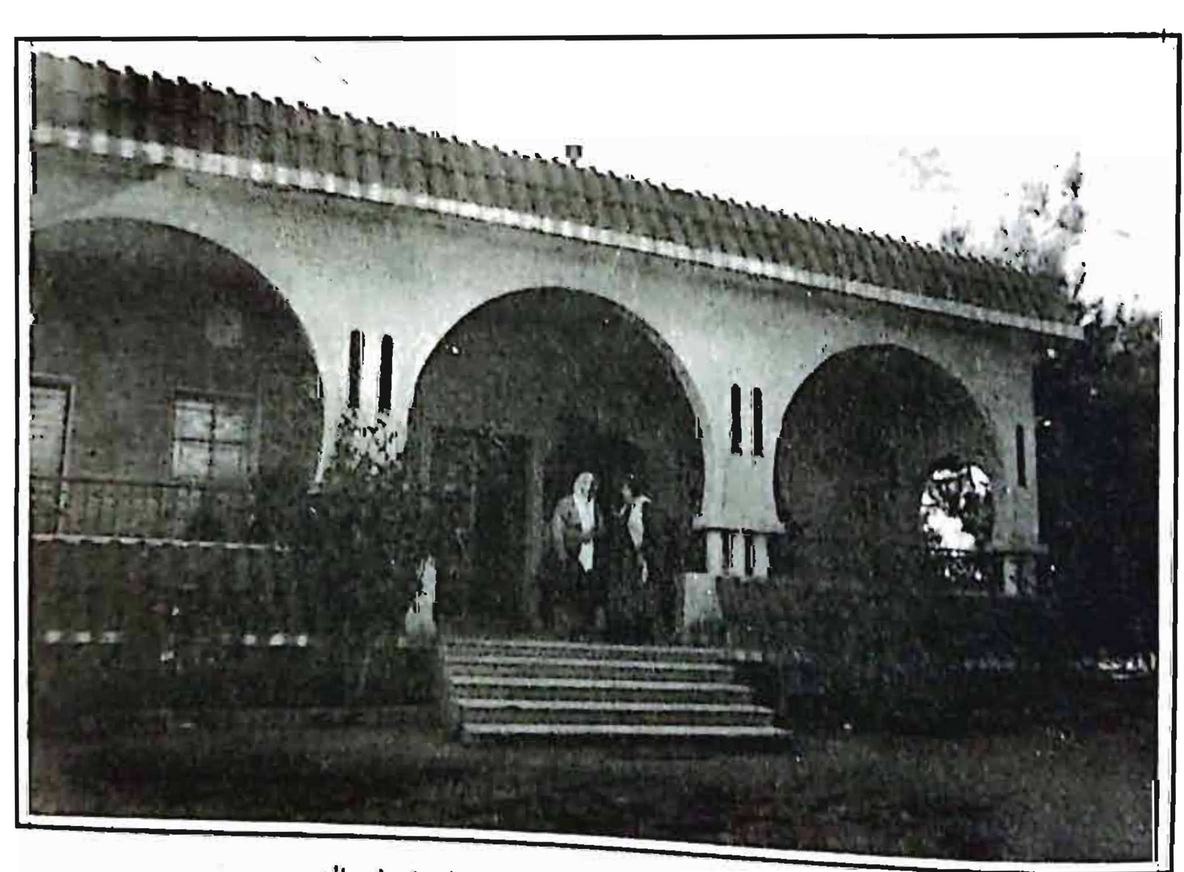
انهم الناجحون الوحيدون بالطبع فهناك امثالهم كثيرون في عالم المال والاقتصاد والثروة بل على انهم الابرز والانشط والاكثر اهتماما ببلدتهم والاغزر عطاء وبذلا، عنيت السادة :

رفيق شرف الدين

أحمد مصطفى زرقط

حسين علي طعان

- رفيق شرف الدين : من مواليد الزرارية سنة ١٩٣٩ تلقى علومه الابتدائية والثانوية في مدرسة الاميركان في صيدا وبعد أن نال دبلوم المدرسة «الهايسكول» التحق بذويه في شاطىء العاج (افريقيا الغربية) ليساعد والده في اعماله وليستطيع



دارة المرحوم عمنا السيد حسين جواد شرف الدين

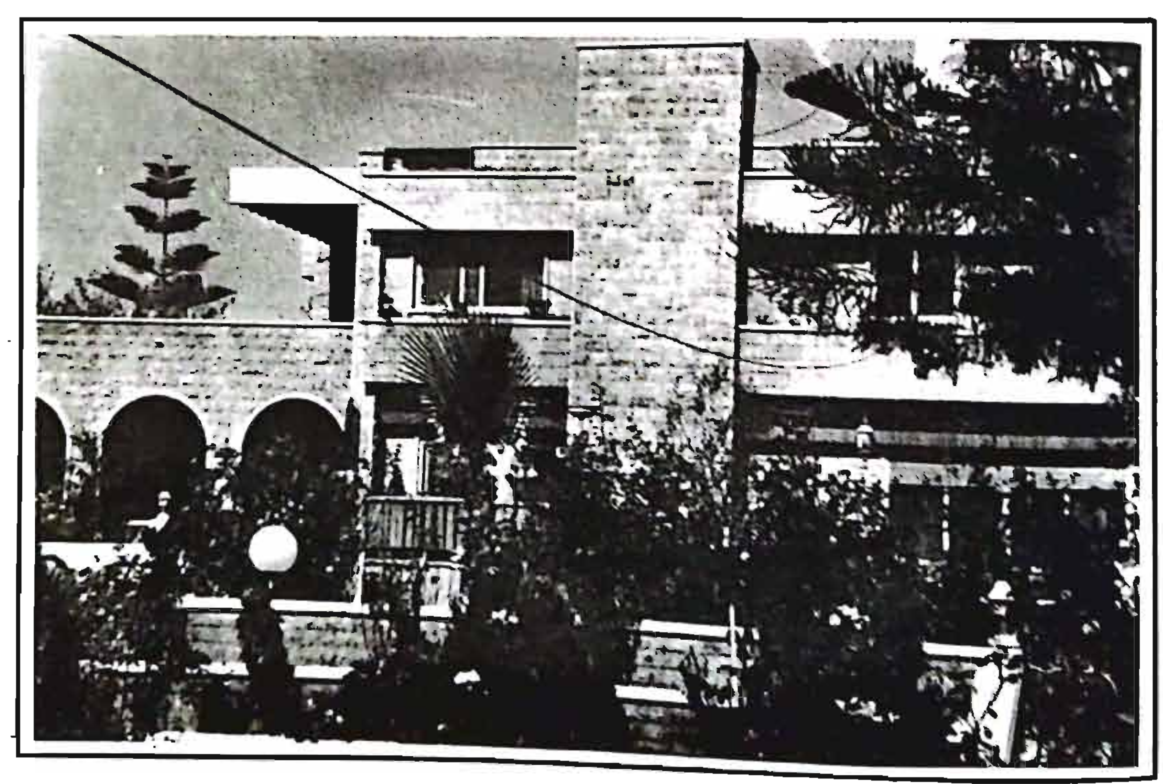
هو واياه من تعليم الاشقاء : تيسير ونصير ومنصور وبشير وطارق والشقيقتين : نهلة وسهاد، واحتضان اخيهم الأكبر رشيد وبعد أن شب الجميع عن الطوق ونالوا قسطا وافرا من العلم اتحدوا في بوتقة عمل واحد ثم احالوا الوالد على التقاعد بعد أن جاهد وعمل واسس ثم حط رحاله في مسقط رأسه الزرارية واصبحت دارته فيها منتجعا وموئلا لرفاق الصبا ولدات العمر من الاقارب والاصدقاء شيوخا وشبانا وتوالت نجاحات الاشقاء عاما بعد عام حتى اذا كان العام ١٩٧٢ تزوج رفيق وهو كبير اشقائه من الآنسة سلام كريمة السيد جعفر شرف الدين نائب صور السابق وانجب منها : حسين وجاد وداربن ونسرين ولين.

رأى رفيق بعد أن استقل بعمله أن ينقل نشاطه الى لبنان دون أن يقطع الصلة باشقائه في افريقيا فوضع مع الخبراء اساس مصنع ضخم للمواسير والانابيب وقطع الغيار لكن الاحداث التي عصفت بلبنان عام ١٩٧٥ قضت على الحلم من اساسه لكن ذلك لم يثن رفيقا فراح يوظف امواله في شراء العقارات في بيروت وضواحيها وفي المصارف الكبرى حتى أصبح أحد كبار المساهمين فيها وعضوا في مجالس ادارتها كمصرف فرانسبنك والبنك اللبناني الفرنسي وسواهما. وها هو اليوم عضو بارز في مجلس ادارة شركة الكوكا كولا في بيروت ولم تنس الزرارية اياديه فانتخب رئيسا لجمعيتها الانمائية التي يكاد تمويل صندوقها يقتصر عليه وعلى نائب الرئيس السيد أحمد مصطفى زرقط (أبو علي) وعضويها الفاعلين السيد حسين طعان (أبو غالب) والمهندس نديم أسعد فخري ولكي لا نتهم بالتحيز العائلي لأبي حسين (فهو ابن عمنا) فاننا نقف عند حدود الحقيقة لا نتجاوزها. باختصار نقول : إن رفيق شرف الدين بعد أن بنى - مع الاشقاء - مملكة الغابات والاخشاب في افريقيا، جاء الى لبنان ليبني - مع الشركاء

ـ امبراطورية المال والاعمال والشركات والمشاريع الخيرية لانماء الزرارية مسقط راسه ولخير لبنان مهوى هواه ومستقر نواه. . .

ـ أحمد مصطفى زرقط : تحدثنا عنه كشاعر زجلي مبدع وكسائق تكسي فقير في بداية أمره وقبل أن يغترب ولا يزال أبو علي الى الآن يفاخر بانه مارس هذه المهنة والتي يتورع عن ذكرها سواه ممن لا يحسون بطعم الغنى بعد الفقر وبالعمل ايا كان سلما للهمم العالية في مراقي النجاح والاعمال الكبيرة يحققون بها المجدين : مجد الدنيا بعمل الخير ومجد الآخره بتقوى الله، فينالون بهما رضا الله والناس جميعا.

أما أحمد مصطفى فلا يستنكف عن ذكر بداياته بل يفاخر بها وبعصاميته



احدى دارات السيد احمد مصطفى زرقط

(في قلب الزرارية)

على رؤوس الاشهاد واثناء كل مقابلة صحفية وغير صحفية بأنه ليس من طينة اولئك الاغنياء من ابناء الطبقة الارستقراطية الذين ورثوا المال ولم يرثوا الكرامة ولا الحصافة كما أنه ليس من اولئك اللصوص الذين هاجروا ليحصلوا على الثروة بأية وسيلة ونحمد الله أن ليس بين مغتربي الزرارية من اغتنى بجهد غيره، أو حصل على الثروة بالحرام. . .

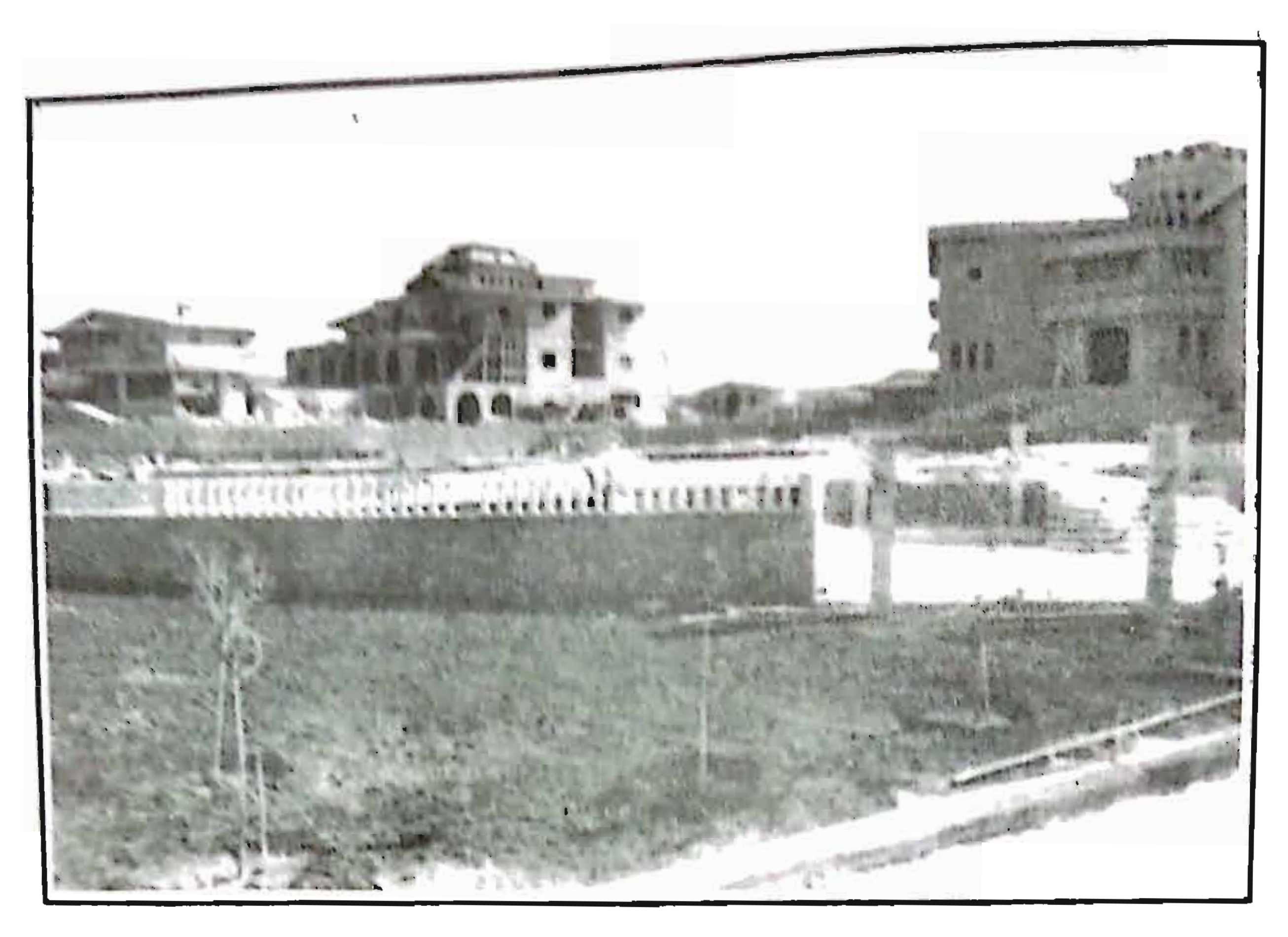
نشأته : نشأ أحمد مصطفى بين افراد عائلة فقيرة وبالكاد تعلم فك الحرف في مدرسة الزرارية الرسمية. وعندما شب وجد نفسه عاريا الا من بنطلون الكاكي والحذاء الكاوتشوك والقميص المهلهل لا يكاد يبدله طوال الشهر او العام[1] أما طعامه فلا يكاد هو الآخر يتبدل : مجدرة مذرذرة أو مفروكة مساء وأبو مليح عند الصباح واحيانا المشاطيح وبقلة الفول أو البربورة «والحميضة» بدل الخس، «ودكدود» الذرة محل الرغيف المرقوق . . .

يتناول كل ذلك على الحصير ـ مع الاشقاء والاهل وفي الصيف البليلة بدل البوظة. وفي الخيمة داخل كرم التين. . . كما أنه لم يعرف في طفولته ما يسمى باللعب واللهو كانت هوايته أو وظيفته أيام الحصاد الجلوس على النورج «للدرس» اغمار القمح والشعير تماما كأطفال ابناء طبقته من الكادحين [2]. حتى اذا شب

---

(١) يذكرني قميص احمد مصطفى الشاب الفقير بطقم حافظ ابراهيم شاعر النيل الذي كان يقول عن طقمه الوحيد القديم انه يحبه لان فيه صفتين من صفات الله : القدم والوحدانية. . ـ المؤلف ـ

(٢) لايزال احمد مصطفى محتفظا بالنورج القديم الذي كان يجلس عليه لدراسة الشعير يراه كل زائر لدارته قابعا على مدخل الحسينية الخاصة مع سكة الفلاحة ورباط الفرس والفاروعة و«التل» الجرار يقبع كل ذلك بالقرب من دارته الجميلة في الزرارية على مدخل الحسينية الخاصة .



دارات ثلاث بناها السيد احمد مصطفى زرقط لابنائه
على مدخل الزرارية ـ قرب ضهر الهوا.

لم يتيسر له سوى أن يعمل سائق تاكسي بين الزرارية وصيدا فقط. وحين اتيح له أن يهاجر التحق باحد اقاربه في ابيدجان ولو لم تشغله التجارة في افريقيا لكان في لبنان في عداد عناصر اشهر الفرق الزجلية المعروفة. يمتاز بحافظة خارقة يختزن فيها ما نظمه هو وما نظمه غيره من مشاهير الزجالين. وهناك في ابيدجان ما عتم ان نجح في التجارة ثم تحول في فترة قصيرة من الزمن الى انشاء معامل لصناعة الاحذية. اما خدماته على الصعيد الشخصي ومن خلال الجمعية فعديدة لا تكاد تحصى. فله كل عام بل كل شهر مأثرة جديدة من اعانات وتبرعات وشق طرق و«زرع كلى» وحفر آبار ارتوازية الخ. . وكلها من اجل انماء بلدته وتزكية المال الحلال. .

المغترب السيد علي شرف الدين شرف الدين (أبو شرف) :

ولد في ابيدجان (جمهورية شاطىء العاج) ارسله والداه الى لبنان لقضاء فترة نقاهة إثر عملية جراحية اجريت له في ابيدجان وكان له من العمر ستتان. احتضنته - في الزرارية - عمته فاطمة شرف الدين لوجود والديه في ابيدجان .

عاد - بعد سنة - الى والديه وحين بلغ قرابة الرابعة أدخلاه الثانوية الرسمية في ابيدجان وبقي فيها حتى الباكلوريا.

شب علي محبا للعمل ومساعدة والده في تجارته، ميالا الى الاسهام العملي في الحقل الاجتماعي والوطني والثقافي فانخرط في النوادي التي انشأتها الجاليتان اللبنانية والسورية. وماعتم أن برز وجها وطنيا ديموقراطيا مؤيدا للحركات التقدمية في لبنان والوطن العربي الداعمة للمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان وسائر الارض العربية المحتلة، عاقدا علاقات وطيدة مع رموز النضال الوطني والاجتماعي والثقافي، وعلى رأس هذه الرموز النائب المجاهد الاستاذ حبيب صادق، كما كانت له ولا تزال صداقات كثيرة مع الفعاليات الحزبية الوطنية والقومية والاممية.

وهكذا جمع السيد علي بين النشاط التجاري والنشاط الاجتماعي والوطني، ولم يكتف كالكثيرين من مغتربي شبان الزرارية بالسعي وراء المادة وحدها، لم يكتف بتحكيك الماس وتصنيعه بل اسبغ على الاغتراب لونا جديدا، ومنحه مع قلة من رفاقه بعدا جديدا مجسدا بهما حقيقة طالما جهلها أو تجاهلها الكثيرون من رجال الاغتراب وهي أن الغربة عن الوطن ليست الاكتفاء بجمع

الثروات المادية التي إن لم تزينها ثروة أدبية وانسانية وثقافية فقدت الكثير من غاياتها التي اشار اليها الشاعر العربي وهو على حق بقوله :

تغرب عن الاوطان في طلب العلى   وسافر ففي الاسفار خمس فوائد
تفريج هم واكتساب معيشة   وعلم وأدب وصحبة ماجد

علي شرف الدين شرف الدين يحمل بين جنبيه كل خصائص الشاب العاملي الزراري الطموح الذي اطلعته طبقة مغتربة كادحة وانجبه والدان مجاهدان مؤمنان أفلا يصلح ـ بعد كل هذه الشمائل ـ أن يكون نموذجا يحتذبه شبان بلدته مغتربين ومقيمين؟ !

ـ **نديم اسعد فخري** : مهندس معماري مدني . ولد في اكرا (عاصمة سيراليون) عاش هو واشقاؤه : خليل وسعيد وعدنان وعلي كبيرهم . وهم اليوم من أشهر الصناعيين في غانا. عاد حديثا الى لبنان بعد أن تخرج من الجامعة يزاول العمل الهندسي الحر والمقاولات وليصبح ـ نظرا لشغفه بخدمة بلدته ـ عضوا فاعلا في الجمعية الانمائية للزرارية. والده اسعد فخري باني حسينية الزرارية الاولى يوم لم يكن أحد يفكر في مثل هذا. ومما جعلني انوه به، ثناء رئيس الجمعية الانمائية عليه ونائبه وجميع من التقيتهم. حتى اذا قابلته شخصيا تأكد لي صدق ما قالوه عنه من صفات اقلها الاريحية والطموح وحب الخير لبلدته وبلده والاستعداد الدائم للمشاركة الفعلية في هذه الجمعية وكل جمعية مماثلة. وعلى هذا الاساس نأمل منه ـ كمهندس وكأنسان غيور ـ أن يتبنى مشروعا انسانيا حيويا اقترحناه (وشرحناه في هذا الكتاب)، مشروع بناء مجمع سكني شعبي في الزرارية يسكنه متوسطو الحال والفقراء ثم يصبحون مالكين له بعد

عشرين سنة مثلا وبعد تسديد ثمن كل شقة في شكل اقساط غير مرهقة. . .
ويهذا المشروع الانساني والمربح تحل مشكلة اسكانية كبرى للاجيال الطالعة مشكلة إن لم تكن بارزة في المدى المنظور لكنها ستصبح خانقة مطلع القرن الواحد والعشرين القادم. واذا كان هذا من عمل الحكومات المتقدمة لكن همة وامكانية المهندس نديم هو وزملاؤه قادرتان على تنفيذ هذا المشروع بدلا من الدولة. فهم أم الولد. . . . والمستأجرة ليست كالثكلى. . . .

حياه الله قدر حسناته وخدماته لبلدته وأكثر من أمثاله.

رامز نعمة بلال : في الزرارية متمولون كثيرون منهم العصامي المغترب أو الوارث المقيم ونحن ندعو الله أن يزيدهم من نعمه وفضله اضعافا ولكننا - هنا - لا ننوه الا بالذين لا يحملون هم انفسهم فحسب - بل هم الانسان في بلدهم أو بلدتهم باذلين مما اعطاهم الله وعرق الجبين الشيء الكثير ينقذون به الفقير المحتاج والمريض العاني، وعزيز قوم ذل من الذين كثروا في هذه الايام وكانوا ضحية بريئة من ضحايا الحرب اللبنانية المركبة (١).

كما يسهمون في اعمار بلدتهم وانعاشها، هذه البلدة الصابرة المجاهدة التي لا تحتاج الى الاغنياء يكتنزون في خزائنهم المغلقة الذهب والفضة أو يحتكرون الخدمة العامة طلبا للزعامة وحبا بالتفرد. بل الى اغنياء غيورين متواضعين من طراز هذا الشاب الذي سمعت عن مبراته ومساعداته الشيء الكثير. ولم انوه به الا بعد ان قابلته شخصيا وتأكدت من أنه يحمل قلبا كبيرا وتواضعاً اكبر وحبا جما لابناء بلدته خاصة المعوزين منهم والعاجزين عن العمل.

---

(١) نقول المركبة بدلا من اي نعت آخر ، لانها من فعل الداخل والخارج . المؤلف

بشرى للزرارية بامثاله وطوبى للعاملين لازدهارها من داخل الجمعية الانمائية او خارجها.

حصيلة التجهيل المقصود :

ذكرنا أن الرعيل الاول من مغتربي جبل عامل كان أمياً في غالبيته العظمى نظرا لسياسة التجهيل المتبعة منذ الحكم العثماني الطوراني العنصري، وحتى منتصف هذا القرن حيث كان الولاة واقطاعيو الاقاليم اللبنانية لا ينظرون الى رعيتهم الا على انها مجموعة من العبيد الأرقاء لم يخلقوا الا لخدمتهم، ثم ليكونوا وقودا لغزواتهم وحروبهم الداخلية ومنازعاتهم العشائرية. . .

ثم جاءت فرنسا المنتدبة لتعنى بطائفة معينة من لبنان. . . أما بقية الطوائف، أما جبل عامل، تحديدا وباعتبارها له بؤرة للرفض، فليهمل اهمالا، ولتنشأ فيه أجيال متخلفة أمية سائبة. . . وهكذا كان، فلا مدارس ولا متعلمون ولا من يتعلمون ! ولولا حوزات دينية مبعثرة هنا وهناك، ولولا طموحات الآباء والاجداد الى حياة افضل لما هاجروا واغتربوا في أربع رياح الارض بحثا عن الكرامة والخلاص بأي ثمن بعيدا عن منتدب غاشم وزعماء غلاظ القلوب يعتبرونهم مجرد قطعان بشرية. إذن، لقد خرج هؤلاء الاحرار من مستنقع الامية الى فضاء العمل، خرجوا من بين براثن الاقطاع ليستبدلوا العبودية بالحرية، ليستعيضوا عن العلم بالنجاح في ميادين التجارة . هؤلاء الأميون الذين لم يعودوا أميين مغلقين، عرفوا في مغترباتهم ما للعلم والاختصاص من قيمة، فاقبلوا على تعليم ابنائهم اقبال الطفل الملهوف الى ضرع امه، فبلّغوهم اقصى درجات العلم والاختصاص.

كان الحافز ـ اذن ـ امية الآباء والاجداد. حتى الحكام الاقطاعيون، في

اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن احسوا بخطأهم الفاحش في هذا المجال حين اهملوا حتى تعليم ابنائهم، فبادروا الى استدراك الخطأ بارسال بعض هؤلاء الابناء الى معاهد اصطنبول والشام، ثم الى اوروبا ليتخصصوا. وكأنهم ادركوا أن مجد السلطان والمال زائل فارادوا توريث ابنائهم العلم عوضا عن الحكم، العلم الذي لا يزول سلطانه، ولا تدول دولته. . .

ايها الآباء الكرام : ابدأوا قبل كل شيء بالعناية باولادكم، ولا سيما الاطفال منهم، وذلك بتعليمهم من البداية حتى النهاية ولا ترسلوهم، حتى ولو كنتم فقراء، الى العمل والمهاجرة بعد الآن وهذه هي المدارس قد أقيمت بكثرة والحمد لله، وهؤلاء المساعدون من أفراد وفئات وجمعيات مستعدون لاعطاء المنح والهبات. . لا تستثمروا اجساد اطفالكم الطرية، فعطاؤها المادي زهيد قليل، بل استثمروا عقولهم، بعد التخصص، فعطاؤهم مفيد وجزيل أنا لست واغطا، ولكني اقول :

إن امة لا تعنى بصحة الطفل وتعليمه، أمة لا تدرك سن الشباب ![1]

---

(١) كم آلمني ويؤلمني رؤية بعض اطفال فقراء المدن ينكبون على حذاء الغني يمسحونه بالدهان لقاء بعض الدريهمات ، بدل أن ينكبوا على الكتاب . . ـ المؤلف ـ



كفاءات ابداعية شبابية
في الثقافة والتربية والخدمات

الدكتور سحبان احمد مروه : (١)

الدكتور وسيم حجازي :

ولد في صور عام ١٩٥٣. نشأ في بيت علم وادب، اذ حبا واتكأ على اريكة جده لأبيه الاديب والشاعر الكبير احمد حجازي (ابن البادية) وتلقى دراسته الابتدائية على يد عمته المربية المرحومة عين الحياة حجازي. كما كان والده مثقفا بين القلائل من مثقفي ابناء جيله، محبا للشعر ناظما له ملقياً اياه في كثير من المناسبات الاجتماعية.

تابع وسيم دراسته التكميلية في الزرارية حيث نال شهادة البريفية. وصادف أن توفي والده في نفس السنة، فانتقل الى صور لمتابعة دراسة الثانوية. لكنه وبعد

---

(١) تحدثنا عن هذا الشاب الجامعي طويلا في تضاعيف فصول هذا الكتاب خاصة في باب المكتبات في الزرارية . واثناء الحديث عن والده واشقائه . اطلب باب : وجوه بارزة في الزرارية من هذا الكتاب

نيله البكالوريا القسم الاول التحق بدار المعلمين والمعلمات في صيدا حيث وجد
في نفسه القدرة على دراسة الباكالوريا ـ القسم الثاني ـ دون حاجته الى الثانوية.
فنالها في السنة الاولى في دار المعلمين عام ١٩٧١. انتسب بعد ذلك الى كلية
الآداب في الجامعة اللبنانية في بيروت وانهى اجازة في اللغة العربية وآدابها عام
١٩٧٥.

عين مدرسا في تكميلية الزرارية، لكنه لم يبق في التعليم أكثر من سنتين،
فقد كان طموحه يدفعه دائما الى المزيد من التحصيل العالي، لذا سافر الى
المغرب حيث التحق بجامعة فاس لتحضير دبلوم الدراسات المعمقة، وكان ذلك
عام ١٩٧٧ وهناك مارس ـ الى جانب الدراسة ـ مهنة التعليم كاستاذ للتعليم
الأصيل في مدرسة «وجده» duyda المغربية . مكث حوالي السنتين في المغرب
ثم عاد الى لبنان لفترة قصيرة غادر بعدها الى صوفيا (بلغاريا) لتحضير الدكتوراه
بعد حصوله على منحة من اتحاد الكتاب البلغار بقي في جامعة صوفيا خمس
سنوات نال اثرها درجة دكتوراه دولة في الصحافة عام ١٩٨٣ . وكانت اطروحته
بعنوان :« المقالة الصحفية في مواجهة العثملي. » دراسة مقارنة.

التحق بالجامعة اللبنانية استاذا محاضرا في كلية الاعلام والتوثيق ـ الفرع
الاول عام ١٩٨٥ ومازال : للدكتور وسيم عدة مقالات نشرت في جريدتي
السفير والديار. ومجموعة دراسات في مجلة الشراع.

استمعت اليه خطيبا في اسبوع عمته المرحومة سعاد حجازي ابنة الشاعر
المعروف ابن البادية فوجدت فيه اكثر من خطيب وجدت مفكرا ومنظرًا في اهاب
اديب وحنجرة خطيب. .

الدكتور وسيم ينبىء ـ وهو لا يزال على مشارف الاربعين ـ بعطاءات
علمية وادبية واعدة. .

الاستاذ محمد حسين حيدر (الشامي) :

الابن الاول لحفيد الشيخ محمد حسين مروه الملقب «بالحافظ».

ولد عام ١٩٥٣ في الزرارية في بيت يعاني من الحاجة والفاقة. وحين شب عن الطوق وجد نفسه بين الذين عليهم ان يواجهوا مصاعب الحياة بالتمرد والتصميم على تخطيها وصولا الى تحقيق ما يصبون اليه، وما يراودهم من احلام.

تتلمذ محمد، في المرحلة الابتدائية على يدي المرحومة المربية حياة حجازي ابنة الاديب والشاعر المعروف الشيخ احمد حجازي (ابن البادية)، والمربي المرحوم السيد محمد يحي شرف الدين في الزرارية . تابع دراسته في المرحلة المتوسطة، في تكميلية الزرارية الرسمية، انتقل بعدها الى بيروت ليتابع دراسته الثانوية في ثانوية برج البراجنة مظهرا تفوقا ونجاحا ملحوظين حيث جاء ترتيبه الثالث في امتحانات البكالوريا اللبنانية الرسمية عام ١٩٧٢. اكمل دراسته الجامعية في كلية العلوم بالجامعة اللبنانية وحاز على شهادة الليسانس في الرياضيات عام ١٩٧٦.

وكان لطموح وكفاءة الاستاذ محمد الا يقفا به عند حدود الليسانس ، لكن الوضع المادي الصعب ووقوع الحرب الاهلية في لبنان حالا دون متابعه دراساته العليا تحضيرا للماجستير والدكتوراه. . .

ولما كانت هواية التدريس وحبه لهذه الرسالة كامنين في نفسه وجدناه يتجه بكل الرغبة والشوق الى تأديتها، فمارس تدريس الرياضيات وهي مادة اختصاصه في مدارس صيدا التالية :

- الجامعة اليسوعية - عبرا - ثانوية مكسيموس الخامس حكيم - راهبات عبرا - ثانوية المدخل الجنوبي الرسمية - صيدا.

ـ ثانوية جنة الشرق ـ صيدا ـ ثانوية الاتحاد الوطني ـ صيدا ـ مدرسة الاتحاد الحديثة، ثانوية منارة الانسانية ـ صيدا.

كما كان مديرا لبعضها، ومنسقا للدروس في البعض الآخر.

مؤلفاته المدرسية : في العام ١٩٧٩ قام بتأليف سلسلة كتب في الرياضيات للمرحلة المتوسطة باللغتين الفرنسية والانكليزية.

انتقل في العام ١٩٨٢ من صيدا الى مدرسة الزهراء في الصرفند حيث درس مادتي الرياضيات والعلوم، وقد انجز في هذه المرحلة سلسلة كتب العلوم للمرحلة المتوسطة. هذه الجولات المتواصلة في مناهج التعليم والتربية تدريسا وتأليفاً اكسبته خبرة عميقة في كيفية التدريس الحديث وتربية الاجيال مما دفعه، حين عاد الى مسقط رأسه الزرارية الى الاسهام في نهضتها العلمية والتربوية والاجتماعية مستغلا طاقاته وكفاءاته المتعددة فانشأ فيها صرحا تربويا نموذجيا يتوسط قرى مجاورة عديدة متعاونا مع نخبة من المعلمين والمعلمات من ذوي الخبرة والاختصاص والاخلاص. هذا الصرح حمل اسم : ثانوية الشعلة (الاولى) التي جاءت مثالا للعمل التربوي الجاد والتنشئة الوطنية السليمة. كما تميزت بالنشاطات الوطنية والفنية والرياضية والدينية البناءة.

وقد توافد التلامذة والطلاب على هذا الصرح من كل حدب وصوب، من كل القرى المجاورة كالزرارية والخرايب وارزي والسكنية وبريقع والقصيبة، وكفرصير وسواها توافدوا عليه نظرا لما حققه من نجاحات ودرجات عالية في نسبة النجاح في الامتحانات الرسمية على مدى السنوات الثلاث الماضية مما جعل الاهالي يثقون بمدرسة الشعلة وثانويتها وادارتهما.

وقد رأى مؤلف هذا الكتاب في الاستاذ محمد اكثر من مرب ومدير رأى

فيه خطيبا مفوها ومقدم خطباء ناجحا، وعنصرا مميزا من عناصر الثقافة والتربية. وها هي الزرارية بدأت تفيد من نشاطاته وكفاءاته وما اكثرها. . .

الشيخ محمد حسين مروه الملقب بالحافظ :

هو جد والد الاستاذ محمد حسين حيدر (الشامي) مدير ومؤسس ثانوية الشعلة (الاولى) في الزرارية. المنوه به اعلاه كان الشيخ محمد فقيها حافظا، ومثلا اعلى للتقوى والورع، متميزا بذكاء حاد، حافظا للقرآن الكريم وشروحه وتشريعاته. ولد في الزرارية وعاصر العشائر التي كانت تحكم الزرارية في ذلك الوقت. روى عنه حفيده والذين عايشوه روايتين تدلان على فطنته وقوة ذكائه .

الاولى : أن فرنسيين جاءا لشراء جياد اصيلة من العشائر، غير مبالين بوجود الشيخ بينهم (في الاصطبل) لانه، في اعتقادهم، لا يعرف لغتهم. فاتفقا فيما بينهما، على تعيين ثمن بخس لجواد اصيل اعجبهم، وبالتقليل من اهميته امام الباشا، وعلى أن يدفعا ثمنا مرتفعا لجواد آخر هزيل. . . ليوهما الباشا أن الجواد الهزيل هو الافضل ليتمكنا من شراء الجواد الأصيل بسعر منخفض. لكن الشيخ تمكن، بالرغم من جهله اللغة الفرنسية، أن يحفظ كل ما دار بين الفرنسيين من كلام، ونقله لتوه الى الباشا. وعندما اتى الفرنسيان الى الباشا اعلمهما بخديعتهما وما دار بينهما من حديث في الاصطبل. وكانت دهشتهما كبيرة حين علما أن الشيخ محمد حسين مروه هو الذي نقل الحديث بحرفيته. . . الخ. . .

هذه الحادثة الواقعية تظهر مدى قوة ذاكرة الشيخ وحافظته العجيبة.

كما يروي معاصروه شاهدا آخر على فطنتة وقوة ذاكرته وهو أن شاعرا متكسبا جاء الى الباشا مادحا اياه بقصيدة طويلة، وكان الشيخ حاضرا، وحين فرغ الشاعر من القائها فاجأه الشيخ قائلاله : إن قصيدتك هذه منحولة وهي ليست

من نظمك. . فرد الشاعر بقوله : اذا كانت منحولة فانشدنا بعض ابياتها. فانشدها الشيخ بكاملها وكأنها من نظمه، دهش الشاعر من الشيخ بدون أن يخفي امتعاضه. ثم اتفق الحاضرون على أن يجلس الشاعر في غرفة منفردة وينظم قصيدة مدحية جديدة، ولما فرغ من نظمها انشدها امام الباشا فهب الشيخ قائلا : هذه ايضا منحولة ! وراح الشيخ يرددها بيتا بيتا. . . صعق الشاعر ولم يتمالك من اظهار إعجابه بالشيخ وربت على كتفيه قائلا له : انك فعلا لحافظ. . . ومنذ ذلك، لقب الشيخ بالحافظ لشدة ذكائه وسرعة بديهته. (١)

عمر الشيخ محمد حسين مروه الحافظ طويلا الى أن توفاه الله ودفن في قرية ارزاي التي سكنها في آخر حياته. كما اصبح ضريحه مقاما بقصده المؤمنون الزائرون ولوضع نذورهم لديه تيمنا ببركات هذا الشيخ التقي الفاضل.

الاستاذ محمد محيي الدين (أبو فادي).

احد الادباء الناشئين، والمثقفين المتنورين ، ولد في الزرارية من ابوين كادحين، فقيرين الا من الايمان والتقى والاعتماد على النفس، شعارهما العمل في سبيل دفع الفقر، وصون الكرامة وتعليم الابناء.

انخرط ابو فادي في تنظيمات قومية ووطنية متعددة واحزاب وحركات تقدمية النهج والاتجاه. وحين لاحظ في بعضها انحيازا او تجارة طلقها ثلاثاً. . .

اسهم اسهاما فعالا في تنظيم واحياء جمعيات ونوادي الزرارية الرياضية

---

(١) تذكرني هذه الحادثة بقصة مماثلة جرت بين شيخ الشعراء ابي تمام وبين تلميذه ابي عبادة البحتري تطلب تفاصيلها في كتب تواريخ الادب العربي ايام العباسيين . وقد رواها مؤلف هذا الكتاب في دراسة مطبوعة تحت عنوان : البحتري بين البركة والايوان.

والاجتماعية وهو مؤسس جمعية انماء الزرارية الاولى المنحلة، وعضو بارز في الجمعية الحالية، وفي كل جمعية او ناد. . .

ظهرت عليه منذ يفاعته بوادر النجابة والحس الادبي والطموح الى تحسين وضعه الاجتماعي والتربوي. يكاد يكون متخصصا في كل عمل اجتماعي او تربوي ينهض به. يمارس ، حاليا، تدريس مادة الرياضيات في الثانوية الرسمية ومدارس الزرارية الخاصة الأخرى. متدفق النشاط على كل صعيد، خاصة في مجال التنظير والتنظيم، ووضع قوانين الجمعيات، وملاحقة طلبات بلدته لدى المراجع المختصة، شاعرا كأنه وحده في ميدان الخدمات، وهو شعور كل من يخالجه حب العمل، وحب القيادة. .

كما أنه احد عضوي لجنة الاعداد والتوثيق لهذا الكتاب. وعندما طلبت منه مساعدتي على تأمين بعض المراجع اللازمة والمقابلات المسجلة من أجل اغناء وسائل تأليف مثل هذا الكتاب وتزويدي بالمعلومات الحية لم يبخل باي جهد مستطاع، رغم مشاغله الكثيرة، يلاحق الآن الى جانب مهامه التعليمية والتربوية، مشروع اقامة البناء العتيد لثانوية الزرارية الرسمية قرب «ضهر الهوا» الذي سيموله مغتربو البلدة دون مساهمة الدولة اللبنانية. .

شاب في مقتبل العمر يبشر بمستقبل واعد ولا غنى للزرارية عن امثاله من الشبان الطليعيين المحبين للعمل والسهر والتضحية الطالعين من صميم معاناة الطبقة الدنيا التي سوف يكتب لها مجد القيادة والتوجيه والحكم يوما ما، شاء الاقطاع السياسي ام ابى !!

الاستاذ محمد احمد زرقط (ابو زاهي) :

ولد الاستاذ محمد في الزرارية ١٩٢٤ تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة

الزرارية الرسمية ثم تابع تحصيله العلمي في النبطية وكلية المقاصد الاسلامية في صيدا وكان رفيقا لنا في المرحلة المتوسطة فيها.

عين مديرا للمدرسة الرسيمة الابتدائية المتوسطة في البلدة التي ادارها بحزم ودراية طوال خمسة واربعين عاما الى أن أحيل على التقاعد.

عرف ابو زاهي بالتواضع ولين العريكة والتعامل مع الناس واهالي الطلاب بمحبة وتعاطف، ومع الطلاب بالاهتمام الشديد بتطوير مستواهم العلمي، مطبقا مع المشاكسين منهم سياسة : لا أفراط ولا تفريط او تلك القائمة على مبدأ : لين بغير ضعف وشدة بغير عنف. .

وهكذا استقام له اسلوب تربوي فريد مكنه من الاستمرار في الادارة طوال تلك المدة.

كما يحظى ابو زاهي بتقدير أهل بلدته ومحبتهم مقيمين ومغتربين، وعندما تقاعد اسند اليه المغترب المعروف السيد احمد مصطفى ادارة مدرسته الخاصة الشعلة. وهو لا يزال مديرا لها حتى الآن. كما انه يشغل منصبا في الجمعية الانمائية لأبناء الزرارية (المنحلة حاليا) كمدير لمكتب الجمعية.

ابو زاهي متزوج من السيدة سكنة السيد علي سليمان هاشم وقد أنجبا ذرية صالحة من اثني عشر ولدا أكثرهم مثقف ومتخصص. من بينهم استاذان مارسا التعليم الرسمي هما زاهي وعلي وآخر مهندس هو الاستاذ عدنان.

الخروج من الشرنقة :

خرج ابو زاهي سليما معافى من شرنقة التربية والتعليم والادارة نظيف الكف مرتاح الضمير ولكن بمستوى معيشي اقرب الى الكفاف وبجزاء من الدولة اشبه بجزاء سنمار. . فهل ضمنت هذه الدولة وهذا النظام له ولأمثاله وهم

كثير في المناطق المحرومة وفي مقدمتها الجنوب، هل ضمنت لهم حقوق الشيخوخة والاستشفاء المجاني وتعليم اولادهم على حساب الدولة؟ هل امنت لهم معاشاً تقاعدياً محترماً او تعويضا ذا قيمة يوازي مقدار حبة عرق من جباههم او نقطة دم من اعصابهم؟ !

هل منحتهم، على الاقل ، وسام تقدير واستحقاق في حياتهم وليس بعد مماتهم كما فعلت وتفعل وزارات التربية المتعاقبة في لبنان؟ !

وهل جزاء الاحسان الا الاحسان؟ !

فيا ابا زاهي ايها الزميل المجاهد بصمت المربي باخلاص : لك اسوة بي وبزملاء لنا كثيرين مدراء كانوا أو معلمين او حتى اساتذة جامعيين. . . لك اسوة بهؤلاء المقاتلين من اجل الكرامة وتخريج الاجيال الذين انفقوا كل عمر الفتوة والشباب وشطرا كبيرا من عمر الكهولة من اجلهم ومن اجل الوطن. . . وحين توقفوا عن العطاء والتضحية بفعل الشيخوخة لم يجدوا من الدولة سوى الاهمال ! في حين وجدوا من الشعب، اهالي وطلابا، كل الحب وكل التقدير، وهذا حسبهم وحسبنا الله ونعم الوكيل. . .

الاستاذ علي محمد زرقط :

النجل الثاني للمربي المعروف الاستاذ محمد احمد زرقط (ابو زاهي). المذكور آنفا .

علي زرقط شاب مثقف متنور مدنيا واسلاميا. اخلاقي النزعة اصلاحي التوجيه عن طريق التربية والتعليم والخطابة. كثيرا ما اعتلى منبر الزرارية الثقافي والديني والسياسي خطيباً ومقدما للخطباء من علماء وشعراء وادباء، ورجال سياسة في المناسبات الاجتماعية الهامة. يتميز اسلوبه في الخطابة بالواقعية والموضوعية البعيدة عن الاستطراد وشطحات الخيال. تراه احيانا يستعمل اللغة

العامية العاملية، والحكم والامثال الشعبية لتأكيد ما يذهب اليه وليكون قريبا من اذهان الحاضرين، كل الحاضرين. . .

من اساتذة الثانوية الرسمية في الزرارية ينهج نهج ابيه في التوجيه والادارة، وتصحيح مسار طلابه، والغيرة على بلدته وازدهارها. يتوجع لتردي الاجيال العاملية الطالعة في حمأة الضلالات.

حين تتراكم الخطوب على موطنه جبل عامل ولبنان وبلاد العرب والمسلمين، تتغير سمات وجهه عند الخطابة، وتضطرم في نبرته حرارة اللوعة اليائسة أو اليأس الملتاع الممزوج بحرارة الايمان والثقة - رغم كل شيء - بنهضة عربية واسلامية لا شك فيهما من جهاد الطبقات المسحوقة ومن المثقفين الاحرار المناضلين ضد الاستعمار والصهيونية والاقطاع السياسي في لبنان.

علي زرقط من شبان الزرارية المؤمنين الذين تحتاج الى امثالهم هذه البلدة المجاهدة الناهضة.

السيد محمد شريف هاشم :

شقيق القائد الشهيد نعمة هاشم، والمسؤول التنظيمي لفصائل حركة امل في الزرارية ومنطقتها. (سابقا)

نهض بمسؤولية الامن في البلدة فقضى على التجاوزات والتوجهات الخاطئة واخذ على عاتقه مهمة السهر على الامن الاجتماعي وهو عضو فعال في الجمعية الانمائية الحالية. وامين سرها يتمتع بذوق ادبي رفيع، وطالما صعد المنبر خطيبا مفوها راسخ الايمان. لا سيما في المناسبات الوطنية، على الاخص في ذكرى مجزرة الزرارية واسبوعات شهداء المقاومة اللبنانية العاملية المؤمنة والاسلامية والوطنية.

إنه مقاوم في ثياب مدنية، ومدني في اهاب مقاوم. . .

والسيد محمد احد عضوي لجنة الاعداد والتوثيق لهذا الكتاب مع زميله الاستاذ محمد محي الدين.

وهو ، مسؤولا، آخر من كان ينام في الزرارية، وأول من يستيقظ. ورغم قلة عدد العناصر المسلحة التي في امرته، كان يبدو وكأنه قائد لواء مدرع. .

كما أنه لا يزال مستعدا مع عناصره لمنازلة العدو الاوحد اسرائيل في الخارج، والاعداء من كل نوع، في الداخل. .

أما الآن، وقد انتهت الحرب، وحلت الميليشيات، ها هو ابو عماد يتابع المسيرة السلمية الانمائية في بلدته، عاملا مع العاملين في الجمعية وخارجها، على تطوير البلدة واحياء مرافقها والاشراف على تنفيذ مشاريعها.

استدراك : نحن لم نورد هذه الامثلة أو هذه النماذج من مجاهدي الزرارية ومثقفيها وادبائها الناشئين على انهم الوحيدون فيها، بالطبع لا، بل لأنهم الابرز، حاليا، على صعيد التربية والتوجيه والتنظيم والخدمات. فالزرارية ـ كما يعلم الاقارب والاباعد ـ زاخرة بالكفاءات والاجيال المتعلمة الراقية التي لا نشك لحظة في أن زمام القيادة سيكون بين أيديها في المستقبل القريب، بعد ان سحقت المقاومة الوطنية كل شراذم التسلط، وقضى الوعي والعلم على بقايا الاقطاع القديم، خاصة وان هؤلاء الشبان الذين تحدثنا عنهم طالعون من صميم الطبقة الشعبية التي طال استغلالها وتجهيلها، المولودة من رحم المعاناة التي عاناها آباؤهم واجدادهم في عهود الظلم والظلام. . .

المحامي الاستاذ محمد صالح مروه.

ولد في الزرارية من أب وأم فقيرين، فكان عليه، حين شب ان يحصل علومه الابتدائية والثانوية ثم الجامعية بدافع ذاتي وجهد شخصي، لأن والديه وإن

كانا يرغبان في تعليمه، الا انهما كانا عاجزين عن تحقيق كل ذلك او بعضه نظرا لكونهما لا يكادان يعيلانه هو واخوته ويسدان رمق العائلة بالنزر القليل من الكسوة والغذاء. . . ولعل الجهد الكبير الذي بذله المرحوم صالح طوال مراحل تحصيله ثم ترفعه، اثناء مزاولة المحاماة، عن كسب المال الحرام، هما اللذان فتا في عضده واوهنا قواه الجسدية فداهمه المرض العضال في سن مبكرة.

كان بيته في الشياح في الضاحية الجنوبية من بيروت عندما كان يزاول مهنة المحاماة. وحين عاد الى الزرارية مسقط رأسه رأى فيه المخلصون من الاصدقاء خير عنصر مثقف وفاعل فانتخب عضوا ومستشارا قانونيا في الجمعية الانمائية، ورئيسا للجان الاهل في ثانويات البلدة. كما اصبح منزله المتواضع فيها مركزا للنشاط الاجتماعي والثقافي والتربوي، ومرجعا لكل مظلوم سلبه الاقوياء حقه، ومباءة للاهل والاحبة وعشراء الخير. قال احد رفاق طفولته السيد امين زرقط الذي القى باسم البلدة كلمة رثاه فيها في ذكرى اسبوعه نقتطف منها أهم ما جاء فيها: «نجم هوى قبل اوانه، داهمه المرض سريعا، فابعده عنا. نحن الآن في موقع البر والوفاء، بر الصديق والوفاء له، نفتقده انسانا مخلصا وفيا، عرفته منذ الطفولة وعايشته فترة طويلة، لم يعبث في صغره عبث الاطفال، ولم يجنح في شبابه جنوح المراهقين. . . كان رزينا هادئا، همه الاول تحصيل العلم، فوصل الى ما كان يصبو اليه بعرق ودم وسهر. . » الى ان يقول: « نشتاقه ونفتقده في زمن التكالب على الفاني. . »

كان يتقن كل شيء الا فن الإثراء والرشوة والاختلاس. . . في حين كان يمكنه الحصول على أي شيء عندما يدفع الثمن المطلوب وهو كرامته، فأبى وترك الارتهان لغيره ممن يتهافتون على الثروة تهافت الكلاب على عظام الشارع. .

لذا عاش بالكفاف، عاملا بالقول المأثور : اللهم اسألك العمل في طاعتك، واجتناب معصيتك، والكفاف من الرزق برحمتك. .

اجل هكذا عاش فقيدنا : فيه من غرزة السكة في الارض، وفيه من صفاء الينبوع. . »

وكمحام شريف كان يؤمن بسيادة القانون، يعمل على تطبيقه، فلم يجعل الباطل حقا، ولا الحق باطلا اخي ابا محمد : حملت كل افكارك وثمارك من علم ومعرفة وجئت بها الى بلدتك عاملا على انمائها من خلال عضويتك في الجمعية الانمائية، وكم كنت غريبا لأنك لم تعمل لمصلحة فردية أو حزبية أو فئوية. . اضاعوا عليك الفرص لأنك لم تكن من المحاسيب والازلام، واحتضنت حريتك ومناقبيتك مدافعا عن الناس المظلومين ودفع الغبن عنهم وعن حقوقهم . . . عدت الى بلدتك بعد كل المعاناة، فسعيت الى تفعيل المدرسة فيها، واخترت لتكون رئيسا لمجلس الاهل في ثانويتها. ثم رحلت وانت تتمنى أن تراها وقد اصبحت صرحا تربويا شامخا. . »

وينهي السيد امين زرقط مرثاته بمخاطبة الراحل الكبير قائلا : كانت آخر كلماتك لي : « إن اخوتي قد تضاعفوا. . كيف لا وقد بسطوا اذرعتهم لتسحب منها الدماء وتنقل الي؟ ! لقد امتزجت دمائي بدماء اهلي واحبتي، فكلهم لي اخوة. . »

واخيرا عزاؤنا انك زرعت وغرست، فأملنا كبير بابنائك ورفاقك أن يتابعوا درب جهادك وكفاحك، لأننا بحاجة لمن هم بنوعيتك. . . فلا بهرجة ولا اضواء. . . بل حب وتواضع ووفاء. .



من الفعاليات الاغترابية الشابة البارزة

تيسير شرف الدين :

النجل الثاني للمرحوم عمنا السيد حسين جواد شرف الدين، ولد في الزرارية عام ١٩٤٢، وبعد ان تلقى علومه الابتدائية والثانوية التحق بذويه في ابيدجان (شاطىء العاج) وبدأ، هو وشقيقه الأكبر رفيق، يساعدان والدهما في اعماله التي نهضا بها من تعثرات كثيرة خاصة بعد أن كبرت العائلة ـ الى مستوى كاف لتأمين العيش الكريم والتمكن من تعليم باقي الاشقاء : نصير ومنصور وبشير وطارق ونهلة وسهاد كما الحقا باعمالهما اخاهما من ابيهما رشيد.

ثم انطلق هذان الشقيقان الاكبران في توسيع ميادين العمل فأنشآ منشرة لصناعة الموبيليا ومحطة بنزين وسينما. ولم يكتفيا بذلك فيمما شطر منروفيا (عاصمة ليبيريا)حيث تمكنا من الحصول على امتياز باستخراج الاخشاب العملاقة من كبرى غابات هذا البلد. وتكر سبحة الاستثمارات الناجحة في غابات افريقيا.

وبعد سنوات ينفصل الشقيقان عن توافق تام وبمباركة من الابوين : رفيق الى لبنان حيث تابع استثماراته الخاصة في المصارف اللبنانية وفي العقارات وانشاء المصانع ،

وتيسير وسائر الاشقاء في افريقيا يتابعون توسيع رقعة امبراطورية الاخشاب المترامية الاطراف. فاذا بها تمتد الى غابات الغابون والكاميرون ودولة غينيا الاستوائية اخيرا وليس آخرا.. باذن الله وهمة تيسير وطموحاته التي لا تعرف حدودا...

وها هو تيسير يستعد لانشاء مصنع للبلاستيك في ابيدجان مدينة انطلاقته الاولى في دنيا المال والاعمال(١)

مزاياه : يتميز تيسير بقدرة هائلة على التحرك وذهن شبابي نشط قادر على التصميم والرؤية الصافية لآفاق المشاريع الناجحة. حتى اذا تأكد من صوابيه اي مشروع سارع الى تنفيذه بثقة لا تعادلها الا ثقته بالله وبأدعية ورضا الوالدين.

ومن صفاته على الصعيد الاجتماعي انه رغم كل هذا الثراء الذي اكتسبه بالحلال والجهد الشخصي المتواصل انسان «همشري» متواضع، عاملي الهوى، قروي التصرف واللهجة والحرص على صداقاته العائلية والشعبية في الزرارية. فتراه حين يعود الى موطنه لبنان ولو لفترة عمل قصيرة يسارع الى الزرارية - مسقط رأسه - مارا مرور الكرام ببيروت وصيدا، ليجلس قرب الوالدة (الحاجة زهرة هاشم) والاهل والموقد الشتائي، والجلوس طويلا مع القرويين تحت شجرة الصنوبر المنتصبة على الطرف الشمالي من الجنينة العملاقة المحيطة بمنزل الاهل الرابض على اعلى هضبة في الزرارية، والتسلية بلعب الورق، واحتساء رحيق

---

(١) وتمتد طموحات تيسير شرف الدين الى وطنه لبنان فيوظف امواله في مشاريع انتاجية صناعية وينشىء بالاشتراك مع المهندس الزراعي وضاح فخري مصنعا لانتاج الترابة البيضاء ومساحيق الغسيل والعطورات. كان ذلك منذ سنتين وها هو المصنع او المعمل قد اكتملت عدته وبدأ بالانتاج - ويقع هذا المعمل بالقرب من دارة وضاح في مزرعته كفربدا

الشاي المعتق المحضر بالسماور او الابريقين على الطريقة العاملية [١] الفريدة. . .

ومن مزايا تيسير، وهي كثيرة، انه عطوف ودود سمح اليد، يكره البخل والبخلاء والكبر والمتكبرين، ولا غرو فهو من الجذر الهاشمي الشرف الديني العريق[٢].

لذا تراه يمقت اولئك المتباهين بثرواتهم امام فقراء البلدة والتي جمعوها بالحلال او الحرام. . . الله اعلم. . .

وباختصار : هذا هو تيسير شرف الدين : شاب في مقتبل العمر وعز الشباب وريعان الرجولة. واذا كان لنا من رجاء، فرجاؤنا من ابي معن ان يلتفت الى الزرارية ـ كما التفت شقيقه ابو حسين، ويسعى مع الأشقاء الى تنفيذ وصية المرحوم الوالد بالاعتناء بهذه البلدة المجاهدة والاسهام في تطويرها والعيش فيها. . .

علي نجيب شرف الدين :

من مواليد داكار (جمهورية السنغال) عام ١٩٥٢ تلقى تعليمه الابتدائي في مدارس داكار ثم ارسله والده الى لبنان ليلتحق مع شقيقيه رضا ورياض بمدرسة الفرير في صيدا ومكث فيها حتى البكالوريا وبعدها ذهب مع شقيقه رياض الى مصر لينالا الشهادة التوجيهية المعادلة للبكالوريا اللبنانية القسم الثاني مما خولهما دخول الجامعة : رياض في الجامعة اللبنانية حيث حصل على ليسانس في الادب الفرنسي وعلي في الجامعة اليسوعية حيث حصل على ليسانس في ادارة الاعمال

---

(١) انظر بعض ابيات من قصيدة مجالس الشاى الجنوبية في هذا الكتاب للمؤلف .

(٢) يروى عن احد الائمة انه قال : اذا رأيت هاشميا بخيلا فشك في نسبه . . .

Gestion ولم يكتف علي بها اذ سرعان ما رأيناه يلتحق - بعد سنوات من نيله دبلوم ادارة الاعمال بالجامعة اللبنانية في صيدا منتسبا الى كليه الحقوق فيها، وها هو يصل الى السنة الرابعة النهائية فيها لينال الاجازة في الحقوق. ولعل طموحه العلمي يدفعه الى نيل اجازة جامعية ثالثة. ولم لا؟!

وهكذا وجدنا عليا دائب السعي الى الافضل متطلعا الى تحقيق نجاحات كثيرة على مختلف الصعد. وها هو يبرز - منذ اكثر من عشر سنوات كساعد ايمن لأبيه يدير له بساتينه في صيدا والزرارية بعد ان جاهد هذا الاب طويلا في افريقيا ولبنان قرابة نصف قرن فحق له ان يستريح وان يجد في ابنائه البررة وعلى رأسهم علي خير معين له وخير من يتدبر شؤون تلك الاملاك ويسير بها نحو الافضل والاكمل على الدوام.

ومما يميز عليا ان نشاطه الدائم في ادارة شؤون املاك ابيه لم يصرفه عن النشاط العلمي والتخصص الجامعي. وهذه ميزة قلما وجدناها في شبان هذا العصر.

عرضت على علي وظائف ادارية، جرب بعضها في مصلحة التابلا ين في الزهراني ثم عرضت عليه ادارة احد المصارف في صيدا، لكنه آثر الانصراف الى العمل الحر وفضل العمل في بساتبن ابيه كأي «شغيل» على أن يتقيد بالوظيفة مهما علت درجتها، وحسنا فعل، فلولاه لما وجدنا والده يرتاح في اخريات سنوات عمره الذي نرجو من الله ان يسبغ عليه العافية وطول العمر.

علي متزوج من السيدة نجوى عسيران وله منها حتى الآن ابنة اسمياها نور.

الهواية المزدوجة احترافا يبرره شعور عارم بالمسؤولية.

ينهض باكرا - كل يوم - مصطحبا اباه احيانا، خاصة في النهارات الربيعية

المشرقة . . . وهناك في بستان مستحدث يمتطي ضهر سعاده الرابض على ضفة من ضفاف الليطاني محاذية له، بحيث تأتيهما نسائم مياه هذا النهر الخالد ممزوجة بعبير الدفلى والغوردل والتوت البري مختلطة برائحة زهر الليمون. . . وتمر الساعات تحت ظلال الشجر وهينمات النسيم البليل بعيدا عن صخب المدينة وثرثرات البشر وتكاذبهم وتحاسدهم وعنعناتهم التي لا تنتهي. . . نجيب يتملى ما غرست يداه فيمتلئ بغبطة روحية عميقة. . وعلي ينتقل بين الموتورات والتراكتورات وسيارات نقل الفاكهة وبين العمال ليشاركهم جهدهم باثا فيهم روح العمل والاخلاص واعدا اياهم بزيادة اجورهم. .

ثم يعودان ـ علي ووالده ـ عند المساء وقد امتلأت رئتاهما بالهواء النقي المعطر وشرايينهما بالدم المصفى. . . . ونفسهما بالطمأنينة والسلام الحقيقي. .

وما هم ان يعود علي وعلى وجهه وشاح من غبار المعركة ، معركة الرش وتوزيع السماد الكيماوي ورذاذ المازوت، . . وان تجرح بعض اصابعه لحظة تمرد الموتور البارد على الدوران. . ماهم ان يعود ، والى جانبه والده في البيك ـ آب الملطخ هو الآخر بالتراب يعود وجزمته السوداء مغطاة بالوحل والعشير والاتربة اللزجة من كل نوع. . . فعما قليل سيصل الى دارته على مدخل صيدا الجنوبي (سينبق) ويدخل الحمام ويستبدل ثياب العمل بثياب المدينة ثم يضم ابنته نور الى صدره. . . وكتاب الحقوق الى عقله. .

وهكذا يجتمع على ضهر سعاده ـ كل يوم ـ عاشقان متيمان للطبيعة الفيحاء والارض المعطاء مفضلين زقزقة العصافير وخرير المياه على «جعير» شاحنات المدينة وترهات الناس فيها. . فتراهما يستغرقان بل يغوصان في احشاء الارض في وصال عضوي حميم، وسرعان ماتمنحهما الدفء وترفدهما بالعطاء

بعد أن بثا في حناياها خلاصة العشق وذوب الوصال. . يعودان ولسان حالهما بقول : ما اكرم الارض تعطينا اضعاف اضعاف ما نعطيها وما اعظم الانسان حين يعشقها ويذوب فيها. .

رياض : ويفاجئهما احيانا الشقيق الاوسط رياض آتيا من «تول» حيث يسكن والنبطية حيث يعلم اللغة والادب الفرنسيين . فقد جاء ليغتسل ويتطهر ويزيل ما علق على وجهه وثيابه من ادران المدينة وطباشير الصفوف وينأى بنفسه عن صخب الطلاب وضجيجهم. . جاء ليعانق معهما العشيقة المشتركة : الارض. . . ولا حرام !. .

الشقيق الاكبر رضا : ويبتسم لهؤلاء العشاق المعاميد الشقيق الاكبر رضا بالرضا الكامل عما يفعل هؤلاء العشاق ويدخل معهم مشاركا ومداعبا. . . يبتسم والمعول في يده ومحبة الارض في قلبه. .

اما انا ـ عمهم ـ فحسبي منهم هذا الغزل المكشوف والمستتر اسجله هنا ليبقى مني شهادة حق ونداء صدق اوجههما الى الاجيال الطالعة ليولوا الارض التي اطلعتهم ما تستحقه من الرعاية والاهتمام ودفع الاذى عنها كلما طمع فيها الطامعون من شذاذ الآفاق وارباب النظام العالمي الجديد.

الا ان ارضا لا يحميها ابناؤها بل عشاقها. . . تصبح لقمة سائغة في فم كل غول. . فكيف بأرض جبل عامل التي باركها الله واقسم بها وبتينها !

فهي اذن ارض مقدسة ولقد زادت قداسة حين جبلت بدماء المقاومين المؤمنين المستشهدين بين يدي الله وكرمى لعينها وعين الوطن. .

ريما خليل شرف الدين :

ابنة المؤلف الوحيدة من زوجته المرحومة اكرام عسيران التي ادارت شؤون

ثلاث مدارس على التوالي : اعدادية الكلية العاملية للبنات في بيروت، اعدادية الكلية الجعفرية للبنات في صور. ثم انصرفت بكل جهدها وخبرتها الى ادارة مدرستها الخاصة : جنة الطلبة في صور، والى تربية ريما تربية مثالية. وهي حائزة على وسام الاستحقاق اللبناني ١٩٤٩. ولدت ريما سنة ١٩٦١، تلقت علومها في سن مبكرة في مدرسة الراهبات في صور حيث نالت شهادة السرتفيكا الرسمية وهي في التاسعة من عمرها. تابعت دورسها المتوسطة في مدرسة الراهبات في صيدا (القسم الداخلي) حيث نالت ثلاث شهادات للبريفية : الرسمية والفرنسية والمدرسية. وبعدها دخلت ثانوية الراهبات في بيروت (القسم الداخلي) حيث نالت شهادة البكالوريا الرسمية الفرع العلمي.

وحين اشتدت الحرب الاهلية في لبنان (١٩٧٧) لم نستطع ابقاءها هناك، وجئنا بها لتنتسب الى ثانوية صور لتحضير البكالوريا القسم الثاني فرع العلوم الاختبارية التي نالتها بجدارة ملحوظة. بعد ذلك دخلت كلية بيروت الجامعية (القسم الداخلي ايضا) وكان عليها لكي تتمكن من التخصص هناك ان تحضر دروسا مكثفة في اللغة الانكليزية لمدة سنة لكنها انهت المقرر في ثلاثة اشهر فقط وتقدمت للامتحان ونجحت. وبعد سنة نالت شهادة في الكيمياء وفي السنة الثانية نالت دبلوما في العلاقات الدولية العامة.

تزوجت ريما من الشاب الجامعي يزبك يزبك وانجبا حتي الآن ثلاث بنات هن : بانا وتانيا واكرام ثم انجبا شقيقاً لهن سمياه عبد الله.

ورغم كون ريما اما مثالية تسهر على تنشئة افراد العائلة تنشئة صالحة وتساعد البنات على تحضيردروسهن فانها تساهم في عدة نشاطات اجتماعية وتربوية من خلال عضويتها في جمعية بيت المرأة الجنوبي التي ترأس

فرعها في مدينة صور الدكتورة السيدة رفاه شحادة قصير المتخصصة بعلم الاثار.

تضم الجمعية من بين اعضائها سيدات جامعيات شابات امثال ريما يعاون الدكتورة رفاه في تأمين حسن سير العمل في الجمعية وتأمين المساعدات والهبات من مختلف المصادر المحلية والاقليمية والدولية ثم يقمن بتوزيعها على المحتاجين من اهالي صور والجوار. وقد اسست الجمعية في مقرها الجديد مكتبة نموذجية للاطفال وزودتها بكل ما ينمي في الطفل مواهبه وهواياته. وتطمح الجمعية الى انشاء مدرسة حديثة للاطفال بعد ان حصلت على مساحة ١٥ دونما من اراضي جفتلك صور التابع للدولة ولبلدية المدينة. ومما يميز هذه الجمعية ويزيد من فاعليتها واقبال المحسنين على مساعدتها ماديا ومعنوياً انها، رئيسة واعضاء، لا تحب الظهور والابتزاز وفرض ما يشبه «الخوات» على المساعدين . . فهي تعمل بصمت بعيدا عن اضواء الحفلات الطنانة. . كل همها الاهتمام بالفئات الشعبية المحتاجة وتقديم المعونات العينية لها كلما سمحت الامكانيات للتخفيف ما أمكن من آلامها ومعاناتها. وكذلك الاهتمام بالطفل وإعداده ليكون رجل المستقبل المرتجى. والجمعية تنأى بنفسها عن أن تصبح كبعض الجمعيات النسائية في لبنان التي لا تعدو كونها وسيلة للارتزاق المشبوه. . ومأوى للعجائز اللواتي يتخذن من مقار جمعياتهن تكايا للثرثرة وتقطيع الوقت بانتظار جودو الذي لا يأتي ابدا. . .

- تتمتع ريما بكفاءات عالية. ولا نقول هذا من باب العاطفة الابوية فهي تمتاز بذكاء حاد ومؤهلات كثيرة كاتقانها ثلاث لغات كتابة وتعبيرا هي العربية والفرنسية والانكليزية وكذلك بالاتجاه العلمي في جميع مراحل دراستها مما جعلها تتحلى بالتفكير المنطقي والواقعية، ومع ذلك فهي تتذوق الادب ويثيرها الشعر الجيد وتشارك في الندوات الثقافية التي يلقى فيها. وتعجبها الحكم والامثال لأنها

خلاصة تجارب الشعوب في حياتهم العامة وحين تعجبها مجموعة منها «تبروزها» وتعلقها في غرفة نومها سواء كانت تلك المجموعة بالعربية او الفرنسية أو الانكليزية.

ويهذا نكون قد كسرنا القاعدة عندما نؤرخ للأحياء من بناتنا وابنائنا بدل ان يؤرخوا هم لنا في حياتنا او بعد مماتنا. . وما فعلنا ذلك يشهد الله الا لتكون هذه النماذج الحية مثلا تحتذيه الاجيال الطالعة لا سيما النماذج النسائية البارزة. .



المرأة العاملية : قديما وحديثا

الحياة الاجتماعية : كانت المرأة العاملية، زوجة او ابنة او اختاً، في اسفل درك اجتماعي تكاد تتساوى فيه مع اي شيء ما عدا الانسان!

وللأمس القريب أي حتى مطلع هذا القرن كنت ترى وتسمع الزوج الامي القروي يستحي من ذكر زوجته، مع انها ام اولاده وساعده الايمن في الحقل وفي الدكان وفي الفلاحة والقطاف وعلى البيدر وفي كل مكان غير أنه لأميته وجهله المطبق، كان لا يرى فيها اكثر من آلة للعمل وللإنجاب . .

لكن، ما ان اطل هذا القرن العشرون حتى بدأت تنقشع غيمة الجهل شيئا فشيئا عن عيني الرجل العاملي الذي كان يغط في سبات عميق، في امية مفروضة عليه من حكام تلك الحقبة : حقبة ما قبل القرن العشرين. . . صحيح ان الحوزات الدينية كانت منتشرة في جبل عامل منذ قرون، لكن نصيب المرأة كان شبه معدوم، والعلماء المتخرجون من تلك الحوزات او من النجف الاشرف في العراق كانوا ـ في اكثريتهم الساحقة ـ لا ينظرون الى المرأة من زاوية كونها نصف المجتمع، وانه يجب ان تتعلم وان تتفقه في الدين وعلى الاقل في امور بيتها

واسرتها. . بل من زاوية كونها زوجة مجرد زوجة عليها ان تطيع زوجها، وان تكون مخلصة بارة، ولودا ودودا لا اكثر ولا اقل. . .

مواعظ كان عاقد القران يطلقها على مسامع العروس. . وقلما كانت هذه المواعظ تلامس مسامع العروسين واذا لامستها فهي لا تلامس شغاف القلب او الوجدان او العقل حيث لا عقل مثقفا ولا من يعقلون. . . باستثناء القليلات القليلات .

الدخول في العصر :

لكن ما إن بدأت شعاعات النهضة العربية تنتشر في لبنان وسوريا ومصر والعراق حتى رأينا جبل عامل وهو الزاخر بالكفاءات المكبوتة يدخل فيها ناهلا من ينابيعها، ثم مشاركا في انمائها واغنائها. مع العلم ان هذه النهضة الفكرية والادبية والاجتماعية قد تأخر جبل عامل عن اللحاق بها قرابة قرن كامل. بسبب عوامل سياسية ودينية خارجية لا حيلة له فيها. فقد كان جبل لبنان سابقا له إليها بفعل اهتمام الغرب وخاصة فرنسا بجبل لبنان حين استقدم اليه البعثات الدينية والمدنية وانشأ فيه المدارس التي ادارتها الارساليات، ثم استقدم منه البعثات لتستزيد من علمه وتعاليمه في مدارس روما والفاتيكان وباريس. .

اذن، ما ان بدأ كابوس «الرجل المريض» ينزاح عن هذا الشرق وعن لبنان وسوريا، وجبل عامل بالذات، ثم اندثر نهائيا بعد الحرب الكونية الاولى، حتى بدأنا، بالرغم من محاولات فرنسا المنتدبة تأخير هذه البداية، نسابق الزمان والمكان طلبا للعلم الحديث اينما كان. . . فأنشأنا المدارس والجمعيات والنوادي والمجلات والمطابع (على قلتها)، وارسلنا البعثات والمتفوقين من ابنائنا الى مصر واوروبا والاميركتين حتى ابناء البيوتات الدينية الذين يريدون متابعة تحصيلهم الديني في

العراق وايران، اصبحوا يذهبون الى هناك مزودين بالعلوم والآداب الحديثة بعد انهاء دروسهم الثانوية او المرحلتين الابتدائية والمتوسطة على الاقل. حتى اذا عادوا بعد سنوات عادوا غير منغلقين.

طائرة الفينيق. .

وها هي المرأة العاملية وليدة هذا الجو المنفتح، تقبل مع شقيقها واخيها على العلم بشتى فروعه ينهلون منه ، دون خوف، ويبدعون فيه. وها هي زينب فواز معاصرة مي زيادة، تبرز وبرعاية خاصة شاعرة وروائية، كما برزت مي في مصر باحثة وشاعرة مجددة. وكما ابدعت زينب العاملية ابدعت مي اللبنانية فكانتا هنا وهناك رائدتين نهضويتين مرموقتين.

لكن البحث الموضوعي يقتضينا القول بأن زينب لم تكن ظاهرة نهضوية نسائية طبيعية في مجتمع عاملي متطور. بل كانت نتيجة لبيئة خاصة. اذ تشاء الصدف ان تعيش تحت رعاية اسرة ارستقراطية هي عائلة آل الاسعد في تبنين حيث تعهدتها ربة تلك الاسرة فاطمة الاسعد برعايتها وتشجيعها على الانصراف الى الادب وقرض الشعر. فزينب اذن لم يفرزها مجتمع عاملي لم يبدأ بعد بالتطور، بل افرزتها او اكتشفتها امرأة متنورة تحب الادب والشعر. كما تحب ان ترى بين حاشيتها من يفهم الادب والشعر. . ولو كان العكس صحيحا لرأينا لها زميلات كثيرات في زمنها. . . فالمواهب العاملية عند الرجال والنساء كثيرة ومتعددة يزخر بها هذا الجبل، ولكنها ظلت مكبوتة، والدليل انه ما ان نترك وراءنا عهود الاقطاع والتمييز العنصري العثماني وندخل في القرن العشرين حتى نجد المجتمع النسائي في جبل عامل يفرز الكثيرات من اخوات زينب فواز ومي زيادة، اللواتي شرعت امامهن ابواب العلم والمعرفة في جميع مراحلهما فانتشرت

المدارس في جبل عامل من رسمية وخاصة لا سيما في مطلع النصف الثاني من هذا القرن. ففي كل قرية او بلدة او مدينة اصبحنا نجد في كل عام مدرسة رسمية واخرى خاصة ، تقامان للبنين والبنات مختلطة وغير مختلطة، كما في صيدا وصور والنبطية وجباع وانصار والزرارية وتبنين وبنت جبيل، وغيرها من مدن وقرى هذا الجبل المحب للعلم والعطاء والادب والادباء والشعر والشعراء وباعداد وافره منذ كان. .

وها هي دولة ما بعد الطائف تحس، ولو متأخرة، بالحيف القديم اللاحق بجبل عامل فتسعى الى اقامة فروع جديدة للجامعة اللبنانية في صيدا. وحبذا لو أُتبعت هذه الفروع بفروع للعلوم التطبيقية كالطب والهندسة والتمريض وادارة الاعمال والزراعة وسوى ذلك ـ اذن ـ لوفرت على ابناء الجنوب الكثير من الجهد والمشقات والمال. .

الخريجات لا يكتفين بالدبلوم :

ومن المتخرجات من لم يكتفين بدبلوم الجامعة او المعهد فسافرن الى اوروبا واميركا وروسيا لنيل الماجستير والدكتوراه، ثم عدن ليتبوأن أعلى المراكز الجامعية كالدكتورة هيام منير مروه (من الزرارية) التي هي الآن عميدة كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية في صيدا [١]. والدكتورة فهمية شرف الدين (من الطيبة) المحاضرة في الجامعة اللبنانية بكلية العلوم الاجتماعية، وعضو فاعل في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي وغيره . كما تتمتع الدكتورة فهمية بحس عربي قومي سليم مدعم بفكر علمي موضوعي رائد والدكتورة رفاه شحادة قصير المتخصصة في علم

(١) انظر نبذة عنها في باب عائلات الزرارية من هذا الكتاب .

الآثار. وولى عسيران الحاج علي وريما خليل شرف الدين /يزبك/ والدكتورة هدى عسيران مديرة فرع البنك اللبناني ـ الفرنسي في صيدا والدكتورة لمى عبد الكريم شرف الدين ونجاة فخر الدين فخري امينة سر رابطة المرأة العربية في اوستراليا ومراسلة صحفية على مستوى العالمين العربي والعالمي وعضو في نقابة الصحفيين في ولاية فكتوريا باستراليا منذ حوالي عشرين عاما»، والكيميائية عطاف فخري السهلي (من الزرارية) والدكتوره عليا توفيق حلاوي المرعبي المحاضرة في كلية بيروت الجامعية والجامعة الاميركية وغيرهن وغيرهن. .

المرأة العاملية الحديثة شاعرة ورسامة :

وهناك في جبل عامل جيلان من الشاعرات المشهورات :

وعلى رأسهن الشاعرة المعروفة السيدة زهرة الحر شاعرة جبل عامل بامتياز، وها هي بالرغم من تخطيها السبعين من العمر لا تزال شاعرة الندوات الادبية العاملية، ورائدة من رواد النهضة الادبية والشعرية في هذا الجبل المعطاء. وللشاعرة زهرة دواوين كثيرة مطبوعة آخرها رياح الخريف. ويمثل الجيل الثاني الذي نحا نحو الشعر الحر او شعر التفعيلة الواحدة بعيدا عن الالتزام بالقافية الواحدة او الشعر العروضي، كثيرات ممن لم يتح لهن الظهور بعد والشهرة منهن مازلن في طور التجربة الاولى ومنهن من دخل في دائرة الضوء كالشاعرة مي ناصر الخ. .

والمرأة العاملية فنانة مبدعة :

ومن الفتيات العامليات اليوم من تخصص في شتى الفنون الجميلة كالرسم والنحت والارتيزانا والموسيقى والمسرح والسينما، واقامة المعارض للوحاتهن

واشغالهن كيسار نعمة صفي الدين من مدينة صور التي لا تزال تقيم المعارض في داكار وابيدجان والمغرب وباريس.

وكالسيدة ام مالك هاشم التي ابدعت في فن الارتيزانا ايما ابداع. وكجوليا بطرس في الغناء والاناشيد الوطنية وغيرهن.

والمرأة العاملية مقاومة من الطراز الاول :

وكما قاومت المرأة العاملية سياسة التجهيل والإلغاء في أوائل هذا القرن وأواسطه، ها هي اليوم تبرز مقاومة بالاظافر وقضبان الحديد والزيت المغلي وكل ما ملكت يداها من ادوات المقاومة وكان منهن المستشهدات الانتحاريات والمجندات في صفوف المقاومة الوطنية اللبنانية والفلسطينية. . كيسار مروه ذات الربيعات العشرين التي طالما «ابكت عيون امهات الجنود الصهاينة» على حد تعبير احد القادة الاسرائيليين حين خاطب والدة يسار في الزرارية عشية دفنها. .

وباختصار شديد نقول :

ان المجال يضيق في هذا الكتاب عن ذكر تفاصيل ومظاهر النهضة النسائية وممثلاتها في جبل عامل لأنها نهضة متشعبة الابعاد تحتاج الى رصد متأن ودقيق يسجل في كتاب برأسه فنحن ـ هنا ـ لا نقدم احصائيات بل نقدم نماذج ليس إلا.

وكأنني بهذا الفيض الغزير من رموز هذه النهضة النسائية المباركة جاء ليثأر لكرامة المرأة العاملية التي اهملت اهمالا في القرون الماضية واقتصر دورها على الانجاب القسري، إذا صح التعبير، تأرت لأمها وجدتها حبيستي الجهل والامية، والاوهام، رهينتي العادات والتقاليد البالية والتداوي بسكب الرصاص على رأس

الطفل المريض ليشفى، فاصبحت حفيداتهما اليوم يسكبن الرصاص في صدور الاعداء وعلى جثة الطاغوت المثلث الرؤوس :

الجهل والفقر والمرض. .

اجل هكذا تعملقت المرأة العاملية بالعلم والايمان فابدعت في كل ميدان.

ولم يعد ينقصها - بعد أن دخلت البرلمان في لبنان سوى الوزارة والسفارة - والتاريخ لن يعود الى الوراء. .



الشعراء المغتربون

شاعر بالفطرة وعروبي بالاصالة

ـ السيد علي محمد هاشم : من مواليد الزرارية عام ١٩١٦. بدأ تحصيله الابتدائي في مدرسة البلدة الرسمية التي انشئت مطلع عهد الانتداب الفرنسي الى أن نال الشهادة الابتدائية. ثم تابع تحصيله على يد المرحوم الاستاذ الشيخ محمد بلال الذي كان يتمتع بشخصية تربوية محببة وباسلوب طريف في التعليم والتربية وعندما جاء الى المدرسة الحكومية الاستاذ والعلامة اللغوي الشيخ علي شرارة تابع تحصيلة الثانوي على يديه كالبلاغة والعروض والنحو والادب نظمه ونثره. توقف السيد علي عن متابعة التحصيل عندما اتيح له أن يشد رحاله الى ديار الاغتراب شأن الكثيرين من ابناء الرعيل الثاني الذين دفعتهم الحاجة الى ترك مقاعد الدراسة يحدوهم طموح شديد الى التعويض عن العلم بالعمل وعن النقص في المعرفة الى الوفر في المال والكرامة.

هاجر السيد علي قاصدا داكار السنغال فتلقاه بالترحاب ابن عمته عمنا السيد حسن جواد شرف الدين وحنا عليه حنو الاب على ولده ومكنه من البدء

بالعمل بعد ان زوده بكل اسباب النجاح من الاعتماد على النفس والصبر والمجاهدة والصدق في المعاملة الى هذه الصفات الحميدة الرشيدة التي لا يزال السيد علي يذكرها لابن عمته ويقدرها ويعيش على هديها. . .

بعد أن ذاق في دنيا الاغتراب حلو الحياة ومرها طوال خمسين عاما عاد السيد علي الى وطنه لبنان واستقر في بلدته الزرارية ليقضي بقية عمره (المديد ان شاء الله) بين أهله وذويه ولداته موفرا من المال ما يحفظ الكرامة والعيش الرغيد.

كان طوال مدة اغترابه يحن الى العلم والمعرفة والادب فاتقن هناك اللغة الفرنسية كأحد ابنائها كتابة وخطابة. ولم ينس وطنه العربي الكبير وما عصف به من احداث فتفجرت به مشاعر الوطنية والقومية فاطلقها قصائد عامرة تضج بصدق العاطفة القومية واعمق مشاعر العروبة الصافية. حتى إنه كان يفخر ويعتز بأنه عاش عصر عبد الناصر الذي جسد العروبة في شخصه ونهجه وانجازاته الوحدوية الرائعة رافعا بها رأس العرب من المحيط الى الخليج الامر الذي اقض مضجع الغرب الاستعماري ورأى فيه، ولاول مرة، الخطر الاكبر على مصالحه في الشرق الاوسط كله.

ها هو شاعرنا يعود الى وطنه الصغير لبنان سنة ١٩٨٧ ليعيش في بلدته الزرارية بهدوء وراحة بال بعد أن ادى رسالة الاغتراب خير أداء مناضلاً على جبهتين : جبهة العمل في سبيل الكرامة وجبهة الجهاد في سبيل نصرة القضايا العربية وعلى رأسها القضية الوطنية والدعوة تحت راية عبد الناصر الى الوحدة العربية الشاملة السبيل الوحيد الى انتصار تلك القضية مسخرا ماله وقلمه ونبضات قلبه للتعبير عما يكنه من لواعج وخطرات.

وها نحن نثبت بعض تلك الخطرات واللواعج مختارين من قصائده الطويلة العامرة أهم ابياتها معتذرين لهذا الشاعر المجاهد عن استحالة اثباتها كلها

في هذا الكتاب اذ هي جديرة بأن يحتويها ديوان برأسه. قال من قصيدة اهداها الى روح القائد العربي الشهيد الفريق اول عبد المنعم رياض رئيس اركان حرب القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة والذي سقط في ٩ آذار ١٩٦٩ اثناء حرب الاستنزاف :

اسفا كماة العرب يأفل نجمهم — قبل اندحار الخصم والنصر المبين
اسفا رياض العرب تذهب قبلما — تستأصل الاعداء والداء الدفين
حتى الشهادة توجتك بتاجها — وسقطت جوادا بروحك لا ضنين
وكتبت للاجيال اروع صفحة — في البذل والاقدام كيلا تستكين
مهما الفجيعة ارهقت لن ننثني — ما دام فينا ناصر العرب الامين

والبث بالعامية عند شاعرنا، كما البث بالفصحى : قطع وجدان وصدق وطنية وايمان : قال بالعامية وقد هزت كيانه بطولات الجيش المصري الناصري في حرب الاستنزاف ١٩٦٩ :

وقعا كبيري وقعتنا — والحرب من عادتنا
ومهما تألبوا الاعداء — لازم نربح جولتنا
لازم ما ينسوا حطين — البتذكرهم سيرتنا
ومهما انحازت اميركا — ما بتضعف همتنا

وله خطبة في ذكرى اسبوع عبد الناصر فجر فيها كل لواعجه واعمق مشاعر الاسى واللوعة على فقد اعظم زعيم عربي ظهر في العصر الحديث. ختمها بهذه الابيات تحت عنوان : فاجعة العرب الكبرى

عمت بلاد العرب اكبر نكبة — واهتزت الدنيا وغاب الفرقد
والارض مادت والسماء تململت — وخبا الشعاع الناصري المرشد

والنيل في مجراه غيّض حسـرة وتصدعت اهرام خوفو الامجد

و«الهول» عظم الخطب هز كيانه فتحسس المأساة وهو الجلمـد

ومن الخليج الى المحيط شعوبنـا تبكيك يا رمز النضال وتجلـد

بلغ صلاح الدين انـك مقبـل يلقاك في الفردوس وهو يزغرد

وله في الغزل قصائد تعبر عن تجربة حية عاشها الشاعر مع غادته الشقراء التي شغفت قلبه عام ١٩٧٢ فناجاها بابيات رقيقة مطلعها :

شقراء من حسنها الالباب تختبل وتهز اوتار القلوب وتشعـل

ولم يسلم من نقمة الشاعر وغضبه على العميل السادات الذي جاء شر سلف لخير خلف فهجاه بقصائد لاذعة مشفقا على العروبة في عهده المشؤوم لا سيما بعد زيارته المشينة للقدس، اما احداث لبنان ومأساته التي تجسدت في مذبحة السبت الاسود سنة ١٩٧٦ وغيرها من المجازر الطائفية البشعة فقد وقف الشاعر حيالها مذهولا لا يكاد يصدق ان هذا البلد الجميل لبنان تكثر فيه الغربان من كل طائفة تعبث فيه فسادا وتشوه جماله وتغتال قادته الاحرار مثل القائد المعلم كمال جنبلاط وينتهي لبنان باستسلامه للعدو الصهيوني الغازي ومجيء المجرم بشير الجميل رئيسا للجمهورية في ظل الحراب الصهيونية.

وهكذا يعيش شاعرنا الاحداث العربية واللبنانية حدثا بعد حدث وهو يتضور حيالها الما وحقدا واشفاقا، في قصائد بل في مطولات خانها التركيز العروضي والابداع البلاغي ولم تخنها حرارة التجربة وعمق الاحساس بقضايا العرب واللهفة على غدهم بعد فقدانهم للقادة الاحرار وتسلم دفة الحكم - في اغلب الاقاليم العربية - عملاء ولصوص ومأجورون. . .

بهذا كله نجد شاعرنا يخرج من الدائرة الطائفية والمذهبية الضيقة الى الدائرة

اللبنانية العربية الاوسع منشدا الاماني العربية والطموحات الوحدوية المتجسدة في عبد الناصر، ثم بعد رحيل «الهرم الرابع» نراه، في قصائده، ينشج متألما حتى يكاد يبكي مصير الامة العربية القاتم، لولا نخوة يعربيه فيه ويقين اسلامي راسخ بأن امة اطلعت محمدا وعليا وحسيناً وجمالا وصلاح الدين امة لا يمكن إلا أن تطلع امثال هؤلاء العظماء والقادة الانقلابيين. . . وعلى الاقل، تلامذه لهم ومقتدين، وثوارا محررين. ولولا خوفنا من التطويل لأوردنا شواهد من شعره ، وهي كثيرة تؤكد ما ذهبنا اليه.

وكلنا أمل ورجاء من شاعر آل هاشم (في الزرارية) أن يتحفنا بقصائد جديدة يصور فيها آلام وآمال امته العربية، ثم يجمع كل قصائده القديمة والجديدة في ديوان مطبوع تقرأه الاجيال الطالعة وبخاصة اجيال الزرارية المثقفة التي سترى فيه حلقة وصل بين القديم والحديث وبرهانا على أن مغتربينا من الجيل الثاني لم يكتفوا بالجهاد من أجل جمع المال، بل وجدنا بعضهم امثال شاعرنا، يفجرون مواهبهم الادبية في قصائد ذات مستوى فني ضعيف الا انها عامرة بروح ثورية عارمة ولواعج شوق وتوق الى الوطن، ومشاعر وطنية وقومية ملتهبة، واحاسيس انسانية تجاوزوا في بثها حدود اوطانهم. . مضيفين الى مجد المادة مجد الادب . نعد من هؤلاء ولا نعددهم المرحومين : ابرهيم بلال ابا بشير والاستاذ احمد علي مروه، وشاعرنا الفتى الهاشمي السيد علي محمد هاشم اطال الله عمره.

المجاهد ابراهيم بلال (ابو بشير) :

ولد في الزرارية عام ١٩٠٩ وتوفي عام ١٩٨٥.

احد القلائل الذين لم يكتفوا بالتجارة والربح المادي في افريقيا (ابيدجان ـ شاطىء العاج) بل صرف كل همه وماله على تعليم اولاده حتى التخرج. فكان

منهم اربعة مهندسين هم بشير وحيدر ونذير وبشار، وطبيبة هي الآنسة مي، واخرى صحفية متخصصة هي لبنى واخرى متخصصة في المحاسبة هي اسمى. وقد تميزوا جمعيهم بالنبوغ كل في مجاله.

اشرف ابو بشير على تأمين معيشة اولاده خاصة بعد وفاة زوجته فانقطع لخدمتهم وتوفير راحتهم المنزلية تماما كأمهم : فهو الطاهي وهو مدير المنزل وهو الغاسل والكاوي، مع أنه كان بامكانه الاتكال على الخدم - وما اكثرهم هناك لكنه آثر أن يباشر خدمتهم بنفسه(١).

سجاياه : كان المرحوم ابو بشير متفردا من بين ابناء بلدته المغتربين باحترام كل من عرفه وعاشره، فقد كان يفرض هيبته واحترامه على الجميع فلا نقيصة فيه ولا معرة. . . مجلسه عابق بالطرافة والظرف وحب النكتة والسخرية غير الجارحة.

مهاراته قبل الاغتراب : عرفت ابا بشير قبل اغترابه تلميذاً في مدرسة الشيخ محمد بلال ثم استاذا فيها (على ما اذكر) ثم انصرف لاشباع رغبته في فن البناء الذي برع فيه وتجاوزه الى فن النحت وحفر الخطوط الجميلة من كوفي وفارسي ورقعي وثلث. فحفر الحكم والتواريخ الشعرية على شواهد القبور ورتاجات المنازل الحديثة. فهو الذي حفر ذينك البيتين اللذين نظمهما المرحوم والدنا وقام ابو بشير بحفرهما على رتاج منزلنا في الزرارية واللذين لايزالان شاهدين على مهارته في الحفر والنحت والتجميل. . .

---

(١) استقينا هذه المعلومات من ابن اخي زوجته الصديق الاديب الاستاذ نصر الظاهر الذي عاصره وعاشره في ابيدجان .

لكن همة ابي بشير وعصاميته اهابتا به الى الهجرة ـ كأمثاله ـ فهاجر (1) هربا من الضيق والعسر الذي بلغ بالكثيرين حد الاملاق، وبعدا عن ذلك النوع من الحياة التي يحياها بنو وطنه وبلدته بين استغلال المستعمر الفرنسي واذلاله وبين تسبيح بحمده من قبل زعماء محليين تحولوا الى عملاء له وحملة مباخر على اعتابه. . .

أما الشعب فغارق في تسكعه وركوعه وهوانه يفتك به ـ فوق كل هذا ـ تباغض وتقاتل بين العشيرة الواحدة والقرية الواحدة.

وهناك تحركت في سويداء ابي بشير كوامن الشاعرية التي تعتلج في كيان كل لبناني وكل عاملي حر. وتفتقت قريحته عن قطع شعرية وجدانية لاهبة فجاءت مزيجا من لواعج الحنين الى الوطن والبكاء فيه بله النقمة على ابنائه الذين لم يعرفوا قيمة هذا الوطن ولا مطارح الجمال فيه فضاعوا بل ضيعوا في متاهات حزازات عشائرية وترهات سياسية، واستزلامات زعامائية بغيضة.

قال من قصيدة هي من بواكيره، شطرها له حموه (والد زوجته)الشاعر العاملي المعروف الشيخ عبد المحسن الظاهر :

قالوا هلم الى الاوطان قلت لهم	لهفي على وطني من شر خلاني
يبدون صفحتهم بيضاء ناصعـــة	وتحت طياتها تسعـــار نيـــران

(1) لكنه هاجر من هجرة بلده الى هجير افريقيا . وهذا التعبير : هجرة وهجير هو عنوان لديوان شاعر اغترابي مرموق هو الاستاذ احمد محمد سعد من معركة (قضاء صور) صدر هذا الديوان حديثا وقد اهداني الشاعر نسخة منه وكان اعجابي بعنوانه لا يقل عن اعجابي بمحتواه ـ المؤلف ـ

حتى اذا امكنتهم فرصة وثبـــوا يفرون قلبي باظفـــار واسنــــان

برئت يا وطني من ساكنيك وما برئت يا وطني من حب أوطاني[1]

ولأبي بشير فلذات حارة هي قطع الوجدان الملتاع يصبغ بدمائها تلافيف صوره ويصوغ منها آيات رائعة معبرة عما يكابده هذا المغترب من معاناة وتجارب قاسية مر بها في غربته : غربتيه عن الوطن وغربته فيه. .

رياض عبد الخالق : او العمى المبصر

من بين «زواريب» وازقة الزرارية القديمة تبهر عيوننا وتثير اعجابنا قصة نادرة الحدوث في هذا العصر، في هذا الجبل العاملي المشغول عن الابداع بالأوجاع.

قصة تضاف الى سجل الزرارية الزاخر بالعطاء والتضحية انها قصة رياض عبد الخالق الذي ولد في الزرارية وفقد بصره وهو لم يتجاوز الثانية من عمره. ثم فقد أبويه وهو لم يبلغ بعد سن المراهقة. فكيف يعيش اذن ومن يعيله؟

وتتدخل العناية الالهية والذكاء الحاد ليعوضا عليه ما خسره. ولعلنا في سرد جانب من تصرفاته ـ حين كان في الخامسة من عمره ـ ما يشير الى تلك العناية وذلك الذكاء :

ـ خرج رياض يوما ليلعب مع لداته في ازقة الزرارية واثناء ممارسته للعب بحذر شديد وقعت مشاجرة بين اولاد الجيران حول لعبة «الكلل» وايها لهذا وايها

---

(١) عثرنا على هذه المقطوعة الشعرية وتشطيرها في اطروحة للدكتوراه اعدها الزميل الاديب والشاعر والمحقق الدكتور محمود عيسى بعنوان : الشاعر عبد المحسن الظاهر في ديوانه الدر الفاخر ص ٢٢٩ من الاطروحة التي نأمل من الزميل الدكتور ان يخرجها مطبوعة في كتاب نظرا لقيمتها الادبية والتاريخية ـ المؤلف ـ

لذاك الحمراء او الصفراء أو الزرقاء؟ فسمع رياض شجارهم على الالوان وسألهم : هل ترون هذه الألوان؟ فصاحوا به : ولماذا لا تفتح عينيك لتراها!

اثارت هذه الصيحة الصبيانية في نفسه مشاعر الألم واللوعة واظلمت الدنيا في عينيه اكثر مما كانت مظلمة.. وعاد الى بيته كسيرا يتلمس جدران البيوت ليصل اليه وليسأل امه : هل ولدت ضريرا يا اماه؟ فأجابته : لا يا ولدي. انك لم تولد ضريرا ولكن حمى اصابتك في رأسك فذهبت ببصرك يوم لم يكن هناك اطباء ولا متخصصون في امراض العيون وغير العيون.

وتمضي الايام ويبلغ الثالثة عشرة من عمره حيث اصبح يعتمد على نفسه في التنقل بين احياء الزرارية رافضاً ان يساعده احد حتى ولو كان من اقربائه.

شخصيته : بدأت شخصية رياض تنمو وتتكامل وتنضج فيها ارادة لاتلين : إنه يريد أن يعمل وينتج ولن يكون فقد ان البصر عائقا على الاطلاق. هكذا حدث نفسه. وما دام الله هو المعين فليتكل عليه وليجسد في اعماله وتصرفاته عبرة للكسالى من المبصرين...

ها هو يبدأ بالتدرب على ركوب الدراجة الهوائية. وما لبث أن اصبح يقطع على متنها مسافات طويلة، الأمر الذي كان يدهش الناس حقا..

رياض يتعلم القرآن :

وتحدوه رغبة ملحة في تعلم القرآن الكريم وحفظه.. ولكن اين؟ من يطيق تعليم ضرير؟ ويجد ضالته عند «الاستاذ» محمد امين زرقط وها هو يحفظ القرآن غيبا وفي سنتين اثنتين..

حياته العملية :

في الخامسة والعشرين تزوج رياض ورزق باربعة اولاد هم اليوم ناجحون في حياتهم وفي اشغالهم.

اما كيف ربى هؤلاء الاولاد وكيف اعالهم مع والدتهم فأمر يدعو الى الدهشة والاستغراب. كانت كرامته تأبى عليه التسول او طلب المعونة من أحد.

وقادته قدماه ـ صدفة ـ الى منشرة في البلد فطلب من «المعلم» ان يدعه يلاحظ بنفسه ويحدسه ولمسه كيف تصنع الطاولة و الابواب. . . وبعد فترة وجيزة تعلم رياض مهنة النجارة وتخرج من منشرة محمود الأخضر نجارا بارعا. .

مارس رياض مهنة النجارة مدة اربع سنوات كانت تدر عليه ما يسد به حاجته. . لكن طموحه وثقته بنفسه دفعاه الى بيروت في الستينات ليعمل تاجر «خردة» يعرض بضاعته على طاولة في ساحة البرج وكان كل من رآه يدهش لمعرفته الدقيقة بمعروضاته وانواعها واسعارها، ثم معرفته بفئات العملة اللبنانية التي يدفعها الزبون ثمنا لها . وعندما اندلعت الحرب الاهلية في اواسط السبعينات عاد رياض الى بلدته الزرارية حاملا معه هموم الحرب وتهجيرها وانشطار بيروت الى شطرين شرقي وغربي وانقسام الناس فئات ومذاهب متقاتلة!

مكث مدة في بيته في الزرارية بدون عمل. . . فهل من مخرج والطموح والكرامة لا يزالان على اشدهما احتداما في نفسه؟

ويشاء القدر أن يطلبه ابن عمه (اخو زوجته) المدعو محمد مصطفى مروه ليعمل معه في مهنة تمديد الادوات الصحية في المنازل المبنية حديثا. هذه المهنة الدقيقة ساعده في اتقانها احساسه المرهف وقدرته على تمييز الادوات من خلال لمسها معتمدا على لوحة لقياس المسافة ذات الارقام النافرة. . وما إن أحس بقدرته

على الاستقلال في العمل حتى ترك المعلم محمد. وهو ما زال يمارس هذه المهنة الدقيقة الى اليوم ويتهافت عليه ابناء بلدته نظرا لمهارته في تركيب الادوات والتمديدات، وتنفيذ الخرائط المعدة لها. . ويعد الا يعد كل هذا نوعا من انواع الاعجاز حين يبدع انسان ضرير كل ذلك الابداع في كل مهنة يمارسها !دون ان ينال من العلم شيئا يذكر؟ وها هو شيخنا المعجزة يحيا بين ابناء بلدته حياة الترفع عن الدنايا وينأى بنفسه عن الحرتقات والسياسات المحلية الضيقة.

فكثيراً ما رأيناه يعامل الناس بالحسنى محاولا التخفيف من مشاكلهم وهمومهم بالحكمة حينا وبالنكتة احيانا ليدخل الفرح الى قلوبهم والصفاء الى نفوسهم. .

ملاحظة : طالما وقف علماء النفس امام هذه الظاهرة : ظاهرة العمى المبدع ففسروها كالتالي :

إن فقدان حاسة من حواس الانسان ولا سيما حاسة الابصار «تعوض» على فاقدها باضافة قدرات ذهنية وشعورية واحساسية هائلة. . كما تنمي فيه ذاكرته وحافظته وتمنحه رهافة في القدرة على تحسس الاشياء ولمسها وتعيين معالمها حتى كأنه يراها.

على أن ليس كل ضرير مبدعا. . . لذا فالمبدعون من العميان قليلون اذ يجب ان تتوافر في الاعمى صفتان على الاقل : قوة الشخصية والذكاء وباقي الصفات المستجدة يتكفل به مبدأ التعويض الذي اقره علماء النفس منذ « فرويد» الى اليوم.



الحالة الاجتماعية والتربوية والسياسات المحلية في الزرارية سابقا

كأي بلدة من بلدات جبل عامل عانت الزرارية وطأة عهود الاقطاع الماضية من اذلال للطبقات الشعبية وابتزاز لها بل ومتاجرة بها وبأرضها. فقد كان صاحب الارض الحقيقي لا يملك من هذه الارض سوى سند طابو او حجة لا قيمة لها في النظام الاقطاعي. وقد يعمل اجيرا في هذه الارض وقد لا يعمل. . . هذا اذا كان يملك فعلا القليل القليل من تلك الاراضي، لأن اكثرها ان لم يكن كلها، ملزم لزعماء الاقاليم. لذلك سادت الطبقية البغيضة واصبح الناس طبقتين لا توسط بينهما : طبقة الارستقراطية الحاكمة المستغلة وطبقة الفلاحين المستغلة. هذه تموت ببطء. . . وتلك تنهار ببطء. . . ولم ينج من اضطهاد الطبقة الحاكمة الا نفر قليل من المتزلفين المتسكعين على الاعتاب الذين يقدمون لكسب رضاها كل ما يملكون. .

وفي الزرارية ظهر ذلك بوضوح باعتبارها مركزا من مراكز الاقطاع السياسي والزراعي. فالناس فيها بين مصلحين مؤيد ومتستر على عورات الحكام وبين

كاظم للغيظ ومجاهر بالمعارضة احيانا. وهكذا انقسم الناس الى فئتين أو فئات متناحرة، يغذيها الحاكم المحلي باستمرار وترضى عنها السلطنة العثمانية بالطبع. ثم الانتداب الفرنسي كذلك في الزرارية وفي سواها من مراكز الاقطاع وهكذا: رئيس عشيرة حاكم يهمه أن ينقلب المواطنون عشائر أقل شأنا ومتناحرة فيما بينها. . . وانطمست بهذه السياسة الروح العاملية الاصيلة التي قوامها الاخاء والنجدة والتعاون والاتحاد في وجه الغزاة. (ايام الشيخ ناصيف النصار مثلا) حيث كانت البلاد تنعم بالاستقلال الذاتي، وانتهج الفرنسيون هذه السياسة، فما ان اطل العقد الرابع من هذا القرن حتى شهدنا في الزرارية انقسامات عائلية خطيرة بلغت حد الصدام المسلح بين عائلات الزرارية المختلفة لا سيما الكبرى والفاعلة منها، يغذي كل ذلك نواب المنطقة المتزاحمون على الوصول الى الندوة النيابية ولو على حساب ناخبيهم! والدليل على صحة ما نقول اننا لم نشهد اي «زعيم» أو نائب يهرع الى الزرارية او سواها ليصلح ذات البين ويضع حدا لتقاتل الاخوة. كيف يفعل وهو الذي غذى هذا الاقتتال! ونحمد الله أن موجة التقاتل العائلي هذه لم تدم طويلا ولقد قام العقلاء المحليون بدور هام في انحسار هذه الموجة وانهاء النزاع (١).

وقبيل الخمسينات بدأت موجة اخرى محل الاولى وهي انتشار او انبعاث الوعي الوطني والقومي في اوساط شبان الزرارية ومثيلاتها من بلدات جبل عامل التي اكتوت بنيران التنازع العشائري والفئوي. ولم يخل الامر من ردة فعل على هذا الوعي فاستطاع حزب الكتائب مثلا ان يجتذب بعض الشبان الاغرار ففتحوا

---

(١) اذكر من هؤلاء العقلاء الشيخ محمود فخرى وابا منير مروه والمرحوم والدنا ـ المؤلف -

لهم مكتبا وقلدوهم شارات الحزب بعد ان وعدوهم ببعض التعيينات الوهمية فاذا بها وظائف دنيا لا تسمن ولا تغني من جوع. لكن حزب النجادة وقد ازعجه هذا الانتشار الكتائبي المشبوه سارع الى ان يأتي بعض مسؤوليه الى الزرارية وينشيء فيها فرقة من النجادة بكامل لباسها وسلاحها!! ردا على تلك الفعلة الكتائبية الخطرة!!

وكان ذلك في اوئل الخمسينات حين رأينا هذين التنظيمين يذوبان كالشمعة امام ألق المد الناصري... ولم نعد نرى في البلدة وغيرها من القرى والمدن العاملية سوى دعاة الوحدة العربية والقومية العربية، خاصة وأن آباء الجيل الجديد واجداده كانوا قد تشربوا رحيق العروبة وتشبعوا بالنزعة الوحدوية منذ زمن بعيد ولا سيما ايام الانتفاضات المسلحة ضد الاتراك وضد الفرنسيين والانكليز في عهد فيصل الاول ومبايعته من قبل احرار العامليين وزعمائهم الروحيين على عرش سوريا والعراق والتحقوا فعلا بسوريا وأبلوا في سبيل تحقيق ذلك البلاء الحسن[1]. واثناء الحرب العالمية الثانية اعجب العامليون بكل براءة بهتلر ـ نعم بهتلر! لا لشيء الا لأنه عدو اليهود... حتى ان عامتهم لقبته (بأبو علي) لكن الفرنسيين المستعمرين احبطوا كل ذلك وقضوا عليه... الا ان جذوته لم تخب في نفوسهم فجاء عبد الناصر واشعلها من جديد وكان العامليون اول من حمل لواء دعوته... حتى الشيوخ والمسنون العامليون راحوا يتغنون بشعاراته[2]،

---

(١) مؤتمر الحجير وثورة صادق الحمزة خير دليل على ذلك في العشرينات من هذا القرن

(٢) انظر في فصل سابق التصرف العفوى الذى جرى لاحد الرجال الاتقياء في البلدة يوم جاء حاملا تمثالا لرأس عبد الناصر .

ويتحمسون لسماع خطبه النارية. ومما اذكى أوار هذه الجذوة الاحزاب الوحدوية التي قوي انتشارها في جبل عامل كحزب البعث العربي الاشتراكي والحزب القومي السوري الاجتماعي والحزب الشيوعي وغيره من الاحزاب التي كان اكثرها يدعو الى وحدة العرب وبقيادة عبد الناصر.

العادات الاصيلة : ذكرنا في فصل الفلولكلور مظاهر تلك العادات العربية والاسلامية وكيف انها كانت محترمة (١) ومطبقة بحذافيرها، مثل تبادل الزيارات ايام الاعياد والذهاب الى مقابر الاقرباء وقراءة الفاتحة وتنظيف الاضرحة واشعال البخور عليها أو ما شابه ذلك كالعيزقان والكافور ووضع اكاليل الغار او «الغوردل» والدفلى على «الشواهد» اما اليوم فلم يعد ذلك مطبقا في الزرارية وسائر القرى. وهذا عائد في نظري الى :

١- كثرة الموت والاموات في بلد جعلت منه اسرائيل واعوانها في الداخل، مقبرة كبيرة، ولولا عظمة الشهادة وما يرمز اليه شهداء المقاومة الوطنية من رائع العطاء وسامي الفداء لما زرنا قبورهم لا سيما اولئك الذين قضوا دفاعا

---

(١) لم نعثر على جذر عربي لكلمة محترم في ما لدينا من معاجم ومنها : لسان العرب ومحيط المحيط ومختار الصحاح والمنجد واغلب الظن انها تركية . ولكن العرب اجازوا فقالوا ما جرى لفظه على القياس العربي فهو عربي وجاء في اللسان (مادة حرم) قال ابو عثمان : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب .

فاسم المفعول من احترم محترم هو الذي لم نعثر عليه في مادة حرم ، وليس الفعل، جاء في المنجد ان محترم لقب في المكاتبات (بدأ ايام الاتراك) ولايزال الى الآن اما الفعل : احترمه : بمعنى هابه ورعى حرمته فهو المثبت وحده في المنجد والمحيط دون سواهما واللسان لا يذكره . (انظر المنجد مادة حرم) .

عن الزرارية وجبل عامل ولبنان والامة العربية بأسرها في تلك المجزرة الرهيبة التي ارتكبتها اسرائيل في ١١ آذار سنة ١٩٨٥ وبصورة مفاجئة والتي راح ضحيتها قرابة الاربعين مقاوما دفنوا في قبور جماعية قرب جبانة الزرارية.

وقد تنادى شبان الزرارية الاحرار وحركة امل فأقاموا ذكرى سنوية لهؤلاء الشهداء الابرار في الساحة الكبرى حيث وقعت المجزرة او في النادي الحسيني الكبير.

الروابط والجمعيات : إن فكرة انشاء رابطة لكل عائلة في الزرارية كانت غائبة تماما عن اذهان واتجاهات عائلاتها. فلم نسمع برابطة تنشأ لأي عائلة فيها ولعل ذلك عائد الى المنازعات القائمة داخل كل عائلة وتفرق افرادها في انتماءات سياسية محلية مختلفة هو الذي حال دون تكتل هؤلاء الافراد في رابطة عائلية واحدة. وربما كان ذلك بسبب انتشار الوعي الاجتماعي بين المثقفين في الآونة الاخيرة بحيث يتنافى مع فكرة الروابط العائلية من الاساس.

اذكر انني في منتصف الاربعينات انخرطت في تكتل عائلي قائم على الانتساب الى الدوحة النبوية والعلوية فانشئ في بيروت ما سمي يومذاك بالرابطة الهاشمية التي يتكون اعضاؤها من كل المناطق اللبنانية التي فيها «سادة اشراف» ينتمون او يرقى نسبهم الى احد الائمة الاثني عشر. كما اذكر أن رئيسها كان من آل مرتضى في بعلبك هو النائب السابق المرحوم السيد شفيق مرتضى وذهبنا مرة الى رئيس الوزراء وكان يومذاك رياض الصلح فوعدنا بمساعدة مادية من قرش الفقير. ولكن ما ان شممت انا وبعض الرفاق روائح النفعية والوصولية تفوح منها حتى انكفأنا وعارضنا و. . . انتهى كل شيء بعد سنة من التأسيس وذهب كل الى وجهته. . . قمنا بتأليف فرع لهذه الرابطة في الزرارية لكننا وجدنا ان آل

شرف الدين وآل هاشم في الزرارية موزعون في كل اتجاه. . . فلم ننجح وكنا نحن المؤسسين أول الهادمين بعد أن تكشفت لنا الحقيقة.

الاحزاب البديلة : طغت فكرة الانخراط في الاحزاب التقدمية العلمانية على كل ما عداها من التكتلات العائلية، وكان ذلك ـ كما سبق القول ـ في مطلع الخمسينات وبروز عبد الناصر على مسرح الاحداث، الا ان ردة الفعل على افكار عبد الناصر ومشاريعه الوحدوية كانت من العنف والشراسة بحيث استطاع المتآمرون في الداخل والخارج أن يهدموا اركان الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا لأول مرة في التاريخ الحديث عام ١٩٥٨ وكان ذلك الهدم عام ١٩٦١ فانحسرت موجة القومية العربية والدعوة الى الوحدة من جديد. وتابعت الامبريالية تآمرها، واستطاعت ان تشغل عبد الناصر بحرب ١٩٦٧ وقبلها حرب اليمن بقصد تحطيمه نهائيا، وضرب احلامه.

وما إن حل العام ١٩٧٠ حتى انهار عبد الناصر صحيا وتوفي في ٢٨ ايلول من العام نفسه وهو في ذروة عطائه. هنا بدأ المد الناصري بالتقلص ، ونشأت احزاب وتيارات طائفية انفصالية معادية، خاصة بعد حلول العام ١٩٧٥ وهو عام الاحداث المؤلمة في لبنان التي شاءت اسرائيل ان تشعلها لتقضي على عروبة لبنان الذي كان هو المركز ، تماما كالقاهرة ودمشق في تبني شعارات العروبة والوحدة، ولتلهي الطوائف ال١٧ في لبنان وتضرب بعضها بالبعض الآخر لتقضي على النموذج ـ النقيض لها، القائم في لبنان على العيش السلمي المشترك لهذه الطوائف.

وها نحن قد رزحنا تحت وطأة هذه المؤامرة طيلة ستة عشر عاما.

في اواخر الستينات ظهرت التنظيمات الفلسطينيةالمسلحة تباعا ، فلم يكن

احد اسرع من العاملين في الانخراط في صفرفها انخراطاً عضويا، إما بدافع العقيدة الحزبية او الايمان بالقضية العربية المركزية التي ناضل آباؤهم واجدادهم واستشهدوا من أجلها. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على اصالة الروح الجهادية عند العاملي وهو لا ينتظر من الآخرين ان يبدأوا ليحذو حذوهم، بل تراه هو الرائد دائما. والدليل اليوم، هذه المقاومة الوطنية التي بدأت في الجنوب ومن ابناء الجنوب اولا. والزرارية لا تقل همة وايمانا وبذلا عن شقيقاتها من البلدات والقرى العاملية. يكفي ان نذكر بأن اول شهيدة كانت منها وهي يسار مروه (١٩٨٣) واول شهيد كان منها، وهو محمد عباس اخضر (١٩٦٩) كما انها انجبت قادة مخططين طالما ازعجوا اسرائيل وعملاءها مثل نعمة شريف هاشم وانور مروه واحمد هاشم وها هو شقيقهما محمد شريف هاشم (ابو عماد) المسؤول التنظيمي لحركة امل في الزرارية ومنطقتها يتابع المسيرة مقدما كل طاقاته النضالية في سبيل تنظيم صفوف المقاومة، راعيا في الوقت نفسه شؤون بلدته الزرارية الانمائية بالتعاون مع فعاليات البلدة من مغتربين كرام ومقيمين متنورين غيارى.

اما عدد الشهداء من ابناء الزرارية الذين سقطوا في ساحات المقاومة وقبل الاجتياح الاسرائيلي لجنوب لبنان وبعده وخاصة في المجزرة الرهيبة التي ارتكبها العدو الاسرائيلي بعيد انسحابه منها، في قلبها وعلى اطرافها. هذا العدد يفوق بالتأكيد عدد شهداء أي قرية عاملية مجاهدة. ولا عجب فتاريخ الزرارية النضالي الطويل في عهود الاقطاع القديم والحديث، وايام العثمانيين، وقبل ذلك ايام الايوبيين والمماليك وفي عهد الانتداب الفرنسي. . هذا التاريخ شاهد على روح ابنائها النضالية التي استمرت فيها الروح الحسينية الكربلائية عبر العصور. وقد

رأينا كيف ان الزرارية عانت من الارهاق والظلم والحرمان والتقتيل والتهجير ما عانته سائر البلدات العاملية، بل واكثر، باعتبارها مركزا من مراكز الاقطاع السياسي والزراعي والاقتصادي، حتى انها كانت ـ كما تقدم ـ من بين بلدات تسع احرقت مع جارتها انصار على يد مرتزقة الامير فخر الدين عام ١٦١٧م. (١)

طقس ديني فريد :

ومما يميز القرى الجنوبية ذلك المهرجان المأساوي السنوي الدائم، ولا اظنه سيتوقف، بل سيستمر ويتطور الى أن يرث الله الارض ومن عليها. عنيت : مهرجان الدم الحسيني ! أو الاحتفال بمصرع الحسين بن علي (ع) الذي استشهد في العاشر من محرم سنة ٦١ للهجرة في مكان يقال له الطف او كربلاء او الطفوف على الفرات. ولست أعني المهرجان التمثيلي في النبطية الذي يقام في ساحة الدبانة قرب الحسينية. فلنا نحن مثقفي الجنوب المؤمنين ـ على ما ارجح ـ راي فيه لا مجال لذكره هنا. .

وفي الزرارية اليوم قراء تعزية قليلون يستدعون من الجوار لتلاوة وقائع

---

(١) لم يكن يكفي الزرارية ان يسلط عليها العثمانيون اقطاعيين ظالمين بل زادوا فاحرقوها هي وعيناثا وبنت جبيل وجارتها انصار جاء في تحقيق نشر في مجلة العرفان (ج ٧٤ ص ٧٠) ما ملخصه : حدث في هذا السياق ان التزم فخر الدين سنجقية صفد عام ١٦٠٣ من مراد باشا والي دمشق . وكانت مقاطعات جبل عامل من حيث جباية الضرائب تابعة الى سنجقية صفد. ولما قوبل الامير بالاحتجاج والشكوى لدى الامير يونس حرفوش ارسل فرقا من السكمانية وهم جنود مرتزقة فاحرقوا عددا من البيوت في القرى التالية : عيناثا ـ بنت جبيل ـ انصار ـ الزرارية ـ عام ١٦١٧ ميلادية .

احداث عاشوراء طيلة الايام العشرة من محرم الحرام. ومنذ سنوات نبغ من بين ابناء الزرارية قراء مجيدون، بالرغم من ضعف مستواهم العلمي، يحفظون وقائع المصرع حفظا تاماً كما يحفظون معه اشهر القصائد، التي قيلت قديما وحديثا، تمجيدا لذكرى مصارع شهداء الطف وتخليدا لمواقف سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) واستشهاده، كالشريف الرضي واخيه المرتضى وبولس سلامه وعبد الرضا صادق والجواهري والشبيبي، ومئات بل آلاف الشعراء.

نذكر من هؤلاء القراء المجيدين المحليين من ابناء الزرارية ثلاثة قراء مميزين هم : الحاج علي خليل (ابو احمد) والسيد محمد علي يوسف محيي الدين والسيد احمد خشمان وقبلهم الحاج خليل شرارة ابو تحسين الذين تميزوا بذاكرة قوية وصوت جهوري وبتلاوة للقرآن الكريم مجودة، وحفظ كامل لوقائع احداث كربلاء كل ذلك رغبة منهم في تطوير مخزونهم من اخبار وقصائد تتعلق بالحدث الحسيني الرهيب. ثم انهم لا يزالون في منتصف العمر، وقادرين على حفظ الجديد وتخزين روائع الشعر الحسيني والعلوي في ذواكرهم القادرة على الاستيعاب وكانها حاسوب او عقل الكتروني جبار (كمبيوتر)! اقول هذا عنهم بعد ان استمعت شخصيا اليهم وفي مناسبات عديدة. وقد اعجبني فيهم انهم لا يكثرون من البكاء والنواح حين يستعرضون المشاهد المؤثرة المثيرة في تلك الواقعة - الفاجعة... علما منهم بأن الحسين يعلم في نهضته ورسالته وفدائيته ولا يثير البكاء فقط من مواقفه وعند مصرعه.. ورغم مأساوية ذلك المصرع، ينهض بطلاً من ابطال التاريخ الاسلامي، والابطال لا يناح عليهم اذا استشهدوا في سبيل الحق

بل يقتدى بهم ويستوحى منهم. والامة التي تكتفي بالبكاء على ابطالها يبكى على اطلالها. . (١)

ففي الزرارية، كما في كل بلدة كبرى في جبل عامل ترفع الاعلام السوداء على المآذن والحسينيات حدادا واحياء لهذه الذكرى الأليمة، وقبل بدء الاول من المحرم في كل عام يسعى المؤمنون في كل بلدة ومدينة الى تأمين قارىء مجيد «للمصرع» حتى انهم كانوا يستقدمونه من العراق او من ايران، ومهما كلف مجيئه من اموال. كان هذا شأن المدن العاملية كصور والنبطية وصيدا وبنت جبيل وجباع، وامثالها، وكان يكتفى في القرى بقارىء محلي مقبول. ومنذ الاربعينات نبغ في الجنوب قراء افذاذ يجيدون قراءة وقائع الحادثة شعرا ونثراً وعن ظهر قلب في تدفق ارتجالي ملفت، كالقارئين الشهيرين السيد علي الحكيم وزميله الشيخ محمد نجيب زهر الدين اللذين لا يزالان الى الآن يحركان عواطف الجماهير وعقول المثقفين برائع الكلام وبارع الالقاء والاداء والسرد تسعفهم ذاكرة عجيبة تختزن من القصائد الكربلائية اروعها واطولها، وطالما استمعنا اليهما يتلوان قصائد من ابداعهما ، اطال الله في عمرهما. مع رجائنا بتطوير ادب هذه الواقعة التاريخية الاستشهادية الكبرى بحيث يتلاءم سمو الاسلوب مع سمو الشهادة.

أما منبراهما الأكثر شهرة فهما : منبر الثانوية العاملية في بيروت ونادي الامام الصادق في صور. في هذين المنبرين لا يكتفى بقراءة المصرع ويخطباء من

---

(١) هذا مع العلم ان البكاء في مثل هذه المصارع مطهر للأرواح . . على الايكثر منه وشرط الا ينقلب البكاء نواحا وندبا يخرجان به عن غايته السامية ويصبحان هما الغاية . . ـ المؤلف ـ

الطائفة الشيعية بل تكلف شخصيات فكرية من جميع الطوائف اللبنانية والعربية والاسلامية. بإلقاء كلمات في الحاضرين لأن الحسين عليه السلام لم يستشهد من اجل آل بيت جده الرسول الاعظم وحدهم، بل من اجل المسلمين كافة والانسانية باسرها. . . ولأن قيم العدالة والحرية، ونزاهة الحكم والحاكم هي مطلب كل انسان، والذي يستشهد من اجل اقامة دولتها، كما فعل الحسين، يكون شهيد الانسانية جمعاء. .

وقد توالى على هذين المنبرين قراء وخطباء حسينيون مشهورون اخذوا في المدة الاخيرة يحلون محل السيد علي الحكيم والشيخ محمد نجيب زهر الدين احيانا. كالشيخ نجيب شمس الدين والسيد علي الامين، وهو منظر اسلامي ومرشد كبير[1] وكالسيد حيدر ابو الحسن ، وفي الزرارية كان يضطلع بهذه المهمة ـ مهمة استقدام القارىء ثلة من المؤمنين من بينهم المرحوم والدنا، حتى اذا اطل شهر المحرم كان كل شيء على ما يرام.

واذا تعذر الاتيان بقارىء من صور مثلا وبمساعدة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين او من سواها، يكتفى ـ عند الضرورة ـ بقارىء محلي مقبول. .

وفي الزرارية اليوم من الكفاءات المادية والفئات الغيورة على استمرار وتطوير ذكرى ايام عاشوراء ما يجعلها تكتفي ذاتيا بقرائها المقبولين من ابنائها مما يسمح لها بأن تعتبر في طليعة البلدات العاملية التي تحيي هذه الذكرى احياء غنيا. .

---

(١) اما الشيخ عبد الحميد المهاجر فقد برز اخيرا وكاد يبذ الجميع في تلاوته للمصرع وللسيرة الحسينية في اسلوب حواري تمثيلي ارتجالي متدفق واسع الأفق. .

ولم تعد الزرارية بحاجة الى الاستعانة بالقراء الآخرين علما بأن هذا لا يمنع بعض الغيارى من متموليها المتنورين المؤمنين من أن «يطعّم» مجالس عاشوراء في البلدة بقارىء مجيد من الخارج ـ الى جانب القراء المحليين ـ اكبارا لهذه المجالس واثراء لها.

إمام البلدة : ومما يميز المدن والقرى العاملية ذلك الجو الديني الذي يهيمن على ما عداه من الاجواء ايام عاشوراء بنهاراتها ولياليها العشر. فأكل الطيبات يكاد يكون محرما، وكذلك «دق الكبة» واقامة حفلات الاعراس حتى طلب اليد للزواج (الخطبة) يؤجل الى ما بعد «الاخذ بالثأر» و«حرق الخيام» [1] وترى شبانها وشيبها، خاصة في القرى، يلبسون السواد ولا يتطيبون. . كان ذلك في ما مضى. أما اليوم فقد خفت كثيرا هذه المظاهر. ولا سيما في اوساط الشبان والشابات، لا لضعف في ايمانهم الديني، ولا استخفافاً بمأساوية الفاجعة الحسينية بل لعدم اهتمامهم بالمظاهر والشكليات. . .

ومن العادات الدينية التي لا تزال تعتبر واجبا اجتماعيا تأمين امام مسجد للبلدة يقوم بمهام دينية واجتماعية ارشادية كثيرة منها :

ـ رعاية شؤون المسجد والحسينية.

---

(١) كان ذلك عندما صحا المسلمون وخاصة اهل الكوفة على هول الكارثة فقام من بينهم من سموا بالتوابين وراحوا يفتكون بكل من شارك في قتل الحسين بن علي (ع) اما حرق الخيام فقد اعقب مصرع الحسين في اليوم التالي حيث استكمل جيش عبيد الله بن زياد جريمته النكراء بحرق خيام النسوة من زوجات الإمام الحسين وبناته وشقيقته زينب الكبرى وولده المريض علي بن الحسين بن علي . وابنته سكينة ، ونساء ورجال الحسين الذين استشهدوا بين يديه . .

- اقامة الصلاة في المسجد ظهرا ومغربا، وخاصة ظهرا يوم الجمعة من كل اسبوع، حيث عليه ان يلقي خطبة الجمعة بعد الصلاة. .

- تعزيز الاتجاه الديني والدعوة الى الالتزام الدقيق بالطقوس الدينية والمذهبية ومحاربة كل مظاهر الشذوذ والانحراف والعادات الهجينة، ذلك بالموعظة الحسنة وليس بالعنف والاكراه. .

- استدراج الناشئة الى المسجد وتحبيبهم بالصلاة والتطهر. والصيام في رمضان وعدم الجهر في الحديث، وملاطفة الناس. . . الى ما شابه ذلك. . .

واذكر أن كل إمام استعمل الاساليب القسرية باء بالفشل وتعرض للنقد، ولم يطل به المقام في الزرارية وعاد من حيث اتى. .

وللإمام وظائف اجتماعية كثيرة ملازمة لوظائفه الدينية وهي معروفة، مقابل ذلك يتوجب على اهل البلدة تأمين الآتي :

- مسكن لائق يسجل لإمام البلدة لا لإمام بعينه.

- تأمين العيش الكريم له، ومكافأة مالية كل عام، ومثلها في كل مناسبة، وليس راتبا. .

- يكون الامام الخطيب الاول في «الاسابيع» والحفلات الاجتماعية المختلفة، العلامة السيد علي ابراهيم : لكن مثقفي الزرارية ومتنوريها واغنياءها لم يكتفوا بوجود إمام للبلدة بينهم فقد اكتشفوا منذ زمن بعيد اماما من نوع متقدم هو العلامة السيد علي مهدي آل ابراهيم، فهم في كل مناسبة دينية كانت او اجتماعية، أو حتى سياسية يذهبون اليه في عدلون ويرجونه أن يكون خطيب المناسبة لما تميز به هذا العلامة من خصائص علمية واخلاقية وتبحر في الدين

واسلوب واقعي مميز في الخطابة بعيد عن الخيال، وحسن تصرف ولياقة في التعامل مع ناس الزرارية وكل ناس وتراهم يفعلون ذلك بكل حماس وشغف وليتأكدوا من تشريفه يذهبون اليه قبل موعد المناسبة بيومين على الاقل، وقد لمس هو هذا الاندفاع نحوه فآثرهم بحضوره وفضلهم على سواهم. وقلما كان يعتذر، حتى اصبح واحداً منهم، ينزل - بعد المناسبة - في أي بيت من بيوتهم بمبادرة منه، ولا ينتظر حتى يدعوه صاحب البيت. أما الركن المفضل عنده حاليا - للخلود الى الراحة وتناول الشاي واخذ غفوة قليلة فهو بيت نسيبنا وقريبنا قارىء التعزية الجيد الحاج علي خليل. وكثيرا ما كنت اسعد بلقائه في منزلنا العائلي ايام المرحوم والدنا وبعد وفاة الوالد ايضا.

ويمتاز هذا السيد الجليل بروحه العاملية العارمة والعذبة . فهو يرى - عن علم ودراية - بأن هذا الجبل (جبل عامل) زاخر بالكفاءات العلمية والادبية وبالعلماء الافذاذ الذين ملأوا العالم الاسلامي علما وكفاية بتآليفهم ومواقفهم السياسية والدينية، حتى انهم توصلوا في النجف الاشرف وايران الى التربع على سدة المرجعية الاولى في القرن الماضي وهذا القرن. فهو اذن جبل يصدر العلماء والمراجع - كما يقول السيد علي - ولا يستوردهم.

أما روحه الوطنية، والقومية فحدث ولا حرج وله في هذا المجال مواقف مشهودة وآراء جريئة.

حدث مرة ان اسمعني قصيدة في وصف مجالس الشاي الجنوبية للشاعر (أبي تراب) وتبين انه ابن اخيه، فأملى علي ثلاثة ابيات منها اعجبتني، قائلا لي: ما دمت قد انتقدت بعض صور القصيدة، فهل لك أن تعارضها؟ وبعد سنة

فعلت ، لا معارضا بل محاكيا، وكانت « قصيدة الشاي» المطولة التي اصبحت معروفة في الاوساط الادبية في صور وجبل عامل. (١)

إمام البلدة الحالي : الشيخ حسين بغدادي

اما إمام الزرارية اليوم فهو العلامة الشيخ حسين بغدادي الذي هو امام قرية الخرايب المجاورة في الوقت نفسه. وهذا الشيخ الشاب اصبح معروفا بعلمه الغزير واسلوبه الخطابي المميز بواقعيته وبعده عن الشطح والخيال والمغالاة. . . استمعت اليه مرارا فراقني اسلوبه هذا، وتمنيت ان يكثر الله من امثاله بين علماء الدين المرشدين الذين يغالي بعضهم في « التجريد» والضبابية. أما هو والعلامة السيد علي ابراهيم فنسيج وحدهما عمقا وصراحة وواقعية وبعدا عن التنظير الديني البعيد عن هموم الناس البسطاء وعقولهم الساذجة. وها إن اهالي الزرارية بدأوا يفيدون من علمه وارشاده لا سيما الشبان منهم. . . فحبذا لو سارع المتمولون في البلدة الى استقدامه ليكون إماما خاصا بالزرارية. وقد فعلوا اخيرا لقد آن لنا أن ندخل العصر عن طريق الدين المنفتح من خلال هذين العالمين الجليلين وامثالهما كالسيد علي الامين والشيخ محمود كوثراني والشيخ نجيب سويدان مفتي صور وسواهم من العلماء العاملين العمليين، لا المتزمتين المتقعين القانعين الذين يسيئون الى انفسهم قبل ان يسيئوا الى الدين والدنيا والناس اجمعين. .

---

(١) وكان ابن الخالة العلامة الشيخ محمود كوثراني حاضرا فشجعني بدوره على نظم قصيدة مماثلة لقصيدة ابي تراب وهكذا كان . وعندما اتممتها (١٢٨ بيتا) طلبها مني الاستاذ زيد الزين ونشر مقاطع منها في مجلة العرفان في المجلدين ٧٥ و ٧٦ . وقد اثبت مقطعا من مقاطعها في هذا الكتاب. انظر فصل الفولكلور في هذا الكتاب .



الفولكلور العاملي

قيم وعادات وازياء واغان ومآكل (او ثقافة القرى)

في المدن اللبنانية عامة انقرضت تماما تلك العادات والطقوس الشعبية الموروثة. أما في القرى ـ هنا وهناك ـ فهي في طريق الزوال والانقراض واذا كان بعضها لا يزال ممارسا أو معاشا فهو يبقى في نطاق ضيق جدا. . .

فما معنى هذا ؟ معناه في المفهوم الحضاري، والفولكلور ، تجسيد لحضارات الشعوب وملاعب لها، اننا بدأنا نفقد أجمل واعرق وجه من وجوه حضارتنا تحت وطأة الدخيل والهجين منها، ووطأة التقدم العلمي المبرمج. . لكنه صراع حتمي يجرى بين ثقافتين. . .

فما هو الفولكلور تفصيلا؟

أصل الكلمة : يقول انيس فريحة في كتابه :«القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال» ما ملخصه :«هذا المصطلح العلمي الشائع في جميع اللغات الاوروبية (فولكلور) من وضع عالم انكليزي اسمه «وليم جون تومس» وضعه عام

١٨٤٦ محل مصطلح مبهم : «العاديات الشعبية». « واللفظة مركبة من كلمتين انجلوسكسونيتين : «فولك» ومعناها الشعب والعامة ولور ومعناها : معارف. ويعنون بهذا المصطلح جميع المعارف البدائية، والعادات والتقاليد والسجايا والمعتقدات والاساطير [١] والخرافات والاقاصيص والامثال والشعر العامي والالعاب والمسليات والاعياد والحفلات والمواسم التي هي خارج نطاق المعترف به رسميا من قبل المؤسسات الرسمية، الكنيسة ، والمعبد والمدرسة والنادي العلمي الاجتماعي والصحافة الادبية الرصينة والمجلات العلمية وخلافها من المؤسسات التي تعنى بالمعارف والعلوم والفنون المنظمة التي اشترك في خلقها اصحاب العقول والمواهب والفلاسفة والمصلحون الدينيون والمؤرخون الحاذقون».

وجاء في موسوعة لاروس الفرنسية الكبرى مايلي : في الانكليزية «فولك» تعني الشعب «ولور» : العلم والمعرفة ، الخ. . . المعرفة الموروثة (دون تطوير او تنظير) كالعادات والمعتقدات والاساطير والاغاني الشعبية والآداب الشعبية» : الخ[٢] التي تنبع من الذوق والمزاج والبيئة بتلقائية مباشرة وعفوية ساذجة ثم تمضي على الالسنة عبر الاجيال لتصبح تراثا وعادات تقارب حد القداسة في نظر القرويين . وقد يخترع شخص واحد بعض الالعاب أو الاغاني أو الهوايات لتدخل في صميم العرف والعادة حين تلاقي تجاوبا لدى الآخرين . [٣]

---

(١) يجب الا ننسى ان الآداب القديمة قامت على الاساطير ولا سيما الادب المسرحي
ـ المؤلف ـ

(٢) للتوسع انظر GRAND LAROUSSE ENCYCLOPEDIQUE T.5P.91

(٣) القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال ص ١٦ ط ٢ ـ طرابلس ١٩٨٩ انيس فريحة .

أما لماذا لم يضع علماء اللغة العربية في العصر الحديث كلمة عربية مرادفة لكلمة فولكلور الاجنبية فهذا عائد في نظرى إلى :

١- شيـوع لفظ فـولكلور في الآداب والفنون الاوروبيـة ثـم في الآداب والفنون العربية وعلى السنة المثقفين والعامة هنا وهناك بحيث اصبحت في كل لغة وكأنها من مفرداتها الاصلية . فلم يعد من داع إلى تعريبها وقد عربت نفسها . . أو وضع كلمة بديل لـها . ومثلها كلمات كثيرة كديموقراطية ، وكلاسيكية ورومانسية وسريالية وسواها .

٢- صعوبة ايجاد البديل المعبر عن كل ما تحويه كلمة فولكلور من معان ورموز ودلالات . ان هذه الكلمة وقد فرضت نفسـها خلال قـرن ونصف من الزمان ، لم يعد ممكناً وضع أو نحت كلمة مرادفة لها في اية لغة من اللغات .

٣- ثم ما هو العيب في استعمالها وقد دخل في اللغة العربية قديما وحديثا كثير من الكلمات الفارسية والتركية والايطالية والفرنسية والانكليزية عن طريق الاقتباس ولم تعد ، بعد التداول المستمر ، مستهجنة . حتى ظننا أنها عربية اصيلة كالبستان والسفرجل والنفط والقهوة والشاي والاستاذ والتفاح إلى آخر السلسلة من تلك المفردات والاسماء الدخيلة التي لا تكاد تقع تحت حصر . . .

ثم ان الاقتباس وسيلة من وسائل اغناء اللغات الحية حين يدخل عن طريقه دم جديد وزخم جديد [١] .

---

(١) نقف عند هذا الحد منعا للاستطراد . فالبحث يحتاج الى مقالة برأسها لا بل كتاب برمته . ـ المؤلف ـ

دلالات الفولكلور :

قلنا ان كلمة فولكلور تدل على انواع القصائد والقيم والعادات والازياء والاغاني التي تتجلى في :

- الظواهر الروحية
- الظواهر الاجتماعية
- الظواهر الثقافية

فعندما يخرج الاولاد من مدرستهم [١] إلى ساحة القرية وازقتها يلعبون بالحجارة [٢] او يمتطون قصبا مكان الحصان ليمثلوا دور الفرسان أو عندما تغني الأم لطفلها كي ينام هامسة بترنيمة رقيقة دينية الطابع من مثل :

يابو الحسن يا علي يا راكب الميمون

يا بو الحسن يا علي كن لي عدهري عون

يا بو الحسن يا علي كلتنا محبينك

نبغض اللي بيبغضك ونموت عادينك

وكأنها تريد ان ترضع حب الوصي مع اللبن . [٣]

---

(١) في اوائل هذا القرن كانت المدرسة عبارة عن كتاب وشيخ وبضعة تلاميذ يجلسون على خصير او بساط ثم على مقاعد خشبية فيما بعد . سنلمح الى ذلك في فصل لاحق ـ المؤلف ـ القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال ط ٢ ص ١٨ ـ ١٩ انيس فريحه طرابلس

(٢) وهي لعبة كانوا يسمونها (الدوش) في قرانا

(٣) خطط جبل عامل ص ١٤٩ السيد محسن الامين

أو تترنم وهو في احضانها بهذا الحداء الجميل الحزين :

ياحادي العيس سلم لي على امي واحكي لها عاللي جرى واشكيلها همي

نذر علي نذر ان عاد الزمن يا امـي لفرش فراش الهنا ونام متهنـــي

يا حادي العيس حاج تحب وتبليني لا ام قبالي ولا إلي خي يسلينـــي

وان كان يا حادي العيس عالفراش ترميني حاتشمت العذال وتبكي محبيني

هذا الحداء وامثاله يصبغ غناء العامليات وحداءهن بلون الألم والحسرة والغربة التي تبلغ حد الشجن بل هي تشارف النشيج ذا الصليل الكربلائي المنبعث من اعماق التاريخ الشيعي المليء بالكوارث والبطولات والتحديات .

- أو عندما يجلس الفلاحون والعمال وحتى المثقفون حول الموقد الشتائي، أو على السطيحة أو البيدر ايام الصيف فيتنادرون ويتبادلون الحكايات والقصص عن الجن والغيلان وبنات كردان ، أو حين يذهب بعضهم إلى المغارة الفلانية عند منتصف الليل ليضرب وتدا - ويلفظونه الود - في داخلها تنفيذاً لشروط اللعبة وطمعا في المكافأة واظهارا لرجولته وجرأته . . أو عندما يتحدثون عن بطولات عنترة أو الزير سالم أو الامام علي وكيف اجهز في واقعة الخندق على فارس الاحزاب المشركة عمرو بن ود (١) أو عندما ينقلب الحديث إلى مباراة في «الحزازير » والامثال والشعر العامي (الازجال من معنى وقرادى ومواويل). ثم «حط الكباش» . وفي النهار عندما يقيمون (الدبكة فرخا وديك) وعندما يتبارى

---

(١) وكيف ان سيفه ذا الفقار قطع جسم عمرو قسمين متساويين وكيف ان هذا السيف واصل انغرازه في الارض حتى وصل الى قرني الثور اللذين يحملان الكرة الارضية فكادت الارض تميد بمن فيها !!!

عاشقان في رفع العمدة (١) كشرط لاثبات من منهما الاقوى زندا ليستحق رضا المعشوقة والقبول به زوجا . . . وعندما تمرض فتاة ويشحب لونها بعد نضارته تقول عجائز القرية : لقد كتبوا لها . . وهي بحاجة إلى كتاب مضاداي إلى حرز أو إلى «سكب» رصاصة بالقرب من رأسها . . . لتشفى . وعندما يعتل طفل فلا تفارقه الحمى تخاف الام (وهنا يلاحظ غياب الاب) وترتعد تقول لها جدته ان عينا خبيثة اصابته ، أو ان امرأة خبيثة عيناها زرقاوان واسنانها بارزة ومتباعدة لم «تسم» حين رأته هي التي أصابته بالعين فمرض واشرف على الموت ولا بد من تعليق الحرز أو سكب الرصاصة أو وصف عقاقير شعبية بدائية قاتلة في كثير من الاحيان (٢) . الا ان اكثر الوصفات رواجا في قرانا : الرقية من عالم القرية وهو عادة امام المسجد فاذا كان المريض امرأة جيئ بقارئة التعزية أو اية شيخة مؤمنة ترقيها . وهناك عند الشيخ أو «السيد » يطلبون منه ان «يعمل خيرة » اي ان يستخير الله بواسطة سبحة حسينية سوداء الحبات (٣) فاذا «طلعت » مليحة

---

(١) العمدة عبارة عن جرن صخري مدور ومجوف وفي وسط التجويفة «مسكة»، على الشاب ان يرفعه بها بيد واحدة على موازاة رأسه .

(٢) اذكر جيدا في الثلاثينات ان فتاة في قرية مجاورة كانت في عمر الورود اصيبت يوما بوجع حاد في البطن فوصفوا لها ان تشرب من بول البقر او الحمير فماتت على الفور ! مع ان الدكتور بهجت الميرزا كان الطبيب المفضل لدى اهالي هذه القرية وسواها. وكانوا اذا لم يجدوه في الحالات الطارئة ذهبوا الى الدكتور صبحي السالم في صور . ثم بعده الى الطبيب الناشيء يومذاك الدكتور فؤاد عسيران غير ان الطبع يغلب التطبع خاصة عند هؤلاء السذج . .

(٣) وهي عادة جارية في جبل عامل في الاوساط الدينية والشعبية . عادة تبلغ مستوى العقيدة. وطريقتها : يأخذ الشيخ او السيد السبحة بين اصابع يديه ويبدأ بالبسمله والحمدلة همسا وقراءة دعاء خاص بالاستجابة وينتهي بعد حبات قسم من السبحة اثنتين اثنتين فاذا بقيت حبة =

ينفذون ما نووا عمله من أجل المريض . وبعضهم ممن هم اخف ايمانا وأكثر جهلا يلجأ إلى وسائل اخرى غير ما ذكرناه كالحجاب (١) والتميمة والخرزة الزرقاء تعلق على جبين الطفل - الخ . . .

أو عندما يخسف القمر فيتنادى الاطفال ويدورون في ازقة القرية يدقون على « التنك » ويرددون :«دشر قمرنا يا حوت أحسا ما نفقع ونموت . . . »

وبعد قليل يظهر القمر بعد خسوف كلي أو جزئي فتهدأ العاصفة . وهناك صلاة الخسوف يقيمها إمام المسجد في القرية مع بعض الشيوخ والشبان المؤمنين كما ان هناك طقساً دينياً هو صلاة الاستقساء ترقى إلى ما قبل الاسلام وجاء الاسلام فأقر صلاة خاصة تقام في العراء ويلبس المصلون ثيابا مقلوبة (٢) طلبا من الله ان ينزل المطر بعد ان يعم القحل والقحط ويقال انها صلاة مستجابة في كثير من الاحيان.

وقد تقلصت هذه العادة ولم يعد يعمل بها في القرى ناهيك بالمدن الا في حالات القحل الشديد وعلى مستوى الامة ككل . . . تقلصت اذن هذه العادة مع ما تقلص من عادات وطقوس .

أما تقديم النذور والقرابين فلا تزال عادة متبعة وان ضعفت قليلا لضعف

= واحدة يكون الجواب ايجابا ، وهذه العادة تعكس ايمانا شيعيا شعبيا بان من كانت وسيلته الى استخارة الله سبحة حباتها من تراب الحسين بواسطة شيخ او سيد طاهر مؤمن ونية من المستخير صافية فلا بد ان يستجيب له الله ـ المؤلف ـ

(١) الحجاب والحرز : كناية عن كتابة آيات قرآنية او اي شيء آخر لا فرق عند كاتب الحجاب على وريقات يطويها ويغلفها بقطعة قماش لتعلق على صدر المريض فيشفى او تتعافى صحته .

(٢) خطط جبل عامل ص ١٤٢

الايمان الديني من جهة وغلبة العقلانية عند الكثيرين. عندما كان يجري كل هذا في القرى اللبنانية عامة وفي الجنوب اللبناني خاصة كان ينظر إليه بشيء كثير من الايمان والتقديس ويمارس بكل جدية واحترام رغم اسطوريته وكمية الخيال فيه .

أما العادات الاجتماعية الاخرى المحببة فقد تقلصت واضمحلت هي الاخرى لزوال اسبابها كالعونة عند الحصاد وكالعونة على جرش البرغل عند النساء وكمواكبة العروس إلى بيت عريسها ، حاملة خميرة لتلصقها على البوابة، فاذا لصقت ولم تقع على الارض تفاءلوا خيرا واطمأنوا إلى ان هذه العروس ستجلب لعريسها ولأهله السعادة والخير . فهم يؤمنون «بالوجوه والعتبات » و «الايادي والبركات » . ويجب ان تكون العروس راكبة على فرس يجرها خادم ، وان تجتاز البوابة إلى صحن المنزل وهي على صهوة الفرس . . فيأتي العريس (١) وينزلها عنها برشاقة وقوة ، فتصدح النسوة بالزغاريد (أو الزلاغيط) (٢) بصوت جهوري تتردد اصداؤه في انحاء القرية كلها . آويها يا عروس واسم الله عليكي

آويها، يا عروس ومسورة بالذهب نجوم السماء تضويلك وتشعشع حواليكي

يا مزيني بجمالك ومكملي بالادب آويها وعريسك حاضر بين ايديكي

آويها وعريسك زين شباب العرب كنوز الدني بيجيبلك كرمى لعينيك

لو- لو -لو - لايش لو- لو- لو- لايش

---

(١) ويقال للعريس عروس ، يستوي في ذلك المذكر والمؤنث (انظر المعاجم العربية)

(٢) زلاغيط : مفردها زلغوطة ، ويلفظها المصريون : زغروطة واصلها زغرودة او اغرودة جمع زغاريد واغاريد .

كذلك لا تزال «النقطة» معمولا بها في قرانا لانها عربون حب العريس لعروسته ومحبة اهله لها لذلك فهم يتسابقون على تقديم الهدايا الثمينة لها ، من ذهب وفضة ونقود وقد تصل «النقطة» اليوم إلى حد تقديم سيارة فاخرة للعروس. كل عريس حسب طاقته وامكانياته المادية .

حج مبرور وسعي مشكور : اما عادة إقامة مراسيم العودة من الحج فهي لا تزال معمولا بها في المدن والقرى على السواء . فعندما يعود الحاج بالسلامة من اداء فريضة الحج ينحرون له خروفا أو جديا على الاقل (ليفشخ عنه إلى داخل البيت) الذي يكون قد زين بمختلف الزينات والمصابيح الكهربائية . كما يعلق على المدخل يافطة كتب عليها :«حج مبرور وسعي مشكور» وهي جملة ترحيبية تقليدية لم يتغير نصها منذ زمن بعيد . .

تشييع الجنازات في القرى : يهتم القرويون كثيرا بالمتوفى - مهما كانت طبقته وعمره - وهي عادة لا تزال تعتبر عندهم واجبا دينيا واجتماعيا مقدسا كما يتسابق الشبان منهم على حمل الجنازة عند تشييعها بالتناوب. والأمر نفسه في المدن لكن بحماس اقل . اما حفر القبر وتحضير الارصفه فكثيرا ما يتبرع بها الحفارون على عكس حفاري المدن الذين يتقاضون على ذلك أجرا باهظا وفقا لامكانيات اهل المتوفى المادية (١) .

---

(١) كان في مدينة صور رجل متدين متخصص بالمناداة على الميت اثناء التشييع . وكان لطرافته يقول مازحا «ما بيلبأ الموت الا لبيت فلان . . » ويقصد عائلة صورية معينة كانت تجزل له العطاء فاصبح «الموت» لا يليق الا بها في نظره . . . وهي نكتة ـ كما ترى ـ طريفة .

قراءة المصرع في ايام عاشوراء

او مهرجان الدم المقدس !

يحتفل المسلمون الشيعة بهذه الايام اينما كانوا احتفالا مهيبا وحزينا كما رأينا، ففي جبل عامل تتلى احداث «المصرع» طيلة الايام العشر الاولى من محرم الحرام . نهارا وليلا . في الحسينيات والنوادي . ولا يكتفي بعض المؤمنين الكبار بحضور مجالس التعزية ، بل يستدعون قارىء المصرع طوال هذه الايام ليقيم مجلس عزاء خاصا بهم طلبا للثواب من الله والبركة ، وعلى نفقتهم الخاصة ، حيث توزع حلوى خاصة بعاشوراء هي عبارة عن «راحة الحلقوم» وبسكوت ومنهم من يتجاوز الايام العشرة بحيث اصبحت مجالس العزاء تقام في المناسبات الاجتماعية على مدار السنة كطقس ديني خاص بالشيعة .

تمثيل واقعة عاشوراء : بدأ تمثيل الواقعة - اول ما بدأ - في مدينة النبطية . ثم في مصيف جباع ثم في بعض القرى الكبرى أو البلدات العاملية كبلدة الزرارية حيث يقام مهرجان كربلائي حاشد على الطبيعة وفي الساحة العامة (ساحة الدبانة) في النبطية وساحة الشهداء في الزرارية ، والقبي في جباع ، حيث تمثل في هذه الساحات واقعة كربلاء أو فاجعة الطف ، تمثيلا مسرحيا بدائيا وعلى الهواء . . . وبمن تيسر من الممثلين المحليين غير المحترفين . وكان رتل من الشبان يلبسون اردية بيضاء يتسربلونها ممسك بعضهم بيسار بعض وبيمين كل واحد سيف مرهف قصير يضربون به مقدمة رؤوسهم الحليقة فيفر الدم منها وهم يتصايحون هاتفين : حيدر ، حيدر حسين حسين يكررون ذلك طوال طوافهم في ساحة الدبانة في النبطية وذلك قبل البدء بالتمثيل . . ومنهم من كان يغمى عليه لشدة الارهاق والضرب بحد السيف على الرأس !



تمثيل عاشوراء في الزرارية

فاجعة عالمية ذات ابعاد انسانية :

هل تمسرح ؟ لو اتيح لاحداث مصرع الامام الحسين (ع) اديب مسرحي موهوب، يضع لها سيناريو راقياً على مستوى الحدث الاسلامي التاريخي الفريد، اذن ، نكانت لنا مسرحية ضخمة ترقى إلى مصاف الفاجعة اليونانية والاوروبية ، بكل جدارة. لاسيما وان هذه الفاجعة مثيرة جدا ، وابطالها حقيقيون رياديون بمواقعهم وتضحياتهم واعمارهم حين تجاوز الفتى منهم كل مقاييس البطولة والبطل ، وكل معايير الشهادة والشهيد لا سيما وان الذي يستشهدون بين يديه بطل ولا كالابطال، ورجل ايماني صراعي هو الحسين بن علي (ع) بمواقفه وثباته وروثباته « وبسمو معناه في سمو ذاته » ، وكارثية مصيره الذي يراه بأم العين . .

كما ان هذه الواقعة - الفاجعة ، كانت غنية بالمشاركات الوجدانية التي

تكثر ، بل تفترض ، في الملاحم القديمة ، وتحمد في المسرحيات التراجيدية قديمها وحديثها . . وفاجعتنا هذه مهيأة - اذن - لتتمسرح وتمثل تمثيلا يخرج بها عن نطاق المذهب أو الطائفة الضيق الى رحاب الانسانية والمواقف الرائدة في الرفض والاستشهاد في سبيل احقاق الحق ، بصرف النظر عمن كان الحاكم الطاغية يومذاك والذي تسبب بها . نقول : غنية بالمشاركات الوجدانية ؟ هذا صحيح حين رأينا على مسرح احداثها الكل يشارك في المعركة ، رأينا البشر والحجر والشجر ، والخيل والليل والبيداء ، والاطفال والنساء وحتى المرضى ، وماء الفرات !!

ورغم غنى الواقعة ظلت تتلى احداثها تلاوة دينية في بكائية مثيرة ، ثم تطورت الى خطابية منبرية مقبولة (١) وبقيت ضمن اطار الفولكلور الديني الممارس بقداسة وحماسة . ولكنها لم تدخل صميم الادب العربي المسرحي قديما وحديثا ، ولم تصبح مادة غزيرة ترفد خيال الادباء المسرحيين ، كما رفدت خيال الشعراء المجيدين كالشريف الرضي والمرتضى في الماضي ، والجواهري في الحاضر

---

(١) وخير من طور هذه الواقعة ـ منبريا ، وصور احداثها المفجعة ونقلها من الحيز الطائفي الضيق الى ان اصبحت ملكا لكل طائفة ولكل مفكر حر فيها ، انه منبر الكلية العاملية في بيروت الذي اعتلاه ويعتليه في ذكرى يوم عاشوراء شعراء ومحاضرون من كل الطوائف اللبنانية والبلاد العربية . ناهيك بقارىء المصرع : مصرع الحسين، هذان القارئان البارعان الحافظان المتخصصان اللذان يتلوان المصرع غيبا وطوال ساعتين من الزمن على الاقل دون توقف او تلعثم عنيت القارئين الشهيرين ـ منذ الخمسينات العلامة السيد علي الحكيم والشيخ محمد نجيب زهر الدين . وكذلك منبر حسينية صيدا ونادي الامام الصادق في صور والنوادي الكبرى في جبل عامل كما سبقت الإشارة .

ربما لموانع مذهبية سياسية . . . غير انها سرت في الاجيال العاملية الشيعية واصبحت رمزا ورافدا ، ونموذجا لأرقى انواع المقاومة في الاسلام على مر العصور[١] واستطرادنا هذا كان لابد منه للدلالة على رسوخ العادات والقيم الروحية في جبل عامل ، رسوخا تمطهر بالممارسة ونوع الفولكلور الراقي . . .

مشهد فولكلوري لبناني /عاملي /زراري مميز :

-الدبكة : رقصة الرجال او لغة الحوار مع الارض :

مرت هذه الرقصة الجماعية في عهدها الذهبي في الزرارية ايام شيخ الشباب ابي قاسم محمد علي هادي مروه الذي كان يتقنها اتقانا لايجاريه فيه احد. كان ابو قاسم رحمه الله من وجهاء عشيرته آل مروه البارزين . بل لعله الابرز بينهم على صعيد السياسة المحلية.

يعمر الدبكة في ساحة البركة في الزرارية ويحشد لها جميع شبان البلدة أو على الأقل جميع شبان العائلة ، فتتسع دائرتها (أو على الاصح نصف دائرتها)

---

(١) ذكرى لا تزال ترفد الشعب بكل فئاته وطبقاته بطاقات الصمود والرفض ، وفي نظري ان فتيان المقاومة الوطنية والاسلامية الحقيقيين ما اندفعوا كل تلك الاندفاعة في مقاومة العدو الاسرائيلي الى درجة الاستشهاد وتفجير الاجساد الا لأن شحنة هائلة من الروح الحسينية لا تزال تسري في عروقهم والى جانبها روح العقيدة التي يعتنقها هذا المقاوم . . وبما اثار المشاعر اكثر بروز القارىء الاسلامي الجديد فضيلة العلامة الشيخ عبد الحميد المهاجر فهو قارىء جبار لمصرع سيد الشهداء الحسين يمثل الوقائع تمثيلا يكاد يكون مسرحيا ترفده حافظة عملاقة وايمان عميق بكل ما ومن يمثل .

على مساحة الساحة كلها . «وهات يا دبك» إلى ان تزلزل الارض زلزالها تحت اقدام «الدبيكة» المهرة . ويتم الحوار العنيف مع الارض .

كنت اهوى رؤية ابي قاسم وهو على الحاشية[1] وحين يصول ويجول تاركا الحاشية مؤقتا ليضبط الايقاع حتى يصل إلى القاطر على الجحشة [2] يضبطه وسرعان ما يعود إلى الحاشية وبيده محرمة مجدولة يلوح بها «ويربط» الدبكة على انغام عازف المنجيرة أو المجوز ، فتشتعل الاقدام والاجسام وزغردات الصبايا لتشكل كلها مهرجانا فولكلوريا رائعا .

ذات يوم نظر إلي وانا واقف اتفرج معجبا به وبحركاته وحيويته . فاجأني آخذا بيدي وواضعا اياي مكانه على الحاشية !! فاحمر وجهي من الاحراج وانا يومها لم اكن اتجاوز الخامسة عشرة من عمري -على ما اذكر - ولا اتقن الدبكة ربطا وايقاعا ، رغم حبي لها . وكان لا بد مما ليس منه بد . . ودارت الدبكة ودارت بي الارض ، وابو قاسم ينظر إلي من بعيد حتى كدت اقع مغشيا علي ، فبادر إلى انقاذي .

الدبكة اللبنانية كما يصفها الريحاني :

يصف الريحاني في كتابه «قلب لبنان» الدبكة اللبنانية [3] فيقول : جاء

---

(١) والحاشية هنا هي رأس الحلقة

(٢) القاطر على الجحشة هو عادة من المبتدئين او من قصار القامة على ان يكون ذا روح فكاهية يغطي بسكناته وحركاته دوره وموقعه المتواضعين . .

(٣) وهي الدبكة المختلطة المؤلفة من شبان وشابات والتي يطلق عليها العامليون اسم «فرخا وديك» وهي نفسها التي يصفها هنا امين الريحاني ، بعد ان شاهدها في قرية «جاج» احدى قرى بلاد جبيل

شباب القرية بما وهبوا واكتسبوا من علم وفن ومعرفة . فكان بينهم القوال الرقاص والنافخ في القصب . وجاءت البنات ذوات الجمال القروي الوديع يساعدن ربة البيت. فكانت احداهن تقدم الشراب ، والاخرى القهوة . وتجيء الثالثة بالماء من العين الى المطبخ ، والرابعة تهيىء الاراكيل (النار جيلات) . . وكلهن يعملن فرحات خجلات كأنهن في عرس اخ لهن . . هي المروءة يتغذى القروي والقروية صغيرين بلبنها . وكنا كأننا في عرس . وعندما جلسنا إلى المائدة ، شاء رب البيت ان يكون العشاء مصحوبا بشيء من الغناء ـ كما لو كنا في لوكندة باريسية ـ فارسلت شقيقته صوتها الشجي ببيت من «العتابا » ونفخ القصاب بقصبه مرافقا لها وكان احد الشبان يباريها ، فيبدأ حينما تقف ، دون ان يبعد عن النغم والمعنى . ويتابع الريحاني قائلا :«انني ممن يعجبون لهذا العربي البدوي الذي تصفو فيه عواطف الحب ، وتشتد لواعجه . واني ممن يطربهم صوت القصب ، ذلك الصوت العريض الأجش الذي تتمثل فيه خشونة البادية ونغمها الوحيد (الرتيب) نغم الوحشة والقسوة والأمل :

اما الرقصة البدوية الشهيرة التي تدعى الدبكة فهي من الفن العالي بمكان انساني [١] : خطواتها همس المرأة ونبرة الرجل ، وان فيها الحركات الهادئة المترددة ، تقطعها وتصلها الحركات الآمرة المهددة :

يا حلوة بحياة قدك

---

(١) وهناك اشكال متعددة للدبكة القديمة واسماء مختلفة وفقا لاقاليم لبنان ولكل قطر عربي منها : السحجة ، العرضا ـ الشيخانية (او رقصة الشيوخ) الصورانية، البعلبكية ـ الخيامية ـ الخضراوية ـ العوجا (بالسيف) وقد عرفت منذ ٤٠٠ سنة الخ . .

والحلوة تميل بقدها ، وتغنج برجليها ، فيضرب الشاب الارض برجله ،

ويكمل البيت :

بدنا بوسة من خدك . . .

وعقدت السلسلة تلك الليلة من الشبان والبنات ، وكانت على رأسها ربة

البيت وهي تلوح بالمنديل !

وعلى ذكر خصائص الدبكة نقول إن هناك نوعين مميزين منها هما :

الدبكة الساحلية التي ذكرنا خصائصها مع الريحاني، ذات الايقاع المعروف

والدبكة «الخيامية» التي قد تكون من مبتكرات قرية الخيام في اقصى الجنوب

اللبناني . دبكة غير صاخبة ، لها هي الأخرى ايقاع وحركات خاصة بها تختلف

اختلافا ملحوظا عن تلك الساحلية : فهي متحركة ببطء ذات حركات للأرجل

من خلف إلى قدام لذلك يسمونها (برضك. برضك . أي بأرضك) اي

مكانك . . . مكانك . . . وهي معروفة لدى منظري ومطوري الرقصات

الشعبية في لبنان، وجميع هذه الرقصات والدبكات اللبنانية (والسورية) تقام فقط

في مناسبات الافراح ، والمناسبات الاجتماعية والسياسية احيانا .

اما الدبكة المختلطة التي ورد ذكرها آنفاً ، فلعلها اجمل الدبكات وامتعها :

دبكة الفرخة والديك المؤلفة من الشبان والشابات ، حيث تعقد الخناصر والايدي

الطرية المتشابكة مع الايدي الخشنة ، وحيث يسكر الجميع على انغام المجوز

والمنجيرة وزغاريد الصبايا المتحمسات . وقد تحدث مساجلات غنائية بالعتابا

والموال والقرادي والميجانا ، خاصة إذا كان بين المتساجلين والمتساجلات عشاق

ومعشوقات . . .

موت الدبكة : وها هي الدبكة تهزل وتكاد تموت في الزرارية بعد ان

احياها ابو قاسم مروه طوال نصف قرن من الزمان . ماتت أو كادت بعد وفاته ، وبعد ان تفرنج الشبان والشابات وتلقوا العلوم العالية . . . ولم تعد الدبكة على رأس اهتماماتهم وهواياتهم . .

قيصر مصطفى والدبكة ! يقول الباحث والمؤرخ الدكتور قيصر مصطفى في كتابه : (الشعر العاملي الحديث في جنوب لبنان ط ا ص ٤٢ وما بعدها - دار الاندلس بيروت ١٩٨١) ان الدبكة القديمة كانت تعقد بمناسبة عقد الصلح بين عشيرتين متقاتلتين . . [١] هذا القول لا يستند إلى واقع تاريخي . فنحن نعلم ان مناسبات اقامة الدبكة كانت ولا تزال محصورة في جبل عامل بالآتي :

- مناسبة افراح الزواج - وقديما بمناسبة ختان طفل الغني أو طفل المختار .

- مناسبة عودة المغترب العاملي من مغتربه بعد غياب طويل ، خاصة إذا كان هذا المغترب غنيا وسخيا له اياد بيضاء في خدمة بلدته أو قريته . . وفي الزرارية كانت الدبكة تعقد ايضا بعد العودة من رحلة إلى الليطاني .

- مناسبة فوز احد المرشحين بالمقعد النيابي . فترى جماعته من الذين انتخبوه تتجمع فور اعلان النتيجة في الساحة العامة أو قرب منزل المفتاح الانتخابي . ويبدأ اطلاق الرصاص في الهواء ابتهاجا . ثم تعقد حلقات الدبكة وتصدح الزغاريد . . بينما يقبع انصار المرشح الخاسر (الراسب) في بيوتهم . علما بأن المرشح الفائز ليس من الضروري ان يكون موجودا أو مشاركا . . . ناهيك بوجوده التفقدي فيما بعد الذي ينعدم تماما طيلة السنوات الاربع لولايته عن الشعب !! وقد يتنكر لجماعته الذين اهترأت نعالهم من الرقص يوم فاز بالنيابة، يوم جعلوه هم يفوز بها . .

---

(١) للتفصيل انظر كتابه هذا

-اما اذا كان الدكتور قيصر مصطفى يقصد اقليما لبنانيا بعينه -كالبقاع مثلا وليس جبل عامل فهذا جائز . ونتسامح معه لنقول : ربما حدث ذلك في احدى قرى الجنوب اللبناني على سبيل الاستثناء لا القاعدة . (١)

«كت البراغيت» اصطلاح عاملي شعبي يقال للمتفرج على الدبكة غير المشارك فيها يقول له رفاقه : «قم كت براغيتك» اي قم اشترك بالرقص معنا . . .

فيقوم ، رغم تكاسله ، ويكت براغيته . !!

عودة الروح إلى الدبكة في الزرارية :

بعد ان كادت الدبكة تهزل ثم تتلاشى في الزرا رية قام احد الفنانين من ابنائها بانشاء فرقة فنية للرقص الشعبي اسماها : فرقة كريم مروه للفنون الشعبية. وكريم مروه هذا مصمم ازياء مبدع هو ابن المرحوم حسين مروه الملقب بالخنجر . وفرقته هذه مؤلفة من ستة شبان وخمس شابات هن :

سناء مروه ووفاء مروه (مساعدة مدرب) وهيام مروه ، وغزوة علي هاشم وراضية زرقط . اما الشبان فهم :

المدرب نفسه كريم مروه وعلي محمد شرف الدين (على الحاشية) ومحمود نجيب مروه حفيد المرحوم الاستاذ الاديب احمد مروه ، ورياض هاشم (ابن السيد علي احمد هاشم) وعدنان زرقط ، ومحمد جمعه.

---

(١) كان سكان القرية بعد ان يرافقوا العروس الى بيت عريسها يتحلقون في ساحة القرية ، ويعقدون الدبكة على أنغام المجوز والربابة وهات يا «دبك » خاصة اذا كانت الدبكة «فرخا وديك » وعندما «يهكلو » من الدبك ينصرفون منشدين «ترويدة» من مثل :

يخلف عليكن يا شباب . . ويعيدكن لمثالها . . اي الى امثالها .

يقول المدرب كريم مروه : غايتنا من هذه الفرقة تطوير رقصة الدبكة العاملية المعروفة وجعلها - بعد المرحوم ابي قاسم - اكثر ملاءمة لروح العصر ، فهي لم تعد «تربط» على انغام المجوز أو المنجيرة تسبقها خطوات ايقاعية رتيبة ، بل جعلناها تتماشى مع موسيقى اي اغنية لبنانية حديثة . وقد شهد لها الفنان الكبير مارسيل خليفة في اول حفلة له في احدى قرى الجنوب (قرية الشرقية)، حين راح شبان الفرقة وشاباتها يرقصون على انغام فرقته (الميادين) بخطوات واثقة وايقاع منسجم ومنوع أو انسجام ايقاعي رائع هذا التنوع هو ما نسميه في الموسيقى الراقصة : لوحات ومشاهد figures . يؤدي الشبان والشابات دبكة راقصة ومغناة كل عشر دقائق ، ثم ينسحبون ليأتي غيرهم فيؤدوا دبكة او رقصة اخرى على انغام اغنية اخرى ، ثم ينسحبون وهكذا . .

بعد ان كانت الدبكة الكلاسيكية رتيبة الايقاع على «المجوز » وحده أو المنجيرة التي قد تستطيع توقيع خطوات هذه الدبكة على الحان اغنية «عاالهوارا الهوارا» أو «يا غزيل» لكنها لا تستطيع دوزنتها كالدبكة الحديثة على جميع الحان الاغنيات الجديدة كأغنيات فيروز ووديع الصافي ونصري شمس الدين والحان الاخوين رحباني وسواهم . .

وها هي فرقة كريم مروه تواصل نشاطها وتدريباتها ، واصبح لها في كل عرس قرص ، وفي كل حفلة جنوبية وجود ملفت .

لعبة السيف والترس :

كثيرا ما كان يعقب الدبكة قديماً مساجلة من نوع آخر مثير ، متمثلة بلعبة

السيف والترس (١) ولكن هذه اللعبة أو الرقصة انقرضت قبل انقراض الدبكة القديمة .

منظر فولكلوري خاص يتميز بالفرادة والطرافة :

وهناك منظر فولكلوري لا انساه استحدثه احد وجهاء الزرارية وكان مختارا. كاد هذا المنظر يصبح تقليدا ، لولاسرعة انتقال البلدة من البداوة إلى الحضارة . . . هذا المختار كان مشهورا بقيافة خاصة وكرم بدوي وشاربين كشاربي ابي قاسم . . . فمن كرمه انه كان يدعونا إلى ترويقة عشائرية ، قوامها «اللزيقيات » وهي عبارة عن ارغفة مرقوقة واسعة تقلى على «الصاج» بعد ان تدهن بالسمن البقري أو الزبدة الطازجة الممزوجة بالسكر حتى تحمر فتؤكل كما لا اشهى . . . وكنا نحن القرويين ساكني المدينة نعتبرها خير بديل عن مناقيش صور أو صيدا أو بيروت . .

ومن مميزات هذا الجار المختار انه كان يدور في ازقة البلدة بالبيجاما . . وتراه حين يقوم بزيارة خاصة داخل البلدة يحمل بيساره نارجيلته المزركشة الطهمازية ويسلم باليمين . واذا قيل له :«علقت » اي وقع شجار بالعصي بين جماعته وآخرين ، هب مع أولاده ومحازبيه إلى ساحة المعركة . . ممتشقا عصى

---

(١) لعبة السيف والترس تجري بين لاعبين متبارزين يلعبان الكر والفر وكأنهما في معركة حقيقية : هذا يحاول بسيفه ان يطال خصمه او «يعلم » عليه . وهذا يتقيه بترسه الذي يمسك قبضته بيسراه وينقض على خصمه بيمناه . . وهكذا في حركات سريعة (فويق الارض) هجومية الطابع تنم عن فروسية شرقية مميزة سليمة النتائج، على النقيض من مبارزة الفرسان في القرون الوسطى في اوروبا حيث كان على المتبارزين ان يتغلب احدهما على الآخر بالرصاص القاتل ، او الطعنة النجلاء !! هناك جد ووحشية وهنا لعب ومهارة وانسانية . . . .

غليظة ، لا ليزيد الطين بلة ، بل ليخفف من حدة الشجار بالصلح و«تبويس اللحى» . .

اما لماذا يصطحب كل هذا الحشد من الازلام فلكي يكون له «وهرة» في نظر المتشاجرين فيقبلوا بالصلح ، وإلا فالعصا لمن عصا !

هذا الرجل الفولكلوري بشاربيه وقيافته وتصرفاته هو المختار محمود عبد الله زرقط الجار والصديق .

الليطاني فولكلورياً . .

الواقع ان الزرارية كأي قرية لبنانية عاملية ، لها فولكلورها الخاص الذي ابتدعته وهو في الحقيقة لون من الوان الفولكلور العام الذي توارثته الاجيال ، في القرى ، جيلا بعد جيل . .

في الزرارية نشأت منذ زمن بعيد عادة الذهاب جماعات إلى الليطاني للاغتسال والسباحة والتنزه . وذلك بحكم قربها من هذا النهر (خمسة كيلومترات على الاكثر) كنا نذهب ايام الصيف ، على ظهور الخيل والحمير ، وبعضنا مشاة . وعندما نصل ، ذهابا أو ايابا ، الى سهل البياض نقيم سباقا مرتجلا . انا مثلا أمسك بناصية الفرس متشبثاً بلجامها خوفاً من السقوط في اي لحظة ، في حين ان احدنا وهو السيد رياض فخري (ابو سامي) كان يمتطي صهوة حصانه بدون بردعة وبلا لجام . . ويصول ويجول في الميدان ويسبقنا جميعا ، وبالاحرى يسبق اولئك الذين يدعون الفروسية من «الخيالة » ؛ لقد كان ابو سامي فارسا حقا وعلى الأقل خيالا ماهرا . .

وهناك على ضفتي النهر الحبيب نحط الرحال شيبا وشبانا ، نساء واطفالا، بالقرب من نبع أو داخل بستان الدرزية ، وكأننا عشاق معاميد نهوى هذا المعشوق

ونتوق إلى ضمه وتقبيله بالسباحة والقفز إلى اعماق مياهه الصافية من على صخرة في وسط مجراه . وترى احدنا يصيح بالآخر مازحا : انت دب . . اي اقفز إلى الماء ، وهو تورية - كما ترى - جميلة وعفوية . . .

كما اذكر ان جارنا الملقب بالزعيم وهو المرحوم خليل محي الدين كان طريفا جدا وصاحب دعابة قروية محببة ، فعندما يلاحظ ان احد السابحين قد «تطهر» وتهيأ للخروج إلى الشاطىء ليرتدي ثيابه يفاجئه الزعيم قاذفاً على جسده العاري كمية من الوحل . . فيضطر للعودة إلى النهر . . هذه العملية تسمى «التشنين» [١] وعندما نهلك من السباحة والقفز والتشنين ، نهجم على المجدرة التي تكون النسوة المرافقات قد أعددنها إعدادا جيدا . . واحيانا يجبلن لنا كبة اللحم الشهيرة ، فاذا لم يجدن «سدرا» أو جاطا كافيا أو صينية عمدن إلى تنظيف صخرة مبسطة وجبلن الكبة عليها ، وقبيل الهجوم ينبري شاعر ليقول[٢] ، اذا لم يجد زيت الزيتون عليها :

ما احسن الزيت والكبي اذا اجتمعا لا بارك الله بالكبي بلا زيت !

وهو تحريف للبيت المعروف :

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا لا بارك الله بالدنيا بـلا دين !

---

(١) التشنين : من شن الغارة او تلطخ بالوحل (محيط المحيط ج١ ص ١١٣٠ مادة شنن)

(٢) هذا الشاعر هو المرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين وكان بارعا في تشطير الشعر وتخميسه وتغيير محتوى القصيدة بمايتلاءم مع موضوع الساعة من فكاهة ودعابة .

العامليون شعراء بالسليقة :

وبمناسبة ارتجال الشعر وتشطيره وتخميسه وتصمينه والتصرف به نؤكد ان اهل جبل عامل مميزون منذ كانوا : بذائقة مرهفة للشعر ، وبكثرة كاثرة للشعراء بينهم ، قديما وحديثا ، فصيحا كان هذا الشعر ام عاميا زجليا . حتى الاميون منهم يحفظون الامثال والحكم الشعرية ويستشهدون بها ، في احاديثهم ، وان تلعثموا بها احيانا، دون ان يعرفوا قائلها بالطبع . سمعت احدهم يستشهد ببيت المتنبي المشهور :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

لكن ذاكرته خانته في عجز البيت فأكمله من عنده قائلا :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الحمير بما لا تشتهي السكك !

ولعله قصد إلى ذلك قصدا ، للتفكهة والدعابة . . لم اعد اذكر . . وهم يطربون للشاعر المجيد ، دون ان يفهموا جيدا ما يريد . . فلا نبالغ كثيرا اذا قلنا ان العامليين كلهم شعراء بلا استثناء . . . شعراء تلقيا ، وإصغاء ، وتأثراً ونقدا . . وشعراء ابداعا واتباعا .

ولو احصينا بدقة شعراء الحداثة في لبنان ، منذ مطلع الخمسينيات من هذا القرن لوجدنا اكثريتهم الساحقة من هذا الجنوب اللبناني (جبل عامل)

شعراؤهم المفضلون :

يفضل العامليون المخضرمون الشعر الحسيني، والغزل العذري وحكم المتنبي واخلاقية عنترة في معلقته وفي هذه الايام شعراء المقاومة . أما الشعراء

الكلاسيكيون الكبار فيأتون في الدرجة الاولى في نظرهم. مبررين ذلك بقولهم : من لا قديم له لا جديد له ومما يؤكد ما نذهب اليه من تعلق العامليين بالشعر والشعراء على اختلاف انواع الشعر ، واستشهادهم بقول الشعر الزجلي على البديهة ان ما من فرقة زجلية - قديما وحديثا - إلا وقوامها شعراء زجليون مبدعون عامليون كعبد الجليل وهبي وعلي الحاج البعلبكي والقماطي وزين شعيب واسعد سعيد وسواهم .

وهذه قصة المباراة الزجلية التي جرت بين محمود حدا تا وزجال مسيحي يدعى رشيد في اوائل هذا القرن لا تزال وقائعها ماثلة في اذهان المعمرين ممن شهدوها وحفظوها . وقد سمعت المرحوم ابا منير مروه والمرحوم والدنا يرويان من مقاطعها وأدوارها . ويقال ان الوالي العثماني كان حاضرا . وقد تغلب فيها محمود على رشيد حين تساجلا وهما يدبكان . . اي قاطران على الدبكة رشيد على الحاشية ومحمود على «الجحشة» اي على الطرف . .

هذه العادة عادة زيارة الليطاني استمرت عند اهل الزرارية ، إلى ان زاحمت السيارة الخيل والحمير والجمال . وهذه الاخيرة انقرضت تماما اليوم ، بعد ان كانت تستعمل للرجيدة اي لنقل غمار القمح والشعير والحبوب (ويسمون الحبوب القطانة) من الحقول إلى البيادر . كما كانوا يذبحونها لأكل لحومها . . . أما الحمير فلنقل ماء الشرب من «العين» والحطب من «السنيبر» أو «وادي خليل» ونادرا من وادي جهنم . هذه الوديان المجاورة كانت مليئة باشجار السنديان والبطم والسريس. . أو لنقل البضاعة من المدن . .

اما الخيول المطهمة فكانت للتباهي باقتنائها وركوبها ، وما هرم منها

«الدراسة» الزيتون والخروب في المعصرة (١) والقمح والشعير كل هذا انقرض واصبح من ذكريات الماضي الهنيء . .

وما دمنا في غمرة الحديث الحميم عن الليطاني وحب اهالي الزرارية له ، فلا بد من ذكر عادة جرت عليها ربات البيوت في البلدة وهي :

ان امهاتنا كن يفضلن الاغتسال وغسل الثياب بمياه هذا النهر . فينتظرن اسبوعا أو اسبوعين على الأقل حتى يتجمع لديهن كمية حرزانة من الثياب الوسخة ، تكفي أو تبرر نزولهن إلى الليطاني وقضاء نهار بكامله هناك . فهن في العادة مشغولات دائما بقطف التين وتيبيس «الشريحة » منه ، «وحواش» الخروب والزيتون وجرش البرغل بعد سلق القمح وتحضير «المونة» وبالحمل والولادة كل تسعة اشهر وعلف البقر وصناعة الزبدة والسمن البقري وغير ذلك من الاعمال اليومية . مشغولات دائما ولا يتمكنّ من زيارة الليطاني كلما شاء الزوج أو الاولاد . اما نحن الاطفال فلا بأس ان ننتظر طوال هذه المدة دون اغتسال . . والذي يتضايق منا من تراكم الوسخ على جسده وطول المدة يهرع إلى بركة البلد(٢) ويا لها من بركة كانت تزيدنا ، دون ان ندري ، وسخا على وسخ . . بل وأمراضا ظهرت فيما بعد . . كالتراخوما والاكزيما والتيفوئيد وغيرها . .

---

(١) كان العرب قديما يتبركون بالخيل . فالخيل عندهم معقود بنواصيها الخير . وبقي هذا التبرك خاصا بالاصيل منها واستمر مدعاة اعتزاز ومنافسة . ويروون في هذا المجال روايات تشبه الاساطير عن ذكاء الاصيل منها واخلاصه ووفائه لصاحبه .

(٢) حتى الامس القريب كانت الساحة التي تتوسط الزرارية تدعى ساحة البركة الى ان وقعت عليها المجزرة الرهيبة المعروفة فسميت بساحة الشهداء . فتطهرت البركة بدمائهم الذكية .

وهناك على ضفاف هذا النهر الأليف تدخل العائلة بين اشجار الشيح والشبريع والدفلى والعليق فيتعرين من ثيابهن الخارجية ويعلين الموائد الحجرية لغلي الماء في القدور ، ومن ثم ملئها بالثياب الوسخة مع كمية من اقراص النيل (اذا كانت الثياب بيضاء) . ومن العائلات الفقيرة المعدمة من كانت نساؤها ينظفن ثيابهن «بالمحباط» بدل الصابون العربي الذي كان حكرا على الاغنياء ومتوسطي الحال في اوائل هذا القرن . نظراً لغلاء ثمنه أو ندره وجوده في تلك الايام ! وينتشر الشبان والاطفال شبه عراة سابحين لاعبين مطاردين الاسماك النهرية والضفادع على الضفاف . . وتراهم يأتون بماء الشرب من الينابيع المجاورة الرافدة للنهر خاصة «نبعة» المرحوم محمد اخضر المشهورة ببرودة مائها وعذوبته اما الفتيات فيأتين بالمشاطيح الطازجة من فرن قرب مطحنة المغيرية وعلى مدخلها الشرقي . كان المرحوم ابن خالتنا السيد شريف هاشم [1] في الاربعينيات يجيد تخمير هذه المشاطيح وتحضيرها لمن يشاء خاصة اذا علم ان ابناء خالته (اي نحن) موجودون هناك . .

وهكذا نعود قبل الغروب منظفين مهفهفين راكبين على الدواب أو راجلين، بعد ان امضينا نهارا ولا كالنهارات . . . .

هذه العادة لا تزال تمارس ولكن على نطاق ضيق وبواسطة السيارات هذه الايام بعد ان شقت الطريق ، ورصت بالبلوكاج تمهيداً لتزفيتها قريبا بعون الله وهمة مجلس الجنوب ونواب الجنوب الجدد.

---

(١) وهو ابن خالتنا ووالد القائد بن الشهيدين نعمة واحمد هاشم . اما الاحياء المجاهدون من ابنائه وعلى رأسهم الاخ المجاهد الاستاذ محمد شريف هاشم فهم : عباس وحسن ومحمد (انظر نبذة عن حياة محمد في باب فعاليات الزرارية .

عوائد بادت أو كادت :

ومن العوائد الاجتماعية التي تخلى عنها البكوات والباشاوات والافندية وسائر افراد الشعب في جبل عامل وعلى مستوى لبنان كله ، عادة اعتمار الطربوش كغطاء للرأس . باستثناء قلة قليلة من الناس. اذكر انني وشقيقي الأكبرين المرحوم جواد ونجيب كنا نعتمره في الثلاثينات . كما كنا نرتدي الشروال او الصاية [١] في طفولتنا ايام شك الدخان (التتن) كما يسمونه ، او عند قطافه .

ويقي الشروال لباسنا الوحيد وليس المفضل حتى بعد ان التحق بعضنا بمدرسة النبطية الرسمية . هناك اضطررنا إلى خلعه وابداله (بالكاكي الشورت) بعد ان أصبح هذا الشروال المتجمع بكثافة من الخلف العوبة اطفال المدينة اي تلامذة النبطية . . يشدونه عابثين غير عابئين وقعنا على الارض ام لم نقع . . .

الطربوش المقلوب : وعلى ذكر الطربوش نورد الطرفة التالية :

كان لنا جار صديق للمرحوم والدنا يعتمره باستمرار . . وكلما اراد هذا الجار ان «يقلبه »في صيدا ، اي ينظفه ويكويه . . كان يلجأ إلى الوالد نظرا للجيرة ولكثرة مشاويره إلى المدينة وعملا بروح الألفة والمحبة السائدة بينهما ، وبين اهل القرية كلها . . . جاء هذا الجار (ويدعى محمد الحاج أمين زرقط) كعادته طالبا من الوالد ان «يقلب » له طربوشه القديم اياه والذي طالما خضع هذا الطربوش للقلب . . فما كان من الوالد ، وهو المعروف بروح النكتة والدعابة ،

---

(١) الصاية : لباس قروي يشبه ما يسمى اليوم « الدشداشة» لكنها ليست مثلها فضفاضه بل سميكة وضيقة ، كانت في الزراعة لباسا مفضلا . والموسرون من آبائنا واجدادنا يطرزون جيوبها «بالست كروزا » ويصنعونها من الحرير الطبيعي الخالص .

الا ان قلبه (اي الطربوش) فوقع على الارض . . قائلا لصاحبه وهو يضحك :

ألم تطلب مني ان اقلبه لك ؟!

من اين جاء الطربوش ؟

هذا الطربوش باحجامه المختلفة ، جاءنا - كما يؤكد الرواة - من النمسا عبر تركيا . اما شكله وحجمه فيختلفان في لبنان من منطقة إلى أخرى . وفي جبال الشوف «اللبادة» .

الكوفيه والعقال : اما الكوفيه والعقال فما زالا لباس المخضرمين من ابناء الزرارية وسواها الذين لم يغتربوا أو لم يدخلوا مدارس المدينة . وقد كاد لباس الرأس هذا ان ينقرض . فهو والكوفية والعقال لم يعد لباسا ملائما في هذه الايام. وهو مع الشروال والصاية وفسطان الزوجة والشروال النسائي (بكشكش) على القدمين و «الطيار» المزخرف، و«كاكي» الاولاد . . كل هذه الالبسة القديمة انقرضت هذه الايام بحكم التطور والتمدن . كان رب العائلة يشتريها له وللزوجة والاولاد مرة واحدة في السنة كلها . ويلبسونها طوال السنة . . لأن النزول إلى المدينة كان نادرا . . ووجود الدراهم في الجيوب كان نادرا كذلك تماما كما «المونة» التي تحضر ، مرة واحدة للعام الواحد . وقد يبقى من زيت الزيتون مثلا ما يكفي لسنتين . .

البيرق الخاص :

كان للزرارية - حتى الخمسينات تقريباً بيرقها الخاص [1] والسنجق والطبل

---

(١) هذا البيرق الخاص مصنوع من حرير سميك (صوف وحرير) وهو الديباج قديما . ومصبوغ باللونين الأخضر والاحمر . وكان يكتب على المساحة البيضاء فيه العبارات التالية : لا اله الا الله محمد رسول الله . والثانية : لا فتى الا علي ، ولا سيف الا ذو الفقار ، والثالثة : نصر من الله وفتح قريب . .

والفرنايطة وقد انقرضت هذه العادة بفعل التطور والاستقلال الذي اصبح معه للدولة علمها المعروف الذي وضعت الوانه في بشامون اثناء احتجاز «ابطال » الاستقلال في قلعة راشيا .

اقول : لقد انقرضت عادة اقتناء كل قرية لبنانية لبيرقها الخاص . اقله بسبب انقراض العقلية القبلية وساد الشعور بالانتماء - ولو ضعيفا- إلى الدولة .

اذكر ان الزرارية حين كانت تدعى إلى احتفال أو مهرجان ، كان شيخ شبابها يذهب مع رجاله ومعهم جوقتهم وبيرقهم الخاص المؤلف من سنجق وطبل وقرنايطة وما اشبه . وقبيل الوصول يجدون قرية ما قد تقدمتهم بجوقتها هي الاخرى هنا تعلن الزرارية بلسان شيخ شبابها رفضها السير وراء رجال تلك القرية. كما يأمر رجاله بتجاوز رجال تلك القرية . . وهنا تبدأ المعركة ! اجل معركة بكل معنى الكلمة ! فالزرارية - في نظر شيخ الشباب ، لا يجوز ان يتقدم عليها احد . . . ونحمد الله - اليوم - على ان هذه الخزوانية أو الكبرياء القروية القبلية الساذجة قد ولت إلى غير رجعة بفعل التقدم العلمي والاجتماعي ، وحلت محلها ، على الاغلب ، العصبية الوطنية والقومية . . ونحن نسجلها هنا اثباتا لواقع اجتماعي مأساوي متخلف عاشته قرانا بفعل سياسة التسلط الاقطاعي وتجهيل الشعب .

لماذا كان البيرق الخاص ؟

اما نشأة مثل هذا البيرق فقد كانت حين بدأ الحكام ايام الحكومات الاقطاعية في عهدها الاول ، في مناطق جبل عامل الجنوبية والشمالية ، يشعرون باستقلالية ذاتية واسعة عن الدولة العثمانية ، خاصة وانهم لم يكونوا ملزمين ، بحكم القوانين العثمانية ، برفع العلم الرسمي للدولة على دورهم وقصورهم

وسراياهم ، وفي احتفالاتهم ، فكان لهم علمهم هذا ، أو بيرقهم ، اذ انه في ذلك العهد الاقطاعي الاول كانت الدولة العثمانية لا تتدخل في شؤون البلاد العاملية الداخلية ، فلا تحكم مباشرة (١) ما دام هؤلاء الحكام الاقطاعيون يؤمنون لها مصالحها ومواردها من مكوس وضرائب وجيوش احيانا . .

مشهد فولكلوري خاص جدا : او رقصة الابريق !

ترقص وحيدة وسط الحلبة وعلى رأسها ابريق ملآن :

كثيرا ما شاهدت - ايام حفلات الاعراس والافراح - صبية قروية حسناء تنبري وسط الحلبة وعلى رأسها ابريق مليء بالماء باكليل وبدون اكليل . . تثبته جيدا وتأخذ بالرقص الرشيق : يهتز جسدها على ايقاع معين دون ان يهتز رأسها . . وفي هذا من الاتقان والثقة والدربة ما فيه . . ويستمر الهز ونستمر نحن بالتصفيق اعجابا وانتشاء . . حتى اذا توقفت الحسناء بعد ربع ساعة على الاقل توقفت قلوبنا عن الخفقان أو كادت . .

ترى لماذا لم يتمايل الابريق مثلنا ولم يقع ؟ ! لعله انتشى ولكنه من فرط نشوته تسمر على رأسها وخاف على الصبية من السقوط والانسحاب خجلا فظل ثابتا لا يريم . . . .

شك الحبق وراء الاذنين(٢) :

كما اندثرت عادة شك الحبق وراء آذان الشبان العشاق ، او الذين يهمون

---

(١) انظر : تاريخ جبل عامل ـ ط٢ ص٩٨ ، ٩٩ (المتن والحاشية) محمد جابر آل صفا دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٨١ .

(٢) الحبق ويسمونه في القرى حبق المحبوب لرائحة وريقاته العطرة والحادة . كما يدخل الحبق في اعداد «الكمونة » لكبة اللحم .

بأن يعشقوا . . يخرج بعضهم - بعد يوم شاق من «النكش» والحراثة ، والاحتطاب ، وبعد ان يغتسل ويعتمر الكوفية والعقال «شاكا» بعض شتلات الحبق وراء اذنيه يخرج وقد بيت امراً . فاذا سئل : الله يسهل ؟ إلى اين بكل هذه الزينة والعطر ؟ يجيب : «رايحين نحب» ! فاذا عاد خائبا يدعي انه احب «فلانة» واحبته فعلا . . بدليل ان كلبتهم نبحت عليه !! او انه شلحها بخنقها (١) فشتمته او بصقت عليه ! اليس كل هذا دليلا على حب الفتاة لهذا العاشق المتيم ؟ !

-قد تكون هذه الروايات مبالغا فيها وغير معقولة اليوم ، ولكنها ، او بعضها ، كانت مما يحدث في اوائل هذا القرن عند السذج من شبان القرية . .

-عقد لسان الوأش (اي الوحش) :

وهناك عادة ايمانية قوامها بأن الله قادر على كل شيء . . هذا صحيح ولكن الطريقة المتبعة غير منطقية ، وتتناقض والحديث الشريف : اعقل وتوكل .

يأتي الراعي او صاحب المعزاة إلى امام المسجد او شيخ البلد المؤمن فيطلب منه ان يربط له «لسان الوأش » (اي الوحش) فقد تخلف عن العودة رأس ماعز مثلا . . يفتح الشيخ سكين الراعي او صاحب «الرأس» ويبسمل عليها قارئاً ما شاء من الادعية والآيات ثم يطويها بعد ان ينفخ عليها من انفاسه . . . كانوا يؤمنون ان المعزاة الضالة ستسلم حتما من انياب «الوأش» ! .

اعتقد ان هذه العادة قد انقرضت . . اذ لم يعد في الزرارية قطعان ولارعيان . ولا سذاجة إلى هذا الحد . .

---

(١) البخنق عقد من خرز .

الاعياد في الزرارية ومثيلاتها في القرى اللبنانية :

هذه الاعياد فقدت الكثير من طقوسها وازيائها وعاداتها . فاذا كان معنى العيد : عودة إلى الفرح واستعادة للسعادة المفقودة والمؤقتة ، فان حاضرنا التاعس وواقعنا المؤلم في لبنان ، ولا سيما في جنوبه ، لا يشجعان على هذه العودة والاستعادة . . لم نعد نأبه - نحن الكبار - بما يسمى العيد ، حتى ولو كان عيدا دينيا . . اذ قد اصبح لنا هاجسنا الاوحد الذي يطغى على كل هاجس الا وهو هاجس التحرير . فحين يتم التحرير في الخارج والداخل ، ساعتئذ نحتفل حقيقة بعيد وطني جامع . وبكل الاعياد .

اما الاعياد المألوفة والروتينية فقد اصبحت وقفا على الصغار . وهذه نفسها : عيد الاضحى والفطر والمولد والميلاد لم تعد تقام لها - كما في الماضي- الأزياء والطقوس : فلا مراجيح في القرى ولا حلوى في ساحاتها ، ولا رقصات أو عقد دبكات - الا في القليل النادر .

الزيارات المتبادلة :

وقد بادت عادة اجتماعية محببة كان آباؤنا يزاولونها وكأنها طقس مقدس. عنيت : زيارة جميع الاهل والاصدقاء ايام العيد للمعايدة والمباركة.

اذكر ان المرحوم والدنا كان يصطحبنا معه إلى زيارة الأهل والاقارب والاصدقاء ، كما كانوا هم يبادلوننا الزيارات نفسها في يوم العيد نفسه .

هذه العادة بادت ، ولم أعد اشاهدها في القرى . إما لضعف في الروابط الاجتماعية او لانشغال الناس عن العيد واهل العيد بانفسهم وهمومهم ، او لكلا الامرين معا . .

العاب العيد :

لم يكن حظ اطفال الزرارية وفتيانها بأوفر من باقي القرى العاملية في ادوات التسلية ووسائل اللهو والترفيه ، كما في المدن - كان كل حظهم ايام العيد «الحناء» ليلة العيد ، ونهار العيد ينصب نوع بدائي من المراجيح في ساحة البركة (الشهداء اليوم) وركوب البراذين (الحمير الصغار أو الجحاش) وإلا فركوب القصبة بدل الخيول ، ثم لعبة «الكلة» في الطرقات . . وشراء اللحم المشوي أو «المعلاق» وغزل البنات والحلويات وارقاها النمورة والمشبك والعوامة ولبس ثياب العيد الجديدة الفاقعة الألوان والتفرج على حلقات الدبكة «يعمرها » الكبار وحفلات الزفاف احيانا . .

اما ركوب السيارات والبوسطات باعداد كبيرة والدوران حول البلدة - كما في المدن - فهذا مما لم يعرفه فتيان واطفال القرى العاملية قديما . .

اما لعبة «الطاولة» (الزهر) فمحصورة بالكبار ولكن في غير ايام الاعياد، كان شاعر الزرارية الكبير ابن البادية بارعا فيها ، وكثيرا ما كنت اشاهدة يلعب مع المرحوم عمنا السيد حسين جواد شرف الدين وامثاله ، ويبدو اثناء اللعب أستاذا كأستاذيته في الادب والشعر واللغة . .

المسجد يبنيه مسيحي !

ومن العادات العاملية التي تدل على التسامح الديني ، وعدم التعصب الأعمى ، ان اكثر مآذن ومساجد قرى جبل عامل (وعلى الاقل اقليم الشومر) هي من تصميم وبناء شيخ العمارين : مغيزل وهو عمار مسيحي معروف . والمسجد القديم في الزرارية من تصميمه وبنائه . إلى ان برع في هذا الفن احد ابناء

الزرارية وهو المعلم يحي مروه ، فحل محل مغيزل او كاد . . كان مغيزل ذا روح مرحة مما حببه الى الاهالي . فاذا عطش اثناء العمل راح يحدث نفسه امام العمال قائلا :«نيال اللي عالنهر » . . فاذا انتبهوا - وقلما كانوا ينتبهون - سارع احدهم إلى الاتيان بالابريق وناوله اياه. . والا فانه يعود إلى تكرار الحديث معيدا نفس الجملة . .

ذخائر الفرسان :

وكان من اعز مقتنيات الشيوخ - الشبان أو« شيوخ الشباب » اسلحة قديمة تعلق في الصالون أو غرفة الجلوس اليومي ، او في غرفة خاصة بها . من مثل :السيوف والرماح القديمة ، والبوني ، والطبنجا، والترس ، (وهو درع متحرك -، كما ذكرنا ، يحمل باليد اليسرى في لعبة السيف والترس)يضاف اليها اذا كان صاحبها مخضرما البارودة المسكوبية او العثمانية . وكانت هذه تحشى حشوا بالبارود وبخرقة تدك فوقه [١] . ثم انتقل الاقتناء والتباهي ، إلى البندقية الحديثة التي يحوى خزانها أو (اقسامها) الرصاص [٢] على اختلاف انواعه . . ثم «المعدل » الالماني والبارودة الانكليزية الثقيلة . ثم الأف - ام- والكرداغ (أو البكرة) . . واخيرا لا اخرا : الرشاش والرشيش والمسدس الصغير (٦ملم) . . والكلاشينكوف ووالخ . . مما اظهرته الحرب الاهلية الأخيرة في لبنان وخاصة كاتم الصوت !! الذي لم يسلم من شره الابرياء من ادباء ومفكرين احرار !!

---

(١) ومنه المثل القائل : فوق الدكة شرطوطة ا يقال للمصيبة الطارئة تضاف الى المصائب الحاضرة .

(٢) الرصاص جمع رصاصة وهي البندق او البندقية. ومنها جاءت التسمية بندقية سلاحا ناريا.

لكن هذه المقتنيات - قديمها وحديثها - لم تعد تعلق في بيوت الفرسان الذين كانوا مقاتلين حقا . . ونزل الجديد منها إلى ساحة القتال . . أو الاقتتال الطائفي البشع نزل إلى زواريب بيروت وضاحيتها واقليم التفاح والأقاليم الأخرى !! وذهب الشريف منها ، تحمله اكتاف الشرفاء من مجاهدي المقاومة الوطنية الشريفة والاسلامية النظيفة - إلى هناك على حدود جبل عامل الجنوبية حيث العدو الواحد يتربص بالجميع ارضاً وشعبا ومياها . .

«دريسوار » قروي قديم :

اذا كان الدريسوار الحديث هو لتخزين الآنية من صحون وطناجر وكؤوس وطاسات وما اشبه وابراز الثمين منها في واجهات الدريسوار الزجاجية . . فان «دريسوار» جدودنا في القرى كان عبارة عن رفوف في القاعة الرئيسية (الصالون) توضع عليها طناجر نحاسية متوسطة الحجم وجاطات مما لا يستعمل دائما . وتوضع الطناجر الضخمة والالفيات داخل خزانة المونة الخاصة أو ما يسمى (بالنملية) ، أو على «السدة»

هذه العادة - عادة صف الطناجر والصحون على الرفوف وعلى مدار جدران القاعة الرئيسية ـ قد انقرضت تماما حتى في ايام آبائنا . . لكن النملية بقيت حتى الآن بعد تطوير شكلها الخارجي . اما«الكبكة» فهي الاخرى لم تعد موجودة إلا في القرى الجنوبية النائية ولدى العائلات الفقيرة جداً . . فقد حل البراد أو الثلاجة ، مكانها . . ففي عصر الكهرباء والتكنولوجيا تنعدم وسائل الطبيعولوجيا . . اذا صح التعبير . .

اما تبريد ماء الشرب ، على الطريقة القديمة ، فكان امره عجبا . . اذ قد اخترعوا له طريقة قلما كانت تخطر على بال . . يملأوون الجرة بماء العين ثم

يدلونها بحبل متين إلى البئر بحيث يغمرها ماؤه حتى الاذنين . . ثم ينتشلون الجرة صباح اليوم التالي فاذا بمائها يصبح باردا جدا : وتشرب العائلة منه هنيئا . حقا ان الحاجة ام الاختراع والعاملي - كما ترى - قادر على الاختراع في جميع مجالات عيشه الضنك للتخفيف من وطأته ما امكنه ذلك . . (١)

«بتاع كلو» او الاختصاصي في كل شيء !

انها عادة قروية لبنانية يمكن ان ندخلها في صميم الفولكلور العاملي في اريافنا وهي : ان صاحب الدكان (الدكنجي بالتركية) في القرية لم يكن - في اوائل هذا القرن وحتى الأمس القريب - بائع سمانة وخضار فقط ، بل كان يبيع بعض الاقمشة بالاوقية والذراع . . والطرابيش والكوفية والعقال والجزامي ، والاعجب من ذلك كله انه كان في نفس الوقت وفي الدكان نفسه حلاقا وقالع اضراس . . ومن هنا المثل (منكون عم نحلق منصير نقلع ضراس !) وفوق هذا كان يعلق على باب دكانه يافطة (آرما) صغيرة كتب عليها : عندنا علق . . لامتصاص الدم الفاسد أو الزائد من المريض . .

وكثيرا ما كان هذا «الدكنجي» يترك زبونه على كرسي الحلاقة وقد حلق له نصف ذقنه مثلا ليبيع بعض الخضار او السلع ، ثم يعود ليتم الحلاقة ! والزبون المسكين راض بالرغم عنه - والطامة الكبرى لهذا الزبون اذا جاءت الجارة الحلوة (شملكان) أو (ورد الشام) مثلا . . فانه يترك الزبون دون استئذان ليبيع الجارة وعلى الاصح ليغازلها . . وعنده في البيت زوجتان - ضرتان على الاقل !!

---

(١) ذكرنا هذه الطريقة بايجاز في باب سابق من هذا الكتاب تحت عنوان : التبريد بدون ثلج ولا ثلاجات . .

اما اليوم وبفعل التطور والتأثر بالغرب فقد توزعت الاختصاصات في القرية اللبنانية ولم تعد محصورة في يد اختصاصي واحد . .

وسبحان مغير الاحوال والرجال !

ومن طرائف العادات الخاصة بالزرارية ، طرفة ابتدعها احد ائمة المساجد فيها وهو في العادة مؤذن البلدة . ويمكننا ادخالها في الفولكلور الزراري الخاص وهي ان هذا الشيخ كان - عندما يؤذن لصلاة الظهر - يصعد إلى مئذنة جامع ابو الحن (جامع العريشة القديم) التي تكشف له اطراف البلدة وحقولها المجاورة . يبدأ بالاذان . ولكنه يتوقف فجأة ، وقبل ان ينتهي الاذان ، فقد رأى احد الرعيان تاركا قطيعه أو بقراته ليعبث بحقول القمح . فيناديه من على المأذنة : «يا بو علي، يا بو مرعي ، رد معزاياتك (ابو بقراتك) عن القمحات ، حرام عليك ثم يتابع الاذان ، وقد يقطعه اكثر من مرة ! وقد نسي ان هذا ليس من وظائفه كإمام مسجد ! كما أن الوقت وقت أذان ، لا وقت نداء ورعيان .

انها عادة طريفة كادت ان تدخل في فولكلورنا الخاص ، غير انها زالت بوفاة المؤذن المذكور ، ولم يتابعه فيها اي مؤذن آخر . .

ثم حل الصوت محل الشخص بعد ان دخلت الزرارية عصر الأشرطة والتسجيلات والمايكروفونات . .

فولكلور نسائي زراري خاص جدا !

في اوائل هذا القرن عرفت الزرارية شخصية نسائية فريدة من نوعها هي شخصية ام معروف . . عاشت حتى أواخر الاربعينات . . تميزت ام معروف بخفة دمها وروحها المرحة جدا وبصراحتها المتناهية حين «تنفس» عن متاعبها

الصحية ، بتفريغ كل ما في بطنها من غازات وابخرة مكثفة ! هكذا ، علنا ، وامام اي كان ، وفي اي مكان كان !!

وقد عرف عنها انها كانت تمتطي حصانا اعجف (كديش) ، في الصيف ، وتدور به وهي ملثمة على المصطافين (في كروم التين) لتفاجئهم ليلا للتخويف أو لتوقظهم داعية اياهم في ليالي رمضان - لتناول «السحور » قبل الامساك . .

حتى اذا قرب احدهم منها افرغت غازاتها وولت الادبار معلنة بمفعول الامساك الامساك !!

لم تكن ام معروف شخصية خرافية ابدا ، بل هي شخصية امرأة من لحم ودم ، وان كانت حركاتها واعمالها تكاد تكون خرافية ، أو مبالغا فيها جدا . . ولا يزال الذين «جايلوها» يذكرون عنها الشيء الكثير ، اقله : روح الدعابة ، وقدرتها على إضحاك المتعبين من حزانى وثكالى ومسحوقين ، قدرة لا تزال وقائعها تصلنا بها حتى الآن كلما تذكرناها . . [1] وفي زمن التزمت والعبوس نتذكر الضاحكين . .

مدارس بلا مراحيض ! ولا ملاعب !

كانت مدرسة القرية الخاصة بدائية جدا فلا طاولات - كما تقدم القول -

---

(١) ومنزلها او بالاحرى كوخها في الزرارية يعرفه الجميع ، وهو كائن على اطراف حارة البشنوق ، من جهة ساحة البركة (ساحة الشهداء اليوم) وكانت تسكن فيه وحدها بعد وفاة زوجها . وهو عبارة عن غرفة ترابية واحدة . وقد زرته منذ مدة قريبة فوجدت مكانه بناء حديثا . تزوجت ام معروف وانجبت ابنة وحيدة تدعى سلطانة من زوجها ابي معروف الذي توفي قبلها بسنوات . . . وهي من عائلة بلال في الزرارية . ـ المؤلف ـ

ولا طباشير ولا لوح اسود أو اخضر ولا منبر ولا معلمون بل معلم واحد وهو في العادة شيخ ومدرسته تدعى «كتاب» .

اما محفظة التلميذ فقد كانت من قماش «شغل امه» لا من جلد كما هي اليوم. ومصروفه ؟ : لا مصروف . . وفي احسن الحالات قرش أو نصف قرش

واذا «زحم» التلميذ في الصف فإنه يطلب (الدستور) اي الاذن بالخروج ، ولكن إلى اين ؟فالمرحاض غير موجود ، لا في المدرسة ولا في البيت . . يخرج الى اقرب حاكورة خارج المدرسة ويستر عورته قرب الحائط ويبول وعلى حد تعبير آبائهم : يطير ماء ! او يتغوط . . فقد علمه استاذ الدين هذه الجملة ولا تولوا فروجكم شطر القبلة ولا تستقبلوا الشمس والقمر وها هو يطبقها بحذافيرها !! وحين يعود الطفل من مدرسته تكون في انتظاره مهمة منزلية او مهمات : تكلفه امه بجمع بعض الحطب او القشاقيش من الحاكورة او تعطيه بعض الحبوب ليشتري لها بها من الدكان بعض الحاجيات على طريقة المقايضة لأن الدراهم غير متوفرة دائما . . او تحمله عددا من البيض ثمنا لذلك[١] ومن ثم تطلق سراحه فيذهب إلى اللعب على البيدر أو الساحة العامة أو المزبلة !!

السراح عند الصباح :

كل فرد من العائلة يذهب الى غايته : الاولاد إلى المدرسة مع ترويقتهم

---

(١) قبل الاهتداء الى العملة الورقية او المعدنية كان البيع والشراء قديما يتمان بالمقايضة كما هو معروف . وفي القرى عودة او استمرار لهذا التقليد او التعامل الفولكلوري البدائي . حتى في المدن كثيرا ما نسمع بعض الباعة المتجولين ينادون على (طرابيش بقضامي)او ثياب عتيقة بصحون وصرامي !!

المنقوشة او غير المنقوشة (وهو خبز حاف عليه بعض الزيت والملح ويسمونه ابومليح) والأب يذهب إلى الكرم أو الحقل أو الدكان وفي جيبه بعض الزبيب او الدحروب وتذهب الام إلى عملها البيتي وتحضير الطعام أو اعداد العجين لرقه وخبزه على تنور او على ساج مسجور فاذا بالارغفة المرقوقة (المهلولة) [1] تنداح بين كفيها وزنديها بسرعة البرق ، وبمهارة فائقة في الالقاء ثم الالتقاط . . وفي اقل من ساعة يمتلىء اللكن «بعدات » الخبز الشهي [2] واذا كان لهذه الام الجاهدة بقرة أو اكثر تعمد قبل كل شيء إلى «تدشيرها» لتلحق «بالعجال» واخيرا تذهب إلى كرم التين اذا كان الوقت صيفا ، لتأتي باكواز التين الخضراء الناضجة الطازجة أو الصبار (الصبير) والشمس لم تشرق بعد على كل هذه المنجزات . واذا كان الفصل شتاء لزمت بيتها وراحت تعجن وتخبز وتطبخ داخله وعلى الموقد الشتائي ذي المدخنة العالية التي تنتهي فوهتها على السطح . . اما البقرات فلا «تدشر» حيث لا عجال ولا رعيان . بل تبقى في الاصطبل وتعلف بالتبن وقد يكون الاصطبل داخل البيت الريفي لتنام البقرات مع العائلة في غرفة واحدة . . . وهي عبارة عن المنزل كله . . كنت ازور بعض اقاربي من المزارعين فاجد المنزل – الغرفة وقد امتلأ برائحة روث البقر وانفاسه الكثيفة إلى جانب حرارة جمرات الموقد فتنقلب الغرفة الواسعة تنورا أو كالتنور اين منه «شوفاج » المدينة .

---

(١) الرغيف المهلول هو الرقيق الواسع المدور . ولعل هذه الصفة من هلال

(٢) العدات جمع عدة وهي ٢٠ رغيفا في اصطلاح اهل القرى العاملية .

- العَجّال [1] حين يعود من المرعى :

لاحظت في الربيع أو الصيف «عجال البقر» حين يعود من المراعي عند الغروب يتجمع في ساحة البركة ، ثم يعمد الراعي إلى تسريح البقرات إلى منازل اصحابها وقد لا تحتاج البقرات الذكية إلى تسريح ، فتراها تسرح نفسها بنفسها بمجرد دخولها القرية تذهب توا إلى اصحابها بلا دليل . .

الشيفرا الخاصة للماعز : اما قطيع الماعز فيبدو أنه قد تفاهم مع راعيه [2] على لغة معينة أو «شيفرا» بحروف عربية . ما ان يصل القطيع إلى مشارف القرية حتى يوقفه صائحا بأعلى صوته :(عِرْ . عِرْ . .) [3] فاذا بالقطيع يتفرق اثنين. . اثنين أو اكثر في طريقها إلى زريبة اصحابها فقد عودها الراعي على ذلك وتفاهما عليه ! ولا يبقى من القطيع (ماعزا كان او بقرا) إلا تلك التي له خاصة بما فيها التيس - القائد حامل جرس القيادة في عنقه . . ويسمونه الكراز . . [4]

---

(1) العجال هو قطيع البقر الذاهب الى المرعى . اما مأوى البقرات الخاصة فهو اما اصطبل البيت واما في بناء ترابي خاص يقع على مدخل البيت ويسمى « البايكة » او الياخور .

(2) ويسمى المعاز ايضا.

(3) عر . . عر . . ترخيم لكلمة عرب اي فرق او تفرق !

(4) يتقدم الكراز القطيع دائما بجرس طنان معلق في عنقه ورقبته . اليس هو القائد الذي قضى سحابة يومه في المراعي يصول ويجول بين «المعزايات » الشابات ما بين غزل وتضريب ؟ ! وقد استلهم المسرحي اللبناني المعروف رفيق علي احمد عنوان مسرحيته الاخيرة «الجرس » من جرس الكراز هذا بكل ما يحمل هذا التيس ـ القائد من رموز . مسرحية لاقت رواجا كبيرا في لبنان وخارجه . . ونتاج هذا التضريب قطيع آخر ومواليد كثر . وصغير المعزاة يسمى=

هذا التيس يعود منهكا وتتصاعد منه رائحة كريهة هي رائحة الجنس فقد جال في المرعى وصال على اناث الماعز وانفق من منيه الكثير وارهق إرهاقاً . . لكثرة النزو وارتكاب الفواحش او التضريب. . .

الراعي والرادار ! :

والراعي عامة وفي كل بلاد العالم ، يتميز بمزاج سليم وذكاء فطري حاد نظرا لعيشه الدائم بين احضان الطبيعة وقمم الجبال وقيعان الوديان وضفاف الانهر والسواقي فلا يتنشق سوى الهواء النقي الخالي من الغبار والدخان . او العثير بلغة القدامى. ولا يشرب الا الحليب الطازج (١) مما يميزه عن «القاعدين » في القرية أو المدينة وان كانوا اعلم منه احيانا واجتماعيين اكثر منه . .

هذا الراعي له «رادار »طبيعي بعيد عن تكنولوجيا الصناعية . . لا يعرف مزاياه ودقة رصده حتى المتخصصون في الطب البيطري . . يروى ان ثلاثة سواح اجانب مروا براع جنوبي في «عز دين الصيف» كما يقولون وعند الظهيرة شاهدوه يلملم شتات قطيعه من الماعز مسرعا به إلى القرية وبشكل مفاجىء . سأله احدهم : لماذا تفعل ذلك والآن بالذات ؟ فاجابه : ان السماء ستمطر بعد قليل . دهش السائح وسأله تعليلا لذلك فاجابه : انظر إلى ذنب كل معزاة كيف يطبق

== «قشوعا» اي ذاك المولود الصغير او «الفلو » الذي يظل ، في المرعى وراء امه ليرضع ويتعلم منها كيفية الرعي ، حتى اذا انفصل عنها لم يعد قشوعا. بل «تيسا» واذا كان صالحا لقيادة القطيع سمي كرازا . .

(١) الحليب هنا صفة حلت محل الموصوف المحذوف وهو :اللبن . (انظر معاجم اللغة)

على المساحة الحساسة الواقعة تحت هذا الذنب . . ولا يتحرك . . هذا معناه ان درجة حرارة الجو قد انخفضت كثيرا . . وانذر «الرادار» بقرب هطول المطر . . ثم ان اطباق الذنب على تلك المنطقة الحساسة بصورة غريزية هو للتخفيف من شدة البرودة الطارئة !!

ويروون ان هذا الراعي ما كاد يصل بقطيعه إلى القرية حتى تلبدت السماء بالغيوم وهطل المطر مدرارا. . ونجا القطيع من خطر السيول !! ولم ينج السواح الذين لم يصدقوا الراعي . . (١)

تقييم الفولكلور : وفي النهاية نحن نرى لهذا الفولكلور اللبناني والعاملي وجهين وجها ايجابيا يميز الشعوب والأمم يجب ان نحافظ عليه . وهو ما يخشى زواله (٢) ووجها سلبيا لكنه عميق الجذور يتجسد في الايمان بالخرافات والاساطير يجب ان يزول ، وقد بدأ - فعلا - بالزوال في اكثر القرى اللبنانية والعاملية القريبة من المدن ، ومنها الزرارية ، تحت تأثير العلم الحديث ومعطيات الحضارة الوافدة وتحت تأثير الحس المديني الذي بدأ يتسرب إلى هذه القرى عن طريق التفاعل وتقارب المسافات بين القرية والمدينة ، بين لبنان والعالم .

الصيد والقنص :

سقى الله ايام الصيد البري البريء ، والقنص النظيف ، فقد كانا لاصطياد الطير والوحش ، لا لاصطياد البشر ! كما جرى في لبنان ، وفي العاصمة بالذات، ابان الحرب الاهلية القذرة الاخيرة التي وضعت اوزارها إلى غير رجعة .

---

(١) لعودة الراعي مسرعا بقطيعه اسم او صطلاح قروي آخر هو : زفة الرعيان . .

(٢) انظر كتاب امين فريحه : القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال .

كانت ضحاياها دائماً أو في اغلب الاحيان الابرياء والمساكين . خذ مثلا ، من آلاف الامثال : بائع الكاز المتجول على بغله الذي يبدو ان القناص لحظة رآه ، لم يكن قد«ا ستفتح » ذلك النهار فصوب نحوه بندقيته وارداه !! او المرأة التي اضطرت للخروج من بيتها لشراء علبة حليب لرضيعها او دواء لزوجها المريض المقعد . . حتى الطفل لم ينج من القنص في كثير من الاحيان – فبارودة القناص عطشى دائما لمثل هذه الطرائد البشرية ، ومدفوع ثمنها سلفا . . والغريب في القناص – الوحش انه لا يطلق رصاصاته ليجرح بها بل ليميت . . ولذلك سمته الحضارة الغربية front tireur اي مطلق النار على جبهة طريدته البشرية البريئة والتي لا يعرفها حتما وهو الغارق حتى اذنيه في ساديته ، والمتواري عن الأنظار لجبنه وخسته . .

بين قنص وقنص :

كنت في يفاعتي اقتني بارودة ٩ ملم ، وكانت طرائدي في اغلبها قصيرة النظر (ميوب) كالقبرة مثلا التي كانت تكرج على الطرقات وبين الحقول ، وتحدق بي دون ان تراني جيدا ، فيسهل علي اصطيادها . . اما لماذا هي (ميوب) فيقال ان من عادتها ان تحلق في السماء عند الفجر حيث الندى المشبع «بالأسيد » يداخل عينيها فيصيبها بالرمد وضعف الابصار . . وهناك «الوروار» وهو نوع يحلق قريبا من خلايا النحل فويق الشجر ليغط على اسراب الدبابير ، فيسهل علي وعلى غيري اصطياده . . ولكن السنونو التي تغط على الارض بسرعة فائقة محومة باختيال ، لم يكن من السهل اصطيادها رغم قرب تحليقها . وقد لامني بعض كبار السن في بلدتي على اصطيادها :

اولا :لان لحمها لا يؤكل .

ثانيا :لأنها من طيور الجنة كما زعموا . .

وكنت قبل ان اصاب بضعف النظر نتيجة سباحتي في بركة البلدة الآسنة المياه ، بالاضافة إلى إرهاق العينين بالدرس والمطالعة على ضوء السراج الباهت ، اصطاد ، ولو عن بعد ، اكثر من عصفورين بطلقة واحدة .

قبل البارودة :

كنا نتصيد «بالنقيفة» ، او مداهمة اعشاش العصافير المبنية بين فروع الشجر، او بنصب قضبان «الدبق» على الاغصان . او حفر جورة نغطيها بالقش[1] . واذا لم نوفق طاردنا «البيبانة » والاسبري من صغار الطير وبغاثه . .

الطرائد الكبيرة :

كان يستحيل علينا ، نحن صغار الصيادين اصطياد «طير الغلة » «والفري» والمطوق والسكرجي والسمن والحجل و «الشرقرق » والشحارير والدجاج البري. فهذه تتطلب لاصطيادها صيادين مهرة وكلاب صيد ولباسا خاصا وبواريد معدلة خاصة : كالجفت بفوهتين ، كما تتطلب تخصيص نهار بكامله للذهاب بعيدا إلى الحقول والسهول الشاسعة كسهل البقاع مثلا ، وفي مواسم معينة ، حيث يكثر السمن والمطوق والحجل والفري وسواها .

الدوري «المنكح» :

كان من السهل علينا ، نحن الصغار اصطياد كل ما ذكرناه من العصافير الصغيرة التي لا تبعد عن البلدة كثيرا ، الا الدوري !

---

(١) وتسمى الجورة في اللغة الفصحى القديمة : وهدة (انظر كتاب كليلة ودمنة : باب القبرة والفيل .)

هذا العصفور البلدي الرشيق السريع التنقل من شجرة الى شجرة ومن غصن إلى غصن يمتاز ، فوق هذا بأنه لا يحب السفر بعيدا ، كما انه ليس مغفلا كالقبرة بل هو «منكح» سريع الانتباه ، لذا فهو يستعصي على الصيادين الصغار امثالنا . وكم وجهت نحوه بارودتي لاصطياده ، لكني ، ولامرة ، اصبته . . وكأن فيه رادارا يكشفنا قبل ان نكشفه . . (١)

اما لحمه فكز غير طري ولا شهي ، بعكس عصفور التين المكتنز لحما وشحما على ضآلته . . فلماذا اذن نصطاده ؟ للتسلية ! واية تسلية هذه ؟ ! ام لسادية فينا تهوى رؤية الدماء تتناثر من تحت جناحي هذا الطائر الوديع ؟ ! حتى اذا انتقلنا بغريزتنا او ساديتنا الى المدينة سهل علينا قتل البشر ! ألم ينقلب بعضنا فيها أثناء الحرب الاهلية إلى «دراكولا» بشع ؟ !

---

(١) اما الحجل والارنب البري فهي للصيادين الكبار ولا وجود لها عندنا في القرى العاملية وحقولها وكذلك الغراب والقاق وهما من العصافير الضارة النادرة الوجود في الجنوب ولم يكن بمقدورنا ـ نحن الصيادين الصغار ـ اصطياد الفري والترغل او الترغلة ودجاج الارض والبط والاوز البري والزرزور (وهو غير سمك الزرزور طبعا) فلهذه الانواع من الطيور العامة صيادوها الكبار وبواريدها الخاصة والكلاب المرافقة . كل ما كان بمقدورنا مع ٩ملم اصطياد القبرات الميوب وعصفور التين والبلبل والعندليب (النادر الوجود عندنا) وابو الحن المعروف بابي صدر والحسون وابو منقار وابو بليق من صغار العصافير . وهناك من الطيور الاليفة الداجنة الحمام . وهذا الحمام الزاجل (ولعل قصائد الزجل منه . .) ذكي بالفطرة لذا كانوا ـ في الماضي البعيد ـ يستعملونه لنقل الرسائل من وإلى حكام الاقاليم ومن دلائل ذكاء الحمامة الزاجلة انها تربي فراخها أو زغاليلها تربية ذكية من علاماتها انها ـ اي الزغاليل ـ حين يحين وقت طيرانها تحمل الأم زغلولها على ظهرها وتطير على مستوى منخفض من الارض وبينما هي كذلك ، وبحركة منها تتركه وحده في الجو فيضطر إلى ان يطير وإلا وقع وتهشم . . .

ودع عنك حديث العصافير العاملية الوديعة والجميلة كالعضيض وابو زريق والسلوى التي كانت تكثر ايام الصيف في كروم التين والعنب ووقت الحصاد. جلها ان لم نقل كلها، لم يعد يأتينا ولعله هاجر او هجر الربوع الجنوبية، لانعدام الغلال والبيادر والأمن . .

هجرتنا العصافير الأليفة الجميلة لكثرة الغربان في لبنان، ولازدياد عدد الصيادين اللصوص الذين سرقوا البنادق من عنابر الجيش وراحوا يطلقون رصاصاتهم الضخمة عليها . . بلا رحمة وهم الذين اطلقوها، بلا رحمة على خصومهم من البشر، وعلى غير خصومهم . .

اما النسور القشاعم والصقور والباز فلا وجود لها في سماء لبنان . .

اما نحن في جنوب لبنان فلنا نسور من نوع أخرهم المقاومون الضراغم . .

متى دخل الراديو إلى الزرارية ؟

قصته مع عمنا المرحوم السيد حسين جواد شرف الدين :

اندلعت الحرب العالمية الثانية اواخر العام ١٩٣٨ كما هو معلوم وكان احد اعمامي وهو المرحوم السيد حسين جواد شرف الدين (١) قد عاد من مغتربه في شاطىء العاج بقصد الزواج، وبعد اتمامه اراد العودة إلى مقر عمله في أبيدجان، لكن الحرب كانت قد اندلعت واقفل البر والجو والبحر، فاضطر إلى البقاء في الزرارية طوال سنوات الحرب . فماذا يفعل وقد سدت في وجهه ووجوه الآخرين كل ابواب العمل ؟ بماذا يقطع وقته ؟

(١) توفاه الله عام ١٩٧٩ بعد سنتين من وفاة شقيقة الاكبر والدنا الذي توفي عام ٧٧ وقبيل وفاة شقيقه الاكبر الآخر السيد حسن جواد وشرف الدين الذي توفي عام ١٩٨٣.

طرح علي هذه الاسئلة فأجبته على البداهة : نشتري راديو (على البطارية)[1] فاستحسن الرأي ، وكلفني بمهمة الشراء . ذهبت إلى محلات «خرّوبي» في صيدا . وتمت الصفقة ، وركب الراديو وبدأ البث . . بعد ان ارشدنا المعلم الصيداوي الذي جاء خصيصا لتركيب الراديو، إلى طريقة ادارته . .

مهرجان ليلي مستمر :

وسمع القاصي والداني بأن السيد حسين قد اشترى راديو فغص منزله بالمتفرجين والمستمعين من كل جنس . . فمنهم من راح يتحسسه ويلمسه وينظر إلى قسمه الخلفي . وكان مفتوحا – ليتأكد من ان الصوت الذي ينبعث منه ليس صادرا عن شخص يختبىء وراءه !!

اجل هذا ما كان يفعله بعض السذّج من الكهول . . لا من الشبان طبعا . . وكنت اشاهده يقلب يديه وتتسع حدقة عينيه مستغربا مندهشا غير مصدق . . قائلا في سره :

سبحان الذي علم الانسان ما لم يعلم . . . ولا يصحو من دهشته الا بعد ان «يلكزه» بعض الشبان غير المندهشين . . ويستمر المهرجان الليلي الصامت احيانا . . إلى ان تنتهي الأخبار «وينفخت الدف ويتفرق العشاق» !

هكذا كل ليلة وكل مساء . .

كنت انا المأمور بادارة هذا الجهاز العجيب بالنيابة عن عمنا الذي كان ينصرف إلى اسكات المشاغبين والمعلقين . . . وتنظيم صفوفهم وتقديم كؤوس

---

(١) لان الكهرباء في تلك الايام كانت خبرا من الاخبار لم تعرفها قرى جبل عامل الا في الستينات ، معرفه متواضعة وخجولة . . . وانها لكذلك حتى تاريخه !!

الشاي لهم ، وكان بعضهم لا ينصرف باكرا مع علمه بأن عمنا لا يزال عريسا .

حي العرب ! ووقعت الكارثة : هتلر يجتاح بجيوشه الجرارة اوروبا ، ويهبط من الدانيمارك (او النروج) ليحطم خط ما جينو والاصح ليلتف حوله ويتجاوزه ليحاصر باريس ثم يدخلها ! ثم يحاصر انكلترا بعد معركة دانكرك الشهيرة ويرسل صواريخه بواسطة طائرات بدون طيار ، لتضرب اعماق لندن !

في خضم هذه الاحداث الضخمة والمتسارعة يظهر يونس البحري من وراء مايكروفون اذاعة برلين الهتلرية مدويا بصوته الجهوري صائحا قبل كل نشرة اخبار باللغة العربية :

حي العرب هنا اذاعة برلين . . ايها العرب . . الخ . . ويهتز العرب في مقاعدهم امام الراديو [١] مرددين معه : حي العرب وعاش هتلر فاتح العالم وقاهر اليهود ولم نعد نعرف من اذاعات العالم سوى اذاعة برلين بل ان الجمهور المحتشد في بيت عمنا لم يعد يطلب سواها ليسمع صوت يونس البحري[٢]

---

(١) كان في قرارة نفوس الشعوب العربية ايمان شبه مطلق بان هتلر هو فعلا مع العرب وانه باضطهاده لليهود الالمان ينقذهم من شرهم . وما علموا ان شر هتلر وفاشيته كان ادهى وأمر ونسوا انه في كتابه : كفاحي - يضع العرب في أدنى مرتبة . وان الافران التي زعموا انه احرق فيها ملايين اليهود كانت لمصلحة تنقية الجنس «الآري» الجرماني من اليهود الساميين من سائر الاعراق انظرت كتاب : تدهور الحضارة الغربية لشبنجلر منشورات دار الحياة - بيروت -

(٢) علما بان يونس البحري قد ثبت فيما بعد بانه جاسوس انكليزي ! ولكن الشعب العربي كان ببراءة مطلقة وسذاجة تبلغ احيانا حد الغباء - يؤمن بان يونس البحري مناضل عربي كبير يكفي انه يذيع من اذاعة هتلر الذي يحارب الحلفاء ومن بينهم انكلترا صاحبة وعد بلفور .

ويذعن «مدير الابرة» الذي هو انا للأمر وكذلك عمنا فقد كنا نحن ايضا من انصارهتلر !![1]

الطامة الكبرى !

حدث ذات مساء وقبيل اذاعة الاخبار من برلين - امر لم يكن بالحسبان لقد توقفت الاذاعة عن البث - او هكذا توهمنا - ورحت كعادتي أدير الابرة على قرص الاذاعات يمينا وشمالا ، متوقفا عند رقم معين تقع عليه اذاعة برلين فلم اوفق . . واخذ الجمهور يظن بي ويعمي الظنون . . ومنهم من راح يتهمنا علنا بأننا لم نعد نريد ان يحضر الناس ويتسمعوا . . واقسمنا لهم باغلظ الايمان باننا ابرياء واكدنا لهم بان عطلا فنيا قد طرأ . منهم من صدق ومنهم من لم يصدق . إلى ان اضطررت في اليوم التالي إلى الذهاب إلى صيدا مستنجدا «بالمعلم» الذي ركب الراديو لنا . وقد اصر عمنا الا اعود الا بصحبته . .

وجاء المعلم واصلح العطل بسهولة ، وعادت المياه إلى مجاريها وعاد صوت يونس البحري إلى جلجلته . وعاد المعلم إلى صيدا بأجر محترم مقداره خمس وعشرون ليرة لبنانية بالتمام والكمال ، وبعد ان لقنا درسا قاسيا في كيفية التعامل مع التكنولوجيا ! متهما ببراءته الصيداوية جهلنا لأبسط امور ميكانيك الراديو !

---

(١) اكتسب هتلر ـ اوائل الحرب الثانية ـ شعبية واسعة لدى الشعوب العربية ولا سيما في جبل عامل حتى ان العامة عندنا كانت تسميه (ابو علي هتلر او هترل) !! وراحت تنسج حول شخصه وشخص ابيه روايات واساطير .

مستمع يغفو على صوت يونس البحري :

والعجيب في امر هؤلاء المستمعين من غير المصدقين ، انهم كانوا اول من ينام على صوت يونس البحري !! فكأنه كان يهدهد لهم اعصابهم ، ولا يثيرها !! وحين اكتسح هتلر البلاد الروسية واكتوى بنار لينتغراد وستالينغراد ، وتراجع روميل ولم تكتمل «الكماشة» فلم تطبق على منابع البترول في الشرق الاوسط ، حينذاك اخرس صوت يونس البحري ، وبدأ العد العكسي . . وتراجعت الجيوش الهتلرية في هزائم متتالية . . لم يعد هتلر - في نظر هذه الشعوب المسحوقة - منقذا ولا بطلا ولا من يحزنون ! فهم - في لاوعيهم - يريدون من البطل ان يستمر بطلا . . وارتاح عمي وارتحت معه . .

اختفى ليظهر : وقبيل انتصار الحلفاء على المانيا الهتلرية ، اختفى يونس البحري ليظهر في فرنسا وفي باريس بالذات . . وتشاء الصدق ان التقيه - صيف ١٩٥١ - في باريس بتشجيع من الصديق المرحوم اديب مروه ، كنا نزوره معا في مكتبه (قرب الاوبرا او البورصة لم اعد اذكر) حيث كان يصدر جريدة تحمل اسم . «حي العرب » وما ادراك ما «حي العرب» وريقات هزيلة يتخذها يونس البحري وسيلة للارتزاق المشبوه (دون ان ندري ، اديب وانا بكل هذا طبعا) كان ابرز عناوينها الثابتة :(اسكت يا ازعر !) وكان يعني بالازعر امين عام الجامعة العربية آنذاك : عبد الرحمن عزام باشا . . حتى اذا قبض المعلوم لم يعد الباشا ازعر . . وراح يهاجم الامير عبد الله (لم يكن قد اصبح ملكا على الاردن) وتحت نفس العنوان . . فاذا «قبض» سكت واصبح الامير في نظره بطلا قوميا لاغبار عليه . . وهكذا . . وفي باريس حيث كنت اتابع دراستي الجامعية ظهر

لي ولأديب الذي كـان يعمل معه في الجريدة ، ان يونس البحري ، كعميل عتيق، اصبح جاسوسا للحلفاء ، بعد ان كان يهاجمهم اشد الهجوم واشرسه ايام عز برلين !!

ومرة خطر على بالنا اديب وانا نظم قصيدة نفضح فيها العميل دون ان نسميه ، ولا اذكر منها سوى هذا الشطر : ان العميل عميل اينما ذهبا . . وقد شجعت اديبا على نشرها في جريدة «حي العرب» فلم يجرؤ المرحوم اديب على ذلك ، لأنه كان يعرف «الطنجرة وغطاها» كما يقال . . وصاح بي اسكت يا خليل تريد ان تقطع رزقي ؟! وسكت خليل . . رحم الله اديبا ولا رحم يونسا(١)

كلمة اخيرة في الفولكلور اللبناني والعاملي :

سر الحضارات . . ان سر الفولكلور كامن في ان هذه العادات والتقاليد الموروثة ترقى إلى عهود سحيقة وإلى حضارات قديمة وديانات ارضية وثنيه ظهرت في الشرق الادنى والاقصى تخللت طقوسها خرافات واساطير مشت في الاجيال، قرنا بعد قرن . ثم جاءت الاديان السماوية لترفض الوثني منها ، بعضه لا كله . . وقد ابقت على هذا البعض كرمز واشارة . . هذه العادات الموروثة هي الوجه الاول لحضارة الانسان الاول . . ونحن نتأثر بها ونتعاطف معها . على انها تعبر عن عفوية هذا الانسان وبراءته وطفولة تفكيره . ونحن اليوم نأسف لإضمحلالها تدريجيا في قرانا ولأنها الجانب الافضل والاجمل لحضارات عميقة الجذور في تاريخ هذا الشرق . . يقول انيس فريحة :«يستأنف الفولكلور

---

(١) كانت تحية يونس لاصدقائه : عبو ! يصيح بها من بعيد . . ولعلها كلمة سر لهذا العميل. لا ادري . .

للقلب. لقلب كل انسان لأنه حكمة طفولة الانسانية. في الفولكلور جمال لانه من صنع خيال الانسان القريب إلى الطبيعة ، ولانه نتاج العاطفة المتأججة الساذجة . جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وعلى تباين رقيهم العقلي يقعون تحت تأثير سحره عن وعي وعن غير وعي . . الخ (١)

المكتبات الخاصة في الزرارية :

ليس في الزرارية مكتبات خاصة يعتد بها ، او تستحق الذكر لدى الشبان المثقفين . وهذه ظاهرة مؤسفة . ما عدا مكتبة لابأس بها للدكتور نصير مروه وان كان اكثر مجلداتها قد صحبها معه إلى باريس اسسها المرحوم والده وزاد الابناء عليها . وها هو شقيقه الدكتور سحبان يحصص لها في منزل العائلة الجديد طابقا بأكمله . وكان للمرحوم عمنا السيد حسن جواد شرف الدين مكتبة في صيدا فيها الكثير من كتب التراث العربي الادبي والتاريخي الاسلامي تبعثرت بعد وفاته واحتفظ نجله الاكبر الدكتور محمد ببقية مجلداتها مع آثار والده الشعرية على (السدة !) واني لآمل من ابن العم واخيه الدكتور علي ان ينزلاها من على السدة هذه إلى طبقات المكتبة الموعودة في الصالون الكبير . .

وكان للمرحوم والدنا مكتبة متواضعة افدت منها ايام الدراسة الثانوية ولم تكن تحوي سوى اعداد العرفان ونسخة من القرآن الكريم ونهج البلاغة وبعض اعداد الرسالة لمحمد حسن الزيات ، وكتب المنفلوطي . وكان لصهرنا المرحوم

---

(١) القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال . ط٢ ص ١٨ ـ طرابلس ١٩٨٩ ـ

محمد محسن رسلان بقايا مكتبة احضرها معه من افريقيا (داكار) ووضع كتبها في صندوق خشبي على السدة ايضا . اما ابو صخر عبد اللطيف فخري فقد اكتفى ببعض الكتب بجانب البيانو في منزله في صيدا . .

مكتبة خليل شرف الدين في الزرارية :

هي نفس مكتبة المرحوم والدنا مع تطوير بسيط لها . فمن طبقات بدون ابواب إلى ابواب خشبية وزجاجية . لكن الحجم لم يتغير فبقيت صغيرة بطول متر ونصف وعرض متر ونيف . . اما كيف اغذيها ببعض الكتب ، وانا ما زلت تلميذا في الصفوف المتوسطة والثانوية فقد حل المشكلة المرحوم الوالد . كان يذهب بي إلى مكتبات المعرض في بيروت ويطلب من الحاج زين هاشم او الحاج ابراهيم الزين ان يزوداني بكتب المنفلوطي ونهج البلاغة : شرح الامام الشيخ محمد عبده وديوان الشريف الرضي ، إلى جانب بعض مجلدات العرفان حتى الصحيفة السجادية [1] ارادها ان تكون في عداد كتبي . ثم انتقلت المكتبة معي الى النبطية وصيدا وبيروت ، واخيرا الى صور حيث اصبحت الآن مكتبة لا بأس بها [2] او على الاصح نواة مكتبة، وهناك بعض المكتبات الهزيلة عند بعض الاصدقاء في الزرارية . مع ان آباءنا - كما ترى - كانوا يهتمون باقتناء الكتب التراثية والدواوين الشعرية القديمة ، ويشتركون في مجلة العرفان المجلة الوحيدة

---

(١) وهي ما جمع للامام علي بن الحسين زين العابدين وامام السجادين ، من ادعية وابتهالات.

(٢) حيث القت عصاها معي واستقربها النوى . وقد اصابها في الاجتياح الاسرائيلي الثاني للبنان عام ١٩٨٢ ما اصابها من سلب ونهب وتمزيق . . وها انا اعيد تأهيلها .

المتشرة في قرى ومدن جبل عامل بهمة ورغبة شديدتين اكثر منا بكثير . .
رغبة . . حبذا لو تحققت :

واني لآمل من اصدقائي الشبان المثقفين في الزرارية : اساتذة وادباء ومتنورين ان يعيروا مسألة اقتناء الكتب اهتماما خاصا . فالمكتبات - كما يعرفون- اهم واغلى ما يقتنى في البيوت الراقية . كما آمل من رئيس ونائب رئيس واعضاء الجمعية الانمائية في هذه البلدة الغالية ان يضعوا على رأس مشروعاتهم مشروع مقر ثقافي يليق بالزرارية وتطورها العمراني والثقافي . يضم قاعة للمحاضرات تصلح هي نفسها لأن تكون قاعة للتمثيل والسينما والمسرح (١) وقاعة اخرى واسعة لمكتبة عامة يرتادها طلاب ومثقفو الزرارية بدلا من ارتياد المقاهي . وحبذا لو افرد كل مثقف ومتنور في الزرارية ركنا او غرفة في منزله ينشىء فيه او فيها مكتبة خاصة .

في بعض البلدان العربية المتقدمة نسبيا تجد مكتبة في كل بيت ، حتى عند غير المثقفين . حيث يتباهى بها صاحبها ويورثها لأبنائه من بعده . . ففي حسه الصافي وعقله الباطن : ان الكتاب يبقى والمال يفنى . .

ان المكتبة الخاصة ، والشهادة لله ، خير ما يقتنى للعقول والقلوب .
وصدق شاعرنا الاكبر المتنبي حين تباهى بأعز مكان وخير جليس قائلا :

اعز مكان في الدنى ظهر سابح وخير جليسٍ في الزمان كتاب .

واذا كان صدر هذا البيت قد تغير مفهوم المكان فيه فاصبح السيارة

---

(١) بامكان بعض المتمولين ان يبنوادارا للسينما يستثمرون بها اموالهم . . لا سيما وان الزرارية اصبحت كثيفة السكان تعج بهواة الافلام الراقية وبالوافدين اليها من القرى المجاورة . .

الفخمة . . الا ان عجزه لم يتغير ، ويجب الا يتغير مفهوم الجليس فيه ليبقى الكتاب خير جليس واعز انيس . .

سحبان مروه ينقذ الموقف

حين اكدنا خلو بيوت مثقفي الزرارية من الكتب والمكتبات - الا النزر القليل منها كنا نؤكد واقعا مؤسفا . إلى ان عاد هذا الشاب الجامعي إلى مسقط رأسه الزرارية ، فغير نظرتي وقلب الموقف رأسا على عقب .

ـ مكتبته العامرة : جاء هذا الشاب الاكاديمي إلى مسقط رأسه الزرارية من هلسنكي حيث كان يحاضر في جامعاتها ، حاملا معه كتبا ومراجع كثيرة وموسوعات باللغات الفنلندية والانكليزية واليونانية واللاتينية والعربية ، وحتى الفارسية ، وكلها مجلد تجليدا فاخرا . هذه الكتب نامت في الصناديق الى ان استيقظت على نداء صاحبها : ان هيا الى مكانك الصحيح . . بعد ان انجز بناء دارة رائعة واسعة من طابقين خصص الطابق الاعلى برمته للمكتبة وحدها . .

زرت الدكتور سحبان مهنئا بانتهاء تشييد الدارة الجميلة الرابضة - شمالي الزرارية - على هضبة متوسطة الارتفاع تدعى «الضهر» حيث جاءت مجسدة للطراز الشرقي بهندستها وبساطة الرياش فيها . فهنا ركن عربي للجلوس على الارض ، وهناك صالة استقبال بسيطة الاثاث ، انيقة ، فلا زخرف فيها غربي السمات ولا حفر غليظ ، ولا ابهة فارغة ، ولا مراحيض رخامية بورسلينيه صنع ايطاليا . . ولا قبضات ابواب ذهبية - كما يفعل ثقلاء المتمولين ! بل كل ما فيها ينم عن ذوق مثقف رهيف على بساطة ، بسيط على رهافة . . وهذه هي سمة الاصالة والثقافة الحقيقية . صعدت واياه الى الطابق الثاني حيث تتوزع اركان المكتبة وقد امتلأت بالكتب النفيسة . فهنا ركن للموسوعات وهنا ركن لكتب

التراث العربي من فلسفة وتاريخ وادب وعلوم ونجوم وفلك . . وهنا ركن للمراجع الفنلندية ، للانسكلوبيديا بريتانيكا والمسرحيات الشكسبيرية ومثيلات لها كثيرات . . وهناك ركن للدواوين الشعرية الحديثة والقديمة والملاحم الى جانب الشاهناما والمهابهارتا والالياذة المعرية الخ. . وعلى مداخل هذه الاركان علقت لوحات زيتية لأشهر الرسامين العالميين . وكل هذه الاركان والزوايا في غرف خاصة تحتضن باعتزاز كتبا قيمة منسقة ، في رفوف وخزائن مكشوفة سهلة التناول ، وربما سهلة السرقة . . اذا ما غض صاحبها الطرف عنها امام الزوار الهواة امثالي !! لكن كرم سحبان وتحسسه العميق بما اصاب مكتبتي في صور من حرائق وسرقات يجعلني امتنع عن عادتي القديمة في استعارة الكتب تمهيدا لابقائها عندي. . وهذا ان لم يعد نسياناً فهو سرقة لاغبار عليها ! عادة عودنيها الكثيرون من اصدقائي وزملائي . . وزاد سحبان بان وعدني ان يقدم لي كل كتاب لديه منه نسختان بعد الفرز النهائي لمكتبته العامرة كما فعل في الماضي حين قدم لمكتبتي مجلدات ودواوين كثيرة . . امام هذا السخاء اليعربي تضاءلت. . كما تضاءلت مكتبتي - النواة ، ذات الثلاثة الآف كتاب على الاكثر معظمها غير مجلد - امام مكتبته الغنية بالنفائس والمتعددة الاركان ، ذات العشرة آلاف مجلد على الاقل فهنيئا للدكتور سحبان بمكتبته ودارته . . وعقبى لاصحاب الدور والدارات يخصصون فيها - ولو غرفة واحدة - للكتب !

مكتبة شبه عامة :

-بلغني - مؤخرا - ان هناك مكتبة اسلامية في الزرارية يملكها الحاج علي عبد الكريم متيرك قابلته في صور في مكتبة نسيبنا السيد عبد الله شرف الدين ، يتزود ببعض الكتب والمراجع فأفادني بأن مكتبته هذه ، وان كانت مقامة في

منزله، الا انه جعلها مباءة لكل طالب علم وثقافة من رجال دين واساتذة وادباء وشعراء يطالعون فيها ما شاؤوا من كتب التراث والمراجع الاسلامية والدراسات الفقهية والادبية . بالطبع هنأته على توجهه هذا ، كما تمنيت عليه ان يسعى مع متنوري الزرارية ومتموليها إلى جعلها مكتبة عامة وذلك باقامة بناء خاص بها لتتسع لكل مثقف وكل طالب علم وتخصص في الزرارية وجوارها . .

مواسم الصيف في الزرارية :

في الاربعينات كنا نذهب زرافات ووحدانا الى كروم العنب والتين والصبار وحقول الذرة الصفراء بعرانيسها الخضراء الطرية. وهناك نقطف ما لذ وطاب ونشوي العرانيس على النار بما تيسر من حطب «وقشاقيش». كل ذلك بدعوة من صاحب الكرم او الحقل وبدون دعوة ـ بالمجان طبعا ـ مما يتلاءم مع طبيعة القروي العاملي السمحاء. وبعد ذلك ننصرف الى اللهو واللعب واصطياد العصافير «بالنقيفة» واصطناع «شباشيل» العرانيس شوارب نلصقها على شفاهنا العليا. .

وحين العودة مساء نقطف من على جانبي الطريق شقائق النعمان والنرجس (أو الرنجس كما يسمونه في القرى) والدحنون والريبوخ و«الأرّة» وكل ما يحلو لنا قطفه وجعله اضمامات او باقات نضعها في البيت، بدون الارة والفصة طبعا فهما من علف الدواب.

اما في المدن فالعرانيس مشوية أو مسلوقة باهظة الثمن الى درجة تقتل

الشهية فينا [1] قبل ان نأكلها وكذلك المناقيش وهي ابسط انواع المأكولات اما اذا كانت عودتنا من الليطاني فباقاتنا تتكون من زهر الدفلى وزهر الليمون ذي الاريج والفوح العابقين برائحة عطر أين منها روائح عطر باريس وكل باريس!! واذا ما صادفنا حصاد قبيل موسم الحصاد ولم يجد ما يقدمه لنا اشتوى لنا سنابل القمح الطرية فأكلناه «فريكا» شهيا.

واما حقول القثاء والخيار [2] والباذنجان وبساتين البرتقال (على الليطاني) والبندورة الجبلية البعلية الغنية بالفيتامينات، والبطيخ العدلوني (نسبة الى قرية عدلون على الساحل الجنوبي العاملي) فحدث عن كرم اصحابها ولا حرج. وحين يظهر البطيخ العدلوني يختفي البطيخ المستورد. . وفي مواسم الصيف هذه، بعد الحصاد، كنا ـ نحن الصغار ـ نصعد النورج على البيدر، فننتقل من دراسة الى دراسة. . لنساعد الأهل الذين ينصرفون الى اعمال اخرى على البيدر كذري القمح أو الشعير المدروس بالمذراة، أو تكييل ما تذرى منه بالمكيال الخاص وهو «النص مد» [3] وتعبئته باكياس الخيش سعة ٥٠ او مئة كيلو، وكانت مكافأتنا على الدراسة باقة أو ضمة من الحمص الأخضر نشتويها ونأكلها (ويسمونها في المدن ام قليباني «خضرا وملاني » او ينادون عليها هكذا :«ام قليباني حاملي وملاني . . »

---

(١) اي شيء او سلعة او أكلة في المدينة خصوصا في هذه الايام الدولارية لا يقتل الشهية؟

(٢) سمي الخيار خيارا من الاختيار . فعندما استولدوه من القثاء وجدوه الذ مذاقا فاختاروه وفضلوه وسموه خيارا . .

(٣) «النص مد » مكيال خشبي مدور سعة ٧ كلغ تقريبا



عاشوراء في الزرارية

موكب الحسين بن علي(ع) في مواجهة الاعداء

ـ الهريسة عن روح الحسين :

وهناك اكلة فريدة من نوعها يسمونها الهريسة [1] خاصة بالشيعة في جبل عامل وفي بعلبك والهرمل وغيرها من ديار الشيعة في لبنان .

يصنعونها في تاسوعاء المحرم من كل عام ، ويوزعونها في صبيحة العاشوراء ، على الأهل والأصدقاء والجيران عن روح الحسين بن علي عليهما

(١) الهريسة او الهريس كلمة فصيحة ، ومعناها ، في المعاجم ، القمح المقشور المطبوخ باللحم على انواعه .

السلام . يتبارى في صنعها وتوزيعها الموسرون الشيعة من الوجهاء محبي الحسين التماسا للأجر ، وتزكية للأموال « وطرح » البركة عليها .

ولا يقتصر توزيع «الهريسة » على الأصدقاء والجيران الشيعة وحدهم ، بل على كل جار او صديق الى أي طائفة انتمى . .

إنها عادة دينية إيمانية مشكورة وقد دخلت الهريسة في الأمثال العاملية . فقالوا : « بكاك على الهريسة مش على الحسين » ! يقولونها تلطفا ومزاحا للذي يحضر توزيعها، لا ليبكي على الحسين بل على الهريسة ! !

ومن العادات الجميلة التي بادت : عادة غسل الوجه بماء زهر الليمون ايام الربيع . وهي عادة كان يمارسها اطفال الزرارية وفتيانها بمناسبة « اربعاء ايوب » ويلفظونها «اربعة ايوب » ولست ادري من اين تسربت هذه العادة الى قرى جبل عامل ولماذا سميت بهذا الاسم !

في هذا اليوم من ايام الربيع تسلق الأم لأطفالها البيض وتضع معه في الطنجرة اوراق البصل الحمراء ، فيخرج البيض المسلوق وقد اصبح احمر اللون قانيا. . يبدأ الأطفال والفتيان اليافعون بتكسير البيض . . اثنين : اثنين . . . فمن كسر رأس بيضة الآخر تصبح من نصيبه . . . وهكذا . . .

وفي اليوم التالي :يوم الخميس ، ويسمونه خميس الزهور ، يغسل الأطفال وجوههم عند الصباح بماء زهر الليمون المنعش الذي يكون الأهل قد مزجوه «بماء العين » الصافي ليلة الخميس ذاته . . بحيث نحلم به طوال الليل حتى اذا شقشق الفجر سارعنا اليه - نحن الاطفال - فنجده باردا منعشا . . ادركت هذه العادة في طفولتي وصباي . . ثم انقرضت . .

ومثلها عادة الحناء ليلة العيد حيث تعمد الأم الى حشو ايدينا بالحناء ثم

تربطها فننام حالمين بأيد حمراء داكنة . . حالمين حلما مزدوجا وكذلك كنا نفعل ليلة كل عيد . وأوشك ان اقول ان الحناء بلونه الاحمر الداكن لا يزال يثير في كياني اغلى الذكريات واحلاها . .

عادات سيئة بادت او كادت : عادة التداوي بالكي ووضع التمائم على جبين الطفل وسكب الرصاصة فوق رأسه لكشف الضر وشفاء العينين من الرمد . وهي موروثات قديمة ترقى الى ما قبل الاسلام . كقول الشاعر الجاهلي :

واذا المنية انشبت أظفارها   الفيت كل تميمة لا تنفع

اما التداوي بالاعشاب كلزقة الخبيزة وبزر الكتان وسواها فهو ارقاه : ولا يزال معمولا به في القرى العاملية وحتى المدن . كما كان الفصد والحجامة وكاسات الهوا وانتزاع « عرق النسا » او عروق الدوالي (ڤاريس) . معروفا في جبل عامل وله خبراء .

وكانت طريقتهم البدائية في التداوي تعتمد على «الطب العربي » في ذلك. وغالبا ما كان الطبيب العربي «مغربيا » ومنجما في الوقت نفسه ، يتجول في القرى ، ويخدع بوصفاته العجيبة ضعاف العقول ولا سيما العجائز من النساء، حين يصف لهن ما لا يعقل من الوصفات . هذا اذا لم يعمد الى «التنجيم » وكتابة «الحجاب » والتعاويذ في شفاء الاطفال ، وشفائهن من العقم و«البغضة » [1] . واخطر تلك الوصفات وصفة شرب بول الحمير للخلاص من الحمى المعوية. نعم للخلاص من الحمى ولكن بموت المريض ! !

---

(١) كتاب «البغضة » حجاب يكتب فيه الطبيب المغربي ما شاء له ضميره من كلمات وعبارات مهلوسة . . ثم يعطيه لطالبته قبل زواجها او بعده ليصبح الخطيب او الزوج محبا لها بعد ان كان كارها . . ويسمون كتاب «البغضة » كتاب المحبة كذلك . . فتأمل . .

وهذا ما حدث فعلا في بعض قرانا قبيل الحرب العالمية الثانية ، كما مر معنا . . اما بعد هذه الحرب فقد انقلب السحر على الساحر ، واصبح القرويون. بفعل الوعي ، يؤمنون شيئا فشيئا بالطب الحديث ، وبعد ان ظهرت بعض المكتشفات الطبية الفعالة ضد الحميات كالتفوئيد والسل والتهاب السحايا مثل البنسلين الذي اكتشفه عالم بريطاني عام ١٩٤٨، ثم ظهر الانتي بيوتيك وسواه من الادوية الفعالة، واختفى المنجم المغربي وادعياء الطب العربي من ساحات قرانا الى الأبد. . كما اختفى «المطهر» القروي بوسائله البدائية وشفراته غير المعقمة.

اطباء اسنان بلا كليات ولا جامعات :

بالرغم من كل ذلك الوعي وظهور اطباء اسنان اكاديميين، برز في جوارنا اطباء اسنان بالممارسة سلاحهم، الذكاء الفطري واتقان صنع «البدلات»او الوجبات واصلاح اخطاء الاطباء الاختصاصيين الناشئين. . وهناك ـ الى الآن ـ في قرية مجاورة للزرارية تدعى القصيبة طبيب اسنان ولا ابرع، ولا اسرع. . والبدلة او «الوجبة» التي يركبها في افواه زبائنه ابدية ورخيصة الثمن نسبيا، اين منها وجبات اطباء المدن ! انه طبيب الاسنان بالفطرة والذكاء والممارسة ويدعى ابو اديب ثم ابنه الاكبر الدكتور اديب الذي اتقن المهنة تمرسا واختصاصا. .

ماكل قروية سادت في اوائل هذا القرن ، ثم بادت او كادت في اواخره :

وهي باختصار : بقلة الفول ـ بقلة الحمص ـ البعيبصا ـ المنسوفة وتسمى العصافير المكتفة بالقلقاس ـ البربورة، بالمخيض والذرة الصفراء ـ البليلة (ايام

العصيف) بالبرغل والخيض - المفروكة - كبة اللحم - الفراكة وهذه الاخيرة تميز بها اهل جبل عامل ربما لأنها أقل كلفة واسرع تحضيرا وتناولا - المجدرة ، ويصفونها بأنها «عامود البيت» - الكبة بالعصنية - الكبة الكسلانة - كبة العدس - كبة الحيلة - اللبنية - واللوبيا بزيت - كبة السمك وهي خاصة بأهل المدن والقرى الساحلية كصور وصيدا والناقورة وغيرها لتوفر السمك عندهم . ولم يعرفها الريف العاملي. اما كبة العدس فقد كانت وما برحت الوجبة المشتهاة يطلبها الذين نزحوا الى المدينة من مخضرمي الزرارية وخاصة المغتربين الذين لا يزالون يحبون الريف ومآكل الريف، بعد أن سئموا وجبات المدن الدسمة والمضرة في آن.. ولم تعد تجيد صنع كبة العدس هذه الأيام الا القليلات من الزوجات العامليات. لا لأنها وجبة معقدة تتطلب علما واختصاصا. بل هي على العكس وجبة بسيطة، سهلة التحضير، كما أنها اكلة قروية عاملية صحية يتناولها العامليون في فصل الشتاء نظرا لما فيها من طاقة حرارية عالية « CALORI » دون ان يدروا بذلك طبعا باستثناء قلة متنورة منهم، الى جانب غناها بالفيتامينات الرئيسية. وهم لا يزالون يفضلونها على «الشي بورجن» الاكلة الافريقية المشهورة و « الكوسكوس» المغربية اللذيذة و«الاوزي» الدسمة ! هذه المآكل الافريقية والمغربية اعتقد جازما انها لم تنسهم اكلات امهاتهم وجداتهم في جبل عامل.

اما الزوجات « المودرن» فنوعان : نوع تخصص في الجامعات وتثقف قبل الزواج، حتى اذا دخل البيت الزوجي انشأ عائلة وربى اطفالا وسهر على نموهم الجسدي والعقلي السليم ولاحظ بدراية ووعي ما يناسبهم من وجبات طعام فأتقن تحضيرها.. وتفوق في تلك على امهاته.. ونوع ثان اكثره من الاميات او انصاف المتعلمات المحدثات النعمة اللواتي لا يجدن سوى اكل السندويشات من بينز

وهمبرغر ومارتديلا، وما حوت المعلبات من سجق وباستيرما وزوان وهور دوغ ولحوم.. وسموم.. !!

هذا النوع من النساء اذا سئم أكل هذه السموم وتواضع قليلا واراد ان «يطبخ» شيئا.. فإنه يأتي بكتاب مطبخي متخصص وينقل عنه مقادير الوجبة نقلا غير دقيق، واحيانا نقلا عشوائيا.. فتأتي «الطبخة» إذا لم تحترق ذات مذاق غريب عجيب! كان الله بعون ازواجهن.. الا اذا كان هؤلاء على شاكلتهن ممن لا يفرقون بين الغث والسمين.. والاصيل والدخيل (١).

- لم يعد غريباً ان نجد ابناء القرى اقوياء اشداء ذوي وجوه نضرة ودم فائر ثائر.. وان نجد النساء القرويات ـ حتى المسنات ـ ذوات قوام رشيق ووجوه (سبحان الخالق) تقول للقمر: قم لنجلس مكانك!! فلا مساحيق ولا بودرة ولا «رمال» والمسحوق الوحيد هو ما وهبه الله والطبيعة لتلك الوجوه من نضارة وغضارة وصفاء...

وحين افتداهن المتنبي بنفسه، ألم يكن على حق اذ قال:

افدي ظباء فلاة ما عرفن بها   مضغ الكلام ولاصبغ الحواجيب

وانا اقرأه اليوم:

افدي حسان قرانا ما عرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ومن اسف ان حسان قرانا بدأن يقلدن حسان المدينة فيصبغن مثلهن شعورهن ويطلين وجوههن وينتفن شعر حواجبهن!! ولو اقتصر هذا التقليد على

---

(١) ويقولون لماذا تعدد الزوجات!! الا تعد المرأة من هذا النوع سببا وجيها لتغييرها خاصة وان الازواج ـ في غالبيتهم ـ عقولهم في بطونهم!!

البشعات منهن لهان الامر ثأراً مما حرمتهن الطبيعة منه. . لكن ما بال الجميلات منهن يغطين ما وهبه الله بما انتجته مصانع باريس ولندن!؟

رب ضارة نافعة: تلك المآكل القروية كانت من نتاج الطبيعة من مساكب وجدارات وحواكير وحقول وجنائن وبساتين وكروم. كانت بسيطة غير مصنعة فأكثرها بقل وحبوب واعشاب لم ترش بالددت ولا بالديمول. . كما كانت مأكول جميع الطبقات وجلها ان لم نقل كلها فقير. . لا تستطيع شراء لحم الضان وغير الضأن كلما اشتهته. . فكانت تلجأ الى الحبوب والبقول على اختلاف انواعها، ورب ضارة نافعة. .

اما اذا عَنَّ على بالها اللحم وكانت فقيره جدا ذهب الرجل «عصريات» الى اللحام ليطلب منه «التعظيمة»[1] وغالبا ما كان اللحام يهبها مجانا حسب نظرته الى طالبها فيأتي بها هذا الفقير ويسلقها ثم « يرمي » البرغل «الجافي» عليها فتأتي وجبة لذيذة ولا اشهى. . وكثيرا ما رأيت حتى « الموسرين يأتون بالتعظيمة ليطبخوها[2] بالبرغل الذي يسميه اهل جبل عامل « السميد».

والمجدرة وما ادراك ما المجدرة: انها عمود البيت ـ كما يسميها الفلاح العاملي ـ وهي انواع: المدردرة الجافة والحمراء. يقبل عليها العاملي بكل رغبة وشراهة وقد يكسر عليها رأسين كبيرين من البصل. . واذا خاف ضررها مزجها باللبن الرائب او « بالمخيض» .

---

(١) التعظيمة عبارة عن بقايا عظام الذبيحة المجردة من اللحم الا القليل القليل الذي لم يستطع اللحام ان «يجرمه» فبقي مختبئا في التضاعيف والثنايا

(٢) او «يرمون» عليها البرغل حسب التعبير العاملي الخاص. والمنسوفه: اكلة قروية مؤلفة من البرغل والقلقاس. .

وهناك المجدرة المخبوصة والطرابلسية وسواها :

كل هذه المآكل التي تعتمد على منتجات الطبيعة توفر على القروي كثيرا من التكاليف الباهظة لشراء اللحم والارز وفي ايامنا هذه حيث يستشري الغلاء نرى ابناء الريف اللبناني يلجأون مرة اخرى الى الطبيعة التي ترفدهم بشتى انواع البقول والخضار كالشومر والعلت(الهندباء) والدردار والعكوب والرشاد ولسان الثور وكف العروس والكرات والزعتر، والطيون والهليون والخبيزة والفرفحينة والعني وعلت الحمار وهو نوع رديء من الهندباء يستعمل للعلف ومن الأعلاف «أصل» الذرة والفصة وسواهما : كل هذه البقول وعشرات غيرها[1] تؤكل ويصنع منها أطباق شهية للعائلة بأقل كلفة « وقيمتها حواشها » كما يقولون ، كما يصنع من بعضها أدوية كاللزقات أو شرب محلولها بعد الغليان واستنشاق بخار بعضها الآخر. وكلها نافع للكريب والسعال والربو والحروق ولسع الحشرات. ناهيك بالرياضة الجسدية والاستجمام بين أحضان الطبيعة حين يذهب القرويون زرافات ووحدانا إلى الحقول والهضاب والوديان أيام الربيع لجني عشرات الأنواع من تلك الأعشاب والبقول . ثم يعودون وقد توردت خدودهم حمرة ونضرة وجمالا ، وسرى الدم النقي في عروقهم بفعل الحركة وتنسم الهواء الطلق . . يعودون وقد تحدوا الغلاء والدولار اللعين الظالم واللحوم والسموم !! يعودون

---

(١) للاطلاع على المزيد من انواع هذه البقول والنباتات والاعشاب البرية المفيدة انظر كتاب : النباتات والاعشاب : علاج طبيعي لكل مرض لمؤلفه السيد علي هاشم ـ دار الفكر العربي ـ بيروت ١٩٨٨ .

وبأيديهم باقات من الدحنون و«النرجس» وزهر الليمون . . وحتى الصفلين (١) .

أما في المدينة فنحن نكتفي بالقعود وانتظار ما تجود علينا به بعض القرويات والبدويات من بعض هذه البقول والأعشاب بابخس الأثمان ، ورغم ذلك نروح نساومهن « ونتشاطر »عليهن غير عابئين بما بذلنه من جهد في « التحويش»والحبيء مع أعشابهن ويقولهن « لحد نص خدمتنا » كما يقال بالعامية . .

وهناك أكلات لفقراء القرى والمزارع كثيرة ومتنوعة ، وكلها - كما ذكرنا طيب ومفيد . وإن كان استعماله واستنباطه بدافع الحاجة أحيانا ، وأحيانا أخرى يشترك في تناوله وتحضيره الفقير والغني على السواء ، من مثل :كبة الحيلة (باللبن الرائب أو رب البندورة)والطريدة أو الشريدة من الشريد وهي أكلة قديمة خفيفة من الخبز المحمص ولب الكوسا . يصنعونها اليوم للذين يتبعون الحمية القاسية (الريجيم) .

بقلة الشومر[٢] بالبرغل « الجافي ». والكمونة بالبرغل وعصير البندورة النيئة ، واللوبية الخضراء بالزيت . . .

---

(١) الصفلين نبات طيب الرائحة (كرائحة البيلسان) وهو عبارة عن اعواد طويلة في اعلاها أكواز ملتفة مزهرة وعلى مدارها عيدان رفيقة محدبة كان آباؤنا قبل تركيب بدلة الاسنان يستعملونها كالسواك لتنظيف اسنانهم الطبيعية . والصفلين ينبت على ضفاف السواقي واكتاف «الجلالي » في قرانا . اما شجيرة العنبر فتدخل براعمها الصفراء في صناعة العطور . والعنبر هو عبارة عن شجيرة ذات اكمام صفراء داكنة تفوح بأريج بهيج مميز . وكان العنبر منتشرا في قرى جبل عامل وفي لبنان وقد تقلص وجوده الآن حتى كاد ينحصر في اماكن محدودة جدا. شاهدنه على طريق مطار بيروت فقط

(٢) الشومر : بقل يطبخ بالبرغل وقد سمي به اقليم بكامله في جبل عامل هو اقليم الشومر وفيه تقع بلدة الزرارية . كما سمي اقليم التفاح والخروب ايام الحكم الاقطاعي عهد العثمانيين

كرش البقر : ينظف تنظيفا جيدا ثم تتقاسمه عائلتان جارتان على الأقل. .
يؤكل مشويا أو محشيا بالبرغل أو الأرز للأغنياء والفقراء على السواء . وهو أكلة شائعة في القرية كما في المدينة ، وإن كان أهل المدن يفضلون عليه « الغمة » من الضأن والماعز . وفي مدينة صور كانوا يتباهون بإجادة صنع أكلات عرفوا بها مثل : فول «إبراهيم بارود » [1] والسمك المقلي والمشوي الذي اشتهر « بحر صور» بجودة أنواعه من مثل السلطان ابراهيم والزرزور والغزال والبوري واللقز الرملي والجربيدي والغبّص وغيره، ولوفرة هذه الأنواع الفاخرة من السمك استغنى أهالي صور عن السمك المجلد أو المبرد المجلوب . لكن الغلاء الفاحش هذه الأيام اضطر بعض الأهالي من متوسطي الحال إلى شراء المجلد أو المبرد المستورد والبائت [2] والبلاميدا وهي ارخص انواع السمك .

بساط أحمدي :

طريقة تناول الطعام في القرى في الماضي البعيد والقريب :

قليلا ما كان الفلاح العاملي يستعمل الشوكة والسكين والملعقة بل كانت أصابعه تحل محل الشوكة أو الملعقة . فهناك ما هو أوسع من الملعقة وأعمق إنها

---

(١) طبقت شهرة فول ابراهيم بارود (ابو عاطف) في صور الآفاق وقد سمعت منه ان الرئيس كميل شمعون كان يوصي باحضار حلة بكاملها من فوله المدمس الذي تفرد بصنعه تفردا مميزا الى دارته في السعديات او قصر الرئاسة في بيروت .

(٢)سألت ابا عاطف مرة ما سبب كل هذه الشهرة لفولك المدمس ؟ فاجابني : انه سر المهنة يا استاذ . . ثم عاد وشرح لي سر اجادته صنع الفول المدمس فاذا هو بسيط جدا كامن في ترك «الفولية » تتخمر طوال الليل في الفرن بين رماد الجمر المنطفىء . وكامن ايضا في نوعية الفول والصدق في وضع المواد الاضافية من حامض طازج وزيت زيتون اصلي الخ . . .

لقمة «أذن الديب» . . يكور شقفة خبز المرقوق تكويرا جيدا حتى تصبح فعلا كأذن الذئب ، ثم سرعان ما يملأها طعاما ويقذف بها بين شدقيه الفاغرين فإذا بها تطحن بسرعة وتغور في معدته الجبارة !! يجري كل ذلك على الأرض حيث تمد المائدة على شرشف أو بساط ويتربع في وسطها جاط كبير أو صينية ضخمة فيها صنف واحد لا يزاحمه صنف غيره على المائدة . . . وترى الأطفال ينظرون ويقلدون . . وإذا لم يستطع أحدهم التقليد واللحاق بأخوته الكبار وأبيه تتدخل الأم وتضع للمقصر صحنا على انفراد كيلا يهلك جوعا . . يبدأون غداءهم أو عشاءهم باسم الله ، ويختمونهما بحمده .

وحين دخل الخوان أو طاولة السفرة مع توابعها من صحون وملاعق وسكاكين وشوكات إلى بيوتنا القروية تنفست الحضارة الصعداء . . . لكننا لسنا سعداء في الواقع ، كما كنا في الماضي سعداء ، رغم كل ذلك الفقر والشقاء !

ليس هذا دعوة مني إلى الماضي ، ولكنه الحنين ، والحنين وحده . . إلى أمتع ساعات العمر وعادات العصر أيام الطفولة البريئة والحرمان اللذيذ !

ويهتف القلب هل رجعى لمائدة تحت العريشة أو في فسحة الدار

وليت عمر الصبا الفى مراسيه عند الشواطىء لم يبرح ، ولا الساري . . .

وخلاصة القول في هاتيك المآكل أن كل ما تنتجه الحقول والحواكير «وجدارات» البلد وروابيها من حبوب وبقول كان ولا يزال صالحا لأن يؤكل بعد تصنيفه وتصنيعه تصنيعا بدائيا . .

إن الأكلة العاملية في القرى لم تكن مكلفة على الإطلاق ولا معقدة فهي بسيطة المواد ، بسيطة التحضير خالية من التوابل والبهارات الحادة الحارقة . كل عناصرها من صنع الطبيعة وصنع الفلاح وحسن تدبيره بل حسن احتياله على شظف العيش وقسوة تكاليف الحياة .

إنها أكلات كما ترى ، صحية مائة بالمائة . . فلا دسم ولا سمنة اصطناعية «وارد برّا» ولا كيماويات، ولا لحوم - كل يوم - كما نفعل اليوم، ولا معلبات، ولا سموم! وإذا كان لا بد من سمن، فمن زبدة لبن البقر أو الماعز أو الغنم بعد خضه « بالخضة»[1] واستخلاص الزبدة منه، فلا يبقى من اللبن[2] سوى الخيض الذي يطبخ به الكثير من الوجبات ، ويستعمل «للبليلة» شراب الحصادين المفضل بعد يوم حصاد شاق ، وهو حتى اليوم ، شراب سائغ خاصة إذا كان بارداً . يتناوله أهل القرى العاملية أيام الصيف [3] وحين علبوه فقد نكهته وبراءته . . .

الحلويات القروية :

يتفنن القرويون في صنع حلواهم ويستنبطونها من أبسط عناصر الطبيعة فهناك :

- الرشتاية بالحليب : بعض الخبز المرقوق وشيء من الحليب . وعلى ذكر الرشتاية قلت بيتا من الشعر مكملا به البيت الشهير :

لي رفاق يأكلون « البحصلي » وأنا المسكين قضم البحص لي

---

(١) الخضة هي عبارة عن جرة يوضع فيها اللبن الرائب . يسد بابها بقطعة جلد شفاف. ولهذه الجرة اذنان بينهما فتحة صغيرة تسد بخرقة . تمسك ربة البيت بالاذنين ويبدأ الخض وبعد قليل تطفو الزبدة على وجه اللبن فيقشط ويفرز . ومن هذه الزبدة يكون السمن الاصلي الجيد

(٢) نقول «اللبن » حسب اصطلاح اللبنانيين الذي هو الحليب الرائب . وفي الفصحى : اللبن هو الحليب والحليب صفة له

(٣) البليلة : شراب طبيعي مؤلف من «الخيض » مع كمية قليلة من البرغل .

فاضفت :

عشت في فقري على « رشتاية » صنع امي في الزمان الأول . .

اما « اللبا » فهو اشهى واطيب حلو طبيعي ، لا يزال طعمه اللذيذ « تحت عرق لساني »كما يقولون : حلو يستخرج من اول حلبة من ضرع المعزاة أو الشاة أو البقرة إثر ولادتها مباشرة . يحرم منه « الفاو » المولود ليتغذى به حيث يكثر «السمغ » فيه . فيأتي الانسان ويستعمل هذا السمغ في صناعة اللبا وينقلب «اللبا » نشيدا من أناشيد الرعاة ، وأغنية تحدو بها الأمهات وتغنيها عذارى الزرارية ، قبل هجوم الحليب المجفف (البودرة) !

ما زلت أحفظ مطلع بعض هذه الأغنيات الشعبية من مثل :

يا ظريف الطول يا راعي الجدا زَهّر القندول وما ذقنا « اللبا »

والقندول لا يزهر إلا في الربيع موعد ولادات الأشياء والحيوانات اللبونة من ماعز وغنم وكل ولادات الطبيعة من ثمر وزهر وطيب . . هذا القندول المزهر في الربيع يأتيه النحل ليمتص أري أزهاره ليصنع منها على طريقته المدهشة ، عسلا فاخرا أغلى ثمنا من أي عسل آخر ، ويسمونه « عسل الجرد » في الجبال .

ومن الحلويات القروية : الهيطلية بالنشاء والرز بحليب وحلاوة الزوكح الخاصة بالزرارية، بحي خاص في الزرارية كانت تسكنه امرأة تلقب بالزوكح ، ويبدو أنها هي التي اخترعت هذا النوع من الحلاوة البدائية حتى عرف بها وعرفت به. .

ـ المثينة : تصنع من قرون الخروب الخضراء التي تنقع بالماء والحليب. وهي من الحلويات القروية الطبيعية، لم تنتشر كثيرا وبقيت محصورة بالصغار والفتيان الذين يحلو لهم ايام « حواش» الخروب ان يتسلوا بصنعها. بعد ان عشروا بين

قرون الخروب اليابسة على بعض القرون الخضراء، ولا ادري اذا كانت هذه المثيئة معروفة في سائر القرى العاملية غير الزرارية. .

- الكعكبان (من الكعك) وهي من حلويات الزرارية القديمة تشبه الزلابية بالسكر. .

المناداة على الاشياء الضائعة :

في الزرارية - كما في اي بلدة او قرية عاملية ـ اذاعة بشرية على الهواء، المذيع فيها مؤذن البلدة : فعندما تضيع معزاة او شاة او طفل كان المؤذن يرتقي المئذنة وينادي بأعلى صوته :

يا سامعين الصوت صلوا عا النبي



جامع العريشة القديم

او لكم محمد وتاليكم علي. . الحاضر يخبر الغائب : يا مين شاف يا مين« قشع» معزاية لأبو محمود. . صفاتها من حلاتها« سكي ملحامحنجلي (يقصد بالمحنجلي المحجلة اي سوداء وبيضاء الرجلين) وهكذا. .

فيتسابق الشبان في التفتيش حول القرية عن المعزاة، حتى ولو اقتضى الامر الذهاب الى البراري والوديان المحيطة، فكيف اذا ضاع طفل او شرد شيخ؟ !

انها روح تعاونية لحاها الغيرة وسداها البراءة. .

كل هذا يجري بعد ان يكون صاحب المعزاة الضائعة قد احتاط للأمر وذهب الى شيخ البلدة او امام مسجدها ليعقد له «لسان الوأش» اي الوحش. . فلا يفتك بها هذا الوحش قبل العثور عليها !! ولا عجب، فقد تكون هذه المعزاة بالنسبة للقروي كل رأسماله. . كما كانت الناقة في الجاهلية كل رأسمال العربي في الصحراء. . وصحراء الفقر كصحراء القفر. .

مشاهد فولكلورية مثيرة :

تختزن حافظتي، فيما تختزن، صور مشاهد عجيبة غريبة كانت تجري أمامي ايام الطفولة في الزرارية، هذه البلدة التي انفردت بفولكلورها الخاص الى جانب الفولكلور اللبناني العام. من هذه المشاهد المثيرة : مشهد الجمل «القعود» حين تثور ثائرته، علما بأن الجمال عادة هادئة وديعة سلسة القياد حتى حين تقاد للذبح وقد وصف الشاعر القديم الجمل قائلا :

وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غِيَر لديه ولا نكير. .

لكن وداعته هذه تنقلب هياجا ثائرا حين يلوح له احد الفتيان بمنديل احمر قان نضناض، رأيت مرة، وكان ذلك في الثلاثينات وفي عز الصيف على ما

اذكر، فتى منبطحا تحت «كلكل» جمل هائج يحركه بعنف فوق هذا الفتى المسكين الذي كادت روحه تزهق لولا انه، لحسن حظه، وقع في حفرة حمته من ضغط وثقل الجمل عليه.. وقد سارع بعض الرجال الى انقاذه وسحبه من تحته، يذكرني هذا المشهد بالثور المدرب (التورورو) في اسبانيا، وكيف تنتهي حفلة الصراع الدموي بمأساة مروعة حيث يمكن لهذا الثور الهائج ان يصرع البطل عند اي غلطة منه او سوء تصرف.. ولكن مهارة البطل ويقظته كفيلتان بمصرع الثور لا البطل، ونادرا جدا ما يحدث العكس.. لأن في الثور قوة وشراسة، وفي الانسان قوة اقل، وشراسة اخف، ولكن فيه عقلا اقوى. وحقا قال المتنبي :

لولا العقول لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرف من الانسان

في اسبانيا يهيجون الثور، وفي الزرارية يهيجون الجمل، والسبب واحد : اللون الاحمر القاني.

مشهد آخر مثير للقرف :

في القرى اللبنانية عادة راجت قديما بين الفلاحين، هي عادة «الشبا»[1] : يتجول ممارس هذه المهنة في القرى، ممتطيا حمارا متين الاركان. فمن اراد لحمارته ان «تحمل» لتصبح «نحوصا ذات جحش» على حد تعبير الحطيئة جاء بها الى صاحب الحمار الضخم.. وسرعان ما تتم عملية التلقيح، او التضريب بمساعدة صاحب الحمار.. او بدونها.. يجري ذلك مرة او مرتين في اليوم وفقا لنشاط الحمار!!

---

(١) «الشبا» : عملية تلقيح جنسي طبيعية بين الحيوانات. ومنه النزو، ويسميه العامة : «التضريب» الخاص بالماعز والغنم.

حتى الحمير تتغازل ا وتتبادل القبلات او«اللبطات» :

شاهدت مرة اتاناً شابة يحوم حولها حمار في مثل عمرها. ولكسب رضاها قرب راسه من راسها وكأنه يشمها. فاذا رضيت بهذا الشم تبادلاه، والا فلبطة هائلة تحطم جمجمته. . وهكذا كان. . ويرتد العاشق الفاشل مرسلا نهيقا منكرا. .

اما اذا لم يتطور الغزل الى خبط ولبط ونهيق، اكتفيا بالشم فقط دون اي شيء آخر، ذلك ان غريزتهما البليدة محدودة الطموح. . اما اذا كان الحمار فحلا فلا موانع امامه حتى الحياصه[1] لتحقيق طموحاته.

الخيل معقود بنواصيها الخير : وقديماً تفاءل العرب بالخيول الاصائل وتباروا في اقتنائها ، كما هو مشهور عنهم

وعلى الاخص الجميل المحجل منها الذي تروى عن سرعة عدوه وذكائه الروايات. .

حذو الحصان والفرس : ومن شدة حرص العرب عليه او عليها كانوا لا يستعملونهما الا للركوب والسباق ويخصصون لهما سائسا يعتني بغسلهما وتمشيطهما وتنظيف « الاصطبل» لهما وبعد السباق يمسك السائس باللجام ويمشي الهوينا امامه او امامها بعد خلع البرذعة لتجفيف عرقه او عرقها، اذ لا يجوز ان يدخلا الاصطبل وهما مبللان بالعرق. .

الحذو والبيطرة : وإمعاناً في التكريم كانوا، حتى الامس القريب، ينعلون الحصان او الفرس «نضوة» ليجريا مرتاحين على الحصباء وفي الطرق الوعرة :

---

(١) الحياصة رباط عريض قوي تحت ذنب الحمارة يمنع «الجلال » من السقوط . .

يتقدم «البيطري» من الحصان وينحني باتجاه القدمين الخلفيتين ممسكا بأحداهما صارخا : « احذِ، احذِ» وسرعان ما يفهم الحصان الاصيل فيرخي بقدمه ليطويها البيطري ملصقا « النضوة» الحديدية على باطن الحافر ثم يدق على اطرافها بعض المسامير الخاصة. ويفعل ذلك بالرجل الأخرى بقبول ورضا تامين من الحصان، وكأنه ادرك باصالته وذكائه أن هذا لمصلحته وراحة قدميه، في السير والعدو على انواعه.

اما اذا كان الحصان غير اصيل وخضع للحذو فإن البيطري يجد صعوبة في اقناعه. . وكثيرا ما يبدأ الرفس دليلا منه على عدم القبول وضعف الاصالة. . ثم يكون جزاؤه الدوران حول اغمار القمح مربوطا بالنورج للدراسة او يربط حول عنقه نير ثقيل ليدير حجر الطاحون الضخم وقت دراسة الخروب او الزيتون ناهيك عن الضرب على القفا عند التباطؤ عن الدوران. . ويكفيه بهدلة «لقب» «الكديش». .

كل هذا شاهدته بنفسي في الزرارية ايام عز ركوب الخيل. أيام كان اقتناء الخيول من الصنفين رائجا للتباهي من جهة ولقضاء حاجات الدراسة والفلاحة من جهة أخرى. (١)

اما اليوم فقد تفرنجنا وحلت السيارات من كل «الموديلات». الفخم منها لاصحاب الفخامة «والمكركعة» «للمكركعين » !!

وعلى ذكر الحمير نقول :إن هذا النوع من الحيوانات الداجنة الأليفة

---

(١) اذكر ان عادة استعارة الخيول كانت معروفة في الزرارية . فاذا لم يكن احدنا يملك فرسا او حصانا ارسل ولده الى جاره او صديقه يطلب منه ان يعيره حصانه او فرسه ليوم واحد .

«الخدومة» المرافقة للقروي المتحملة عنه أعباء السير في الأسفار هذا النوع الساذج الخجول الغبي إلى حد «الحمرنة» قد كاد ينقرض في الزرارية وغيرها من قرى جبل عامل ولبنان عامة ؛ وذلك لقلة أو انعدام الحاجة إلى خدماته المجانية أو غير المكلفة.. فقد كان الحمار وأنثاه الأتان وصغيرهما الجحش تستخدم لقضاء حاجات كثيرة منها : نقل الماء بالجرار من «العين» ونقل الحطب من الوعر، ولركوب الكبار والصغار في تنقلاتهم وأسفارهم إلى صور وصيدا والنبطية، وحتى إلى بيروت أيام حكم العثمانيين وقبل قدوم السيارة (أو جحش الدولة كما كانوا يسمونها !) ومنها الحراثة «والدراسة» مع «الكديش» زميل الحمار، أو مع الحصان الهرم.

القناعة كنز ! أما هما (الحمار والأتان) فيكتفيان لغذائهما بقليل من التبن وبعض الشعير..

وحسبهما مكافأة من صاحبهما «جلال» مرتب صنع أصحاب «الخانات» في صور، أو النبطية، وصيدا، ورسن متين بدل اللجام - ومساس أو «سوط» ويسمونه السمّوط من خيزران، إذا لزم الأمر عند التباطؤ في السير أو «الحرن»..

وقد يقام سباق حمير في القرى التي تفتقر إلى الخيول الأصلية المطهمة..

وفي هذه الأيام لم يعد المزارع بحاجة ماسة إلى الحمير فانقلب الحمار إلى لعبة من ألعاب أطفال المدن يركبونه للتسابق والتسلية حين يزور أهلهم مساقط رؤوسهم في قراهم..

أما في المدن فلا داعي لوجود حمير القرى، فهناك حمير بشرية كثيرة وفي بعض مراكز السلطة !!

حمير ليست غبية غباء حمير القرى.. بل هي ذكية جدا.. ولكنه ذكاء اللصوص والمرتزقة والمستزلمين !!

ومن مزايا حمير القرى – على قلة هذه المزايا : الليط القاتل والنهيق الذي يصم الآذان. . والغزل الحماري، ورحم الله بشار بن برد حين صور شكوى حماره المتيم بأتان الاصفهاني غير المتيمة !! : صاحبي خذ بي اتانا عند باب الاصفهاني

أما حمار توفيق الحكيم في كتابه : حماري قال لي ـ فقد ارتفع به الحكيم الى مصاف الفلسفة وكشف برمز الحمار عن حمير المجتمع والانسانية جمعاء وعن معاملة الانسان للحيوان خاصة الوديع منها وهناك حمار حنكش الذي حاوره الاديب الساخر نجيب حنكش ومن جانب واحد هامسا في اذنه، على شاطىء البحر همسات ملغوزة ملؤها السخرية منه ومن أمثاله من بني البشر!!

أما اللعنة الابدية التي رافقت الحمار فهي اتخاذ اسمه سبة ونقيصة لأمثاله من بني البشر المتميزين، مثله، بالغباء الشديد، فنحن، الاساتذة، لا نجد صفة، أو صفعة نلصقها ببعض طلابنا الاغبياء سوى انهم حمير!! واذا تمادوا في غبائهم نعتناهم بالتيوس!! وبهذا نخفف عن الحمير لعنتهم الابدية. . ونخفف عن ضميرنا ظلمنا الفاحش للحمير!!

اسمارنا : شاي وبلوط وزعرور وحكايات بنات كردان وملك «الجان»!

في ليالي الشتاء الباردة، حيث تتجمع العائلة، شيبا وشبانا واطفالا، حول الموقد المليء بجمرات حطب السنديان المتناثرة شراراتها في كل انحاء المدخنة باتجاه سطح البيت الترابي : يعلو هذه الجمرات «كوري» الشاي او الزهورات من البابونج وميال الشمس و«العطر» وقش البلاط والعيزقان والزوفا والورد الجوري اليابس، واحياناً من اليانسون وحده : ينزل الكوري ليوزع رحيقه في الكبايات والكاسات واحيانا الجنطاس. . وبعده او قبله يصعد الكوري ثانية، وندس البلوطات بين الجمرات.

في صميم هذا الجو الدافىء الحميم تنبري الجدة أو العمة بطلب من أحفادها.. تنبري وقد تحلق حولها هؤلاء وحتى الرجال طالبين منها أن تسليهم برواية الحكايا الفلانية أو أي حكايا.. ويتدخل رب العائلة ليطلب منها، من والدته أو شقيقته أو حماته، الا تبدأ الا بعد أن يؤدي كل واحد صلاة المغرب والعشاء معاً. وإذا كان رب الاسرة هذا شديد الايمان يمنع عليها السرد، وعليهم الاستماع إلى القصص الخرافية، خصوصاً في ليالي رمضان المبارك، على الاقل، بعد تلاوة دعاء رمضان الموحد في جميع القرى والمدن العاملية والذي يبدأ ـ كما هو معروف ـ بـ : «اللهم إني أفتتح الثناء بحمدك[1]»... وتدوم تلاوته قرابة نصف الساعة ينصرف بعدها المستمعون إلى سماع القصص على اختلاف انواعها : الواقعي منها، أو الخرافي، لا فرق.. والشوق أكثر هو هذا النوع الخرافي الاسطوري الواسع الخيال.

العمة لطيفة :

كانت لنا عمة خالية البال لأنها لم تتزوج تدعى لطيفة الشريفة، تحفظ من القصص أكثر مما يحفظ أشقاؤها الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والقصائد القديمة، بالاضافة الى اسلوبها الرشيق بالسرد، حتى اذا خانتها ذاكرتها ـ وقلما تخونها ـ لجأت الى اختراع احداث القصة اختراعاً.. [2] وكنا نحن لا نمل حكاياتها التي كانت تستغرق ساعات السهرة كلها.

---

(١) هذا الدعاء مع دعاء كميل وعشرات الأدعية والابتهالات يحتويها كتاب : «مرقاة الجنان» للعلامة المرحوم السيد حسن أبو الحسن، منشورات أبو الحسن للثقافة الملتزمة ط ٣ بيروت ١٩٩٢.

(٢) ولو كانت عمتنا لطيفة أيام جدنا الاكبر الامام علي كرم الله وجهه لمنعها من رواية القصص واختراع احداثها. حدث مرة ان استمع الامام الى راوية اعمى يقبع في زاوية فناء مسجد الكوفة يستجدي الخارجين من المسجد، بما يرويه، فطرده منه لانه كان يخلط

كانت تبدأ هكذا : « كان ياما كان من قديم الزمان

هلق منحكي وبعد شوية منام

عامخدة بنت النعسان

المليانة قمل وسيبان؟ !»

وحين نمل ذلك تستبدل المقدمة بقولها :

عمخدة بنت السلطان المحشية بريش نعام. . ثم تندفع في سرد حكاية (توام العنز) أو قصة (بنات كردان) المليئة بأخبار الجن والعفاريت، التي كنا ننام على اخبارها خائفين مذعورين. . يراودنا خوفان : خوف لذيذ، وخوف من توهم مجيء الجن الى فراشنا. .

حصاد القمح والشعير و« القطانة» :

بعد « الرجيد» و«التذرية» : [١] يأتي دور :

«الرشم» او الوشم : إثر دراسة القمح والشعير على البيدر، وهو عادة قريب من البلدة، كنت أشاهد الفلاحين [٢] يذرونها بالمذراة ليفصلوا الحب عن اغلافه

=الحقيقة بالخيال ، وينسب بعض الاحاديث الى النبي (ص) احاديث ما انزل الله بها من سلطان . . الخ . . (انظر البيان والتبين للجاحظ .)

(١) الرجيدة : كلمة فصيحة ومعناها نقل السنبل من الحقل الى البيدر (انظر مادة رجد من المعاجم . ولا نظن ان كلمة رجيدة مستعملة في غير الريف العاملي .

(٢) هؤلاء المزارعون البسطاء لم يكونوا في اكثريتهم مالكين للاراضي التي يزرعونها ، بل يأخذونها او يستأجرونها من مالكيها القدامى (الاقطاعيين) او ملاكيها الجدد من آل فخري وطالب وشرف الدين . لهم من الانتاج ٦٠ ٪ و ٤٠ ٪ للمالك الذي لا يساهم باي شيء من التكاليف وربما ببعض البذار فقط ، ومع هذا كان بعض الاقطاعيين يرى الفلاحين جماعة=

(أي التبن) ثم يتركون الحب اكواما ضخمة. حتى اذا جاء الليل تركوه بعد رشمه بالمرشم. والمرشم عبارة عن قطعة خشبية مربعة محفور عليها بعض الآيات القرآنية. . فلايصيبها سوء من سرقة او انتقاص. . فإذا أطل الصباح جاء المزارع وتفقدها، وغالبا ما كان يجدها سليمة كما تركها. وهذا دليل واضح على أمانة اهل القرى في تلك الايام وعدم وجود اللصوص او ندرتهم. .

كان هناك فقر وفقراء، ولكن كان هناك امانة وشرف ودين عند الكثرين منهم. . هذا، والا فالنوم في جوار الغلة، داخل خيمة او عرزال او في العراء. .

كان هذا الفلاح اذا ما انتهى من درس غلاله وتذريتها وجمعها يأتي الشريك (أي مالك الأرض) ليشهد القسمة ويأخذ حصته يبدأ الفلاح بالكيل بمكيال يسمونه «النص مد» وكنت اسمعه يردد عند كل كيلة بعض الآيات القرآنية (لطرح البركة) او بعض الادعية، كأن يقول بعد البسملة : واحد. . الله واحد، اثنين . . يا جد الحسنين ويا موفي الدين. . . ثماني . . يا الله « الاماني». . تسعة. . تسعد. . بذكر النبي. . ويمضي هكذا في الكيل واطلاقه الدعاء والكلام المسجع وفق ما يوحي له به كل رقم حتى النهاية. .

أصحاب الحقوق المكتسبة !

كان المتسولون وفقراء «السادة» يقصدون مواسم كيل الغلال على بيادر

= منحطة . لا تستحق اي خير . . هذه النظرة الاستعلائية دفعت باحد شعراء الاقطاعيين هؤلاء الى نعتهم بالغدر والخيانة دون ان يستثني احدا منهم قائلا :

اهل الفلاحة لا ترجى مودتهم ان عاهدوا كذبوا او صادقوا غدروا ! !

ومما يؤكد فساد هذا الرأي انه مبني على حادثة شخصية جدا . .

الزراعية الغنية ليأخذوا نصيبهم او حقوقهم منها ، وقلما كانوا يمنعون. . فالفلاح حين تقبل مواسمه يصبح - وهو الكريم اصلا - اكثر كرما وسخاء، ايمانا منه بأن الله يبارك له بالغلة المزكاة (والله طعمك كول واطعم). . شعار المزارع العاملي ايام البحبوحة. .

شرب الماء وآنيته وطريقته :

تدخل طريقة شرب الماء في صميم الفولكلور العاملي المميز، وهي طريقة «الزرنقة» يمسك الرجل بإذن ابريق الفخار (صنع راشيا الفخار) ويرفعه بيمينه عاليا وبعيدا عن فمه، واحيانا على مدى ذراعه المرفوع، وبسرعه فائقة ينحدر الماء من «زنبوعة» الابريق ليدخل فم الشارب ويستقر سعيدا في جوفه! خاصة إذا كان هذا الشارب حصادا ملتهب الجوف عطشانا. .

واذا كان الناس على ضفتي الليطاني او شط ساقيه او عند غدير ماء او نبع ترى العطاشى منهم يغرفون من الماء الصافي المترقرق بكلتا اليدين ويشربون. . يكررون ذلك مرات عديدة الى ان يرتووا. .

الابريق الطبازي : اما الابريق الطبازي الواسع في اسفله الضيق في اعلاه، وهو من الفخار ايضا فقد دخل حجمه في الفولكلور العاملي كما دخل اسمه في الغناء الشعبي يشبهون به الرجل اذا كان ضخما وقصيرا على سبيل المزاح : قال احدهم يداعب بعض الثقلاء الاقزام :

شكلك شكل الكرازي — وجوازتك ملاّ جوازي

قاعدلي، مكوم وتقيل — متل ابريق الطبـازي!

اما الشـرب بإبريق الزجاج الشفاف فلم يكن معروفا حتى الستينات، وكذلك الشرب «بالكباية» الزجاجية، فقد كان «الجنطاس» خير بديل عنه وعنها،

وطاسة «الرعبي» في جبل عامل وربما سائر القرى اللبنانية، اعتقادا من الناس بأن «المرعوب» الذي اصابته رعشة او رعدة او رجفة يمكن ان يشفي اذا شرب منها. وطاسة الرعبة هذه وعاء نحاسي قريب القعر حفرت على جوانبه الداخلية آيات قرآنية وبعض البسملات، حتى اذا شرب منها المرعوب وغالبا ما يكون طفلا، هدأ روعه وشفي ببركة هذه الآيات. .

برج العذراء ـ الميزان ـ او تحديد شهور الميلاد !

سألت والدتي يوما بعد ان ضاع الدفتر أو غلاف كتاب الأدعية الذي كان المرحوم والدنا يسجل عليه تاريخ ولادة كل منا بقوله : ولد المولود المبارك (فلان) في الشهر الفلاني من العام الفلاني، جعله الله من اولاد المعيشة، ومن عباده الصالحين. الخ. سألتها : متى «خلفتني» يا امي؟

فكرت وتذكرت قائلة : آخر ايام التين يا ولدي ! وبدأت احسب واعد ابراج الشهور، فظهر لي ان برجي هو برج العذراء اذا كانت العودة من التين بين ٢٠ آب و ٢٠ ايلول وإلا فبرج الميزان اذا كانت تلك العودة ما بين ٢٠ ايلول و٢٠ تشرين الاول ! اما سنة ميلادي فلم يكن من سبيل الى معرفتها منها (اي من والدتي التي كانت امية) وحسبتُ ثانية فاذا هي سنة الـ٩٢٢ على الاكثر، والـ٩٢٤ على الاقل !!(١)

ذكريات على البال في بيتنا القديم :

وان انس لا انسى تلك الزاوية الضيقة ـ قرب الموقد ـ التي كنا نتسارع

---

(١) ثم تبين لي مؤخرا ان برجي هو برج الجدي وليس العذراء بعد ان اجرى لي بعض خبراء الابراج في قرية البياض قرب قانا حسابا على طريقة الجمل . . وقال لي : ان برجي ترابي . . وهذا يعني انك كثير الاحتمال والصبر على الاذى !!

للقعود فيها، وطنجرة الكشك او شرائح اللزيقيات عند الصباح وفي المساء، وكبة العدس - في فصل الشتاء، التي كنا ولا نزال ننتظرها بفارغ الصبر والمعدة. . . وحتى الامس القريب. . . هذه الكبة مع شقيقتها الكبرى : كبة اللحم النيء اثارتا خيال احد شعراد الزرارية فتمنى لو كان سهل (الوطا) صينية كبة نية وشجرة (الملولي) في وسطه فجلة كبيرة !! والساقية الوحيدة التي كانت تخترقه ملاى بزيت الزيتون. . . وهناك الكبة الكسلانة عند الضرورة. . .

نداء وحسرة : اين العلية او الغرفة الوحيدة فوق البيت؟ اين «اليوك» الطيني المطرز و«الكواير»؟[1] أين «الكن» الخبز المرقوق الذي لا يكاد ينفذ رغم السحوبات المستمرة منه؟ اين جلسات الشيوخ قبيل الغروب على المصاطب وفرايز الطرقات امام الدكاكين، يتجاذبون اطراف الاحاديث والذكريات والنكات والاشعار؟ اين جلسات الشاي بعد صلاة العشاء على «براندة» المرحوم السيد يحي شرف الدين الواسعة؟ والتي كان يحضرها كل طريف خفيف الظل وكل شاعر وعلى رأسهم ابن البادية حيث تبدأ المباريات والتقفيات[2] والفائز هو الذي لا تخونه ذاكرته ولا

---

(١) اليوك : كلمة لعلها تركية . كان يحل محل خزانة الفرش والالحفة والمخدات والمساند وهو من طين . كانت جارتنا (بيدا) تتفنن في تخريج هذا الطين تخريجا فنيا دقيقا . كما كان غطاؤه من قماش ابيض مطرز . اما الكواير (جمع كوارة) فهي خزانات المؤونة من برغل وارز وعدس وغيره وهي من طين تشيد تحت اليوك لها فتحة واحدة وبطن واسع

(٢) التقفية : من القافية . يبدأ احدهم ببيت من الشعر وعلى الآخر ان يجيبه ببيت اوله حرف القافية التي انتهى بها البيت الاول . وهكذا دواليك على الايكرور المتبارون بيتا او ابياتا قالوها من قبل . وللمتبارى ان ينظم بيتا على البديهة اذا خانته ذاكرته ، شرط ان يكون معقولا وصحيحا عروضيا.

يتوقف، اين الخيمات وسط كروم التين وعرزال البيدر وسهرات الليالي القمرية؟
اين كل هذا يا جماعة الخير؟ !

اهكذا تجرف المدينة كل معالم هذا التراث القروي الجميل؟

والبناء؟ جميل ان تبنوا وتعمروا وتجددوا. لكن حبذا لو عمدتم الى الترميم لا الهدم، فأبقيتم على البيت الريفي كما هو وزدتم عليه او حواليه ما تشاؤون من قناطر وردهات وقرميد وغرف اضافية مماثلة. . .

– انها المدنية – الطفرة. . وعدم التخطيط وأموال افريقيا والرغبة في مضاهاة المدن والانتقام؟ أجل الانتقام من الماضي الفقير. . كل هذا هو الذي قضى على بيوتنا الريفية الوادعة، الدافئة والحميمة. . فلم تعد القرية قرية ولم تستطع ان تصبح مدينة حديثة مائة بالمائة (فتبندقت. . .) وخسرت طابعها الريفي الاليف[1] ولم تربح الجديد ! [2]

ولولا اتساع رقعة الزرارية حيث استطاع المتمولون العائدون من مغترباتهم ان يبنوا قصورهم وداراتهم خارج البلدة وعلى اطرافها لاكتظت بسكانها وعمرانها وكادت تختنق. . . ولكن ربك ستر. .

---

(١) من الذين حافظوا ـ قدر الامكان ـ على الطابع الريفي لبيوتهم المربي الاستاذ محمد احمد زرقط (ابو زاهي) فقد رمم واضاف وطور ولم يهدم كليا . . فبقي بيته ريفيا اكثر منه مدينيا وظل بطابق ارضي امامه حديقة واسعة .

(٢) كان المهندس هشام عسيران صديقا للمرحوم والدنا وكان يزوره في بيته القديم (قبل هدمه) ويعجب بالموقد والمدخنة واليوك ، والكواير ، كما كان معجبا بحديث المرحوم خاصة حين يحدثه عن «السد » الذي اقامه قرب مطحنة المغيرية لتحويل مياه الليطاني اليها . والطريقة البدائية التي اتبعها في بناء السد . وكم تأسف فيما بعد حين اخبرناه ان البيت القديم قد هدم وزالت معالمه الريفية وقام مقامه منزل شبه حديث .



بيت الاهل في الزرارية

«خرا واوي»!

وتعجبني عادة كان اهالي جبل عامل يمارسونها، وهي ان دلت على شيء فانما تدل على تضامنهم واتحادهم ضد جباة الضرائب من جلازوة العثمانيين وانكشاريتهم (والتحصيل دار) كما كان يسمى، فاعتمدوا نوعا من «الشيفرا» او مصطلحاً لفظياً يلقنونه للراصدين لمجيء التحصيل دار المباغت. وعندما يرونه قادماً يسبقونه الى القرية صائحين في الساحات: (خرا واوي !) فيبادر صاحب القطيع الى اخفاء عدد كبير من رؤوس الماعز[1] التي لديه فيسلم من دفع ضريبة

---

(١) لان الضريبة كانت على كل رأس ماعز او غنم. ولا عجب فقد كانت قديما على كل رأس بشري !!

باهظة لا يطيقـهـا، ولا يحب ان تذهب الي خـزينة لا يريدها ان تكتنز على حسابه... ربما!

ولا تعجبني تلك الشتائم من العيار الثقيل التي بادت او كادت والحمد لله عادة سيئة جدا، كانت نساء القرية الاميات يمارسنها ابشع ممارسة عند الخلاف لأتفه الاسباب بين جارتين أو أكثر : تبدأ المعركة بالتصايح وشد الشعر، وعندما يفصل الازواج بينهن تتراجع كل منهن الى بيتها، لكن المعركة تستمر بقذف الشتائم المخجلة (من فوق السطوح) ساعات وساعات دون ان يجف لهن ريق... الى ان يخرسن من تلقائهن وقد نال منهن الارهاق اي منال[1]. ونحمد الله ان الزرارية وشقيقاتها من قرى جبل عامل قد تخلصت من امثال هذه العادة بفعل التطور والعلم والحس المديني المتحضر وبفعل الهجرة كذلك. وفتياتنا اصبحن يخجلن من عادات امهاتهن او جداتهن هذه، بعد ان اخذن بنصيب وافر من العلم والمعرفة. وكثيرات منهن انخرطن في احزاب علمانية وتقدمية.. ومنهن من ارتقين في تخصصهن الى درجة الدكتوراه...

وهناك الكثير من العادات والمعتقدات الدينية الخرافية والاجتماعية الموروثة

---

(١) هذه العادة استرعت انتباه احد اصدقائنا الذي احتال او حاول سرا ان يوقع بين جارتين ونجح في ذلك وبدأ التصايح وقذف الشتائم.. وكان قد اعد شريطا سجل عليه كل ما اراده. وامتلأ الشريط قبل ان تفرغ جعبة الجارتين... من مثل :(يا حلك يا تركك، يا مسخطة، يا مشحرة يا مبكلكي، الله يهدك، لشوآنيكي جوزك ؟ لولا ما يكون حمار متلك، انشاء الله منقعدع قبرك !! الخ)

والامثال المنتزعة من وحيها مما لا تنفرد به الزرارية، وهي تفوق الحصر ويضيق المجال عن ذكرها هنا[1].

بيوت الطين الحميمة : اذا جاز لنا ان ندخل شكل البناء ونوعية البيوت في جملة الفولكلور القروي، فاننا نسجل هنا وبكل اسف ظاهرة انقراض هذا لشكل وتلك النوعية، وحلول البيوت الحديثة والدارات ذات الطابع الغربي والغريب عن اذواقنا برغم هندستها الرائعة وشكلها الجذاب. . . فأين هي تلك البيوت في الزرارية، وغير الزرارية، ذات البناء الحجري والسقوف الخشبية من الداخل والترابية من الخارج؟ اين المحدلة تحدل السقوف قبيل الشتاء؟ أين البابونج الطالع وحده يمجد الخالق ويشفي من العلل؟ حتى محلة «الشنوق» انقلبت غابة من الباطون المسلح فلا هندسة ولا حديقة، ولو صغيرة قدام كل بيت، لم يبق من الشنوق سوى زواريب لولبية ضيقة. . . .

اين الموقد وسط البيت الطيني والجلوس حوله في الليالي الشتائية نشوي البلوط (لا الكستناء لأنها مأكول أهل المدينة. .) ونغلي الشاي في الابريق الكبير (الكوري) ؟

التبريد في القرى من دون ثلج ولا ثلاجات :

قبل عصر الكهرباء والتكنولوجيا!

اين كان الآباء والاجداد يضعون بقية مآكلهم من لحوم وخضار وفضلات

---

(١) مثل النذور والخلع التي تقدم للمساجد او المقامات الموجودة في جوار البلدة (النبي الطاهر مثلا) كنذر اضاءة المسجد ثلاث ليال اذا شفي مريض او عاد غائب وكثيرا ما شاهدت جامع (العريشة) القديم يضاء وفاء لنذر ، او مقام النبي الطاهر على طريق العين تكدس الخلع على محمله . ومن هنا كان المثل :(الزيت اذا لزم لاصحابو يحرم عا الجوامع . . .)

طبخ كي لا تتلف! كانت (الكبكة) هي البراد الوحيد... وهي عبارة عن قطع خشبية متينة (من شجر الزان) متشابكة على شكل كروي او مربع، لها اربعة حبال على زواياها الاربع متصلة بحبل واحد يعلق في سقف البيت الخشبي، توضع على هذه (الكبكة) طنجرة الطعام الباقي ويجانبها بعض الصحون الملأى ببقايا زبدة او لبنة او ما اشبه، كل ذلك للتهوية ولتبقى هذه الاشياء سليمة لليوم التالي...

والماء البارد ايام تموز(حيث يغلي الماء في الكوز) وآب اللهاب... كيف يبرد هذا الماء! منهم من كان يعمد الى ربط الجرة المملوءة بماء العين [1] بحبل ويدلي بهما الى البئر [2] الى ان يغمر ماء البئر الجرة حتى اذنيها... وتبقى الجرة معلقة هكذا الى صباح اليوم التالي فاذا بمائها يصبح باردا اين منه ماء الثلاجة اليوم! وأخيرا دخلت الكهرباء الى الزرارية وغير الزرارية... ولكنه كان دخولا خجولاً بطيئا، متقطعا... و في زمن الحرب الاهلية المشؤومة الأخيرة! كدنا

---

(١) كانت مياه الشرب في الزرارية تستقى من نبع وحيد يسمى «العين» وهو كائن في واد يسمى وادى العين ، اصلح في الاربعينات ووحدت روافده . اما طريقة ملء الجرار من هذا النبع فقد كانت الجرار تحمل على دابة وتوضع في (الانتل) جرتان عن يمين وجرتان عن شمال او على الاقل : جرة واحدة مقابل اخرى واحدة . وكثيرا ما كانت الصبايا يحملن الجرار على رؤوسهن والهوى في نفوسهن ! اما عين «الحور » المجاورة والتي تبعد عن العين الاولى قرابة نصف كيلومتر فلم تكن مياهها صالحة للشرب على نقائها وبرودتها لوجود العلق فيها . . .

(٢) نادرا ما تجد في القرية اللبنانية بيتا بدون بئر تتجمع فيه مياه المطر المنحدرة اليه من على السطوح بواسطة الميزاب ويلفظونه المزراب. هذه المياه تشرب عند الضرورة والا فهي «للدولشة» اي لأعمال الشطف وسقي الزريعة والاغتسال وسقي الدواب والدواجن الخ

نعود الى عصر التبريد البدائي بالجرة والبير. . . والى الانارة بالسراج والفتيلة وقد عدنا فعلا، ولاشعال لفائف التبغ بالقداحة والصوانة!

مقاومة مستمرة : ويبقى الجنوب مقاوما!! في الداخل والخارج. . . ولا مناص! في الداخل يقاوم النظام الجائر، والاهمال، والحرمان المقصودين، والتشرذم واقتتال الاخوة والعودة الى العصبيات الجاهلية، بعد ان تخطاها آباؤنا واجدادنا. . . وفي الخارج على الحدود تنين فاغر فاه لابتلاع الجميع. . . وبعد، هل من مزيد على مآثر وعادات اهل الزرارية التي لا تعد ولا تحصى. وهنا، لا يسعنا سوى تسجيل اهمها واكثرها إثارة. وقد فعلنا كما رأيت ونختم بهاتين العادتين أو المأثرتين :

- إن اهل الزرارية لا يزالون يتمسكون بعادة قروية موروثة محمودة تخلى عنها اهل المدينة وظلت تميز غيرة وشهامة اهل القرى، عنيت عادة الاستنفار العام لاستقبال الجنازة - اي جنازة - عند مدخل البلدة اذا كانت آتية من المستشفى. . . فيبادر الشبان الى حمل التابوت حتى المنزل. ثم يتوافد الاهالي الى اهل الفقيد معزين مشاركين، ويذهب فريق آخر الى حفر القبر بدون طلب من اهل الفقيد، ويأبى الحفارون ان يتقاضوا اجرا. . . وقد علمت موخرا، ان بعض هؤلاء الحفارين بدأوا يتخلون عن هذه العادة الكريمة، ويطلبون من اهل الفقيد اجرا. . . وذلك عائد، في رأيي، الى الحاجة التي تشد على الخناق في هذه الايام الصعبة في لبنان : ايام ارتفاع الاسعار وقفزات الدولار الجنونية، وليس تنكرا للعادة.

وفي «اسبوع» الفقيد تقام ذكراه في النادي الحسيني وتدعى لاحيائها القرى المجاورة واحيانا البعيدة، كما يدعى علماء الدين والاقارب والاصحاب، وذلك حسب عمر ومكانة الفقيد.

الطعام عن روح الفقيد : هنا تبرز عادة مشكورة. . . كل بيت، في القرية قادر او متوسط الحال يسارع صاحبه الى اعداد الطعام ليستضيف عند انتهاء الاحتفال بعض الاصدقاء واحيانا بعض المشاركين ولو على غير معرفة شعورا منه بواجب المساهمة في التخفيف عن كاهل أهل العزاء، حتى ولو كان هؤلاء موسرين اغنياء. . . انه شعور نبيل، ومظهر من مظاهر الرقي الاجتماعي البعيد عن القبلية والحزازات المحلية. . .

هذه العادة المحمودة يقابلها عادة مماثلة ولكنها غير محمودة وهي : عندما يدعو احدهم ضيفا عزيزا وذا مكانة اجتماعية او سياسية مرموقة يقيم على شرفه مأدبة دسمة ويدعو بعض الاصدقاء زيادة في التكريم، تنظر الى المائدة بعد تناول الطعام منها، فاذا بها لا تزال عامرة بالاصناف المتعددة. . . لقد تناول الضيف منها ما استطاع وتناول الآخرون ما استطاعوا. . . والباقي يذهب هدرا، لأنه في الغالب، لا يوزع على الفقراء والجيران المحتاجين. . . فلماذا هذا الكرم الجاهلي الحاتمي (لا الاسلامي) !! لماذا هذه «البهورة» الفارغة؟ والانكى من ذلك كله انها اصبحت عادة ملزمة بحيث لا يستطيع متوسط الحال أن يتجاوزها عندما يضطر الى اقامة مأدبة، وقد يستدين كي لا يتهم بالبخل والتقصير. . . وفي هذا ارهاق ما بعده ارهاق. . .

ففي مناسبة ذكرى «الاسبوع» ولكي نتفادى اقامة مثل هذه المآدب والارهاقات من المستحسن ان تقام الذكرى بعد الظهر وينتهي الاشكال ! خاصة في هذه الايام الصعبة حيث تكلف المأدبة مئات الآلاف من الليرات. . . لا لشيء الا لكي يقال ان فلانا المحزون قد كرم فقيده وسخا واطعم عن روحه القريب والبعيد ! لماذا لا نكرم الفقيد، او الضيف، بانفاق هذه الاموال في وجوه اخرى وما

اكثرها. . . ندخل مريضا فقيرا الى المستشفى، نسهم في اقامة مشاريع انمائية في القرية، نعطي الفقراء المعوزين ما يعينهم على الحياة وحفظ الكرامة ونتكفل بتعليم ابناء الفقراء المتفوقين واتمام تحصيلهم حتى نهاية تخصصهم. . الخ. .

فلسفة الفولكلور:

عالم الذّرة أمام قارئة الفلجان: ويلفظونه فنجان

قد يحدث ان ترى عالما من علماء الذرة او «بروفيسيرا» يصغي باهتمام اثناء فراغه الى قارئه الفلجان، او ضاربة المندل، والى امه او جدته تقص عليه اساطير الانس والجن الخ. . .

ذلك لأن في الانسان ميلا طبيعيا يجذبه الى عالم البراءة واجواء الطفولة، كأنه قد تعب من عمل العقل ونظريات المنطق، وجفاف العلم فلجأ الى دنيا الاحلام، والاوهام، والاساطير والخرافات طلبا للدماثة والسذاجة، والاختباء، ولو موقتا، وراء الغيبيات والعيش من خلالها مع ذلك الروح الاعلى الذي يفسر له حركة الكون والاشياء ويرصد له ظواهر الطبيعة، كما رصدها وفهمها الانسان الاول، الانسان الطفل، لا كما فسرها له العلماء في الجامعة. .

الادب العالمي والفولكلور: من هنا دخل الفولكلور باب الادب العالمي، او على الاصح دخل الادب العالمي رحاب الفولكلور، مستوحياً ومقتبساً. . ومن هنا نحن نهوى مثل هذا الادب المشحون بالاسطورة والرمز واللامعقول. وتسحرنا اجواؤه، وننسى معه جفاف واقعنا ويباس حياتنا، ومحدودية نظرياتنا. انه «نتاج حضارة الروح والقلب والخيال.» نرتاح إليه ونتطهر فيه من درن حضارة العقل والعلم والمنطق والمادة.

الطبقات الشعبية : كما اننا نهوى الفولكلور لأنه من نتاج الطبقة الشعبية التي لا تزال بعيدة عن حضارة اليوم لأنها لم تساهم في وضعها بشكل مباشر. . فعلى الادباء والشعراء والمؤرخين ان يجمعوا لها شتات هذا الموروث الجميل وينقوه من سلبياته ويحدثوها عنه من خلال المسرح والملاحم والاسمار وقصص المغامرات(١)

انوثة ساحرة! واذا ما تفلسفنا أكثر قلنا : ان في الفولكلور انوثة يجذبنا سحرها اليه ويبعدنا عن ذكورة العلم! اذا صح التعبير. . .

الفولكلور العاملي :

حين انجزت نظم قصيدة الشاي وطأت لها بمقدمة تحت عنوان : مجالس الشاي الجنوبية.

قلت : من خصائص ابناء جبل عامل وما اكثرها، تلك الندوات العلمية والادبية الحميمة التي كانت ولا تزال، تقام في منازل العلماء والوجهاء من سادة ومشايخ وادباء وشعراء حيث تدور كؤوس الشاي (المختر) في جو عابق برائحة

---

(١) انظر محاضرات الاب لارجمان LARGEMAN بالفرنسية التي القاها على طلاب الجامعة اللبنانية ـ فرع الآداب والعلوم الانسانية ـ منشورات الجامعة اللبنانية ـ قسم الدراسات التاريخية رقم ١٠ وعنوانها بالعربية دور لبنان في الفكرة الدينية وفي الشرق العربي القديم ـ بيروت ١٩٦٥ ـ وعنوانها بالفرنسية LE ROLE ET LA PLCACE DU LIBAN DANS LA CONCEPTION RELIGIEUSE DU PROCHE ORIENT ANCIEN

التبغ(التتن) العاملي الفاخر ونفثات السماور النحاسي المشع ونفحات الشعراء من غزل ووصف ومدائح حسينية ، كل ذلك جلوسا على الارض والانشلاح على البسط والسجاجيد والطراريح والاتكاء على المساند والمخدات. . . فلا عمائم ولا تزمت ولا طبقية من اي نوع ، ينشلح المحتسون لهذا الشاي المميز (ويسمونه خمر المؤمنين) لا فرق بين معمم وغير معمم، بين شاب وشيخ، شرط ان يجمع بينهم الذوق والادب والابداع. وحسن احتساء الشاي بالاستكانات المذهبة. وعلى مر الزمن اصبحت هذه الندوات الادبية ـ الشاياتية ذات طابع خاص ينفرد به هذا الجبل العاملي العريق وتحييه بيوتاته العلمية والادبية في قراه وبعض مدنه، حتى دخل كل ذلك في الفولكلور الخاص الفني والاجتماعي. ومؤلف هذا الكتاب عاش معظم هذه الندوات المسائية ورصد مجالسها وما كان يدور فيها من مطارحات واحيانا مباريات في التشطير والتخميس والتقفية مستمعا حينا ومشاركا احيانا. وقد جمع كل هذا في قصيدة عرفت «بقصيدة الشاي» بلغت ابياتها مائة وثمانية وعشرين بيتا، حدد فيها اشهر امكنة تلك المجالس واصحابها وطريقة تحضير الشاي في السماور او الابريقين واسلوب تناوله بالاستكانات الصغيرة الشفافة لا بالكبايات او الخناطيس كما يفعل جاهلو الاتيكيت. . . وسجل ما يغنى او يرتل فيها من الشعر والمدائح النبوية والحسينية، حتى انقلبت هذه القصيدة العرمرية الى وثيقة.

وقد نشرت هذه القصيدة في المجلات العاملية العرفان وامل والعواصف وذاع صيتها في صور ومنطقتها وحفظ بعض ابياتها الرواة والاصدقاء. . .

اما في الزرارية فقد كانت تقام مثل هذه المجالس في الخمسينات والستينات واظن انها قد خفت الآن ثم اختفت بفعل الحرب الاهلية اللبنانية التي افسدت علينا اجواءنا ومجالسنا وكل تجمع بريء عندنا. . .

لكن الزرارية لم تشتهر كثيرا كصور وبنت جبيل وشقرا والمجدل والبياض باقامة مثل هاتيك المجالس. . ولم تعرف السماور ولم تستعمله في تحضير الشاي واكتفت بالابريقين وكانت مجالسها اخوانية اكثر منها «علمائية». . .

اذكر من تلك المجالس : مجلس والدنا على السطيحة الواسعة او «الفيراندا» حيث كان لولب المجلس المرحوم ابن البادية والمرحومين الوالد وعمنا السيد حسن واحيانا الاديب السيد علي ابراهيم نجل العلامة السيد محمد ابراهيم الذي طالما رأيناه يزور الزرارية فله فيها اصدقاء كثيرون ومعجبون، يشارك في مجالسها وفي بعض الاحيان يخترعها اختراعا. كما كان يحضر هذه المجالس المرحومون ابو منير وابو تصير مروة وشقيقنا المرحوم محمد وابو رائف مروة وابو علي حسين علي مروة وقصته مع « خيرة ومسبحة» الوالد معروفة. . . وكنت انا منظم مثل هذه الندوات ومشاركا فيها. وتدور المساجلات الادبية والروايات وخاصة مسابقات «التقفية» وكان المرحوم شقيقي محمد مجليا في هذا المضمار اذ قلما تخونه ذاكرته في حين كانت ذواكر اكثرنا في اجازة. . .

وهكذا، لم تكن مجالس الشاي تعمر في الزرارية الا في الصيف حيث يكثر الادباء والشعراء والعلماء صيفا، ويقلون شتاء. . .

ومما يؤسف له اختفاء مثل تلك المجالس في الزرارية فقد تحولت الى موائد للعب الورق يقدم فيها الشاي او لا يقدم لا فرق. . . فاللاعبون حتى الفجر لا يهمهم ماذا يأكلون او يشربون بقدر ما يهمهم ماذا يلعبون وربما كيف «يزعبرون». . .

مع ان الشعراء والادباء من الشبان موجودون في الزرارية وسبحان مغير الاحوال. . .

مقتطفات من قصيدة الشاي :

- أدب المناولة :

وحين تمتلىء الكاسات راعفـــة
لا تبتدرها وناولهـــا لمـــن طلبـا

وان تأبى عليها علـــج مجلسنـــا
دعه فقد فقد الاحساس والادبا

لو كان يدرك ما للشاي من ادب
عند التناول ما اقعى ولا اجتنبا

الناموس رالآيين :

اما المذاق فرشفات على مهـــل
كسارق من لمى المحبوب ما عذبـا

فلا لهاثا فويق الكأس او نهمـــا
او جرعة ضخمة مهراقة صببـــا

بل نهلة ثم نجوى شاعـر غــزل
يهوى السكينات يفديهن محتسبا

ما اجرأه على الحق ! :

قد يكرع الشاي بالجنطاس جاهله
فلا يعد اديبـــا شاء ام غضبـــا

الا اذا اتبع النامـوس شيمتـــه
رشف ونهلـــة ذواق وروح صِبـــا

وراح يهزج ترنيمـــا وعندلـــة
في سكرة الروح كالصوفي منجذبا

وشربة الماء بعد الشاي منقصـة
تقضي على اللذة الكبرى وما نهبا(١)

---

(١) ومن أسف ان هذا الفولكلور العاملي الفريد المميز ، قد كاد يختفي وينقرض اذ لم نعد نرى السماور يزغرد بالشاي المعتق ولا مجالس ادبية تعقد حوله ولا شعراء يتبارون بالشعر المحفوظ والمبتدع يتبارون في القائه على طريقة «التقفيه» المعروفة . .

اما الاسباب فكثيرة منها : انتقال الادباء والشعراء والعلماء من القرية الى المدينة ومنها : طغيان حالة الحرب الاهلية حيث لم يعد البال «فاضيا» وقبل كل هذه الاسباب : الاحتلال الاسرائيلي لقسم كبير من جنوبنا الغالي. . هذا الاحتلال الذي بدل الحال غيرالحال واصبح هم الناس، كل الناس كيفية مقاومته والخلاص منه. وانقلب السماور الى الكلاشنكوف عند المقاومين الشرفاء. ولم يبق في مدينة صور سوى مجلس شاي شبه دائم هو مجلس الصديق والشاعر المؤمن=

فولكلور مثير ومحزن في آن :
التوليد في القرى - ايام زمان:

لم تشذ الزرارية عن سائر القرى العاملية في اتباع الطريقة البدائية في كيفية التوليد فقد شهدت - ايام طفولتي - كيف كانوا يخرجوننا من بطون امهاتنا. . . شهدت بنفسي طريقتين ولا اغرب ولا ابعث على الخوف والخطر.

الاولى : تأتي القابلة ويسمونها الداية غير المتخصصة بالطبع - الى منزل المرأة التي توشك ان تلد، فلا تفعل شيئا سوى ان تنتظر مدة طويلة، مع ان هذه المرأة تكون قد ملأت ارجاء منزلها صراخا مؤلما. . . حتى اذا بلغ السيل الزبى تعمد هذه الداية الى ربط يدي المرأة المسكينة بحبل متين يتدلى من السقف يعاونها في ذلك بعض النسوة. وتبدأ القابلة (او بالاحرى القاتلة) بضربها من الخلف بكلتا قبضتيها [1] صارخة «ادركيها يا زهرة» [2] تكرر ذلك مرات ومرات. . . . وتدركها زهرة او لا تدركها. . . وتموت المرأة في اغلب الاحيان. . .

هذا دعاء جيد ولكنه غير ناجح وحده. النبي نفسه قال : «اعقل وتوكل» غير ان هذه القابلة الامية لا تفهم فحوى الدعاء ولا مكانه ولا زمانه. . .

وللأمانة التاريخية اقول : ان المرحومة والدتنا اخبرتنا ذات يوم ان اكثرنا قد ولد بهذه الطريقة. . . ولولا لطف الله بنا وبالوالدة لمات اكثرنا او لماتت هي. . .

=الاستاذ حسين هاشم (أبي مالك) حيث سماوره الفخم يزغرد كل مساء بالشاي المعتق ويتحلق حوله الشعراء والادباء والاصدقاء من كل الطبقات، وترى ابا مالك يسعى بينهم بكاساته ولطفه المتشابهين رقة وعذوبة .

(١) ويسمون القبضة في جبل عامل : «مدلكية» . .

(٢) ادركيها يا زهرة : دعاء تستنجد به القابلة بفاطمة الزهراء ابنة رسول الله (ص) .

ناهيك بأروات التوليد التي كانت مثيلات هذه القابلة يستعملنها : فلا تطهير ولا تحضير، حتى يداها قد تكونان وسختين والمقص صدئاً. . . فقد استدعيت على عجل فهرولت بقضها وقضيضها واسمالها. . المهم عندها ـ في حالتي موت المرأة او نجاتها ـ ان تقبض المعلوم ، والمعلوم كان ليرة عثمانية (ويلفظونها عصملية) اذا جاء المولود صبيا وكان الأبوان موسرين.

اما الطريقة الثانية فهي بدائية اكثر واشد هولا [1] : يأتي المخاض بعضهن وهي في الحقل بعيدة عن القرية فتعمد الى توليد نفسها بنفسها. . وحين يفرجها الله عليها يظهر المولود السعيد ولكن حبل الخلاص لا يزال مربوطا بالصرة (ويلفظونها الزكرة والبشيمة) فتسارع الوالدة الى قصه بأي شيء حاد. . . وقد يكون منجلا ! ! وبعد لأي تحمل الرضيع في شرشف او اي قطعة قماش موجودة وتسارع به الى المنزل وهي تنزف او لا تنزف، لا ادري. . .

واذا كنت ـ سيدي القارىء ـ ممن لم يشاهدوا مثل هاتين الطريقتين وهذا الجبروت النسائي القروي فأغلب الظن انك سوف لا تصدق ما ارويه لك خاصة اذا كنت من سكان المدن الذين ولدوا في النصف الثاني من هذا القــرن وفي المستشفيات، او على يد قوابل قانونيات ـ واغلبهن في هذه الايام طبيبات. . .

لقد ذكرنا الطريقتين العجيبتين النادرتين ولم نذكر الطريقة العادية الطبيعية وهي المثلى المتبعة حتى الآن في مدننا وقرانا ـ ولأنها طبيعية فهي لا تدخل كالاولى والثانية في صميم الفولكلور العاملي والريف اللبناني عامة مع اختلاف بسيط في كلمات الدعاء واسلوب الاخراج. . .

هكذا كنا نأتي الى هذا العالم، في اوائل هذا القرن وفي القرى اللبنانية،

---

(١) انها في الواقع ليست طريقة بل هي لجوء قسري لانقاذ ما لا بد من انقاذه . .

والسعيد الحظ منا هو الذي يظهر رأسه اولا من رحم امه. اما اذا حصل العكس فعلى الوالدة والمولود السلام. . اذ لا القابلة قانونية ولا ادوات التوليد متوفرة ولا الطبيب المتخصص ولا المستشفى او شبه المستشفى ولا شيء من هذا على الاطلاق! كل ما كانت «الداية» تجيده هو الضرب بكلتا يديها على ظهر الام وتكرار بعض الادعية، حتى اذا جاء الخلاص بحول الله وقوته، بادرت الداية الى قطع «الخلاص». . وادخلت بعض الملح في عيني المولود، وبعدها تسلمه الى ذويه من اخوات او جارات ليغسلوه و«يقمطوه» تقميطا شديدا، في حين تكون الوالدة المرهقة قد نقلت الى فراشها لتستريح ولتتناول اليانسون المغلي ثم تتناول وجبة طعام خاص غالبا ما يكون عبارة عن دجاجة محمرة لتعوض بمثل هذه الوجبة ما فقدته من دماء. . او يسقونها خلاصة دجاجة مسلوقة.

تبقى الوالدة، اذا ايسر زوجها، اربعين يوما لتتخلص من دم النفاس وتتعافى تماما، اما اذا اعسر زوجها فانها تنهض من فراشها بعد يومين فهناك مهام كثيرة تنتظرها، فالفقر لا يرحم، والاطفال الكثيرون ينتظرون. والبقرات والمعزايات والدجاجات البياضات من لها غيرها؟! تدشيرا واحتلابا وايواء وكناسة اصطبل. ناهيك «بالقرقة» او الدجاجة الرابضة على عشرين او ثلاثين بيضة على الاقل من لها لترعاها حتى تفقص الصيصان؟! وحواش التين والزيتون والخروب والخ . . ، ودع ارضاع المولود الجديد المبارك وصراخه وبكاءه، بعد كل رضعة جانبا. . دعه ينعي ببكائه مصيره. . وطفل ابن الرومي هو طفل الانسانية جمعاء. . يبكي حين يولد ويبكي حين يموت. .

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

والسعيد الحظ منا هو الذي يظهر رأسه اولا من رحم امه. اما اذا حصل العكس فعلى الوالدة والمولود السلام. . اذ لا القابلة قانونية ولا ادوات التوليد متوفرة ولا الطبيب المتخصص ولا المستشفى او شبه المستشفى ولا شيء من هذا على الاطلاق ! كل ما كانت «الداية» تجيده هو الضرب بكلتا يديها على ظهر الام وتكرار بعض الادعية، حتى اذا جاء الخلاص بحول الله وقوته، بادرت الداية الى قطع «الخلاص». . وادخلت بعض الملح في عيني المولود، وبعدها تسلمه الى ذويه من اخوات او جارات ليغسلوه و«يقمطوه» تقميطا شديدا، في حين تكون الوالدة المرهقة قد نقلت الى فراشها لتستريح ولتتناول اليانسون المغلي ثم تتناول وجبة طعام خاص غالبا ما يكون عبارة عن دجاجة محمرة لتعوض بمثل هذه الوجبة ما فقدته من دماء. . او يسقونها خلاصة دجاجة مسلوقة.

تبقى الوالدة، اذا ايسر زوجها، اربعين يوما لتتخلص من دم النفاس وتتعافى تماما، اما اذا اعسر زوجها فانها تنهض من فراشها بعد يومين فهناك مهام كثيرة تنتظرها، فالفقر لا يرحم، والاطفال الكثيرون ينتظرون. والبقرات والنعزايات والدجاجات البياضات من لها غيرها؟ ! تدشيرا واحتلابا وايواء وكناسة اصطبل. ناهيك «بالنقرقة» او الدجاجة الرابضة على عشرين او ثلاثين بيضة على الاقل من لها لترعاها حتى تفقص الصيصان؟ ! وحواش التين والزيتون والخروب والخ . . ، ودع ارضاع المولود الجديد المبارك وصراخه وبكاءه، بعد كل رضعة جانبا. . دعه ينعي بيكائه مصيره. . وطفل ابن الرومي هو طفل الانسانية جمعاء. . يبكي حين يولد ويبكي حين يموت. .

لما تؤذن الدنيا به من صروفها   يكون بكاء الطفل ساعة يولد

اسماء النساء في الزرارية وجبل عامل :

مرجعيات وخلفيات :

كـمـا في اي قـرية او مـدينة جنوبيـة اسـمـاء اناث يمكـن ان تكون مـتـأثرة بخلفيات او مرجعيات سياسية او دينية او مذهبية. كما يمكن ان تكون مطلقة متحررة من كل هذه الخلفيات والبيئات والعهود.

ففي العهد التركي والاقطاعي غلبت هذه الاسماء النسائية، من مثل :

شـاهناز ـ تركـيـة ـ ملك ناز ـ ورد الشـام (ويلفظونهـا في جـبـل عـامل ورداشين) شملكان ساهجنان (من شاه جنان) سلطانة ـ مليكة ـ فرغانة ـ خاتون الخ.

- وفي عـهـد الانتـداب الفـرنسي لم يتـأثر اهالي جبـل عـامل بالاسـمـاء الفرنسيـة، الا في بعض الاوساط المتفرنسة حيث نجد امثال : روز ـ روزالين ـ جاكلين ـ جورجيت ـ ايفيت ـ كارولين ـ الخ. .

وعلى العموم لم يتأثر ابناء هذا الجبل العربي بالاسماء الاجنبية مؤنثة كانت ام مذكرة ويبدو ان ذلك عـائد ـ في نظري ـ الى اسباب سياسية ووطنية وقومية اكثر منها دينية.

- وفي العهد الاستقلالي(الوطني) غلبت الاسماء ذات الجذر العربي، من مثل : ريما ـ ميساء ـ هند ـ دعد ـ خنساء ـ نفيسة ـ ميادة ـ والاغلب في جبل عامل : سكنة وسكينة ـ فاطمة ـ زينب ـ حبيبة ـ اليفة ـ رضية ـ ليلى ـ حياة او عين الحياة ـ وهذه في الزرارية ابنة الشـاعر المعروف بابن البادية الشيخ احمد حجازي ـ رئيفة ـ رؤوفة ـ هدية ـ سعاد ـ سعدى ـ لبنى ـ روحية ـ عائدة ـ عيدية

ـ غزوة ـ سهام ـ حميدة ـ زينا ـ جبين ـ نهاد ـ ناهدة ـ اكرام ـ رضية ـ راضية ـ رشا ـ وروشنة الخ.

وفي الزرارية اسماء نساء مستلهمة من وحي البادية مثل : بيدا (مخففة من بيداء) كانت جارتنا ولا يزال بيتها ملاصقا لبيت الاهل، وبانة او بانا من غصن البان المشوق لشجيرة صحراوية معروفة ـ رندا : من قضيب الرند الصحراوي ـ ديبة ـ مخففة من ذئبة ـ لبوة من لبؤة ـ دارين (قرية ساحلية في الخليج العربي مشهورة بانتاج المسك) غزالة ـ خيزران ـ اروى نوع من الغزلان يعيش في شعاب القمم وهو من تيوس الجبل (كما جاء في لسان العرب) ومن وحي الطبيعة والفضاء وازهار الربيع ، مثل : زهرة ـ وردة ـ سوسن ـ ياسمين ـ ريا [1] ـ نسرين ـ نرجس (ويلفظونها رنجس) ـ زنبقة ـ قرنفلة ـ فجر ـ شمس ـ قمر ـ سهيلة ـ حبقة ـ نجمة ـ كوكب ـ عطارد ـ سها ـ ثريا ـ بدر او بدرية، الخ. . .

ومن وحي المجوهرات : جوهرة ـ زمرد ـ الماسة (يلفظونها الماز١) ـ فضة ـ لؤلؤة (ويلفظونها لولو) درية ـ فيروز ـ مرجانة ـ جمانة الخ. . .

ومن وحي الجمال : جميلة ـ حسنا (مخففة من حسناء) ـ بهية ـ بارعة ـ فتنة ـ صفا (من صفاء) نجلا(لانساع العينين) ـ وطفا (وهي الطويلة الاهداب) سنية، اسيلة (الخد) ظريفة ـ لطيفة ـ سناء ـ آية (في الجمال) آلاء ـ حلى ـ زاهية ـ لطيفة.

ومن وحي القيم الاخلاقية : حنان ـ ابتهاج ـ مسرة ـ انشراح ـ ابتسام ـ ماجدة ـ حبيبة ـ أليفة ـ رضية ـ عفة. .

---

(١) ومعنى ريا : الريح الطيبة ورشا : ولد الظبيه (انظر المعاجم العربية) .

ملاحظة : لاحظنا في النصف الثاني من هذا القرن عودة الى التقليد الاجنبي (الانكليزي هذه المره) والفرنسي ، وذلك بسبب التقدم العلمي والحضاري (ولو بالمظاهر . . .) اكثر منه تقليدا اعمى . فسمينا : لينا - ناديا - تانيا - (وهي روسية) وناتاشا (وهي ايضا روسية) مادونا - سهير (كما في مصر) كاورلينا - الى آخره . .

كما قلد اللبنانيون وبعض البلاد العربيه الاجانب في لفظ البنت (والصبي) مصغرا للتحب او مختصرا (للتدليع) فقالوا : لولو وتاتا وكوكو وررورو وسوسو وفوفو . ومنهم من غالى في الدلع فقال لفاطمه : افاطو او فطم او فطومه [1] وسبحان مقسم الارزاق والاذواق . اما لفظ اسم أميمة تصغير كلمه أم فقد عرف في الجاهليه والاسلام للإعراب عن التودد والاحترام (لا للتدليع)[2] اما الذين يعتقدون بانعكاس الاسماء على مسمياتها او تأثير الاسم على المسمى خيرا او شرا فهؤلاء لا يزالون يعيشون عقليه اهل الجاهليه الاولى حيث كانوا يؤمنون بأن الطفل اذا سمي بالافعى مثلا فإن الإسم في الافعى يبعد عنه سم هذه الافعى (أفعى جرهم مثلا) واذا سموه صخرا يصبح قاسيا جبارا كالصخر لا يتزحزح . واذا وإذا. . . الى آخر هذه المعتقدات التي يدحضها الواقع . فكم من جميل (يحمل

---

(١) اما توفيق الحكيم فقد تجاوز كل هؤلاء في المغالاة في التدليع فقد كان ينادي حفيدته زينب (من ابنه الوحيد اسماعيل) سوزين تعالي يا بنت يا مفعوصة :انظر كتابا عنه بعنوان : رسائل خاصة جدا لابراهيم عبد العزيز - القاهرة .

(٢) وفي جبل عامل ينادون الام توددا بقولهم : يا ميمتي . . وفي ريف مصر : يومايا - وفي سوريا نيامو . . وفي العراق : يايومي والارجح ان العامليين يحتفظون باللفظ الفصيح فيقولون : يا امي حتى عند التودد او التحسر .

(يحمل اسم جميل) او جميله كان او كانت في الواقع - اقبح من قبيح وكم من عنتر كان اجبن من جبان -وكم من عادل كان اظلم الظالمين وكم من بشير كان اسوأ من نذير ، الخ. . .

وهكذا نجد ان الاسماء عامة واسماء النساء خاصة مستوحاة من صميم الواقع والبيئه والطبقية والقيم الاخلاقية والفنية التي تبلغ احيانا حد القداسة والتمسك بالموروث الديني والمذهبي واللغوي من جهة او التقليد الاعمى ونصف المبصر من جهه ثانية . . . كل هذا ويبقى الانسان ، لا اسمه ، هو المحور .

«واما الزبد - الاسم فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس وهو الانسان ، فيمكث في الارض» . . . وها هي فيروز تغني للرحبانيين :

الاسامي كلام وشو خص الكلام

عينينا هني اسامينا . .

طريقة الزواج في القرى قديماً :

قبل نصف قرن كان الزواج او التزويج في القرى يتم بواسطه الاهل ، وليس بالتعارف المباشر - كما يجري اليوم في المدن وفي القرى التي يكثر فيها المتعلمون والمغتربون . فعندما « تهجم النية » عند الشاب وبالاحرى عندما يقرر الابوان تزويج احد اولادهما - وقد لا يكون البكر - تذهب الام - بتكليف من الاب او بدونه- الى احدى المتخصصات في« جمع رأسين بالحلال على مخدة واحدة»كما يسمونها، فتسر في اذنها اسم فتاة بعينها ، وغالبا ما تكون من طبقتها، طالبة منها ان يبقى الامر سرا بينهما . . . حتى اذا تم كل شيء وحصلت

الموافقة تعود الام لتزف البشرى الى زوجها كل هذا يجري بدون علم «الصبي».

وحين يفاتحانه بالأمر يسكت ويرضى، دون ان يكون قد رأى الفتاة ولو مرة واحدة! اما اذا كان يحب غيرها، فهنا الطامة الكبرى، لا سيما اذا كان «الصبي» «عندو من نفسو» لكن اذا كان خالي القلب، خالي الوفاض، فانه يرضى وامره لله..

جرت امامي في الزرارية منذ نصف قرن تقريبا، هذه الحوارية الطريفة بين الام والاب من جهة وبين ولدهما بعد ان اكتشفا انه يحب فتاة اعلى من مستواهم واغنى :

الام : يا ابني، يا رجوتي، بدي جوزك تا اقشعلك صبي قبل ما موت.. بس شو قصتك مع بنت...

الولد : لا جواب!.

(وهنا حاولتُ الخروج، فصاحت بي الام السيد خليل مثل اولادي ومعلهش مخبا.. خليك مشرف)

الأم : شوف يا حبيبي، يا قباري، بنت فلان مش ممكن تصير حلالك.. هيدي بنت مرفهة، ونحنا مش عاقدها.. ويعدين مين قلك انها بتحبك؟

الولد : (بكل تيسنة) : بيكفي انا بحبها!! وهي كمان : كل مرة بشوفها عم تحكي غيري بغار!! وما في مرة شافتني الا ضحكت!

الام : ولك كانت عم تضحك عليك؟

الولد (مصرا على تيسنته) : قلت لك بيكفي انا بحبها!

الام : هيك لكان. حلو.. حلو كثير.. ولك يا سندي يا تقبر امك : الحمار اذا اجا صوب الحمارة وشمها وهي ما شمتو ما بتكون بتحبو.. واذا تحمرن وتحركش فيها بتلبطو!!

شوف : لا طعميني بعِقلي حلاوي وتقلي بتحبك صحيح. . لا تتعلق بحبال الهوا. ولا تغرك البسمة والحمرا والبودرة. . الله يرضى عليك. ما سمعت المثل بيقول :« اللي بياخذ من غير ملتو(١) بيموت بعلتو. » «وللي بيتغطى بلحاف الجيران بظم بردان» !!

الولد : لا جواب. .

الاب : بلا جعدني، انت واياه، وبلا هبل يا صبي. . نحنا خطبنا لك فلانة وبس ! بدهاش قلة حيا ومسخرة

الولد :(يخرج غاضبا) (اما انا فلم اخرج. . وحاولت ان اجد مخرجا للصبي)

-هكذا كانت الخطبة تتم كما يشاء الوالدان، لا كما يشاء العاشق الولهان. .

الطلبة : اما كيف تتسلسل المراسيم فكالآتي :

بعد الموافقة يتفق والدا الخطيب او المخطوب له، مع والدي المخطوبة، على موعد كتب الكتاب وقراءة الفاتحة. ولا مجال لتعارف الخطيبين، فهو محرم في التقاليد القروية. ويكون الموعد عادة، ليلة الجمعة المباركة عند المسلمين :

تأتي «الماشطة» لتجميل العروس بالمساحيق الطبيعية كالحنا والكحل بعد نزع شعر الحاجبين والشاربين. . وتحت الابطين الخ. . ثم يتجمع الاهل والاقارب والاصدقاء. ويكون على رأس المدعوات كل بارعة في اطلاق الاويها والزلاغيط. .

---

(١) ويقصدون بالملة الطبقة او المستوى الاجتماعي .

ثم يأتي عاقد القران وهو، في العادة، عالم القرية ليأخذ «الوكالة» من العروس، بادئاً بتلاوة بعض الآيات القرآنية المناسبة، وما يناسب المقام من الاحاديث النبوية الشريفة مختصرا بمخاطبة العروس المجلوة بقوله :هل تقبلين يا فلانة بفلان زوجا لك بمهر معجل ومقداره. . . وبآخر مؤجل الى احد الاجلين[1] فاذا كنت راضية فقولي : انت وكيلي. (وهنا يسود صمت مطبق من العروس يكاد يشبه الرفض. يكرر الشيخ نفس الطلب، ويتكرر الصمت. لكن امها او احدى قريباتها تعتذر عنها قائلة : ذهبت الى «الحقلة» او راحت تملي الجرة من العين، او ذهبت الى المدرسة الخ. .

وفي المرة الثالثة تنطق العروس بخجل قائلة : قبلت. وهي عبارة تكون قد علمت متى وكيف تقولها. . وهنا تنطلق «الزلاغيط» مدوية ومنوعة. . وينهض الشيخ ووراءه اهل العريس الى بيته وغالبا ما يكون بيت والديه. وهناك يجلس العريس على كرسي في مواجهة الشيخ الذي يبدأ بمثل ما بدأه عند العروس، ثم «بالترجومة» المعهودة التي تتكرر ثلاث مرات وفي كل مرة على العريس ان يسرع في الاجابة بقوله : قبلت. اما «الترجومة» فهي : زوجتك فلانه بنت فلان بمهر قدره. . . وفي المرة الثانية تكرر «الترجومة» نفسها ولا يتغير فيها سوى ابدال كلمة زوجتك بكلمة «أنكحتك». . وفي الثالثة يكرر الشيخ العبارتين معا شرط ان يسارع الجالس على كرسي الاعتراف بترديد كلمة ـ قبلت ـ بوضوح وبدون تلعثم، وهنا يقرأ الشيخ الفاتحة ودعاء التبريك وينصرف بعد ان «يدس» اهل العريس في حبيبة كمية «حرزانة» من المال. .

---

(١) الاجلان : الطلاق او موت الزوج .

اما اذا كان عاقد القران عالماً كبيرا ومن الموسرين فلا يتقاض اي اجر. .

بعد انصراف الشيخ يبدأ توزيع علب الحلوى، وينطلق الرصاص ابتهاجا. . ثم تبدأ الدبكة في ساحة القرية حتى منتصف الليل وعلى مدى ثلاث ليال حسب قيمة العريس ومدى منزلته الاجتماعية ولا سيما اذا كان مغتربا ناجحاً. .

وبعد توزيع علب الحلوى يذهب العريس ليرى عروسه للمرة الاولى كاشفا «الطرحة» عن وجهها وهنا قد تحدث مفاجأة مزعجة، وقلما كانت تحدث، يكتشف المسكين الذي لم يكن له دخل في عملية الاختيار، ان وجه عروسه بشع جدا بالرغم من محاولات الماشطة وجهدها المكثف في اخفاء تلك البشاعة (ومن هنا المثل الدارج :«شو بتعمل الماشطة مع الوش الشنع») !

ويبلع العريس المقلب ويجرع الكأس المرة حتى الثمالة. . ولا حول ولا. . وتبدأ المشاكل مع الاهل الذين لا يعيرون لجمال الوجه واعتدال القامة اي اعتبار : أليست البنت آدمية، وصيتها مثل المسك ومن عيلة مستورة مثلنا، هذا يكفي : يقولها الاهل للعريس المنكوب. وقد « يزيدون على قلبه» قائلين : « هلق صارت مرتك وبيسوى تسد بوزك أحسن لك !!» ولك إذا ما حلاها خدودها بيحليها جدودها !

كل هذه المهازل والعادات قد انقرضت تماما في الزرارية وغير الزرارية من القرى العاملية وخاصة الكبرى منها، وذلك بفضل التقدم العلمي وتزايد الوعي وكثرة الاختلاط بالهجرة والسفر، بحيث اصبح طالب الزواج سيد نفسه ماديا وادبيا.

وتراجع دور الاهل الى نقطة الصفر تقريبا واصبحت مهمتهم مقتصرة على التهنئة والتبريك والدعاء بالرفاء والبنين وتقديم الهدايا ليس الا. . .

اما اذا كان العريس في بدايات عمله وانتاجه فعلى الاهل الموسرين ان يقدموا ثمن شقة مثلا، وعلى الاقل ثمن «عفشها» او بعضه. . وغالبا ما يكون ذلك مضمونا سلفا. .

النقلة : الى بيت العريس وهي تتم ـ بالطبع ـ بعد كتابة الكتاب (او عقد الزواج) وتسمى اليوم العرس او حفلة الفرح حيث يقام حفل استقبال ويكتب على بطاقات الدعوة (فلان وفلانة اقترنا وهما يستقبلان المهنئين نهار. . . . الساعة الثامنة مساء في فندق. . .) مع ملاحظة او رجاء في اسفل البطاقة : الرجاء عدم اصطحاب الاولاد. . اما في الماضي البعيد وفي القرى فقد كانوا يسمون هذا العرس وحفل الاستقبال «بالنقلة» حيث كانت العروس التي كتب كتابها تمتطي صهوة حصان يجر بها أحد الخدم، مع رفيقاتها وجمهرة من النساء ، مطلقات الزغاريد، ويكون العريس بانتظارها لينزلها من على صهوة الجواد او الفرس، ثم تقام في فناء بيته او ساحة القرية العامة رقصات الدبكة بدل حفل الاستقبال كما نفعل اليوم في المدن بعد طواف العروس بالسيارات المزينة داخل المدينة والتي تطلق العنان للزمامير المزعجة بدل الزغاريد. .

مواسم الخير :

«حواش» التين و«مرش» الزيتون «وقصف» الخروب وقطف الصبار (او الصبير) (١)

يأتي الصيف فيحين موسم الجنى وموعد الانتقال من البيوت الى الكروم او الاصطياف المحلي، يهرع الاهالي و الاسر كل الى كرمه، ونادرا ما تفتقر عائلة ما الى كرم تين خاص بها مملوك او مستأجر. وعلى الاقل «كم عرق تين. .» ينصبون الخيام من اركان خشبية وجوانبه من الدفلى او طواريح القصب النهري الاخضر واحيانا ينصبون عرزالا بجانب الخيمة للضيف الطارىء او لعريس العائلة. وامام الخيمة او تحت العرزال يمهدون الارض ويسوونها بالتراب المزوج بالقش المبلول بالماء ثم يجففون كل ذلك ويسمونه (المراح) الذي يجفف فوقه التين الابيض «العسلاني» بعد ان يشرحوه ويسمونه «الشريحة» وبعد ان تلوحه الشمس وتجففه الا قليلا يكبسونه في القفافي[٢] ليصنعوا منه فيما بعد(التين بالدبس) وهي حلوى طبيعية تؤكل في الشتاء لا احلى ولا اشهى ولا انفع. .

اما الدحروب فهو في منزلة بين المنزلتين : بين الشريحة الفاخرة والسقيط[٣] وهو عبارة عن اكواز تين مغلقة غير مشرحة. يتزود منها الفلاح ايام

---

(١) الحواش والقطف والمرش تعابير شعبية عاملية في اغلبها ، وكلها بمعنى القطاف .

(٢) القفة مفرد قفافي : وعاء من ليف وخيوط قنب وكان جمعها يدعى ـ قديما الزرابيل.

(٣) السقيط : في عرف القرويين تلك الاكواز من التين التي «تسقط» على الارض قبل الاوان.

الخريف والشتاء وقد يضع بعضها في جيب سرواله حين يغدو الى فلاحة وزراعة حقله، فهي عنده تقوم مقام (الترويقة) والباقي يدخر ليؤكل بعد الطعام في الليالي الشتائية. واذا حلت البركة وفاض الدحروب عن الحاجة، ذهب به صاحبه الى صيدا او صور او سوق النبطية ليبيعه ويشتري بثمنه، «الكسوة» السنوية للأولاد والحريم . .

واليوم انقلبت كروم التين الى بساتين او خيم بلاستيكية. وذلك اجدى وأكثر نفعا في نظر المزارعين الجدد. وهكذا كاد جبل عامل يفقد اهم اشجاره القديمة المثمرة كالتين والزيتون والخروب والصبار. وهي تراث زراعي كان يجب المحافظة عليه، ليبقى الفولكلور العاملي بكل مظاهره وجواهره. . وحتى مقدساته. .

شجرة التين في التاريخ :

وشجرة التين ـ كما جاء في الاخبار ـ اقدم شجرة على وجه الارض، عرفها اليونان والرومان والفراعنة الذين كانوا يتداوون بثمرها خاصة الاسود منه وهوما يعرف حتى اليوم بالسوّادي. ويقال ان الفيلسوف اليوناني ابقراط كان يصفه كدواء طبيعي ملين. وقد حمل نوع منه اسم هذا الفيلسوف الطبيب الى اليوم وهو البقراطي. . وعلى سواحل البلاد السورية وهضابها تكثر كروم التين على اختلاف انواعه. . وقد اشرنا قبل قليل الى أن هذه الكروم بدأت تنقرض في الربع الاخير من هذا القرن حين لم يجددها اصحابها وزادوا فاقتعلوا اشجارها ليغرسوا مكانها اشجار الحمضيات، كما اقاموا الخيم البلاستكية للخضار التي تعود عليهم بمردود اوفر واسرع. . .

والتين شجرة مباركة :

ورد ذكـر شـجـرة التين في القـرآن الكريم، في الآية ـ القَسَم : (والتين والزيتـون وطور سينين وهذا البلد الامين) كرمز الى منابت التين : جبل عامل . كما رمز تعالى بالزيتون الى فلسطين وجبل سيناء باعتبارهما مكانين مقدسين : فلسطين حيث الاماكن المقدسة للديانات السماوية الثلاثة. والطور حيث صعد اليه موسى ليناجي ربه وليطلب منه ان يريه وجهه[1]

تفسير الرمز :

اما تفـسـيـر الآية «والتين» فـقـد اختلف المفـسـرون في ذلك اختـلافا كبيرا :فالطبري في مجمع البيان يقول :« اقسم الله سبحانه وتعالى بالتين الذي يؤكل والزيتـون الذي يعـصـر منه الزيت، عن ابن عـبـاس والحسن ومجـاهد وقتادة :«وانما اقسم بالتين لأنه فاكهة مخلصة من شائب التنغيص. . » وقد روى ابو ذر عن النبي (ص) انه قـال : لو قلت ان فـاكـهـة نزلت من الجنة لقلت هذه هي. . فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس» وقيل : التين الجبل الذي عليه دمشق، وقيل : التين مسجد نوح الذي بني على الجودي. . »الخ[2]

ويقول سيد قطب في ظلال القرآن : وقد كثرت الاقوال المأثورة في التين والزيتـون. قيل : ان التين اشارة الى طور تينا. وقيل : هو اشارة الى شجرة التين التي راح آدم وزوجته يخصفان من ورقها على سوآتهما في الجنة التي كانا فيها

---

(١) سورة التين ٨ آيات .

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ص ٥١٠ ـ ٥١١ م ٩ و١٠ دار احياء التراث العربي- بيروت .

قبل هبوطهما الى هذه الحياة الدنيا. وقيل : هو منبت التين في الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام. ويتابع سيد قطب فيقول : وقيل في الزيتون انه اشارة الى طور زيتا في بيت المقدس. او هو اشارة الي بيت المقدس نفسه. وقيل هو اشارة الى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي اطلقها نوح من السفينة لترتاد حالة الطوفان. فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف ان الارض انكشفت وانبتت. وقد ورد ذكر شجرة الزيتون في غير سورة من القرآن الكريم، اما التين فلم يرد الا في سورة التين فقط. وينهي سيد قطب تفسيره قائلا : «ومن ثم فاننا لا نملك ان نجزم بشيء في هذا الامر. . والاقرب ان يكون ذكر التين والزيتون اشارة الى اماكن ، او ذكريات ذات علاقة بالدين والايمان. (١)

ومن المفسرين من قال : تلك رموز الى اماكن مقدسة تحيط بالمسجد الاقصى الذي بارك الله حوله، اي بلاد جبل عامل والساحل السوري ففلسطين ومكة المكرمة وطور سينين. ولذلك اقسم ـ سبحانه ـ بها جميعا.

ليس ينفع الندم : امام عظمة وقدسية هاتين الشجرتين التين والزيتون اللتين لم يحترمهما جشع اصحاب الاملاك الجدد الذين يريدون ان يمحوا كل معالم تراثنا الزراعي العريق. امام هذا الجشع لا يسعنا نحن القرويين الساكنين في المدن، الا ان نأسى ونأسف على انقراض هاتيك الاكواز من التين الرائعة تأتينا من تين القاطع (قاطع النهر)من طيرفلسيه والحلوسية وبدياس . . اكواز شقراء عسلانية فاخرة اين منها بقلاوة المدن وكل ما صنعته معاملها من حلويات. .

فرط او مرش الزيتون : يملك أهالي الزرارية العديد من كروم الزيتون في

---

(١) في ظلال القرآن ص ٦٠٨ ـ ٦٠٩ ج ٨ دار احياء التراث العربي ـ بيروت .

جوار البلدة وفي ارض انصار المجاورة وفي قاطع النهر (اي في القرى الواقعة على الهضاب الجنوبية لنهر الليطاني) كبدياس والحلوسية وطير فلسيه.

والملفت للنظر ان صاحب الكرم يملك الشجر وقد لا يملك الارض التي عليها الكرم وهي طريقة في التملك تبدو غريبة بعض الشيء في أواخر هذا القرن وعادية في اوائله. . .

يذهب الرجل وزوجته وقد تذهب العائلة كلها لمرش (او قطاف) الزيتون مع اكياس وقضبان وطواريح. يبدأ القطاف غصنا غصنا. وحبة حبة[1] ثم يبدأ المرش بضرب الاغصان بالقضبان والطواريح فتتساقط حبات الزيتون على الارض ويكون الصبيان والصبايا الصغيرات بانتظار انهمار الحب. فتبدأ لملمته وجوجلته من بين الحصى وتلاليع التراب ليوضع في القفافي (الزرابيل) او اكياس الخيش وفي عيتي الخرج المنشلح على الحمارة (الاتان) : وتعود العائلة سعيدة[2] بما انجزت وجنت قاطعة الليطاني الضحل المياه ايام الشحائح. . .

وقد اشتركت في طفولتي في هذا المهرجان الممتع اذ كنت اصحب العائلة الى كرم الزيتون خاصتنا في الحلوسية (على ما اذكر) للمساهمة في القطاف وحبا بقطع النهر ذهابا وايابا وهذا ما جعلني اعشق هذا النهر العظيم عندما كبرت فقد أنقذتني السباحة فيه من السباحة في بركة الزرارية الآسنة الوسخة[3].

---

(١) ويسمون غصن الزيتون اذا غلظ فندا .

(٢) تقول سعيدة لانها بادرت الى قطاف كرم الزيتون قبل فوات الاوان . . .
اذ كثيرا ما يسطو اللصوص على كروم الزيتون في غفلة من النواطير . اذا تأخر صاحب الكرم عن القطاف ويفعل اللصوص الشيء نفسه مع الخروب . . .

(٣) ذكرنا ان هذه البركة الآسنة المياه كانت مصدرا للأوبئة والتلوث وسببا هاما للامراض المعدية ونحمد الله على أن هذه البركة قد الغيت ومدت ارضها بالاسمنت وهي الان تسمى ساحة

وشجرة الزيتون فوق كل هذا شجرة دهرية مباركة يتوارثها جيل بعد جيل الى مئات السنين ان لم نقل الآلاف. اما غصن الزيتون فقد اعتبر رمزا للسلام العادل بين الشعوب وحسبها قيمة وشرفا ان الله اقسم بها وبشجرة التين وطور سينين في القرآن الكريم حيث قال عز من قائل :«والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين». الى آخر الآية ـ القَسَم . وقد رمز بها سبحانه وتعالى ـ الى الاماكن المقدسة وهي حسب الروايات والتفاسير : بلاد جبل عامل ورمزه التين وفلسطين ورمزها الزيتون : وطور سينين او جبل سيناء وسر قداسته انه الجبل الذي كلم موسى ربه حين صعد قمته.

زيت ولا كالزيوت : يستخرج من حب الزيتون افخر الزيوت ومن حبة الجرجير [1] زيت رديء يستعمل في صناعة الصابون وسواه وحين تستخرج من حب الزيتون كل هذه الزيوت يصبح غير صالح لشيء الا للوقود ويسمى حينئذ (الدق) او الجفت.

زراعته : قد تمر اجيال على شجرة الزيتون دون ان يصيبها الوهن أو اليباس او الهرم ففيها من عناصر القوة والمقاومة ما يكفي لرد الاعاصير عنها وعوامل الطبيعة القاسية التي لا تقوى على مقاومتها الاشجار الاخرى، وقد يبلغ عمر شجرة الزيتون مائة عام أو أكثر. . . بعد هذا العمر المديد يبدأ الوهن والهرم يدبان في عروق جذعها واغصانها، عندها يعمد صاحبها الى قطعها ونصب شجيرة زيتون مكانها.

==الشهداء اذ عليها وقعت المجزرة (آذار ٩٨٥) التي ارتكبها العدو الاسرائيلي بعد انسحابه .

(١) الجرجير بلغة المزارعين ـ حبات زيتون عجفاء نصف جافة .

واذا لم ينفع التشحيل مع كرم الزيتون يقلع صاحبه هذه الاشجار النخرة ويستبدلها بنصوب زيتون شابة. والتشحيل يجري على الكرم العتيق كل سنتين او ثلاث. وهو عبارة عن تقليم (او قص) الفروع اليابسة في الشجرة حتى اذا جاء العام القابل حملت الشجرة المشحلة اضعافا. . . .

واليوم نجد زراعة الزيتون تتراجع لتقوم مقامها بساتين الليمون الباهظة التكاليف مع ان زراعة الزيتون لا تكاد تكلف شيئا وانتاجها من حب الزيتون والزيت يدر على صاحب الكرم الآف بل ملايين الليرات [١] ولكنه التقليد الجديد والمنافسة غير المبنية على قواعد علمية ودراسات موضوعية لحساب الربح والخسارة. . . .

الخروب او الخرنوب : قصفه وقطافه : يحين موعد قصف شجرة الخروب حين يميل لون ثمرها [٢] الى السواد.

قصفه (او قطافه) : يتزامن قطف الخروب مع زمن حواش التين والصبير(او الصبار) ويتأخر عنهما موسم قطاف الزيتون الذي يحل اواخر ايلول وحتى «تشارين».

---

(١) بلغ سعر صفيحة الزيت زنة ١٦ ليترا اكثر من مائه الف ليرة لبنانية في العامين المنصرمين. وها هو سعرها يبلغ المائتي الف ليرة في العام ١٩٩٣.

(٢) ثمر الخروب عبارة عن اصابع مستطيلة او شبه مقوسة يبلغ طول الاصبع العشرة سنتمترات تقريبا وعرضه ١٥ ملم او اكثر قليلا يميل لونه الى السواد عند القطاف وكان اهلنا في القرى يصنعون من قرون الخروب قبل اسودادها وحين تكون خضراء حلوى طبيعية يسمونها (المثيأة) وقد ذكرنا عصير الخروب والمثيأة في فصل المأكولات الطبيعية.

دبس الخروب : يستخرج من قرون الخروب المدروسة دبس الخروب. وقد اشتهرت الزرارية اكثر من غيرها من قرى جبل عامل والشوف بصناعة دبس الخروب الفاخر خاصة في الاربعينات من هذا القرن يوم كانت معصرة المختار السيد حسين هاشم مشهورة في طول البلاد وعرضها بجودة دبسها الاشقر اللذيذ. ومما يؤسف له ان هذه المعاصر ومثيلاتها قد انقرضت حين ورثها ابناء متقاعسون غير مهتمين بتطوير هذه البضاعة المربحة. . .

ويوم مات هؤلاء الصناع المهرة ماتت معهم مهاراتهم ومعاصرهم. .

زراعة الخروب واستملاكه : ان شجرة الخروب لا تزرع كما تزرع الاشجار المثمرة الاخرى وقد تنبت بين الصخور. . . هكذا وبلا مقدمات ولا يعلم احد الا الله كيف تنبت ومن اين؟. فنحن نفهم ان الصنوبر مثلا ينبت بين الصخور بعملية تلقيح طبيعية فقد خلق الله شجرة الصنوبر الانثى بجوار شجرة الصنوبر الذكر. يأتي الهواء فتتم المزاوجة او التلقيح بواسطته ويقال لها في الفرنسية (Par fecondation)

لكن الخروب لا يثمر بالتلقيح وقد ينبت بين الصخور من بزرة معينة سقطت بالصدفة. وسبحان خالق الخلق وباسط الرزق انه على كل شيء قدير. . . .

ان الطبيعة تجود بما تجود به من ملايين الشجر والشجيرات دون ان تستأذن معرفتنا القاصرة التي لا تعرف سوى النزر القليل من اسرار هذه الملايين وكيفية نشوئها. . . . .

الصبير (او الصبار) : وشبيه بشجرة الخروب شجرة الصبير ذات الجذوع

القصبرة والامشاط الشائكة[1] والاكواز اللذيذة الطعم : ضدان مجتمعان : وكل يمضي في طريقه : هذا للانسان يستسيغه وذاك للابل والجمال تقضمه وتلوكه دون خوف او وجل مع ان شوكه هذا يؤذي الانسان واذا ما دخل بعض وبره العين أذاها وأدماها.

وشجيرة الصبير هذه لا ندري كيف نبتت هي الاخرى لاول مرة. . كل ما نعرفه انها تنبت على اطراف السهول أو السهوب الرملية او الاسوار القديمة او جدران البيوت المهجورة. . . .

لا يعمر الصبير طويلا وقد بدأ بالانقراض إذ قلما يعتني به المزارعون في قرانا هذه الايام. وفي الزرارية لم يبق الا القليل منه فقد انصرف المزارعون الى استنبات ما هو اجدى واكثر انتشارا وطلبا وربحا. . .

طريقة قطافه : نظرا لوعورة الدخول بين شجيراته الشائكة يستخدم القاطفون (البوق) وهو عبارة من قصبة او طاروح قصب طويل ومتين علقت في احد طرفيه اسطوانه من الزنك (التنك) ذات فوهتين (او فتحتين) فتحة احداهما اوسع من الاخرى. وفي وسطهما ينغرز الطاروح بشكل محكم. . . يمد القاطف هذا الطاروح بإتجاه كوز الصبير الناضج. فاذا كان حجمه صغيرا ادخله في الفوهة الضيقة. واذا كان كبيرا ادخله في الفوهة الواسعة. وهكذا يمضي دون ان يمس القاطف الاكواز بيديه[2] الى ان تمتلىء السلة بها. وفي البيت يفرغها في دلاء

---

(1) يقال ان ذيق الجمل يقضي على حدة الشوك ويحيله علفا سائغا طريا . .

(2) هذه الاكواز هي الاخرى ذات شوك صغير ولكنه مؤذ خاصة اذا دخل العين فانه يؤذيها وقد يدميها . . .

ويسمونه السطل المملوء بالماء كي يكسر حدة اشواك الاكواز ويبدأ بتقشير كل كوز نازعا قشرة طرفيه ووسطه بسكين حاد.

ومن غير العارفين من يبدأ بالتقشير دون تحفظ فيملأ اصابعه بالاشواك من كل حجم واكثرها (وبر) سريع الانغراز فيها وهي من القوة بحيث يصعب اقتلاعها[1]

فوائده : يصنف القرويون اكواز الصبير من بين اشهى الفواكه التي تجود بها الطبيعة عليهم كالتين والعنب والمشمش والاجاص، ويفاخرون بتقديمه وتناوله عند الصباح وبعد كل اكلة طعام دسمة او بدونها. . تلك هي كرومنا وفواكهنا في الزرارية وجبال عاملة، اما كروم العنب فيها فقليلة جدا ذلك ان شجيرة الكرمة تحتاج الى اماكن عالية كما في البقاع وجبل لبنان . وجبل عامل قليل السهول ضيقها ومرتفعاته لا تبلغ في العلو الشاهق علو جبال لبنان لذلك استعاض العامليون بالعرائش بدل شجيرات الكرمة. والعرائش (جمع عريشة) شجرات ضخمة تزرع في فناء او فسحة كل بيت تقريبا في قرانا : تعرش العريشة وتتسلق باغصانها الى اعلى حتى تصل الى موازاة سطح المنزل فتنتشر على السطح حيث يرفعونها على اعمدة قصيرة او يحولونها الى سطح خيمة تنصب خصيصا لانتشارها ، وحين يكتمل نموها وانتشارها تتدلى عناقيدها «كثريات الذهب» على حد تعبير جبران. كانت اسمارنا وسهراتنا في ليالي الصيف المقمرة تقام تحتها حتى اذا غار القمر تسلل نوره عبر الثريات ليشاركنا هذه المسرات. خاصة حين يكون بين الساهرين ساهرات ساحرات.

---

(١) ولتفادي شوك الصبير وخاصة وبره يتحين القاطفون اوان ركود الهواء ليقطفوه كيلا ينقل الهواء هذا الوبر المؤذي الى العين . . .

«المشتية»[1] ووالدنا :

على « كتف وادي خليل » الشمالي وعر [2] يسمى الصنيبر (ويلفظونه السنيبر) ، فيه بقايا اشجار تين وزيتون ، وحشد من الاشجار البرية كالبطم والسنديان « والسريس»والشيح والغضا والقندول وبعض الكلأ - تخترق هذا الوعر طريق ترابية ضيقة وتتوسطه « مراحات » وزرائب للماشية . كنا نقطعه نحن طلاب كلية المقاصد في صيدا من ابناء الزرارية ، جيئة وذهابا، على ظهور الحمير، حيناً، واحيانا مشاة. . اما ركوبنا للخيول فكان نادرا جدا، ندرة ركوبنا اليوم للكاديلاك مثلا او المرسيدس ٥٠٠ !

هربا من صقيع البقاع :

قبيل هبوط الثلوج ورياح الصقيع على جبال لبنان ووادي البقاع، يهرب الرعيان بقطعانهم الى الساحل اللبناني حيث الدفء والكلأ بالرغم من هبوط الامطار عليه. [3] وفي احراج ومشاعات القرى العاملية الساحلية يكون الطقس الشتائي ملائما للماشية، رعيا ومبيتا.

اين يحط الرعيان رحالهم مع مئات رؤوس الماعز؟

---

(١) المشتية : رعيان قطعان الماعز الذين « يشتون » بها في السواحل .

(٢) الوعر : من وعورة مسالكه وهو الحرج (يلفظونها : الحرش) .

(٣) من عادة الماعز الا يرعى كالغنم او البقر كلأ الارض ، بل تراه يتسلق الاشجار البرية العالية ليقضم اوراقها الخضراء . . ونادرا ما تسقط المعزاة بعد تسلقها ، لان رشاقتها وقوائمها الصلبة قادرة على التشبث بأغصان الشجرة مهما كانت متهدلة او دقيقة . هذه الطريقة في الرعي هي التي تحدو باصحاب الماعز الى ان يأتوا بها من اقصى البقاع الى اقصى السواحل اللبنانية أثناء تساقط الثلوج هناك على الأشجار فلا اوراق خضراء ولاكلأ . .

لا بد اذن، من وجود زرائب ومأوى يبيتون فيه مع «الطرش»، [١] خارج القرية طبعا لكن المأوى ـ ان وجد ـ خال تماما من أبسط وسائل النوم.

هنا يبدأ تبادل المصالح . .

كنت اشاهد المرحوم والدنا يستقبل هؤلاء الرعيان وهم في العادة اصحاب القطيع . وحين نزحوا به جاؤوا مشاة خفافا متحررين من كل ما يثقل كواهلهم من الامتعة والمواعين . لا يحملون بايديهم سوى «المساس » والمقلاع . .

حفلة الاستقبال :

يستقبلهم في منزله في الزرارية ، ويتفق الفريقان على ما يلي :

-الوالد يقدم زرائب « السنيبر » مع ما تيسر من «حرامات » الصوف والابسطة والألبسة «وصاج » أو ساج ليخبزوا عليه «الطلميات » والخبز المرقوق ، وسوى ذلك من لوازم المأكل والمنام . شرط ان ترد كل هذه اللوازم في نهاية الاشتاء

- يقدم الرعيان لقاء ذلك سطلي لبن او حليب كل اسبوع . والاهم من ذلك يتركون عند المغادرة الزرائب مليئة بالزبل ويسمونه «السواد » او « النكوب » وهو سواد مفيد جدا لاشجار البساتين اين منه السماد الكيماوي . .

كل هذه التقديمات - من الفريق الاول ليست -إذن - كرمى لسواد عيون الرعيان بل لسواد عيون المعزاة «السكي الملحا» ولسواد زبلها الذي تتركه في الزريبة ، وهو يقدر بكيس زبل لكل معزاة . . فاذا كان القطيع من خمسمائة معزاة ربح الفريق الاول خمسمائة كيس زبل على الاقل . . كان الوالد حين

---

(١) الطرش بلغة الرعيان هو القطيع .

يغادر المشتية في «تشارين » يبيع هذا السواد الثمين باسعار جيدة . كما كان غيره من اصحاب الزرائب يفعل الشيء نفسه مع «مشتية » آخرين . .

هذه التجارة انقرضت في قرانا وسواحلنا . ولم اعد اسمع بالمشتاة ولا بالمشتية . . لعل القطعان خف عديدها اليوم ، أو لعل الرعيان البقاعيين اصبحوا يقصدون مناطق ساحلية اخرى . أو لعلنا شغلنا عن كل ذلك بهمومنا المدينية ، فخفت قوة الرصد عندنا . . والله أعلم .

ناهيك بالحرب الاهلية الاخيرة في لبنان التي قطعت كل اسباب التواصل بين المناطق . . هذه الحرب التي حل فيها مكان رعيان الماعز رعيان من نوع آخر !!

اولئك يقودون قطعانهم إلى حيث الخضرة والكلأ والماء وهؤلاء يقودون قطعانهم إلى حيث الفقر والتسيب والخواء . . قطيع الماعز راض -في الغريزة- بالشبع والري والامتلاء وقطيع البشر - الازلام -راض في العادة بالقمع والهوان والبلاء واللقمة الحرام !

خرافة اكتشاف القمر : او استرداد نوره بالقوة :

سمعت في طفولتي بعض عجائز البلدة يروون قصصا خرافية خارجة عن كل معقول ، منها :

ان جماعة من السذج الفلاحين رأوا القمر يحتجب وراء غيمة ثقيلة منعته من ان ينشر نوره الابيض على قريتهم أو حقولهم في حين ظل جانب منه ينشر نوره على قرية مجاورة (لعلها قرية عبا) فثارت ثائرتهم واستعدوا لقتال اهل عبا الذين سرقوا القمر فحجبوا نوره عنهم .

وكانت ادوات القتال (مرابي المقتا) بدلا من العصي . . . .

وفيما هم يستعدون للقتال واسترداد القمر المحجوب اذا بالغيمة تنقشع ويعود القمر اليهم ناشرا نوره عليهم وعلى بلدتهم .

لقد خاف اهل عبا «ودشروا» القمر حقنا للدماء واتقاء لشر الهزيمة النكراء!! ويحس المقاتلون بنشوة النصر - قبل القتال -(فيرودون) (اي يغنون الرويدة)

من عبا جبنـاك يا قمـر   والمقتا شغـل المغاريـق !

انه الخيال الشعبي الجامح واللامعقول والذي تغلفه الخرافة من كل جانب هو الذي يفبرك الخرافة فيجعل الليطاني مثلا يصعد الى الزرارية على ارتفاع ٢٥٠ مترا على الاقل ، ويمر بين ازقتها وتقام بقربه الطواحين (١) .

هذا الخيال نفسه قادر على اختراع قصة القمر وسرقة اهل عبا له . . اما في دنيا الواقع والمعقول فقد يحجب القمر وقد يخسف فتقام الصلوات من اجل عودته الى طبيعته بعد ان تمر الارض ومعها ظلها الذي كان لسويعات يظلل القمر وذلك في دورتها حول الشمس . وهو أمر لا يحدث دائما . . . كما يعرف الفلكيون . . لكن خيال السذج لا يقبل بهذا التفسير ولا يفهمه فيفسر هذه الظاهرة الطبيعية تفسيرا يلائم تفكيره وخياله وهواه . .

- متى الافطار في آخر شهر رمضان ؟

السيد يحيى (جاب) العيد !

وهناك عادة محببة الى نفوس المؤمنين الصائمين وان كانت وقائعها محرجة ومؤلمة احيانا لعامة الشعب . . وهي : عادة التأكد من رؤية هلال شوال التي

---

(١) انظر قصة الليطاني او مسرح اللامعقول في فصل الفولكلور .

كانت ولا تزال سائدة في قرى ومدن جبل عامل بل هي تقليد جرى مجرى العادة
وخلاصته :

ان الرؤية بالعين المجردة غير مضمونة دائما عندهم لاسباب اقلها .

١- عدم معرفة الراصدين لمواقع الهلال على الافق .

٢- عدم توفر عيون كعيني زرقاء اليمامة . . . لتتمكن من الرؤية .

٣- عدم توفر افق لا غيوم فيه ساعة الرؤية وغير ذلك من الاسباب .

المهم انهم في الزرارية ، كانوا يوفدون بعض المشايخ او (السياد) الى اي امام مجتهد في عدلون او صور وخاصة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين ليأتوا بالفتوى الشرعية بان ذلك النهار او ما يليه هو اول ايام عيد الفطر . . . .

وكثيرا ما كان المرحوم والدنا يسرع بالذهاب إلى صور ليأخذ الاذن بالافطار من الامام شرف الدين الذي كان يوفد الى مرتفعات قرية العباسية الشيخ محمد عقيل عيسى المؤتمن من قبله مع بعض الرجال المؤمنين الذين يعرفون - كما الشيخ - مواقع الهلال ويتمتعون مثله ببصر حديد حتى اذا شهدوا امام الامام بحدوث الرؤية عاد المرحوم والدنا بالخبر اليقين وقد يتأخر الخبر فيصوم الناس في القرى حتى الظهر ويكون ذلك اليوم اول ايام عيد الفطر . . . ويكون الصائمون في الزرارية منتظرين - كذلك - عودة الوالد ، حتى اذا اطل عليهم ببشرى العيد راحوا يتصايحون وينادي بعضهم بعضا هاتفين : (جاب السيد يحيى العيد ، جاب السيد يحيى العيد .) افطروا يا صائمين . . . .

اما اليوم ، وبعد انتشار وسائل الاعلام فقد اصبح اهالي جبل عامل ينتظرون اذاعة الخبر من الراديو او التلفزيون ليلة التماس الرؤية التي تعلن عنها- بعد التأكد - دار الفتوى في بيروت او دائرة الافتاء في المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى وعلى راسها المفتي الجعفري الممتاز الشيخ عبد الامير قبلان .

وفي لبنان لا يختلف السنة والشيعة في المسائل الدينية الجوهرية ما عدا بعض الشكليات والممارسات فالشيعة في مسألة الرؤية حنبليون متشددون . . . اما السنة في هذه المسألة ، فمتساهلون . .

مسرح اللامعقول :

أو الخيال الشعبي الجامح الرازح تحت وطأة المعاناة :

المكان : زقاق ضيق بين بيوت الزرارية القديمة ، على جانبيه افريزان متقابلان.

الزمان : عصر يوم قائظ من العام ١٩٠١ .

الاشخاص : جماعة من الشيوخ وبعض الشبان المخضرمين يستظلون ويتسامرون .

الموضوع اللامعقول : نقل نهر الليطاني من مجراه في اسفل وادي عين الحور الى الزرارية وبالتحديد الى الزقاق الضيق بحيث يمر بين الافريزين !

يبدأ الحوار بين اكثر من شخصين بأمنية تداعب خيال احدهم :

أبو حسين : ياجماعة هلكت من الذهاب الى مطحنة المغيرية خصوصي انو حمارتي الجربانة لم تعد تحملني مع كيس الحبوب . . . يا ريت ها النهر بيمر من هنا قدام بيتي فابني عليه مطحني خاصة ، واطحن الحبوب فيها واجرش السميدات الي ولغيري وياخذ اجرتي بالتمنية على كل مد . . .

أبو حسن :(مقاطعا) يابو حسين يا روحي ، انا بعرفك طماع . . . بكرا

لما - لا سمح الله - بيصير عندك مطحني بتاخذ اجرتك من اهل البلد بالتمنية الكبيرة على كل نص مد . . . وهيدا ظلم وتشليح اما انا فاكتفي بنص ثمنية على كل مد .

أبو حسين : (غاضبا) انا طماع يا جوز . . . ولك انا كل الناس بتعرفني وبتعرفك انت . . . . انت اللي حرامي وطماع مش انا . . كيف لما بيصير عندك مطحني حد بيتك (وهنا يتدخل شيخ عجوز اسمه اسماعيل لحسم الخلاف الذي كاد يتطور الى اشتباك)

الشيخ اسماعيل : ياجماعة الخير : هلق كنتو صحاب . . لا انتي ولا هوي بتعملو مطحنه المختار بو عباس إلو الحق وحده بهيك مشروع (وكأن المشروع قابل للتحقيق) بيعمل مطحني وكلتنا منطحن فيها . . . . وخلاص ! !

يا عيب الشوم ! قوموا تباوسوا وخلصونا ، بلا مسخرة . . .

أبو حسين : (موافق) طيب . بس لازم بو حسن يعترف ويعتذر لي يا شيخ اسماعيل (ولكن بو حسن يمانع ويبقى رافضا المصالحة مصرا على عناده . . ويبقى الليطاني مصرا على البقاء في مجراه الطبيعي والابدي . . . . ويبقى الخيال الشعبي في احسن حالاته !)

فولكلور آخر زمان !

الانتخابات النيابية في القرى او تمثيل التمثيل...

منذ انتخابات ٢٥ ايار ١٩٤٧ مرورا بانتخابات ١٥ ايار ٥٧ وانتهاء

بانتخابات نيسان وايار ١٩٧٢ السرمدية الابدية . . . والمهزلة هي اياها والطريقة المضحكة والمبكية هي اياها . . .

بيع وشراء على المكشوف :

على اونة . . . على دوه . . .

الصوت بخمس ليرات : الانسان بخمس ليرات !

الصوت بخمسين ليرة : الانسان ببلاش ! . . . ويسمونها عملية ديموقراطية ! !

ومعنى ذلك في نظري ، ان قابض الخمس ليرات فقير (معتر) يقبضها ويقول في سره : خير من لا شي . . . اشتري بها خبزا ولحما وكسوة . . .

اما قابض الخمسين ليرة او اكثر فهو انسان حقير لا فقير ! على الاقل : انه واع (او متعلم) ! يعرف اللعبة ويدرك ابعاد المهزلة ومع هذا يصر على القبض .

ناهيك « بالمفاتيح » ازلام المرشح وجلاوزته . . . الذين يقبضون بالآلاف ويدفعون بالقراريط للمعترين العضاريط . . . .

انها شطارة – مهارة – اليس كذلك – ايها اللبناني ، حين تستغل تعتير فئة كادحة جاهلة محرومة . . . حين تشتري منها ضمائرها دون ان تدري هي انها تبيعها . . . لك ولمرشحك . . لعلك ايها المفتاح الشاطر قد قرأت او سمعت بما قاله اسكندر الرياشي حين اهدى كتابه : « للسذج المغرورين المخدوعين . . . للناس الملاح الذين لا يزالون يعتقدون ان في لبنان زعماء سياسة يحسبون الاستقلال جريمة ، والنزاهة فضيلة . . في بلاد كانت على مدى الاجيال تحسب القاتل بطلا والمتلاعب نابغة ، والذي يمكنه ان ينهب ويسلب ، ولا يفعل » «اهبلا»

ثم يريدنا – سدنة الهيكل وحماة الدستور – ان نصدق ان هؤلاء المرشحين الناجحين بمثل هذه الاساليب والالاعيب انهم – فعلا – نواب الشعب . . وان الشعب هو الذي انتخبهم ! صحيح : الشعب انتخبهم ! بمعنى ان كل ناخب (ممن باع ضميره) قد دخل الغرفة السرية ذات الرداء الاسود . . ووضع ورقة (او وضعت في جيبه ورقة) كتب عليها اسم المرشح او المرشحين الذين لا يعرفهم او يسمع بهم سوى انهم هم الذين وضعوا في جيبه ورقة مالية اخرى . . . يريدوننا ان نصدق ان نوابنا اكثر نوابنا جاءت بهم كفاءاتهم ونزاهاتهم ولم تأت بهم اموالهم ورشاواهم . . ناهيك بالاجنبي الذي اوحى بهم !

تمثيل التمثيل ! ! مهازل المهازل ! ! اليس هذا من فولكلور آخر زمان ! !

هذا في المضمون أما في الشكل فاليكم :

هل احدثك كشاهد عيان ، مجرد شاهد عيان ! رأى بأم عينيه ولم يسمع بخادع اذنيه . . . شاهد عيان لم ينتخب سوى مرة واحدة وكان ذلك في عمر المراهقة السياسية ثم انسحب من اللعبة – المهزلة وراح يتفرج ويتألم وها هو يسجل مشاهد فولكلورية : بعد ايام من مقابلات وزيارات المفاتيح الانتخابية للمرشحين العاديين المدعومين من كبار الزعماء بعد هذه الزيارات المشبوهة حيث يتلقون المبالغ المطلوبة والنصائح المعطوبة يهل فجر يوم الانتخابات وهو عادة يوم احد . فترى الناس سكارى وما هم بسكارى . . . يتحلقون زرافات ووحدانا حول «المفتاح» ليقبضوا . . فالعملية في نظر اكثرهم عملية قبض لا اكثر[1] . . .

---

(١) خاصة وهي مناسبة لا تتكرر الا كل اربع سنوات كما همس في اذني بعض القابضين بعد ان وبخته على فعلته . مضيفا : انا لا اعرف هذا المرشح ولا من رشحه او دعمه وهو مرشح الحكومة ومعنى ذلك انه سوف ينجح حتما سواء قبضت ام لم اقبض ! ثم اننا سوف لا نراه الا بعد اربع سنوات . انه منطق براغما تيكي سليم كما ترى مع الاسف . المؤلف .

لكن المفتاح يتظاهر بأنه خالي الوفاض . . . داعيا اياهم لانتخاب المرشح الفلاني لانه آدمي وابن ناس وخدوم . (واذا ما نفع ما بضر) ! ثم ينسحب من الحلقة بعد ان غمز ابا فلان فيتبعه ابو فلان الى زاوية زاروب بعيدا عن مركز الانتخاب الذي هو عادة مسجد القرية . . او المدرسة الرسمية . . وهناك يخرج من جيبه اوراقا مالية مختلفة الحجم ليوزعها ابو فلان على الشعب ! ! لكن ابا فلان لا يوزعها كلها بالطبع بل يحتفظ لنفسه بالقسم الاكبر منها حسب الاتفاق مع « المفتاح » ليتقاسماه فيما بعد . . .

وقبل التوزيع يأتي من يزكي فلانا من الوسطاء قائلا : (بحبحلو يا سيدنا عندو عيال) ثم يعطيه ورقة مطبوع عليها اسم المرشح الشهم بعد ان يفتشه اذا شك في امره مصطحبا اياه حتى دخوله المركز وهناك يسلمه تذكرة هويته التي كان قد اخذها منه قبل ايام . واحتجزها مع مئات غيرها عند المفتاح . . .

ومن الظرفاء الواعين الذين يعرفون خفايا اللعبة من يتظاهر بالزعل ويبقى في بيته الى ما بعد الظهر حيث يشتد التزاحم على التطبيق وشراء الاصوات . . . يسأل المفتاح عنه فيقال له : انه حردان (وما بدو ينتخب لا هو ولا اولاده ولا زوجتاه ولا اصحابه عشرون صوتا على الاقل) فيسرع المفتاح اليه مطيبا خاطره داسا في جيبه مغلفا محترما قائلا له : (ولو يا بو فلان إذا انت ما انتخبت مين بدو ينتخب) وتنطلي الحيلة على المفتاح . . . ويذهب ابو فلان هو والعائلة والاصحاب فينتخبون مرشحا آخر ! ! ويصح المثل : النذر للدير و. . . ما سمعان !

ناخب عمره فوق المائة !

ومن مظاهر ديموقراطية النظام او القانون الانتخابي اللبناني ان للذكور

والاناث حق الانتخاب اذا تجاوزوا سن ال ٢١ ولم يضع القانون المذكور حدا اقصى لعمر الناخب والناخبة كما وضع الحد الادنى والقصد المضمر معروف . . . اذ لو كان عمر الناخب ١٨ سنة لتدفق على صناديق الاقتراع شبان في ريعان الشباب وريعان العلم والثقافة وقد ينتخبون مرشحا «تقدميا» غير مرغوب فيه من قبل السلطة . . .

ولو وضعوا حدا اقصى معقولا لعمر هذا الناخب : ثمانون عاما مثلا او اقل لكان لا يزال واعيا ومالكا زمام امره فلا (ينقاد) (على العمياني) كالذي بلغ التسعين او المائة .

رأيته (اي والله) محمولا على كتفي رجلين مفتولي الساعدين يدخلانه حتى باب الغرفة السوداء (السرية) امعانا في تطبيق الديموقراطية وحرية الانتخاب!. . . حاول العجوز ان يدخل وحده فلم يستطع ، عندئذ جاء احد المندوبين بامر من ضابط الدرك فأخذ مه ورقة الاقتراع ليجد في جيبه ورقة أخرى مدسوسة ، فصاح به : أي ورقة تريد ان تضع في الصندوق يا حاج ؟ ! وبالكاد سمعه وقال :«انا عارف . . . حط اللي بدك ياها ! ! » ويتدخل رئيس القلم ليلغي الورقتين . . . ويعرف الرجلان المنتظران في الخارج ، فيحاولان افتعال مشكلة ، وتكاد المعركة أن تقع. . فالرجلان مسلحان. . لكن أحد العقلاء يتدخل وتنتهي المعركة قبل أن تبدأ. . . ثم يخرج الحاج محمولا كما جاء محمولا. . وتكون مكافأته أهانة من حامليه، اقلها : «خرفان» ! !

ينتخب مرتين أو أكثر!

وإذا لم تصدق أيها القارىء الكريم، فارجع الى شهود عيان غيري وهم كثر، واعفني من الجواب. . حتى الاموات ينتخبون!

سل سيدي لوائح الشطب ولا تسلني. .

مرشحو الحكومة هم الفائزون :

فلماذا اخترعوا الغرفة السرية؟ !

اليك واقعة كنت أنا شاهد زور عليها بالرغم مني. . ففي عام ١٩٤٧ جرت انتخابات ٢٥ أيار الشهيرة، وكان رئيس المؤسسة التي أعمل فيها، مرشحا فاوعز الى رجاله بأن يعينوا لنا (زملائي وأنا) مراكزنا كمندوبين عنه، وبعد بدء الاقتراع بقليل أحس رئيس المركز أن الوافدين للاقتراع هم من أنصار خصم مرشح الحكومة . . فتمت المداولة بينه وبين ضابط الدرك . . وما هي سوى ساعة او بعض ساعة حتى جاء دركي حاملا رزمة من اوراق الاقتراع واخذ يدسها في الصندوقة التي كادت تغص بها !!

واطمأنت الديموقراطية واطمأن النظام . . علم الله احسست يومها ان شعر رأسي قد وقف ، وبدأ الشيب يخالطه منذ ذلك الحين . .

رب ضارة نافعة :

هذه الاحداث والحوادث التي صبغت بلونها القاتم انتخابات ٢٥ أيار ١٩٤٧ و١٥ أيار ١٩٥٧ كانت كفيلة بتحريك الضمائر لدى الاحرار من الرجال ولدى شريحة كبيرة من شرائح المجتمع اللبناني المتمثلة بالطبقة المتنورة والمثقفة ذات الاتجاه العلماني، فبدا الوعي ينتشر ، وتجرأ الكثيرون منها على دخول المعترك السياسي وترشحوا للانتخابات ابتداء من دورة ٩٦٤و٦٨و٧٢ الا ان اكثرهم اخفق في دخول الندوة . .

وظل سدنة الهيكل حريصين على بقاء النظام كما هو فظل كما هو حتى اليوم بالرغم من بعض الاختراقات . . وتقع الحرب الاهلية في لبنان ويتعطل كل

شيء ويعبث بكل شيء . . الى ان حزمت حكومة العهد الحالي امرها واجرت دورة انتخابية بعد عشرين عاما من توقفها . ولكن . ماذا كانت النتيجة ؟ الجواب انت تعرفه ايها القارىء الكريم وتلم بخفايا هذه الانتخابات اكثر مني . . وتعلم وقد علمت ، انها نسخة طبق الاصل عن انتخابات ١٩٧٢ بل لعلها الأسوأ ادارة وتلاعبا وتزويرا ، ولولا رجال خبأهم القدر ليخترقوا لوائح الحكومة ، او ليؤلفوا لوائح معارضة نظيفة لقلنا على الانتخابات في لبنان السلام . . ولظل النظام يفرز اشباه الرجال . الامن عصم ربك وألهمه التقوى واعطاه حب المتنورين والمثقفين وتقديرهم . . . واصواتهم . .

بيد أني اقول : ان هذا البلد ما دام نظامه قائما على حكم الطوائف والامتيازات الطائفية وما دام ينظر الى الناس بعين واحدة ، وما دام النواب يأتون الى الندوة باسم الطائفة والمذهب والعائلة ويضربون بسيف السلطان الذي جاء بهم وزور لهم . . . فلن تقوم لنا قائمة ، ولن يصدقنا احد باننا بلد الثقافة والاشعاع والحرية والديموقراطية . . .

فلسفة من اجل الانسان في لبنان :

ان «ايديولوجية » الوضع الخاص في لبنان لم يقل بها منظرو الفكر الانعزالي إلا ليبرروا ويطمسوا بها شرعية العلاقات الطائفية والعشائرية الدائرة في فلك البورجوازية الحاكمة كممثلة وحيدة للشعب بكل فئاته وطبقاته . .

ونحمد الله على ان هذه السيطرة الطبقية البورجوازية اللبنانية تعاني اليوم من ازمة ، بل من ازمات مستعصية الحل . . ازمة مصدر ها وعلتها هيمنة الطغمة المالية داخل الطبقة نفسها . . وهذا كفيل بتفجيرها من الداخل . كما ان تكاتف القوى الوطنية والاسلامية الشريفة كفيل بتفجيرها من الخارج . . وإلا

فستبقى الازمة دون حل وستبقى الطغمة الحاكمة - على هزالها - هي الحل ! الى ان يأتي جيل المقاومة جيل القرن الواحد والعشرين فيعطل المسرحية ويقضي على ابطالها . .

الطائف تكريس لحكم الطوائف في لبنان ؟! :

في ٢١ آب ١٩٨٩ عدل الدستور اللبناني في الطائف بالسعودية بما يحقق الحد الادنى من العدالة والمساواة في حكم لبنان . مع ابقاء كثير من امتيازات الطائفة العظمى ، ومع هذا ظلت هذه الطائفة غير راضية بل انها سعت لتقويض ما اتفق عليه فقاطعت الانتخابات وجندت لمحاربة الناجحين فيها كل رموزها السياسية والروحية . .

وبعد هل الطائف اذا ظل ساري المفعول ، هو كل شيء ؟ ابدا ، فالطائفية السياسية ما زالت اتفاقية الطائف تكرسها ، وما زالت الطائفة العظمى هي الحاكمة بلا منازع جدي .

فاذا لم يستطع احرار القرن العشرين من تطويره فان اجيال القرن الواحد والعشرين مطلع القرن الواحد والعشرين كفيلة بتطويره او حتى تغييره وفاء منهم لدم الشهداء في عليائهم ، وقضاء على العملاء في جحورهم والصهانية في شرورهم . .

من يا ترى يكشف زيف تلك الايديولوجية ؟ ايدبولوجية الوضع الخاص ؟

هذه الازمة التي تظهر ، ولا سيما في هذه الايام من اواخر العام ١٩٩٢ ، على مختلف مستويات البنية الاجتماعية تتجلى على الصعيد السياسي في ازدياد الفئات الاجتماعية التي تكتشف كل يوم وبوضوح زيف مضامين تلك «الايديولوجية للوضع الخاص» وان الفئة الحاكمة المجسدة لها لا تمثل ، في

الحقيقة، المصلحة الوطنية العامة للشعب بل هي لا تمثل سوى مصلحتها الطبقية والشخصية . . .

فالنضال من اجل فرض الاصلاح على جميع الصعد لا سيما صعيد الانتخابات (الذي بات صعيدا جرزا !) اصبح ضرورة ايها المثقفون والمناضلون الحقيقيون . . . وذلك بالسعي الى تطبيق الاصلاح الانتخابي على الاسس الآتية :

١- الغاء التوزيع الطائفي (او ما يقال له اليوم : الطائفية السياسية) من قانون الانتخابات ومن الدستور ،

٢- اعتماد الدائرة الكبرى والتمثيل النسبي،

٣- تخفيض سن الانتخاب حتى ١٨ سنة على ان يكون الناخب متعلما (سرتيفيكا على الاقل) او هو معروف بثقافة عامة وانفتاح وتحرر وكحد اقصى للعمر ٩٠ سنة ،

٤- جعل التمثيل الانتخابي يعكس بشكل صحيح العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي تنمو باضطراد ، في لبنان ، منذ ثلاثين عاما على الاقل -افساح المجال للمناضلين الحقيقيين والمقاومين الشرفاء الذين ساهموا ، فعلا، في اجلاء الصهاينة عن ارض الجنوب قادة كانوا ام محاربين .

٥- الغاء التأمين المالي للمرشح .

لقد حاول بعض المفكرين من داخل البورجوازية نفسها ان يطوروا النظام وشيئا من الدستور فرفعوا شعار : ضرورة التحرر من الولاءات التقليدية والتخلص من العشائرية والطائفية واعتماد العصرنة والتكنيك . . وكان على رأس هؤلاء المفكرين ميشال شيحا وجبران تويني (الجد طبعا) وغسان تويني وقلة

غيرهم هؤلاء مثلوا «الايديولوجية» الجديدة للبورجوازية الحاكمة كبديل للايديولوجية القديمة . الا ان هذه الدعوة كانت تصطدم باستمرار بتخلف العقلية السائدة في رؤوس الحكام وتحجر تفكير الطائفيين . . (١)

والحل ؟ نحن هنا لا نضع حلولا فلسنا فوقيين ولا نسمح لأنفسنا بالتنظير الفوقي النخبوى نحن نكشف السيئات ونفضح العورات وندل على النواقص والثغرات ونشير الى مكمن الداء وعلى الاطباء القادمين ان يشرحوا ويشرحوا . . باستعمال المبضع الذي لا يرحم والفكر الذي لا يهادن . .

حالة مستغربة في الزرارية :

نمي الي وانا اوشك ان اختم كتابي هذا ان جماعة من الشبان المثقفين في الزرارية يجتمعون في منزل احدهم ، وبعد ان يغلقوا الابواب عليهم يمارسون نوعا من السحر واستحضار الارواح . . . والغاية هي طرد الارواح الشريرة منهم

---

(١) بالرغم من كل هذا التحجر في عقلية اهل النظام واصحاب الامتيازات وتمسكهم بقدسية «الكتاب» (اى الدستور) كما كان يسميه اللواء فؤاد شهاب . . مع انه حاول عصرنة المؤسسات . . بالرغم من كل ذلك حصلت خروقات او عملية اختراق جريئة على صعيد الانتخابات في الربع الثالث من هذا القرن «كظاهرة» فوز نجاح واكيم مثلا في بيروت وقبله معروف سعد في صيدا وقبلهما الاستاذ حبيب صادق الذي أوشك في منطقة مرجعيون ان يفوز وقبل هؤلاء جميعا حسين مروه . وسواهم . الامر الذي يدل بوضوح على «الوعي» من جهة وتحجر عقلية اهل النظام وفساد قانون الانتخابات من جهة اخرى وان عملية التزوير والبيع والشراء لم تعد ضمانة اكيدة لفوز مرشحي الحكومة !! وهاهم اليوم وبعد حوالي عشرين عاما من تأجيل مثل هذه الانتخابات يلجأون الى . . التعيين !! وعزاؤنا وعزاء الاجيال المتطلعة الى مزيد من الديموقراطية انه تعيين مؤقت ولمرة واحدة .

ومن مريديهم من اقذار البلادة فتنقى جسومهم من ادران الشر ، وتتطهر ارواحهم مما علق بها من اوضار المادة والخبث والحقد وسوء الطوية وبهذا يترسخ الدين -كما يزعمون - ويتعمق الايمان :

هذا قصد نبيل وغاية شريفة لكن السبيل اليهما لا يمكن ان يكون بهذه الطريقة الشوهاء البعيدة كل البعد عن الدين القويم والعقيدة السليمة والعلم الحديث :

العلم الحديث يؤمن باستحضار الارواح . او على الاصح بالتنويم المغناطيسي والايحاء لشفاء بعض الامراض النفسية او لاستنطاق المجرم واكتشاف الجريمة من خلال تنويمه .

كما يؤمن العلم الحديث بالفلك وتأثيرات النجوم وابراجها على الانسان والدين يدعو - فيما يدعو -الى تطهير الاجسام بالوضوء والاغتسال والنظافة والدين يدعو الى تصفية النفوس بالمحبة والايثار وعمل الخير ، والسعي الحثيث لتجسيد هذا الخير في السيرة والسلوك والعطاء والبذل في كل ميادين السياسة والاجتماع والعمل الوطني لا باستحضار الشياطين او الملائكة بواسطة (ضرب المندل) او طردها بتحريك الفلجان واللعب بالارقام والاعداد ويا ليت هذا اللعب كان من منطلق فلسفي كما فعل الفيثاغوريون واخوان الصفاء . .

شهدت بنفسي وأنا في باريس سنة ١٩٥٠ جماعة من الشبان يتحلقون حول منوم مغناطسي عمد الى تنويم فتاة معصوبة العينين وبعد ان استحوذ على مشاعرها وعلى عقلها الباطن راح بواسطة الايحاء (parsuggestion) يستنطقها فتكشف لبعض هؤلاء الشبان عن طالعهم وعما سيحدث لهم في المستقبل . كما يجعلها تقرأ ارقام دفاتر شيكاتهم بعد ان نقرأها نحن المتفرجون . . . كل ذلك بعد

دفع خمسين فرنكا من كل متفرج . . . وكان كل من لا يريد دفع هذا المبلغ ينصرف بسلام . . . وكنت انا طبعا من بين المنصرفين .

هذه العملية الابتزازية وان كانت ترتدي طابعا علميا ، لم تثر دهشتي او انزعاجي ، ربما لهذا الطابع بالذات لاني كنت ولا ازال اؤمن بالعلم ، حتى في ادنى درجاته . . اما ضرب المندل وتحريك الفلاحين واستقراء الارقام والحروف وسوى ذلك من الشعوذات والتمتمات واخضاع الآيات الكريمة لتفسيرات بعيدة كل البعد عن التأويل الصحيح . . كل هذا أمر مستغرب ومستنكر في بلدتنا الزرارية وفي بلدنا لبنان . .

وذلك لسببين هامين :

اولهما : ان هذه المعتقدات والممارسات يقوم بها شبان عاديون وشبان



مقام النبي الطاهر ابراهيم الخليل

مثقفون اصابوا حظا لا بأس به من العلم والحس الحضاري فهذا مما يؤسف له حقا . . ولو صدر من امين لهان الامر بعض الشيء .

ثانيهما : ان الزرارية وسائر قرى جبل عامل ، على مرمى حجر او صاروخ من جنود الاحتلال الاسرائيلي وزبانيته وعملائه . فبدلا من ان نتصدى كل في مجاله ، لمقاومة هذا الاحتلال يلجأ بعضنا في هذه البلدة المجاهدة ، التي قدمت ولا تزال الشهيد تلو الشهيد والتي قطعت شوطا بعيدا في التطور يلجأ هذا البعض الذي كان مقاوما ، إلى انفاق وقت فراغه في مثل هذا اللهو العقيم وهذه التسليات التي تشوه المنحى العلمي والاتجاه التقدمي لابناء الزرارية ، وتفسد على الجيل الطالع توجهه العقلي السليم .

وكأن هؤلاء المثقفين قد ادوا قسطهم للعلى فناموا على حرير الاستقلال الوطني الناجز التام .

لقد نسي هؤلاء او تناسوا ان شوطا بل اشواطا لا تزال ماثلة امامهم عليهم ان يقطعوها ليتحقق بهم خلاص الوطن . . .

ثم ما هكذا تورد يا سعد الابل . . الابل العطاش الى موارد الري والشبع التامين عنيت هذه الاجيال المحتاجة إلى عقول نيرة تؤمن بالعلم وبالعلم وحده سبيلا إلى صعود مرقاة الحياة الحرة الكريمة . . .

اما ان نلهو – منذ الان – بمثل هذه الالهيات ونشوه نفوسنا وايماننا بمثل هذا العبث فعار واي عار – واذا لم تستحوا منا فاستحوا من التاريخ ومن لعنة الاجيال القادمة . . .

انا لا انكر عليكم لهوكم اذا لم يتعد نطاق اللهو البريء . اما ان ينقلب إلى عقيدة راسخة ودعوة إلى الايمان بالشعوذات والاساطير والترهات والتصرفات

الشاذة فهذا مما لا يليق بعجائز هذا العصر فكيف يليق بكم وانتم المثقفون الواقفون على عتبة القرن الواحد والعشرين ؟ !

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، وإلى مكاشفة صريحة :

هل هذا هو الدين الصحيح والايمان الحق والمنطق السليم ؟

لن استرسل في الوعظ والارشاد فانا لست بوذا ولا كونفوشيوس ولا سقراط ولا المسيح ولا محمد (ص) ولا علي كرم الله وجهه ولا عالما من علماء الدين الذين يعظونكم قبل ان يعظوا انفسهم . . . لا لست شيئا من هؤلاء بل انني مواطن عربي مسلم يؤمن بالعلم وبالنهج العلمي في تفسير الاشياء والظواهر الكونية وآلايات القرآنية الشريفة والاحاديث النبوية الرشيدة ، كما يؤمن بالجيل الجديد اي بكم وبأبنائكم الذين عليكم وعليهم عماد الوطن في مسيرة الانقاذ الشاقة (١)

-ان الله وحده علام الغيوب ، ووحده يعلم ما في السرائر وما تخفي القلوب ، ووحده يعلم ما يأتي به المستقبل . . .

---

(١) واذا كان لابد من لعب ولهو لملء ساعات الفراغ فاني اقترح ممارسة الرياضات الآتية :

ـ رياضة العقل والروح بمطالعة كتب التراث الى جانب الابداع الادبي والفكري :

ـ رياضة مماثلة هي : لعبة الشطرنج التي تنمي العقل الرياضي الشبابي خارج المدرسة او الجامعة ولعبة كرة القدم التي تنمي الجسم وتنشطه وتجعل منه جسما دائم الشباب دافق الحيوية ، ومن صاحبه انسانا متعاونا ، محبا مهابا . .

ـ الى جانب رياضات اخرى كثيرة كالانخراط في الجمعيات الخيرية ذات البرامج الخدماتيه والانسانية والاشتراك في العمل الاجتماعي اليومي العام. الى ما هنالك من رياضات روحية وفكرية مفيدة . . .

-ان الدين ليس شعوذة ولا قراءة في فلجان او كف ، او تفسيرا لرفة الجفن في العين اليمنى او اليسرى . كما انه ليس سحرا في شتى اشكاله وحركاته فليس الساحر نبيا او نصف نبي ولا هو بصاحب خوارق او معجزات حتى ولو كان داهشا او من اتباع داهش و اذا كان للسحر جانب من الحقيقة لانه ورد في القرآن الكريم في سورتي الفلق والناس فان الاشتغال به جائز لكن في ما ينفع الناس فقط وبالوسائل العلمية دون سواها . . . حتى هذه الوسائل لم تعد تنظر فيه اذ اصبحت تقوم على مبدأ التجربة والعقل . . . ولذلك قال العارفون لا العرافون : تعلم السحر ولا تعمل به . وكانوا قديما يحصرون السحر بالكهنة اما العرافون فضالون مضللون . فلا تكونوا عرافين ولا كهنة ذلك خير لكم وابقى واسلم عاقبة لاولادكم وبلدكم الذي طالما نكب بالعرافين والمشعوذين من رجال سياسة وادعياء دين . . ومنجمين مغاربة ودجالين . . .

وبعد ، لا تكونوا كأهل بيزنطية في جدلهم الخرافي (البيزنطي يوم اجتمع عرافوها يتجادلون في مسألة خرافية موضوعها : جنس الملائكة هل هي اناث ام ذكور ؟ في حين كانت مدافع محمد الفاتح تدك أسوار القسطنطينية) ونحن من تراه يرد عنها مدافع شامير وشارون ويمنعها من ان تدك أسوار الزرارية وغير الزرارية . . . ان لم يكن انتم وراء جيشكم الوطني او امامه، او في صفوف المقاومة ؟ ان حرب العرب والمسلمين القادمة ستكون حتما حرب علم وتكنولوجيا وذرة وقنابل بلاستية وصواريخ موجهة . . لا حرب دعوات وصلوات وحسب . ولا حرب شعوذات [1] وطلسمات ورقى وتعاويذ . . .

---

(١) شعوذات مفرد شعوذة وفي المعاجم : شعبذة . وقد نهت عنها جميع الاديان والمذاهب .

ولا حرب تصوف وانعزال وتضرع إلى الله سبحانه ان يكشف هذه الغمة عن هذه الامة وان يمدنا بجنود من عنده [1] . . . لقد مضى زمن المعجزات كما تعلمون واستبدلت هذه المعجزات عند الشعوب الراقية بمعجزات من نوع جديد هي معجزات العلم بله التفوق فيه . . . كما مضى عهد تنابلة عبد الحميد والتقوقع المريض داخل «التكيات» . . والسلام على من اتبع الهدى وخشي الرحمن بالحق. . .

(١) ولم يمد الله المسلمين بجنود من عنده الا عندما كان النبي واصحابه في مقدمة صفوف المقاتلين في بدر الكبرى وغيرها .

الفصل السابع



جبل عامل

بانوراما جغرافية وتاريخية واجتماعية

ذكرنا ان بلدة الزرارية تقع على احدى هضاب جبل عامل الساحلية (الجنوب اللبناني) تقابلها بلدات وقرى اخرى على هذا الشريط الساحلي الممرع، تقرب او تبعد قليلا عن البحر : كبلدة انصار والغازية والصرفند وخيزران وانصارية وعدلون والسكسكية والعاقبية والبيسارية والغسانية وسواها شمالا باتجاه مدينة صيدا وجنوبا على الشريط نفسه ، بعد القاطع (قاطع نهر الليطاني) وهناك على هضاب مقابلة للزرارية : بدياس والحلوسية وطير فلسية والعباسية، أقرب الى صور والبحر، من هضبة الزرارية ، هذا الشريط ، اذا استكملنا امتداداته جنوبا وشمالا ، يشكل حدود جبل عامل الغربية ابتداء من الناقورة نزولا بمحاذاة البحر حتى نهر الاولي شمالي صيدا .

ومما يميز هذا الشريط خصبه وكثرة البساتين فيه بسبب اختراق مشروع الليطاني[1] لسهوله ، يرويها ويمدها بأسباب استمرار الخضرة والنماء فيه بحيث

(١) يعرف في مجراه الاعلى بنهر الباروك لان اهم ينابيعه هما نبعا الباروك وعين زحلتا كما ترفده مياه شلال حزين (نهر بسري) .

اصبحت حمضياته منذ مطلع الخمسينات من هذا القرن تشكل ٦٠ ٪ من مجموع الحمضيات في لبنان ، (على اراضي الزرارية وحدها اكثر من ٢١ بستانا) وعلى تزايد مستمر .

خارطة الحدود :

في هذه الخارطة المرفقة خط بياني تظهر معه حدود جبل عامل الشمالية والشرقية والجنوبية [١] .

في كل تلك الدراسات والكتب التي ذكرناها ، لا يختلف اثنان من مؤلفيها على جغرافية جبل عامل وموقعه وحدوده بالرغم مما اقتطع منه ايام العثمانيين ، هناك قرى اتبعها العثمانيون بايالة عكا (كالبصة مثلا) والجزار واخيرا اسرائيل ! التي ادخلت القرى السبع ضمن حدودها الشمالية . . .

موقعه المميز وحدوده التاريخية :

يقع جبل عامل -اذن - في «المنطقة المعتدلة الشمالية الدافئة » داخل نطاق

---

(١) اعتمدنا في هذه الدراسة على المباحث والكتب التالية :

أ-دراسات في جغرافية لبنان للدكتور حسن ابو العينين .

ب ـ لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني للزميل المرحوم محمد علي مكي

ج ـ زراعة التبغ وانتاجه ـ ادوار غالب .

د ـ دراسات في التاريخ الاسلامي . د . عبد العزيز سالم .

هـ ـ فصول من تاريخ الشيعة في لبنان للشيخ علي الزين .

و ـ تاريخ جبل عامل لمحمد جابر آل صفا .

ز ـ خطط جبل عامل للسيد محسن الامين .

ح ـ دراسة بانورامية تحت اسم : عناوين من تاريخ وجغرافية جبل عامل للزميل الاستاذ علي امين فقيه ـ صور .

ط ـ محاضرة للعقيد الركن ياسين سويد بعنوان : جبل عامل في عهد الامارتين .

قلب الوطن العربي الكبير على الشاطيء الشرقي للمتوسط - كما ذكرنا ـ حيث يطل عليه جبل حرمون (او جبل الشيخ المتوج بالثلوج على مدار السنة) من الشرق وفلسطين من الجنوب وبلاد الشوف من الشمال . فالمتوسط هو حدوده الغربية وتبتدىء حدوده الشمالية من مصب نهر الاولي فتدخل مدينة صيدا فيه ، ثم تذهب هذه الحدود صعدا الى الشرق شمالي قرية البرامية ، وتتجاوز قرية روم من جهة الشمال إلى ان يصل إلى جزين فيضم واديها وشالوفها وسائر القرى التي كانت تابعة لمقاطعة جزين . ومن هناك يقطع جبل التومات (تومات نيحا) منحدرا إلى مشغرة ويتصل بالليطاني من شمال سحمر . . . ثم انحدارا إلى نبع نهر الحاصباني ويتابع انحداره جنوبا على مجرى النهر المذكور فيدخل فيه جبل المظهر ومشغرة وعين التينه وميدون وسحمر ويحمر وقليه وزلايا ولوسي ولبايا من قرى البقاع الجنوبي وتدخل فيه قرى كوكبا وبرعس وسوق الخان من ناحية حاصبيا إلى ان ينتهي هذا الخط على ضفة بحيرة الحولة الغربية وينعطف جنوبي مقام النبي يوشع غربا ومن هناك يمتد فيتبع مجرى وادي نارة وينتهي عند مصب وادي القرن جنوبي قرية البصة فتدخل فيه قرية الخالصة من ارض الحولة وهونين والنبي يوشع ثم ابل القمح وصلحا والمالكية وطيربيخا من القرى التي الحقت بفلسطين . اما قرية البصة فقد كانت مثار نزاع بين العامليين وحكام عكا . (هذه هي القرى السبع التي الحقتها اسرائيل بها ظلما وعدوانا) .

لذا كان جبل عامل في الماضي اوسع في الجنوب منه اليوم لجهة تراجعه جنوبا وغربا فأصبحت حدوده تمتد - حاليا - من بلدة جزين[1] شمالا

---

(١) كانت جزين ومشغرة وجبل الريحان ضمن حدود جبل عامل ثم الحقت بجبل لبنان ـ انظر : جبل عامل بين الاتراك والفرنسيين لحسن محمد سعد ص ٢٤ .

(وبالتحديد الجديد بلدة جبع أو جباع الواقعة على حدود بلدة زحلتا) حتى راس الناقورة جنوبا ومن شاطىء المتوسط غربا حتى سفوح تومات نيحا شرقا .

وجبل عامل ، من الناحية الجغرافية ، جبل منبسط قليل السهول كثير الاودية والهضاب (معظم قراه على هضاب ومنها الزرارية) . يمتد منه إلى البحر الرأس المعروف برأس (البياضة قرب الناقورة قبلها بقليل ناحية الشمال) ومنه حتى القاسمية عند مصب الليطاني يتسع سهل ساحلي. وبعد القاسمية شمالا سهل عدلون ينتهي عند رأس الصرفند (مقر الصحابي ابي ذر في منفاه) وينتهي عند نهر الاولي سهل صيدا المتصل بسهل الغازية . ، وفي سفح هذا الجبل سهول ترتفع عن سطح البحر اكثر من ٦٠٠ متر كسهل الجرمق وسهل المئذنة سفح جبل الريحان وسهل قدس في الجنوب . وترتفع اعلى قمة فيه عن سطح البحر فوق مشغرة وهي قمة جبل التومات نحو الف وثماني مائة متر إلى جنوب جبل التومات : قمتا جبل الريحاني وهما قمتا جبل سجد وصافي ووراءهما إلى الشرق قمة ابي الركاب المشرفة على بلدة عرمتى وهذه القمم لا يتجاوز ارتفاعها الف وستماية متر عن سطح البحر .

مساحة جبل عامل : تقدر مساحة جبل عامل بثلاثة آلاف كلم وعدد سكانه يربون على نصف مليون يدينون بالاسلام على مذهب الشيعة الامامية الاثني عشرية [١] .

---

(١) يطلق عليهم الاب لامانس بالفرنسية اسم DIODECIMANS اي الاثنا عشرية . انظر كتابه L 'ISLAM .

اما تشيعهم فعائد الى وجود ابي ذر الغفاري بينهم طيلة مدة نفيه ايام خلافة عثمان وولاية معاوية على الشام . انظر : ابو ذر الغفاري داعية ومرابط في هذا الكتاب .

بينهم قسم قليل من المسلمين السنة في الثغور البحرية كصور وصيدا ، وقسم من المسيحيين في الداخل .

جبل عامل او عاملة، الاسم : لا شك في عروبة اهل جبل عامل فهم عرب خلص بنسبهم ولغتهم وعاداتهم يتحدرون من عاملة بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهي قبيلة هاجرت من اليمن إلى اطراف الشام قبل الميلاد بثلاث ماية سنة على وجه التقريب اثر انهيار سد مأرب (١) .

كما اطلق على جبل عامل اسم بلاد بشارة (٢) في الكتب الحديثة . وبلاد

---

(١) عاملة بن سبا وهو اخو حمير وكهلان ويزعم بعض نسابة مصر انهم من قاسط اعتمادا على قول الاعشى .

أعامل حتى متى تذهبين	الى غير والدك الاكـــرم
ووالدكم قاسط فارجعوا	الى النسب الاتلد الاقدم

وسبأ : لكثرة كره وفره وكثرة غزواته (العقد المنضد ص ١٢٠ ـ ١٢١) . اما نسبة عاملة الى عبد شمس بن يشجب بن قحطان فمشكوك فيها ـ المؤلف.

انهار سد مأرب عندما ارسل الله رسولا الى سبأ فكذبوه فأرسل جرذا خرب السد فطغى السيل على خبائهم ومنازلهم فتفرقوا ونزحوا شمالا ؛ والعرم ، جمع عرمة وهو السكر الذي يحبس الماء . قال ابن الاعرابي : العرم السيل الذي لا يطاق . وقال قتادة ومقاتل : العرم : اسم وادي سبأ . . . انظر العقد المنضد ص ١١٨ .

(٢) يقسم جبل عامل الى قسمين : شمالي وجنوبي يفصل بينهما نهر الليطاني ويطلق على القسم الجنوبي منه اسم بلاد بشارة . وفي هذه التسمية اقوال متضاربة منهم من قال انه الامير بشارة بن معن وهو قول مضعوف اذ لم يعرف من سلالة معن من سمي باسم بشارة . ومنهم من قال انه بشارة بن مقبل القحطاني . وهو قول مضعوف كذلك ويطلق عليه وهو الاقرب الى الصحة انه الامير حسام الدين بشارة بن اسد بن مهلهل بن سليمان بن احمد بن سلامة العاملي. انظر محمد جابر : تاريخ جبل عامل ـ دار متن اللغة بيروت ـ بدون تاريخ ص ٢٨ . وابن فتحون في تاريخه .

المتاولة . اطلق اللقب على شيعة هذه الديار . وهو لقب حديث العهد لا يتجاوز القرن الثاني عشر للهجرة (١) .

اما السيد محسن الامين فيقول : هذا اللقب يختص بشيعة جبل عامل وبعلبك وجبل لبنان وتلقبهم بذلك : اما لانهم كانوا يقولون في حروبهم :«مت وليا لعلي » كما ذكر الشيخ محمد عبده في بعض كتاباته وشروحه . او لتوليهم عليا وابناءه عليهم السلام (٢) ، تخريج الشيخ محمد عبده :«مت وليا لعلي » مجرد تخريج لغوي موفق وان جانب الحقيقة التاريخية . وهذا يذكرني بتخريج آخر قام به الدكتور اسعد علي في معنى عاشوراء . شرح لطلاب قسم الدراسات العليا في الجامعة اليسوعية معناها كما يرى فقال :عاشوراء من عاش وراء : اي ان الحسين حين استشهد في واقعة كربلاء في اليوم العاشر من محرم فكأنه قد عاش حين قتل . . . وبما ان وراء تعني في اللغة : الحفيد او السبط فهو إذن ذلك الحفيد (السبط) الذي احيا امة بموته. . . تخريج فيه تَعمُّل ولكنه تخريج موفق من حيث حقيقة الحسين عليه السلام والنتائج التي ترتبت على استشهاده. . . وقد دعي جبل عامل بجبل الجليل وجبل الخليل (٣).

---

(١) يقول الشيخ علي الزين في كتابه : للبحث عن تاريخنا ما ملخصه : هذا اللقب وهذه الكلمة (متاولة) هي جمع متوال مشتق على غير قياس من تولى اي اتخذ وليا ومتبوعا من ولائهم لاهل البيت النبوي . . . او من توالى اي تتابع في الولاء الخ، ص ١٦٩ ط ١ .

(٢) محسن الامين : خطط جبل عامل ص ٥٢

وجبل عامل بين الاتراك والفرنسيين ص ٢٤ ـ محمد سعد .

(٣) الكامل لابن الاثير . وتاريخ ابي الفداء واليعقوبي ومعجم البلدان لياقوت وابن عساكر في تاريخ دمشق. وفي القاموس : جبل الجليل بالشام وفي تاج العروس : يمتد في ساحله الى=

يقول الشيخ علي الزين في كتابه : للبحث عن تاريخنا صفحة ١٦٤ : يبلغ متوسط طوله من الجنوب الى الشمال نحوا من ثمانين كيلو مترا ومتوسط عرضه نحو اربعين كيلو مترا فيكون مربع المساحة نحوا من ثلاثة آلاف كيلو متر.

السكان : ذكرنا ان اكثرية سكان جبل عامل هم من المسلمين على مذهب

=قرب مصر . . كان معاوية قد حبس فيه من اتهمهم بقتل عثمان كمحمد بن ابي عبد الله بن عمر وابن عديس وكريب بن ابرهة الخ . . اما ابو ذر الغفاري فقد نفي الى ساحل جبل عامل قبل مقتل عثمان . نفاه عثمان نفسه . واليوم نقول : جبل عامل وليس جبل عاملة للتخفيف ولكثرة الاستعمال كما يقول السيد محسن الامين في خططه . انظر : خطط جبل عامل ص ٥١ وذكره السمعاني في كتابه الانساب بانه جبل عاملة من العمالين ولم يذكر النسبة الى عاملة السبأي الخ . . وابن قتيبة في كتابه الشهير : الشعر والشعراء بأن عاملة هو حي بن قضاعة وكان ينزل بالشام وكان شاعرا محسنا . انتهى . ويحكى ان جماعة من الشعراء قصدوا اليه في منزله ليفاخروه فخرجت اليهم ابنة له صغيرة وقالت : تجمعتم من كل حدب وبلدة على واحد لا زلتم قرن واحد . . . . فرجعوا وقالوا : اذا كان هذا كلام ابنته الصغيرة فكيف هو . . . ونقول : ان السبب في كثرة الشعراء قديما وحديثا في جبل عامل عائد الى عاملة هذا . هذا اذا صحت تأثيرات عوامل الوراثة وهي غالبا صحيحة . المؤلف . وورد ذكره في تاريخ ابن فتحون عندما ذكر اليمين التي حلفها حسام الدين بشارة بن اسد الدين بن مهلهل للملك الافضل بن صلاح الدين . . ومهما يكن من امر فان بشارة هذا هو ـ على الارجح ـ الامير بشارة بن معن وآل معن اسرة عربية حكمت لبنان من ١٥١٦ ١٦٩٧ وعدد حكامها تسعة اشهرهم فخر الدين الثاني ، دخلت جبال عاملة تحت حكمه بطريقة الالتزام او التلزيم من الدولة العثمانية . كما كان يلتزمها غيره من امراء ذلك العصر كآل حرفوش وغيرهم . اما القول بأنه بشارة بن مقبل القحطاني فقد انفرد به مؤرخان هما : الشيخ علي سبيتي في كتابه الجوهر المجرد ووافقه في ذلك شبيب باشا الاسعد في ديوانه : العقد المنضد . غير انهما لم يذكرا المصدر الذي نقلا عنه .

الشيعة الامامية الاثني عشرية . اما عددهم فليست هناك احصائيات حديثة له . يقول محمد جابر آل صفا : وعدد نفوس (البلاد العاملية) ماية وخمسون الف نسمة . . . لكن هذا الرقم يعود لفترة ما قبل الاربعينات من هذا القرن . اما العدد الحالي فيفوق الرقم (١٥٠ الفا) بأربعة اضعاف على الاقل نظرا لميل العامليين عامة والشيعة منهم خاصة إلى التكاثر والانجاب باعداد كثيرة ، اذ لا يقل متوسط عدد افراد العائلة الواحدة عن سبعة إلى ستة افراد . . .

الوضع السياسي قديما وحديثا :

من الصعوبة بمكان وضع خط بياني لمجرى الاحداث السياسية وتفاعلاتها في جبل عامل فهذا امر عسير يكتنفه الغموض ويحيط به الابهام لقلة المستندات من جهة وتضاربها من جهة ثانية وضياع الوثائق التي تعين الباحث في التحليل والاستنتاج وايراد الادلة والبراهين وصولا إلى معرفة اوضاع البلاد وما طرأ عليها من شقاء وبلاء ومن نعيم وسعادة وهناء ، او لتكوين صورة واضحة لحياتها الاجتماعية والوطنية والقومية . . .

ومن الملفت ان هذه البقعة المعروفة بجبل عامل ذات ماض مجيد وتاريخ حافل بالاحداث ، فقد كانت مهدا للحضارات الانسانية القديمة ومنتجعا تأوي إليه الشعوب المضطهدة والافراد المنبوذون أو المنفيون . كما تجد فيه الشعوب الغالبة القوية موردا للثراء أو ملجأ للاستقرار .

أشارت نتائج الدراسات الاركلوجية إلى وجود طلائع الانسان الاول في هذه المنطقة والمسمى بانسان الكرمل القديم المماثل لانسان :«نيدرتال » مما ترك آثارا وملامح حضارية متمثلة بادوات حجرية في حفائر عدلون والعاقبية [١]

---

(١)عن دراسة قيمة للاستاذ علي فقيه ـ مدرسة جنة الطلبة ـ صور

اضافة إلى الحضارات الفينيقية والاشورية والبابلية والاغريقية والصليبية والاسلامية في مناطق متفرقة في الساحل والجبل .

ان منطقة جبل عامل [١]- كما ترى - منطقة تفاعل حضارى لغناها بالآثار والمؤلفات والمخطوطات الثمينة حيث نبغ فيها مخترعون وعلماء دين مجتهدون كبار كما كثر فيها الشعراء المجيدون وذواقة الشعر من عامة الشعب فلا تجدن مثقفا او شبه مثقف او حتى اميا الا وتراه يحفظ للشعراء العرب المشهورين قصائد وقصائد .

كما اشتهر فيه قادة وزعماء وفرسان يجيدون ركوب الخيل كما يجيدون قرض الشعر .

والاغرب المثير للدهشة ان هذا الغنى الفكري والانتاج الغزير في الشعر والفقه والفلسفة والرياضيات واللغة والادب لم يقابله غنى في التأريخ اذ لم نجد فيه مؤرخين مشهورين ولعل آثارهم لم تصل الينا ولا سيما القدامى منهم . . . حتى اصبح أحدنا ـ في عصرنا هذا ـ لا يعرف عن تاريخ بلاده القديم والحديث الا النزر القليل والمستقى من تواريخ المتأخرين الذين عانوا كثيرا في تأريخهم لجبل عامل قبل ثلاثمائة سنة . . .

ورغم كل ذلك بامكاننا تقسيم تاريخ جبل عامل السياسي إلى ثلاثة ادوار هي :

أ - الدور الاول القديم ،

---

(١) كما كان يعرف بجبل الجليل ايام النبي (ص) والخلفاء الراشدين دخل اهله الاسلام دون قتال لانهم عرب خلص ـ انظر كتاب : لبنان من الفتح الاسلامي حتى سقوط الدولة الاموية . تأليف الاستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري ـ طرابلس ١٩٩٠

ب- الدور الثاني المتوسط ،

ج- الدور الثالث الحديث ،

فالدور الاول القديم يبتدىء من العصر الذي هجرت فيه القبيلة : عاملة بن سبأ وطنها الاول بلاد اليمن في حادثة سد مأرب الشهيرة وسكنت هذه البلاد إلى حدود عام ٩٢٧ هجرية ١٥١٧ ميلادية .

والدور الثاني المتوسط يبتدىء من ٩٥٣ هجرية ١٥١٧م . وهي السنة التي رزحت فيها سوريا تحت حكم الاتراك العثمانيين بعد سقوط دولة المماليك إلى ١٢٨٢ هـ. ١٨٦٥ م . وهي السنة التي توفي فيها علي بك الاسعد من آل علي الصغير وهو آخر من حكم البلاد على الطريقة الاقطاعية . وبوفاته انتهى الحكم الاقطاعي في جبل عامل .

والدور الثالث الحديث : يبتدىء من ١٢٨٢ هـ. ١٨٦٥م. إلى ١٣٣٧هـ. ١٩١٨م. وفي هذا الدور حكم الاتراك جبل عامل حكما مباشرا مدة خمسة وخمسين عاما حتى السنة التي انتهت فيها الحرب العالمية الاولى وانهارت فيها الامبراطورية العثمانية (الرجل المريض) وانتقلت بلادنا إلى حكم الفرنسيين أو ما سمي بعهد الانتداب سنة ١٩٢٠ على اثر اعلان الجنرال غورو الفرنسي دولة لبنان الكبير . . .

في الدور الاول ورد ذكر جبل عامل او جبال عاملة او عاملة في كتب التاريخ الكبرى ، وقد مربه الرحالتان العربيان ابن جبير وابن بطوطة وناصر خسرو الفارسي ومما يؤسف له ان جميع هؤلاء لم يذكروا شيئا عن احوال سكانه وحكامه. وقد يعود السبب إلى ان هذا الجبل لم يكن له وضع سياسي خاص في تلك العصور خاصة وان السياسة الغاشمة التي كانت سائدة في عهد الدولتين

الاموية والعباسية من ظلم وجور واضطهاد لليمانيين والعلويين . وبنو عاملة يمانيون نسبا وقبيلا وعلويون شيعة مذهبا وسياسة .

وعندما تداعت اركان الدولة العباسية وخرجت سوريا عن حوزتها عام ٣٦٠ هجرية ٩٧٠ ميلادية تعاقب عليها ملوك وامراء كثيرون مثل بني طولون والاخشيديين وكان الحمدانيون ابرزهم واشدهم حرصا على بعث الامبراطورية العربية ومحاربة الروم . كما تعاقب عليها الفاطميون والعلويون والدولة الصلاحية والمماليك .

وكان جبل عامل حسب قول محمد جابر آل صفا ، في أوائل القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد يتبع تارة بانياس قاعدة وادي التيم وتارة نيابة صفد . واحيانا يكون حكومة قائمة بنفسها او نيابة او محافظة . وكثيرا ما كان يطلق على اسم المقاطعة او المملكة اسم القلعة . وكانت قلعة الشقيف في ذلك الزمن امنع قلعة بموقعها الشامخ وبنائها الضخم واسوارها المنيعة العالية ، وسردابها الذي ينتهي نزلا إلى الليطاني (لا يزال إلى الآن ولكنه مقفل ومتردم) لذلك سميت البلاد يومئذ «بمملكة الشقيف» وكانت في عهد الصليبيين منذ ٥٦٨هـ ١١٧٠ م. مركز الحاكم العام «قطورا » او الكونت وكان منها يحكم سائر قرى ودساكر جبل عامل وما جاورها من ساحل عكا إلى ساحل صيدا وفي ٦٦٧هـ ١٢٦٨ م. دحر الظاهر بيبرس الصليبيين واستولى على مملكة الشقيف. والذي يمكننا استنتاجه من اقوال المؤرخين : ابن فتحون وابن شداد والقلقشندي والأمير حيدر الشهابي : ان جبل عامل خضع لحكم الاسر الاقطاعية كبني بشارة وبني وائل في القرن السابع للهجرة الثالث عشر الميلادي وكانت تتنازع الحكم اسرتان هما آل سودون (اي سويدان اليوم بعد التحريف) وآل شكر .

اما آل سودون فهم اسرة حكمت جبل عامل او القسم الجنوبي منه في عهد المماليك . ولما انتصر السلطان سليم على المماليك في مرج دابق قرب سليم ابن سودون منه وانعم عليه ببعض الاراضي .

اما آل شكر فهم اسرة حسينية يتصل نسبها بالامام الثاني الحسن بن علي عليهما السلام نشأت في عيناتا ونازعت آل نصار الوائليين الحكم في عهد الشيخ حسين بن احمد النصار الوائلي حيث شنوا على الوائليين حربا اسفرت عن فوز آل شكر فقتلوا الشيخ حسين وشتتوا افراد اسرته ولم يسلم منهم الامرأة حامل - هي زوجة الشيخ حسين نفسه وكانت من بني عمه بني سالم . فلجأت إلى اهلها في البادية وأنجبت ولدا اسمته علي الصغير تبركا بأخ لها مات غريبا عن اهله . ولما شب علي الصغير استطاع ان ينتقم من آل شكر فهاجمهم في مقر دارهم : عيناتا وقانا واستعاد حكومة آبائه واجداده منهم (١) .

في الدور الثاني : وهو من اهم الادوار في تاريخ جبل عامل فيه برز الشيعة بروزا ظاهرا فارتفع شأنهم وامتد نفوذهم ولعبوا دورا هاما في تاريخ سوريا جمعاء يبتدىء هذا الدور بدخول الاتراك سوريا ٩٢٣ هـ ـ ١٥١٧م . بقيادة السلطان سليم الاول الذي لم يغير شيئا من اوضاعها بل استبدل كلمة نيابة بكلمة ايالة او ولاية يحكمها وال برتبة وزير ترسله العاصمة الآستانة .

اما حالة الشيعة في عصر الاتراك فكانت حالة مزرية تعسة حيث حلت بهم النكبات وكان أعظمها في عهد سليم الاول - هذا العاتي الجبار الذي اثار حربا على عباس الصفوي سلطان ايران فذبح اربعة واربعين الفا من الشيعة بلا شفقة

---

(١) انظر قصته المثيرة في مكان آخر من هذا الكتاب

ولا رحمة ولم يكن لهم ذنب سوى انهم على مذهب الشيعة الامامية . واصابت شروره مدينة حلب وكان معظم اهلها من الشيعة فقتل منهم عددا كبيرا ، فهاجر بعضهم إلى جبل عامل ومنهم آل بدر الدين المتصل نسبهم بأشراف آل زهرة فقهاء حلب [1] .

امتد النفي إلى الشيعة المقيمين في سوريا الجنوبية فاشتد الضغط عليهم بعد ان استصدر السلطان الفتاوى من بعض علماء دمشق باستحلال قتالهم وهدر دمائهم ومحو اثارهم واستبعاد علمائهم وان لا تقبل لهم توبة إلى آخر ما ورد في فتاوى الشيخ نوح حكيم الحنفي المثبتة في كتاب العقود. وقد اجمع المؤرخون على ان الادارة العثمانية طيلة اربعماية عام كانت اتعس إدارة منيت بها الاقطار التي دخلت تحت حكمهم ، حيث كانوا يعملون بسياسة (فرق تسد) .

وحيث عملوا ايضا على تأليب الطوائف المجاورة على ابناء جبل عامل لاختلافهم عنهم عرقا ومذهبا فتعرض جبل عامل لغارات بدو فلسطين من الجنوب والشرق واللبنانيين من الشمال . وقد خلق هذا الضغط شعبا حربيا يرى الموت حياة خالدة فكان الشعب العاملي من اسرع الشعوب لحمل السلاح .

ومما زادهم عزة وهيبة في نفوس الطوائف المجاورة انتصارهم العظيم في بعض المعارك مثل : معركة البحرة (الحولة) ، معركة كفررمان والنبطية ، معركة حارة صيدا وسهل الغازية وغيرها .

ففي المعركة الاولى : انتصرالشيعة بقيادة الشيخ ناصيف النصار على عثمان باشا والي دمشق فهرب تاركا سلاحه وخيوله .

---

(١) يتحدر من هذه العائلة آل شرف الدين في الزرارية . اوردنا هذه الحادثة مفصلة في فصل سابق هو فصل : اعلام آل شرف الدين في الزرارية .

وفي المعركة الثانية : انتصر زعيم آل صعب الشيخ علي بن احمد الفارس على الامير يوسف الشهابي فانهزم باتجاه بلاد الشوف وهو يلهث من الخوف والتعب اما في المعركة الثالثة : فقد تحالف الامير يوسف الشهابي وعثمان باشا والى جانبهما الجزار ضد الشيعة وظاهر العمر فانهزم الثلاثة بعد ان انتصر الشيعة. ولكن شاء القدر ان قتل ظاهر العمر وعين الجزار واليا على صيدا ١١٩٠ هـ ١٧٧٦م. فحول الجزار نظره الى جبل عامل يريد ان يخضعه لسلطته فهاجمه مرات عديدة ولكن دون جدوى وبقيت الحالة بين كر وفر إلى ان زلت قدم جواد الشيخ ناصيف النصار قرب بلدة يارون وعاجله بعض الجند باطلاق الرصاص فخر قتيلا ، ومنذ ذلك التاريخ سقطت الحكومة الاقطاعية الاولى بحصونها وقلاعها ١١٩٥ هـ ١٧٨٠ م .

وهنا اكتسحت جنود الجزار البلاد فخربت القرى ودمرت المنازل واحرقت المكتبات فشكا علماء جبل عامل إلى الاستانة ولكن حكومة الاستانة انتقمت من موقعي الشكوى «فاسرف الجزار في القتل والذبح والسلب والخنق إلى ان هاجر العلماء إلى البلاد الاسلامية النائية » كالهند والعراق وايران وأفغان والبعض إلى الاناضول وحلب وبعضهم قصد عكار فانزلهم حاكمها علي بك الاسعد المرعي في دار لم تزل حتى الآن تعرف بدار العشائر «قلعة البيرة قرب القبيات » .

وعلى اثر هذه الحوادث المفجعة التي قام بها الجزار كان لا بد من التغيير في اسلوب المقاومة فاجتمع في شحور جماعة من اعيان الشيعة واتفقوا على الكفاح وانقاذ البقية الباقية من البلاد . فاعتمدوا اسلوب حرب العصابات التي كانت بشكل فرق يقودها الشيخ حمزة بن محمد النصار من آل علي الصغير فهاجمت هذه الفرق حاكم البلاد العام في تبنين من قبل الجزار وقتلوه ذبحا .

وبقيت البلاد تغلي إلى ان هلك الطاغية الجزار سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م.
وتم تعيين سليم باشا ثم سليمان باشا خلفا له فاتسعت حرب العصابات حتى شملت بلاد عكا وصفد ، فرأى سليمان باشا أنه لا بد من مفاوضة الثوار وتوقيع اتفاق معهم ، فتدخل الامير بشير الشهابي واقنع الثوار بالهدوء . فاستدعى سليمان باشا إلى عكا الشيخ علي الفارسي عميد آل صعب واقامه حاكما عاما في قلعة تبنين بموجب اتفاق عقد في بيت الدين بعد العفو عن كافة الثائرين .

وقد برزت في هذه الفترة مشكلة تفكير محمد علي باشا في مصر بتوسيع حدود دولته حيث ارسل سنة ١٨٣١ حملة بقيادة ولده ابراهيم باشا لاحتلال بلاد الشام فاستولى عليها وقسمها إلى مقاطعات والحق جبل عامل بجبل لبنان ، وأميره يومذاك الامير بشير الشهابي الثاني . ولى الامير بشير الشهابي الثاني ولده الامير مجيد ادارة جبل عامل وكان شابا غرا فصب عضبه على الشيعة وارهقهم ظلما ، فثار سكان جبل عامل بقيادة حسين بك ابن الشيخ شبيب بن الشيخ علي الفارس من آل صعب وأخوه محمد علي بك من ١٢٥٢ هـ ١٨٣٦ م إلى ١٢٥٥هـ ١٨٣٩ م ، فهاجموا مراكز الحكومة وطردوا عمالها ونكلوا بجنودها.
وقد وشى أحد مشايخ الدروز عليهم خلال اجتماعهم في منزل كانوا فيه فنجا محمد علي بك واعتقل حسين بك . وقد صور الشهابيون للمصريين أن بلاد عامل بلاد ثائرة وشعب متمرد ، يجب أن يحكم بالشدة والبطش ، فنكلوا بالزعماء وزجوا معظمهم في السجون ، فقامت الثورات في جبل عامل نتيجة الضغط والاضطهاد ومنها ثورة حسين بك الشبيب وأخيه محمد علي بك وثورة حمد البيك المحمود من آل علي الصغير الذي اصطدم بالامير مجيد الشهابي عند جسر القاقعية ، وانضم حمد البيك إلى الجنود العثمانيين فعينه عزت باشا شيخ

مشايخ بلاد بشارة وعهد اليه بمحاربة الجيش المصري فانتصر في رميش واستولى على صفد وطبريا والناصرة وأخرج الاسرى والسجناء من سجون عكا ولما انقضى امر المصريين وعادت البلاد إلى حكم الاتراك اغدقت الدولة العثمانية على حمد البيك العطايا وفوضت إليه حكومة جبل عامل كما كانت لاسلافه من قبل . وقد وقف مع سائر عشائر جبل عامل موقفا شريفا من الحرب الاهلية سنة ١٨٦٠ م . بين الدروز والنصارى حيث التجأ كثيرون من منكوبي النصارى إلى جبل عامل فحماهم الشيعة ودافعوا عنهم .

في الدور الثالث : طويت صفحة استقلال جبل عامل الداخلي سنة ١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م فعمد الاتراك إلى اقصاء الزعماء ورجال الاقطاع عن الحكم وساروا في بسياسة الافقار فوضعوا الرسوم على الاراضي والبيوت والطرق فبارت الارض وكثرت البطالة وعم الفساد والفقر ، وسنوا ايضا قانون التجنيد الاجباري فخسرت البلاد مالها ورجالها ، اما بالنسبة للعلم والتعليم فقد انحصر في تعليم القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة والحساب وازداد جبل عامل شقاء وتعاسة بسبب الخلافات بين زعمائه وقد تعدى ذلك الخلاف إلى طبقات الاهالي :

ففي الجنوب كان الخلاف بين آل الصغير وآل الزين وآل فرحات وآل العبد الله وفي الشمال ، كان بين آل صعب وآل صفا وآل جابر وآل قبيسي .

ثم انتعش جبل عامل في عهد مدحت باشا ، فتوطد الامن بعد ان عطف على ابناء العشائر فقربهم إليه ومنح الوظائف لزعماء آل الصغير مثل خليل بك الاسعد الذي وصل إلى رتبة متصرف للواء البلقاء - مركزه نابلس - وقلما وصل إلى هذا المنصب موظف من ابناء العرب وخاصة ابناء الشيعة .

ولكن ذلك لم يدم طويلا حيث ساد الجور وتفاقم الظلم في العهد

الحميدي والعهد الاتحادي فاشتد نفور الشعب من الدولة وتربصوا بها الدوائر فاغتنم الاحرار فرصة النفور من الحكومة وانشغالها في الحرب للعمل على ايقاظ الحركة العربية الثورية فألفوا فروعا لجمعية الثورة العربية في النبطية وصيدا ولكن هذه الجمعيات لم يكتب لها النجاح لذيوع سرها نتيجة الخلافات المحلية بين الاعيان وخاصة بين آل الصلح وآل الاسعد فكان رد جمال باشا السفاح اقامة المشانق للوطنيين من أجل خنق النهضة العربية وقتل كل ساع بها .

وعندما اعلن الشريف حسين استقلاله في سنة ١٣٣٤هـ ١٩١٦ م عن الدولة العثمانية أخذ الاتحاديون يستميلون اليهم رجالات الشام واستبدلوا الشدة باللين ، ولكن الناس كانوا ينتظرون الفرج ويعلقون الآمال الواسعة على مساعي الشريف حسين ، وعندما سقطت القدس وبلاد الشام في حوزة الحلفاء استاء الناس واشتد سخطهم لانفراد الفرنسيين بادارة البلاد وراجت سوق الجواسيس وكثرت تقاريرهم بحق الاحرار الوطنيين الذين نالهم الارهاق في العهدين التركي والفرنسي ، وقد استفاق الناس في صباح ذات يوم في النبطية على اعلانات ومناشير ثورية تدعو لطرد الفرنسيين من ربوع جبل عامل ، وتبعها تأليف عصابات ثورية في كافة البلاد لمقاومة موظفي الحكومة ومنع الاهالي من دفع الضرائب فسادت الفوضى واختل الامن وتعطلت المصالح . وبعد ان استفحل امر الثوار واشتد استياء عقلاء البلاد من هذه الحالة ، أرسل كامل بك الاسعد يدعو الاعيان المفكرين لعقد مؤتمر عاملي من ابناء الشيعة على رأس نهر الحجير في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٠ ، حيث تم الاتفاق على رفض الدخول تحت حماية او انتداب فرنسا والانضمام للوحدة السورية وانتخب السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد عبد الحسين نور الدين للسفر إلى دمشق لرفع القرار للحكومة السورية

ولكن بعض الموظفين والملتفين حول الحاكم الفرنسي من بيت العازوري في جزين وبيت نور في صور أشاعوا ان ذلك المؤتمر عقد للتنكيل بالمسيحيين فشرعوا بتحريض اهل القرى المسيحية في جنوب جبل عامل لمناوأة الشيعة وهم يعلمون ان المسيحيين في تلك الجهة أقلية ضئيلة عاشت بسلام مع الشيعة قرونا عديدة متآخية متصافية وعلى أتم وفاق .

وقد شاءت الدسائس ان لا تبقي هذا الوفاق حيث اخذ البسطاء السذج من الشبان المسيحيين بالاعتداء على بعض ابناء السبيل الشيعة ، فكانت فاجعة عين ابل، وتفاقم الامر بعد ذلك فقطعت الطرق وهاجم الثوار مواقع المحتلين في مرجعيون والنبطية ومصيلح .

ورأى الفرنسيون ان الفرصة سانحة للتظاهر بحماية المسيحيين فجردوا حملة إلى صور وتبنين وبنت جبيل وتولين والحولة والطيبة ، فغادر كامل بك الاسعد البلاد قاصدا دمشق بطريق فلسطين الجولان . وهكذا انفرد جبل عامل بهذه المصائب ولم يشاركه فيها أحد من اخوانه وجيرانه من بقية الطوائف .

الوضع الاقتصادي : كان الوضع الاقتصادي متأثرا بالاحوال السياسية ومزاج الحاكم المتسلط على شؤون الرعية ، وكان للحركات الثورية تأثيرها المباشر خاصة على الفلاح ، عصب الحياة الاقتصادية ، فكلما عصفت بالحكم اضطرابات داخلية أو خارجية شدد الحكم قبضته على الشعب . وبما ان التقلبات السياسية قبل الحكم العثماني وبعده كانت متشابهة فإن الاوضاع الزراعية والصناعية والتجارية كانت متشابهة ايضا .

فعلى صعيد الزراعة : كانت الزراعة بعلية من اجل الاكتفاء الذاتي تعتمد على المحراث الخشبي ، تتمثل في انتاج القمح والشعير والاشجار المثمرة والبقول

وبعض الازهار والتبغ وعندما اصبحت بلاد عاملة خاضعة للحكم العثماني خضع القطاع الزراعي لنظام الملكية الزراعية - ذلك ان الدولة جعلت القطاع الزراعي خاضعاً لها، وبذلك حلت محل المالك الاصيل وحولت الانتاج اليها بطريقة غير مباشرة ، ومن اجل تغطية نفقات الجيش التركي عمدت الدولة إلى استصدار نظامي العشر والميري فأدى هذا النظام إلى هجرة الكثيرين من المزارعين إلى المدن أو إلى الخارج فتعرضت الارض للبوار ووصل القطاع الزراعي إلى حالة مزرية من الضعف والاهمال .

على صعيد التجارة : كانت التجارة عبارة عن تبادل السلع والمنتوجات الزراعية بشكل متايضة على الصعيد الداخلي ، أما بالنسبة للتجارة الخارجية فكانت المدن الساحلية وخاصة صيدا وصور مزدهرة منذ بداية الحكم الفاطمي حيث فرضت الضرائب الجمركية على السفن القادمة إلى بلاد الشام ، وكان لأمير كل مدينة سفن تجارية تحمل تجارته إلى بيزنطية وصقلية والغرب . وعندما خضعت بلادنا للحكم العثماني برزت بلاد الشام ممرا للطرق التجارية إلى بغداد وايران والخليج ومنتهى التجارة العاملية بين آسيا واوروبا وقد انتشر في مرفأ صور جماعة من اهل البندقية تستخدم العمال من البلاد العاملية لتفريغ قوافل التوابل والحرير المستورد من اصفهان والبصرة وبغداد ، وقد نشطت الحركة التجارية بشكل ملحوظ في مرفأي صيدا وصور على اثر المعاهدة التي عقدت سنة ١٧٤٠م بين السلطان محمود الاول والملك لويس الخامس عشر حيث كان يصدر عن طريقهما الحرير الطبيعي والصابون المصنوع من زيت الزيتون وهذا لا يعني ان سكان جبل عامل كانوا يعيشون في رخاء ، فالفقر كان مستشرياً بينهم وقد لاقت البلاد العاملية من سوء تصرف الجزار وظاهر العمر أقصى انواع الاحتكار التجاري فكثر سطو اللصوص البدو على القوافل المتجهة من مرفأي صور وصيدا إلى بلاد

الشام أو إلى جنوب لبنان . فألحق هذا السطو خسائر فادحة في الحركة التجارية كلها إلى ان حل الانكليز محل الفرنسيين للعمل في المرافىء .

على صعيد الصناعة : كانت الصناعة بدائية حرفية منزلية تعتمد على الجهد العضلي وتتمثل في صناعة السكاكين والصابون ونسج الحرير والصباغة وتزيين السروج والغلايين ، وصناعة الاقفال ، وكذلك عرفت صناعة الفخار والاواني الخشبية والحبال وصناعة الامشاط والموائد والمقاعد والقناديل والشماعد والمزهريات والعطور ، وكانت مدينة صور اهم مراكز هذه الصناعات بعد مدينة صيدا .

الوضع الاجتماعي : لقد عاش جبل عامل فيما مضى على غير ما هو عليه اليوم ، فقد كان ينقسم إلى طبقات وعشائر تختلف باختلاف مراتبها وكانت العادات والتقاليد في شماله وشرقه وغربه واحدة ، كان المقدمون والمشايخ والفلاحون ، الطبقات الاكثر شيوعا ، مع العلم ان جبل عامل لم يعرف طبقة الامراء كما عرفتها بقية المناطق .

المقدمون : كانوا اعلى الطبقات العاملية ومنهم آل صعب وآل الصغير .

المشايخ : كان يطلق عليهم المقاطعجية وقد انيطت بهم جباية الاموال .

الفلاحون : يمتهنون الفلاحة وعليهم تزويد الجيش بالجنود . كان العامليون يعتبرون الحروب من المناسبات التي تستدعي تألفهم واتحادهم حول العقيدة والشرف . فالعقيدة يمثلها القرآن الكريم والشرف يمثله السيف . واذا صمم القادة والزعماء على الحرب دفاعا أو هجوما أرسلوا رجالهم من الكشافة إلى عموم القرى ليعلنوا من قمم الجبال والروابي العالية والمشرفة الدعوة إلى ملاقاة الاعداء . والمناسبات الحربية التي تجمع الناس كانت غاية في الروعة والاعجاب . حيث

يتسلح الخدم والمزارعون والاقارب والاصدقاء تحت لواء الزعيم . وكان الحكام الاقطاعيون في جبل عامل يشكون من الفراغ الذي يملأ نهارهم . لذلك عمدوا إلى ابتكار العاب الفروسية وهي مبارزة الفرسان بواسطة الرماح والسيوف وسباق الخيل وكذلك كانوا يتباهون بالصيد ، اما اعيادهم فكانت تقتصر على احتفالاتهم بعيدي الفطر والاضحى حيث تزين قصور رجال الاقطاع والحكام لتستقبل جموع الناس بالحداء وقيام العاب الفروسية في ساحة الدار ، وكان العامليون يقبلون على الاعياد بمرح وغبطة فيحيونها جماعات ، مسترسلين في اللهو والرقص ، وضروب المسرات .

الحياة العلمية والادبية في جبل عامل :

كان جبل عامل في طليعة الاقطار العربية والاسلامية من حيث الشهرة العلمية ، فكان مركزا هاما من مراكز التدريس الديني الكبرى . يؤمه الطلاب من كل حدب وصوب ، وكانت المدارس فيه أشبه بالكليات منها بالمدارس العادية ، يدرس فيها الفقه والاصول والحكمة والكلام والتوحيد ، والمنطق والفلسفة القديمة، عدا العلوم العربية كالنحو والصرف والبيان واللغة والعروض وكان بعضهم يدرس علم الحساب والجبر والطب والهندسة وبعضهم يدرس الفقه والاصول على المذاهب الخمسة . وكانت حلقات التدريس مكتظة بطلاب الشيعة والسنة تجمعهم روح الهداية والتسامح والاخاء بينما كانت عوامل البغضاء والتفرقة تلعب دورها خارج هذه المجالس العلمية .

نشأة التدريس في جبل عامل : لا يمكن الجزم وتحديد الزمن الذي بدات فيه الحياة العلمية في جبل عامل لفقد المستندات والوثائق التاريخية، غير ان الذي يدور على الالسن ويتناقله الناس خلفا عن سلف ان انتشار مذهب الشيعة والعمل بفقه اهل البيت النبوي الكريم في جبل عامل بدأ في القرن الاول للهجرة وفي عصر الخلفاء الراشدين . في الوقت الذي نفي فيه الصحابي الجليل ابو ذر الغفارى [1] من الحجاز إلى بلاد الشام في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان . فنزل في بلاد عامله واتخذ لنفسه فيها مقامين في قريتي الصرفند على الساحل وفي ميس الجبل في الجهة الجنوبية الشرقية من جبل عامل على رابيه تطل على الاردن (ارض الحولة)، ومن هذين المقامين انبعثت روح التشيع في بني عاملة فاشتهر في جبل عامل جماعه من اهل العلم والمعرفه منهم الشيخ طومان بن صالح العاملي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ والشيخ صالح بن مشرف العاملي ، والشيخ مكي بن محمد حامد الجزيني وغيرهم . ولم يذكر المؤرخون انهم اسسوا مدرسة أو درسوا في معهد . والغالب ان عوامل السياسة الغاشمة كانت تمنع هؤلاء من الدراسة بالصور الظاهرة واللجوء إلى التكتم والتقية درءا للاضرار .

وبقيت الحالة هذه إلى ان تأسست المدرسة الاولى في جزين حيث انتظم فيها التدريس، وقد انشأها الامام العلامة الشيخ شمس الدين محمد بن مكي الجزيني العاملي المعروف بالشهيد الاول وهو من اشهر علماء الامامية على الاطلاق ، وأكثرهم علما واحاطة بالمعقول والمنقول. ولد في جزين ودرس في الحلة . ولما عاد إلى وطنه اسس المدرسة المذكورة (جزين) فقبض عليه في عهد

---

(١) اقرأ نبذة عنه في آخر فصول هذا الكتاب .

السلطان برقوق من ملوك دولة المماليك البرجية وسجن في قلعة دمشق احد عشر شهرا ثم قتل وصلب وأحرقت جثته ضحى الخميس في التاسع من جمادى الاول في سنة ٧٨٦هـ ١٣٨٤ م فاطلق عليه اسم الشهيد الاول لانه اول عالم قتل في سبيل الدين والعلم في جبل عامل .

وتعددت المدارس بعد وفاة الشهيد الاول فكانت مدرسة ميس الجبل اسسها العلامة الفقيه المحدث الشيخ علي بن عبد العاملي الميسي المتوفى سنة ٩٣٣هـ ١٥٢٦م وانتسب اليها اكثر من اربعماية طالب ، منهم العلامة العظيم الشهيد الثاني كما ورد في امل الآمل ومن ثم تأسست مدرسة ثالثة في الكرك ورابعة في بعلبك تدعى مدرسة النورية تولى التدريس فيها الامام زين الدين بن علي بن أحمد بن محمد بن جمال الدين بن تقي الدين صالح العاملي الجبي المعروف بالشهيد الثاني ، كان يعلم كثيرا من الفنون ويفتي لاهل كل مذهب بما يوافق مذهبهم وقد بلغ الغاية في الفقه والاصول والحديث والكلام والحكمة والمعقول والمنقول والهندسة والحساب والفلسفة وغيرها ، ولما طلبه السلطان استتر زمنا عن العيون في جنائن جبع يدون ويصنف وبعد الحاح السلطان باحضاره اليه ، رحل إلى الحجاز فقبضوا عليه في مكة وجاءوا به إلى القسطنطنية فقتلوه في سنة ٩٦٦هـ ١٥٥٨م وحملوا رأسه إلى السلطان .

ومن ثم تأسست مدرسة خامسة في شقراء وسادسة في الكوثرية وأخرى في جبع وحناويه وبنت جبيل وغيرها مثل مدرسة مجدل سلم وجويا وكفرا وعيناتا وانصار والنميرية والنبطية وشحور .

ان وجود المدارس يستوجب ايجاد مكتبات[1] تساعد الطلاب على المعرفة

---

(١) انظر : المدارس في جبل عامل ضمن فصل خاص اكثر تفصيلاً .

وتلقي العلوم ، وكان جبل عامل من القرن السادس الهجري، الثالث عشر الميلادي حافلا بانواع شتى من المكتبات الخاصة المملوكة واذا كانت مكتبات بغداد قد ذهبت بهجمة التتار التي قضت على اضخم تراث عربي ، فان جبل عامل قد اصيب بحملة الجزار الشهيرة حيث اوقعت هذه الحملة خسارة فادحة في الكتب المخطوطة النفيسة والكتب المطبوعة التي تكدست عند رجال الدين والعلماء والادباء والمفكرين والتي نقلت على ظهور الجمال إلى عكا لتكون وقودا لنيران الافران هناك .

وسرق منها ما سرق وما تبقى ذهب خلال حروب اللبنانيين العامليين . وهذه المكتبات كانت تسمى باسماء عائلات اصحابها ، وتتوزع في المدن والقرى، ففي جباع نجد مكتبة آل الحر وآل نعمة وفي شقراء مكتبة آل الامين [1] وفي كفرا مكتبة آل سبيتي وفي البياض مكتبة آل سليمان وفي حناويه مكتبة آل عز الدين اضافة إلى المكتبات العاملية الاخرى، لا بد لنا من ذكر بعض العلماء والشعراء والادباء والفقهاء العامليين مثل عبد المحسن الصوري الذي اشتهر بخفة دمه وسرعة بديهته والشيخ ابراهيم سليمان المفسر والمحدث والفقيه والاديب والشاعر وحسين عبد الصمد الهمذاني العاملي المعاصر للامام علي عليه السلام لذلك سمي صحابي الامام والذي وصلت شهرته إلى بلاد فارس فاستدعاه الشاه وقتئذ طهماسب الصفوي وفوض اليه مشيخة الاسلام لما رآه من فضله وغزارة علمه ، وزين الدين بن نور الدين العاملي الذي تتلمذ على يد الشهيد الاول محمد بن مكي فكان ملما بالعلم والابداع الفكري والايمان المليء بالتقى والورع وغيرهم وغيرهم من رجال الفقه والادب والشعر مثل ابراهيم العاملي البازوري

---

(١) احرق الاسرائليون هذه المكتبة الضخمة ابام الاجتياح الثاني ١٩٨٢

وابراهيم الحاريصي العاملي وزين الدين محمد بن العاملي والعلامة السيد عبد الحسين العاملي الصوري مؤلف كتاب المراجعات ومؤسس الكلية الجعفرية في صور وهي اكبر انجاز تربوي في تاريخ جبل عامل[1] والشيخ عبد الحسين صادق بن الشيخ ابراهيم صادق والسيد محسن الامين العاملي الشقرائي مؤلف كتاب اعيان الشيعة والشيخ حسين مغنية وغيرهم . وعلى سبيل الحصر نتوقف امام نبوغ المخترع العاملي الكبير حسن كامل الصباح الذي ولد في النبطية سنة ١٨٩٥ وتوفي في نيويورك سنة ١٩٣٥ اذ كان اشهر نابغة رياضي في الشرق الاوسط بل في العالم أجمع ، فقد كان فضلا عن تعمقه في العلوم الرياضية والطبيعية وخصوصا فرع الكهرباء منها ، يجيد خمس لغات هي العربية والتركية والانكليزية والفرنسية والالمانية ، وذكرت صحف المهجر بعد وفاته ان اختراعاته قد بلغت السبعين .

ولكن آماله وطموحه في تسخير اشعة الشمس المحرقة في الصحراء العربية لانارة المدن والقرى لم تتحقق بسبب موته المفاجىء إثر مؤامرة دبرها له بعض زملائه في الجامعة وشركة جنرال الكتريك وكلهم من اليهود . اضافة إلى كل هذا لا بد لنا ايضا من القاء نظرة على دور الصحافة البارز في احياء التراث العاملي من خلال مجلة العرفان سنة ١٩٠٩م وما تلاها من جرائد ومجلات مع التلميح إلى المطابع التي دخلت ارض عاملة سنة ١٩١٠ والتي انشأها احمد عارف الزين .

وإلى جانب هذه الظواهر العلمية ، قامت الجمعيات الادبية والمؤسسات الاجتماعية تشارك في بناء النهضة العاملية . ومن هذه الجمعيات : جمعية العلماء العامليين او الجمعية الخيرية العاملية في صيدا . وجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في النبطية وغيرها من الجمعيات التي قامت بتأسيس المدارس التي

---

(١) انظر نبذة عنه وعن جهاده في فصل الزرارية ـ صور من هذا الكتاب . ـ المؤلف ـ

لاتزال قائمة إلى اليوم منها مدارس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في صيدا والثانوية الجعفرية ومؤسساتها في صور والمدرسة الوطنية التي اسسها الخورى الياس عطية في صيدا اضافة إلى مدارس الارسالية في صور ومرجعيون وصيدا وجزين ، فخرجت هذه المدارس ولاتزال تخرج افواجا مثقفة توزع في انحاء المعمورة ليتفاعل الفكر العاملي هذا في البيئة العاملية اولا وفي جميع بقاع الارض ثانيا مثل مصر والعراق وبلاد فارس والهند وغرب افريقيا واوروبا واميركا فأعطى هذا التفاعل ولا يزال يعطي نتاجا حضاريا مليئا بالذوق الفني والغنى السخي بتراث اسلامي وعربي حتى اصبحت بلاد عاملة تهذي بثورة جديدة في موضوعات الكلمة المميزة بالخلق والابداع لتخلق في ضمير كل مبعد عن وطنه الحنين للعودة والارتباط بارض عاملة الطيبة المقدسة المعطاءة (١).

الحياة الاجتماعية في جبل عامل ، في العصر الحديث :

بما ان جبل عامل هو منطقة زراعية بالدرجة الاولى فقد نكب في مطلع هذا القرن إلى جانب الحرب العالمية الاولى التي تأثر بها العالم كله ، نكب بموجة الجراد الذي اتى على الاخضر واليابس فازدادت الحالة الاقتصادية سوءا وانتشرت البطالة وعم الفقر جميع الطبقات نتيجة لذلك، وزاد الطين بلة السياسة التركية الغاشمة الرامية إلى اخضاع العرب بشتى الوسائل . يقول محمد جابر : «ثم ساروا (الاتراك) على سياسة الإفقار وضربوا اقتصاديات البلاد ضربات اليمة

---

(١) من اعداد الزميلين : علي فقيه صور. ومحمد محي الدين . الزرارية .

فوضعوا الرسوم على الاراضي ونوعوا الضرائب . ثم قضت الحكومة على زراعة التبغ بالحصر ومنحت احتكارها للشركات الاجنبية وكانت المورد الوحيد لجبل عامل من زمن بعيد اذ لم يكن للجنوب اسواق رائجة خارج البلاد الخ... اضف إلى ذلك عمليات الابتزاز والرشوة يقوم بها عمال الدولة ، وجاءت الخدمة العسكرية الاجبارية التي فرضها الباب العالي على الطوائف الاسلامية وحدها والتي كانت مدتها عشرين سنة : ست منها تدعى عسكرية أو احتياطاً ، وثمان رديف وستة مستحفظ حتى خلت البلاد العاملية وخاصة من الرجال فلم يبق الا المرأة والصبي والشيخ الهرم والضرير الزمن ومن هو في حكمهم وجاء قانون «البدل النقدي» يدفعه الاغنياء وهكذا خسرت البلاد مالها ورجالها ، ويورد الدكتور كاظم الامين في اطروحته للدكتوراه ١٩٦٧ سببا آخر لفقر البلاد وهو وجود الاقطاعية «فالاقطاعيون الكبار والصغار وتجار المدن كانوا يستولون على ٩٠٪ من انتاج البلاد بينما لا يتجاوز عددهم الواحد في المئة من مجموع السكان. ولم يكن الفلاح يحصل على القليل الضرورى لبقائه رغم الانتاج الجيد الذى كانت تعطيه الارض » الخ .

كما انتشرت الاوبئة والامراض بشكل مخيف «فكان الذباب ينقل حمى التيفوئيد ، وكان القمل ينقل حمى التيفوس والجرذان حمى الطاعون . . . فكثرت الوفيات من حمى الملاريا التي انتشرت على اوسع نطاق » .

كما يصفها شعرا المؤرخ محمد جابر آل صفا بقوله :

اذا جئت القرى الفيتَ فيهـا	وطيس الجور يتقد اتقـادا
تبيت على الطوى غرثى وتمسي	بلا رمق فتكتحل السهـادا
ترى فيهـا نسـاء حاسـرات	جياع الجوف لا يلقين زادا

فحتى م السكوت وقد غدونا على الغبراء نفترش القتادا
وهاذي نار عسف الترك اودت بنا طزا فأصبحنا رمادا
فمن للخيل يملأها صهيلا ومن للحرب يعركها جلادا (١)

ناهيك بالجفاف وعدم سقوط الامطار واصابة الماشية بالامراض فنفق قسم كبير منها . كل هذه العوامل ادت إلى تردي الحالة الاقتصادية تردياً مخيفا . يصف هذه الحالة العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين في صفحات من حياتي، بقوله : «قلت الاقوات وغلت اسعارها غلاء عظيما فكان الفقراء يطوون اليوم تلو الآخر فتراهم خاوين مرسبين حتى ماتوا جوعا وكانت الموتى مطروحة في البيوت والشوارع العامة وفي البراري » طعما للوحوش الضارية(٢) . . .

ولم تسلم الزرارية بالطبع من هذا الكابوس فقد روى لي المرحوم والدنا ان امرأة وجدت في بيتها ميتة مخشبة منذ مدة لم يخرجها احد ليدفنها . كما روى لي انه هو وابن خؤولته السيد حسين هاشم قد من الله عليهما بشيء من الوفر فاستأجرا طاحونة المغيرية على الليطاني واستطاعا ان يؤمنا قوت العيال بما يأخذانه من اجرة الطحن (٣) حتى ان ناصيف باشا الاسعد سيد اقليم الشومر والذي كان

---

(١) ـ محمد جابر : تاريخ جبل عامل ص ١٦٦
ـ نفس المصدر ص ١٦٧
(٢) السيد عبد الحسين شرف الدين ، صفحات من حياته مجلة الالواح بيروت عدد ١٤ ص ٣
ـ تاريخ جبل عامل ص ١٦٨ ـ محمد جابر.
ـ تاريخ جباع ط ١ ص ٤٣٦ ـ علي مروه.
(٣) في اواخر الثلاثينات انشآ في الزرارية طاحونة تدار بواسطة موتور على الكاز اولا بعد ان طوراها اشتريا لها موتورا ضخما وكانت تدار بواسطة المازوت ولها ثلاثة «حجارة» للطحن كبيرة تؤمن طحن الحبوب للبلدة وللجوار .

مقر حكمه الاقطاعي في الزرارية اضطر ايام الحرب والجراد الى ان ينزل بنفسه الى تلك الطاحونه ليأخذ منها ما يسد رمقه من طحين القمح والشعير . . . (١)

الهجرة او الضرب في الآفاق البعيدة : (٢)

من الطبيعي ان يهاجر من بقي من رجال قبل الحرب والجراد وبعدهما إلى افريقيا اولا ومنهم من رمت به بواخر الشحن على شواطىء الامازون (اميركا اللاتينية كالبرازيل والارجنتين) والمسيسبي (أو اميركا الشمالية كالولايات المتحدة الاميركية ، وخاصة في ديترويت - ميتشغن) وكان اكثر المهاجرين اللبنانيين من العامليين لكثرة العوز وشدة الاضطهاد العثماني والفرنسي لاسباب طائفية وسياسية معروفة مررنا على ذكرها يدفعهم إلى تلك المغامرة طموحهم ورفضهم ان يبقوا تحت نير الاضطهاد الاقطاعي فيموتوا مع عيالهم هكذا موتا مجانيا بطيئا - واذا كان لا بد من الموت في مهاجرهم فليموتوا احراراً عاملين مجاهدين .

متى تشيع اهل جبل عامل (*) :

يرجع تاريخ تشيع اهل جبل عامل إلى زمن بعيد ، إلى الحقبة التي نفي فيها الصحابي الشهير ابو ذر الغفاري . فهم اذن اقدم من تشيع بعد ظهور

(١) كانت بعض العائلات لكي لا تقضي جوعا تنتظر روث بعض الدواب لتخرج منه بقايا حبوب يجففونها ثم يطحنونها !!

(٢) انظر فصل : الهجرة الى المجهول من هذا الكتاب .

(*) (انظر نبذة عن أبي ذر في هذا الكتاب)

الاسلام. . . فقد روي انه لما قضى رسول الله (ص) لم يكن من شيعة علي (ع) الا اربعة مخلصون هم : سلمان والمقداد وابو ذر وعمار بن ياسر . . . ثم تبعهم جماعة قليلون لا يتجاوزون الاثني عشر ، واحيانا يزيدون ويكثرون بالتدريج حتى بلغوا الفا واكثر . ثم في زمن عثمان لما اخرج ابو ذر إلى الشام بقي اياما فتشيع جماعة كثيرة . . . فضاق به معاوية فأخرجه إلى القرى فوقع في جبل عامل فتشيع أهله منذ ذلك الحين . ثم لما قتل عثمان وخرج امير المؤمنين علي من المدينة إلى البصرة ومنها إلى الكوفة تشيع اكثر اهلها ومَن حولها . ولما تفرقت عمال وشيعته كان كل من دخل منهم بلادا تشيع كثير من اهلها . وذلك مذكور في التواريخ والاحاديث [1] وهكذا يظهر بوضوح انه لم يسبق اهل جبل عامل إلى التشيع الا جماعة محصورون من اهل المدينة ، فقد كان ايضا في الطائف ومكة واليمن والعراق والعجم شيعة قليلون وكان اكثر الشيعة في ذلك الوقت اهل جبل عامل [2] .

المكانة الروحية لهذه البلاد :

يقول مؤلف امل الآمل : وهي (اي بلاد عاملة) بلاد مباركة كما يظهر من سورة الاسراء الآية الاولى في قوله تعالى : سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله . وهذا يعني ان بلاد عاملة

---

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ١٧٨ . وكذلك في امل الآمل ص ١٣ ج ١

(٢) امل الآمل ص ١٣ و ١٤ ج ١

داخلة جغرافيا ضمن هذا (الحول) وهي فعلا متصلة ببلاد بيت المقدس . وكانت تسمى - ايام الدولة الاسلامية الاولى : جبال الجليل [1] .

وقد ورد في بعض الروايات المحققة ان ابراهيم (ع) لما دعا ربه بقوله : ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك الحرام . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات [2] امر الله جبرائيل فاقتطع قطعة من الارض (وفي بعض النسخ قطعة من الاردن وهي كورة من الشام) فطاف بها حول البيت سبعا فسميت الطائف . ثم وضعها في مكانها المعروف الآن . فكانت الثمرات تجلب منها إلى مكة وما حولها إلى الآن . وقد روى الصدوق في كتاب العلل عن ابيه عن سعد بن عبد الله عن ابراهيم بن مهريار عن اخيه علي باسناده قال : قال ابو الحسن عليه السلام في الطائف : اتدري لم سمي الطائف ، قلت : لا . قال : ان ابراهيم عليه السلام دعا ربه (الآية) وجاء في القاموس :« اردن بضمتين وتشديد النون كورة بالشام وموضعها الآن معروف . وأثر اقتلاع تلك الارض ظاهر في جبل عامل » .

ويتابع الحر العاملي قوله في كتابه امل الآمل : ومن ميزات هذا الجبل كثرة من خرج منه من العلماء والفضلاء والمحققين والمؤلفين والشعراء وارباب الكمالات. ولا يكاد يوجد من اهل بلاد اخرى من علماء الامامية اكثر منهم ولا احسن تأليفا وتصنيفا . . . » وجاء في كتاب مجالس المؤمنين لصاحبه القاضي

---

(١) لبنان منذ الفتح الاسلامي حتى سقوط الدولة الاموية ص ١٦٢ للاستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري ـ م . عروس برس ـ طرابلس ١٩٩٠

(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٧ .

نور الله [1] : انه ما من قرية هناك الا وقد خرج منها جماعة من علماء الامامية وفقهائهم . » وعلى هذا يمكننا ان ندخل الزرارية في عداد تلك القرى العاملية التي انجبت في الماضي ولاتزال تنجب العديد من العلماء والادباء والشعراء المرموقين [2]. ويتابع صاحب مجالس المؤمنين قائلا :« وقد سمعت من بعض مشايخنا انه اجتمع في جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون مجتهدا في عصر الشهيد الاول وما قاربه.

وستعرف ان شاء الله ان عدد علمائهم يقارب خمس عدد علماء المتأخرين وكذا مؤلفاتهم بالنسبة إلى مؤلفات الباقين . مع ان بلادهم بالنسبة إلى باقي البلدان اقل من عشر العشر اعني جزءاً من مائة جزء من البلدان (الاسلامية) فظهر ما قلناه ».

وهناك حديث عن الصادق (ع) يمدح فيه اهل جبل عامل ويثني عليهم [3] وفي هذا حسبهم . وفي عصرنا هذا ينبغ، بين الحين والحين او كل نصف قرن على الاكثر علماء عامليون افذاذ وادباء وشعراء مرموقون يتجاوزون في نتاجهم ومواقفهم حدود الاقليمية الضيقة إلى العالمية الانسانية الرحبة.

وزادوا على كل هذا روح المقاومة وحب الاستشهاد في سبيل خلاص الوطن من الاحتلال الاسرائيلي وقبله جميع انواع الاحتلالات من ايوبية وجزارية ومملوكية وعثمانية وفرنسية واقطاعية . . . الخ . . . وفي سبيل القضية العربية

---

(١) مجالس المؤمنين ص٣١

(٢) وسنترجم لبعض هؤلاء الاعلام في حينه . المؤلف .

(٣) امل الآمل ص ١٦

الكبرى . هكذا كانوا ، منذ كانوا ، وسيظلون . . فروح المقاوم الاول ابي ذر تهيمن عليهم ودم الحسين بن علي يسري في عروقهم . . .

فمن هو هذا الصحابي الكبير ؟

في تاريخ اليعقوبي صفحة ٢٣ : ابو ذر هو رابع صحابي آمن بالاسلام ، على رأسهم : زوج النبي (ص) خديجة ام المؤمنين - الامام علي - زيد بن حارثة (وقيل ابو بكر) ثم ابو ذر . فيصبح الخامس (١) .

وابو ذر هو : جندب بن جنادة . وقيل اسمه برير بن جنادة وقيل : جندب بن سكن ، وقيل : السكن بن جنادة الا ان الاصح الاشهر هو جندب بن جنادة اذ لم يعرف في كتب التراجم بغير هذا الاسم .

بايع رسول الله (٢) على الا تأخذه في الله لومة لائم ، وعلى ان يقول الحق ولو كان مرا (٣)

عراقة اللغة العربية الفصحى في جبل عامل :

من الباحثين في الالسنية العربية ومسار اللغة العربية الفصحى في الاقاليم العربية شرقا وغربا وكيف طغت عليها اللغات المحكية او اللهجات المليئة بالدخيل

---

(١) ابو ذر الغفارى ص ١٢ ، الشيخ محمد جواد آل الفقيه منشورات دار الفنون بيروت ١٩٨٠ م ١٤٠٠ هـ انظر دراسة مفردة عن هذا الصحابي الكبير في احد فصول هذا الكتاب .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٧

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠ ـ انظر نبذة موسعة عن ابي ذر في هذا الكتاب

والحرف ، من هؤلاء من يقول ان الاقليم الوحيد الذي حافظ على نقاء لغته العربية حتى في لغته المحكية هو اقليم جبل عامل .

وكذلك المستشرق اليسوعي هنري فليش والدكتور احمد ابو سعد والدكتور يوسف الحوراني الذي يقول عند حديثه عن ابي ذر الغفاري ان معاوية ابعد ابا ذر إلى جبل عامل تخلصا منه ولايزال هناك مسجد في بلدة ميس الجبل ومسجد في بلدة الصرفند يسميان بمسجد ابي ذر وربما هما يعودان إلى عهده ، إلى ان يقول :«وفي بحث للعالم المؤرخ السيد محسن الامين عن تشيع الجنوب اللبناني يلاحظ اهمال المؤرخين لذكر هذه الحركة فيرى امكان عدم اطلاعهم عليها (خطط جبل عامل صفحة ٦٦) ومثل هذا القول هو شهادة على استقلال البيئة الجنوبية عما يتاخمها من ارض فلسطين بل ان اللغة العربية المنتشرة هناك (اي في جبل عامل) لا تزال اصفى لغة موجودة في الاقطار العربية . وعاميتها الحالية تحتوى على الكثير من الالفاظ المعجمية المهملة . . . الخ [١] » . جاء في جريدة السفير (العدد ٦٥٧٥/ ٨/ ٩/ ٩٣) كلمة للأديب والمؤرخ الاسلامي المعروف السيد جعفر شرف الدين ، يوجز فيها خصائص جبل عامل دافعا عنه ومدافعا . قال :

« حتى اطلاق اسم الجنوب على جبل عامل ظلم وحرمان له من تاريخه المجيد المفعم بالعلم والعمل ورأسه الجهاد في سبيل الحفاظ عليه كمعلم للبطولة والنضال وحفظ الديار والذمار والذود عنه ركنا من اركان الاسلام ، ورمزا من رموز العروبة ، وحرزا للبنان واللبنانيين وصوتا صارخا بالوحدة والتوحيد على

---

(١) لبنان في قيم تاريخه ط ١ ص ٥٧ يوسف الحوراني ـ دار المشرق ـ بيروت لبنان

جميع المستويات الوطنية والقومية . وقد راهن الانتداب ، وهو احد وجهي الاستعمار على طمس تاريخ جبل عامل بتبديل اسمه ، حتى اذا توغل احفادنا وذرارينا في عمق الزمن نسوا أن تاريخهم مرتبط بجبل ابي ذر : جبل عامل ، جبل العلماء والشهداء جبل الشهيدين الاول والثاني ، جبل العلمين بهاء الدين العاملي والحر العاملي ، والمرجعين الشيخ عبد الله نعمة والشيخ محمد علي عز الدين . جبل اقطاب العلم والجهاد : الشيخ موسى شرارة والسيد علي محمود الامين والسيد نجيب فضل الله . جبل ناصف النصار وحمد البيك . جبل معارك الحرية والاستقلال . من وادي الحجير إلى حادثة شيحين الراهنة التي هزت كيان العدو تتويجا للعمليات الاستشهادية التي هزمت مشاة الفرنسيين ومظليي الاميركيين وباخرتهم العملاقة نيو جرسي وردت حجافل العدو خاسرة حسيرة

– هذا التاريخ الجديد الذي عشناه يوميا هو امتداد لتاريخ جبل عامل واحياء له ودعوة صارخة لاسترجاع الاسم الحقيقي لجنوب لبنان ألا وهو : جبل عامل بالبنط العريض الخ . . . »

الروح الوطنية الاصيلة عند العامليين :

الاحداث الكبرى :

اثبتت الاحداث الكبرى التي مر بها لبنان والمنطقة العربية ان العامليين في غالبيتهم العظمى، ولا سيما لدى المتنورين منهم ، يتمتعون بروح وطنية وقومية تطغى ، في الازمات ، على كل ما عداها . وما كان ذلك التشرذم الطائفي عندهم والذي شهدته الساحة العاملية اخيرا ، الا انكفاء عابرا . وموجة سوداء

ستنحسر حتما عن شواطئنا لانها مفروضة علينا فرضا بحكم تيارات ومؤامرات خارجية وداخلية . فمن المؤكد ، تاريخيا ، ان العامليين قد اسهموا اسهاما فعالا في كل حركة قومية عربية ووحدوية مخلصة . فانخرطوا منذ مطلع هذا القرن وحتى الآن في كل دعوة للوحدة والتوحيد والاتحاد حين شاركوا في الثورات المسلحة ضد كل الطغاة والغزاة من الجزار إلى فخر الدين إلى المماليك والصليبيين والعثمانيين والفرنسيين المنتدبين وحتى عهد شمعون . كما انخرطوا اثناء احداث ١٩٧٥ وحتى قبل ذلك في شتى التنظيمات والاحزاب الوطنية . بل ان بعض هذه التنظيمات ما قامت الا لأن عمودها الفقري كان من الشبان العامليين (١) .

وفي حديثه عن نضال العامليين ضد الصليبيين يقول الدكتور محمد مخزوم :« دخلت الجيوش الصليبية لبنان من شماله اواخر القرن الحادي عشر للميلاد وسارت على طريق الساحل اللبناني حتى مدينة صيدا بوابة جبل عامل التي امتنع اهلها عن التفاوض معهم على الرغم من تهديد الصليبيين باتلاف الزرع وتخريب البساتين (٢) ولما سقطت القدس اصبح لا بد امام الصليبيين من السيطرة على الساحل اللبناني لضمان وصول النجدات من اوروبا ، فهاجموا مدنه وقراه

---

(١) من وحي محاضرة قيمة بعنوان : جبل عامل والعروبة القاها المفكر العروبي ومنظر القومية العربية الاستاذ منح الصلح في مدينة النبطية ، اثبت فيها بالادلة والشواهد عروبة هذا الجبل منذ كان والى اليوم . وهناك ثلة من المؤرخين الثقاة تحفل كتبهم بالشواهد الكثيرة على عروبة هذا الجبل وبعده عن الطائفية والمذهبية والنزعات القبلية الطبقية . فلتطلب في مظانها ـ المؤلف ـ

(٢) انظر كتاب صفحات من تاريخ جبل عامل ص ٣٤ منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي. ١٩٧٩ ـ بيروت ـ

حيث سقطت بأيديهم على التوالي كل من جبيل وطرابلس ثم بيروت . اما منطقة جبل عامل فقد امتنعت على الصليبيين وذلك لوصول النجدات اليها من البر بواسطة السلاجقة ، ومن البحر بواسطة الفاطميين ، لذا صمم الصليبيون على فتحها للضرورات التالية :

اولا : انها تشكل الظهر العسكري لمدينة صور التي تصلها الامدادات من دمشق .

ثانيا : انها غنية بالموارد الزراعية التي تفتقر اليها «مملكة بيت المقدس» .

ثالثا : انها معبر للقوافل التجارية حيث تربط منطقة دمشق بميناء صور .

رابعا : انها تتحكم عسكريا بالممرات الشمالية لامارة الجليل التي تعتبر من الامارات الصليبية المهمة .

وهكذا بدأ التغلغل الصليبي ينتشر (ولكن بصعوبة) في منطقة جبل عامل تدريجيا . . . فأقاموا القلاع والحصون الكثيرة التي من اشهرها قلعة تبنين وقلعة الشقيف ارنون وقلعة الاسكندرونة وحصن تل المعشوق لتشديد الحصار على مدينة صور» . الخ . . .

انه غيض من فيض يشير بوضوح على اصالة العامليين وعراقتهم في العروبة ومقاومتهم التاريخية لكل غاز وظالم . . . وهذه هي الموجة الناصرية خير شاهد على تلك الروح الوطنية والقومية المتأصلة في نفوس العامليين حين تقبلوا الخوض في غمراتها بكل اندفاع واخلاص بلغ حد الاستشهاد في سبيلها . وشواهدنا على ذلك يضيق بها المجال هنا . أكتفي بشاهد واحد بسيط عشته وشاهدته لانه جرى مع المرحوم والدنا :

اذكر انني شاهدت يوما ، المرحوم والدنا يحمل تحت إبطه شيئا ثقيلا مغطى

بقطعة قماش ، وعندما وصل إلى البيت ، وكان آتيا من صيدا ، كشف عن هذا الشيء فاذا هو تمثال نصفي لرأس القائد العربي جمال عبد الناصر . . . وعندما رآه بعض المشايخ «والسادة» لفتوا نظر الوالد إلى ان الشرع الاسلامي يحرم اقتناء التماثيل والمجسدات ، ايا تكن وكان هو يعلم ذلك بالطبع لانه كان رجل دين وفقه ومعرفة دينية واسعة . لكن العاطفة الوطنية والقومية تغلبت عنده على كل ما عداها من عواطف . . . اذ كان في اعماق مشاعره وعقله الباطن يؤمن ان هذا العمل لا يتناقض مع ايمانه الديني وانتمائه المذهبي . . . لا سيما وان هذا التمثال هو لرأس عبد الناصر وليس لرأس وثن !!

ومراعاة لهؤلاء سارع إلى تغطية الرأس بقطعة قماش ، ولم يلق به خارجا او يحطمه . . . وابقاه في صدر الصالون . . .

نكتفي بهاتين الواقعتين لأن فيهما كل الدلالات والبراهين النفسية والحسية.

اما الشيخ احمد حجازي ابن البادية والشاعر الزراري المعروف والذي ملأ المنابر الحسينية والوطنية في صور والزرارية وعلى القراطيس بالقصائد الوطنية والقومية العارمة والعرمرمية المدوية طوال ثلاثة ارباع هذا القرن فقد اصبح حين اطل عبد الناصر ونشر دعوته في الحرية والوحدة والاشتراكية والدعوة إلى التحرر من كل آثار الاستعمار أول المباركين والمتحمسين في شعره للناصرية والقومية العربية متغلبا على كل حرج طائفي أو مذهبي ! وكادت قصائده تنحصر ضمن مثلث وحيد بزواياه الحادة : الحسين - عبد الناصر - الطبيعة العاملية والمرأة . . .

احداث ١٩٥٨ :

دليل اضافي على عروبة ووطنية هذا الجبل : احداث ١٩٥٨ في لبنان :

أحس العروبيون أو الوطنيون الوحديون في لبنان أن رئيس الجمهورية

يومذاك كميل شمعون يمهد لتجديد ولايته وقد بدأ منذ العام ١٩٥٥ يعمل على تدعيم حكمه بوسائل خارجية ودعم بريطاني - اميركي - عراقي ، للدخول في حلف بغداد المنوي تأليفه من العراق وتركيا وايران وزج لبنان فيه . . ليكون جبهة استراتيجية في وجه الاتحاد السوفياتي وطموحاته من جهة وبوجه طموحات عبد الناصر من جهة اخرى . . وهو ما سمي يومذاك بمشروع ايزنهاور بحجة ملء الفراغ في الشرق الاوسط . . كما زعموا . . بدأ شمعون باسقاط الرموز الناصرية في انتخابات آيار ١٩٥٧ المزورة بقحطان حماده بدل كمال جنبلاط . . وفوزي الحص مكان صائب سلام . . ورضا وحيد محل احمد الأسعد . ولم يستطع اسقاط صبري حماده الذي استعمل السلاح لمنع هذا الإسقاط . وقد نجح في ذلك . . قامت ثورة العراق عام ١٩٥٨ لتقضي على احلام شمعون بالرغم من انه كان قد استدعى الاسطول السادس الاميركي لدعمه وتنفيذ مخططاته . . لكن الثورة الوطنية ، بالرغم من فوضاها وعشوائيتها ، التي اندلعت في لبنان اسقطت شمعون وحالت دون تنفيذ مشروعه الاستعماري . .

كان الجنوب اللبناني (جبل عامل) على الدوام ، ومنذ قرون طويلة ، منطلق الرفض والرافضين . . والثورة والثائرين ، في وجه طغاة الشرق العربي وغزاته . . يستنهض فينهض بسرعة ويلبي نداء الوطن بشكل منقطع النظير ، لاسيما اذا آنس من زعمائه وقادته اخلاصاً في التوجه . .

ففي نيسان ١٩٥٨ انطلقت من مدينة صور اول مظاهرة حاشدة يقودها البعثيون والقوميون العرب تهتف بسقوط شمعون وزمرته ونظامه ، فتصدى لها جلاوزته فسقط في هذه المظاهرة اربعة شهداء هم : محمد قاسم وادوار غنيمة

ومعن حلاوي ، ثم تبعهم ابراهيم سلامة [1] وكانت الجريدة الأكثر حماسا لمثل هذه المظاهرة : التلغراف وعميدها الصحافي الوطني الشهير نسيب المتني ، فما كان من شمعون الا ان اوعز لعملائه ان يقضوا عليه ، فاغتالوه في مكتبه ، بعد ايام من تظاهرة صور . فاشتعلت البلاد استنكارا ، وخرج المصلون في طرابلس من مساجدهم ظهر يوم الجمعة ، وساروا في تظاهرة تأييد واستنكار . .

وهكذا هبت جميع المناطق اللبنانية الوطنية ، واحتكمت الى السلاح في مناهضة حكم شمعون وفضح نواياه ومخططاته . . وكان ان قامت الوحدة عام ذاك بين مصر وسوريا بقيادة عبد الناصر وحزب البعث السوري وراح رئيس جهاز المخابرات السورية وزير الداخلية عبد الحميد السراج يزود الثوار اللبنانيين بالسلاح تهريبا عن طريق المختارة حيث القائد المعلم الشهيد كمال جنبلاط يحتفظ ببعضه ويرسل الباقي الى صيدا حيث الزعيم الشعبي معروف سعد يقوم بدوره بتوزيع هذا السلاح على الاحزاب الوطنية في صيدا وصور . كان هذا السلاح عبارة عن بواريد انكليزية ثقيلة ورشاشات وأف- ام - ليس اكثر . . .

دور الزرارية : استمرت الاحزاب «المحاربة » في صور على تعاونها قرابة

---

(١) وهو من طلاب الكلية الجعفرية (صف البكارلوريا) التي كان لها دور ريادي في انطلاقة ثورة ١٩٥٨ ضد حكم شمعون وفي انطلاقة الشرارة الاولى التي اشعلت تلك الثورة ، حين نظمت التظاهرة الشهيرة في نيسان ١٩٥٨ والتي سقط فيها الشهداء الاربعة المذكورون آنفا . لقد كانت مظاهرة صاخبة حقا ودامية مشى فيها الشيوخ في مقدمة الشبان . اذكر من هؤلاء الشيوخ الشيخ محمد عقيل عيسى : النصير الأول لخط الامام شرف الدين مؤسس الكلية الجعفرية في صراعه ضد الاقطاع السياسي في صور .

ثلاثة اشهر . إلى ان قام بين عناصرها وقادتها نوع من التنافس والتنافر انتهى بالاتفاق على ان يبقى القوميون العرب في صور للدفاع عنها ورد هجمات البدو التابعين لآل الخليل . . . وأن يخرج البعثيون العسكريون ، فاختاروا للدفاع والهجوم مزرعة مشرف قرب قانا . وكان على رأس المسلحين القائد المناضل ابراهيم الرملاوى يعاونه البعثي المجاهد والممتلىء حماسا الشاب السيد عبد الرؤوف صفي الدين لكن من اين يأتون بالسلاح والذخيرة عندما تصل من سوريا إلى معروف سعد ، وقبل ان تصل الى صور ؟ هنا ، كان لا بد من الزرارية كموقع استراتيجي تمر عبره الاسلحة قاطعة نهر الليطاني لتصل إلى مزرعة مشرف بأمان !

والزرارية بلدتي ومسقط رأسي والبعثيون «المشرفيون » يثقون بي . ولي فيها اشقاء واصدقاء ، فلأنتقل - اذن - من صور إلى الزرارية ولنكن نحن ضباط ارتباط . خاصة وانني في صور قد وصلت آنذاك إلى نقطة حرجة - موقفا وموقعا - بعد ان نمي إلى بأن عناصر مسلحة معادية من البدو سوف يشنون هجوما على المقاومة الوطنية لاخراجهم من صور . فسارعت إلى الانتقال بولدي الصغيرين وزوجتي إلى الزرارية . وقد تحقق ماحدست به فبعد يومين من مغادرتي صور هجمت هذه العناصر وكان بيتي خارج خطوط المقاومة قرب الجعفرية . وقد تركت فيه صديقا عزيزا سوري الجنسية هو الاستاذ نعمان اباظة الذي كان يدرس مادة الادب الفرنسي في الجعفرية ، تركته بناء على طلبه عله ينجو من شرورهم بعد ان ضربت الجهة المعادية حصارا بريا على مدينة صور . فلم يعد بامكانه الخروج منها طلبا للنجاة .

هجم البدو ببنادقهم وجبنهم . . . فتصيدهم ال أف- ام - المنصوب على

سطح نادي التضامن فولوا الادبار تاركين وراءهم الاستاذ نعمان وكانوا قبل قليل قد اقتحموا منزلي في بناية الحاج داوود الزيات والد المرحوم محمد الزيات الذي كان على رأس القوميين العرب . . .

اقتحموا منزلي فوجدوا الاستاذ نعمان مختبئا على السدة فانزلوه واوسعوه ضربا وانتزعوا ساعة يده وثلاثمائة ليرة كانت في جيبه ولعلها كل معاشه . . . خاصة بعد ان علموا من هويته وبطاقته المدرسية انه سوري اولا ومدرس في الجعفرية ثانيا وفي منزل خليل شرف الدين ثالثا ! ثلاث جرائم في نظرهم وكان حسبه واحدة لينكلوا به !

نجا منهم بعد ان قادوه رافعا يديه إلى غرفة عمليات قائدهم . . . ولحظة خروجهم من منزلي مع هذا الصيد الثمين انهمر عليهم رصاص ال اف- ام - الجبار فلاذوا بالفرار ونجا الاستاذ نعمان ونجوت قبله بيومين !!

وفي الزرارية بذل شقيقي الاصغر نعمة الله شرف الدين (ابو منصور) قصارى جهده ليؤمن ايصال البواريد إلى مزرعة مشرف مع ذخيرتها تعاونه شلة من رفاقه اليافعين الاشداء والحزبيين المخلصين - وكان هذا الشقيق الممتلىء حماسا وغيرة لاينام الليل ساهرا على امن الزرارية التي كانت لا تخلو من عملاء للسلطة.

وفجر يوم من ايام آب دخلت البلدة ثلاث دبابات تابعة للجيش اللبناني لاعتقالي مع شقيقي ورفاقه ؛ لكن بعض الاصدقاء المخلصين سارع إلى اعلامي فسارعت إلى الاختباء عند احد اقاربي . . . وكان شقيقي نعمة قد علم قبلي بقدوم الدبابات فجمع رفاقه ونصبوا كمينا على طريق عودة الدبابات . . . لكن الله ستر وعادت الدبابات من حيث اتت بعد ان حققت مع مختار البلدة يومذاك محمود عبد الله زرقط (ابو كامل) فانكر وجود مقاومة ومقاومين وسلاح

ومسلحين . وجاء من ينصح شقيقي بعدم اطلاق النار على الجيش قائلا : ما هي الا «عراضة» يقوم بها الجيش للتخويف فقط ولاثبات الوجود فعلا كان الجيش اللبناني يقوم بعرض عضلات في كل مكان قرب المقاومة وزواريبها في صور وصيدا وبيروت . اذ بعد تقلد اللواء فؤاد شهاب سدة الرئاسة قام شبه اتفاق بينه وبين صائب سلام (الرئيس الفخري للمقاومة الوطنية) ارضاء لعبد الناصر بالا يتعرض المقاومون للجيش فلا يتعرض الجيش لهم . . . حتى ان بعض الضباط في ثكنة صور دخل زواريب المقاومة في مدينة صور ورأى ان متاريس المقاومة غير صالحة فنيا فنصح الشبان بأن يستبدلوها بأكياس الرمل !

حقا . . . لقد كانت احداث ١٩٥٨ في اكثر مواقعها ووقائعها عبارة عن كرنفال واستعراض فولكلوري اكثر منها ثورة حقيقية . . . خاصة بعد ان توارى شمعون ولم يجدد . . . واثباتا للتوازن الطائفي في لبنان قامت ثورة مضادة . . اوعز بها بيار الجميل وربما فؤاد شهاب نفسه ليتحقق شعار صائب سلام : لا غالب ولا مغلوب !!

ثم سار النظام السائد سيرته الطبيعية مع شيء من التجميل لوجهه البشع قام به حلاق أشبيليا فؤاد شهاب كاستحداثه مؤسسات رسمية لم تكن موجودة قبله كالتفتيش المركزي والخدمة المدنية ووزارة التخطيط وما اشبه ، لكن هذه المؤسسات لم تكن ذات فاعلية تذكر . . . اما الدستور فقد بقي - في نظر شهاب - قدس الاقداس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكان يسميه «الكتاب» ويعني به الكتاب المقدس . . . فلا يجوز تغييره ولا تطويره .

وبقي هكذا إلى أن حدث ما كان متوقعا وما كان الدستور بنواقصه احد اسبابه : انفجار احداث عام ١٩٧٥ ولم تكن بوسطة عين الرمانة سوى الشرارة

الاولى التي اشعلت تلك الاحداث المدمرة فأتت على كل شيء في لبنان بشرا وحجرا وشجرا ودستورا ! وكان الطائف . . . ونرجو الله ان تستمر مسيرة التغيير إلى ما فيه خير ورخاء الاجيال القادمة .

عود على بدء : بعد هذا الاستطراد الذي لا بد منه نعود فنقول ان السلاح الآتي باسم البعثيين ومقاتليهم في مزرعة مشرف كان يمر عن طريق الزرارية بطريقة سرية طبعا . . . تصل الشاحنة المخبأ فيها السلاح قبيل الفجر فيأتي الشقيق نعمة مع رفاقه ويحملونه مارين في واد محاذ للزرارية تفاديا للمرور داخل البلدة ، يقطعون به نهر الليطاني الذي كان ايام الصيف يُقطع بدون سباحة . . . ثم يصلون به إلى مقر القيادة في مزرعة مشرف . . .

وهكذا تكررت عملية النقل مرات عديدة قبل وبعد الهجوم على الثكنة العسكرية في صور إلى ان انتهت «الثورة » «والثورة المضادة» . . . وتحقق شعار : لا غالب ولا مغلوب !! وانفخت الدف وتفرق العشاق :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر ! وعدنا بعد ذلك إلى صور لنجد البيت مسروقا والمكتبة الخاصة منهوبة . . وسافر شقيقي إلى شاطىء العاج ولا يزال هناك تاجرا محترما كما كان هنا مناضلا شريفا موثوقا به . . . عمل وعملنا تحت وهج قيم وطنية وقومية لم تتحقق في لبنان. . .

استعرضنا كل هذه الاحداث والوقائع لنثبت مرة اخرى ان جبل عامل أو جنوب لبنان كما يسمى اليوم خطأ كان ويوشك ان يكون دائما بؤرة من بؤر الثورات أو الانتفاضات ضد كل الوان الظلم والحرمان والقمع والاضطهاد . بالرغم من محاولات تدجينه وتجهيله فقد بقي صاحيا وواعيا لما يحاك ضده ولا

سيما في اوائل منتصف هذا القرن نظرا لكثرة الاحزاب العلمانية والقومية فيه . هذه الاحزاب التي وجدت خميرتها في عجين هذا الشعب الملبي دائما والمتوثب دائما الذي لم يفتقر يوما إلا إلى قادة مخلصين مرتفعين إلى مستوى طموحاته واحلامه في طلب الحرية والعدالة والمساواة في دولة لبنانية عربية علمانية حديثة .

وحين ظهر عبد الناصر وجد فيه هذا الجبل ضالته فتغنى بشعاراته الوحدوية والاشتراكية ونسي تحت ألق الوحدة التي تحققت بين سوريا ومصر كل شيء وكل فئوية أو طائفية أو مذهبية حاول ان يدسها في كيانه العثمانيون قديما والفرنسيون حديثا . نسي الا انه عربي مسلم وحدوى ليس غير . . . وهذا هو - إلى الآن - يقاتل بشراسة في سبيل تحقيق هذه الاهداف والاحلام والطموحات وسيبقى يقاتل إلى ان تقوم ساعة الخلاص ما دام يغلي في عروقه دم الحسين وتملأ ذاكرته دروس ابي ذر وعلي ورسالة محمد (ص) ومبادىء المناضلين الاحرار من امته والعالم . . .

تصويب :

اوضح لي الصديق المحامي السيد عبد الرؤوف صفي الدين انه هو نفسه كان احد نائبي القائد العام الوحيد في الجنوب الشهيد معروف سعد . اما النائب الآخر فقد كان الاستاذ حسيب عبد الجواد (١) كما كان القائد العسكري للمقاومة ومقره مزرعة مشرف قرب قانا الاستاذ ابراهيم الرملاوي (٢) وكانت الامانة العامة

---

(١) الاستاذ حسيب هو اليوم نائب رئيس الاتحاد العمالي العام في لبنان

(٢) الاستاذ ابراهيم الرملاوي مناضل قديم قاوم اسرائيل ، داخل كيانها المصطنع يوم لم تكن هناك مقاومة وتنظيمات فلسطينية مسلحة.

للمقاومة في كل لبنان معقودة اللواء للشهيد كمال جنبلاط . ولم يكن لهذه المقاومة الوطنية امناء فرعيون في اي منطقة في لبنان . . .

إلى جانب مهماته العسكرية كان السيد عبد الرؤوف مسؤولا ماليا للمقاومة في مزرعة مشرف ومسؤولا سياسيا كذلك . وقد ذكر لي ان مراسلين صحفيين فرنسيين وانكليز كانوا يقابلونه بصحبة ضباط من لجنة الهدنة (١٩٤٩) في لبنان طارحين عليه اسئلة يذكر منها :

س- يقال انكم - في المقاومة الوطنية - حملتم السلاح لتغيير النظام في لبنان . هل هذا صحيح ؟

ج- هذا غير صحيح على الاطلاق . حملنا السلاح ضد ديكتاتورية شمعون ، وارغامه على عدم التجديد لولاية ثانية . ومن اجل تطوير هذا النظام وتطبيق الديموقراطية التي يدعيها شمعون ولا يعمل بها . . .

س- لم يكن شمعون يريد التجديد ، كما اكد ذلك وكرره دائما . فما رأيكم؟

ج ـ على العكس تماما . كان شمعون يريد التجديد لنفسه بدليل انه زور وبشكل مفضوح انتخابات عام ١٩٥٧ فاسقط نوابا ذوي قوى شعبية واسعة . كل هذا التزوير لماذا ؟ لكي يأتي «بامعات» تكون ادوات طيعة توافق في البرلمان على التجديد لسيدهم وولي نعمتهم . . .

من اجل كل هذا حملنا السلاح لإحباط مشاريع شمعون ومن اجل ترسيخ الديموقراطية الحقيقية والعروبة هوية واتجاها في لبنان .



المدارس الدينية في جبل عامل (قديماً)

قبل الحديث عن اول مدرسة اهلية خاصة في الزرارية ، لا بد من استعراض موجز للمدارس التي انشئت في قرى وبلدات جبل عامل ومتى تم انشاؤها ، ومن هم منشئوها واشهر تلامذتها وخريجيها ونوع التعليم وطريقته فيها. بعد أن ذكرنا عناوينها فقط في فصل سابق . يذكر العلامة الأمين في خططة القرى العاملية التي كانت فيها مدارس في القرون الهجرية الثلاثة أو الاربعة الأخيرة. وكذلك ما ذكره المؤرخون : محمد جابر آل صفا والشيخ علي الزين وقيصر مصطفى ومحمد كاظم مكي وسواهم ، فاذا هي :

أولاً – مدرسة جزين : انشئت في القرن الثامن الهجري . انشأها الشهيد الثاني زين الدين في القرن التاسع ٧٦٦هـ وهي اقدم المدارس العاملية ، وبالتحديد عام ٧٧٠هـ أو ١٣٧٠ م انشأها الشهيد الاول محمد بن مكي بعد عودته من النجف الأشرف ، وكان لهذا العالم الشهيد اخت تدعى فاطمة وتكنى بأم الحسن بلغت درجة الاجتهاد في العلوم الدينية والفقه ، وكانت صاحبة فتوى في الشؤون النسائية .

في حديثه عن والد الشهيد الاول وهو الشيخ جمال الدين مكي بقول

المؤرخ السيد حسن محسن الأمين :«ان الذين ترجموا للشهيد الأول محمد بن مكي ذكروا انه ابن الشيخ جمال الدين مكي بن الشيخ شمس الدين محمد بن حامد . وقد وصف كل من ابيه وجده بالشيخ فلقب الأول بجمال الدين والثاني بشمس الدين ، وهذه الاوصاف لا تطلق إلا على اهل العلم بينما لا يوصف ابو جده ولم يلقب بما يدل على انه لم يكن منهم . » ويتابع السيد حسن قائلا :

«وقد رأينا ان والد الشهيد هو تلميذ طومان (١) ، فيكون جد الشهيد قد درس في جبل عامل أي في مدرسة جزين اذ لم يعرف غيرها من المدارس أيام الصليبين. وهكذا نستطيع القول بأن العاملين تغلبوا على محنة الاحتلال وعلى ما حملتهم إياه تلك المحنة من ضيق وتضييق ، وقدروا ان يؤسسوا مدارسهم (مدرسة جزين وحوزات أخرى) وان يحتفظوا بوجودهم كاملا، لا ينغصه الجهل المؤدي إلى الذوبان والانحلال ، وأن يظلوا امناء على رسالتهم الفكرية الأصيلة ، فحرسوا اللغة العربية وصانوا علومها في ذلك البحر الفرنجي الطامي ، وحرسوا علوم الشريعة وحفظوها ، واورثوا ذلك للاجيال التالية امانة خالدة (٢) .

ثانيا- مدرسة جباع : انشأها الشيخ عبد الله نعمة قبل عام ١٣٠٣ ميلادية .

ثالثا- مدرسة شقرا : انشأها العلامة السيد أبو الحسن موسى الحسيني الامين (جد السيد محسن) أواخر القرن الثاني عشر الهجري .

---

(١) وطومان هذا هو من القدامى الذين وصلت الينا اخبارهم من علماء جبل عامل الشيخ نجم الدين طومان بن احمد المناري . توفي سنة ٧٢٨ هـ اي ان بينه وبين جلاء الصلبيين ستين سنة فقط (جلا الصليبيون عن جبل عامل سنة ٦٦٦ هجرية . (من مقدمة فهرست جبل عامل للمؤرخ السيد حسن محسن الامين ط ١ ص ١١ ـ المركز اللبناني للبحوث والتوثيق والاعلام ١٩٨٩ ـ بيروت ـ

(٢) المصدر نفسه ص ١١ و ١٢

رابعا – مدرسة جويا : انشأها آل خاتون قبل أواخر القرن الثاني عشر الهجري .

خامسا– مدرسة النبطية الفوقا : عاشت حتى زمن العلامة السيد محمد نور الدين (اواخر القرن الثاني عشر الهجري) .

سادسا– مدرسة النبطية التحتا : انشئت عام ١٣١٠هـ بناها الحاج حيدر جابر للسيد حسن بن السيد يوسف الحبوشي [١] ودعيت آنذاك المدرسة الحميدية تيمناً باسم السلطان العثماني . . [٢] كان من تلاميذ المدرسة كثيرون ممن اتموا دروسهم الدينية الاولى ، فذهبوا إلى النجف الأشرف في العراق لمتابعة دروسهم الدينية العليا ونيل الاجازة في الاجتهاد .

ومنهم من لم يذهب إلى العراق ليتم تحصيله كالشيخ أحمد عبد المطلب مروه ، والشيخ محمود فخري ، والسيد يحيى جواد شرف الدين (والدنا) وهؤلاء الثلاثة هم من الزرارية . والشيخ عبد الرضا شعيتاني من بلدة انصار وكثيرون غيرهم . ويتابع محمد جابر آل صفا حديثه عن هذه المدرسة الشهيرة ، ثم ينتقل إلى ذكر رجال عامليين مغتربين ساهموا في نهضة هذا الجبل التربوية والادبية والاجتماعية والدينية ، فيقول : ومن المجاهدين في سبيل النهضة العربية

---

(١) الاصح انه اعاد بناءها بعد خرابها بمساعدة الحاج حسين الزين واخيه يوسف بك الزين درس فيها الشيخ احمد رضا لمدة وجيزة

(٢) وهي عادة طارئة ، كان يوحي بها الولاة العثمانيون فتسمى بعض المدارس باسمائهم . وكان المؤسس يرضى بذلك ، للتقية . اذ كان لا يسعه الرفض وإما طلبا للرضا والمساعدة . . تاريخ جبل عامل ط ٢ ص ٢١٨ وما بعدها . محمد جابر آل صفا ـ دار النهار للنشر ١٩٨١ ـ بيروت ـ

من ابناء الشيعة في تلك الاصقاع : الحاج خليل شري (بنت جبيل) ، والشيخ يوسف كمال (دبعال) ، ورشيد محي الدين الزيات (صور) والشيخ خليل شومان (جويا) ، وعبد اللطيف فخري (الزرارية) وغيرهم .

سابعا : مدرسة الكوثرية : انشأها الشيخ حسن قبيسي سنة ١٢٥٨ هـ .

من تلاميذها : حمد البيك حاكم بلاد بشارة في تبنين والسيد علي ابراهيم (الجد) والشيخ عبد الله نعمة ، والشيخ علي السبيتي .

ثامنا : مدرسة كفرا (أو كفره) انشأها الشيخ علي بن محمد السبيتي .

تاسعا : مدرسة حناويه انشأها الشيخ محمد علي عز الدين سنة ١٣٠٤هـ، أو قبل ذلك بقليل .

عاشرا : مدرسة النميرية : انشأها السيد علي ابراهيم معاصر السيد علي الأمين .

حادي عشر : مدرسة انصار : انشأها ابن السيد علي ابراهيم السيد حسن، ثم ولده العالم الفقيه السيد محمد ابراهيم المتوفى سنة ١٩٤٦ في انصار.

ثاني عشر : مدرسة عيتا الزط : انشأها السيد جواد مرتضى . من تلامذتها النجباء العلامة السيد محسن الامين الذي قرأ فيها بعض كتاب «المطول» كما يذكر هو في «خططه » وبعد رحيل السيد جواد إلى العراق اعاد فتحها اخوه السيد حيدر .

ثالث عشر : مدرسة مجدل سلم : انشأها العالم الشيخ مهدي شمس الدين . من تلامذتها العلامة السيد محسن الأمين ايضا . الذى قرأ فيها بعض المطول وحاشية ملا عبد الله (المخطط) .

رابع عشر : مدرسة عيناتا : انشأها السيد نجيب بن السيد محي الدين فضل الله الحسيني .

خامس عشر : مدرسة بنت جبيل : انشأها الشيخ موسى شراره سنة ١٢٩٧ هجرية. انتقل اليها تلامذة مدرسة حناويه ومن بينهم كذلك السيد محسن الامين. وكانت نضم تلامذة كثيرين. ومن خريجيها السيد محسن الامين طبعا. . حيث اكمل فيها قراءة حاشية مللا عبد الله في المنطق، وشرح «الشمسية» والمطول والمعالم، استمرت حتى العام ١٣٠٤ هجرية. كان رفيقه فيها الشيخ محمد دبوق.

سادس عشر : مدرسة شحور : انشأها السيد يوسف شرف الدين وهو والد الامام السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي(١)

سابع عشر : مدرسة طيردبا : اسسها الشيخ حسين فقيه (مغنية).

ثامن عشر : مدرسة ميس الجبل : من اقدم المدارس في جبل عامل واشهرها. من مؤسسيها وأحد كبار مدرسيها : الفقيه العلامة والمحقق الشيخ علي الميسي صاحب «الميسية في الفقه» . تخرج من هذه المدرسة كبار العلماء في ذلك العهد، ومن ألمعهم الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي الجبعي (اواسط المائة العاشرة الهجرية ٩٦٦).

هذا، وبعد ان يعدد السيد محسن الامين هذه المدارس ينتهي الى القول : «اما اليوم اي في اوائل هذا القرن ـ فلم يبق في جبل عامل من ادناه الى اقصاه ما يقال له مدرسة دينية، ولم يبق فيه طالب واحد من طلاب العلوم الدينية. ومن يريد طلب العلم الديني يذهب الى النجف الاشرف في العراق . » ويتابع : «ثم انشىء في جبل عامل مدارس عصرية رسمية وكتاتيب، بعضها اهلي، وبعضها

(١) انظر ترجمة الامام السيد عبد الحسين في باب خاص بعنوان الزرارية ـ صور ـ من هذا الكتاب .

على نفقة الحكومة). ويقصد الحكومة اللبنانية الاولى ايام الانتداب الفرنسي على لبنان. (١)

في حين كانت مدارس الارساليات تنتشر بكثرة في سائر المناطق اللبنانية ذات الغالبية المسيحية وذلك قبل الانتداب الفرنسي على لبنان بأكثر من قرنين. .

اما الكتاب المطبوع فقد كان معدوما في جبل عامل. وكان التدريس في الكتاتيب والمعاهد الدينية يعتمد على الكتاب المخطوط وعلى ما يختزنه العلماء المدرسون في ذواكرهم من مأثور الحديث والتفاسير القرآنية المختلفة، وعلى بعض الكراريس المنسوخة عن كتب التراث الديني والادبي والعلمي. . علما بأن الكتاب المطبوع كان منتشرا في لبنان ما عدا جبل عامل فقد زودت الارساليات مناطق معينة فيه بالمطابع وبالكتب المترجمة الى العربية. .

كما قام العالم اللغوي الشيخ ناصيف اليازجي بترجمة الكتاب المقدس عن العبرية الى العربية لاول مرة وبتكليف من الكلية الوطنية (الجامعة الاميركية اليوم)حيث كان يعلم. ولا ننس التنافس الذي قام بين الجامعتين الاميركية واليسوعية في هذا المجال. .

ومدرسة ابي ذر؟

وهناك مدرسة من نوع آخر عمرها من عمر التشيع في جبل عامل، عنيت مدرسة او نهج الصحابي الكبير ابي ذر الغفاري. .

مدرسة جوالة متنقلة بشخص صاحبها بين القرى والدساكر والارياف العاملية انطلاقا من قرية الصرفند على الساحل الجنوبي للبنان، وانتهاء بميس الجبل في اقصى جنوبه. استاذها واحد، وطلابها ابناء هذا الجبل العاملي العربي

---

(١) انظر كتاب : من دفتر الذكريات الجنوبية ط ١ ص ٣٨ الصادر عن المجلس الثقافي للبنان الجنوبي - بيروت.

الخالص العروبة، الذين تتلمذوا على يدي ابي ذر تشيعا وفقها وزهدا وادبا ومرابطة. . . وما زالت هذه السمات والبصمات الغفارية ترافقهم الى الآن وتسمهم بميسمها الذي لا تزول آثاره. . .

ظاهرة ملفتة : كل هذه القرى وسواها التي انشئت فيها مدارس ليس من بينها الزرارية ولا تبنين ولا الطيبة، حتى ولا مزرعة مشرف !

فلماذا يا ترى؟ اهي الصدفة وحدها؟ ام ان العلماء في هذه القرى لا يهتمون بانشاء المدارس فيها؟ او ان الاهالي فيها، وفي هذه القرى الاربع الاخيرة بالذات لا يريدون، او لم يرد لهم تعليم ابنائهم ـ ولو ـ على الاقل ـ الدروس الدينية الابتدائية، والحساب والخط؟ ! في ظني، وبعض الظن ليس اثما هنا : أن هذه القرى الاربع، وقد كانت مراكز اقطاع، لم يشأ حكامها الاقطاعيون ان ينشأ، في عقر دارهم، مدارس دينية وغير دينية يخرج من صفوفها ـ في يوم من الايام ـ من ينازعهم السلطة، او على الاقل يكشف مساوئهم. . . فلتنشأ هذه المدارس بعيدا عنهم قدر الامكان. . وهناك يتولى الولاة العثمانيون التنكيل بهم. . أو اضعافهم فيتدخلون هم، يظهرون بمظهر الغيارى الحريصين على العلم والعلماء يتظاهرون بحبهم وتقديم الكبار منهم واعانة المحتاجين من بينهم. . مع ان ابناء واحفاد علي الصغير بالذات عرف عنهم حقا حبهم للعلماء وتقريبهم ومشورتهم؟ !

هذه الملاحظة مجرد ظن او احتمال اسجله هنا في هذا الكتاب وعلى القارىء والمؤرخ المنصف والخبير ان ينبهني الى فساده ان كان حقا فاسدا ـ او الى اثبات صحته اذا كان صحيحا. .

مدارس الزرارية قديما (بتفصيل) :

اذن، لم يكن في الزرارية مدرسة دينية وغير دينية، رسمية او خاصة. .

طوال القرون الماضية. . . ربما كان فيها، اثناء ذلك، بعض الكتاتيب، لكن المصادر التاريخية التي بين ايدينا لا تذكر شيئا منها.

وفي مطلع هذا القرن وبالتحديد بعد الحرب العالمية الاولى وقبيل العشرينات كانت هناك شبه مدرسة او كتاب لشيخ هرم لا يحسن سوى تعليم الالفباء على الطريقة البدائية القديمة في التهجئة مثل :

الف لا شيء عليه. . باء نقطة من تحت. . تاء : أثنتان او نقطتان من فوق. ثاء ثلاثة من فوق. . جيم : واحدة او نقطة في «النص» وهلم جرا.

المهم عند الاهالي ان«يفك» ابنهم الحرف ويحفظ القرآن ، وبالاصح بعض سوره القصار كجزء عم، وألم نشرح، و«تبارك» وأمثالها، وبدون تجويد. . .

الشيخ محمود باقر : هذا الشيخ يدعى الشيخ محمود باقر (مروه) وهو المعلم الوحيد في مدرسته الوحيدة ، وأدوات ردعه عصا طويلة (أو طاروح) وصوت أطول . . والطلاب يفترشون الأرض على الحصير ، فلا مقاعد ولا مساند ولا من يقعدون او يستندون وقد أصيب هذا الشيخ في آخر أيامه بالفالج فكان يشاهد في أزقة الزرارية وهو يزحف زحفا على يديه . . إلى الخلف [1].

والطريف أنه كان يعتقد بأن التلميذ عنده حالما يحفظ بعض السور القرآنية يعتبر قد « ختم » القرآن وجوده . . فيقيم له حفلة على طريقته : يرسله مع رفاق له إلى أهله في « همروجة » . . وعندما يصلون إلى دار أهله يقوم أحدهم بقذف الدار بحجر (وقد قيل لي بأنه يقذف الأم أو الأب بهذا الحجر) فيعرف الأهل بأن ابنهم قد ختم القرآن[2] . . فيستقبلون رفاق ابنهم بما يليق . . وتوزع عليهم

(١) كما يروي ذلك اهالي الزرارية الشيوخ من معاصريه.

(٢) انها طريقة بدائية تعتمد على تعليم الحروف الابجدية ثم القرآن الكريم في سوره القصار وبعد ختمه على الشكل المبتور المذكور يصار الى تعليم التلميذ الخط والاملاء والحساب .

الحلوى. . أما القسط المدرسي فليرة ذهبية واحدة في السنة . ولا بأس ، من حين لآخر ، أن يأتي التلميذ « بمقلى بيض » للشيخ أو بعض الحنطة والحبوب والتين المجفف والحطب والسكر والشاي والتبغ (التتن) كل حسب قدرته . .

ثم أعقبتها في العشرينات مدرسة أهلية أخرى أرقى بقليل وهي مدرسة الشيخ محمد بلال . فقد كان فيها على الأقل : طاولات أو مقاعد خشبية طويلة وشيء من مادة ترابية (وهو الحوار) للكتابة على الصبورة بدل الطباشير لعله تراب الحوار الأبيض أو الأصفر المجمد . دخلتُها في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات قبل انتقالي مع شقيقي الأكبر نجيب إلى النبطية للالتحاق بمدرستها الرسمية .

وكان شقيقاي الأكبران جواد ونجيب قد سبقاني إلى مدرسة الشيخ محمد بلال الذي كان شيخا مرحا محببا إلى الطلاب وعلى معرفة تامة بالصرف والنحو والشؤون الدينية والأدب والشعر . . .

كان ربع القامة يرتدي جبة شفافة في الصيف وعباءة محترمة في الشتاء . ومن طرائفه التي لا أزال أذكرها : انه كان «يحفظ» الكبار منا قصائد واناشيد دينية حتى اذا وقف الطالب الكبير«للتسميع» اوقف وراءه تلميذا صغيرا، فاذا اخطأ هذا الطالب او نسي بيتا من القصيدة غمز الشيخ التلميذ الصغير فانهال هذا الاخير بالضرب على قفا التلميذ الكبير المسكين او بضربة كف على رقبته. حسب الاتفاق بين الشيخ والضارب الصغير. . .

وحدث مرة ان اوقفني انا وراء اخي نجيب. . . وعندما اخطأ اخي او نسي (وجل من لا ينسى) غمزني كالعادة فلم استجب له. . . اذ كيف اضرب اخي وهو اكبر مني. . . فكان الضرب من نصيبي انا لعدم امتثالي. . . فتأمل ! اما

مكانها فقد كان في بيت قريب من بيتنا يقال له : بيت محمد علي هادي. من تلامذة هذه المدرسة المتطورة نسبيا : شقيقاي وابراهيم بلال وعلي فايز فخري ورياض فخري على ما أظن واخيرا انا وسواي من لداتي الذين لم اعد اتذكرهم. .

حتى اذا دخلنا في الثلاثينات قامت اول مدرسة رسمية في الزرارية. وكان من اساتذتها، على ما اذكر الاديب المعروف المرحوم الاستاذ عبد اللطيف شرارة (ابو وضاح) واستاذ الدين فيها والده الشيخ علي شرارة، مارست التدريس بشكل متواضع وبمعلمين قلائل. . وكانت المواد التي تدرس فيها غير تلك التي كانت تدرس في المدارس الدينية القديمة : كالرياضيات والتربية المدنية والتاريخ والجغرافيا واللغة الفرنسية الى جانب العربية.

واثناء ذلك قامت مدرسة اهلية للبنات بإدارة المرحومة عين الحياة ابنة المرحوم الاديب والشاعر المعروف الشيخ احمد حجازي (ابن البادية)[1] وقد تزوجت في اواخر صباها المرحوم علي هادي مروه (ابو قاسم) المار ذكره.

تميزت هذه المدرسة عن المدرسة الرسمية بجدية التعليم فيها، واصرار صاحبتها على متابعتها وتطويرها. وكانت تتولى بنفسها تدريس كل المواد تقريبا. وعندما فتحت الصف الخامس فيها[2] وجدت نفسها امام شهادة السرتيفيكا

---

(١) استؤجر لها منزل الحاج احمد ابو داوود ثم منزل المغترب المرحوم شريف طراف كجك (الاصح كوجك) .

(٢) كانت هذه المدرسة فرعا من فروع الكلية الجعفرية في صور ، التي اسسها كما هو معروف ـ الامام الحجة السيد عبد الحسين شرف الدين بأموال المغتربين الذين لبوا نداءه بحماس منقطع النظير . كان في مقدمة الملبين مغتربو الزرارية في افريقيا ومنهم المغترب المرحوم عبد اللطيف=

الرسمية وامام جهلها للغة الفرنسية المطلوبة في هذه الشهادة. اصرت بعناد على تعلم هذه اللغة من دون معلم وكان لها ما ارادت(١).

مدارس الزرارية الحديثة :

وهي كالآتي : في الثمانينات تحسن الوضع التربوي في الزرارية بعد تعثر ومماطلة من قبل وزارة التربية فمن حيث اتمام مبنى الثانوية الرسمية وتجهيزها فقد تكفل المغتربون والاهالي بذلك، بقي على الوزارة ان ترسل الاساتذة ولكن هذا لم يحصل. والثانوية الرسمية الآن تشغل طابقا من المدرسة الرسمية المتوسطة. كما

= فخري وعماي المرحومان السيد حسن جواد شرف الدين والسيد حسين جواد شرف الدين وشقيقاي جواد ونجيب وسواهم مما لا تحضرني اسماؤهم الذين وضعوا بتصرف وفد الامام كل امكانياتهم المادية والدعائية في سبيل انجاح هذا المشروع التربوي الكبير الذي كانت تفتقر اليه البلاد العاملية ولا سيما منطقة مدينة صور التي كانت تعاني من عسف الاقطاع السياسي وظلمه الشيء الكثير . وولدت الجعفرية ولادة عسيرة ولكن همة الامام شرف الدين وتصميمه كانا حاسمين في ان يأتي الجنين معافى. انها قصة مثيرة فعلا لمن تتبع فصولها . وكنت انا من المتتبعين لهذه القصة المثيرة فكتبتها في حكاية جهادية نضالية ودفعتها الى نجل الامام السيد جعفر شرف الدين فطبعها في كراس صغير موجود لديه . على ما اعتقد . .

(١) ويروون عنها انها صممت من اجل انجاح تلميذاتها في امتحانات هذه الشهادة الابتدائية الرسمية ، ان تتعلم هي اولا مبادىء هذه اللغة الاجنبية وبعد سنة او سنتين استطاعت ان تعلم طالباتها قواعد هذه اللغة وإملاءها ، وتقدمت بهن الى امتحانات السرتيفيكا ونجحن . . . لا عجب فالبنت سر ابيها وكما كان والدها ابن البادية عصاميا في «فك الحرف» على نفسه وبنفسه كانت ابنته كذلك . وعامل الوراثة لا يزال الى الآن معترفا به علميا .

ان كل اساتذتها متعاقدون. اما المتفرغون فاثنان لا ثالث لهما، ويرجع تاريخ انشاء اول مدرسة رسمية ابتدائية ثم متوسطة الى اواخر الاربعينات حيث تولى ادارتها احد ابناء البلدة الاستاذ محمد احمد زرقط (ابو زاهي) وقد ظل يديرها حتى العام ١٩٨٦. . . وقد تبرع يومها المغترب المرحوم ابراهيم طالب بقطعة ارض مساحتها حوالي عشرة دونمات بنيت عليها المدرسة.

تكاثر المدارس في الثمانينات : وهذا ما يميز الزرارية عن باقي القرى المجاورة اذ ان سرعة تطور ونمو الزرارية وتزايد عدد سكانها وعودة كوكبة من المغتربين المتمولين اليها نهائيا دفع ببعضهم الى انشاء مدارس خاصة لا تتوخى الربح المادي فقط فقد اولت الناحية التربوية اهتماما خاصا فنجحت وحالت دون تدفق ابناء البلدة على مدارس صور وصيدا فوفرت على الاهالي مشقات الانتقال بأولادهم يوميا الى هذه المدارس كما وفرت على الاقل رسوم الاوتوكارات ومخاطر الطرقات لا سيما في فصل الشتاء، واضطراب الامن. هذه المدارس الخاصة هي :

- مدرسة الحكمة العاملية.

- ثانوية الشعلة تضم اربعماية تلميذ وتلميذة. عدد مدرسيها خمسة وعشرون مدرسا. وهي تدرس في المراحل الثلاث (ابتدائي ـ متوسط ـ ثانوي) جميع المواد باللغات الثلاث (عربي ـ فرنسي ـ انكليزي) صاحبها الاستاذ محمد حسين حيدر مروه ومديرها [١]. كانت تابعة لمدرسة الزهراء في الصرفند ولكنها مستقلة عنها ادارةً ومناهج وطرق تدريس .

- ثانوية شعلة جبل عامل تضم حوالي ستماية طالب وطالبة. ويقول

---

(١) انظر نبذة عنه وعنها في باب : نماذج من فعاليات الزرارية الاجتماعية والتربوية صفحة. . .

صاحبها (١) ان اقساطها رمزية نسبيا. وبعضهم لا يدفع اقساطا نظرا لحالة اهله المادية الصعبة. عدد مدرسيها اربعة وثلاثون مدرسا.

- روضة بيت المرأة الجنوبي ترعاها رئيسة جمعية بيت المرأة الجنوبي السيدة سعاد طعان وتسهر معها على شؤونها سيدات من الجمعية مقيمات في الزرارية، ويدعمها مغتربو البلدة الغيارى على كل مشروع تربوي انمائي من هذا النوع.

وهناك مدرستان رسميتان ابتدائية متوسطة وثانوية :

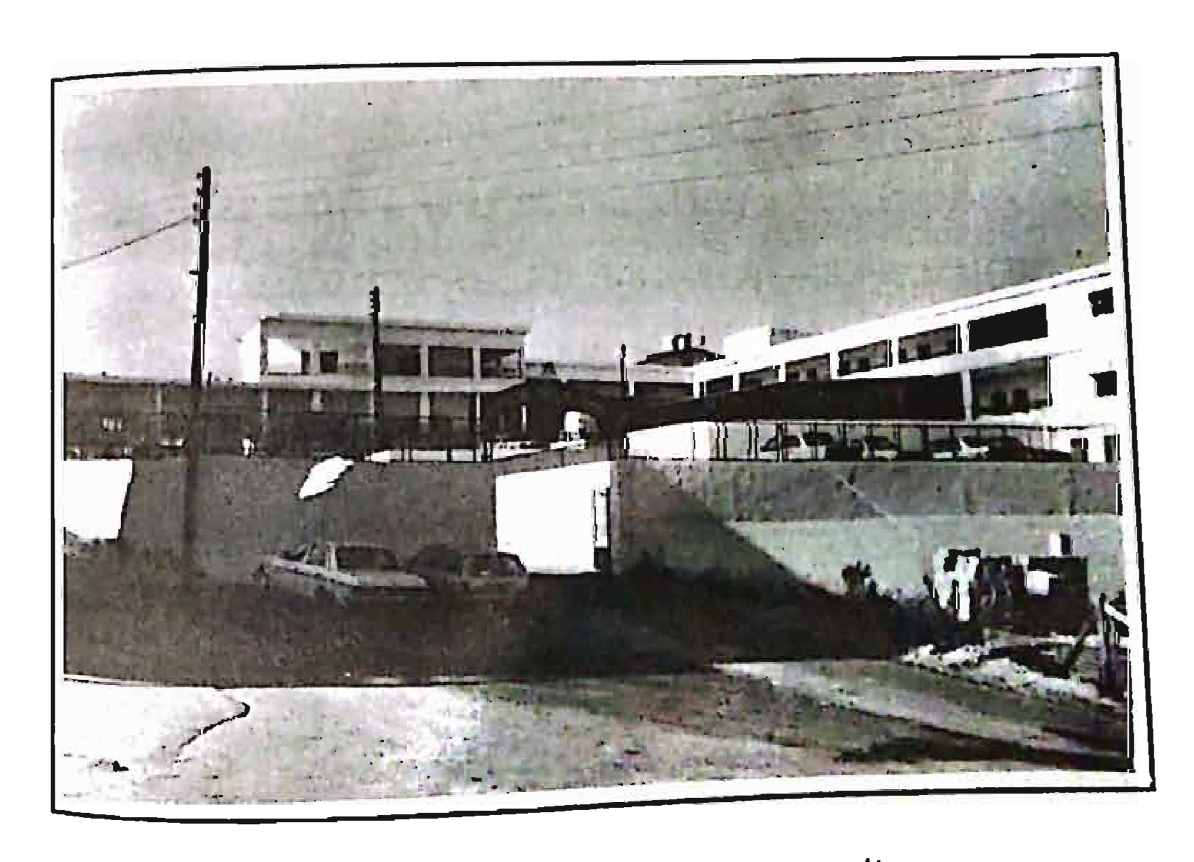
- المدرسة الرسمية القديمة (تأسست عام ١٩٤٧) وقد تقدم الحديث عنها. أما حالتها الراهنة من حيث التجهيز والاساتذة فغير مرضية وغير كافية. (عدد غرفها اربعون).

- المدرسة الثانوية الرسمية : تضم حوالي ٣٧٠ طالبا وطالبة، يدرس فيها ٢٥ مدرسا واستاذا : اثنان منهم في الملاك الرسمي فقط والباقون بالتعاقد وهم من البلدة وجوارها. .

كانت هذه الثانوية فرعا من ثانوية صيدا للبنين، ثم استقلت عنها حين صدر مرسوم باعتبارها ثانوية رسمية للزرارية، وتشغل حاليا طابقا من المدرسة الرسمية المتوسطة. أما البناء الخاص بها فقد بوشر به بفعل همة واندفاع مغتربي الزرارية، وتبقى وزارة التربية متفرجة كعادتها. وربما اسهمت في تأمين الكادر التعليمي اللازم. . فهل هو عجز منها حقيقي ام سوء نية ؟ الغريب في امر وزارة التربية هذه ان الكثيرات من بلدات وقرى الجنوب قامت وتقوم بتقديم الارض وحتى البناء والتجهيز، وكل ما يطلبه الاهالي منها تزويد هذه المدارس بالاساتذة المتفرغين، ولكن عبثا. . فيضطر الاهالي الى تأمين الاساتذة بالتعاقد. . على

(١) وهو المغترب العائد وصاحب المشاريع التنموية السيد احمد مصطفى (ابو علي)

حساب مجلس الجنوب هذه الايام، واحيانا على حسابهم الخاص كما كان يجري في الماضي. . والاغرب من كل هذا تشترط الوزارة عليهم ان يسجلوا الارض والبناء على اسم الدولة! فيقوم الاهالي بتسجيلها مضطرين والا فلا اساتذة ولا مساهمة من اي نوع! ونجدها، حين تتكرم بالمساهمة ترسل بعض الاساتذة الذين لا تتعدى نسبتهم ١٠٪ متذرعه على الدوام بأن الاساتذة المتخرجين من كلية التربية لا يرغبون في التعليم في ثانويات القرى البعيدة عن بيروت او صيدا او صور. . كأنهم ما تخرجوا الا ليدرسوا في المدن فقط. مع ان الزرارية توشك ان تكون مدينة. . . والغريب ان بعض المسؤولين في الوزارة هم وراء تعنت وتمنع هؤلاء فهي تمنع عنهم، اذا التحقوا بثانويات القرى والبلدات، بدلات النقل. وقد عمدت وزارة التربية مؤخرا الى الغائها بالمطلق!



المدرستان الرسميتان ـ الثانوية والمتوسطة في الزرارية

ونحمد الله على ان الزرارية ومثيلاتها تكاد تستغني عن الاتكال على الدولة. . . وها هي المدارس الخاصة ذات المستوى المرموق تنتشر في القرى والدساكر.

- مدرسة بيت المرأة الجنوبي : انشئت منذ سبع سنوات وتديرها السيدة اكرام زرقط وتضم اكثر من ١٥٠ تلميذا وتلميذة.

- مدرسة الفرير ويديرها الاستاذ احمد عيد.

- مدرسة الحكمة . الخ . .

ان جميع هذه المدارس الخاصة انشئت، في الزرارية ، وجهزت على نفقة اصحابها وبمساعدة مرموقة من مغتربي الزرارية الغيارى الذين احسوا بتقاعس الدولة، ان لم نقل عجزها، فكانوا بالنسبة للمدارس الرسمية والخاصة خيربديل. .

هل من مزيد : ورغم كثرة المدارس في الزرارية يبدو ان الطلب يزيد على العرض سنويا نظرا لتكاثر السكان وعودة اكثرية مغتربيها اليها. اذ ان هناك اكثر من ثلاثمائة تلميذ من غير المسجلين في مدارسها والذين يربون على ثلاثة الآف طالب تضيق بهم مدارس الزرارية على رحبها وتعددها. فيضطر الاهالي الى تسجيلهم في مدارس صور وصيدا وسواها.

ويبدو ان الانجاب قد زاد معدله في الزرارية وفي قرى جبل عامل عامة نظرا لظروف الحرب وتعويضا عن كثرة عدد الشهداء. . .

وصدق الامام علي حين قال : بقية السيف اصلب عودا واكثر عددا. . .

ففي المجزرة الشهيرة سقط اكثر من ٤٢ شهيدا ٧ منهم من الزرارية ولا يزال يسقط الكثيرون في مواجهة العدو الاسرائيلي واحيانا في مواجهة بعضنا بعضا مع الاسف الشديد. .

متى وقعت المجزرة ـ وكيف انقلبت مفخرة

منذ الاجتياح الثاني للبنان عام ١٩٨٢ والغزاة الصهاينة يعانون الامرين من ضربات مقاومي الزرارية التي كان يخطط لها القائد نعمة هاشم وانور مروه ويسار مروه فانغرز في نفوسهم حقد دفين على كل ما هو زراري من بشر وشجر وحجر. . لا سيما بعد ذلك الكمين الشهير المزدوج الذي دبره نعمة هاشم وسقط فيه العديد من الصهاينة وعلى رأسهم ضابط برتبة ميجر حين فوجئوا بالمقاومين ينهالون عليهم بوابل من رصاص بنادقهم ورشاشاتهم. وكان ذلك قبل المجزرة بأشهر قليلة. كما سبق ذلك بعيد الاجتياح ـ مداهمات عديدة قام بها الجيش الاسرائيلي لبيوت المقاومين ومصادرة سلاحهم واعتقال المشتبه بهم وزجهم في سجون اسرائيل ثم في معتقل انصار -١- بعد استحداثه وقد بلغ عدد المعتقلين من الزرارية وحدها اكثر من سبعين شابا. وكان ذلك يتم على دفعات وبعد كل زيارة مشؤومة لهم الى البلدة نهار السبت. حتى اصبح نهار السبت يوما يحسب له اهالي الزرارية الف حساب. وبين كل زيارة وزيارة كان المقاومون لا يقصرون في كيل الضربات للجنود الصهاينة في عمليات جريئة على اطراف البلدة وفي جوارها.

حتى كان يوم الحادي عشر من آذار سنة ١٩٨٥ وبعد انسحاب الغزاة من جنوب لبنان وانكفائهم تحت وطأة الضربات الموجعة التي كان ابطال المقاومة الوطنية اللبنانية يكيلونها لهم.

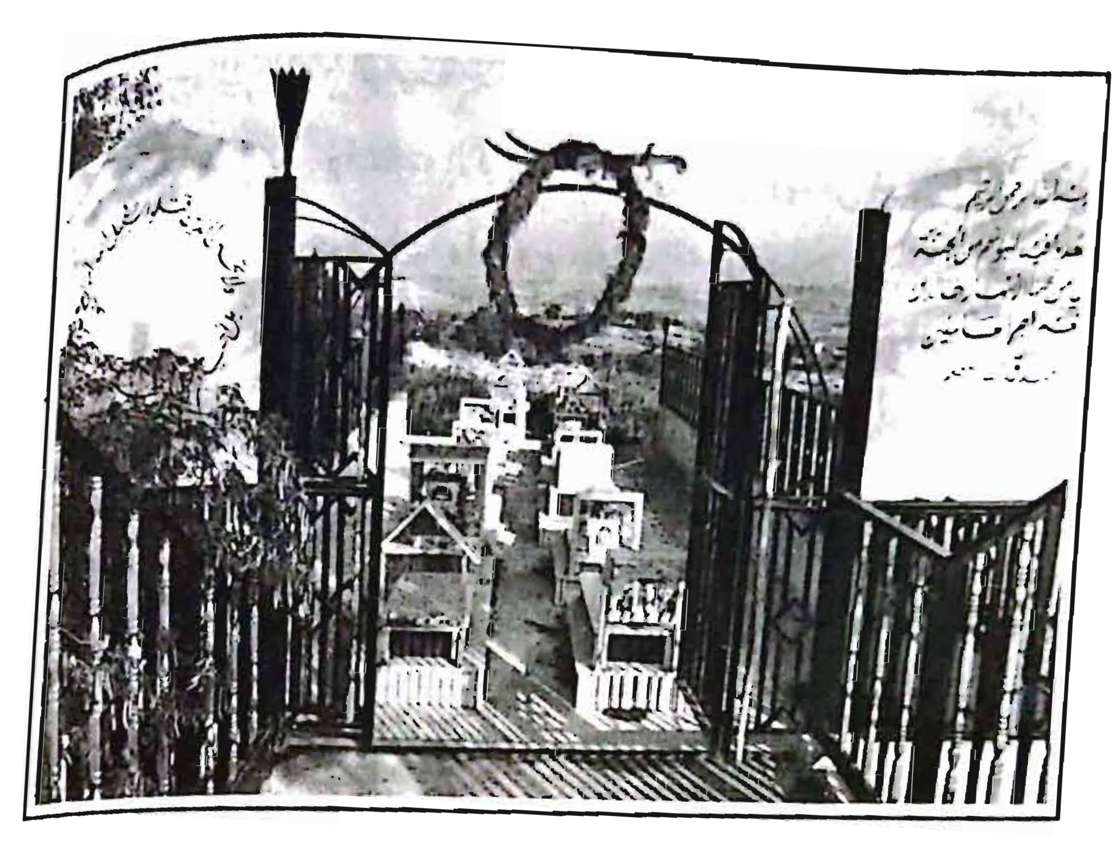
فجر ذلك اليوم الرهيب جاء من يخبر المقاومين في البلدة أن حوالي ٨ آلاف جندي اسرائيلي ومئات الآليات يحاصرون الزرارية من جميع الجهات ويمنعون الناس من الدخول اليها والخروج منها ثم اخذوا باطلاق النار على كل من يحاول ذلك (١) فاستنفر المقاومون واتخذوا لهم مواقع على اطراف البلدة ومداخلها. وعند السادسة صباحا بدأ العدو بالتقدم نحو البلدة وكان على رأس الحملة عُقيد هو ابن الضابط الذي قتل مع آخرين في كمين نعمة هاشم وبدأت معركة حاقدة حامية حين اصطدم العدو بالمقاومين اسفرت عن مقتل الكثيرين منه. دخلوا البلدة بعد معركة دامت خمس ساعات استشهد خلالها عدد من المقاومين الابطال بعد نفاذ ذخيرتهم. وفي ساحة الزرارية واثناء المداهمات للمنازل بحثا عن المقاومين الناجين كانوا يطلقون النار عشوائيا وبشكل هستيري على كل ما تراه عيونهم الزائغة.

وبعد أن عاثوا في البلدة فسادا وقتلا وتخريبا انسحبوا منها عند الخامسة مساء. وكانت حصيلة المواجهة الضارية ٤٢ مقاوما ٧ منهم من ابناء الزرارية. وها هم يرقدون في مقبرة جماعية مع رفاقهم قبالة جبانة البلدة.

ماتوا ميتة الابطال لتبقى بلدتهم حية بهم. ولتبقى كل ام وكل اخت

---

(١) كان احد المزارعين يقود سيارته «البيك آب» المحملة بالخضار باتجاه صيدا كعادته ولم يكن يدري او يعرف ماذا يجري وان الاسرائيليين في كل مكان على اطراف البلدة فبادروه باطلاق الرصاص عليه فسقط وكان اول شهيد. انه الصديق علي محمد هادي مروه ابو نزيه رحمات الله عليه.



مقبرة الشهداء ـ شرقي المقبرة العامة

شامخة الرأس اعتزازا وليسير الباقون على نهجهم في دفع الاحتلال ورده عن تراب هذا الجبل العاملي الاشم. . . ولحظة استشهادهم كان لسان حال كل منهم يقول :

سرق الغاصب احلامي … وما اصبو اليه

ظن اني صرت عبدا … ساعيا بين يديه

مرجفا ان جنوبي … ضفة من ضفتيه

لا تلمه. قد طغى نصر … على العربان اعمى ناظريه

ها انا ابصرت دربي … هازئا من جحفليه

مستعيدا كل احلامي … وما ضاع لديه

بسلاح جهل الباغي مداه ساخرا من فقرتيه

غير ان الله والايمان كانا عند حدي شفرتيه [1]

ويصرخ احدهم وهو يلفظ انفاسه :

ولست ابالي ان صُرعتُ مجاهدا على اي جنب كان في الله مصرعي

وها هي وديان الزرارية ووهادها تردد كل صباح ما قالوه وتبثه عزيفا خالدا ويشترك الليطاني في اسفل وادي عين الحور بترنيم نشيدهم ذاك، كلما تمايل الصفصاف وتفتحت شقائق الدفلى ممتزجة بأغنيات يسار واهازيج الرعاة على شباباتهم. . .

أبناء الزرارية لا يحبون الوظيفة : (خاصة في الأدارات الرسمية والمؤسسات العسكرية. .)

طغت الرغبة في الاغتراب على كل ما عداها من طموحات ابناء الزرارية. فما يكاد الاب يستقر في افريقيا ويفتح متجرا او معملا حتى يرسل في طلب ابنائه اليه ليساعدوه ويعملوا هناك. حتى اصبح اكثر من نصف سكان الزرارية مغتربا في افريقيا اولا وعلى الاقل في صور وصيدا وبيروت طلبا للعمل في الحقل التجاري. وجاء يوم كادت الزرارية تقفر من ابنائها ما عدا الشيوخ والعجزة لذلك لم تستهو الوظيفة الرسمية او في المؤسسات الخاصة ابناء الزرارية الا من لم يتح له أن يغترب لسبب من الأسباب. على صعيد سلك الدرك او الجيش اللبناني لا نجد من ابناء الزرارية سوى قلة قليلة لا تتجاوز عدد اصابع اليدين. واكثرهم

---

(١) مقطع من قصيدة للمؤلف .

منخرطون في حقل التدريس اما بالتعاقد مع مجلس الجنوب او في الملاك للتدريس في المدارس الرسمية.

فهناك ٢٢ مدرسا رسميا من ابناء الزرارية في ثانويتها الرسمية وحوالي ٦٠ مدرسا ومدرسة في المدارس الخاصة التي انشئت في الثمانينات.

والباقون من الذين لم يهاجروا يتعاطون اعمالا حرة في البلدة.

وعلى العموم ان ابناء الزرارية لم يخلقوا للوظيفة بل هم يكرهون قيودها ومردودها الضئيل فلا يقبلون عليها الا مرغمين فقد شاع في بلدتهم جو الاغتراب والضرب بعيدا في اربع رياح الارض وهو جو الحرية والعمل الحر الذي مارسوه في الداخل والخارج منذ امد بعيد. . بعكس مناطق اخرى من لبنان ككسروان والكورة وخاصة البقاع والهرمل حيث نرى ابناء هذه المناطق من الطبقتين. . الدينا والوسطى يتهافتون على الوظيفة تهافت الفراش ولا سيما سلك الدرك والجيش. ولهذا طبعا اسبابه ومبرراته لا مجال هنا للخوض فيها.

الاختصاص : مما يملأنا اعتزازا واعجابا ان جميع ابناء الزرارية من الجيل الجديد في الستينات والسبعينات، جيل الذين اتيح لهم ان يتعلموا، قد تابعوا تحصيلهم العملي حتى الجامعة ولم يكتفوا بشهادة السرتيفيكا او البريفيه اوالباكلوريا كما كان يفعل جيل الثلاثينات والاربعينات تحت وطأة الحاجة والاغتراب المبكر ما عدا القلة القليلة من ذلك الجيل التي لم تضع مواهبهم العلمية في مجاهل افريقيا. كانت اول دكتوراه نالها بجدارة احد ابناء هذا الجبل الذين ولدوا في اوائل العشرينات عنيت الدكتور ماجد فخري واخاه راشد : الاول في الفلسفة والثاني في التاريخ (١٩٤٩) وتكر السبحة في الستينات والسبعينات

وحتى الآن، فاذا كل مدرس في المتوسطة الرسمية والثانوية الرسمية والخاصة يحمل الاجازة الجامعية الليسانس في حقل اختصاصه ومنهم من يحمل الماجستير ويسعى الى الدكتوراه. وبالطبع فان وراء هذا الجهد الشخصي اباء مجاهدين مغتربين حرموا من العلم فهاجروا وتحملوا المشاق واجتازوا الصعاب ليستطيعوا ان يدخلوا ابناءهم المدارس والجامعات.

عدد الاجازات الجامعية في الزرارية خلال نصف قرن : (او على التحديد من ١٩٤٩ وحتى الآن) كثيرة ومتنوعة الاختصاصات.

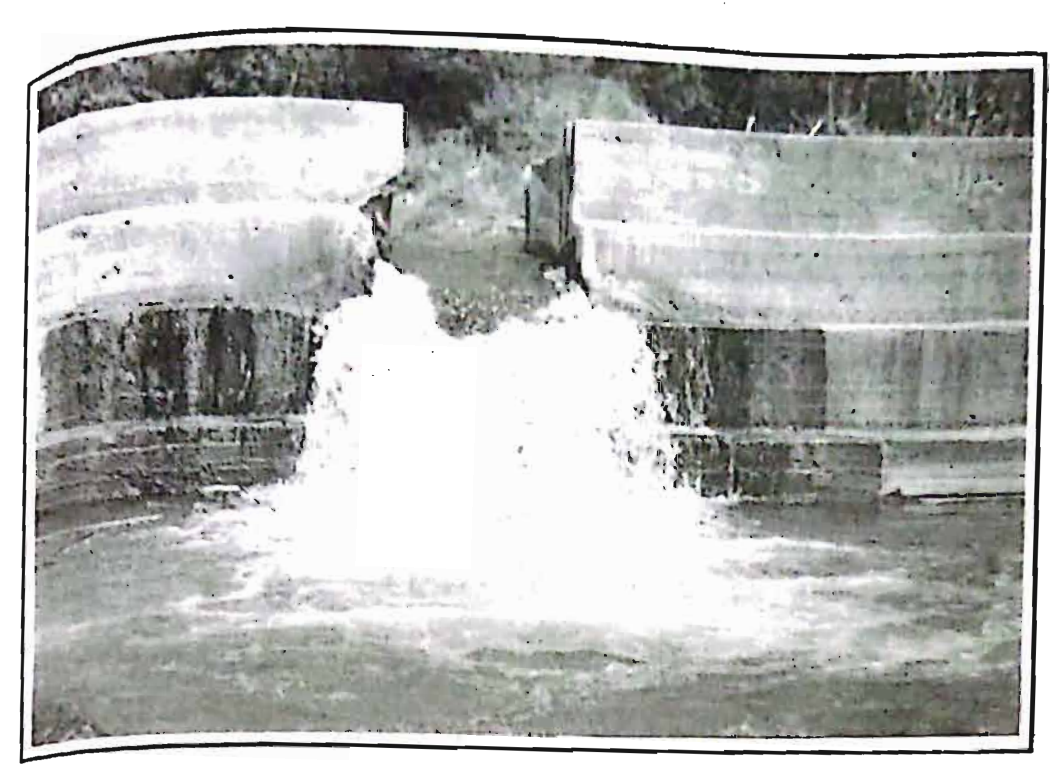
تخصصات مهنية :

اما حاملو البكالوريا (القسم الثاني) وحدها فقليلون لان حامليها لا يكتفون بها بل يتابعون تخصصهم في مختلف جامعات لبنان ومصر وسوريا ولندن وباريس وبلغاريا وروسيا وغيرها.

الرياضة : يبدو ان النشاط الرياضي، في الزرارية وحتى اعداد هذا الكتاب، لا يوليه المشرفون على هذا النشاط الاهتمام اللازم، مع ان الروح الرياضية لم تكن تنقص شبان البلدة في العقود الماضية، واكبر دليل على هذه الروح ممارسة جيلنا وجيل آبائنا لشتى الألعاب والرياضات المعروفة في تلك العهود والعقود كرياضة ركوب الخيل و«نصب الميدان» للتسابق واحراز قصب السبق يحققه المهرة من الخيالة .. و« ربط » الدبكة في كل مناسبة، والسباحة في النهر والبحر. وقد برع فيها الكثيرون بشكل ملحوظ، حتى ان احد ابناء الزرارية ، وكان مقطوع اليد اليمنى[1] كان طويل النفس تحت الماء ، لذلك فقد تمكن من انتشال

---

(١) ويقال المقطوع اليد : الاقطع .



شلال على الليطاني

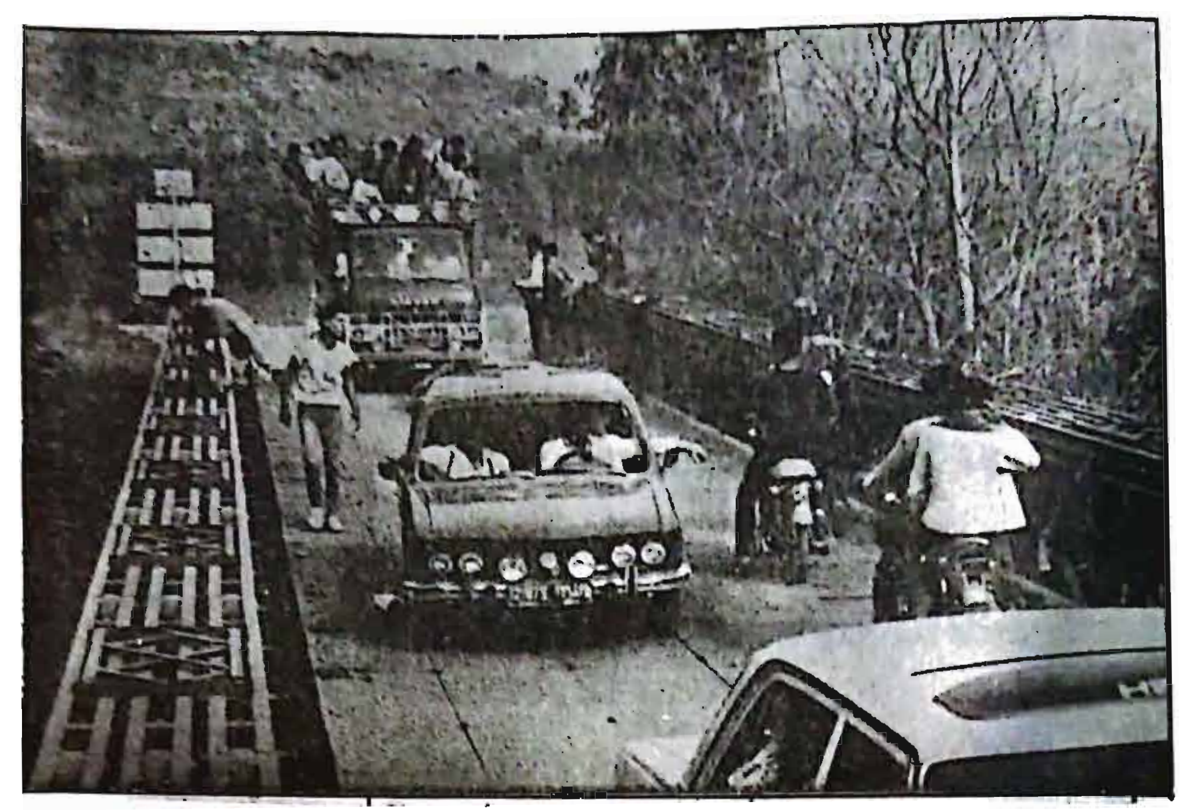
قرب بساتين « عين بو عبد الله »

جثة احد الغرقى قـرب مصب القاسمية بعد فشل مئات الغطاسين في انتشالها [١]

اما جيل اليوم من طلاب وهواة رياضة فلا تنقصه تلك الروح التي استمدها من آبائه واجداده وزاد عليها بالعلم والتدريب ووسائل الرياضة الحديثة.

---

(١) شاهدت ذلك بنفسي حين استنجد اهل الغريق به ـ وكنا في رحلة سياحة بحرية ولحظة عينوا له المكان غطس غطسة طويلة خفنا معها ان يغرق هو الآخر وما هي الا لحظات، بل دقائق ، حتى طفا على وجه الماء حاملا الجثة على كتفيه . . كان المشهد مأساوياً خالطه شيء كثير من الاعجاب بهذا السباح الزراري البارع . هذه المهارة في السباحة اكتسبها اهل الزرارية من ليطانهم العظيم الذي كان كثير المياه متلاطم الامواج في الاربعينات يوم لم يكن هناك دولة تسرق مياه الليطاني وغير الليطاني . . واعني بها طبعا : اسرائيل مغتصبه الارض والمياه . . .



الجسر الجديد الذي افتتحه دولة الرئيس نبيه بري منذ سنتين وسماه جسر ٦ شباط
وهو جسر تواصلي ذو اهمية اقتصادية وسياحية كبرى يصل ما بين قري الجنوب
الواقعة شمالي الليطاني وجنوبه .

وهناك ملعب لكرة القدم في الزرارية يتدرب فيه بعض الرياضيين. لكنه غير صالح حتى الآن فنياً وتجهيزا لممارسة هذه اللعبة الشعبية الهامة.

ويأمل هواة هذه اللعبة من طلاب وكشفيين من الجمعية الانمائيةاذا كتب لهذه الجمعية ان تجدد شبابها وتعود الى سابق نشاطها من المغتربين المتمولين الغيارى على احياء الروح الرياضية في البلدة خاصة وان اكثرية هؤلاء الغيارى من المغتربين هم من الشبان روحا وهمة وغيرة، ان يبادروا الى اتمام هذا الملعب وانشاء ملاعب اخرى للعبة الكرة الطائرة وكرة السلة. وحتى . . . كرة المضرب (التنس) فليس كل هذا على همتهم وغيرتهم بعزيز. . .

ويلاحظ انه قبل الاجتياحين الاسرائيليين للبنان كانت الحركة الرياضية ناشطة فتألفت النوادي الرياضية والفرق. . . لكن ما عتم هذا النشاط ان خبا وكاد يضمحل نظرا لانخراط العديد من الشبان في صفوف المقاومة والتنظيمات الفلسطينية المختلفة والبوم بعد ان انتهت الحرب الاهلية وعاد شبان الزرارية من جهادهم الاصغر الى جهادهم الاكبر مزاولة نشاطهم داخل بلدهم على مختلف الصعد فأننا نأمل منهم ان ينظموا صفوفهم الاجتماعية والرياضية بمساعدة المتمولين الغيارى اياهم. . . وهكذا يتكامل تطور الزرارية في شتى الميادين. . .

الفصل التاسع



نهر الليطاني

نهر الليطاني (في نظر الخبراء)

١ـ **الليطاني** : اطول الانهر اللبنانية ١٦٠ كلم .

اغزر الانهر اللبنانية ٧٠٠ الى ٧٥٠ مليون متر مكعب سنوياً

اكبر الانهر اللبنانية ١٧٠ كلم الحوض المغذي

٢ـ **حوضه** : يبدأ حوضه (منبعه) قرب مدينة بعلبك وينحدر تدريجيا من الشمال الى الجنوب حتى جوار بلدة القرعون حيث السد (المسمى بسد القرعون)(١) ومنها يشتد انحداره حتى جسر الخردلي بالقرب من قرية دير ميماس. ثم يستدير غربا بانحدار متوسط حيث يصب في البحر شمالي مدينة صور (بين ٧ و ٨ كلم شمالي صور).

---

(١) من المؤرخين الجغرافيين من يقول ان الليطاني يبدأ عند المنحدر الشرقي للبنان من نبع العليق وليس من عين الشمس فوق مدينة بعلبك بدليل ان مياه هذه العين تصب في ما جاورها من الحقول ولا ينفذ منها شيء الى الليطاني . انظر : ذخائر لبنان ص ٣٨ .

٣ـ فوائده الكبرى : يتحكم الليطاني بمناطق يسكنها اكثر من ربع المقيمين في لبنان. مناطق لا تستمد عناصر بقائها عيشا ونموا الا منه ومن روافده. . . تبلغ مساحة هذه المناطق اكثر من ٢٠٠٠ كلم٢ اي ما يقارب ربع مساحة لبنان ولقد منت الطبيعة على هذه المناطق (البقاع الجنوبي وجنوب لبنان) باراض صالحة للاستثمار وجديرة بمياه الليطاني قبل غيرها. . .

٤ـ اتجاهه الطبيعي : اتجهت مياه الليطاني اتجاها تلقائيا ينسجم مع الحاجة الى مياهه : من الشمال الى الجنوب، فجاء الجهل وقصر النظر وسوء الطوية، ليشوه هذا الاتجاه الطبيعي. (١)

متى بدأ التشويه؟ ابتدأ هذا التشويه سنة ١٩٥٤ وتم انجازه سنة ١٩٦٨ وذلك :

أ – باهمال مشاريع مياه الشفة والري اهمالا مطلقا

ب– بانشاء سد القرعون. . . واهمال سد الخردلي

جـ ـ بتحويل مياه عين الزرقاء من حوض الليطاني الى حوض الاولي

د ـ بانشاء معامل توليد الكهرباء بشكل يؤمن تحويل مياه الليطاني من حوض اللطياني الى حوض الاولي. . .

هـ ـ بانشاء معملي الاولي وجون في حوض الاولي. . .

و ـ باهمال انشاء معامل (سحمر ـ قليا ـ الزرارية) من حوض الليطاني. هذه المعامل اوصت بانشائها النقطة الرابعة ومع هذا لم تنفذ.

ز ـ بعدم انشاء سد بسري. . . مما يدعو الى اخذ المزيد من مياه الليطاني من الحوض الاول الى الحوض الثاني.

---

(١) من دراسة سريعة ولكنها هامة وضعها المهندس السيد جعفر محمد جواد شرف الدين وزير الموارد المائية والكهربائية الاسبق.


الليطاني
نحيا ونغرق معه

حـ ـ العودة المتقاعسة الى الاهتمام بمشاريع الري في الجنوب بعد فوات الاوان. (١)

فمن فوائده الكبرى انه يؤمن (بواسطة مشروع القاسمية) الري لبساتين الساحل بين صيدا وصور حيث يروي اربعة آلاف هكتار بواسطة مآخذ المياه على مجرى النهر : بجوار بلدة الزرارية. وهو ما يعرف بمشروع ري القاسمية (منسوب ٤٠ مترا) كما يؤمن الري بواسطة قناة «عميق» ٩٠٠م. في البقاع الجنوبي لمساحة تقارب العشرين الف هكتار، نفذ قسم منها (قسم القناة) ولكن بدون محطة الضخ التي تغذيها بالمياه، وهي غير مثمرة (ناشفة)، والمشروع Fiasco وانفقت مبالغ طائلة للاستهلاك والتنفيذ. . . والنتيجة سلبية ومحبطة . . وبالنسبة لسنترال الزرارية في سد الخردلة. يضاف الى ذلك عقم التفكير : تجمع المياه فتولد كهرباء، ثم تأخذ الكهرباء لضخ مياه الري. . اي كأنني ابيع منتوج بستاني ثم اشتريه، وفـرق المردود Rendement لعدة مرات خسارة ! ومثل آخر تجارة جحا بالبيض !. .

أما امكانيات هذا النهر لجهة الري وتوليد الطاقة فلم تستنفد بعد. . وهكذا يظهر بوضوح ان هذا النهر العظيم هو شريان البقاع ووريد الجنوب. .

روافده : في البقاع : ينضم اليه، في السهل، عدة روافد، منها رافد مياه

---

(١) نفس المصدر . للتوسع انظر الدراسة تحت عنوان : الوضع المائي في لبنان والسياسة الواجب اتباعها في استثمار المرافق المائية ـ ١٩٧١ وزارة الموارد المائية والكهربائية ـ بيروت .

البردوني [1] وغيرها من جهة الشرق، ومتى اجتاز سهل البقاع نفذ من شعاب لبنان مارا تحت قلعة الشقيف (ارنون)، حيث ترفده ينابيع كثيرة منحدرة من سفوح الجبال القائمة على ضفتيه، ويتابع تدفقه بمحاذاة قرية قعقعية الجسر، وفي الوديان جنوبي بلدة الزرارية الى ان يصب في البحر قرب مدينة صور. وعليه يكون اكبر رافد لليطاني هو نهر البردوني او(غزيل) او عين الزرقاء.

الزرارية ربيبة الليطاني ورفيقته الابدية :

تختزن الهضبة الواقعة عليها بلدة الزرارية مياه ينابيعها التي تتفجر صعدا عبر الآبار الارتوازية لتروي بساتين الزرارية المقامة على الهضبة وصولا الى الوادي المسمى بالوطا الذي كان قبل مشروع ري القاسمية خاليا من الشجر الا شجرة دهرية تدعى «الملولة» وبعض كروم الزيتون الهزيلة الجنى، تسيل وسط الوطا ساقية ضحلة تجف صيفا [2] وجميع اراضي الزرارية الواقعة على جانبي المشروع وضفتي الليطاني اصبحت تروى منهما، وهي الواقعة بين (القدام) حيث يبدأ تحويل قسم كبير من مياه النهر حتى بساتين عين « بو عبد الله» قرب القاسمية.

---

(١) يخرج نهر البردوني (او البرذوني) من سفوح قرية قاع الريم ، من اعمال قضاء المتن «المعلقة » وضواحيها ، ويدير عددا كبيرا من ارحاء المطاحن . وعلى ضفتيه في مدينة زحلة عدة فنادق وحدائق ومرابع ومطاعم جميلة التنسيق ، يجلس فيها المرتادون بين الماء والشجر والظلال والاضواء والرذاذ المتناثر ، ويقضون فيها امتع سويعات العمر . . . وليس عن عبث تغنى احمد شوقي بها واهدى المدينة قصيدته الشهيرة : يا جارة الوادي ، مضيفا لقباً جديدا لعروس البقاع .

(٢) ان البساتين المقامة في (الوطا) لا تروى مباشرة من مياه الليطاني لكنني لا أشك بان الآبار الارتوازية ماتدفق فيها الماء بغزارة الا لان الليطاني قريب من اعماقها . .

اسم الليطاني : اصله : جاء في كتاب : ذخائر لبنان (١) ما يلي : ليطاني كلمة سريانية معناها الملعون. والحرام (؟!) وهو معروف بهذا الاسم في سائر مجراه ابتداء من سهل البقاع وجنوب لبنان. ولا يسمى بالقاسمية الا عند مصبه. وتسميته هذه حديثة العهد دالة(ايام العثمانيين) على معنى الفصل بين ايالة عكا وصيدا.

اما اليونان والرومان فقد سموه (لانتوس) ويسمى كذلك نهر ليطا(٢).

الليطاني في حاضره الراهن (في نظر الادباء والشعراء وبعض المؤرخين)

الواقع المأساوي :

كلنا أو اكثرنا يذكر اللوم الذي وجهه بعض المسؤولين الصهاينة لقائد الجيش على انه لم يرسل في حرب ١٩٦٧ كتيبة من الجيش الاسرائيلي لتحتل جنوب لبنان حتى الليطاني. . ورغم ان ذلك لم يتم، الا ان اسرائيل استدركت، وراحت في مطلع السبعينات تنفذ خططها القديمة لسرقة ما استطاعت من مياه هذا النهر الذي لو احسنت الدولة اللبنانية استغلاله بالكامل لما جرؤت اسرائيل على سحب مياهه« التي تذهب الى البحر هدرا». . كما قالت مستندة الى قانون دولي تدعيه زاعمة ان أي دولة مجاورة في العالم لدولة اخرى تفيض مياه انهارها عن حاجتها او هي لا تستغلها، يحق لهذه الدولة اذا كانت شحيحة الموارد المائية ان تأخذ من مياه اقرب نهر لها تابع لتلك الدولة !(٣)

---

(١) ذخائر لبنان تأليف عزتلو ابراهيم بك الاسود . طبع في المطبعة العثمانية في بعبدا بلبنان عام ١٨٩٦ جدد الطبعة طوني بشارة مفرج على مطابع الرهبانية اللبنانية ـ الاشرفية بيروت بدون تاريخ . .

(٢) خطط جبل عامل ص ١٣٢ ، السيد محسن الامين .

(٣) كما هي الحال بين تركيا وجارتيها العراق وسوريا بالنسبة لاقتسام مياه نهر الفرات.

قد يطبق هذا القول او هذا القانون ـ اذا وجد ـ على دولة صديقة وليست في حالة حرب معها كما ان هذا العمل لا يتم بالسرقة والاختلاس سرا، او علانية وبالقوة. . . بل باتفاقات ومعاهدات تعقد بكل حرية ضمن مبدأ السيادة وفي السياق نفسه. . . وهذا ما لم يحدث ، ولا اظنه سوف يحدث (١).

جاء في احدى الاسبوعيات السياسية اللبنانية ما يلي تحت عنوان :

الاراضي والمياه اللبنانيه : من الاحتلال الى التهويد.

في مذكرة تفسيرية حول «الاطماع الاسرائيلية في مياه الجنوب اللبناني» بعثت بها المندوبة الدائمة للجمهورية اللبنانية لدى الامانة العامة للجامعة العربية ما يلي : « ان الثروة المائية التي يختزنها الجنوب اللبناني (جبل عامل) كانت ولا تزال هدفا للاطماع الاسرائيلية التي تبرز مرة بعد اخرى. وقد عبرت اسرائيل عن هذه الاطماع بتصريحات ومشاريع عديدة ترد مبرراتها الى ادعاءات تاريخية، وحوافز دينية توراتية، واقتصادية. ومن المعروف ان مصادر المياه في اسرائيل لا تؤمن لها سوى ١٦٥٠ مليون متر مكعب، تستهلك منها حاليا ٩٠ ٪. فمن هنا ندرك ما قاله بن غوريون عام ١٩٥٥ «بان اليهود يخوضون اليوم حرب المياه مع العرب. . . فالأمن المائي هو من مرتكزات الامن القومي الاساسية لاسرائيل. . إن مياه اسرائيل المحدودة تعد في نظرها عائقا لطموحاتها في استقدام ملايين اليهود اليها. .

---

(١) نفى لي هذا الزعم المهندس السيد جعفر محمد جواد شرف الدين الوزير السابق : نفى وجود مثل هذا القانون غير المعقول وغير المنطقي . فلبنان بحاجة الى كل نقطة ماء من الليطاني وغير الليطاني ، كما قال ، واذا كانت الدولة اللبنانية لم تتمكن من إقامة مشاريع سدود وبرك وشلالات لتوليد الطاقة فهذا لا يعني ان تستند اسرائيل الى هذا العجز اللبناني وتقدم على سرقة مياه الليطاني وسواه .

وعليه يبدو الوضع الحالي لمياه جبل عامل على الشكل التالي وباختصار شديد :

١- نبع الوزاني : عام ١٩٨٦ احاطت اسرائيل بسياج عدة هكتارات من الارض حول النبع [1] بعد ان طردت المزارعين اللبنانيين، وبدأت بمد اقنية من هذا النبع باتجاه الشمال بحجة ري قرى العرقوب الواقعة داخل ما تسميه «الحزام الامني» وعام ١٩٨٩ اقدمت اسرائيل على مد انابيب مياه بقياس ٦ انش من نبع العين المتفرع من نهر الجوز وهو احد روافد الحاصباني بدعوى تزويد قرى منطقة حاصبيا المحتلة بالمياه. . .

٢- نهر الحاصباني : يصب هذا النهر في بحيرة الحولة التي جففتها اسرائيل وحولتها الى ارض زراعية ومدت فيها اقنية للري. وهي تستغل حاليا مياه الوزاني والحاصباني بصورة كاملة بمعدل ١٤٠ مليون متر مكعب سنويا. وتجدر الاشارة الى ان مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٦٤ شكل هيئة استثمار مياه الاردن وروافده، ومنها الحاصباني ونبع الوزاني هدفها تأمين استثمار هذه الروافد، وانشاء السدود في الاراضي العربية ولصالح الاقتصاد العربي. وظل هذا المشروع يتعثر حتى بدئ به قبيل عام ١٩٦٧ لكن النكسة او النكبة التي حلت بالجيوش العربية في هذا العام ادت الى احتلال اسرائيل لموقع المشروع والاستيلاء على آلياته التي لم تدمرها اسرائيل قصدا للاستيلاء عليها سليمة فيما بعد.

---

(١) الوزاني نبع يتفرع من نهر الحاصباني في وادي التيم ويتجه جنوبا ليكون مع نهري بانياس واللدان المنابع العليا لنهر الاردن .

وبعـــــد : هل يسلم الليطاني فيسلم الجنوب؟

ان مطامع اسرائيل في هذا النهر قديمة ـ كما رأينا ـ قدم اهمال الدولة اللبنانية ولسوء استغلالها له. ولولا همة المهندس الوطني الكبير المرحوم ابراهيم عبد العال في انجاز الدراسات الطوبوغرافية والجيولوجية اللازمة. . . ومن ثم اقناع المسؤولين بفوائد اقامة مشروع القاسمية، لولا هذا المهندس لما انجز هذا المشروع (في الاربعينات) ولظلت الاراضي الساحلية الشاسعة الواقعة بين صور وصيدا تزرع بالقمح والشعير ليس غير، وبعضها يبقى بورا. . ثم جاءت النقطة الرابعة ١٩٥٤ واعتمدت دراسات عبد العال وأكملت المشروع بكل اجزائه.

وأوضح دليل على اطماع اسرائيل في مياه هذا النهر المشروع المضاد الذي قدمته لجونسون عام ١٩٥٤ والمسمى بمشروع كوتون الذي طالبت فيه بتحويل ٤٠٠ مليون متر مكعب منه أي ما يعادل ٥٥٪ من مياه الليطاني تاركة للبنان صاحب النهر الشرعي من منبعه الى مصبه ٤٥٪ فقط ! كما ان سيطرتها على منطقة الحزام الامني جعلتها تضع يدها على ٣٠ كلم من مجرى هذا النهر وهذه المسافة تتدرج من منسوب (علو) ٦٧٠م. الى منسوب ٥٤٠م.

واذا كانت اسرائيل لم تنفذ حتى الآن مخطط السرقة هذا، داخل الشريط، فذلك عائد لمراعاتها للوضع الدولي العام والايهام بانها لا تريد التوسع والبقاء في الشريط. . لكن تدفق اليهود (او الخزر) السوفيات الى اسرائيل سيدفعها الى الاسراع ببدء تنفيذ مشاريعها وأطماعها في هذا النهر اليتيم ! الامر الذي يشكل خطرا كبيرا على ثروتنا المائية في الجنوب. غير ان اسرائيل قد انجزت فعلا وكما هو معلوم، وصل شبكة مياه الري لري المنطقة الحدودية بشبكة مياه مشروع الليطاني عبر شبكة مياه الجليل الاعلى . ويفهم من هذا ان اطماع هذه الدولة

العدوانية الاستيطانية لا تقتصر على سرقة المياه فقط بل تشمل الارض والمياه معا!.

سور من بحار وانهار!

ان اسرائيل تريد ان تحيط نفسها بخط دفاعي طبيعي استراتيجي يصعب اجتيازه :

ففي الغرب بحر من المياه

وفي الشرق وادي نهر الاردن والجولان

وفي الجنوب : سيناء : بحر من الرمال

وفي الشمال : نهر الليطاني والحاصباني ونبع الوزاني واوديتهما السحيقة

واخيرا : مهما ادعت اسرائيل بأن لبنان ليس بحاجة الى مياه هذا النهر، وان مياهه تذهب هدرا الى البحر فالواقع ان لبنان بحاجة الى كل قطرة ماء فيه - كما اسلفنا - سواء لاقامة سدود ري ، اوجر مياه الشفة الى قراه ومدنه، كما فعلت الحكومة اللبنانية عندما انجزت بعض مشروع مياه جبل عامل، ثم توقفت[1]. وكانت اسرائيل ولا تزال هي العائق الاكبر الذي حال ويحول دون

---

(١) يمثل هذا المشروع ، في الواقع المرحلة الثانية من مشروع الليطاني ، ويقضي ببناء سد في منطقة الخردلي لتجميع مياه السيول والامطار بين القرعون ومنطقة السد ، واستغلالها في ري اراض في الجنوب منسوبها دون ٦٠٠ متر ارتفاع عن سطح البحر . ولكن المشروع جرى تعديل عليه سنة ١٩٧٣ إذ أقرت الدولة الاقتراحات المتعلقة برفع منسوب مياه الري إلى ٨٠٠ متر فوق سطح البحر . الا أن هذا المشروع كان لا يزال قيد الدرس حين حالت الاحداث الدامية في لبنان دون تنفيذه . . وربما لاسباب اخرى!

استثمار مياه الليطاني . خاصة وان هذا النهر لا يبعد في بعض مجراه عن اسرائيل سوى ٨ كيلو متر فقط. والمشروع الوحيد الذي استطاعت الحكومة انجازه بعد مشروع القاسمية هو بناء سد يخزن ٥٠٠ مليون متر مكعب، انشأت على مقربة من هذا السد معملا للكهرباء. أما مشاريع الري الأخرى فلم تستطع ان تنفذها حتى الآن، بل انها تستطيع لكنها لا تريد. . .

والدنا والمهندس هشام عسيران :

منذ اواخر الستينات قامت علاقة اعجاب ومودة متبادلين بين المرحوم والدنا والمهندس الناشىء يومذاك هشام عسيران الذي اعجب بآراء وخطط المرحوم في انشاء السدود النهرية والجسور. وحين شرح للاستاذ هشام ما كان ينوي انجازه من ضخ مياه الليطاني باتجاه بلدتنا الزرارية بواسطة محركات ضخمة لتوليد الطاقة الكهربائية وانارة البلدة والقرى المجاورة ومدها بمياه الشفة وري الاراضي المرتفعة ويسمونها الجلالي البعل ولكن الحرب العالمية الثانية حالت دون ذلك. .

عندما شرح له ذلك دهش الاستاذ هشام، ورأى فيه مهندسا بالفطرة سليم الخطط الهندسية التي تنقصها الدراسة العلمية ولكن لا ينقصها الطموح ولا امكانية التطبيق.

ومما قاله المهندس هشام فيه اي في والدنا :

«وهناك حلم كنا نتمناه مع المرحوم السيد يحي ، المهندس بالفطرة هو مشروع طريق القاطع الذي يربط الزرارية عبر نهر الليطاني بالضفة المقابلة : (طيرفلسيه) مما يحقق صلة استراتيجية في منطقة جبل عامل الوسطى، بل تواصلية انسانية. . وقد تبدت هذه الحاجة الملحة ابان الاحتلال الاسرائيلي ونسف جسر القاسمية الساحلي، ووقوع جسر الخردلي ضمن «الشريط الامني » الذي

اقامته اسرائيل، وكون جسر القعقعية تحت مرمى القنص الاسرائيلي بالاضافة الى عدم ملاءمته لإتصاله مع شبكة الهاتف القائمة. وقد قمنا بالدراسة الفنية للمشروع صيف عام ١٩٨٩ لحساب مجلس الجنوب وحيث توفقنا بتخطيط مسار فريد لا يتجاوز الخمسة كيلوميترات مع جسر بمعدل ٥٢ مترا على الليطاني يصل منطقة الزرارية عبر وادي البرجين، وبالتالي منطقة النبطية أي جبل عامل الشمالي ببلدة طير فلسيه، ومن ثم بمنطقة صور وتبنين وبنت جبيل، أي منطقة جبل عامل الجنوبية، وقد بوشر مؤخراً بالتنفيذ، وسينعكس ذلك ايجابيا على الجنوب وعلى جميع الاصعدة، ويبرز بله يكرس ويعزز موقع الزرارية الريادي في حلقة الاتصالات العاملية. والحمد الله على تحقيق هذا الحلم الذي كرس رؤيا المتقدمين من هذه البلدة وعلى رأسهم السيد يحيى شرف الدين : المهندس الفذ بالفطرة»

تشويه مجرى الليطاني : وقد امدنا الاستاذ هشام بمعلومات اضافية عن حقيقة هذا التشويه نوجزها بالآتي :« ان انشاء سد القرعون هو نواه وقلب المشروع لا يشكل تشويها، بل ان عدم تنفيذ سد (الخردلي تحت قلعة الشقيف ـ ارنون) هو النقص الفادح الفاضح : حيث ان الاعمال بالإكمال اذ انه بعد تخزين المياه بين سد القرعون المنفذ، وسد الخردلي العتيد بـ ١٢٨ مليون متر مكعب، وهو الاستنادة الحقيقية للجنوب من النهر، ان للري والشفة والكهرباء (سنترال الزرارية). وعدم اقامة هذا السد على الخردلي تجعل كمية ١٧٠ ـ ١٨٠ مليون متر مكعب تذهب هدرا للبحر سنويا. . .

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول !!



الليطاني قبيل مصبه عند القاسمية

فعليه : ان التصميم الامثل يقتضي، حتما، بعد انشاء سد القرعون انشاء سد الخردلي لأنهما متكاملان للاستثمار الامثل لهذا النهر ومياهه. »

ويقول الدكتور جورج ديب الخبير في القانون الدولي والمحاضر في الجامعة اللبنانية : « ان كل مياه لبنان تنبع في لبنان وتصب في لبنان باستثناء نهر العاصي، وبالتالي فهو ـ حكما ـ صاحب الحق في هذه المياه ـ واذا كان لبنان اليوم غير قادر على استثماره كليا فهو سيكون قادراً على ذلك حين يستقر وضعه السياسي والأمني والاقتصادي . اما ما قاله احد خبراء المياه وهو المدعو شاتيلا بان في لبنان مياه فائضة فهذا غير صحيح . وهذا التصريح ان صح فهو يدعو الى الأسف والاستغراب حقا ، وهو تصريح نسب اليه (اي الى شاتيلا) في مؤتمر المياه المنعقد في دبي . . »

وبعد، هذا هو نهر الليطاني في ماضيه وحاضره ومستقبله المهددين بخطر اسرائيلي داهم. واذا كنا في هذا الكتاب الخاص بتاريخ الزرارية قد استطردنا الى ذكر الليطاني وتاريخه فللعلاقة الجدلية والوثيقة التي تربط نمو الزرارية وازدهارها الزراعي والديموغرافي بنمو هذا النهر وبقاء مياهه فيه، سليمة كاملة غير منقوصة، ولا مسروقة! ولتبقى الزرارية وكل قرية ومدينة عاملية تستفيد منه، على قيد الحياة.. ما دام هو على قيد الحياة.. فنحن في الواقع نحيا به ونجف معه..

نهر الليطاني في نظر الشعراء الطليعيين

ومن قال ان الشعر - هو الآخر - لا يستقي من الليطاني ؟! كما في قصائد شعراء المقاومة العامليين كحبيب صادق وكشوقي بزيع وجودت فخر الدين وعباس بيضون ويحي جابر ووهيب عجمي وسواهم.

وقد وصفه سعدون حسين في كتابه : ثورة القرى او انتفاضات القرى في جنوب لبنان. قال فيه : « اسمر كسنبلة القمح، طويل القامة هادىء كالموت : اذا مر من امام ذبابة يلقي عليها تحية... لا ينام شبعان وجاره جائع... يزور حقول الفلاحين في الصيف.. يوزع عليهم الماء.. يبل ريقهم، يسقي اشجارهم ونصوبهم، وخضارهم، كما يصعد الى القرى محرضا الارض على الاخضرار.. والعصافير والشحارير، وكل انواع الطيور تصيف بين ربوعه.. اهالي الضيع والقرى والمدن والبلدات وخاصة الزرارية يتعرون على شواطئه.. يلتحفون بعباءته الزرقاء.. واكثرية الشبان والصبايا يقضون شهر العسل في مواكبة العشيقة... بل حدثتني صبية من ارنون اشترطت على حبيبها ان يعقد «هو» قرانها...

الاطباء اعتبروه دواء للعقم والشلل.. بل ان عجوزا اغتسلت بمياهه فعادت صبية شقراء تسابق الرجال على طلب يدها. وعندما حشد العدو جيشه

الاحتياطي عَصّبَ سلطعون وحية مائية. . ولكنه استمر بالفيضان. . ولما سأل قائد جيش العدو عن مغزى اقتحام النهر ومحاولة تعصيبه اجاب بأن المخابرات شاهدت الشيخ راغب حرب والشيخ عباس حرب ومحرم العارفي يصلون في جامع مائي بنوه تحت الماء في اعماق النهر. . وان عمار وعصام عز الدين ونزيه قبرصلي يستحمون يوميا بمياه النهر، ويتسللون عبر النهر يفجرون القنابل ويطلقون الرصاص ثم يختفون في الماء. . . لهذه الاسباب قررنا سحب مياه النهر، تعصيب النهر، تنشيف النهر، ،، النهر استمر بالفيضان، فهو لم يعد نهرا، لم يعد ينبع من «العليق» في بعلبك. . . لم يعد يصب في البحر. . . اصبح اكبر واقوى، صار الارض والوطن وكل الشعب. . »

جيران الليطاني سباحون مَهَرة

يوم كان الليطاني نهرا عظيما عميقا كان شبان الزرارية يعتبرونه بحرهم لا نهرهم فقط يخوضون غمراته ويتعلمون السباحة فيه حتى ايام فيضانه.

لذلك برع منهم سباحون كثيرون. وقصة ذاك السباح الاقطع من شبان الزرارية والذي انتشل من البحر على القاسمية جثة غريق عجز سباحو صور عن انقاذه. . هذه القصة يعرفها القاصي والداني وقد حدثت في الاربعينات. . وها هو بطلها حي يرزق واسمه حسين علي امين من الزرارية. . . الليطاني اذن مدرسة عليا يتخرج منها السباحون الكبار قديما، والمقاومون يقطعونه اليوم مشيا على الاقدام. . . باتجاه العدو. . (١)

---

(١) وردت قصة هذا السباح الزراري في مكان آخر من فصل الفولكلور.

الفصل العاشر

ابو ذر الغفاري داعية ومرابط

يقول صاحب كتاب : ابو ذر الغفاري[1] :« اتمثله وهو ينهب الارض بقدميه في رحلته التاريخية الثأرية حاملا على ظهره هموم المظلومين المعذبين وعلى لسانه تتجسد صرختهم. . اراد بسيرته وجهاده ان يخرج عن حدود الزمان والمكان ويرقى قمة الحرية، حرية الكلمة ، وحرية التعبير فكان منبر الاسلام في فترة من فترات الحكم. . » قال عنه ابن مسعود :«ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر. ومن سَرَّه ان ينظر الى تواضع عيسى بن مريم فلينظر الى ابي ذر». [2]

قضى ابوذر فترة بين بني قومه، ثم عاد ليصحب النبي (ص) ويأخذ عنه العلم والمعارف والحكمة . وقد حظي من رسول الله بالاهتمام الكبير، والعناية الخاصة ـ فقد كان رسول الله يبتدئه بالسؤال والكلام اذا حضر، ويسأل عنه اذا

---

(١) انظر / ابو ذر الغفارى للشيخ محمد جواد آل فقيه.

(٢) الاستيعاب ـ الاصابة ح ١ ص ٢١٦

غاب. فعن ابي الدرداء قال: «كان النبي (ص) يبتدىء ابا ذر اذا حضر ويسأل عنه اذا غاب [1]» ويظهر من بعض الاخبار انه (ص) كان يمازحه، كما كان هو يمازح النبي. وقال في حقه يخاطبه: اكرم بك ابا ذر. انك من اهل البيت [2].
وقال الامام علي حين سئل عن ابي ذر: «وعى ابو ذر علما عجز الناس عنه. الخ. [3] وقال عنه رسول الله يتنبأ بمصيره: «يمشي وحده ويموت وحده، ويبعث وحده، ويشهده عصابة من المؤمنين».

وليس هنا مجال الأفاضة عن فضل ابي ذر وعن اسلامه وتفضيل النبي له على صعيد الزهد وقوة الايمان وحبه للرسول وتشيعه[4] لعلي وصراحته في الحق وجرأته في مجابهة الباطل.

محنة ابي ذر:

يبدو واضحا ان «الاعلام» الاموي، اذا صح التعبير، قد غطى على كثير من اخبار ابي ذر، لا سيما في الفترة ما بين خلافة عمر وعثمان، إذ لا نجد شيئا عن سيرته وتنقلاته وعلاقاته ومواقفه يشبع فضولنا، خاصة في مسألة نفيه - ايام

---

(١) تنبيه الخاطر ص ٢٠٠

(٢) الغدير ج ٨ ص ٣١١

(٣) الكامل ج ٢ ص ٢٨٠

(٤) وردت كلمة شيعة ايام الرسول. جاء في كتاب: الشيعة وفنون الاسلام ص ٣١ ما خلاصته: «قال جابر بن عبد الانصاري: كنا عند النبي (ص) فأقبل علي فقال رسول الله: قد اتاكم اخي ثم التفت رسول الله الى الكعبة فضربها بيده ثم قال: والذي نفسي بيده: ان هذا وشيعته مشيرا الى علي، هم الفائزون يوم القيامة، راضين مرضيين. واكد هذا الحديث ابن الاثير. ويضيق مجال الحاشية هنا عن ذكر الاحاديث التي لفظ فيها النبي كلمة - شيعة (انظر - الصواعق المحرقة والكامل لابن الاثير وغيرها)

عثمان ـ فقد قيل انه جاء الى الشام بمحض ارادته [1] اذ لاقى في المدينة وفي مكة من المضايقات ما جعله ينأى بنفسه عن هؤلاء الذين يكيدون له. . هذه رواية يمكن تصديقها. فقد جاء الى الشام ايام عثمان حيث كثرت الوشايات والدسائس ضد شيعة علي وبالذات ضد ابي ذر هذا الصحابي العنيد المتشيع لعلي وآل النبي تشيعا ايمانيا عميقا. وسواء كان نفيه اختياريا او اجباريا من قبل عثمان. فقد حدث ان ابا ذر بدأ نشاطه في نشر التشيع بين اهل الشام حيث مكث بين ظهرانيهم مدة طويلة تقارب العشر سنوات ، مما حدا بمعاوية وهو الذي اصطحبه في غزواته وفي فتح قبرص بالذات [2] الى ان ضاق به وبنشاطه في بث التشيع بين اهل الشام وبين افراد الجيش. . شكاه الى عثمان فاستقدمه هذا الاخير الى المدينة مركز الخلافة، ومن هناك نفاه الى الربذة [3] حيث مات جوعا وعطشاً.

ابو ذر في بلاد جبل عامل :[4]

اما وقد طابت اقامة ابي ذر في الشام، فمن الطبيعي جدا ان يطوف هذا

---

(١) جاء ابو ذر الى الشام بعد وفاة ابي بكر الى ان شكاه معاوية الى عثمان . وهذه فترة اقلها عشر سنين ان لم تكن سبع عشرة سنة . وحين يقولون : جاء الى الشام لا يعنون دمشق وحدها بل بلاد الشام ومعها الساحل الشامي المعروف بجبل عامل . . المؤلف .

(٢) دراسات في تاريخ الساحل الشامي ـ لبنان من الفتح الاسلامي حتى سقوط الدولة الاموية ص ١٦٠ وما بعدها للاستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري ـ جروس برس ـ طرابلس ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .

(٣) وهي قرية شديدة الحرارة تبعد عن المدينة مسيرة ثلاثة ايام .

(٤) جاء في كتاب : متن اللغة للشيخ احمد رضا : مادة ع م ل : بنو عاملة حي من ولد الحارث بن عدي ينتهي الى كهلان بن سبأ . نسبوا الى امهم عاملة . . . بنت مالك القضاعية وجبلهم بالشام فوق صور وصيدا . يعرف بهم ، واشتهر باسم جبل عامل تخفيفا .

الصحابي المعروف منذ كان يحب التطواف والتجوال في هذه الديار الشامية وخاصة الثغور كبيروت وصيدا وصور والصرفند[1] على الساحل الجنوبي اللبناني بين صور وصيدا اما لماذا اختار ابو ذر الثغور الساحلية كالصرفند فذلك لأن ابا ذر كان من جملة المرابطين المستعدين لمواكبة غزاة الجزر وفاتحيها . هؤلاء المرابطون هم : ابو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وابو الدرداء الانصاري، وام حرام بنت ملحان وشداد بن اوس ووائله بن الاشقع وابو امامة الباهلي والمقداد بن الاسود وعبد الله بن بشر المازني وعبده بن عبيد السلمي وغيرهم من الصحابة كانوا في مقدمة الغزاة الى جزيرة قبرص مع معاوية حين خرج بالاسطول من ثغر عكا سنة ٢٨ هجرية ٦٤٩ ميلادية. وكان كل منهم يرابط في ثغر من ثغور الشام[2] وبعدهم كان الامام الاوزاعي مرابطا [3]

كان ابو ذر ـ اذن ـ يشترك في غزوات معاوية البحرية حبا بنشر الاسلام ـ لا حبا بمعاوية الذي كانت له معه ومع ابيه قبله مشاحنات وتحديات يفضح فيها تحويلهما دولة الاسلام الى مزرعة، بل الى مملكة تتحكم في ملوكها نزعة العصبية القبلية والغايات الشخصية والانحراف عن النهج القويم ـ والثأر ـ خاصة من آل النبي واصحاب علي. وكان مما دفعه الى الشام انه لم يعد يتحمل رؤية التجاوزات

---

(١) كان معاوية يصحب ابا ذر في غزواته البحرية انطلاقا من هذه الثغور . ويبدو ان أبا ذر صمم على السكن في احد هذه الثغور وهو الصرفند . وهكذا كان . وقد بنى فيها مسجدا كما بنى له مقام في ميس الجبل في اقصى قرى جبل عامل الى الجنوب المطلة على غور الاردن .

(٢) لبنان من الفتح الاسلامي حتى سقوط الدولة الاموية ص ١٦٠ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٦ .

المالية والافتائية ترتكبها بطانة السوء في بلاط عثمان برضى من عثمان نفسه. . ككعب الاحبار (اليهودي المتظاهر بالاسلام) ومنها : كان ابو ذر ذات يوم في مجلس عثمان حيث سمعه يقول : ارأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره، فقال كعب : لا يا امير المؤمنين. فدفع ابو ذر في صدر كعب وقال له : كذبت يا ابن اليهودي. . فقال عثمان : اترون بأسا ان نأخذ مالا من بيت مال المسلمين في ما ينوبنا من امورنا ونعطياكموه، فقال كعب : لابأس بذلك. . . فرفع ابو ذر العصا فدفع بها الى صدر كعب، وقال : يا ابن اليهودي ما اجرأك على القول في ديننا(١).

ابو ذر او الفكر المقاوم :

يبدو ابو ذر من خلال كل ما روي عنه وعن مواقفه، مقاوما شرسا لا يتردد في فضح التجاوزات الفقهية، ومقاوما أشد شراسة وعنادا على صعيد التصدي للبذخ والترف وانفاق مال المسلمين على غير وجه شرعي. كما قاوم الارستقراطية الحاكمة ايام عثمان، صارخا ، غير هياب ، في وجه طغيان هذه الارستقراطية المتخمه (٢).

فليس غريبا ان نجد اهل جبل عامل بشكل عام، عبر العصور، والشبان المتنورين اليوم وقد ورثوا هذه الروح المقاومة التي زاد من ضرامها استشهاد الامام الحسين بن علي ثم طغيان المماليك والعثمانين والفرنسيين بعد ذلك ثم مقتل الشهيد الاول والثاني ظلما وعدوانا. . ثم طغيان الجزار واخيرا لا آخر اسرائيل ! ! كل هذا وذاك جعل من ابناء هذا الجبل مقاومين بالفطرة والارث والروح. . .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ١ +٢ ج اول ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٨٢

(٢) انظر : امل الآمل للحر العاملي ـ القسم الاول ـ مؤسسة الوفاء بيروت ط ٢ ١٩٨٣.

مميزين عن غيرهم، في هذا المجال، لا سيما وان اذى الاحتلال الاسرائيلي كان ولا يزال يقع عليهم وعلى ارضهم قبل اي فئة اخرى ! والملفت في المقاوم العاملي انه ينطلق في مقاومته عن غير تعصب طائفي ضيق.

يقول مسعود ظاهر في كتابه : الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية[1] : «لم يعرف العامليون الفتنة الطائفية وحروبها يوم غرق فيها لبنان. فصدامات ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ هي في اساسها صدامات سياسية الزعامات المقاطعجية تلعب فيها دورا اساسيا. غير ان جبل عامل كانت تسوده علاقات مجتمع الاسر الاقطاعية [2] مجتمع الشيخ (اولا) ثم الباشا، ثم البك والافندي، ومن يدور في فلكهم الخ»

جبل عامل قلعة التشيع الاولى : وهكذا رأينا ابا ذر لا يهدأ في ليله ونهاره، عن بث مبدأ التشيع في ابناء هذا الجبل، منذ فجر الاسلام، واظهارحق آل النبي (ص)في الخلافة بدءا بعلي بن ابي طالب ؛ وتفسير القرآن ومبادىء الاسلام تفسيرا عقلانيا بعيدا عن الهوى والغرض لا كما فسره وفهمه عثمان وفهمه اتباعه وجلاوزته. فكان هذا الجبل اول من تشيع على يده. وكان التشيع قبله محصورا في افراد قلائل هم حواريو علي واصحابه كأبي ذر[3] والمقداد وسلمان وعمار بن ياسر ممن يعدون على اصابع اليد الواحدة

هذا هو ابو ذر ـ باختصار شديد، وهذا هو اثره الكبير في جبال عاملة. . .

---

(١) الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦١٧ـ ١٨٦١ـ معهد الانماء العربي بيروت .

(٢) المصدر نفسه نقلا عن محمد جابر آل صفا ص ٩٨ ـ ١٦١ من تاريخ جبل عامل .

(٣) هذه النسبة : الغِفاري تلفظ بكسر الغين وفتح الفاء بدون تشديد. للتحقق انظر كتاب ابنان من الفتح الاسلامي حتى سقوط الدولة الاموية ص ٦٠ للاستاذ الدكتور عبد السلام تدمريجروس برس طرابلس ١٩٩٠.



الرباط والمرابطة والمرابطون

تقدم معنا ان ابا ذر الغفاري لم يكن داعية ومقاوما فحسب بل كان مرابطا ومشتركا في الفتوح الاسلامية الاولى ايام الخليفة الراشدي الثالث عثمان وواليه على الشام معاوية بالرغم مما بينهما من عداء شديد وخلاف مستحكم.

الرباط او المرابطة؟

جاء في اكثر من مرجع تاريخي اسلامي[1] ما خلاصته : انه منذ فتح المسلمون سواحل الشام في عهد الخلفاء الراشدين تحولت الثغور الى رباط للصحابة وللمجاهدين في سبيل الله. وكان الصحابة يفضلون الرباط على الجهاد، لأن في الجهاد شروطا كثيرة ليست في الرباط [2]. وكان ساحل الشام

---

(١) للتوسع انظر كتاب : لبنان في الفتح الاسلامي حتى سقوط الدولة الاموية لعمر عبد السلام تدمري ص ١٥٧

(٢) انظر الرباط في ثغور الشام مقال منشور في مجلة : الفكر الاسلامي العدد ٩ السنة ١٦ - ١٩٨٧ -

السوري يعتبر رباطا بعد الفتح اذ عنده تنتهي حدود الدولة العربية الاسلامية على الطرف الشرقي للبحر المتوسط، وعلى الطرف الآخر حدود دولة الروم البيزنطية باسطولها البحري الذي يهدد سواحل الشام في كل وقت (١)

نقاط المواجهة مع العدو :

كانت نقاط المواجهة هذه تنتشر على الساحل . ومن اهمها : جَبَلَة طرطوس - طرابلس- جبيل - بيروت - صيدا - الصرفند - صور - عكا وعسقلان . وكانت المرابطة في هذه الثغور افضل واهم من المرابطة في السواحل الشامية الأخرى نظرا لوجود الخطر البيزنطي الرومي الداهم والمرتقب في اي وقت.

المرابطون . اشهرهم :

كان اكثر هؤلاء المرابطين من كبار صحابة النبي (ص) وعلى رأسهم ابو ذر الغفاري بالرغم من انه كان مغضوبا عليه من الخليفة الثالث ومنفيا من قبل معاوية، الا انه اختار المرابطة في الثغور الشاميه وعلى الاخص في «صرفندة» أو الصرفند ، تحدوه غايات اخرى فوق المرابطة والاشتراك في الفتح ، وهي نشر التشيع في جبال عاملة بالدعوة إلى افضلية الامام علي وصدق عقيدته الاسلامية وان الاسلام لن يتابع سيره الصحيح الا اذا تسلم علي زمام الحكم فيه. هذه الغاية اكتشفها معاوية فيه حين نفاه عثمان إلى الشام ثم الى الثغور على الساحل اللبناني.

---

(١) يؤيد هذه الحقيقة او هذا الواقع ما ذكره الحافظ ابن عساكر الدمشقي مرفوعا عن ابي الدرداء الانصاري اذ يقول «اهل الشام الى منتهى الجزيرة الفراتية كلهم مرابطون . فمن احتل منهم مدينة من المدائن فهو في رباط . ومن احتل منها ثغرا من الثغور فهو في جهاد» . .

وبما ان مدة المرابطة الشرعية كانت اربعين يوما (١) فقد تسنى لأبي ذر ان ينصرف إلى غايته ونشر دعوته ، وان كان لم ينصرف نهائيا عن المرابطة .

ابو الدرداء : ويأتي الصحابي ابو الدرداء على رأس من قدموا للرباط في ساحل لبنان . رابط اولا في بيروت بعد فتحها مباشرة ، وفق ما ذكره محمد بن المبارك الصوري المتوفي سنة ٢١٥ هـ مثبتا ان سلمان الفارسي قدم إلى دمشق ولم يبق فيها شريف الا عرض عليه منزله . فقال :«اني عزمت على بشيربن سعد مر في هذه ، فسأل عن ابي الدرداء فقيل : مرابط - فقال : واين مرابطكم يا اهل دمشق ؟ فقالوا : بيروت ، فخرج للرباط معه هناك . (٢)

عبد الملك بن ابي ذر : ثم التحق بهم ابن ابي ذر . وقال :« امرني ابي بصحبة سلمان الفارسي ، فصحبته إلى الشام ، فرابطنا فيها ، حتى اذا انتهى رباطنا اقبلنا نريد الكوفة . » (٣)

---

(١) روي عن سلمان الفارسي انه لما قدم بيروت مرابطا اجتمع عليه المسلمون في مسجدها ليسمعوا حديثه . فقال لهم :« يا اهل بيروت الا احدثكم حديثا يذهب الله به عنكم غرض الرباط . سمعت رسول الله (ص) يقول : رباط يوم كصيام شهر . ومن مات مرابطا في سبيل الله اجيز من فتنة القبر ، واجزي له بما كان يعمل الى يوم القيامة (التاريخ الكبير للبخاري مجلد ٤ ص ١٣٥)

(٢) تاريخ ابي زرعة ـ تحقيق شكر الله الفوجاني طبعة مجمع اللغة العربية ـ دمشق مجلد ١ ص ٢٢٤ ـ ١٩٨٠ . وتاريخ انساب الاشراف للبلاذري ـ تحقيق محمد حميد الله مجلد ١ ص ١٨٨ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩ . وفي سائر كتب التاريخ الاسلامي الكبرى كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي وطبقات ابن سعد وسواها .

(٣) المصنف لعبد الرزاق الصنعالي مجلد ٥ ص ٢٨٠ باب الرباط :

من هذا القول يظهر لنا ان المرابط يمكنه ، بعد انتهاء مدة مرابطته ان يرجع إلى حيث يريد ولا جناح عليه ، كما يمكنه ان يبقى مرابطا .

ابو امامة الباهلي : رابط مع ابي الدرداء في سواحل لبنان اثناء معركة صفين اتقاء للفتنة واعتزالا لها [1] وتوالى المسلمون من كبار الصحابة والاشراف ليرابطوا على سواحل لبنان ومدنه الثغرية كبيروت وصيدا والصرفند وصور وعكا وعسقلان . ويلاحظ ان ابناء وذرية ابي ذر واحفاد ابي الدرداء وسلمان الفارسي قد رابطوا في اغلب الاحيان في حصن صرفندة أو الصرفند . إلى ان فتح المسلمون جزر رودس وارواد وقبرس ، فابحروا إلى هذه الجزر ورابطوا فيها كأبي ذر والمقداد وبعض ابناء النعمان بن بشير الانصاري .

الاوزاعي مرابطا :

كما كانت بعلبك قاعدة خلفية ورافدا للمدن الساحلية، الجند والمرابطين فقد اخرجت علما من اعلام المذاهب الفقهية في الاسلام . وعاملا مرابطا في سبيل الله هو الامام ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي الذي ولد فيها سنة ٨٨ هـ واخذ العلم في بلدة الكرك التي تعتبر من اعمال بعلبك وتعرف بكرك نوح، ثم استقر في بيروت مرابطا ومكتتبا في ديوان الساحل . وهذا التعبير يقصد به ، حسب التعريف الحديث : دائرة تجنيد خفر السواحل -

الاوزاعي يحب السكن في مدينة صور :

كان الاوزاعي يفضل ان يرابط في صور بعد ان تبدلت الاحوال في بيروت، وازعجته كثرة الفتن والمشاحنات فيها . قال يوما لاحد محدثيه من

(٤) المصدر نفسه .

الزهاد وقد طلب منه ان يعين له مدينة يرابط فيها . فقال له «عليك بصور فانها مباركة مدفوع عنها الفتن يصبح فيها الشر فلا يمسي ، ويمسي فيها فلا يصبح . قبرنبي في اعلاها» فقلت له : تشير علي بصور وانت في بيروت ؟ فقال لي : «سبق المقدور ولو انني استقبلت من امري ما استدبرت ما عدلت بها بلدا . » (١)

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ج ٤ ص ١٤٠ و١٤١ نقلا عن كتاب : لبنان من الفتح الاسلامي حتى سقوط الدولة الاموية ص ١٦٨ جروس - برس - طرابلس ١٩٩٠ لمؤلفه الاستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري .



الحكم والامثال المحكية (أو ثقافة القرى)
مفردات ومصطلحات من القاموس الشعبي
وما يقابل بعضها في الفصحى مع تفسير رموزها ومراميها

الحكم والامثال

باللهجة العامية :	يقابلها في الفصحى :
رجع ايد من وراء وإيد من إدام :	رجع بخفي حنين
- تيتي تيتي مثل ما رحتي مثل ما جيتي	.
المنحوس منحوس ولو علاّو عا أفا فانوس :	ومن كان في الدنيا اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا
شو بتعمل الماشطا مع الوش الشنع :	وهل يصلح العطار ما افسد الدهر
كانت النصيحا بجمل واليوم لا تشترى بفلس	
ابنك لا تعلمو الدهر بيعلمو :	الحياة مدرسة كبرى
لا تؤل فول تايصير بالمكيول :	الامور بخواتيمها
ما إجا حساب الحأل عاحساب البيدر :	وتقدرون فتهزأ الأقدار

طب الجرا عـاتما بتطلع البنت لأمـا : ومن شابه (أباه أو أبه) فما ظلم

فـلاح مكفي سلطان مـخـفي : الفلاح الشبعان ملك بلا صولجان

اتبع البـوم بيـدلك عـالخـراب : قد ضل من باتت العميان تهديه او من اتبع الضليل ضل .

شـو حـبـبك بالمر اللى أمـر منو

من عاشر الاوم اربعين يوم يا

بيصير متلن يا بيرحل عنن

مين جرب المجرب كان عألو مخرب : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

الملسـوع بيـخـاف من جـرة الحـبل

بيطلع من جب الزعـتـر مـسـاس : وهل ينبت النرجس الا من بصل

الف كلمة جبان ولا كلمة الله يرحمو

عـيش ياكـديش تاينبت الحـشـيش (يقولها القروي للسخرية من نفسه وممن يعدونه ولا يوفون بوعودهم له)

يامـا اردي بتـخلف وردي : يخرج الطيب من الخبيث

ويامـا وردي بتـخلف اردي : ويخرج الخبيث من الطيب

بيمشي عالبيض والبيض ما بيتكسر : واثق الخطوة يمشي ملكا

مش كل من حطت ايدا عـابطنا

جابت صبي : الحوامل كثيرات والمنجبات قليلات

كل الدروب بتـودي عـالطاحـون : الحقيقة واحدة لكن الطرق اليها متشعبة

مـسبع الكارات اليل البـارات : من تعددت مهنته قلت غلته .

عصفور باليد ولا عشرا عالشجرا : (دعوة الى الواقعية)

اللي بيعمل حالو نخالي كل الناس بتنعفو

اللي بيأكل العصي مش مثل البيعدها : من يشاهد الظلم ليس كمن يعانيه

اللي ايدو بالنار مش مثل اللي ايدو برا : من يشاهد الظلم ليس كمن يعانيه

الحرا بتمشي بين كرا(الكرة هي الألف) : دع الحرة تتصرف ولا تخش عليها

بحبك يا اسوارا مثل زندي لأ

مثل حية التبن بيعقص ويلبد

بحاكيكي يا كني لتفهمي يا جارا

الشر من شرارا : وان النار من مستصغر الشرر

الحرش بيولعو عود الثقاب : قد تقع الحرب من ضربة كف

العائلي والمجنوني عند زوجها بالموني : (في نظر الزوج الجاهل والغبي)

كلو عند العرب لأطين : (المقصود بالعرب هنا البدو أو النَوَر)

الدرب الطويلي بتكشف المعيوب : لا يقطع الطريق الشاق الا القلائل

الله طعمك كول واطعم : الذين ينفقون مما رزقناهم أولئك هم المفلحون

الله يطعمو الحج والناس راجعا : الخير في البكور

اللي بيسرء البيضا بيسرء الدجاجة : السارق سارق في جميع حالاته

مامت ما شفت مين مات !

الطفل اللي ما بيبكي ما بترضعو امو : يضرب العامة هذا المثل للتحريض على طلب الحق مباشرة من اصحابه ويقابله في الفصحى : الحق (او الحرية) يؤخذ ولا يعطى .

الابن لو بار بيطلع تلتـــينو للخـــال

البطن بستان بتخلف اشكال والوان

هاي مش رماني هاي ألوب ملياني : وقد ينبت المرعى على دمن الثرى

وتبقى حزازات النفوس كما هيـا

طعمي التم بتستحي العين : اللهى تفتح اللهى

ان كان هالغزلي غزلتك حرير بدك تلبسي

حدا بيجيب الدب عاكرمو

بيكون عم يحلق بيصير يألع دراص

بدك تأكل عنب ولا تأتل الناطور ؟!

عطفت نا‌أتك حلبا

مغسل وضامن الجني ؟!

فلان لا بتفوتو فايتي ولا أكلي بايتي : (عن الطفيلي)

الطنجرا الكبيري بتساع الزغيري

أد ما بتحط بالنعارا بتشيل بالمرغفي

ضرب الحبيب زبيب وحجارتو رمان

ان كان حبيبك عسل لا تلحسو كلو

كلاس ما بغبر عاطحان

أبل ما تلم اسأل عن الأم

ضربي عالحافر وضربي عالمسمار : شدة من غير عنف ولين من غير ضعف

انفخت الدف تفرؤوا العشـــاء : عندما تتبدل الاحوال من حسن إلـى سـيء

ويمعناها : كأن لم يكن بين الحجـون الـى

الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

ايدي تحت زنارك : اعتمادي عليك

مثل الفواخري لا دنيا ولا آخري

شو عدا ما بدا

بين حانا ومانا ضاعت لحانا : اختلط الحابل بالنابل ولم يعد للكرام احترام

عالأرمي بتنبت السربوخا : وهل تلد الافعى الا افعى؟!

طنجرا ولاءت غطاها : وافق شن طبقة

بطن ملان كيف تمام

بيشوف الأشي بعين غيرو

وما بيشوف العامود بعينو

الشب المليح ما بيسلم تايستريح

شو ما فيش حلاوي الا بعلبك أو ببعلبك

بدكش تجوز بنتك غللي مهرها

اللي بدو يعمل مختار بدو يعللي باب الدار

انت مير وانا مير ومين بدو يرعى الحمير

اسمع تفرح جرب تحزن : (مثل فصيح لفظا ومعنى)

الدنيا وجوه وعتاب

لو البومي فيها خير ما كان فاتها الصياد

لا بدمر عيدنا ولا بالشام لحتنا العيد

كلب زيدين مالوش غنى عن سوء النبطي

مشتراة العبد ولا ترباتو

الجَمَل بنبي والجمال بنبي

الله يلعن اللي بيشرب من بير وبيرمي فيه حجر

ناس بتاكل دجاج وناس بتوءع بالسياج

ياماخذ الارد عامالو بيروح المال وبيبنا الارد عاحالو

مال الزوابع بتاخذوا الارياح

ربي ابنك بكيدك وربي كلبك بيفيدك

مين امنك لا تخونو ولو كنت خاين

جارك الاريب ولا خيك البعيد

بعد ما استوى ساءها وسماءها : أي بعد أن أصبحت جاهزة ولم تعد بحاجة إلى رعاية وعناية .

من العب للجيبي : اي لا فرق بيننا

كل عنزي معلقا بكرعوبها : يوم لا ينفع مال ولا بنون

هالخد معود عاهلطمي : ليست هذه اول مصيبة

وكان في السويدا رجال : سرعان ما يهرب الجبناء في ساحة الحرب أو سرعان ما يلبي الابطال نداء الحرب

فص كر لا ينفع ولا يضر : للسخرية ممن لا فائدة ترجى منه

عمر الشيء بثي : الجبان عمره طويل

اجا مين يعرفلك يا بلوط : (يقولونها للمدعي الذي يجبن امام الشجاع)

العبد في التفكير والله في التدبير : كذلك في الفصحى

معليش مسح بها الجبي : (يقولها من يتحمل وزر غيره)

بياخدو عالبحر ويجيبو عطشان : يقولونها للغبي الذي يتلاعب به خصمه الذكي

كل ديك عامزبلتو صياح : يقولونها للذي لا « يتشاطر او يتمرجل » الا بين قومه .

بينا تهن بيرعى الغزال : يقابلها في الفصحى : بينهما ما صنع الحداد

بيعمل من الحبي إبي : يبالغ كثيرا

فلان كرم عادرب : كريم جدا

امشى الحيط الحيط وأول يا رب نوصل عالبيت

ويقال هكذا : امشى الحيط الحيط وأول يا رب السترا

عد ومد تاينتلي النص مد : هيهات يصل المرء الى مبتغاه

اسم كبير والمزرعا خرباني : لمن يتمتع بشهرة لا يستحقها

فكرنا الباشا باشا تاري الباشا زلمه

الأب دب والولد نكد والعم غم والخال شغلة بال (نعوت يقولها من لا ينظر إلى اصله نظرة احترام ومحبة)

البغض بالأهل والحسد بالجيران

لائيني ولا تطعميني : بشاشة وجه المرء خير من القرى (القرى حسن الضيافة)

مثل الغواني باول الرأص

صاحب الحأ سلطان : وكذلك في الفصحى

السكافي حافي والخواجا عريان : ويقابلها في الاصطلاح المصري : باب النجار مخلع

دعوات ولعنات شعبية :

يصيبو ينيبو : اوقعه الله في المصائب

يا حيف عليه : ياله من خسيس

حلو تركو

الله لا يجيبو ولا يجيب جلابو

درب تسد ما ترد

كسحا والريح يأدف

الله يسعدو ويبعدو

يخرب بيتها شو حلوي : تعبير عن الاعجاب الشديد

ريتو ما إجا ولا على الدرب استهدى

يلحأ التربي

الله يلعن الدايي اللي سحبت راسو : ليته لم يولد

يا حيضه يا بظلا

يا فاعلي يا تاركي يا مبكلكي

يا مزنطرا . . يا شرشوحا الخ . . الخ . .

شتائيات :

خلي الجمرات الكبار لآذار

في آذار ظيهر بأراتك للذار

ايلول طرفو بالشتا مبلول

إن صلبّت خربت

شباط شبط ولبط وريحة الصيف فيه

ويرددون هذه الاهزوجة عند البرد القارص :

حو، حو ، يا بردي   عودة حطب ما عندي

عندي بنت زغيورا   تشأشلي من الحاكورا

اما ميخائيل نعيمة فيتحدى الثلوج والامطار بقوله :

سقف بيتي حديد   ركن بيتي حجر

فاعصفي يا رياح   وانهمر يا مطر

صيفيات :

في الصيف ضيعت اللبن

بساط الصيف واسع

الدفا عفا ولو في عز الصيف

بين تشرين وتشرين صيف ثاني

صيف وشتا عاسطح واحد ما يبصير. .

الصيفية كيفيه، ويعبرون عن جلساتهم الصيفية المريحة بقولهم : اعدي مشمشية من عابكرا لعشي

عودة الى الامثال :

فالج لا تعالج   : قضية مستعصية على الحل

كترة المال شغلة بال والليتو نياحة !

الجنازي حامية والميت كلب . .

من برا مرايي ومن جوا صرمابي : في المظهر الخادع (للتحقير)

عما ندور عليه بالسراج والفتيلي

الناس بالناس والاطا بالنفاس

أبعد عن الشر وغنيلو

كلمن عاشكلو شكشكلو

يللي مثلنا تعى لعنا

ربي كلبك يعثر جنبك

حكلي تاحكلك واسندلي تاحملك

وصلو لنص البير وأطع الحبل فيه

السن بالسن والبادي اظلم : كذلك في الفصحى

مش كل مرا بتسلم الجرا

يا مسترخص اللحم عند المرءا تندم

المحامي إلو تلتين الحصا ـ أسّام الحصص بيروح عالنار.

شي ما منو دخانو بعمي

جواز جوزناك وحظ منين منجبلك

كل شي فرنجي برنجي : نقولها نحن الشرقيين ابتهارا بقشور الغَرب

متل الفواخري لا دنيا ولا آخري

ياما تحت السواهي دواهي : يظهرون الرضا ويضمرون جمر الغضا

بيناتهن خبز وملح : بينهم ألفة وعيش مشترك

ما بتكبر الا المزبلي : لتحقير الكبرياء الفارغة

خير ما تعمل شر ما تلتا : هل جزاء الاحسان الا الاحسان

اللي الو شعرا بالجمل بينيخو ـ من أناخ الجمل : أقعده

ان ضاعت الامانات خبي مخزنك عبك

لولا الامل خاب العمل : وكذلك في الفصحى

عدس بترابو وكل شي بحسابو

اللي ما بيحضرعاعنزتوما بتجبلو توم

لا تنام بين القبور ولا تسمع منامات وحشي

اكلات يتغنون بها:

في القرى العاملية ـ كما في المدن، تتغنى الطبقة الكادحة باكلات مفضلة لديها وعلى رأسها كبة اللحم النيئة فيهزج مغنيهم مترنماً :

الكبي كبـي كبتنـا هيي يللي ربتنا

هيي الصيرتنا رجال لولاها كنا متنا

ويردد شاعرهم محرفا بيتا مشهورا :

ما اطيب الزيت والكبي اذا اجتمعا لا بارك الله بالكبي بلا زيت

* * *

- غاب مع المهدي : تعبير شعبي عاملي : أي انه غاب غيبة طويلة.
- خبي الارش الابيض لليوم الاسود
- الف البي ولا غلبي : يصفون بها الألعبان المحتال
- طبش الميزان : زاد على الوزن قليلا
- وشو ما بيضحك للرغيف السخن : يصفون بها الرجل العابس دائما

- ضربني وبكى سبأني واشتكى

- اكل ومرعى وإليت صنعا : للعاطل عن العمل وهو قادر

خلع ابعو وتبع ربعو

اذا ما بتكبر ما بتزغر : اشتدي ازمة تنفرجي

جحا حملو عنزه . . فكيف بعنزتين. .

بيصف لجحا لحا : يتغلب على ادهى الدهاة

الديك الفصيح من داخل البيضا بيصيح

ما بيألو ما احلى الكحل بعينك : لا يلومه مهما فعل

اذا ضاعت الجمال عدو الارسنة

بيطلع الخامر والفطير : يسترد حقه وزيادة

حبة فول ومأسومي : اصطلاح شعبي قروي يقال للشبه الشديد بين شخصين.

حالتهن دئي وأعصري : بينهم ما صنع الحداد (للتعبير عن العداء المستحكم

عدس بترابوكل شي بحسابو [1] .

المفردات والمصطلحات الشعبية التي لها جذر عربي . وهي اما محورة او مصحفة او مرخمة مثل:

ينخ : ينحني (من اناخ)

خور : اصابه جوع شديد . من الخَوَر : الضعف

---

(١) معظم هذه المفردات والمصطلحات العامية من جعبة زوجتي عائدة سعيد شرف الدين التي تختزن منها الشيء الكثير ـ المؤلف ـ

ما بيرتؤ. لا يرحم ـ من الرثاء

بتدعاً : تفوح بقوة لعلها من تتدفق

اصفر يا ديك : لا احد في البيت. (من الصفر او الصفير)

بيزرب : من يتسرب

همد : من الهمود او الهدوء

بيفحم : ينطفيء حتى يصبح كالفحم

بيأرطم (اظافره) يقلمها ، من قلّم.

بيمصرو : يستنزفه . من عصره

مزكلف : من التكلف والتحذلق في الكلام

هدوه : خففوا من غلوائه : من هدأ . وتأتي بمعنى ساندوه

طَلْ : اشرفَ من علٍ من أطلّ

بيتنمرد : يتمرد. من التمرد

بيتوتي : يحب البقاء في بيته .

سحتوتي : بخيل جدا من السحت او السحتوت . اصغر جزء من العملة القديمة

بينيز حالو : يعتني بمأكله ومشربه وملبسه. من تميز.

نخعو : ضربه ضربة قوية ـ من النخاع.

طريها شوي : على مهلك، لا تتعجل او تقسو. من الطراوة

شألبو : قلبه رأسا على عقب. من قلب.

حنفها : تشدد. من التحنيف . (المذهب الحنفي المتشدد)

بيطرعص : من التعلثم : أو الارتباك في المشي. المنحوس بيطرعص بخيالو

غَوّل : اكل بنهم كالغول

المناقرة : لعلها من المنافرة : العنف في النقاش

باطل ! : للاستغراب هذا امر باطل لا يجوز

- حيلكْ ! : استعد . وحيلَكَ : تباطأ في عمله.

خازوق : من خزق او مزق : إسفين من خشب

بيفنك : يبذر . من الفتك.

بيشارع : يجادل. من الشريعة

شحمي عافطيري : لايتفقان

بدي : مخففة من بودي . اريد

غارش : (مطنش)من غارق في التجاهل.

هيرو : اعده. من هيأه

طلطميس بمعنى، مغلق (من طمس اخفى)

البارحة لولي : البارحة الاولى . تغيرت اللهجة فقط . هكذا يلفظونها في قرى جبل عامل وهي تعبير فصيح .

يلعب عن دود : يلعب مجانا . الكلمة من دد الفصيحة خاصة بجبل عامل .

بتمط : تأخذ وقتا طويلا . من مط : اطال

بيطلع من المزرد : يحاول التخلص ، من الزرد وهو طوق الحديد

شاطت : اسرعت. قطعت شوطا. من الشوط. وشاطت الطبخة اسرعت في الاحتراق.

متل النيس ولا بيس : باللهجة العاملية : أي مثل الناس ولا بأس (عند السؤال عن الحال)

طاحم : مقتحم

شننو : لطخة بالوحل وهي فصيحة وخاصة بأهل جبل عامل ايضا
من الشنن : الوحل

مج : شرب. وهي معكوسة عن الفصحى : مج : كره.

هياه : ها هو، هو اياه.

فكرو بين حير مير : فكره مرتبك، متردد. من الحيرة. ومير للترادف
والازدواج ومراعاة النظير كما في الفصحى والبلاغة .

يا لطيف الجبر : من التجبر. يا له من ظالم جبار

انجأ : بالكاد. من :ان جاء.

يا هو : يا هؤلاء

يا حوي : ها هو.

بنت الابي والصبي : بنت ارستقراطية . من القبة اي تسكن القصور ذات
القباب. والصبة : من صبَّ الاكل : سكبه للضيف

نتفه : كمية قليلة (من نتف)

حايص : يهم بشيء وينشط لفعله ولا يفعله (من حيص بيص)

هني : أي هم (لجمع المؤنث والمذكر)

دخيلك : ارجوك ان تتدخل ، من تدخل.

بيضب الظليل : يرخي الليل سدوله : من الظلام -

(ملا زبون : انه زبون خسيس)

ملبك : من الارتباك

المفردات والمصطلحات الدخيلة . نتف منها :

معلوم ان اللغة العربية قد دخلت فيها - بحكم التمازج الحضاري - او

الاستعماري كلمات ومصطلحات كثيرة لا نستطيع هنا حصرها . وكذلك فعلت اللغة العربية فعلها في الامم والشعوب التي حكمها العرب المسلمون.

وقد احصى الدكتور فؤاد افرام البستاني الكثير من هذه الكلمات، فوجد ان اللغة العربية قد دخل فيها من الفارسية وحدها قرابة العشرين في المائة ودخل في الفارسية من اللغة العربية قرابة الاربعين في المئة ولا غرو فهي لغة الحاكم يومذاك ولغة القرآن الكريم. واللغة القادرة على التعبير والاستيعاب

ثم جاء الغزو الصليبي والاستعمار التركي والفرنسي والانكليزي والايطالي. فلم يستطع التتريك ولا الفرنسة ولا الأكلزة ان تغير وجه اللغة العربية او يقوض اركانها وكل ما فعله أن ادخل على اللغة العربية العامية بعض الكلمات والمصطلحات الاجنبية من مثل :

بزونك : ازعر (تركية)

ستانكالينا : عقله خفيف (تركية)

خوش بوش : لا فرق بينهم (تركية)

اونا دوي : ايطالية للمناداة في سوق (الحراج)

ارطوز (تركية) قصير القامة

جفتلك (تركية) عقارات ومشاعات الدولة

تحصيل دار (تركية) الذي يجبي الضرائب

كجك او كوجك (تركية) ومعناه القصير القامة

بيرو و تلفون (فرنسية)

ضبوة ـ جامكيي (تركية) تعني المحفظة .

جزدان (تركية)

استاذ : سريانية وتلفظ باللهجة العاملية القروية استيذ

سفرجل ـ تفاح (فارسية)

ادب سيس ـ ادب يوك : بلا ادب (تركية)

سكربيني : حذاء المرأة (تركية)

شبشب : حذاء المرأة (للبيت) تركية

- دوز دوغري : مشى في خط مستقيم (تركية)

وهناك فيض من المفردات والمصطحات الغريبة او المستغربة التي تجري على السنة العامة والخاصة. ولا نعلم لها اصلا ولا فصلا . . . فلا هي عربية محرفة عن الفصحى، ولا هي دخيلة اجنبية ، وأغلب الظن ان بعض حكماء الشعب ـ وما اكثرهم في كل جيل ـ قد نحتوها نحتا او اخترعوها اختراعا والبسوها الصورة التي يريدون، فجرت على الالسنة بلا لسان معروف واصبحت عربية او كالعربية.

من مثل :

- يصطفلو : بمعنى دعهم وشأنهم لعلها من اصطفى : اختار وهو تأويل ضعيف : أي دعهم يختارون ما يشاؤون.

- ألط عنو : تجاوزه

- بالزلط : مجرد من ثيابه كليا.

بيفن : يتنقل مسرعا من مكان الى آخر

- يا دوب : بالكاد

- مازوخ : زخات من المطر الشديد

- طاروح : قضيب القصب من الطرح او الطلح

- حبش : بالكاد لحق بمن سبقه
- عبوء : ضباب
- بيكزدر : يتمشى للنزهة
- زغطو : قبض عليه بعد مطاردته
- زغزغ نيتو : بيت شرا . . . لعلها من زاغ البصر : تغيرت رؤيته او ضعفت
- بيسكج مثل بيأطلج : يعيش بما تيسر . يعيش بالكفاف
- رنخ : بلل الحب بالماء
- انكغ ابا ابا : اصطلاح لتدليع الطفل بمداعبة شفتيه
- صلدم بلدم : سكوت تام
- طب غم جاء فجأة ـ داهم
مأعْوَن : لا يعجبه شيء
كلاكيش : عفش
عياط : صراخ
شاليش : شعر مسترسل او غرة شَعر
بيأفرها : يجربها. يتأكد من صلاحيتها
شباح بلا رواح : يبدو كالشبح لهزاله.
بيتلهدن : يهمل انجاز الشيء
دار عامناكبها : يضرب في الارض بلا غاية
ميزبز : لا يعجبه شيء
عيوء : لبق
لمظ : لماظة ـ غمزات ولمزات جارحة
مخبخب : مهتري (للفاكهة)

شنكل : تأبط

الفوكيرا : مفتاح خشبي قديم للابواب الخشبية

صوص ونأطا : محور الباب

بيتو حوح : يهدد

الكسم : القد ـ القامة

كركوعا : سيارة مخلعة قديمة

شرشوحا : امرأة غير محترمة

عالحيكليت : احيانا ـ نادرا

جلوء : ثوب كثيف ومهترىء

تشتش : مثل : نمش بلل البرغل بالماء. وتأتي بمعنى دلل الطفل ورقصه

شيء خنفشاري : لا قيمة له من الخنفشار : نبات يابس لا قيمة له. وللخنفشار قصة قديمة

ملعبج : العبان ـ لعلها من اللعب كثير الاحتيال واللعب

بعور : من البعورة او التفتيش عن ما بقي من السنابل في الحقل بعد الحصاد وهناك قرية في الشوف تدعى بعورتا

بيهرهر : يتساقط منه الحب

بيتبهور : يتباهى، يدعى ما ليس فيه

بشيلها عالطاير : أي انه سريع اللمح وذكي.

ـ بحبش : فتش. من بحث

بيزنك : يلح في الطلب

دكمه : خليط من اشياء مستهلكة من اصناف مختلفة تباع بالجملة

راح يبلش : سيبدأ حالا

سربست : مستقيم

بخعو : افشله

ما بيسترجي يتلكلك معي : لا يجرؤ على التلاعب معي

فكرو مشخشب : محتار

مشلومي فيه : مغرمة به جدا

بضلا : ثقيل الدم

الدولشة : تقديم الخدمات المنزلية للعاجز عنها.

جلّيط : كذوب

بيحكي سنسكريتي : يتفوه بكلام غير مفهوم

بيحكي تركي : يتفوه بكلام غير مفهوم

طبش الميزان : زاد في الوزن لصالح الشاري

بخنش فخش : يتشظى مع ليونه

جلغم الشيء : لطخة بالاوساخ

الجورعا : حفلة قروية تقام بعد الحصاد

بينخ : ينحني

بيهمش همش : يأكل بنهم

بيمشي لكوعا : يترنح في مشيه

بيلوطع : يتأخر ويتقدم في مشيه

بيجخ : يلبس فاخر الثياب

بيتخ : يهترىء من القدم أو كثرة الاستعمال.

جلبوط : الصوص بلا ريش. وللسخرية من الرجل القمي'

لايب	: محتار : من لابَ يلوب : دار على غير هدى .
بيتشركل	: يصطدم
بيتعمشأ	: يتسلق
زعبو	: طرده
شيل ولحاني	: تصرف عشوائيا
بيتلولأ فيه	: يقلده ساخرا
سدح مدح	: مستلق على كتفيه . بكل حرية
مشحتف	: شيء مشحتف : قليل ناقص الكيل او الوزن
مأشلطا ومدهلنا	: بمعنى واحد ، اي غير محتشمة بلباسها.

ودفعا للاطالة واعترافا منا بأن الحكم والامثال الشعبية والمصطلحات العامية لا يمكن الاحاطة بها، فهي كالفطر تنبت كل يوم . . لذلك نكتفي بمثالين خرافيين اثنين نظرا لغناهما بالدلالات والرموز الانسانية.

الاول : رفعت الجِمال شكوى الى خالقها طالبة منه رفع الغبن عنها. ومما جاء فيها :

إلهنا وخالقنا، تحملنا السير في الصحراء مئات الاميال وصبرنا على العطش والجوع مع أن الزاد والماء فوق ظهورنا محمول. . . غير ان أمرا واحدا لم نعد نطيقه وهو أن يقودنا حمار!! (١)

والثاني : جاء في كليلة ودمنه المثل التالي :

ذكروا أن قبرة اتخذت ادحية (٢) وباضت فيها على طريق الفيل ، وكان للفيل مشرب يتردد اليه. فمرذات يوم ، على عادته، ليرد مورده فوطىء عش

(١) في العادة : قائد القافلة يركب الحمار.

(٢) أدحية : حفرة صغيرة على وجه الارض.

القبرة وهشم بيضها وقتل فراخها، فلما نظرت ماساءها علمت ان الذي نالها من الفيل لا من غيره. فطارت ووقعت على رأسه باكية، ثم قالت : افعلت هذا استصغارا منك لأمري واحتقارا لشأني؟ فقال : هو الذي حملني على ذلك.

فتركته وانصرفت الى جماعة الطير فشكت اليهن ما نالها من الفيل. فقلن لها : وماعسى ان نبلغ منه ونحن طيور ؟ فقالت للعقاعق [1] والغربان : احب منكن ان تصرن معي اليه فتفقأن عينيه، فاني احتال له بعد ذلك بحيلة اخرى. فأجبنها الى ذلك وذهبن الى الفيل، فلم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما وبقي لا يهتدي الى طريق مطعمه ومشربه الا بما يقمه [2] من موضعه فلما علمت ذلك منه جاءت الى غدير فيه ضفادع كثيرة فشكت اليهن مانالها من الفيل. قالت الضفادع : ما حيلتنا نحن في عظم الفيل، واين نبلغ منه ؟ قالت : احب منكن ان تصرن معي الى وهدة [3] قريبة منه، فتنقنقن وتضججن، فانه اذا سمع اصواتكن لم يشك في الماء فيهوي فيها. فاجبنها الى ذلك واجتمعن في الهاوية، فسمع الفيل نقيق الضفادع وقد اجهده العطش فأقبل حتى وقع في الوهدة واعتطم فيها [4] وجاءته القبرة ترفرف على رأسه فقالت : ايها الطاغي المعتز بقوته المحتقر لأمري. كيف رأيت عظيم حيلتي مع صغر شأني عند عظم جثتك وصغر همتك ؟؟ ! وصمت الطاغية مخذولا لا يريم؟

هذا غيض من فيض تلك المفردات والمصطلحات والامثال والاقصوصات

---

(١) العقاعق : جمع عقعق وهو طائر اشبه بالغراب .

(٢) يقمه : يلتقطه بخرطومه على غير هدى .

(٣) وهدة : حفرة من الارض على شكل جورة او بئر قريب القعر .

(٤) اعتطم : وقع دون ان يرى امامه .

والحكم التي يزخر بها الادب الشعبي الشفهي (والمكتوب احيانا) النابعة من معاناة الشعوب وتجاربها الحلوة والمرة يصوغها حكماؤها وشعراؤها ورواتها حكما او امثالا او مفردات او اقصوصات او نوادر منها الواقعي حينا والخرافي احيانا. وقد كثرت الامثال في الكتب المقدسة وخاصة في القرآن الكريم، فلا تكاد تخلو سورة منها يضربها الله لعباده تذكرةً وعبرة .

ثم يرددها الناس في اسمارهم وحواراتهم ومساجلاتهم، وقد ينسون قائلها الاول الا انها تبقى سائرة في الاجيال. وقد تصبح زادا للشعراء ومادة للرواة اما نشأتها فكانت في البادية، ثم في الحاضرة، ثم في كل مكان. كما نلاحظ انها في هذه الايام ـ شائعة في القرى اكثر من المدن بحيث تشكل عند العامة ثقافة قروية مميزة بمفرداتها ومصطلحاتها وصورها ذات الطابع الريفي الفولكلوري الصريح، والاشارات والرموز التي تخفي وراءها نفوسا حيرى، او عقولا ساخرة، ناقدة. واذا ما شاع امثالها في المدن فلأنها تسربت من القرى بفعل النزوح الى المدن والاختلاط.

تراث عالمي : ثم ان الحكم والامثال الشعبيه تشكل تراثا عالميا مشتركا نجده شائعا عند الطبقات الدنيا المغلوبة على امرها في كل امة وفي كل زمان ومكان.

وقد نجد المثل في ادب كل امة هو نفسه في معناه ورمزه وان اختلف الشكل والاسلوب وفقا لكل مجتمع وكل بيئة وكل لغة.

اما الملاحظة الاخيرة فهي ان الامثال الخرافية تروج في الادب الشعبي اكثر ما تروج في عصور الظلم والاضطهاد وكبت الحريات يلجأ الى صياغتها اديب او شاعر او راو على هذا الشكل ليحفظ رأسه من سيف الطاغية، ويستمر في اداء رسالته تحت غطاء كثيف من الخرافة والرمز. وما الشعر السياسي الحذر المليء

بهما الا صورة من صور هذا الادب المرموز وما فعل ابن المقفع ما فعل حين ترجم كتاب كليلة ودمنة الا لينجو برأسه من طغيان ابي جعفر المنصور. ومع هذا لم ينج - في النهاية - لا رأسه ولا كل اطرافه، وذهب ضحية الطاغية..

اما المفردات والمصطلحات التعبيرية الشعبية فهي اكثر من ان تحصى او يحيط بها كتاب كهذا فهي بحاجة الى قاموس برأسه..

ملاحظة اخيرة :

هذا، ونلاحظ ان الكثرة الكاثرة من هذه المفردات المغرقة في شعبيتها وفولكلوريتها وغموضها، وهاتيك المصطلحات الغريبة في تركيبتها والدخيلة في جذورها والشائعة على السنة القرويين قد خفت وطأتها وندر استعمالها ولا سيما في الاوساط القروية المتنورة والمثقفة، وان كان يحلو لنا احيانا ان نستعملها كما هي في معرض النقد او التندر او المداعبة والسخرية نظرا لما لها من مذاق تعبيري خاص ولون محلي ينقلنا الى اجواء القرية القديمة وصور الماضي الهنيء..

فكلمة «حزوبي وحزوبية» مثلا والتي حلت محلها كلمة احزاب لايزال يرددها الشبان المثقفون امام شيوخ القرية. تماما كما يرددونها هم انسجاما مع ما يألفون من تعابير ولهجات.

وهناك - في القرى - الكثير من المفردات السياسية الطارئة والشائعة منذ نصف قرن فقد اصبح الآباء - اكثر الآباء، في جبل عامل خاصة يتباهون بأن لهم ابناء مقاومين او شهداء او رؤساء احزاب او امناء عامين او اعضاء في حزب لا طائفي نظيف بدلا مما كانوا يتباهون به من ولاءات طائفية او زعاماتية او عائلية. لقد حل التفاخر الوطني بدل التنافر العشائري، والاعتزاز القومي العريض محل الانتهاز او الابتزاز المذهبي الضيق...

لم يعد هؤلاء الآباء المتنورون - كما كان الاجداد - يأنفون او «يقرفون» من كل تكتل سياسي علماني او تنظيم عسكري مقاوم. لم يعد الزعيم الاقطاعي

في نظرهم هو السيد المطاع وهو القائد او الزعيم الاوحد. . وان رئيس العشيره او العائلة هو الآمر الناهي وهو الدستور.

وباختصار : لقد بدأ الوعي السياسي والاجتماعي ينتشر بقوة في ربوعنا وفي قرانا. كل هذا بفعل تأثيرات وعوامل جمة نختصرها في ثلاثة :

- انتشار العلم
- تزايد الهجرة والاحتكاك بالافكار التقدمية في العالم
- كثرة الاحزاب العلمانية ذات الاتجاه الوطني السليم

وهكذا تساقطت المفردات والمصطلحات الشعبية القديمة بتساقط القيم الشوهاء الموروثة ، وتساقط معها الفولكلور، على كافة الصعد التعبيرية والفنية، حتى اللهجة العاملية مالت عن الامالة المعروفة بفضل ذلك التمدن والتطور فقلما نجد اليوم - في القرى - من لا يزال يلفظ كلمة استاذ مثلا بأستيذ. . والشروال بشرويل وقس على ذلك كل اسم او فعل قابل للامالة او التخفيف كلفظ الضاد ظاءا.

أما الفولكلور الغنائي فقد جدده الرحابنة وانتشلوه من حضيض التكرار والاجترار حين شحنوه بزخم الابداع والعبقرية الشعرية الصناع. .

الكنى والالقاب في جبل عامل

جرت العادة في القرى والمدن العاملية ان يطلقوا الكنى والالقاب، بلا حساب، وعلى كل شخص تقريبا يمتاز او يعرف بعادة او ميزة او علامة فارقة فهذا ابو طبيخ اذا كان كريما يكثر من تقديم المآكل للضيوف ولغير الضيوف كالأزلام والمحاسيب و. . المفاتيح الانتخابية. . الضاربين بسيفه بعد امتلاء البطون والجيوب . .

وهذا ابو كبة اذا تميز بأكل الكبة والاكثار منها

وهذا ابو عجقة اذا كان ولوعا بالنجدة ومساعدة الآخرين، او اذا كان كثير الحركة والتدخل في ما يعنيه او لا يعنيه

وهذا ابو زلومة، وابو وابو الى ما لانهاية من هذه الكنى التي ان دلت على شيء فانما تدل على الروح الشعبية المرحة، وتجد المُكَنى بها لا يغضب، ولا يجد ضيرا في ان يكنى بها ما دامت تدل على امتياز، وقد يفتخر بها. الا اذا كانت جارحة في سخريتها، فتراه يحاول التنصل منها خاصة حين يتقدم به السن : والا فهي تلازمه طوال حياته وقد تنتقل الى ذراريه ملتصقة بالعائلة كلها. فيقولون : هذا بيت ابو كذا وكذا. ومن الكنى ما يطلق على الشاب اوالأعزب تيمنا كأن يكنى كل من يحمل اسم علي بأبي حسن او حسن بابي علي، حتى ولو كان المكنى لا يحمل اسم حسن، تبركا باسم ابي الحسن الامام علي كرم الله وجهه. لهذا شاعت في جبل عامل هذه الكنيه وامثالها كأبي حسن وحسين وجعفر وعباس وكاظم الخ. . وهناك كنى للسخرية والتهكم يطلقونها ـ على سبيل المزاح على كل من يتصف بصفات اخلاقية ركيكة او جسدية هزيلة كأن يقال : جاء سبع الفلا او ابو الفوارس للجبان الرعديد والذي يخاف من خياله كما يقولون. . حتى ان بعض هذه الكنى يطلق على الطفل المدلل او الذي تظهر عليه علائم الذكاء او القوة، فيكنون مثل هذا الطفل بأبو الهمم، اما اذا كان كثير البكاء كنوه «بابوزلومة» وابو مخطة الخ. .

اما الالقاب فهي شائعة في المدن وفي القرى شيوع الكنى واكثر. وقد تحل هذه الالقاب محل اسم العائلة الاساسي فهذه عائلة شغري تصبح او يصبح فرع منها عائلة بحر وهناك عائلات في صور عرفت بألقابها المنتزعة من مهنتها او مسقط رأسها كالداموري والفاخوري والناقوري.

ومن الالقاب ما هو للهزل او السخرية او التلطف كالبردان والكرزان والجوعان، ومنها ما يقوم مقام اسم العائلة الاساسي مع مرور الزمن. كما سبق القول وفي القرى يتندرون على الجبان فينعتونه بعنتر عبس وبطل الابطال وما اشبه... وعلى البخيل فيلقبونه بحاتم طي تندرا وسخرية، ومن القاب النساء(في الزرارية) العصفورة والزوكح وملكي اما اذا تميز القروي بشكل او هيئة معينة مستغربه كجهامة الوجه وضخامة الشاربين فهم يطلقون عليه من الألقاب ما ينسجم مع هيئته وشاربيه... وفي الزرارية اطلقوا على المرحوم ابي قاسم مروة لقب شيخ الشباب، لتميزه بزعامة العائلة وقيادة الدبكة. كما يطلقون على قصير القامة لقب : عوج ابن عناق وعلى طويلها لقب الطاروح... وفي المدن الساحلية كمدينة صور مثلا ينعتون قليل العقل بانه « عقل سمك» او ستانكا لينا وهكذا مما لا يحصى من الالقاب...

حتى الآليات لها كنى عندنا والقاب !

فكما يلجأ علماء اللغة العربية الى تعريب الآليات الاجنبية اما بادخال اسمائها في الجو العربي واخضاعها لصيغ وقواعد النحت والاشتقاق حتى تصبح وكأنها عربية اصلا وفصلا ككلمة تلفون مثلا او بيرو او اوتوموبيل أو رزنامة الخ او وضع اسماء عربية لها : الهاتف للتلفون ومكتب للبيرو وسيارة للاتوموبيل كما تلجأ الفئات الشعبية فتتصرف بالاسماء الاجنبية على هواها، فيصبح الاوتوموبل، عربية مرة واحدة. ولا يقفون متلعثمين حيال الكلمات او الاسماء الاجنبية الصعبة بل بخضعونها للهجتهم المحلية كاسم ماسورة الدخان في السيارة Echapement فاذا به اشكمان ويجمعونه على اشكمانات ! كما كانوا يلقبون سيارة فوردالقديمة بفورد ابو دعسة.

وال point mort بومور ويشتقون من بومور فعل بَوْمَرَ ثم يسخرون من العاجز جنسيا فيقولون عنه «مبومر» والاسبيراتور يصبح دسبيراتور وقد سلمت البوجية والبلاتين من التحريف والشوفاج يلفظونه : سوفاج.. ونَوَّط الاغنية وضع لها النوتة وهكذا نجد الفئات الشعبية قادرة على اخضاع كل مسمى اجنبي وانزاله الى ساحتها وجوها وما يحلولها من لهجات والقاب تلبسها اياها شاءت ام ابت.. وقلما تأبى!

ايجاز واختزال :

كما تتميز لغة التخاطب عند العامة بالايجاز الشديد الذي يبلغ حد اللمح الخاطف كمفردة - حتى - التي تصبح - تَ - فقط مثل : ما غابت اجريه تطل راسو.. أي حتى اطل رأسه...

ومن مفرداتهم ما هو منحوت أو مضغوط او مدغم. كقولهم : ناصب باشا اي ناصيف باشا. وهو بالضبط الادغام في الفصحى. جاء في القرآن الكريم (سورة الحج الآية ٣٦) قوله تعالى : «فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها» التي تقرأ في الترتيل : فإذا وجبجنوبها حيث تختفي التاء تماما -

وابو مصطفى تصبح اختزالا للتحبب : أبو صطيف، وابو محمود : أب محمود كما يلفظها اهل مدينة صور.. والبارحة الاولى تصبح : البارحا لولي، حيث تختفي آل التعريف مع الهمزة تماما..

ومما يدل على قرب لغتهم الدارجة من الفصحى محافظتهم (أعني أهل جبل عامل) على صيغة تكرار الفعل او حدوث الفعل مرة إثر مرة وبالتتابع مثل كبكب في الفصحى وفي اللغة الدارجة وجرجر ويزيدون عليها من عندهم صيغا مطابقة فيقولون :صفصف ودندن وكنكن وحلحل، وسبسب الخ..

فن التعبير الشعبي :

لا حظنا ان عامة الشعب، او الحكماء منه، حين يطلقون المثل او الحكمة او التشبيه، يميلون الى الفن ولا يكتفون باطلاق القول على عواهنه دون محسنات لفظية من مزاوجة ومقابلة واستعارات واساجيع، تماما كما عند ادبائهم وشعرائهم في الفصحى فحين ينعتون الشهور - كما رأينا - يميلون الى التسجيع كقولهم : في آذار ظهر بقراتك للدار او خل الجمرات الكبار لآذار، أو آب اللهاب، أو في تموز تغلي المي في الكوز أو شباط اللباط، أو أيلول طرفو بالشتا مبلول وهكذا. . في ايقاع شعري ملحوظ. . كما وجدنا ذلك في شتى اساليب التعبير عندهم لاسيما حين يسخرون او ينتقدون يلجأون الى التورية والكناية والاستعارة - لا فرق بينهم وبين البلغاء الذين يستعملون الفصحى. اما هم فيبقون ضمن اطار العامية. ومنهم من يفصحن العامية او «يعمم» الفصحى اذا صح التعبير في عملية تلقيح واقتباس تخرجها ذائقة صافية وطبع سليم. كل هذه البلاغة الشعبية اطلقنا عليها اسم : ثقافة القرى الى جانب مضامينها الفلسفية والحكمية واشاراتها ورموزها البعيدة التي تشكل - اسلوبا ومضمونا - معالم تلك الثقافة . .

مشهدان فولكلوريان مميزان في مدينة صور

أبو عزي - الظاهرة . .

في مدينة صور رجل عادي في مظهره ، بل اقل من عادي ، لكنه غير عادي في ذكائه الفطري وحافظته ، وتدفقه في ضرب الأمثال المبتدعة والمستحدثة

التي كثيرا ما كان يطلقها في توازنات لفظية موفقة ، تجعل منه في نظرنا اديبا شعبيا مميزا ، بل خطيبا شوارعيا ، يلقي حكمه وامثاله على قارعة الطريق وامام المارة دون ان يستوقفهم ، اما هم - وانا منهم - فقد كانوا يستوقفون انفسهم ليستمعوا إليه يخطب على الرصيف اي رصيف ، بل انه كان يلقي بحكمه وامثاله وهو يمشي «يقول كلمته ويمشي. . » حتى اذا لم يستمع إليه احد راح ينظف الشوارع من اكياس النايلون متمتما كلمات ساخرة اشبه باللعنات . .

انه ابو الفضل بيطار الملقب بأبو عزي . .

ابو عزي رضي بمهنته «العتالة» قانعا . . مع ان اولاده من اليسر والغنى بحيث يمكنهم اعالته وحفظ كرامته وكرامتهم . وقد حاولوا ذلك جاهدين ، الا انه ابى . وظل سادرا في شوارعيته ، وحين نال منه التعب والارهاق «والبهدلة» رضخ لتوسلاتهم وقبع في بيته مرغما إلى ان وافتة المنية ، وظلت حكمه وامثاله ونوادره وانتقاداته حية لا تموت . وربما كان لهذا الانزواء القسري في البيت تأثير على جسده ونفسيته ، فقد عز على ابو عزي ان يحبس في بيته وهو الذي كان طليق الجناحين واليدين واللسان يغرد على هواه ويطلق الحكم والامثال كيف شاء واين شاء (١)

اسلوبه : كان اسلوب ابو عزي انتقاديا جارحا وصريحا لكنه محبب غير فج ولا وقح . . لبراءة روحه الكامنة وراء كل حرف وكل كلمة . .

اكثر انتقاداته كانت باتجاه المرأة والصبايا غير المحتشمات يصب عليهن جام غضبه كما على ازواجهن واشقائهن وآبائهن «المطنشين» . مع أن المرأة عند ابو عزي قبل الزواج كانت محط اعجابه وموضوع غزله ، وكثيرا ما سمعناه يصوغ

---

(١) روى احد جيرانه انه حاول مرارا الهرب من بيته الذي سجن فيه .

غزله هذا بابيات شعرية زجلية تصويرية حسية بارعة ، يذكر رفاق الصبا منها :

ياجميلي يا خجولي

لا تخلي دمعك ينساح | دمعاتك لولو واغلى
على خدودك هالملاح | فشر اللولو يا نجلا
خلينا نحنا العشاق | كرمال عينيك الكحلا
من دموعنا نسقي التفاح | حاسيب الدنيا واهلا

الا انه بعد ان تزوج وتقدمت به السن انقلب موقفه من المرأة رأسا على عقب لكثرة ما عانى وما سمع عن اضطهاد الزوجات الاميات لازواجهن المساكين فانحاز الى جانب الزوج المضطهد، وراح يؤلف عن الزوجات حكما وامثالا اقلها :

مسمار بالحيط ولا مرا بالبيت . . .

وعن الامريكان واسرائيل يقول : بيعطونا اعاشي وبيضربونا بالحاشي (أي بالقنابل)

وعن الولد العاق : ربي كلبك بفيدك ربي ابنك بكيدك

وعن انجاب الاولاد في سن مبكرة :

جيبهن على جهلك بتربيهن على مهلك. .

وعن فرض الهيبة والقوة يقول : كشر عن نيابك كل الناس بتهابك.

حقيقة كنيته : كان يكنى بابي الفضل، أما كنيته ابو عزي التي اشتهر بها طوال حياته فهي من ابتكار ولده الأكبرفضل، ربما ليكون اعتزاز اولاده بأبيهم موازيا لفضله عليهم. . .

سبب وفاته :

مات المرحوم ابو عزي مختنقا بغاز الفحم، فقد وجدوه ميتا داخل منزله

السجن. . ولعله فعل ذلك قصدا. . مؤثرا الموت السريع على الموت البطيء في منزل منع من مغادرته ، وشيخوخة ردته الى ارذل العمر. .

ـ المشهد الثاني :

شخصية شعبية اطرف واذكى :

رزق الله سمعان الملقب برزق الله عنتر او رزوق : شاب طريف جدا وذكي جدا، لكن ذكاءه كان سلبي النتائج في كثير من الاحيان الى درجة انه اتهم بالجنون. . كما كان مأساويا في آخر المطاف : فعندما قصف الطيران الاسرائيلي ميناء صور ومنطقة الاسواق تراكض الناس يحتمون في الملاجىء، شاهده بعضهم فنادوه ليحتمي مثلهم، وبدلا من ان يتلطى حذرا قطع وسط الشارع مكشوفا وقد غطى رأسه « بصطل ماء»، لكن هذا الوقاء لم يكن ليمنع عنه الاذى فماكاد يتوسط الشارع حتى اخترقت رأسه شظية اودت بحياته رحمه الله. .

اتهم رزق الله بالجنون وما هو بمجنون، وجاءت التهمة من اقرب الناس اليه حتى من أمه. . هذه المسكينة الساذجة التي صدقت التهمة فقررت اخيرا ان تذهب به الى« العصفورية» للمعالجة عله يشفى من جنونه. . تظاهر رزق الله «المجنون» بالقبول وذهب مع امه وقد بيت امراً حتى إذا وصلا الى مدخل مستشفى العصفورية سبقها الى مكتب الطبيب المناوب وطلب منه ان يترفق بأمه المجنونة . . وحين دخلت المستشفى ذهب بها المروض ـ على عادته ، فصرخت امام الطبيب مؤكدة انها ليست هي المجنونة بل ابنها هذا! فقال رزق الله : ماذا رأيت يا حكيم. أنا المجنون أم هي؟! وصدقه الحكيم ولم يصدق امه !!

لقد كسررزق الله حرمة الامومة لينقذ نفسه لا ليحتقر أمه. .

أما طرافته فقد تجلت في قيافته اللفتة : «برنيطة» قش يعتمرها دائما مقلدا

بها الكوميدي المشهور وعبقري زمانه شارلي شابلن، وطقم نظيف مهفهف ومشية زقفونية راقصة وبصقات يقذفها ذات اليمين وذات اليسار وكأنه يرمي بها حثالات البشر الذين لا يفهمونه، وحركات تمثيلية، وحذاء لماع فخم تماما كشارلي شابلن، زد على كل هذا قرنفلة يعلقها على طية جاكيته اليسرى مقلدا بها او متحديا الارستقراطية اللبنانية. .

اشتراكيته : كان رزق الله يساري النزعة اشتراكيا . . لهذا نشأ عداء معلن بينه وبين الطبقة الحاكمة المستبدة والنظام الجائر وبعض رجال الدين المزيفين. .

لم يكن هجومه على رجال الدين هؤلاء من منطلق عدائة للدين. بل لأنه كان يشعر بالتفاوت الكبير بين رجال الدين والناس، واستغلال المتنفذين منهم للطبقات الكادحة المحرومة من ابسط حقوقها. . وطالما سمعناه، حين يرتاد المقاهي الشعبية، يتناول بالسخرية والتندر قسما كبيرا منهم مشيرا الى بعضهم بالاسم، وكذلك يتناول الرأسماليين وكبار الملاكين الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا يقومون بأي عمل خيري ينفع الناس. .

كان رزق الله يحب السيد المسيح «الهمشري الآدمي»المخلص الداعي الى المحبة والتواضع والمساواة بين بني البشر جميعا. . ولا يحب اتباعه !!

من نوادره الذكية :

كان رزق الله مارا امام احد المقاهي الشعبية في صور. ناداه صاحب المقهى طالبا منه ان يغني له وللرواد ليسخر منه حين يرفع عقيرته. . فرد رزق الله مشترطا اولا على صاحب المقهى ان « يشنهق» اي ينهق كالحمار حتى يغني له. . . وحين بدأ الغبي بالنهيق واصبح اضحوكه للرواد بنهيقه المزعج قال له رزق الله على الفور حين كنت انسانا لم اغن لك. . فكيف بك الآن وانت حمار؟ !

من حركاته التمثيلية البارعة :

ومن حركاته الذكية الهادفة الى التسرية عن الناس واضحاكهم ولا سيما

الحزانى منهم : أنه بينما كان مارا في احد ازقة صور القديمة اعترضه رجل قزم واخذ يناديه يا مجنون. . هذا مجنون. . رزق الله مجنون، وصادف في تلك اللحظة، ان مر رجال ونساء عائدين من تشييع احد اقاربهم والحزن والاسى والدموع ظاهرة عليهم. . رأى رزق الله هؤلاء وكان يعرفهم، اراد كعادته ان يضحكهم فاشعل قنديلا كهربائيا وراح يدور حول القزم صارخا في حركة تمثيلية : اين انت يا رجل ؟ اين هو؟ انني لا ارى احدا!!

هذا المشهد الفولكلوري كان كفيلا بان يضحكهم ويسري عنهم من جهة، وان يجعل القزم سخرية الساخرين حين جعل منه لا شيئا، من جهة اخرى. . او هو شيء قصير حقير لا يُرى!!

مهنته : كان زرق الله بارعا في مهنة النجارة فقد كان لا يشق له غبار في صناعة الابواب الخشبية والشبابيك وكان اصحاب البنايات الحديثة يعتمدون عليه في ذلك ويعهدون اليه بانجاز ابواب البناية كلها. كانت «ورشة» بكاملها تحت امرته. .

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان رزق الله لم يكن مجنونا على الاطلاق. . لكن حركاته البهلوانية الساخرة كانت تبدو لصغار العقول كأنها صادرة عن مجنون. .

حواراته : حتى حواراته مع الآخرين ـ المجانين كانت تنطوي على كثير من اللمحات الذكية والاشارات العاقلة .

التقى ـ في العصفورية ـ مع زميله كسرى السعيدي ودار بينهما الحوار الآتي :

كسرى : ما الذي اتى بنا الى هنا؟

رزوق : جنوننا. .

كسرى :من اخبرك اننا نحن مجانين؟

رزوق : أعمالنا

ترى هل تدل هذه الاجوبة على جنون ذكي أم ذكاء مجنون ؟. . .



المؤلف : نبذة عنه

ولد المؤلف في الزرارية عام ١٩٢٤. تلقى دروسه الاولى في مدرسة خاصة في الزرارية صاحبها والمعلم الوحيد فيها الشيخ محمد بلال (ابو رشيد). وما لبث ان ألحقه والده مع اخيه الاكبر نجيب بمدرسة النبطية الرسمية. ثم انتسب على التوالي الى :

- كلية المقاصد الاسلامية في صيدا (القسم الداخلي)
- الكلية البطريركية في بيروت (القسم الداخلي)
- كلية المقاصد الاسلامية في بيروت حيث نال دبلومها المعادل لشهادة البكالوريا الرسمية ـ القسم الثاني وهذه الأخيرة نالها ايضا في العام نفسه (١٩٤٦).

سافر الى فرنسا (١٩٥٠) اثر حادث عائلي مؤلم ملتحقا بكليتي الحقوق والآداب في السوربون. وعاد بعد سنتين ليكمل تخصصه في جامعة القديس يوسف والجامعة اللبنانية ببيروت حيث حصل منهما على اجازة جامعية في فقه اللغة العربية والاسلاميات وتاريخ الشرق الاوسط والادب العربي والماجستير في الفلسفة.

- مارس التعليم باكرا في الكلية العاملية ببيروت (٥ سنوات) ثم انتقل الى الكلية الجعفرية في صور التي دَرَّس فيها اللغة العربية وآدابها والفلسفة والترجمة. وبعد وفاة مديرها الاستاذ جورج كنعان عين الاستاذ خليل مديرا مكانه . (٤ سنوات) وقبل ان ينهي عشرين عاما في الجعفرية اسس مع زوجته المربية المرحومة اكرام عسيران شرف الدين مدرسة خاصة في صور ابتدائية ـ متوسطة اسمياها : جنة الطلبة.

- نشاطه الادبي : بدأ نشاطه الادبي اواسط الاربعينات : اسس مع نخبة من الادباء الشبان جمعية « اخوان القلم » واصدروا مجلة اسموها « الادب الجديد» (١٩٤٦). كان من بين كتابها المؤسسين، حسن الرفاعي (النائب السابق) والمرحومان رياض طه واديب مروه، وموريس كامل وجوزيف شريم وكامل العبد الله، كما ساهم في تحريرها وبدأ بنشر مقالاته الادبية التي تميزت بالنقد والتحليل في مجلة الاديب والمعهد والالواح والعرفان وغيرها. واستكتبته مجلة البيان في الكويت التي تصدرها رابطة ادباء الخليج فنشرت له عدة مقالات ادبية نقدية مميزة. كما راسل وهو في باريس مجلتي المعهد والألواح .

- ترجماته عن الفرنسية : ترجم كتاب : تاريخ المسرح مع زميل له سنة ١٩٦٠ لحساب دار عويدات ببيروت كما ترجم عشر مسرحيات لكورني وراسين وموليير ١٩٦٥ مع زميل آخر له لحساب دار الكتاب اللبناني ـ بيروت .

ثم ترجم منفردا مسرحيتين للشاعر الفرنسي المتحذلق جان جيرودو لحساب وزارة الاعلام الكويتية. نشرت احدى مقدماتها ومقاطع منها جريدة النهار البيروتية.

مؤلفاته : الف الاستاذ خليل في الدراسات الفلسفية :

أ - محاضرات في تاريخ الفلسفة اليونانية والعربية القاها على طلابه في

ثانويات : الجعفرية والاتحاد والثانوية الرسمية في صور والمعهد العربي في صيدا.

ب ـ ثلاث دراسات فلسفية صدرت عن دار ومكتبة الهلال بيروت وهي :

- ابن رشد ـ الشعاع الاخير

- ابن خلدون ـ ريادة وابداع في علم الاجتماع

- ابو العلاء المعري ـ مبصر بين عميان (مجلد واحد)

وفي الدراسات الادبية النقدية صدرت له عن نفس الدار تسع دراسات حول تسعة شعراء قدامى نظر فيها اليهم نظرة تقييميه جديدة. (ثلاثة مجلدات)

في تحقيق التراث : حقق الاستاذ خليل حتى الآن ثلاثة كتب تراثية هامة هي :

- العقد الفريد لابن عبد ربه . لحساب دار ومكتبة الهلال ببيروت.

- جمهرة اشعار العرب للقرشي. لحساب دار ومكتبة الهلال ببيروت.

- ديوان عنترة . لحساب دار ومكتبة الهلال ببيروت.

تميزت تحقيقاته ـ كما دراساته الفلسفية والادبية ـ بالنظرة الجديدة للتراث وتقييم الشعر القديم على اساس مقدرة الشعراء القدامى على التجاوز والوصول، لا على اجادة النظم وحدها، على ابعاد الرؤيا الشعرية لا التقوقع داخل هجائيات ممجوجة، ومدحيات ضيقة وفخريات فياشة. . . .

في الادب المقارن : حاول المؤلف ان يبرهن على ان الادب العربي القديم والحديث هو من قوة الاشعاع والتجاوز بحيث لا يقف على قدم المساواة مع الآداب الآخرى فحسب بل يوحي بها ويمهد لها. .

وحين قام بترجمة (البخيل) لموليير (هو وزميل له) انفرد بعقد مقارنة مسهبة بين بخيل موليير وبخلاء الجاحظ يمكن ان تستل من النسخة العربية للبخيل ليضمها كتاب برأسه. وكذلك فعل في مقارنات اخرى. . .

في التاريخ : وها هو يتابع التأليف والترجمة والتحقيق. وكتابه هذا :
تاريخ الزرارية والبلاد العاملية يعد فريدا من نوعه، على كثرة ما الف في هذا
الباب لغير قرية او مدينة. ككتاب تاريخ جباع وشقرا ويعلبك وسواها فهو لا يؤرخ
بقدر ما يلتقط الجزئيات وخلفيات الاحداث ، ويحلل الخصوصيات - في بلدته
ويحيي الذكريات ويداعب شخصيات الزرارية وينتشلهم من غياهب النسيان بعد
ان طواهم الموت ولم يلتفت احد الى تسجيل ما تميزوا به من صفات وخصائص.
كما ينتقد العادات السيئة ويتغنى بالمأكولات والموروثات الفولكلورية العامة
والخاصة ويلاحق الجميل الخالد منها . . . بحيث جاء « تاريخ الزرارية» حديثا
حميما شجيا تبثه على الناس بلدة عاملية تميزت بتاريخ حافل بالمآسي والتجارب
المريرة مع الاقطاع. . ثم نهضت في النصف الثاني من هذا القرن، بفضل جهاد
ابنائها مقيمين ومغتربين مثلما ينهض طائرالفينيق من بين الرماد الحارق. . .

فحق لها ان ينهض احد ابنائها ليسجل كل ذلك بأسلوبه الشيق النفاذ.
ولعل ذلك عائد الى كونه شاعرا وبهذا كله ينقل المؤلف بلدته ونفسه من دائرة
التأريخ الضيقة الى دائرة السيرة الذاتية الواسعة. . . . ويخرجها من نطاق السرد
والنقل الفوتوغرافي الى نطاق الادب الأنطباعي حيث تبعث « حضارة القرى »
على يديه بعثا جديدا حيا.

وفوق هذا سيجد القارىء في هذا الكتاب شمولية استطرادية غنية
وثيقةالصلة بما يؤرخ، وعلى هذا فالكتاب ليس خاصا باحداث الزرارية وعاداتها
بل يتجاوزها ليصبح سجلا ولو مقتضبا لاحداث وعادات جبل عامل كله ومعالمه
وابداعات بنيه على كل صعيد ، ومعجماً يسجل فيه المصطلحات والمفردات
والأمثال الشعبية الشائعة .

قصائده :

للمؤلف مجموعة شعرية، نشر بعض قصائدها في العرفان وامل والعواصف والمعهد والالواح وسواها. علما بأن الاستاذ خليل يعتبر من مشجعي الشعر الحديث الذي يشكل تطورا طبيعيا للشعر العربي القديم شرط ان ينبري للابداع فيه شعراء مثقفون ثقافة عالية ذوو اصالة لغوية موصولة الجذور بالتراث اللغوي العربي والادبي والشعري، وفوق هذا كله ذوو تجربة ومعاناة تضج بهما خصوصية تعبيرية مميزة كما قال...

مهامه الادبية الاخرى : يضطلع المؤلف بمهام اخرى غير التأليف والتأريخ والدراسة والتحقيق والترجمة ، فهو عضو في الهيئة الادارية للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي سابقا ومدير لمدرسته الخاصة : جنة الطلبة.

ونائب رئيس التجمع الثقافي الاجتماعي المستقل في صور، متزوج وله ثلاثة اولاد هم : ماهر وباسم وريما، يملك مكتبة غنية بالمراجع العربية والاجنبية. لكنها ـ للأسف ـ سرقت في الاجتياحين الاسرائيليين (٧٨و ٨٢) وقد كانت له مكتبة تجارية مدرسية احترقت بكاملها في الاجتياح الاسرائيلي الثاني...



على قدر اهل العزم ...

الامنية ـ النداء : اذا كان رجال الجمهورية اللبنانية الثانية من اولي العزم، وهو ما يبدو خليقا باكثرهم ، فمن السهل ان يحققوا للبنان الجديد الامنيات او البديهيات التالية :

ـ التخلي ـ ولو بالتدريج ـ عن التفكير الطائفي والمذهبي والمناطقي االضيق ومقولة : من بعدي الطوفان !

ـ التحرر ـ من العقلية القديمة التي تعتبر لبنان مزرعة لا دولة واللصوصية «شطارة » وتحدي القانون « مرجلة» والسياسة سمسرة.

ـ اعتبار ابن الناقورة كابن العاقورة تماما. وهذا لن يكون الا بالبدء بتنمية المناطق المهملة زراعيا واقتصاديا وعمرانيا وتربويا لتستطيع هذه المناطق اللحاق «بابنة الست» ومساواتها، علما بانها مناطق تُثري الخزينة اكثر من سواها. . .

ـ محاربة الغلاء محاربة علمية عملية في قطاعي السلع الاستهلاكية الضرورية وقطاع الدواء والاستشفاء وتعميم الضمان الصحي وضمان الشيخوخة الخ. . .

- القضاء على البطالة ووقف هجرة الأدمغة وتشجيع الرساميل الاجنبية والاغترابية على العمل في لبنان واستثمارها فيه.

- وقبل كل هذا على رجال الجمهورية الثانية من حكام ومفكرين وخبراء الا يكتفوا باكتشاف المناطق اللبنانية المحرومة، وهي معلومة، والقضاء على اسباب تخلفها وحرمانها، بل عليهم وهذا هو الاهم ، إذا أرادوا بناء لبنان جديد، أن يكتشفوا الانسان فيها وفي كل لبنان، وتسديد خطى هذا الانسان وتعميق انتمائه العربي وترسيخ هويته وتبديد أوهام البعض من دعاة الانعزالية والطائفية ودفعهم إلى تكوين ثقافة جديدة من خلال وضع برامج تربوية سليمة الرؤى والاتجاه تعمل بها كل مدارس ومعاهد وجامعات لبنان ومؤسساته التربوية والاجتماعية.

وهكذا ينشأ جيل مقاوم رافض للتطبيع مع العدو الاسرائيلي الذي بدات نُذُر دعوته إلى التطبيع تجتاح العالم العربي من محيطه الى خليجه. .

كل هذا ممكن التحقيق - بعد التحرير طبعاً - وقبل انتهاء القرن، لتنطلق الجمهورية الثانية بل الثالثة في بدايات القرن الواحد والعشرين القادم سريعاً مع المنطلقين فلا تبقى متفرجة أو لاهثة خلف الركب. . .

أم ماذا؟ أرجو ألا أكون منطلقاً من دائرة الأمنية - الحلم إلى دائرة الهذيان بله الهلوسة. .

فيا أولي العزم والحكم أدخلوا التاريخ مع الأجيال، وإلا فسيكون لون الجمهورية الثالثة أحمر قانياً!



بطاقة شكر

ويعد فاني اوجه شكري وامتناني الى :

- من قدم الكتاب وقدمني الى العامليين واللبنانيين والعرب. عنيت به الاديب الكبير السيد جعفر شرف الدين.

- من آزر وشجع وقدم المراجع والمعلومات.

- وفد اهالي الزرارية من آباء واشقاء الشهداء واصدقائهم الذين زاروني في صور سنة ١٩٨٦ وكلفوني بل شرفوني بكتابة تاريخ الزرارية المجاهدة فنزلت عند رغبتهم التي داعبت في اعماقي رغبة قديمة. وها هما، الرغبتان، تتحققان، بعون الله في هذا الكتاب الذي ارجو ان اكون ـ عبره ، عند حسن ظنهم بي وبه فاذا ما نلت منهم هذا الرضا وحسن الظن نسيت ـ حقا ـ كل ما صادفته من عراقيل وصعوبات فرضتها حرب اهلية اوهنت كل عزيمه واعاقت كل عطاء او شوهته تشويها.

ـ كلمة حق للتاريخ : هؤلاء الرجال البررة الاوفياء لوطنهم وبلدتهم الزرارية الصابرة المرابطة التي ما نهضت من وهدة الفقر والقهر الى مراقي العز

والوفر الا بهم وبأمثالهم ممن سبقوهم في البذل من شهداء وجدود وآباء، مغتربين ومقيمين. واني لعلى يقين بأن الزرارية ستستمر في نهضتها وازدهارها باذن الله ما دامت تنجب، في كل جيل، الابناء المتضامنين المسلحين بسلاح العلم والعمل، يحاربون بهما الطبقية والطائفية والعائلية والعشائرية الاقطاعية وحب الذات. فاذ بالزرارية تصبح بفضل هذا، بعد جيل او جيلين، مدينة كبرى وقدوة مثلى ان شاء الله.

ـ المؤلف ـ



تاريخ الزرارية والبلاد العاملية
ثبت بالمراجع والمصادر

(مؤلفات ـ اطروحات ـ دوريات ـ وثائق ـ خرائط مقابلات ـ تسجيلات)

آل صفا محمد جابر : تاريخ جبل عامل ط ٢ دار النهار للنشر - بيروت ١٩٨١

الامين السيد محسن : أعيان الشيعة

الامين السيد محسن : خطط جبل عامل

آل الفقيه محمد جواد : ابو ذر الغفاري ـ منشورات دار الفتوى ـ بيروت.

آل ياسين : محمد حسن ـ تحقيق فهرست المخطوطات ـ المجموعة الثانية : رسالة ابي طالب الرازي في آل اعين.

الامين عبد الله : شقرا : اطروحة بكالوريوس في فقة اللغة العربية ـ النجف الاشرف ١٣٨٨ هـ.

الامين حسن : دائرة المعارف الشيعية ط ١ـ١٩٧٢

الامين السيد محسن : معادن الجوهر ـ مطبعة الانصاف ـ بيروت

الامين علي مرتضى : ثائر من بلادي صادق الحمزة الفاعور - ط ٢ دار حيدر للطباعة والنشر - بيروت

الاسعد شبيب باشا : العقد المنضد طبعة جديدة ١٩٩٠

البستاني فؤاد : دائرة المعارف

بولياك : الاقطاعية في مصر وسوريا ولبنان

تدمري محمد عبد السلام : دراسات في تاريخ الساحل الشامي - مطبعة جروس طرابلس ١٩٩٠.

التامر رضا : ذكريات رضا التامر ١٩٥٠ بيروت

حتي فيليب : لبنان في التاريخ

حسين سعدون : انصار ٣- أدب المعتقل

حوراني يوسف : لبنان في قيم تاريخه - دار المشرق - بيروت

الحر عبد المجيد : معالم الادب العاملي

الحر عبد الحميد : عبد الحسين شرف الدين ، قائد فكر وعلم ونضال. اطروحة باكلوريوس من جامعة الفداء ١٩٧٢ بغداد .

دياب حسن : تاريخ صور الاجتماعي - دار الفارابي - ١٩٨٨ بيروت.

ديب يوسف : فهرست جبل عامل ١٩٠٩ - ١٩٨٦ - المركز اللبناني للبحوث والتوثيق ببيروت.

الراسي سلام : لئلا تضيع ج ١ - مؤسسة نوفل بيروت.

الزين الشيخ علي : مع التاريخ العاملي

الزين الشيخ علي : العادات والتقاليد في العهود الاقطاعية - دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري - بيروت - القاهرة ١٩٧٧.

الزين الشيخ علي : من تاريخ البكوات في جبل عامل ـ العرفان ج ٣
الزين الشيخ علي : للبحث عن تاريخنا في لبنان ط ١ ـ ١٩٧٣ ـ بيروت
الزين الشيخ علي : اوراق اديب ـ دار الفكر ١٩٥٥ ـ بيروت.
الزين الشيخ علي : فصول من تاريخ الشيعة في لبنان.
الزين الشيخ احمد عارف : تاريخ صيدا ـ مطبعة العرفان ـ صيدا.
سالم عبد العزيز : دراسات في التاريخ الاسلامي
سعد حسن محمد : جبل عامل بين الاتراك والفرنسيين ـ دار الكتاب ط ١ـ ١٩٨٠ بيروت
سبيتي الشيخ علي :الجوهر المجرد
الشدياق طنوس : اخبار الاعيان في جبل عامل لبنان طبعة ١٩٥٩
شلق مقبولة :المدارس في لبنان أيام الاتراك والفرنسيين
شرف الدين الامام عبد الحسين : صفحات من حياتي ـ مجلة الالواح عدد ١٤ صفحة ٣
شرارة الشيخ عبد اللطيف : الانسانية الحقة والوجدان الصحيح ط ١٩٨٨ الزرارية
شهاب الامير حيدر واحمد : تاريخ احمد باشا الجزار
شرارة ابراهيم : في قرانا ـ دار الاداب ١٩٧١ بيروت
شمس الدين الشيخ محمد مهدي : العلمانية
شمس الدين الشيخ محمد مهدي : ثورة الحسين
صادق الشيخ عبد الكريم : في رحاب الخيام تحقيق الاستاذ حبيب صادق منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ودار الاعلام

صادق الشيخ عبد الحسين : سقط المتاع

الصباغ ميخايل نقولا : تاريخ ظاهر العمر

الصباح سعيد : حسن كامل الصباح : عالم من لبنان ـ دار اسيا بيروت

الصفدي احمد محمد الخالدي : لبنان في عهد الامير فخر الدين الثاني ـ تحقيق وفهرسة اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ـ منشورات الجامعة اللبنانية ـ الدراسات التاريخية رقم ١٦

الصليبي كمال : بيت بمنازل كثيرة ـ الكيان اللبناني بين التصور والواقع ترجمة عفيف الرزاز ط ٢ ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت

الظاهر عبد المحسن : الدر الفاخر اطروحة للدكتور محمود عيسى ـ الجامعة اليسوعية ١٩٨٧ بيروت

الظاهر عبد المحسن : الدلالة العاملية (مخطوطة في مكتبة العلامة الشيخ ابراهيم سليمان) في تاريخ الاسرة الوائلية

ضاهر الشيخ سليمان : قلعة الشقيف

العاملي بهاء الدين : الكشكول ـ دار الزهراء لطباعة والنشر

العاملي الحر : امل الآمل في علماء جبل عامل

عسيران فؤاد : قصص من حياتي

عانوتي اسامة : الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر قسم الدراسات الادبية (٦) الجامعة اللبنانية ١٩٧١ بيروت

د. عطوي عبد الله : مدينة صيدا بين الماضي والحاضر والمستقبل المكتبة العصرية صيدا ١٩٩٠ ـ ط١ ـ

عواضة ابراهيم مشاهدات من معتقل انصار ـ دار الباحث بيروت

غالب ادوار : زراعة التبغ وانتاجه

الفقيه الشيخ محمد التقي : جبل عامل في التاريخ

فريحة انيس : معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها ط٢ مكتبة لبنان ١٩٧٢ بيروت

فخري ماجد : دراسات في الفكر العربي دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٠

فخري ماجد : ابعاد التجربة الفلسفيه دار النهار للنشر بيروت ١٩٨٠

فـواز زينب : من الـتـراث العـاملي : حـسن العـواقب (رواية) الهـوى والوفـاء (مسرحية) تحقيق فوزيه فواز ـ منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ـ١٩٨٤

فريحة انيس : القرية انلبنانية ـ حضارة في طريق الزوال ـ ط ٢ ـ ١٩٨٩ طرابلس

فولني : ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام ـ تعريب ادوار البستاني ـ بيروت

مروه الشيخ علي : تاريخ جباع

مروه الشيخ علي : من روائع الادب الفكاهي العاملي ـ مطبعة الامان ١٩٧٣ بيروت

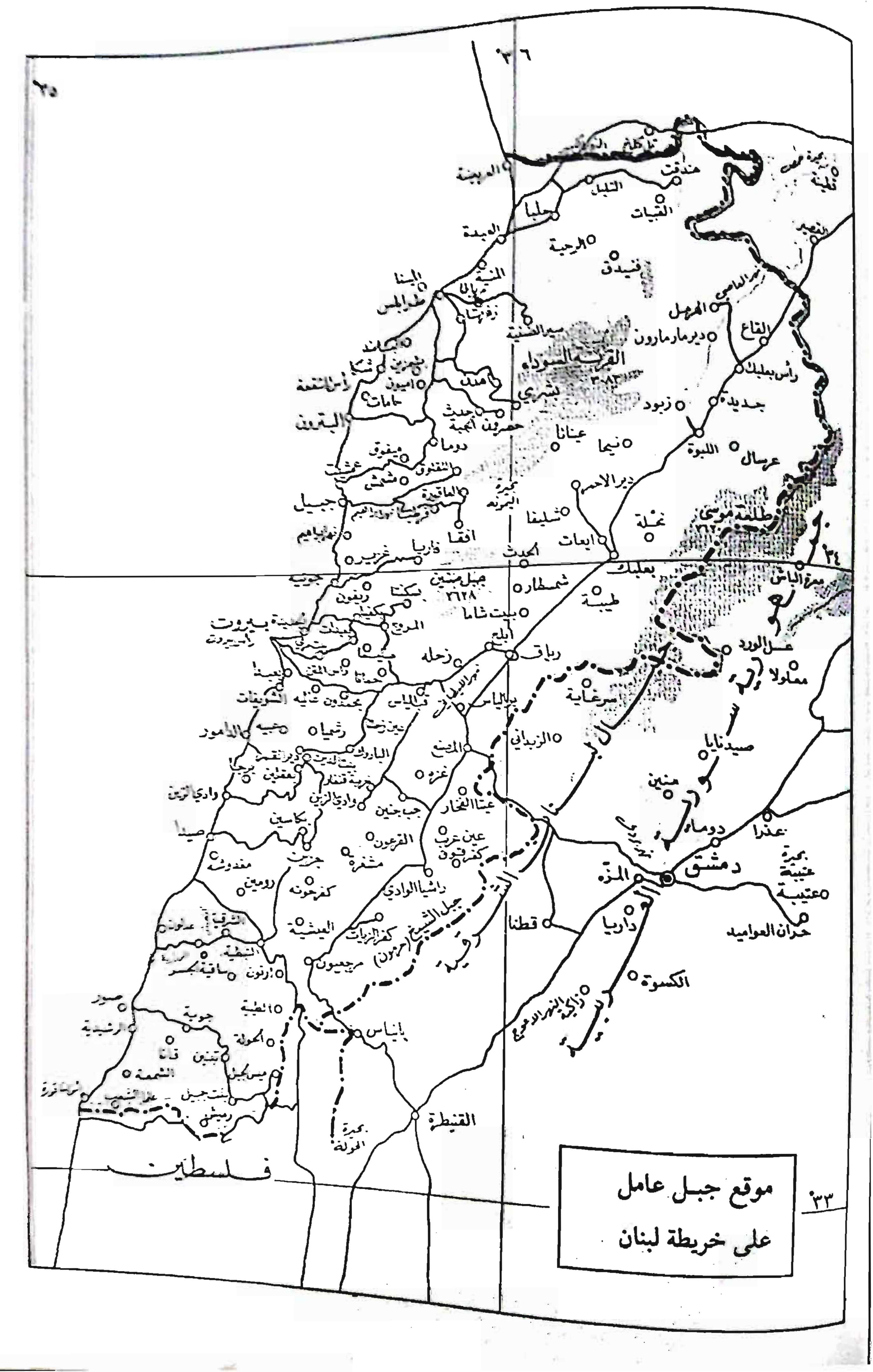
مروه يوسف : كامل الصباح ـ العبقرية المنسيه ـ منشورات مروه العلميه ط١ ـ ١٩٥٧

مروه كامل : نحن في افريقيا

مصطفى قيصر : الفكر العاملي الحديث في جنوب لبنان ـ دار الاندلس ط١ ـ ١٩٨١ بيروت

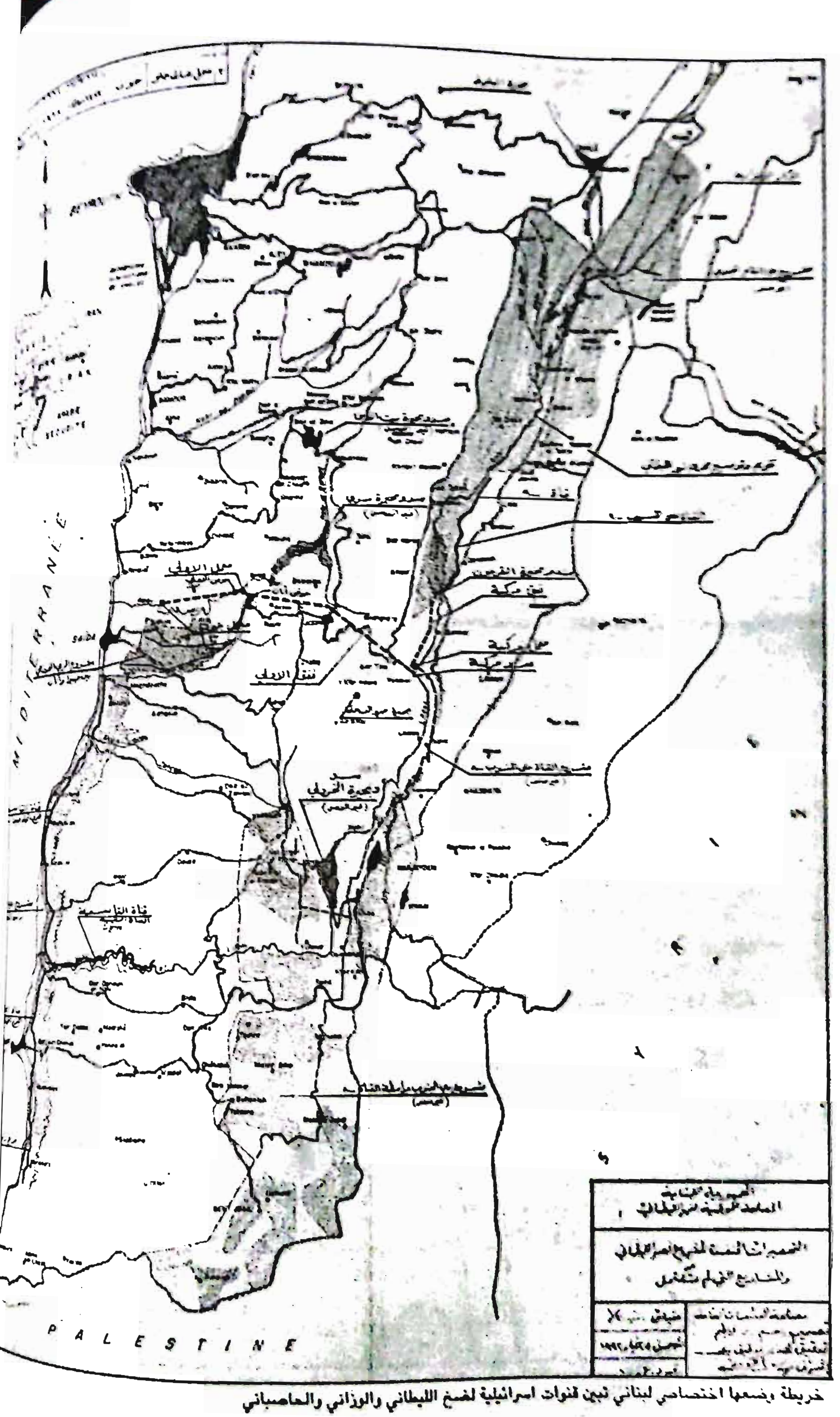
مرهج عفيف بطرس : اعرف لبنان ط٢ ـ ١٩٨٥ (موسوعة المدن والقرى اللبنانيه)

مغنية الشيخ محمد جواد : جبل عامل في مطلع الاستقلال
مكي محمد كاظم : الحركة الفكرية والادبية في جبل عامل ط٢ ـ ١٩٨٢ دار الاندلس
نصر الله محمد عباس : تاريخ بعلبك
هاشم علي : النباتات والاعشاب علاج طبيعي لكل مرض دار الفكر العربي ـ بيروت ١٩٨٨
ياسين محمد سعيد : تاريخ الجنوب اللبناني ـ د ار الفكر العربي ـ بيروت
ـ منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي :
- عشرون عاما للجنوب والثقافة الوطنية ١٩٨٥ بيروت
- صفحات من تاريخ جبل عامل ١٩٧٩ بيروت
- وجوه ثقافية من الجنوب
- من دفتر الذكريات الجنوبيه ١ + ٢
- جنوب لبنان خط المواجهة الاول : تأليف نخبة من المفكرين الوطنين الجنوبيين
- من نتائج العدوان الاسرائيل على جنوب لبنان ١٩٧٩ بيروت
- مقاربات وشهادات في المشروع الصهيوني وسبل مقاومته (الساحة اللنانية)
حبيب صادق ط٢ ـ ١٩٩١
دوريات :
العرفان ج ٥١ ج ١٩ ـ ١٩٦٤
العرفان ج ١٩٦٣ (وفيه نسب آل وائل)

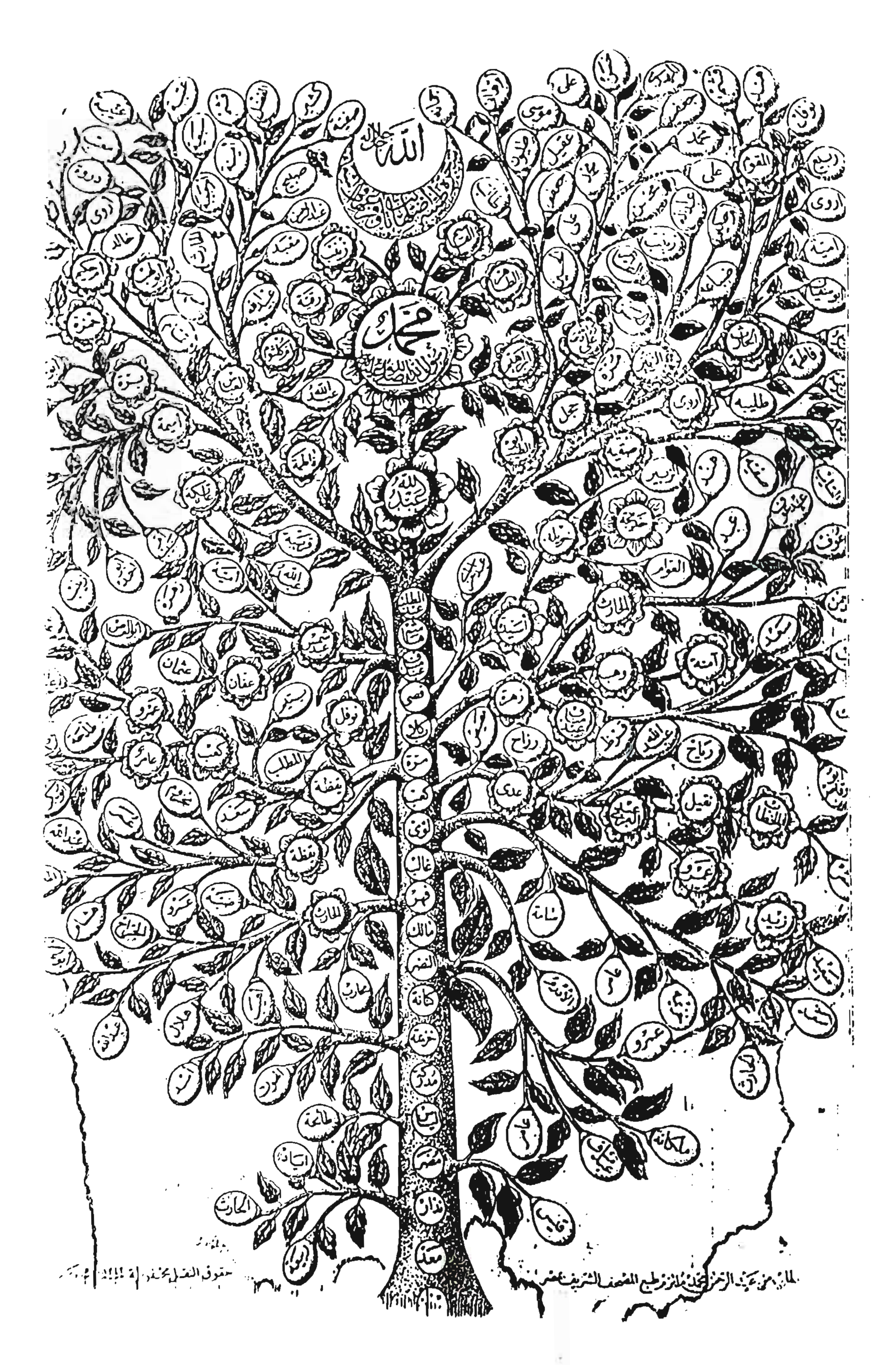


موقع جبل عامل

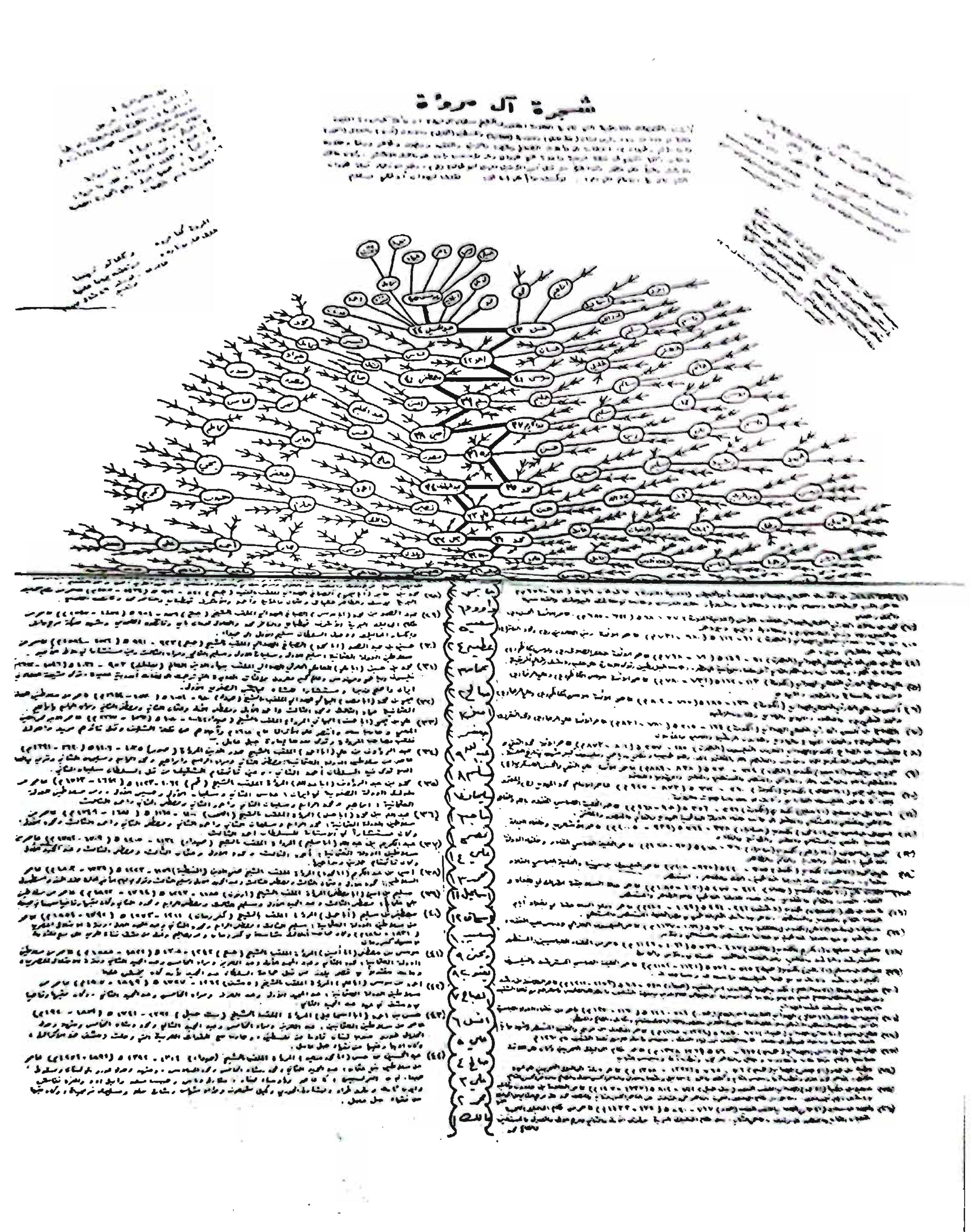
على خريطة لبنان



خريطة وضعها اختصاصي لبناني تبين قنوات اسرائيلية لضخ الليطاني والوزاني والحاصباني



شجرة آل هاشم



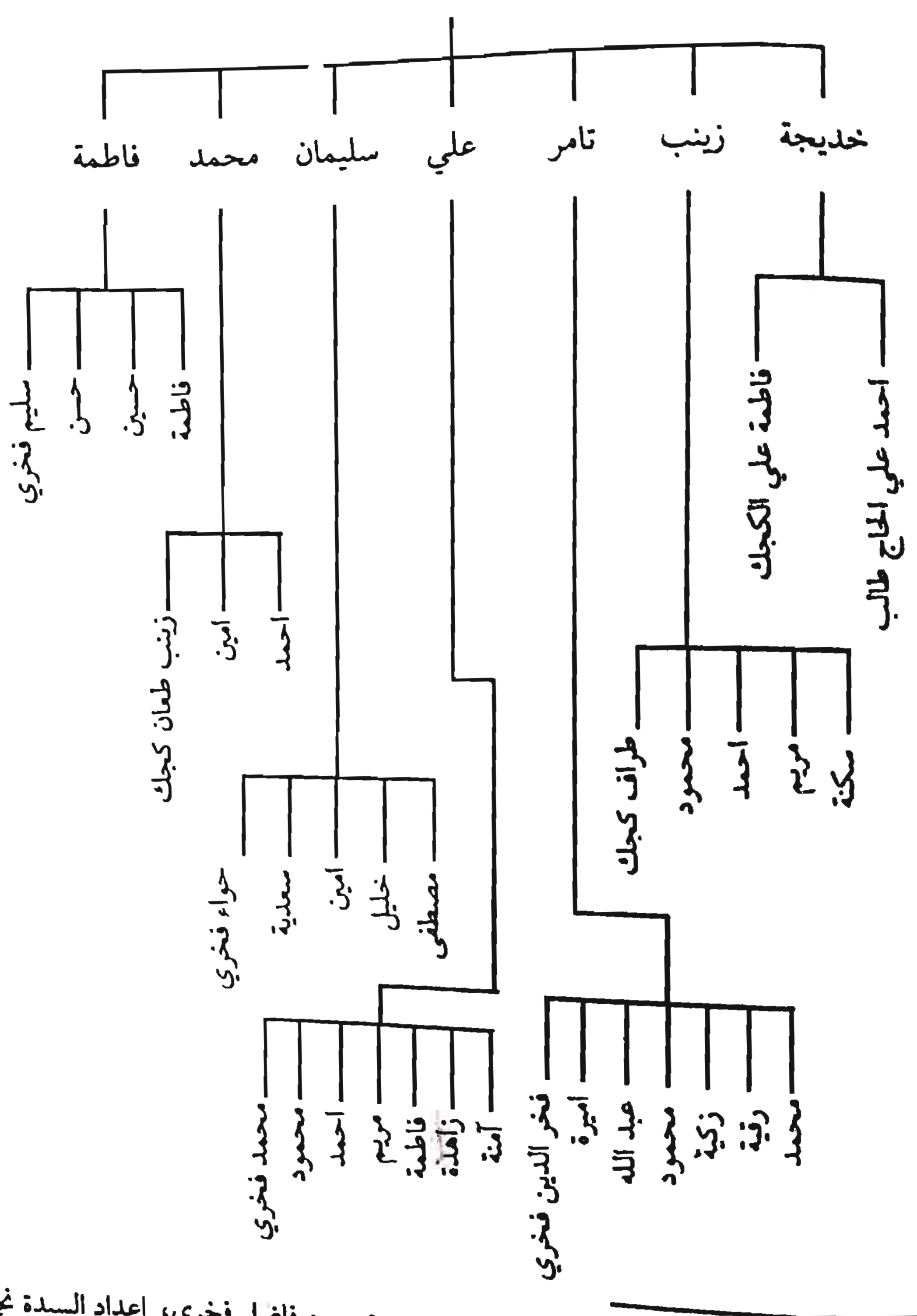
شجرة آل مروة



شجرة آل فخري في الزرارية

شجرة حسن فاضل فخري

(الجد الاول لآل فخري في الزرارية)(١)



(١) أخذ هذا الرسم البياني عن كتاب بعنوان : شجرة حسن فاضل فخري، إعداد السيدة نجاة فخر الدين تامر فخري.

جريدة جبل عامل ـ اسبوعية ثقافية جامعة ـ مطبعة العرفان ـ صيدا
مجلة المشرق ـ م ١٨ ـ ١٩٢٠ بيروت

العرفان ـ ج ٨و ٢٣و ٣٤ (الشيخ احمد رضا : مذكرات للتاريخ ج ٢٣)

وفي المجلدات ٢و٥و٧٤ (٧و٨ ايلول وتشرين اول ١٩٨٦ : جبل عامل في التاريخ الطائفي في لبنان صفحة ٧٠ للدكتور وجيه كوثراني

النهار ـ ملحق ـ ١٥/ ٨/ ١٩٧٣

الالواح ١٩٥١ بيروت

المعهد ١٩٤٨ ـ صور ـ الكلية الجعفرية

الدراسات الادبية ٢٤ ـ ٢ الجامعة اللبنانية ـ بيروت

الطريق ـ ج٤ ـ ١٩٧٢ (عن الهجرة اللبنانية والسورية)

دراسات وتقارير : (٥ ملفات) اعداد الوزير الاسبق المهندس السيد جعفر محمد جواد شرف الدين صادرة عن وزارة الموارد المائية والكهربائية ١٩٧١ بيروت

العمليات الاستشهادية ـ المقاومة اللبنانية ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ المركز العربي للمعلومات ط ١ ـ ١٩٨٥ شارك في الاعداد رفيق نصر الله ـ بيروت

مقابلات :

- مقابلة اجراها عضو لجنة الاعداد والتوثيق لهذا الكتاب الاستاذ محمد محي الدين مع احد رجال الأغتراب الاوائل من ابناء الزرارية الحاج احمد امين زرقط (مسجلة بالصوت)
- مقابلة اجراها المؤلف مع بعض نساء الزرارية المسنات
- مقابلة اجراها المؤلف مع المهندس وضاح فخري عن والده وآثاره ومع المغترب

العائد السيد احمد مصطفى زرقط عن الحمضيات والانتاج الزراعي في الزرارية

- مقابلة اجراها المؤلف مع الحاج خليل شرارة مختار الزرارية الحالي عن مخاتير ورؤساء بلدية الزرارية السابقين

- مقابلة اجراها المؤلف مع الاستاذ محد جميل مروه عن بعض الاعلام من آل مروه والنشاط الاجتماعي والثقافي في البلدة.



المراجع الاجنبية

1- L épopée des croisades- Rene' Grousset- plon1939.

2- Grand larousse encyclopedique

3- L`Islam- Lammens

4- Traîte' de phylologie arabe v.1-Institut des lettres orientales-univer.s.jo.pe're fleich-Beyrouth

5- La revolte arabe- Gilbert- Paris

6- Les Institutions musulmanes- Mauris gaud froy de mon- . bynes- Paris

7- Le sort de l`empire ottomane- Mandileteur.

8- Introduction a la théologie musulmane- E ssai de théologie Comparée- louis Gardet M.M. Anawati- Paris1948.

9- Le role et la place du Liban dans la conception religieuse du proche orient ancien. par R. largemant- Beyrouth1965.



اعتذار ووعد

سيلاحظ القارىء الكريم والمدقق ان هناك نقصا في المعلومات والوقائع والادوار التي لعبتها الزرارية كقاعدة من قواعد الحكم الاقطاعي ايام العثمانيين وعلى الاخص احداث جبل عامل وما مر به من محن وكوارث وماصنعه رجاله من احداث وما حققوه من بطولات وانتصارات، لم نوفق في الكشف عنها كلها. هذا الى جانب اخطاء وتشويهات تاريخية لم نستطع تصويبها هنا.

وعذرنا اننا الفنا هذا الكتاب ولبنان يحترق وتدمر وتقسم عاصمته وتستباح اقاليمه، وتنقطع اسباب التواصل فيه وفيها. فانقطعت عنا اسباب التأليف المريح، وحرمنا من تأمين المراجع والمصادر اللازمة. حتى هذه المراجع والمصادر التي اثبتناها هنا في الفهرست لم تقع كلها في حوزتنا. . فاكتفينا باثبات عناوينها لنحاول تأمينها في المستقبل ولتكون عونا اضافيا لنا في سد النقص في الطبعات القادمة ان شاء الله.

واني لآمل من الاصدقاء المهتمين بالدراسات التاريخية العاملية ان يتفضلوا ويزودوني بتصويباتهم ومعلوماتهم التي غابت عني. وبلائحة باسماء الكتب والمخطوطات التي يعرفون اماكنها او هي في حوزتهم لأبادر إلى تصويرها، سواء منها ما يختص بالزرارية او جبل عامل، شاكرا لهم تعاونهم ورفدهم.



ختامه مسك

وكما بدأنا هذا الكتاب بذكر المقاومة والمقاومين من أبناء الزرارية الميامين، ها نحن نختتمه ـ وختامه مسك ـ بذكر تفاصيل مثيرة لا تنسى عن المجزرة ـ المفخرة- وما سجل فيها من بطولات في ذلك اليوم المشهود (السبت في ١١ آذار من العام ١٩٨٥)

وما قام به البرابرة الصهاينة من أعمال وحشية ومداهمات وسحل جثث الشهداء. . اعمال أن دلت على شيء فإنما تدل على حقدهم الدفين، من جهة، وعلى رعبهم من مجابهة ابطال المقاومة ولا سيما البطل المخطط نعمة هاشم الذي ظل « شبحه» الرهيب يطاردهم في ليلهم ونهارهم فيقض مضاجعهم، مما جعلهم يحشدون لتغطية ذلك الرعب ثمانية آلاف جندي لمداهمة الزرارية والثأر لقتلاهم

هذه التفاصيل لا بد من تسجيلها لتحفر في ذاكرة الاجيال القادمة دروساً لن ينسوها من بطولات آبائهم وأجدادهم التي سجلوها بدمائهم على لوح الخلود وكيف يرد العدو الغاشم عن تراب الوطن المقدس فلا يدنسه وعن العرض والشرف والكرامة والحرية فلا تنتهك.

قال إمام البلدة الشيخ حسين بغدادي لبعثة جريدة السفير حين زارت

الزرارية بعد أربعة أيام من الذكرى التاسعة للمجزرة :

« موضوع المجزرة ليس منفصلاً عن الموضوع الاسرائيلي الذي مر على لبنان قبل الزرارية فقد ظنت اسرائيل أنها بدخولها إلى لبنان تستطيع تحقيق ما ترمي إليه من أفكار تلمودية وغيرها، لكن بفضل الله ويقظة المجاهدين خصوصاً من استطاع منهم تحقيق قفزة نوعية وفي مقدمتهم نعمة هاشم وغيره من الابطال استطعنا التغلب على تلك الافكار اليهودية الرخيصة وضحينا بالكثير عملاً بالقول الحسيني :

ان كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني

ونسأل الله أن يوفقنا في الاستمرار على خط الجهاد ويبعدنا عن كل فتنة داخلية لنتمكن من إكمال مسيرة الشهداء».

وقال مختار البلدة الحاج خليل شرارة (أبو تحسين) : «هذا اليوم افقدني صوابي ولا يجب أن ننساه جميعاً. لقد ركعت كغيري في ساحة البلدة وذقت الذل في كل لحظة وأذكر أن الاسرائيليين يومها حملوني في «جيب» كي أعرِّف عن الشهداء إذا كانوا من أهل البلدة أو من خارجها. ورأيت ذلك المشهد المخيف : خمس سيارات مثقلة بجثث الشباب بعضها فوق بعض ودمهم يسيل كالنهر بالفعل، وليس بالشعر فقط. كانوا أبطالاً حقيقيين ووفاؤنا لهم يكون بمتابعة مسيرة المقاومة».

وقال شقيق نعمة الاستاذ محمد شريف هاشم : « اعتبر أنها لم تكن مجزرة بل مواجهة بطولية. فنحن لم نستسلم. قاتلنا يومها بكل ما لدينا من عزم. لكن اسرائيل وضعت نصب عينيها بلدة الزرارية خصوصاً بعد العملية المزدوجة التي نفذها نعمة مع مجموعته حيث تكبد العدو فيها أضراراً فادحة في الأرواح وكانت

النتيجة عقاب يوم ١١ آذار ١٩٨٥. وقد كتب اليهود على جدران الساحة بدم الشهداء في آخر فصول المجزرة: انتقاماً لكل نقطة دم يهودي. وللأسف لم تكن اسرائيل لتنجح لولا عملاؤها في الداخل الذين وشوا بنا يومها واستمروا في تنفيذ مهامهم الرخيصة حتى داخل المعتقلات التي زجوهم فيها إلى جانبنا لتمويه هويتهم الحقيقية.. يضيف: «في يوم الدم ذاك، أذكر حادثتين مؤلمتين. الاولى: عندما كان عشرات المقاومين مضرجين بدمهم على الطرقات وآخرين لم يبق منهم شيء بفعل الدبابات التي طحنتهم خصوصاً وإن الاسرائيليين منعوا أحداً من إنقاذ القتلى والمصابين حتى اليوم التالي.. أما الحادثة الأخرى فهي مكوث أخي أحمد ومقاوم آخر معه في بئر ماء مدة ست ساعات متواصلة. وهذا الأخير كان يعاني من داء الربو فكان يريد الخروج كل ساعة «واللي بدّو يصير يصير» ولكن أحمد يعود ويضغط عليه إلى الأسفل ويقول: امرض بس خليك عايش..»

ويقول زاهي مروة الذي قاوم لسنوات إلى جانب نعمة هاشم وكان يشاركه أحزانه وأفراحه واعتقل بعد اصابته يوم المجزرة: «كيف أعرف نعمة؟ إنه بطل حقيقي لم ولن أعرف يوماً مثله. كان يقاتل ويسهر وينتظر الاسرائيليين بشغف مَن ينتظر حبيبته.. متلهفاً للانتقام. ويوم ١١ آذار عندما أرسلنا إليه اشارة لينتبه إلى دخول الاسرائيليين إلى البلدة صفق من قلبه وقال: عال، عال، يا شباب. نحن بانتظارهم. وبعد أن قيدوه بالسلاسل اللعينة كان ينظر إلى الاهالي مبتسماً ويقول: ما تفزعوا إلا من ربكم وقولوا إني نعمة هاشم.. ثم ذهب مودعاً بابتسامة دون أي كلمة.

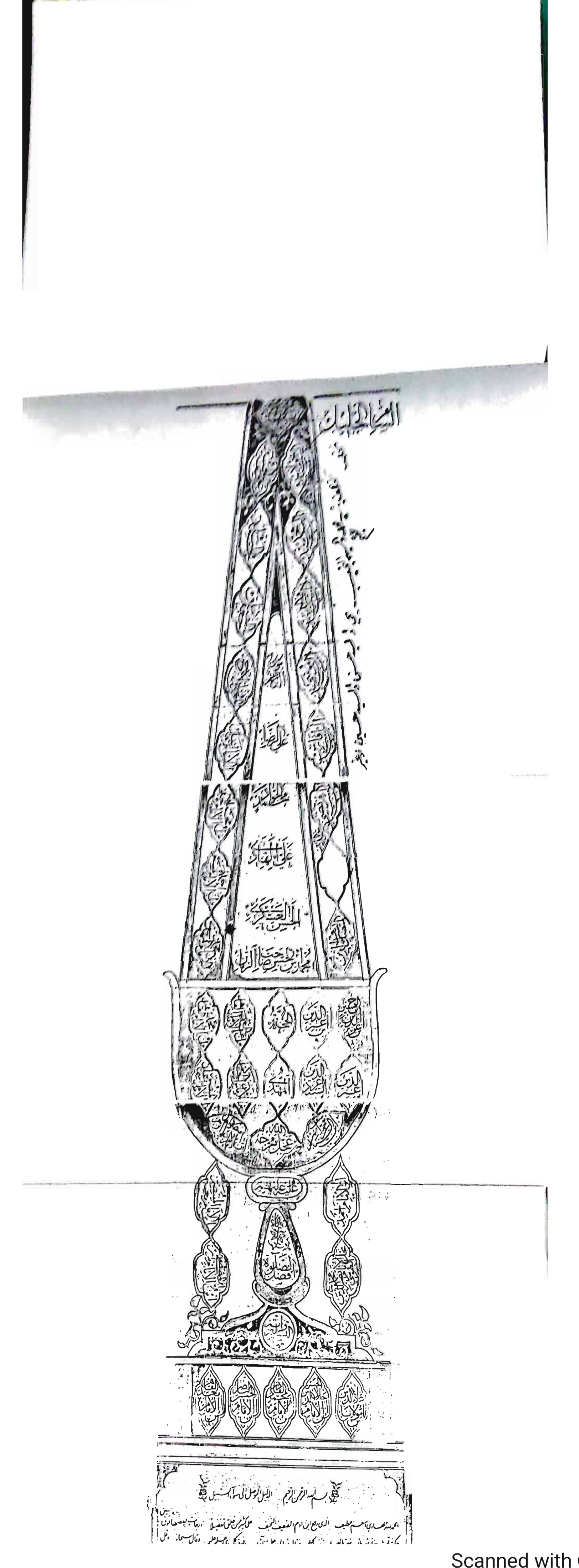
يضيف: عندما كان الاسرائيليون يجرون معي التحقيق الأخير في السجن،

سألوني عما سأفعله عندما أخرج؟ لم أتذكر إلا نعمة ومواقفه. قلت : طالما انكم موجودون، طالما انني سأقاومكم من جديد».

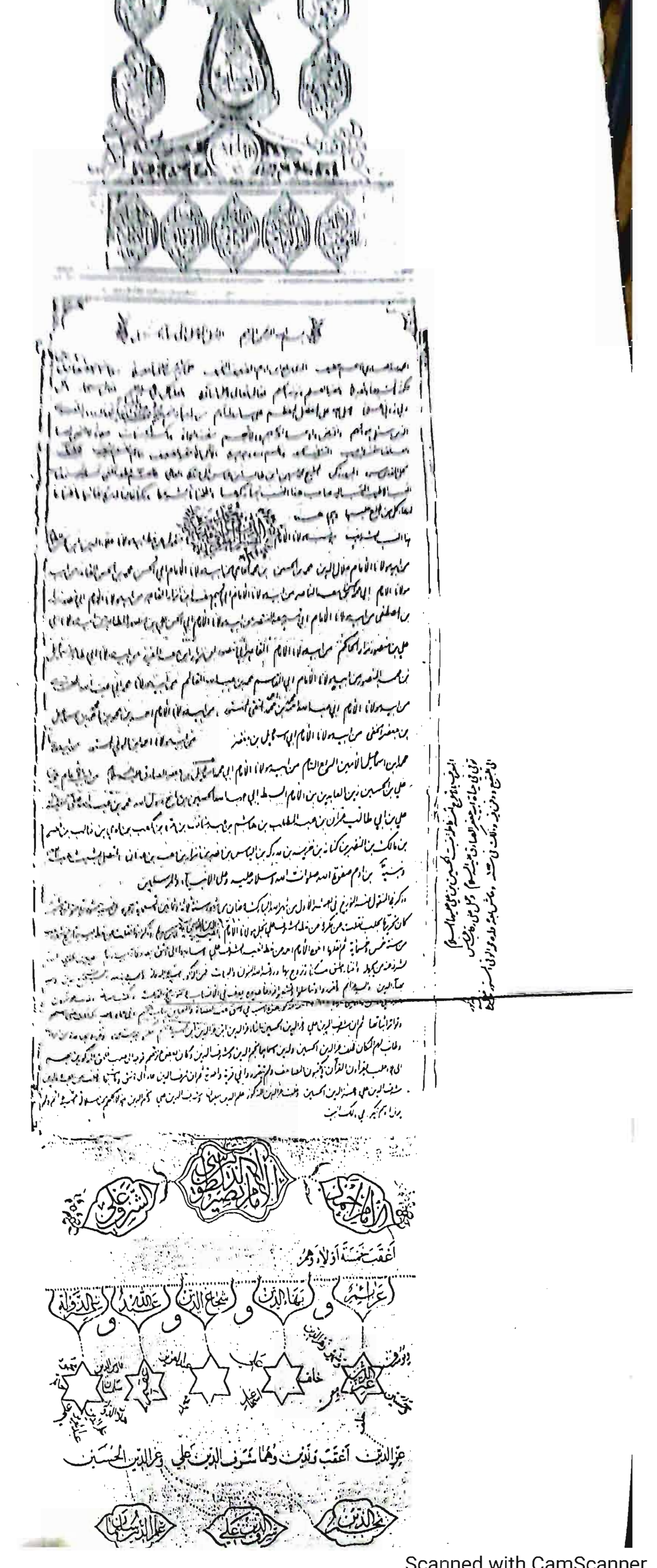
أما الاستاذ محمد محي الدين (أبو فادي) فيرى : إن الكلام بات مستنفدا عن تلك المجزرة خصوصاً أنها تتكرر في لبنان وخارجه. لكن المطلوب أن تبقى تلك المواجهة في الذاكرة عبر إحيائها كل عام بهدف الحفاظ على التعبئة النفسية لأجيالنا كي لا يصدقوا أوهام مشروع السلام الكاذب، وحتى يبقى في بالهم أن اسرائيل سفكت دم أجدادهم وأهلهم ويجب عليهم مقاومتها بشتى الطرق» . .



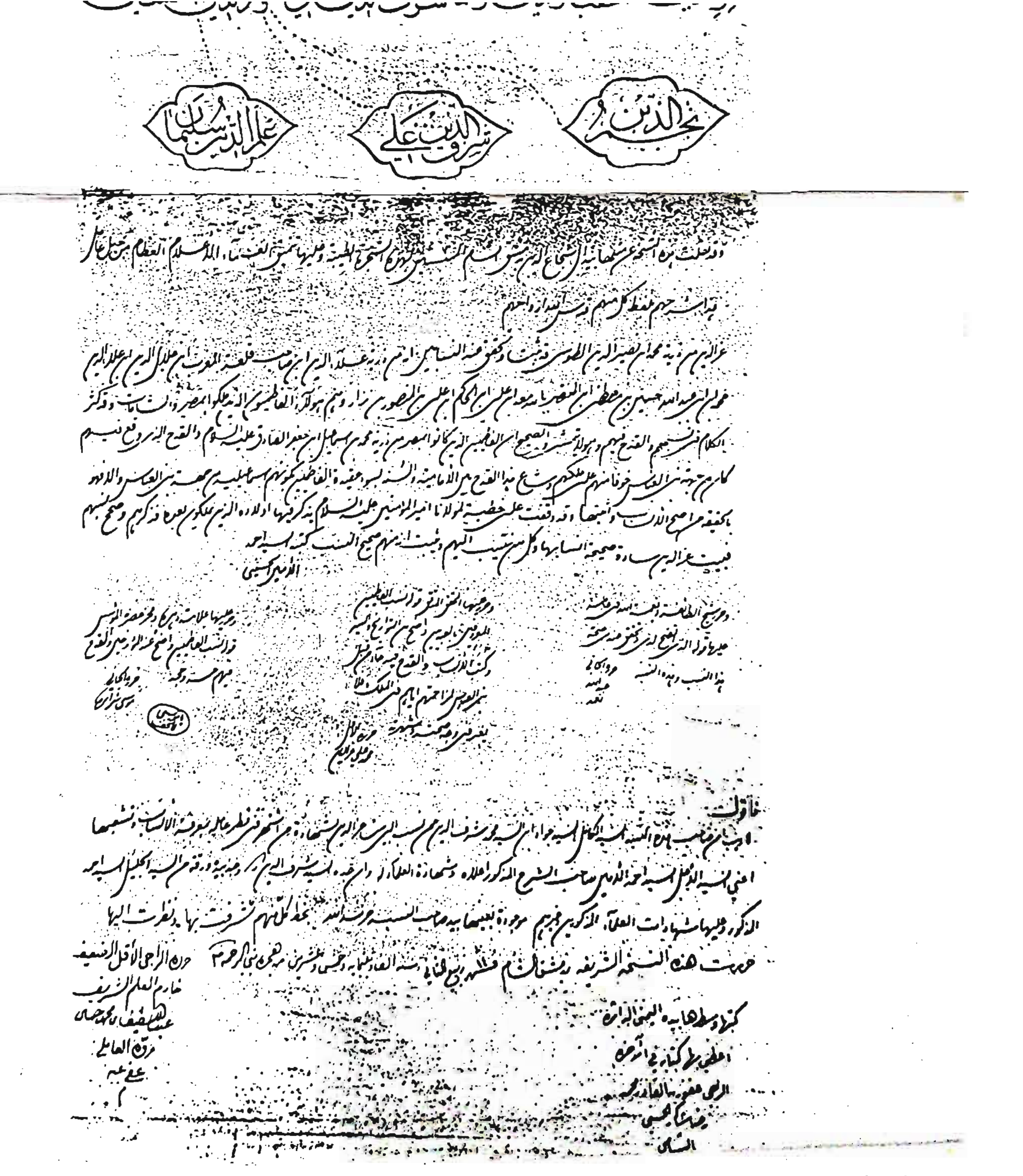
فهرس المحتويات



علي الرضا
علي الهادي
الحسن العسكري



الإمام أحمد
الإمام نصير الدين الطوسي
الشريف علي
أعقب خمسة أولاد وهم
عز الدين
بهاء الدين
شجاع الدين
عبد الله
نجم الدولة
عز الدين أعقب ولدين وهما شرف الدين علي وعز الدين الحسين
نجم الدين
شرف الدين علي
علم الدين سليمان



نجم الدين

شرف الدين علي

علم الدين سليمان

وقد نقلت هذه النسخة عن شهادة الشيخ الدين ... المشهور ... الشجرة الطيبة وعليها ... الأعلام العظام من ...

... كل منهم ... واحدهم

عز الدين من ذرية محمد ابن نصير الدين الطوسي قد ثبت وتحقق عند النسابين انهم ذرية علاء الدين ابن صاحب قلعة ... ابن جلال الدين ابن علاء الدين

محمد ابن عبد الله حسين بن ... ابن المنتصر بالله ... علي ابن الحاكم ابن علي بن المنصور بن نزار ومنهم موالي العلويين الذين ملكوا بمصر ... وقد كثر

الكلام في نسبهم والقدح فيهم ... والصحيح ان الفاطميين الذين كانوا بمصر من ذرية محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق عليه السلام والقدح الذي وقع فيهم

كان من جهة بني العباس خوفا منهم على ملكهم وشاع هذا القدح بين الامامية والسنة لسوء عقيدة الفاطميين لكونهم اسماعيلية من جهة بني العباس والا فهو

بالحقيقة من اصح الانساب ... وقد وقفت على خطبة لمولانا امير المؤمنين عليه السلام يذكر فيها اولاده الذين يملكون بعده فذكرهم وصحح نسبهم

فبيت عز الدين سادة صحيحة انسابها وكل من ينتسب اليهم وثبت انه منهم صحيح النسب كتبه السيد احمد

الأمير الحسيني

فأقول

... صاحب هذه النسخة ... السيد ... شرف الدين ... عز الدين ... الانساب ...

... السيد احمد ... صاحب الشرح المذكور ... وشهادة العلماء ... شرف الدين ... السيد الجليل السيد احمد

المذكور وعليها شهادات العلماء المذكورين ... موجودة بيد صاحب النسبة ... بخط كل منهم ... نظرت اليها

حررت هذه النسخة الشريفة ... سنة ... وخمس وعشرين ...

حرره الراجي الأقل الضعيف

خادم العلم الشريف

عبد اللطيف ... محمد ...

تاريخ الزرارية والبلاد العاملية

يدور هذا الكتاب - كما هو واضح من عنوانه - حول تاريخ الزرارية، مسقط رأس المؤلف، كمركز من مراكز حكم العشائر أيام العثمانيين، ويدور في قسمه الثاني حول تاريخ وجغرافية جبل عامل (الجنوب اللبناني) منذ أقدم العصور، بدءاً بالتسمية والموقع والموقف مروراً بعهود الظلم والاهمال اللذين مارسهما عليه الولاة والحكام الاقطاعيون ايام الحكم العثماني وفي زمن الانتداب الفرنسي.

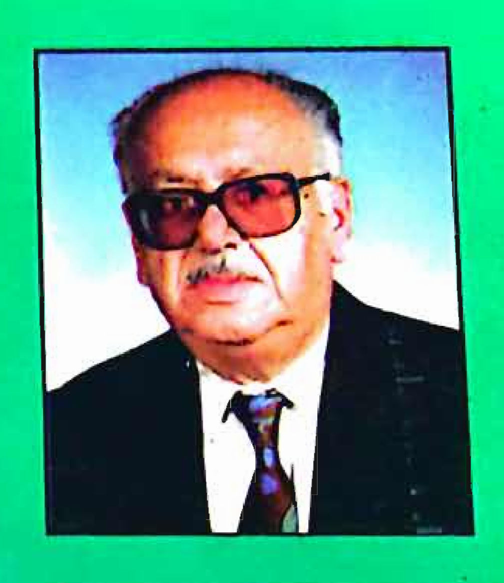
كما يضم الكتاب فصولاً عن : رجال المقاومة من ابناء الزرارية وبطولاتهم والمقاومة الوطنية والهجرتين العامليتين القسريتين، ووشائج القربى والعلاقات الثقافية والتجارية التي تربط الزرارية بكل من : انصار والنبطية وجباع وصيدا وصور، وحديث مفصل عن عائلات الزرارية وأعلامها وآثارهم، ومثقفيها ومغتربيها ونشاطاتهم وخدماتهم.

أما الفولكلور اللبناني والعاملي وفلسفته ومظاهره فقد أفرد له المؤلف حيزاً واسعاً من كتابه وجاء حديثه عن الحِكَم والأمثال والمفردات والمصطلحات التعبيرية الشعبية ليشكل معجماً قائماً بذاته يثبت فيه المؤلف أن اللهجة واللغة العاملية الدارجة هي أقرب اللهجات الى الفصحى، وأقلها عجمة.

ويختتم المؤلف كتابه هذا بنبذة عن الصحابي الكبير أبي ذر الغِفاري كداعية ومرابط، ويحث عن المرأة العاملية في عهود الاضطهاد والتجهيل والأمية ثم خروجها من القمقم وانطلاقتها على دروب النهضة، إلى جانب سرد سريع للمدارس العاملية القديمة وطرق التدريس فيها، وتأثير هذه المدارس في حفظ كيان العامليين وسلامة لغتهم العربية المحكية، ثم دراسة علمية عن نهر الليطاني ومطامع اسرائيل في مياهه، واهمال الدولة له في عهود الاستقلال الاولى.

وسيستنتج القارئ الكريم ان المؤلف لا يؤرخ لبلدته وبلده فحسب بل سيجده يطل من خلال التوثيق التاريخي بكل احاسيسه واشواقه وذكرياته وخصوصياته، معبراً عن كل ذلك بأسلوبه الشاعري المعروف عنه، حتى ليكاد هذا الكتاب ينقلب على يديه : سيرة ذاتية تنضح بالصدقية والعفوية، وتضج بالحياة والمأوية.

الناشر



□ ولد المؤلف عام ١٩٢٤ في الزرارية (جنوب لبنان).

□ يحمل الليسانس في الآداب من الجامعة اليسوعية والماجستير في الفلسفة من الجامعة اللبنانية.

□ من مؤلفاته:

- دراسات في فلسفة ابن رشد وابن خلدون والمعري (مجلد واحد).
- تسعة شعراء قدامى. نقد وتحليل. (ثلاثة مجلدات)

□ من ترجماته عن الفرنسية:

- تاريخ المسرح منذ نشأته حتى اليوم.
- ١٠ مسرحيات ضمن سلسلة : من روائع الأدب الفرنسي الكلاسيكي.
- سدوم وعمورة ومجنونة شايو لجان جيرودو.
- خمس مقدمات لمسرحيات جان انوي وماريفو.

□ من تحقيقاته:

- ديوان عنترة
- جمهرة أشعار العرب للقرشي.
- مقدمتان للعقد الفريد لابن عبد ربه وزهر الآداب للحصري - بالاضافة إلى محاضرات (غير مطبوعة) في الادب العربي المنهجي وتاريخ الفلسفة العربية ألقاها على طلابه في ثانويات صور وصيدا وعدد من المقالات الادبية والنقدية نشرت له في: الاديب، العرفان، المعهد، الألواح، البيان (الكويتية)، امل، العواصف، الأدب الجديد التي ساهم في انشائها وتحريرها مع «اخوان القلم» في أواخر الاربعينات.